مجلد ٦ — عدد ٢١ يونيو ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

محمد عبد الحليم عبد الله

لقيطة

قصة

جائزة فاروق الأول للقصة

من مجمع فؤاد الأول للغة العربية

٢٥٠ صفحة



الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليما

هـ . ج . ولز

طعام الآلهة

وكيف جاء إلى الأرض

تعريب محمد بدران





الثمن ٣٠ قرشاً
البريد ٢٤ مليما

٣٢٠ صفحة

فرنسوا مورياك

والدة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد المجيد عابدين



الثمن ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ مليماً



١٧٥ صفحة

مدرسة الزوجات

يليها

روبير و چنفييف

تأليف أندريه چيد

تعريب صبرى فهمى

فتاة فى نشوة الحب ، ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٣٤ مليما



٣١٢ صفحة

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

مجلد ٦



القاهرة ١٩٤٧

الكاتب المصرى



رجب ١٣٦٦ — يونيو ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٦ — عدد ٢١

ملاحظـــات

ما زال الأدباء الفرنسيون يجادل بعضهم بعضاً ، حول موضوع يراه بعضهم خطيراً ، ويراه أكثرهم لا خطر له ، وهو التزام الأديب حين ينشئ أدبه ، واحتماله تبعة ما يكتب بأوسع معانى هذه الكلمة ، كلمة التبعة ، واتصاله حين يكتب بحقائق الحياة الواقعة التى تحيط به .

وقد عرضت هذا الموضوع عرضاً مفصلا فى هذا المكان نفسه من « الكاتب المصرى » فى أول شهر أغسطس الماضى . وكنت أظن أنها خصومة قد انقضت أو توشك أن تنقضى ، ولكنها فيما يظهر ما تزال قائمة ، وما يزال الكتاب الفرنسيون يبدئون فيها ويعيدون . وصاحب هذا الرأى هو جان بول سارتر أديب « الوجوديين » الفرنسيين فى هذه الأيام ؛ فهو الذى يكتب فى هذا الموضوع فيطيل ، وهو الذى لا يسأم التكرار فى هذه القضية ، حتى كأنه يتحدى خصومه ويريدهم على أن يجادلوه أو يعطوه أيديهم وينزلوا عند رأيه .

وقد استأنف الحديث فى هذه القضية فى مجلته « العصر الحديث » منذ أشهر ، فبدأ فى نشر دراسة مفصلة ، عنوانها « ما الأدب ؟ » وموضوعها الدقيق هو التزام الأديب حين يكتب ، واحتماله تبعة ما يكتب ، ووجوب أن يكون متصلا حين يكتب بما يحيط به من واقع الحياة .

وقد وصل إلىّ أكثر ما كتب فى هذه الدراسة الأخيرة ، وقد نشر فى عددى فبراير ومارس من هذا العام ، وما زالت لهذه الدراسة بقية نشرت فى عدد أبريل الذى لم يصل إلىّ الآن ، ولعلها تجاوزت هذا العدد إلى عدد

مايو أيضاً . وما كان لى أن أعود إلى هذا الحديث لولا أن الدراسة التى ينشرها جان بول سارتر ، قيمة حقا ، فمن النافع أن يلم بها قراء اللغة العربية ؛ ولولا أن فى هذه الدراسة القيمة ملاحظات مختلفة يتصل بعضها بالفن الخالص ويتصل بعضها بالأدب ويتصل بعضها بالفلسفة ، ويمس بعضها ما يكون بين الكاتب وقارئه من صلة ، ومن النافع كذلك أن يظهر قراء العربية على مثل هذه الملاحظات ؛ ولولا أن فى هذه الدراسة القيمة أيضاً أحكاماً يخيل إلىَّ أنها أرسلت إرسالا ، أو أنها نشأت عن التكلف والتحذق والحرص على تحدى الخصوم ، ومن النافع لقراء العربية أن يظهروا على بعض هذه الأحكام ، وأن يحذروا منها ومن أمثالها .

وقد قسم الكاتب دراسته ثلاثة أقسام ، الأول عنوانه : ماذا نكتب ؟ والثانى عنوانه : لماذا نكتب ؟ والثالث عنوانه : لمن نكتب ؟

وقد يكون من الطريف أن يرى القارئ كيف يبدأ جان بول سارتر دراسته عنيفاً متحدياً لخصومه ساخراً منهم غير حافل بهم وغير متردد فى أن يتهمهم بالعناد أو بالغباء . فهو يقول فى أول بحثه : « كتب إلىَّ مغفل يقول : « إذا أردت أن تلتزم فما يمنعك أن تنضم إلى الحزب الشيوعى ؟ » وقال لى كاتب كبير التزم كثيراً ، وتحرر أكثر مما التزم ، ولكنه نسى التزامه وتحرره : «إن أسخف الفنانين أشدهم التزاماً ، وانظر إلى المصورين السوفييتيين » وشكا ناقد شيخ فى هدوء قائلا : « إنك تريد أن تقتل الأدب ؛ فان ازدراء الأدب الرفيع يشيع وقحاً بغيضاً فى مجلتك » . ويصفنى صاحب عقل صغير بأنى قوى العقل ، وهو وصف يرادف عنده الاهانة كل الاهانة . وكاتب آخر يزحف متثاقلا من حرب إلى حرب ويثير اسمه ذكريات متهالكة عند الشيوخ يلومنى لأنى لا أحفل بالخلود ، وهو يعرف والحمد لله كثيراً من كرام الناس يعقدون به أعظم آمالهم . ويرى صحفى أمريكى ضئيل أن خطيئتى ، هى أنى لم أقرأ برجسون ولا فرويد . أما فلوبير الذى لم يلتزم فيظهر أنه يساورنى كأنه الندم . وبعض الماكرين يغمضون عيونهم قائلين : « والشعر ؟ والموسيقى ؟ والتصوير ؟ أتريد أن تلزمها هى أيضاً ؟ » وبعض أصحاب العقول المتهيئة للحرب يقولون : ما القصة ؟ أتريد الأدب الملتزم ؟ فهى إذن طريقة الاشتراكيين المحققين القدماء إلا أن يكون تجديداً عنيفاً للشعبية القديمة .

« ما أكثر الحماقات ! وما أسرع ما يقرأ الناس وما أقل ما يفهمون ! وما أكثر ما يحكمون قبل أن يفهموا ! فلنستأنف الحديث إذن ، وهو حديث لا يسلي أحداً ، ولكن يجب أن نثبت المسمار . »

على هذا النحو العنيف الساخر ، يبدأ جان بول سارتر دراسته . وهو يهاجم النقاد ؛ لأنهم يتحدثون دائماً عن الأدب دون أن يبينوا ما يريدون بهذه الكلمة . وهو يريد أن يعيد تحديد الأدب من جديد على طريقة ديكارت الذى يتخفف قبل كل شيء من أثقال الأوهام والتقاليد ، وما اتفق الناس على تسميته بالحقائق المقررة . وأول هذه الأوهام التي يريد الكاتب أن يتخفف منها قبل أن يعرّف الأدب هو هذا الوهم الذى يدفع كثيراً من الناس إلى إيجاد صلة دقيقة لازمة بين الأدب والفنون الرفيعة . فبعض الأدباء يتحدثون عن الموسيقى والتصوير حين يذكرون أدبهم ، وبعض الموسيقيين والمصورين يذكرون الأدب حين يتحدثون عن موسيقاهم وتصويرهم . وما من شك فى أن هذه الفنون الرفيعة تتشابه من حيث إنها وسائل للتعبير عن إحساس الجمال والشعور به ، ووسائل أيضاً لإشراك غيرك معك فيما تحس من جمال بواسطة تعبيرك عن هذا الاحساس .

ولكن هذا شيء ، والاتصال الدقيق بين هذه الفنون بحيث تصدق عليها كلها أحكام دقيقة مشتركة شيء آخر . فاذا قيل إن الأدب يجب ان يلتزم ، ويحتمل التبعات ويتصل بحقائق الحياة ، فليس معنى هذا أن الفنون الرفيعة الأخرى يجب أن تخضع لهذا الحكم ؛ لأن هذه الفنون الرفيعة الأخرى تغاير الأدب مغايرة جوهرية . فالموسيقى قوامها الأصوات الخالصة ، والتصوير قوامه الألوان ، والأدب قوامه الألفاظ . وهذه المواد متغايرة فى جوهرها ، فيجب أن تتغاير فى آثارها وفيما تخضع له من الأحكام . فالأصوات التى تتألف منها الموسيقى ، والألوان التى تأتلف منها الصورة ، ليست علامات يراد بها شيء آخر غيرها ، وإنما هى أشياء قائمة بنفسها مستغنية بنفسها ، تأتلف فتدل على شيء ؛ أو بعبارة أصح : تأتلف فتنشيء شيئاً هو القطعة الموسيقية أو الصورة ، على حين أن الألفاظ فى نفسها ليست أشياء مستقلة ، وإنما هى علامات يدل بها على أشياء أخرى غيرها . والمصور حين ينشيء صورة بيت حقير لا يدل بصورته هذه على شيء أكثر من البيت الحقير الذى عرضه ، وهو لا يوحى إليك بما قد يكون فى هذا

البيت الحقير من بؤس وضنك وحرمان وعذاب ؛ لأنه لم يرد إلى ذلك، وإنما أراد إلى أن ينشئ بيتاً حقيراً فأنشأه، على حين يدل الكاتب حين يصف هذا البيت الحقير على أكثر من البيت ، يدل على ما يحتويه هذا البيت من آلام وأحزان وحسرات ويأس ، وقد يبلغ بل هو يبلغ بك إلى أبعد من هذا ، فيثير فى نفسك عواطف الاشفاق والرحمة ، أو عواطف الغيظ والغضب . ويثير فى نفسك بعد ذلك الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى، وقد يدفعك إلى محاولة الاصلاح دفعاً .

فالألفاظ إذن وسائل غايتها المعانى التى هى عواطف وأحكام وحقائق خارجية . وليس هناك أمل فى أن تطلب الألفاظ لنفسها أو يعنى بها الانسان من حيث هى ألفاظ ، إلا أن يكون مريضاً أو مجنوناً . وإذن فلا غرابة فى أن يطلب إلى الكاتب أشياء لا تطلب إلى المصور ولا إلى الموسيقى ؛ لأن فن الكاتب مغاير فى مادته وجوهره لفن المصور والموسيقى .

إلى أى حد تستقيم هذه الملاحظة أو يستقيم هذا الحكم المطلق الذى يقرره جان بول سارتر واثقاً به مطمئنا إليه ، مستعلياً به على خصومه ؟ أما أن بين الألفاظ التى يأتلف منها الأدب ، والأصوات والألوان التى يأتلف منها التصوير والموسيقى تغايراً فى المادة ، فشئ ليس فيه شك ولا معنى للمراء فيه . وإنما الذى أشك فيه شكا كثيراً ، هو أن المصور حين يرسم البيت الحقير لا يزيد على أن يرسم بيتاً حقيراً ، ولا يزيد على أن يشعرك بأنه قد أتقن التصوير أو لم يتقنه . وأكبر الظن أن كثيراً من آيات المصورين لا تثير الاعجاب بالجمال وحده ، ولكنها تثير وراء هذا الاعجاب عواطف أخرى قد تغير من اتجاه الانسان فى حياته ، وقد تحوله عن طريق إلى طريق ، وقد تدفعه إلى محاولات عملية تغير من حياته ومن حياة النـاس من حوله ، وأمر الموسيقى كأمر التصوير وغيره من الفنون الرفيعة المختلفة .

وكل ما يمكن أن يسلم للكاتب ، هو أن الأدب أصرح وأفصح وأوضح دلالة من الفنون الأخرى التى تعتمد على الرمز والايماء أكثر مما تعتمد على التعمق والاستقصاء الدقيق . فاذا استباح جان بول سارتر لنفسه أن يلزم الأدب ويحمله التبعات لأنه يعيش فى بيئة فيجب أن يصور هذه البيئة ويصلحها ويحتمل معها تبعاتها ، فقد يجوز أن نطالب المصورين والموسيقيين والمثالين بمثل ما نطالب به الأدباء من الالتزام واحتمال التبعات ، ويخيل إلىّ أنهم

لم ينتظروا أن نطالبهم بهذا الالتزام ؛ فالذين صوروا مشاهد الدين وأقاموا المساجد والكنائس والتماثيل التى تصور هذا الشخص أو ذاك وهذه الفكرة أو تلك ، مهما تكن شخصيتهم وعبقريتهم واستقلالهم ، قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها وأثروا فى هذه البيئة وفى البيئات الأخرى التى عاصرتها أو تبعتها ؛ فهم إذن ملتزمون مشاركون فى احتمال التبعات . وقد يكون الفرق عظيما هائلا بين تصريح الأدب ، وتلميح التصوير ، ولكن الشئ المحقق أن تأثير الفن فى إذكاء العواطف الدينية مثلا ، ليس أقل من تأثير الكلام .

وملاحظة أخرى : يخيل إلىّ أن جان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وهى التى تتصل بالشعر . فهو يريد أن يلزم الشعر كما يلزم النثر . وهو يتوسل إلى ذلك بنفس المنهج الذى أعفى به الفنون الرفيعة الأخرى من الالتزام. وهو يعترف بأن الشعر يأتلف من الألفاظ التى يأتلف منها النثر . ولكنه يرى مصيباً أن نظر الشاعر إلى الألفاظ مخالف أشد المخالفة لنظر الناثر إليها . فالألفاظ عند الناثر وسائل لا أكثر ، وهى عند الشاعر غايات يريد الكاتب بألفاظه أن يؤدى المعانى ، ويريد الشاعر أن يجد فى الألفاظ نفسها جمالا خاصا يستكشفه ويحققه بما يحدث بين هذه الألفاظ من الائتلاف .

ولا يستطيع جان بول سارتر أن يقصر عناية الشاعر على الألفاظ وما يكون من ائتلافها واختلافها ؛ فهناك معان وحقائق يحاول الشاعر أن يدل عليها بشعره ، ولكن هذه المعانى والحقائق ليست هى الأشياء التى يقصد إليها الشاعر مباشرة حين ينظم الشعر ، وإنما هو يجد هذه المعانى فى نفسه ويجد هذه الحقائق فى الخارج ، ويحاول أن يتخذ من الألفاظ رموزاً لها وصوراً تدل عليها من بعيد .

وإذن فلا حرج على الشاعر إذا لم يلتزم ، ولم يحتمل التبعات ، ولم يتصل بحقائق الحياة الواقعة الانسانية متأثراً بها مؤثراً فيها دافعاً إلى تغييرها إن احتاجت إلى التغيير ، وإلى صيانتها إن احتاجت إلى الصيانة والبقاء . وهذا حق فى جملته ، ولكن جان بول سارتر إنما يتحدث عن الشعر المعاصر عند بعض الأوربيين ، أو عن بعض المذاهب لبعض الشعراء المعاصرين . وأمامه مشكلة خطيرة لم يحلها ، بل لم يحاول أن يحلها ، بل لم يشر إليها من قريب أو بعيد ، وهى أن الانسانية المثقفة تكلمت شعراً قبل أن تتكلم نثراً ، وأدت بالشعر أغراض الحضارة كلها فى وقت من الأوقات . فقد كان الشعراء إذن

يلتزمون ويحتملون التبعات ، يتأثرون بالحياة الواقعة ، ويؤثرون فيها إلى حد أن كان الشعر بالقياس إلى الانسانية القديمة مصدراً خطيراً من مصادر التاريخ . ومن أسخف السخف أن يقال إن شعراء الالياذة والأودسة والشعراء الغنائيين والممثلين عند اليونان والرومان وفى العصر الحديث ، لم يكونوا يلتزمون ولم يكونوا يقصدون إلى المعانى فى أنفسها ، ولم يكونوا يتخذون الألفاظ وسائل إلى هذه المعانى .

وهناك حقيقة أدبية أخرى لم يلتفت إليها جان بول سارتر مريداً أو غير مريد ألا يلتفت إليها ، وهى أن الكتاب الناثرين قد يذهبون مذهب الشعراء . فيعنون بالألفاظ فى أنفسها ويتخذونها غاية فنية ، ومظهراً من مظاهر الجمال ، ووسيلة إلى إثارة الاعجاب والبهجة اللذين يثيرهما الشعر . وسواء أكان هذا الفن النثرى مشروعاً كما يقول أصحاب القانون ، أم غير مشروع ، فانه موجود وموجود فى الآداب الكبرى كلها قديمها وحديثها . والباحث المنصف يجب عليه أن يأخذ الظواهر كما يجدها لا كما يريد أن تكون . ومن الظواهر الأدبية الواقعة المحققة أن الشعراء قد يقصدون إلى المعانى ويتخذون الألفاظ وسائل إليها ، وأن الكتاب قد يعنون بالألفاظ ويتخذونها فى أنفسها مادة للفن .

فاذا كان الالتزام واحتمال التبعات منوطاً باعتبار الألفاظ وسائل والمعانى غايات ، فأصحاب المعانى من الشعراء والكتاب سواء فى الالتزام ، وأصحاب الألفاظ من الشعراء والكتاب سواء فى التحرر من هذا الالتزام . والنتيجة البسيطة الواضحة التى ننتهى إليها ، هو أن كاتبنا الوجودى العظيم قد يكون موفقاً فى الفلسفة ، وإن كان الفلاسفة لا يعترفون له بهذا التوفيق ، ولكن المحقق أنه ليس موفقاً فى الأدب ، وأن أحكامه على الشعر والنثر والفنون الرفيعة حين تتصل بقضية الالتزام هذه تقوم على التحكم أكثر مما تقوم على أى شئ آخر .

وقد رأيت أن المصورين والمثالين والبنائين والموسيقيين يمكن ان يلتزموا ويحتملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات ، وأن الشعراء يمكن أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات قبل أن يوجد النثر ، وبعد أن وجد النثر ، وفى العصر الذى نعيش فيه ، وفى البيئة التى يعيش فيها جان بول سارتر نفسه .

فشعراء المقاومة الفرنسية قد التزموا بشعرهم وعرّضوا أنفسهم بهذا الشعر لأخطار هائلة ، فاحتملوا من التبعات المعنوية والمادية ما يعرفه جان بول سارتر حق المعرفة . ولست أدرى أيكون هؤلاء الشعراء منتمين إلى أحزابهم السياسية اليسارية لأنهم التزموا بشعرهم ففرض عليهم هذا الشعر أن يكونوا يساريين ، أم يكون هؤلاء الشعراء شعراء ملتزمين محتملين للتبعات لأنهم يساريون دفعتهم تبعات أحزابهم إلى أن يقولوا ما قالوا من الشعر . ولكنى حسن الظن بالانسانية ، وبالانسانية المثقفة الممتازة . وأنا أرى من أجل ذلك أن أراجون مثلا شيوعى ، لأن شعره دفعه إلى الشيوعية ، لا أنه شاعر لأن شيوعيته دفعته إلى الشعر أو فرضت عليه الشعر فرضاً .

فالفن الرفيع سواء أكان أدباً منثوراً أو منظوماً أم شيئاً آخر غير الأدب أوسع جوًّا من هذه الأغراض الضئيلة التى يختصم حولها الناس . فأراجون مثلا له شعره السياسى ، ولكن له أيضا شعره الخالص الذى لا يتصل بالسياسة من قريب أو بعيد ، ولا يمس الاصلاح الاجتماعى أو النظام السياسى . وهو ملتزم دائماً ملتزم حين يمس السياسة والاجتماع أمام الفن أولا وأمام الجماعة ثانياً ، وملتزم حين لا يمس السياسة ولا الاجتماع أمام الفن نفسه . وحسبك بالفن محاسباً عسيراً يعرف كيف يأخذ الفنانين بما يجب أن يحتملوا من التبعات .

وملاحظة أخرى لجان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وإنما وفق فيها لسخرية ظريفة طريفة لعلها أن تعفيه من تبعات الخطأ الذى تورط فيه ؛ فهو قد عرض للنقد والنقاد عرضاً رائعاً حقا ، ولكنه بعيد عن الانصاف أيضاً . وأكبر الظن أن مصدر جوره على النقاد أنهم لا يرفقون به ولا يرقون له ولا يعطفون عليه . فهو يزعم أن النقاد إنما يعنون بالموت أكثر مما يعنون بالحياة ، وبالأموات أكثر مما يعنون بالأحياء . وهو يصور لنا الناقد ضيقاً بامرأته التى تعنف به ، وبأبنائه الذين يثقلون عليه هارباً منهم إلى خزانة كتبه حيث يعاشر الموتى من الكتاب ، يفزع إلى معاشرتهم ويأنس بهذه المعاشرة ويستعين بها على كسب القوت حين ينقضى الشهر . وهذا فى نفسه كلام ظريف قد تكون له روعته وجماله ؛ ولكنه فى حقيقة الأمر كلام فارغ لا يدل على شىء . فسواء أراد جان بول سارتر أم لم يرد ، فقدماء الكتاب والشعراء والفلاسفة قد ماتت أجسامهم ، ولكن نثرهم وشعرهم وفلسفتهم لم تمت . والنقاد

يعيشون على هذه الآثار الخالدة الحية كما يعيش عليها جان بول سارتر نفسه . وهو فى هذه الدراسة نفسها يذكر كانت وهيجل وقد ماتا منذ زمن طويل ، ولكن فلسفتهما ما زالت حية تغذوه هو وتغذو غيره من الوجوديين، كما تغذو النقاد الذين لا يحبهم جان بول سارتر ، لأنهم لا يحبونه ولا يهدون إليه الثناء . ومن أسخف السخف أن يقول قائل إن معاشرة أفلاطون وسيسيرون والجاحظ وفولتير ، إنما هى حياة مع الموتى و إقامة بين القبور . فإن هذا الكلام إن دل على شئ فإنما يدل على الحنق والغيظ والغرور . وأكبر الظن أن جان بول سارتر لم يرد به إلا إلى أن يغيظ النقاد ويحفظهم ويسخر منهم شفاء لبعض ما فى صدره من موجدة .

على أن من الحق أن جان بول سارتر قد أتيح له التوفيق حين عرض للقسم الثانى من دراسته ، وهو « لماذا نكتب » ، و إن كان يغلو فيما يقرر فى هذا القسم من الأحكام كما يغلو فى أكثر أحكامه . فهو مثلا لا يؤمن بأن الكاتب قد يكتب لنفسه لا للناس . ومن المحقق أن الكاتب يكتب للناس ، ولكن من المحقق أيضاً أن كثيراً من الكتاب والشعراء يخدعون أنفسهم أو يخدعون عن أنفسهم فيعتقدون مخلصين أنهم لا يكتبون لأحد غير أنفسهم ، وأنهم لم يريدوا أن يذيعوا ما كتبوا ، و إنما أكرهوا على ذلك إكراهاً : أكرههم على ذلك أصدقاؤهم والمعجبون بهم ، واختلست منهم آثارهم اختلاساً ، فنشرت على غير رضًا منهم ، وأذيعت على غير رغبة منهم فى أن تذاع . ولست أدرى أين قرأت أن بول فاليرى أنشأ مقبرته البحرية ، وجعل يعيد النظر فيها وقتاً طويلا مغيراً ومبدلا ، يحذف من هنا ويضيف إلى هناك ، حتى زاره جاك ريفيير ، فاختطف القصيدة منه اختطافاً ، وكان هذا أول إذاعتها .

وما أشك فى أن الكتاب والشعراء والفنانين يخدعون أنفسهم ، ولكنى لا أشك فى أنهم كثيراً ما يخلصون فى هذا الخداع أو الانخداع . ومن الناس من لا يكره إطالة النظر فى المرآة ، ومنهم من لا يكره إطالة العكوف على نفسه والانحناء على أعماقها . فليس ما يمنع أن يكتب بعض الكتاب ليتخفف مما يثقله من الخواطر والآراء ، ثم يجد اللذة فى أن ينظر فيما كتب مصلحاً له يلتمس الكمال ، أو محدقاً فيه كما يحدق فى المرآة .

ولكن أكثر الكتاب والشعراء والفنانين ينتجون للناس قبل أن ينتجوا لأنفسهم ، أو قل مع جان بول سارتر إنهم ينتجون لأنفسهم وللناس . فالانتاج الأدبي عندهم مشاركة متصلة بين الكاتب والقارئ ، أو بين المنتج والمستهلك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد .

ولكن لماذا يكتب الكاتب ؟ ولماذا يقرأ القارئ ؟ وما عسى أن تكون القوانين التي تنظم الصلة بين القارئ والكاتب ، أو التي تصف هذه الصلة وصفاً دقيقاً وتصورها تصويراً صادقاً كما تصف قوانين العلم ظواهر الحياة ؟ يلاحظ جان بول سارتر أمرين يدفعان الكاتب إلى أن يكتب ، بل يدفعان الفنان إلى أن ينتج على اختلاف الفنون : أحدهما أن الفنان يريد أن يشعر نفسه بأنه كائن أساسي في هذا العالم الذي يعيش فيه . فحقائق الحياة وحقائق الطبيعة موجودة سواء أعرفها الانسان أم لم يعرفها . ولكن وجودها إغراق في النوم ، وإغراق في النوم العميق السخيف ، إلى أن يظهر عليها الانسان فيعطيها معنى ويرسم لها أغراضاً وغايات . فالزهرة الجميلة زهرة ما لا قيمة لها ولا لجمالها إلا أن تعرف وتقوّم ويصور جمالها . والانسان هو الذي يستطيع أن يعرفها وأن يقوّمها وأن يخلع عليها هذا الجمال . وهو لا يخلع عليها جمالها الموضوعي الذي لا قيمة له في نفسه ، وإنما يخلع عليها جمالا ذاتياً ينشئه هو في نفسه إنشاء ويضفيه على الزهرة إضفاء . فلون الزهرة وتكوينها وائتلاف أوراقها على نحو ما من الائتلاف ، كل هذه أشياء يعللها علم النبات تعليله الموضوعي الخالص الذي لا يثير إعجاباً ولا شعوراً بالجمال ، وإنما يحقق معرفة . والفنان هو الذي يجد في هذا اللون ، وفي هذا التكوين ، وفي هذا النوع من ائتلاف الأوراق ، شيئاً آخر غير التعليل الموضوعي العلمي يخلعه عليها من جهة ، ثم يسترده منها من جهة أخرى فينشئ بينها وبينه صلة هي الحركة الأولى من حركات الفن . وقل مثل ذلك في الشجرة القائمة على شاطئ النهر ومن حولها الشجيرات والأزهار ، والعشب قد انبسط على الأرض ، والطير قد استقرت على الغصون مترجحة متغنية ، على ما في هذا المنظر أو المناظر كلها من اختلاف وائتلاف ؛ فهي في نفسها ليست شيئاً إذا لم يعرفها الانسان ، وهي في نفسها إذا عرفها الانسان ليست شيئاً جميلا إذا لم ينظر إليها إلا هذه النظرة الموضوعية التي ترد الظواهر إلى أصولها وأسبابها ، ولكنها تصبح شيئاً ذا خطر ،

تصبح شيئاً يعنى الفن حين ينظر إليها الانسان نظرته الذاتية، فيجد فيها ما يثير عواطفه المختلفة وأهواءه المتباينة.

فالانسان إذن حريص على أن يزيل عن الكائنات ما يحجبها عن نفسه وقلبه وعقله وضميره. فحركته الفنية الأولى هي التجريد أو التعرية أو إزالة الحجب ورفع الأستار، وهو إنما يصنع هذا لأنه يريد أو لأنه يشعر بالحاجة الملحة إلى أن يرى نفسه كائناً أساسيا لا يستغنى عنه العالم لتظهر دقائقه وتتجلى أسراره.

الأمر الثانى حاجة الانسان بطبعه إلى ان يشرك نظراءه فيما يجد من حس وشعور، وما يستكشف من فكرة ورأى. فهو لا يجرد الكائنات لنفسه وحدها، وإنما يريد أن يحس غيره مثل ما يحس، وأن يرى غيره مثل ما يرى. وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل الفن. فالانسان يكتب لأنه يريد أن يجرد العالم، ولأنه يريد أن يشرك غيره فى النظر إلى هذا العالم المجرد العريان.

وتجريد الانسان للعالم عمل حر يأتيه الانسان عن إرادة وعمد، وإشراك النظراء فى النظر إلى هذا العالم المجرد عمل حر أيضاً يأتيه الانسان عن إرادة وعمد؛ فالانتاج الأدبى، فى رأى جان بول سارتر، مظهر من مظاهر الحرية، أما القارئ فهو يستجيب لدعاء الكاتب؛ لأن كتابة الكاتب ليست إلا دعاء إنه يحس ويشعر، ويدعو غيره إلى أن يشاركه فى الحس والشعور.

وهنا يلح جان بول سارتر فيما قدمت الاعتراض عليه من أن الكاتب لا يكتب لنفسه. ذلك أنه حين يكتب لا يرى ما يكتبه إلا شيئاً فشيئاً بمقدار ما تتصور كلماته فى الصحف؛ فهو لا يتنبأ بآخر ما يكتب، وإنما يسعى إليه سعياً قد تصوره جملة قبل أن يكتب أو لم يتصوره، ولكنه على كل حال يجد لذة هى لذة الكتابة لا لذة القراءة. وهو من أجل هذا يشعر بأن عمله ناقص لا يتم ولا ينتهى إلى غايته إلا إذا أعانه القارئ على إتمامه والوصول به إلى غايته. فاذا استجاب القارى للكاتب تم عمله، وإذا لم يستجب له ظل هذا العمل ناقصاً مبتوراً.

والقارئ لا يستجيب للكاتب مكرهاً، وإنما يستجيب له حرًّا مريداً عامداً إلى هذه الاستجابة. والقارئ لا ينشئ عملا مستقلا عن الكاتب، فلولا الكاتب ما قرأ القارئ؛ فهو إذن يعاون الكاتب ويتممه بأدق معانى

كلمة المعاونة والاتمام . ذلك أن الكاتب لا يودع الصحف كل ما فى نفسه لأنه لا يستطيع ذلك ولا يريده ، وإنما هو يرسم ما فى نفسه رسماً تخطيطيا يرشد به القارئ إلى أن يملأ ما بين الخطوط . فالقارئ إذن ليس قابلا فحسب ، ولكنه قابل من جهة وفاعل من جهة أخرى ، أمره فى ذلك كأمر الكاتب بالضبط ؛ لأن الكاتب قابل حين يتأثر بالعالم الخارجى . وفاعل حين يعيد إنشاء هذا العالم الخارجى . والقارئ متأثر حين يتلقى الرسم التخطيطى الذى دعاه الكاتب إلى النظر فيه ، وهو منشئ حين يملأ ما بين الخطوط ، ويتم ما بدأ الكاتب من الرسم والانشاء .

وإذن فالأدب حرية كله ، حرية حين ينشئه الكاتب ، وحرية حين يتم القارئ إنشاءه . وهذه الحرية الفاعلة تتخذ الانفعال وسيلة إلى الفعل ، وتتخذ التأثر والخضوع وسيلة إلى الانشاء والتأثير . فالكاتب متأثر ، وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره ، والقارئ متأثر وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره أيضاً .

وأنا معتذر إلى القارئ العربى مما قد يكون فى هذا الكلام من الغموض ، ومن ترديد ألفاظ بعينها أكثر مما ينبغى . ولكنى أحب أن يلاحظ القارئ أنى ألخص له دراسة لجان بول سارتر أديب الوجوديين الفرنسيين ، وصاحب كتاب « الكون والعدم » .

وهناك شئ لم يقف عنده جان بول سارتر ، مع أنه خليق بالعناية ، وهو أن الكاتب واحد ، وأن قراءه كثيرون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً فى الأمزجة والطباع والاستعداد والذوق والثقافة ، وينشأ من ذلك اختلافهم فى تقدير الأشياء والحكم عليها . وهؤلاء القراء يعاصرون الكاتب دائماً ، وقد يعيشون بعده أزماناً تقصر وتطول بمقدار ما يقدر لأثره من البقاء ، وهم يختلفون حين يعاصرونه ، ويختلفون بعد أن يموت . وكلما أتيح للأثر الفنى الخلود عظم حظه من اختلاف القراء بالتأثر والحكم والتقدير .

وإذن فالكاتب لا ينشئ أثراً واحداً حين يؤلف كتاباً واحداً وإنما ينشئ آثاراً لا تحصى ، أو قل آثاراً بمقدار ما يتاح له من القراء . وواضح جدا أن قصة من قصص شكسبير تترك فى نفوس القراء آثاراً تتفق فى جملتها ولكنها تختلف فى تفصيلها اختلافاً لا سبيل إلى ضبطه . وواضح جدا أن هذا التمثال اليونانى قد ترك فى نفوس اليونان أنفسهم آثاراً متباينة ، وترك فى نفوس

المحدثين آثاراً تختلف باختلاف القرون . فالكاتب إذن ينشئ ولكنه يدعو الآجيال المختلفة إلى الانشاء . ومن هنا تظهر قيمة الالتزام الذى يدعو إليه جان بول سارتر . فيجب على الكاتب أن يقدرعمله ونتائجه ، وأن يحتمل تبعات هذا العمل وهذه النتائج . والكاتب مدفوع إلى الكتابة بحريته التى تدفعه إلى شئ من الكرم والجود والتنزه عن الأثرة والبخل . والقارئ مدفوع إلى القراءة لحاجته إلى أن يتلقى أولاً و إلى أن يعطى ثانياً . و إذن فالتبعة الأدبية ليست مقصورة على الكاتب وحده ، ولكنها شركة بينه وبين قرائه . وهنا يصل جان بول سارتر إلى نتيجة لا تخلو من روعة ، وهى أن الأدب مادام مصدره الحرية والإيثار واحتمال التبعات ، فلا يمكن أن يكون شرا ولا أن يدعو إلى الشر مهما تكن مادته وموضوعه . ذلك أن الحرية خير ، والايثار خير وما يصدر عن الخير يجب أن يكون خيراً آخر الأمر . فما يسميه الغربيون أدباً أسود لاحظ له فى حقيقة الأمر من السواد ؛ لأن منتج هذا الأدب إنما رأى شراً فأراد إصلاحه ، وقارئ هذا الأدب إنما رأى ابتداء الاصلاح فأراد إتمامه .

ونتيجة أخرى لا تخلو من روعة يصل إليها جان بول سارتر ، وهو أن الأدب حر فلا يمكن أن يتجه إلى العبيد . وآية ذلك أن القارئ لا يقرأ إلا عن حرية . و إذا ذكرنا القارئ الحر فانما نريد القارئ بأدق معانى هذه الكلمة ، القارئ الذى يتعمد القراءة ويتعمد الفهم ، ويتعمد إذاعة ماقرأ وما فهم . ومن هنا يقول جان بول سارتر إن الديمقراطية هى أشد النظم ملاءمة للأدب .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً ، ولكن بشرط أن نتوسع فى معنى الديمقراطية شيئاً ما ، وأن نتجاوز بها حدودها السياسية التى ترسم لها فى كتب السياسة والقانون . فقد كان عصر بيركليس ديمقراطيا، ولكن عصر أغسطس والرشيد ولويس الرابع عشر لم تكن عصوراً ديمقراطية وقد ازدهر فيها الأدب ازدهاراً عظيما . وربما كانت كلمة الحرية هنا أشد ملاءمة من كلمة الديمقراطية . فهؤلاء الملوك المتسلطون المستبدون كانوا يتسلطون ويستبدون فى حدود لا يكادون يتجاوزونها ، وكانوا يتركون للعقول والقلوب والألسنة حرية لعلها لا تقل عما تستمتع به الآن . والفكرة التى يرمى إليها جان بول سارتر هى أن الأدب والدكتاتورية لا يتفقان ؛ لأن الدكتاتورية لا تعرف حدوداً للتسلط والاستبداد ،

وإنما تتدخل فى كل شىء ، وتفرض نفسها على كل شىء، وتريد أن تنظم كل شىء ، فتهدر بذلك حرية الأفراد والجماعات إهداراً .

وبعد فكل هذه الخصائص التى صورها جان بول سارتر للإنتاج الأدبى والتى يبين لنا بها لماذا نكتب ، ليست مقصورة على النثر من دون الشعر ، وليست مقصورة على الأدب من دون الفنون الرفيعة كلها ، وإنما هى شائعة بين هذه الفنون جميعاً . فاذا كان من شأنها أن تفرض على الكتاب أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، فمن شأنها أن تفرض على الشعراء والموسيقيين والمصورين والمثالين وغيرهم من أصحاب الفن الرفيع كائناً مايكون الفن ، أن يلتزموا ويحتملوا التبعات .

وربما كان وجه الحق فى هذه القضية هو أن لكل شىء موضعه، وأن كل صاحب فن ملتزم محتمل تبعاته أمام الفن أولا ، وأمام الذوق العام ثانياً ، ثم أمام طوائف بعينها من الناس إذا كان من شأن موضوعه أن يلزمه ويحمله التبعات أمام هذه الطوائف من الناس . فالأديب الذى يعرض للسياسة ملتزم أمام فنه الأدبى وأمام مذهبه السياسى . وقل مثل ذلك فى الأديب الذى يعرض لشؤون الاجتماع . ولم يحظر أحد على أديب ولا على صاحب فن أن يعالج من الموضوعات مالا يلزمه إلا أمام الفن والذوق وحدهما .

وقد أعود إلى هذا الموضوع بعد أن أتم قراءة ما كتب جان بول سارتر عن القسم الثالث من دراسته ، وهو : « لمن نكتب ؟ »

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

مصر والسودان

إنا لنظلم التاريخ والجغرافيا معاً إذا نحن حسبنا إفريقية بين قارات العالم القديم وقد ظلت فيها مساحات مجهولة وبقاع غير مأهولة وفياف مظلمة لم يكشف عنها التاريخ ولم يعرفها الانسان المتحضر إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أى بعد كشف أمريكا بثلاثة قرون ونصف قرن وبعد كشف أستراليا بقرنين. ويحق لمصر الحديثة أن تفاخر بما ساهمت من نصيب فى سبيل كشف مجاهل إفريقية وتمدينها فى القرن التاسع عشر. فقد أدى فتح السودان فى عهد محمد على الكبير سنة ١٨٢٢ إلى إرسال بعثات علمية تشبها بحملة بونابرت على مصر للبحث عن المعادن والكشف عن منابع النيل. وقد وصل البكباشى سليم أحد ضباط محمد على البحريين فى ثلاث رحلات قام بها بين سنة ١٨٣٨ وسنة ١٨٤٢ إلى خط عرض ٥ شمالى خط الاستواء قرب غندكرو فى وقت كانت فيه منابع النيل وروافده لا تزال من الأحاجى والطلاسم التى تحاك حولها الأساطير والخرافات. وتعتبر التقارير والأرصاد الجوية التى أعدها البكباشى المصرى من المستندات العلمية الأولى التى كتبت بشأن مجاهل إفريقية.

ثم انبرى لكشف القارة المظلمة فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر رجال كبار النفوس أقوياء العزائم وقفوا أنفسهم لخدمة العلم والدين والانسانية ؛ فقام سبيك وجرانت البريطانيان فكشفا بحيرة فكتوريا سنة ١٨٦٢ وجاء بعدهما صموئيل بيكر واستانلى وغيرهما وكشفوا باقى البحيرات الكبرى وأجزاء النيل العليا.

وفى ذلك الوقت الذى أصبح فيه اسم إفريقية كالهند وأمريكا فى القرن السادس عشر يرحل إليها الكاشفون والمستعمرون من جميع أنحاء العالم المتمدن اعتلى إسماعيل عرش مصر، فاضطلعت مصر فى سبيل فتح إفريقية

وتمدين السودان بدور هو أعظم ما قامت به دولة فى هـذا السبيـل فى التاريخ الحديث .

فقد حدثت عوامل فى عهد الخديو إسماعيل جعلته يهتم بشؤون السودان ووسط إفريقية أكبر اهتمام ؛ إذ فتحت قناة السويس للملاحة فى سنة ١٨٦٩ ، فعادت إلى مصر أهميتها التجارية من حيث هى أهم وأقصر طريق بين الشرق والغرب ، بل صارت فى هذا الشأن أعظم مما كانت فى أى عصر مضى . وليس من شك فى أن سيادة مصر على الطريق إلى الشرق ومرور خطوط الملاحة فى المياه والموانى المصرية وكشف منابع النيل وسهولة الاتصال بين البحر المتوسط وقلب إفريقية عن طريق النيل ، كل أولئك كانت عوامل قوية من شأنها أن تدفع الخديو إسماعيل إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة توطيد سلطان مصر فى وادى النيل وعلى سواحل البحر الأحمر ، و إدخال المبادئ الأولى للمدنية الحديثة فى البلاد التى يخترقها نهر النيل وروافده . و إذا كانت مصر لم تستطع فى الماضى القريب أن تحتفظ بسوريا وبلاد العرب فى عهد محمد على بسبب تدخل الدول ، فقد كان أمامها فى السهول والهضاب التى تكتنف وادى النيل مجال بكر للفتح والتمدين والإصلاح . وقد كتب السفير الانجليزى فى فينا مرة إلى المعتمد الانجليزى بالقاهرة حين اجتمعت الدول على معارضة سياسة محمد على نحو تركيا يقول له : « إذا كان حقا أن غاية مايرمى إليه محمد على من سياسة إنما هى تثبيت عرش أسرته ودعم ملكه ، فليس ثمة مجال أكثر ملاءمة له من قارة إفريقية ؛ فهناك تنقلب أوربا صديقة له ، وتستطيع حينئذ أن تعاهده على عدم المساس بسلامة ممتلكاته فيها . »

وقد استطاع الخديو إسماعيل فى أقل من عشر سنوات أن يمد سلطان مصر جنوبىَ خط الاستواء فى أوغندة وغرباً فى إقليم بحر الغزال ودارفور وشرقاً إلى بربر وهرر على خليج عدن و إلى قسمايو على المحيط الهندى . أما زيلع فكان سلطان تركيا قد نزل عنها للخديو فى سنة ١٨٧٥ مقابل إتاوة سنوية . وكذلك كانت مصوع وسواكن تحت حكم الخديو بمقتضى فرمان بتاريخ ١٨٦٥ مقابل إتاوة أخرى .

وقد كانت الحكومة التى أسسها إسماعيل لادارة شؤون السودان من القوة والمهابة بحيث كان النظام والأمن سائدين فى جميع الأرجاء ، حتى كان

السياح يجوبون البلاد وهم آمنون كأنهم فى نزهة خلوية . قال المستكشف الألمانى شوينفورت Schweinfurth فى تقرير له : « إن القوة والنفوذ اللذين كانا لمصر من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ على أراضى النيل الأعلى الشاسعة لم يتمتع بمثلهما أعظم الأمم استعماراً فى التاريخ ، أعنى الانجليز والبرتغاليين وقد كان الأمن فى تلك الربوع السحيقة مستتباً بدرجة ليس لها شبيه من قبل ولا من بعد . »

ولكنها — وا أسفا — كانت وثبة فى الظلام ، وثبة فى القارة المظلمة ! فلم يمض إلا القليل حتى أحست مصر أنها مسوقة إلى الهاوية ، واضطرت إلى إخلاء بلاد بذلت فيها كثيراً من جهدها ومالها ودماء رجالها .

وذلك أنه لما اضطرمت الثورة العرابية فى مصر سنة ١٨٨٢ أغفلت الحكومة المصرية أمر الثورة المهدية فى السودان ، واضطرت إلى الاحتفاظ بمعظم قواتها الحربية لمواجهة الخطر الذى يهدد البلاد حينذاك . ولما انتهت الثورة فى مصر بالاخفاق أصدر الخديو توفيق مرسوماً بتسريح الجيش المصرى كله . وبدأ أولو الأمر ينشئون جيشاً مصريا على نمط جديد . وفى تلك الأثناء استفحل أمر الثوار فى السودان وتوالت انتصاراتهم على قوات الحكومة ، فأخذوا يفكرون جديا فى إخلاء السودان .

ومع أن الحكومة المصرية والرأى العام فى مصر والخارج كان يميل إلى ضرورة إنقاذ السودان من آثار الفوضى والهمجية التى توشك أن تقضى على على نتائج الجهود التى بذلها الخديو إسماعيل وأعوانه فى بذر بذور المدنية ونشر لواء الأمن والسلام فى ربوعه — فقد كانت بريطانيا مصممة على ضرورة الاخلاء . وأرسل لورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا خطابه الشهير فى يناير سنة ١٨٨٤ إلى معتمد الحكومة الانجليزية فى مصر ، وفيه يقول : « يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو إدارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة مادام الاحتلال المؤقت (كذا) مستمرا . وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح وإلا أقيلوا من وظائفهم . » حينئذ لم يسع شريف باشا رئيس الوزراء وقتئذ إلا أن يستقيل محتجاً وتألفت وزارة نوبار باشا وقبلت تنفيذ سياسة الاخلاء مضطرة ، وعين غردون باشا لتحقيق هذا الغرض . ولكن المهديين مالبثوا أن ضيقوا الخناق على غردون ومن معه

من المصريين وحاصروهم حصاراً انتهى فى يناير سنة ١٨٨٥ بسقوط الخرطوم وقتل غردون . وعلى ذلك ترك السودان « يسوى فى مرقه على مهل » . وقد ظل نفوذ الثوار سائداً فى السودان ثلاثة عشر عاماً ، وشمل سلطانهم جميع أرجاء السودان عدا إقليم واحد هو مديرية خط الاستواء، وكان حاكمها الدكتور شنتزلر الألمانى الذى اعتنق الاسلام وأصبح اسمه أمين باشا .

ولما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها فى السودان نشأت نظرية خاطئة نادت بها بعض الدول ، وهى أن السودان بعد أن تخلت عنه مصر صار نهباً لمن سبق . وفات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها السودان مؤقتاً لم تتخل عن أى حق فيه ، وأن هذه الحقوق قد كسبتها إما بحق الكشف والتمدين وإما عن طريق الوراثة من تركيا، وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ الذى منحه السلطان للخديو إسماعيل على أن يحكم الخديو جميع ملحقات مصر فى إفريقية بحق الوراثة فى ذريته للأكبر فالأكبر من أبنائه . غير أن ساسة بعض الدول رأوا أن الفرصة سانحة لإشباع بطونهم من تلك اللقمة الدسمة التى تخلت عنها مصر مؤقتاً، فبدءوا يوزعون أطرافها فيما بينهم باذن وعلم من الدولة المحتلة .

أما مصر صاحبة الدار فقد وقفت بعد الاحتلال الانجليزى مكتوفة اليدين مسلوبة الارادة ، ترى الملك الواسع الذى أنشأته فى قلب إفريقية بجهدها ومالها ودماء أبنائها ينهار وتسوده الفوضى ، ثم يتكالب عليه الطامعون من كل حدب وهى لاتستطيع لهم دفعاً ولا ردا ، حتى إذا تهيأت لها ظروف العمل من جديد واستطاعت بمالها ورجالها أيضاً أن تقضى على بقايا الثورة المهدية فى البلاد كان الانجليز إلى جانبها هم المسيطرين الحاكمين ، وانقلبت الأوضاع فصار صاحب الحق تابعاً وأصبح الدخلاء المساعدون أصلاء متبوعين .

ومع أن إعادة فتح السودان قد ردت الحق إلى صاحبه شراعا وقانوناً فان الانجليز أبوا إلا إنكار الاعادة حتى لاتنفرد مصر بحقها ، واعتبروا قمع الثورة فتحاً جديداً للسودان اشتقوا منه شبه حق للاشتراك مع مصر فى إدارته والتشريع له ، ولكنهم لم يجرءوا مع ذلك على الزعم بأن لهم فيه نصيباً من السيادة ويكفى أن نقرأ مقدمة المعاهدة الثنائية لنتبين منها حرص إنجلترا على تفادى ذكر السيادة فى السودان ، إذ جاء فيها : « وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين

اللازمة لها . . . وحيث إنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح ، وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى السالف الذكر ، وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل . . . » وأنى يكون للإنجليز ظل من السيادة ومصر نفسها صاحبة الحق الشرعى والتى باسمها وباسم خديويها وتحت ظلال علمها سارت الحملة لاستخلاص البلاد من فوضى الثائرين كانت هى نفسها محسوبة داخل نطاق الدولة العثمانية وتحت سيادة السلطان !

لذلك ما كادت الحملة تزحف جنوباً وتكسب معركة أم درمان فى ساعات معدودة من يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ حتى بدأ الانجليز ينفذون الخطة السياسية التى أحكموا تدبيرها ورسموا خطوطها الكبرى من قبل .

وكان الانجليز يعلمون حق العلم أن دول أوربا لم تعد تكترث بشأن السودان بعد أن ثبتت أقدام الانجليز فى مصر ، وأن سلطان تركيا لم يكن يهمه من أمر مصر أو السودان أكثر من أن يرسل احتجاجه إلى الدولة المعتدية فى الوقت المناسب ، ويردد فى احتجاجه ماسبق أن أعلنته الدول فى مؤتمراتها بشأن سلامة أملاك الدولة العثمانية ، وأن فرنسا بعد هزيمتها أمام ألمانيا وامتلاء صدرها حقداً عليها لا تقدر على معاداه بريطانيا أو تصبر طويلا على هجرها ، لاسيما أنه لم يكن لديها من القوة مايجعل لإرادتها وزناً يذكر فى الميزان الدولى . لذلك سارت انجلترا فى سياستها نحو السودان على نهج بعد فريداً من نوعه فى السياسة الدولية . فقد بيتت النية من أول الأمر على ألا تعود مصر وحدها إلى حكم السودان ، حتى لا يتاح لمصر أن تتسع بين تلك الحدود المترامية من البحر المتوسط إلى منابع النيل جنوبى خط الاستواء حيث يتقدم الاستعمار البريطانى حثيثاً من جنوب إفريقية وشرقها ليتصل بوادى النيل ومنه إلى القناه ، وهى المحور الذى تدور حوله جميع الخطط الاستعمارية والدفاعية حتى ذلك الوقت . ثم رأينا الانجليز يزهدون فى ضم السودان إلى أملاكهم ، لا احتراماً لصاحب الحق الشرعى أو مراعاة للعرف الدولى أو برًّا بوعودهم المتكررة بالجلاء عن مصر وبالتالى عن أملاكها ، بل خدمة لمصالحهم الخاصة وصوناً لماء وجوههم أمام الدول ، وأهم من ذلك كله رغبتهم فى التهرب من النفقات الباهظة التى كان يقتضيها إحياء أراضى السودان الشاسعة وتمدين

شعبه وصيانة حدوده . لذلك قرروا أول ماقرروا أن يرفعوا العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى ، وأن تضطلع الحكومة المصرية بنفقات القوات التى سترابط فى السودان مادامت هذه القوات مصرية ، ثم دفع الفرق المالى الذى ينجم حتما عن زيادة المنصرف على الايراد فى بلاد كالسودان ظلت مغمورة فى لجى من الظلام والفوضى والجهل فترة طويلة . ثم استأثر الانجليز بالوظائف الكبرى وتركوا للمصريين الوظائف الصغرى ، وجعلوا كتشنر سردار الجيش المصرى هو الحاكم العام الأول على السودان ، وقلدوه من السلطات مارفعه هو ومن جاء بعده إلى مصاف الدكتاتوريين فى العالم . وقد أرادوا أن يضفوا على خطتهم مظهراً قانونيا يكسبها شيئاً من القوة أمام الدول والأجيال المقبلة، فأعدوا اتفاقاً وقعه فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وزير الخارجية المصرية والمعتمد البريطانى فى مصر . ومع أن مصر حتى قبل الاحتلال البريطانى لم يكن لها بمقتضى الفرمانات السلطانية أن تبرم معاهدات سياسية مع الدول الأجنبية ، فان انجلترا ارتضت لنفسها أن تعقد ذلك الاتفاق دون أى اكتراث بالقواعد الدولية أو بحقوق الدول الأخرى . ولم تكتف فى الاتفاق باهمال ذكر تركيا صاحبة السيادة الاسمية إذ ذاك، بل نصت أيضاً على أن معاهدات الامتيازات التى كانت لمعظم الدول فى أملاك الدولة لاتسرى على السودان ، كما نصت على عدم قبول قناصل أو ممثلين للدول فى السودان ، مالم تكن براءاتهم قد صدرت من لدن الحكومة الانجليزية . ولم يكن الغرض البعيد من ذلك كله سوى فسح المجال أمام الانجليز للعمل فى السودان بعيدين عن أية رقابة ، كأنهم هم وحدهم أصحاب البلاد .

على أن الاتفاق كانت تعوزه أركان التكافؤ الدولى بين المتعاقدين . وأول هذه الأركان أن يكون المتعاقدان مستقلين وأن يكون لهما الحق والحرية الكاملة فى التصرف فى موضوع التعاقد . ولم يكن لمصر من هذا شئ حين عقدت الاتفاق مع الحكومة الانجليزية وخاصة بعد أن احتلتها القوات البريطانية . يضاف إلى ذلك أن الفرمانات الممنوحة للخديو لم تكن لتخوله حق عقد المحالفات السياسية ، بل كانت تحرم عليه قطعاً التصرف فى مصاير الأقاليم التى آل إليه حكمها .

ومع هذا كله قد صدر اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ ونفذته بريطانيا

روحاً ونصاً إلى أبعد مدى ممكن ، حتى لم يعد فيه مكان للمشاركة المصرية اللهم إلا فى رفع العلم المصرى وبقاء السيادة الاسمية التى ظلت مثار النزاع بين مصر و بريطانيا إلى الآن .

وقد نص الاتفاق فى المادة الأولى منه على أن السودان يتكون من جميع الأراضى الواقعة جنوبى خط عرض ٢٢ شمالا ويشمل الأراضى التى لم تنجل عنها القوات المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، والأراضى التابعة لمصر والتى أخلتها مؤقتاً فى أعقاب الثورة المهدية ثم استردتها أخيراً القوات المصرية الانجليزية ، ثم الأراضى التى قد تسترد فى المستقبل بالطريقة نفسها .

ونص فى المادة الثانية على رفع العلمين المصرى والبريطانى جنباً إلى جنب فى جميع أرجاء السودان ماعدا سواكن . وعلة هذا الاستثناء أن سواكن لما كانت واقعة على البحر الأحمر فان القوات المهدية لم تستطع إخضاعها فى فترة الثورة ، ولذلك رئى فى أول الأمر إبقاء سواكن وحدها يظلها العلم المصرى وحده وتسرى فيها الامتيازات للأجانب .

ويظهر أن الحكومة الانجليزية أرادت أن تدمغ الواجهة البحرية للسودان بالطابع المصرى وحده ، حتى لاتجرؤ الدول الأخرى على غزو السودان والافتئات على حقوق الخديو . ثم لم تلبث الحكومة الانجليزية أن عدلت عن هذه الفكرة وأدخلت سواكن فى نطاق السودان بمقتضى اتفاق ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ وقد جاء فى مادته الوحيدة : « تعتبر ملغاة من الآن النصوص الواردة فى وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التى كانت بموجبها مدينة سواكن مستثناة من أحكام النظام الذى تقرر فى ذلك الوفاق لادارة السودان فى المستقبل . »

ونص فى المادة الثالثة من اتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ على تعيين الحاكم العام بمقتضى مرسوم يصدره الخديو باقتراح من الحكومة البريطانية . وقد جمع الحاكم العام فى يده جميع السلطات الادارية والتشريعية المدنية منها والعسكرية . ولم يكن عليه من الالتزامات سوى قيد واحد هو إخطار المعتمد البريطانى ورئيس الوزارة فى مصر بالقرارات التى يصدرها . ومقابل ذلك لم تعد القوانين والتشريعات التى تصدرها الحكومة المصرية تسرى على السودان إلا إذا وافق عليها الحاكم العام .وقضت المادة الثانية بعدم امتداد

سلطة المحاكم المختلطة على أى جهة من جهات السودان . كما نصت المادة التاسعة على بقاء الأحكام العرفية سارية فى السودان إلى أن تصدر أوامر أخرى . وقد رأت إنجلترا أن ترضى الدول من الوجهة التجارية بعد أن خيبت آمالها سياسيا فقررت فى المادة السادسة من الاتفاق « أن حرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول » .

وعلى هذا الأساس استندت الحكومة الانجليزية فى إقامة الحكم الثنائى فى السودان شكلا ؛ فكان الغنم كله لانجلترا والغرم على مصر . وقد ذكر لورد كرومر فى كتابه عن مصر الحديثة أن تكاليف الحملات الحربية على السودان بلغت ٢٫٣٥٤٫٠٠٠ جنيه مصرى لم تتحمل منه بريطانيا الا مبلغ ٨٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى . وهذا المبلغ نفسه لم تدفعه الحكومة الانجليزية إلا نكاية بالدول التى اعترضت على حق مصر فى اقتراض مبلغ ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، فلما سحبتها مصر غير آبهة باعتراض فرنسا وروسيا قاضاها صندوق الدين أمام المحاكم المختلطة وحكمت المحكمة على الحكومة المصرية فتقدمت الحكومة الانجليزية بالمبلغ المذكور ثم نزلت عنه لمصر بعد النصر .

وفى العام الأول من الحكم الثنائى لم يزد إيراد الحكومة على ٣٩٫٥٠٠ جنيه فى حين كان المنصرف ٣٠٦٫٧٥٠ جنيه ، فكان على الحكومة المصرية أن تسدد العجز . واستمرت مصر توازن الميزانية بدفع الاعانات السنوية حتى بعد إخراج الجيش المصرى من السودان فى سنة ١٩٢٤ وظل الحال على ذلك حتى قرر البرلمان المصرى فى سنة ١٩٣٧ ، خفض الاعانة من ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه إلى ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه مدة سنة وبعدها تخفض إلى ربع مليون جنيه لسنة أخرى ثم يوقف صرفها بتاتاً ابتداء من سنة ١٩٣٩ ، على أن تسوى الديون التى لمصر بعد ذلك على أقساط سنوية .

على أن إنجلترا لم تكتف بالمساعدات المالية التى كانت مصر تقدمها للسودان ، فانها ما كادت تفرغ من حرب البوير فى جنوب إفريقية فى سنة ١٩٠٢ حتى بدأت تعد العدة لوضع مشروعاتها الكبرى للرى وللمواصلات حتى يمكن أن يعود عليها استعمار السودان بالفوائد الاقتصادية التى كانت تتطلع إليها.

ولكنها سارت فى خطتها بحذر وبطء ، فلم تبهظ مالية السودان باعتمادات لاتقوى على احتمالها، وجعلت تعتمد على مصر تارة وعلى البرلمان الانجليزى والشركات الانجليزية تارة أخرى ، حتى تم للسودان من الأشغال العامة ماجعل إيراد الحكومة يقفز من ١٢٦٫٥٩٦ جنيه فى سنة ١٨٩٩ إلى ٥٫٩٢٩٫٩٤٤ جنيه فى ١٩٢٧ مقابل ٢٣٠٫٢٣٨ جنيه و ٥٫٥٠٠٫٤٨٩ جنيه للمنصرف على التوالى . وجعل عدد السكان يزيد من ١٫٨٥٣٫٠٠٠ نفس عقب الثورة المهدية — وكان عددهم أكثر من ثمانية ملايين قبل الثورة — إلى ستة ملايين فى سنة ١٩٢٦ وهو الآن أكثر من ستة ملايين ونصف مليون .

وكأنما حسدت انجلترا مصر على مشروعات الرى الكبرى التى تمت فيها فى أوائل القرن العشرين على أثر إنشاء خزان أسوان وقناطر أسيوط وزفتى ، فجعلت تخص السودان بمشروعات لم يكن كل الغرض منها زيادة العمران فى السودان ، بل كان من أغراضها البعيدة المرمى الاستغناء بالسودان عن مصر عند الحاجة والتفريق بين مصر والسودان ، حتى لاتقوى مع الزمن فكرة الاندماج التى تنادى بها مصر ، ثم إبقاء بعض مفاتيح الرى المصرى فى يد السودان ، حتى إذا جاء اليوم القريب الذى تستقل فيه مصر استقلالا تاما عن إنجلترا وجدت نفسها لا تزال مرتبطة بها ارتباطاً مائيا فى السودان وكأنما قد أصبح السودان بلداً غريباً عن مصر .

وتنفيذاً لتلك الخطة أنشأت الحملة المصرية الانجليزية وهى تزحف جنوباً فى طريقها إلى قمع الثورة ، وأنشئت السكة الحديدية بين وادى حلفا و بربر ومنها إلى الخرطوم . وقد وصل الخط إلى سنار فى سنة ١٩٠٩ و إلى الأبيض فى سنة ١٩١٢ ، وأنشئ على ساحل البحر الأحمر شمالى سواكن ميناء جديد فى سنة ١٩٠٥ سمى بور سودان ، وقد وصل بينها وبين سواكن الخط الحديدى الممتد من بربر فى سنة ١٩٠٦ ومنه اتصلت كسلا والقضارف ، وبذلك ارتبطت أجزاء السودان المتباعدة وازداد العمران ونشطت التجارة بوساطة طرق جديدة لا تمر كلها بمصر .

ولما كانت موارد السودان المهمة فى أول الأمر مقصورة على الصمغ العربى وسن الفيل وريش النعام ، وكلها سلع تانوية كمالية لاتفيد منها المصانع الانجليزية إلا بقدر ضئيل ولا يمكن الاعتماد عليها فى تنمية إيراد الدولة ، فكرت

الحكومة الانجليزية فى مشروع اقتصادى على درجة عظيمة من الخطورة . فقد رأت أن تحول أرض الجزيرة الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق والتى تبلغ مساحتها خمسة مليون فدان منها نحو مليونين أو أكثر صالحة للزراعة إلى أراض يمكن ريها واستنبات القطن فيها واقترضت قروضاً كبيرة بضمان الحكومة لسد نفقات إنشاء قناطر سنار وخزان مكوار على النيل الأزرق وحفر شبكة الترع اللازمة للمشروع . وتكونت فى سنة ١٩٢٦ شركة المزارع السودانية **Sudan Plantation Syndicate** لتنفيذ المشروع فكان على الحكومة أن تتحمل نفقات التأجير والرى والبحوث العلمية ، وعلى الشركة الرقابة الفنية وحلج القطن وتصديره ، وفى مقابل ذلك تستولى الحكومة على ٤٠ فى المائة من المتحصل ويخص الشركة ٢٠ فى المائة ، ويخصم من الباقى نفقات الحلج والتصدير ... الخ ، ومايتبقى بعد ذلك فللمزارعين ولهم إلى ذلك الانتفاع بالمحصولات الأخرى وأهمها الذرة . وقد بلغت المساحة المنزرعة قطناً ٢٠٠ر٠٠٠ فدان . وليس من شك فى أن المشروع قد زاد فى إيراد الحكومة والشعب زيادة عظيمة ، ولكن يؤخذ عليه ان الشركة التى تقوم بادارته أجنبية غريبة عن بيئة البلاد واقتصادياتها ، وأن المزارعين والفلاحين رغم مكاسبهم مسخرون فيه لمصلحة الحكومة والشركة وأصحاب الأسهم . يضاف إلى ذلك إهمال تربية الماشية فى المشروع وتقلبات أسعار القطن وقلة تدريب الأهالى على حاجات الزراعة والرى الصناعى . ولذلك لم يدهشنا أن نقرأ أخيراً أن الحكومة قررت عدم تجديد الامتياز بعد انتهائه فى سنة ١٩٥٠ .

على أن هذه المشروعات كما أتت ببعض الخير لأهل السودان قد نبهت المصريين كذلك إلى الخطر الذى قد يحيق بهم إذا استغلها الأجنبى ضد مصلحة مصر . ولذلك نشطت الحكومة المصرية إلى درء الخطر عن البلاد بتعلية خزان أسوان و إنشاء قناطر إسنا ونجع حمادى، حتى لا تتعرض أراضى الصعيد العليا للاقفار والجدب . ثم سارعت فى الوقت نفسه إلى درس موضوع الرقابة على مياه النيل دراسة مائية علمية ، واستطلعت فى ذلك آراء خبراء المهندسين المائيين فى العالم ، وكان أول ماقر عليه الرأى إنشاء خزان جبل الأولياء لمنفعة مصر خاصة . وهناك مشروعات مائية كبيرة اقترحها الخبراء مثل إنشاء

خزان بحيرة تانا فى أثيوبيا وخزان بحيرة البرت فى أوغندة وجميعها مشروعات على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لمواجهة الزيادة المطردة فى عدد سكان الوادى ولزيادة العمران فى السودان وسيقتضى تنفيذها رءوس أموال طائلة وهى قد لاتثمر الثمرة المطلوبة إلا بعد انقضاء وقت طويل . وهناك فوق النفقات المالية الاتفاقات الدولية التى يجب أن تتم قبل الشروع فى إنجازها فبعض هذه المشروعات كما رأينا واقع فى الحبشة وبعضها فى أوغندة . ومن ذلك يتضح أن موضوع توزيع مياه النيل والسيطرة عليها من أهم المسائل التى يتطلب حلها النهائى جلاء المحتلين عن الوادى أولاً؛ ثم الاتفاق بشأنها أمام الهيئة الدولية المختصة حتى تكون أحكامها ملزمة للجميع ، على أن مشاكل الحكومة الانجليزية لم تنشأ فى السودان إلا بعد الحرب العالمية الأولى وقد سرت إلى البلاد موجة من الحماسة الوطنية التى اجتاحت جميع البلاد المغلوبة على أمرها فى أعقاب الحرب ، على أثر ذيوع المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ولسون واعترافه للشعوب بحق تقرير المصير . فقد قامت فى مصر حركة سنة ١٩١٩ وانتقلت منها بطبيعة الحال إلى الضباط والموظفين والمواطنين المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، ومنهم إلى الشبيبة السودانية المتعلمة. ولكن نظام الحكم العرفى الذى أقامه الانجليز فى البلاد لم يدع مجالا لأية حركة وطنية فى البلاد ، اللهم إلا ثورة على بن دينار سلطان دارفور وكان قد اتفق فى أثناء الحرب مع السنوسيين الذين هاجموا مصر سنة ١٩١٦ من ناحية حدودها الغربية، وانتهى أمره بالاخفاق وذهاب سلطانه .

ولما اضطرت انجلترا إلى إلغاء الحماية الانجليزية والاعتراف باستقلال مصر فى سنة ١٩٢٢ كانت مسألة السودان من النقط الأربع التى احتفظت بها إنجلترا. وكان المصريون قد تنبهوا فى ثورتهم إلى خطورة مسألة السودان بالقياس إلى مستقبل البلاد الاقتصادى والاجتماعى ، فجعلت مصر تطالب باسترداد حقوقها فى السودان كاملة ، حتى أصبح السودان الصخرة التى تصدعت عليها جهود مصر فى مفاوضاتها مع بريطانيا بشأن الاستقلال . وكان إخفاق المفاوضات التى قام بها سعد زغلول فى سنة ١٩٢٤ مع حكومة العمال الأولى فى إنجلترا أول نذير رسمى بسوء نية الحكومات الانجليزية على اختلاف ألوانها بشأن السودان . وعلى ذلك لم تكد تمضى أسابيع قليلة على عودة سعد من إنجلترا

حتى اغتيل فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ سير لى استاك باشا سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان . وكان جواب لورد اللنبي المعتمد الانجليزى على ذلك أنه استغل الفرصة لتحقيق مآرب إنجلترا فى السودان ضد مصر ، بابعاد الجيش المصرى عن السودان ، وتحويل الفرق السودانية إلى نواة لقوة سودانية مستقلة لا يقسم أفرادها يمين الولاء والطاعة لمليك البلاد بل يقسمونها للحاكم العام ، ثم الاستغناء عن الموظفين المصريين فى حكومة السودان ، وأخيراً تهديد مصر بألا تقف حكومة السودان عند حد الـ ...ر..٣ فدان فى رى أرض الجزيرة . وقد حاول المصريون ومعهم بعض الفرق السودانية أن يحولوا بالقوة دون تنفيذ قرار الاخلاء ، ولكنهم استجابوا فى النهاية إلى نداء ملك مصر وأذعنوا للأمر الواقع . وقد كان لقرار اللنبي بشأن رى أراضى الجزيرة دون أى اعتبار لحاجة مصر أو لأى وازع إنسانى وقع مخجل فى نفوس العالم المتمدن كله ؛ فقد كان ذلك إحدى العقوبات التى وقعتها الحكومة الانجليزية على مصر أخذاً بثأر السردار المقتول ، وبه كشفت انجلترا الغطاء عن مرامى السياسة الانجليزية من حيث السيطرة على مياه النيل فى السودان ووضع مصر تحت رحمتها إذا أرادت . لذلك عجلت إنجلترا بمحو أثر ذلك القرار الجائر ، فقبلت استقالة لورد اللنبي سنة ١٩٢٥ ، ثم شفعت ذلك بابرام اتفاق مع مصر خاص بمياه النيل فى سنة ١٩٢٩ ، وفحواه تعاون مصلحتى الرى فى مصر والسودان ، والتعهد بعدم قيام حكومة السودان بأعمال فى الرى قد تضر مصلحة مصر ، ثم إنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم ، على أن يكون الخزان لتوفية حاجات مصر خاصة .

ولما عصفت بأوربا جائحة الفاشية والنازية فى سنة ١٩٣٥ واستطاعت إيطاليا أن تتحدى بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم فتهاجم أثيوبيا وترسل إليها جيوشها ومعداتها وطائراتها وغازاتها السامة ثم تستولى عليها ظلماً وعدواناً وتضمها إلى التاج الايطالى — سارعت بريطانيا إلى تحصين مراكزها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ،فعقدت اتفاقاتها مع تركيا وسائر دول البلقان، ثم اتجهت نحو مصر وكانت تعلم خطورة موقعها بالنسبة إلى قوات إيطاليا؛ إذ كانت إيطاليا تستطيع فى وقت

الحرب أن تهاجمها من ناحية حدودها الغربية ، ومن ناحية السودان عن طريق اريترية والحبشة . ولذلك عجلت فى هذه المرة بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر . وكان أخطر ماجاء فى هذه المعاهدة خاصا بالسودان ؛ فانه بالرغم من ضعف معاهدة سنة ١٨٩٩ من الوجهة الدولية والقانونية واحتفاظ مصر بحقوقها كاملة إزاء السودان نصت معاهدة سنة ١٩٣٦ على سريان معاهدة سنة ١٨٩٩ فكان ذلك شبه إقرار من مصر بالمعاهدة ، على أن المفاوض المصرى قد احتاط للأمر فجعل الاعتراف بالمعاهدة مرتبطاً بالنص على ضرورة تعديلها .

فقد جاء فى المادة الحادية عشرة من المعاهدة المذكورة :

« مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ، ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى الاتفاقيتين .

« والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودان .

« وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بالسيادة على السودان » .

وظاهر من هذا النص المبهم أن يكون حق مصر فى السيادة فوق كل مظنة إرضاء للشعور المصرى . وقد نصت هذه المادة على أن الحاكم العام يختار عند التعين فى الوظائف الجديدة المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين إذا لم يتوافر السودانيون الأكفاء ، كما نصت على وجود الجنود المصريين بالسودان إلى جانب الجنود البريطانيين للدفاع عن السودان ، وعلى ألا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين فى شؤون التجارة والملكية والمهاجرة ، وجعلت هجرة المصريين خالية من كل قيد إلا ما يتعلق بالصحة والنظام العام .

وتنفيذاً للمعاهدة عينت مصر خبيراً اقتصاديا بالسودان كما عين الحاكم العام سكرتيراً حربيا له من ضباط الجيش المصرى ، وعاد إلى الخرطوم فريق من الجيش المصرى ، واتخذت الاجراءات لانجاز خزان جبل الأولياء فى سنة ١٩٣٧ وأنشأت الحكومة المصرية مدرسة ثانوية بالخرطوم سنة ١٩٤٣ ، كما أنشأت

بعض مدارس أولية فى المناطق التى يكثر فيها الموظفون والعمال المصريون . وجاءت الحرب العالمية الثانية فنشطت بطبيعة الحال حركة الاتصال بين مصر والسودان واشتركت قوات الدفاع السودانية فى الجيش الذى ألفه الحلفاء لغزو إيطاليا فى شرق إفريقية ، وكانوا قد نفذوا إلى شرق السودان واحتلوا كسلا فى سنة ١٩٤٠ . فتحركت قوة من الخرطوم فى أوائل سنة ١٩٤١ وهاجمت إريترية وتحركت قوة من الجنوب قاصدة الصومال الايطالى،وتقابلت القوتان فى أثيوبيا حيث قضوا على النفوذ الايطالى نهائيا فى شرق إفريقية فى نهاية سنة ١٩٤١ ، وبذلك استطاع الحلفاء أن يكسروا الفك الجنوبى من كماشة المحور كما كسروا فى السنة التالية فكها الشمالى فى موقعة العلمين الشهيرة .

وكان جزاء السودانيين على ما أظهروه من البسالة والولاء فى أثناء الحرب أن قرر الحاكم العام فى سنة ١٩٤٣ شطر بلادهم شطرين يفصل بينهما خط عرض ١٢ درجة شمالا ، ويشمل الجزء الشمالى السكان والقبائل التى تدين بالاسلام وتتكلم اللغة العربية ، وهى فى ثقافتها ومدنيتها تمتاز على القبائل البدائية التى تسكن فى الجنوب وتفصلها عن الشمال المستنقعات والأعشاب التى تكثر فى تلك الأرجاء . وأنشأ الحاكم العام للقسم الشمالى مجلساً استشاريا عماده ثمانية عشر عضواً سودانيا تنتخبهم مجالس المديريات الستة الشمالية . أما المديريتان الجنوبيتان وهما مديرية خط الاستواء ومديرية أعالى النيل فلم تمثلا . وقد أثار هذا التقسيم العرفى سخطاً عاما فى مصر والسودان ؛ لأنه دل على نيات الحكومة الانجليزية ورغبتها فى عدم تمكين المصريين وإخوانهم السودانيين الشماليين من اختراق الستار الكثيف الذى يخفى وراءه جموع القبائل البدائية وما قد تكنه أراضيهم من ثروة للستقبل .

وقد كان هذا التقسيم مع ما صاحبه بعد انتهاء الحرب من الاستغناء عن قاضى قضاة السودان المصرى وإعلان الحاكم العام عزم الحكومة الانجليزية على بقاء الحالة الحاضرة فى السودان ، وتخويل السودانيين الحرية التامة فيما يتعلق بتقرير مصيرهم فى المستقبل مع عدم إحداث تغييرات تذكر فى حالة السودان السياسية رغم تنبه الوعى القومى فى البلاد وظهور أحزاب قوية تضم الطبقات المثقفة فى البلاد وتهدف إلى جلاء المحتلين وتحقيق الوحدة مع مصر — كان ذلك كله من العوامل التى جعلت مصر تتمسك فى مفاوضاتها مع انجلترا

أولاً ثم فى قضيتها التى ستعرضها على هيئة الأمم المتحدة بحقها الأزلى فى تكوين وحدة دائمة بين الشعبين المصرى والسودانى . وإن الروابط الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التى تجمع بين أهل الوادى كله لتنادى بأن مصر وحدها هى الأداة الدائمة الصالحة لعمران البلاد على مر السنين . أما شركاؤنا السابقون فكفاهم ما أفادوه فى أثناء قيام الشركة بيننا . أما وقد رفعت القوامة على الشريك القاصر وصار من الحتم تصفية حسابنا وشركتنا ، فان من حقنا عليهم أن نطالبهم بأن يخلوا الدار جميعها أسفلها وعاليها وأصحاب الدار أولى بما فيها .

محمد رفعت

شيخ الخفر . . .

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها فى ضيعة ضئيلة الشأن ، تكاد تنتهى بها تخوم العمران . . .

كانت الحياة فى هذه الضيعة تجرى على الأساليب العتيقة فى الفلاحة والادارة ، بيد أنها مع ذلك كانت قنوعاً بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان .

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلوها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج مودة و إيلاف . فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام . . .

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، فحل من قومه محل الأب من بنيه ، يضمر لهم الحنان والمرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم فى عدل و إنصاف . . .

وهو على الرغم من علو سنه جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز فى مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة . . .

فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته فى أمره ونهيه .

نهض الناظر بواجب منصبه معولا على نفسه ، غير مفتقر إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ، فاذا رغب فى عون دعا إليه ارتجالا بعض الرفاق ، فيبتدرونه ويعينونه فى غير كلفة ولا تعقيد . . . ومن ثم كان فى غنية عن موظفين تناط بهم أعمال .

وما كان الناظر بغافل عما تستمتع به الضيعة من هناءة ، فكان يزهى بذلك بين الحين والحين ، و يردد كلمته الخالدة :

— كل شئ يجرى بالبركة !

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة فى شيوع الأمن واستتباب السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة فى عهد ذلك الناظر المبارك .

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه فى ذهلة ووجوم ، ولكنها استلهمت فى رزئها الكبير إيمانها العميق ، وودعت بموت هذا الناظر عهداً مذكوراً بالخير ، وتطلعت إلى عهد جديد لا تدرى مصيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال دوام !

وصبحاً هبط الضيعة شاب فى ميعة الصبا ، يرتدى الحلة الافرنجية ، ويحمل على رأسه القبعة المجنحة . . . فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع الهامة ، مزهو الخطا ، مدلا بما يتميز به عن هؤلاء الناس من كسب العلم والتحضر ، وفى يده سوط صغير يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال . . .

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد !

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم ، يتفحصونه فى دهشة وعجب . . . ليس عهدهم بعيداً بناظر ضيعتهم الراحل . . . ولقد استقر فى أذهانهم أن الناظر لا بد أن يكون على غراره : شيخ أشيب ، يعتم على لبدة ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر . . . فما بال هذا الفتى الأمرد يدَّعى ما ليس له بأهل ؟

وفرقع الناظر الجديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :

— أين حضرة المعاون ؟

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . . .

فاستأنف الناظر صيحته النكراء قائلا :

— أقول لكم أين حضرة المعاون.؟

فتعالى همس القوم فى حيرة وتعجب . . .

وبعد لأى برز من بين الصفوف شيخ يخب فى زعبوطه ، ورأسه يتطامن تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المتغضن يقول :

— ليس لدينا معاون !

فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :

— ماذا تقول ؟ أضيعة بلا معاون ؟

فأجابه الشيخ ركين اللهجة :

— عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب !

فارتقعت جعجعة الشاب وهو يقهقه ، وفرقع ثانية بسوطه ، قائلا :

— علىّ بأمين المخازن . . .

فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه ، قائلا :

— وهذا أيضاً لا وجود له !

— أتزعمون أنكم لا تعرفون رجلا له هذا اللقب أيضاً ؟

— صدِّق أننا لا نعرف له من وجود !

فاحتقن وجه الشاب ، وصاح فى صوت الثائر المحنق :

— ومن عنده مفاتيح المخازن ؟ أتدَّعون أنكم لا تعرفون للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟

فشخص الشيخ ببصره ، قائلا :

— هون عليك يا بنى . . . فى الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت فى حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلمها ؟ إنها أمانة عندى . . .

— وأنت . . . من تكون ؟

— أنا شيخ الجامع .

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

— ما شاء الله كان ! . . . مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع . . . هاتها يا رجل !

فانصرف الشيخ ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الأرض جيئة وذهوباً ، وهو يتلفت حوله تلفت المتعض المشمئز ، وجعل يغمغم :

— فوضى ! . . . فوضى ! . . . يبدو لى أنه لا بد أن أنشئ الضيعة إنشاء جديداً . . .

ثم صاح بالجمع قائلا :

— أليس فى الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه ما أريد ؟ ألم يكن للضيعة كاتب ؟

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

— كان المرحوم يدعونى أحياناً لأقيد له بعض حساب الضيعة . . .

فجأر الناظر يقول فى تهكم :

- الحمد لله . . . وجدنا أخيراً من نسأله !

وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشزر ، ثم أشار إليه قائلا :

— نقدمنى إلى الادارة نتصفح الدفاتر . . .

وهناك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورفًا عليه بعض الأوراق والدفاتر تعلوها غبرة ، فاستنكف أن يجلس ، ولبث واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطف النظرات ، ثم يقذف بها يمنة ويسرة فى تأفف وازدراء . . .

وبينا هو كذلك إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى صاح مقهقهاً :

— مفاتيح من خشب ؟ . . . فى أى زمن تعيشون ؟

وازورّ ببصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :

— سترى الضيعة عجباً . . . لأنقلنها من عهد ضلالة وظلام ، إلى عهد حضارة ونور . . .

وعلا بيده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلا :

— علىّ بشيخ الخفر . . .

فطأطأ الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما . . .

ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر ، وقد بلغت به الحيرة والعجب كل مبلغ :

— أتجسران على أن تدّعيا أن ليس فى الضيعة خفراء ؟ حراس ؟

فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلى محياه المغضن تكسوه طمأنينة الايمان... ثم همس بقوله :

— الحارس هو الله !

ففرقع الناظر بسوطه فرقعة ريع لها الشيخان ، وبصق بصقة هوجاء ، وانفتل من الحجرة كالسهم المارق . . .

اعتكف الناظر الجديد أياماً فى مثواه لا يريمه ، وهو منكب يدبج تقريراً مسهباً فى شأن الضيعة وما تفتقر إليه من خطة الإصلاح ، انتشالا لها مما هى متردية فيه من فوضى وخراب .

وقد ترادفت فى تقريره كلمات لم ير بدًّا من الإلحاح فى بيانها ، والاشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئولية » ، و « تعيين جهات الاختصاص » ، و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » .

وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة خفر نظامية تكون عوناً للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها الجسام ، والضرب على أيدى من تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى طريق الاصلاح والتعمير . . .

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة فى العاصمة ، ونهض يستنشى نسيم الراحة والاستجام ، كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار الذى رسم خطته فى تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ، لتحقيق أول خطوة فى خطة الاصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر . . .

وكان أول ما عنى به اختيار زى للخفراء الجدد يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون فى اختباراته السيكلوجية لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخير جمعاً من الفتيان توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخاً ، وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته التى يعتز بها وينزهها عن الزلل ، فوقع اختياره على فتى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم ، وإنما هى قوة بصيرة الناظر الشاب رأت فيه ما لم ير سائر الناس .

ووقف الناظر أمام صف الخفراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به:

— لقد اخترتك شيخاً للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها . . . إن الجندية أساسها الطاعة والنظام دون جدل أو نقاش . . . وعلى كل أن يلزم حده ، وأن يعرف واجبه . . .

وفى اليوم التالى ، تجلى شيخ الخفر فى « الدوار » يزهو ببلدته التى حملت شارة الرياسة ، وفى يده هراوة صلبة فارعة ، كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخطر فى معطفه السابغ الأدكن ، وئيد الخطا ، وخلفه شرذمة الخفراء ،

يعلو وجوههم البشر ، وهم معجبون بما يكتسون من زى جديد . . .

وما إن توسط الخفراء ساحة « الدوار » حتى أهل عليهم الناظر الشاب ، وفى يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم وقف متهلل الوجه ، تتألق عيناه ، وصاح :

— انتباهاً !

وابتدأ معهم حصة التدريب ، فتعالت دبدبة الأقدام ، وتراءت السواعد تنثنى وتنبسط ، وتحركت الأجسام تعلو وتهبط ، وتعقد الغبار فى الجو كأنما أثارته حرب ضروس .

وفى أثناء تلك المعمعة كان الناظر الشاب يجأر بصوته فى الفضاء ، فتتردد أصداؤه فى الأرجاء ، إذ يقول :

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— خطوة إلى الخلف .

— أربعات تشكيل .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وكانت سطوح « الدوار » وأسواره قد عششت على حافاتها زمر من الصبية تتطلع ، وقد بهرها ما ترى من منظر عجيب !

لبث الناظر يمارس التدريب ساعة من نهار ، ثم استخلف مكانه شيخ الخفر يواصل العمل على النحو المرسوم . . . وانصرم النهار وشيخ الخفر مجد فى تدريب فرقته ، لا تهدأ له حركة ، ولا يخفت له صوت .

وراح إلى داره فى غيوب الشمس ، متشقق الحلق من متابعة الضجيج والصياح ، منهوك القوى تكاد تنفصم ركبتاه من طول الانثناء والدوران . . . ولكنه على الرغم من ذلك أقبل على الدار مشرئبا ملتمع العين ، فاستقبلته زوجه ، والتف حوله بنوه يتحسسون معطفه ، ويتواثبون عليه تطلعاً إلى لبدته ذات الشارة الحمراء !

فطفق الرجل يتحدث إلى زوجه فى مهام منصبه ، وكيف أن الجندية أساسها الطاعة والنظام . . . وما لبث أن بدا فى إشاراته وحركاته ونبرات

صوته محاكياً ناظر الضيعة الجديد . . . وجعل يدس فى أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التى صافحت سمعه أول مرة فى هذا اليوم ، من مثل : « أربعات تشكيل ، خطوة إلى الخلف ، تعظيم سلام » . . . فكانت أسرته تصغى إليه فى نشوة ، والعيون إليه رانية !

ولما حضرت صينية العشاء ، وتحلق حولها الجمع ، مفترشين الحصير ، أبى رب الدار إلا أن يحضروا له مقعداً يرتفع به عن أديم الأرض ! . . .

استنفد تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلما فرغ من جانب عرض له جانب جديد . . .

وكان لايسير فى الضيعة أو يجوس خلال الحقول إلا مستصحبا شرذمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفو خطاه .

فأما شيخ الخفر فظل يتلقى تعاليم الناظر فى شأن مهمته ، وينهمك فى تنفيذها بين مرءوسيه فى همة ومضاء . فاذا أتم عمله ، واتخذ سبيله إلى داره ، أحس الأعين ترمقه بنظرات خشية وتهيب ، ويرى الصبية لا يكادون يلمحون شبحه حتى يلوذوا بالفرار مخلين له وجه الطريق !

ويوماً وهو يدرب فرقته ، لم يرض عن أحد الخفراء ، ورماه بالتقصير ، وجاوز فى تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه وأصلب عوداً ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له فى القول ، وما هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر وهوى على صدغه بلطمة شديدة ، وسرعان ما التحم الخصمان ، واستبد بهما العراك .

وانتهى إلى الناظر الخبر ، فقدم على عجل ، وفرق بين المتضاربين ، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير فصلا مشمولا بالنفاذ ، لأنه خالف أول مادة فى قانون الجندية ، وهى الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش . . .

وتقدم إلى الصف ، فانتزع الخفير منه ، وجرّده من شارة الخفارة ومن زيها الرسمى ، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته ، وينزع منه ما معه من السلاح !

مضى الخفير الطريد مهيض الجناح ، يتضرم قلبه حقداً وضغينة . وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الخفراء يصطلون ، ويخوضون فى حادثة النهار ، فقال أحدهم :

— ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحداً منا . . .

فأجابه رفيق له :

— ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة . . .

فصاح ثالث :

— مهما يكن من أمر ، فما يجوز لأحد أن يهين خلقة الله . . .

فقال الأول :

— الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أهلا لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتداراً وقوة . . .

فقال الثانى :

— حقا خدع الناظر فى شأنه ، وسينتبه إلى خطئه فى اختياره . . .

فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضنيناً :

— لا تنسوا أن راتب شيخ الخفر ضعف راتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجعجعة والتأمر .

ولمح الجمع شبحاً فى الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصه ، فاذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب . . .

وكثر بينهم همس ، تخلله فحيح الكيد والدس . . .

تقضت أيام لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة ، أو يرفع إليه ظلامة ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام تحت ستار من الأسرار . . .

وتواصل العمل فى تدريب الخفراء بهمة ونشاط ، وأحس شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتتابعت منه صنوف الاهانات من ركل وصفع وطرد ، يسخو بها على مرءوسيه فى تجن وتقوّل وادعاء ، واجداً من ناظر الضيعة ظهيراً يواليه بالرضا والتأييد . . .

وسرت بين سكان الضيعة هيبة شيخ الخفر وجاهه ، فتقرب إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزلفى ، وأصبح بيته مقصداً لطلاب الشفاعات فى شئون الضيعة وما يتصل بادارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والاتحافات من خيرات الريف ! . . .

ومرة عنف الناظر بشيخ الخفر ، فى بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدت عليه بوادر التنمر ، ونسى فى غشية الزهو والسلطة أنه بين يدى رئيسه ، وتضاءلت فى مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية .

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الخفر إلى جفوة تطاير غبارها وتسامح بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصابح الناظر وتماسيه ، مهيبة به أن يضع حدا لذلك الجبار العنيد الذى عاث فى الضيعة فساداً .

وفكر الناظر فى أمر شيخ الخفر طويلا ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب . . .

وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته ، متنفخاً فى جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع يرزح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذى يقوم بأعمال الكتابة فى الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه .

وبدت السين والجيم تتقاذف بهما الألسن فى تلك الحجرة المعتمة المتهدمة التى يكاد سقفها يخر ، وقد وقف المتهم يحاصره جمع من الشهود . . .

ونصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ، وقد اختنق الجو بالأنفاس ، وتحلب العرق من الجباه ، وبدا الناظر محتقن الوجه ، مضطرم العينين ، ففك أزرار قميصه ، وشمر كميه ، وهو منخرط فى عمله يهيمن على نظام الجلسة ، ويلقى أشتاتاً من الأوامر والنواهى فى حمية وحماسة . . .

وأخيراً رأى رئيس الجلسة أن يختلى بنفسه ، ليصدر حكمه فى قضية اليوم ، فأمر باخلاء المكان . . .

وبعد هنيهة أذن للجمع فى الحضور ، لاعلان الحكم ، فاغتصت الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها يسدون منافذها ويرهفون الأسماع .

وما هى إلا أن اعتلى الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقة فى يده ، وبعد أن أشبع نهمه من تكرار : « من حيث إن . . . » أعلن حكمه القاضى بفصل شيخ الخفر وإلزامه دفع غرامة جسيمة . . .

فدوّت فى الحجرة ضجة عارمة ، وتعالت أصوات تهتف بحياة العدالة ، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض !

واخترق الناظر زحمة الناس ، وهو يضرب الأرض بخطا ثقال ، ويتلاعب بسوطه فى اهتياج ، وقصد إلى منزله مزهو النفس ، ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتمى عليه منسرق القوى .

وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث فى شأن من يخلف شيخ الخفر المعزول ،

فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات فى مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى ، وتعمل على إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذى تعرفت الضيعة مكانته وأثره فى التسلط والاغتنام .

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم الباب فى مساترة وحذر .

وظلت حجرة الناظر تبعث شعاع مصباحها حتى جوف الليل ، وطيف الناظر يتراءى وراء النافذة فى جيئة وذهوب . . .

وبكر الناس فى رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت مرتقبين مهبط الناظر ليروا ماذا بيت من رأى فى اختيار شيخ الخفر الجديد . فما إن لمحوه مقبلا حتى تكأكأت عليه الجموع تستخبره فى تعريض وتلميح . فمضى عنهم مشمخر الأنف ، محتفظاً بالسر العظيم !

وقصد الحجرة التى كانت أسس محكمة الفصل فى قضية شيخ الخفر ، وهنالك أعلن على الملأ أنه قد تخير الخفير الطريد شيخاً للخفر ، فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوماً هضم حقه الشيخ المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الادارة فى عهد ناظر الضيعة الجديد ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علائم الدهشة على الوجوه ؛ فما كان فى حسبان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذى طرد من قبل . . . ولقد رشحت كل جماعة واحداً ، فلم يكن ذلك الرجل أحد المرشحين جميعاً ...

وظل الهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ، فتراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه السابغ ، وسوى على رأسه لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده الهراوة الفارعة . . . وسرعان ماشهدت ساحة « الدوار » ثانية جمع الخفراء يزاولون التدريب ، وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

— إلى اليمين در .

— الى الأمام سر .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئ بالتحية يمنة ويسرة لمن وقفوا له ؛ وما كاد يلج باب الدار حتى استقبلته حشود من القصاد يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهنئة والدعاء .

وتواردت الأيام تروع شيخ الخفر المفصول بألوان الاضطهادات والاهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات والأحقاد ممن كان يطغى عليهم الشيخ الأول إبان حوله وطوله .

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد ، فتراءت فى بيته أنعم طارئة ، وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله الشيعة والأنصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوى النفوذ ، يجتذب بلألائه النواظر ؛ فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ، وتكاثرت حوله الأطماع ...

وريعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقليع الزروع ، وتغريق الحقول ، وما إلى ذلك من ضروب الكيد والايذاء . . .

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والاتهام ، تمس شيخ الخفر وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال يتصفح تلك العرائض ، ويذيلها بملاحظاته وتقريراته ، مجتهداً فى الموازنة والتأويل والاستخراج . . .

واستيقظت الفتنة فى قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يكيد بعضهم لبعض . فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المغبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبته ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشتى الوسائل ، من بث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وحبك للمكايد ، وتأليب لنفر على نفر ، حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصى الأمور . . .

وآنس الناظر وميض النار خلل الرماد ، فضاعف عدد الخفراء ، وظهر فى الملأ يحمل إلى جنبه غدارة ضخمة ، يكف بها خائنة العيون !

وكان فى كل فرصة تلوح له ، يؤكد أنه لن يألو جهداً فى إقرار الهدوء والنظام ، فلا نجاح لعمل إلا فى ظلال الأمن والسلام !

وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ؛ إذ أنهى إليه بعض

الخفراء أن سطوا وقع على بيت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصرائه !

وما إن أتم الخفير قوله ، حتى سمعت ضجة عنيفة ، وتضارب بالعصى الغلاظ ، وقد انطلقت أصوات النساء فى ولولة وتصايح وانتحاب .

فأسرع الناظر يرتدى ملابسه ، وهرول إلى مساكن الضيعة ، فألفى الثورة فى عنفوانها ، والمعركة تدور رحاها حامية الوطيس . فاقتحم الزحام فى جرأة وإقدام ، وراح يزأر بصوته ينهى ويأمر . فلم يعبأ به أحد ، وذاب صوته فى حرارة العراك والمطاحنة ، وأراد أن يستنجد بغدارته فما كاد يمسكها فى يده حتى وجدها قد أفلتت منه ، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط !

وأحس الجماهير تعتصره وتضغطه ، فحاول ثانية أن يصرخ ، فتعثر صوته فى حلقه ، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء والحراس ، فلم يجد أحداً فارغاً له ، كل منهم بنصيبه فى المشاجرة مشغول . وضاقت به وجوه الحيلة ، فتراجع نجاء بنفسه مما لا تحمد عقباه ، فاذا به عن كثب من فئة تتضارب بالهراوات فى عنف وهوج . وما هى إلا أن اندمج فى هذه الفئة ، وقد تعاورته الضربات فخر مثخناً بالجراح . . .

وفى مرتفع النهار ، شمل الضيعة خمود وتخاذل وانهيار . . . ثمة أناس داخل الأكواخ وخارجها طحنتهم المعركة وأدمت أوصالهم ، فهم يلمون شعثهم ويعالجون جراحاتهم . . . وثمة أمتعة مبعثرة أمام الدور ، وأنقاض ماتهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب متشممة فى خوف وحذر . . .

وفى صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يجوب الضيعة ، مستعيذاً بالله ، ملتمساً منه اللطف فى قضائه . . . وكان يمر بالدور لماماً يعود طريحاً أو يواسى جريحاً ، ويهدئ ثائراً أو يشاور ذا رأى من الأشياخ . . .

وأدى به المطاف إلى إدارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذى يتولى كتابة الحساب ، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن ، فاذا هى هى تلك الحزمة الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :

— أبقها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد !

محمود تيمور

غاية الفن لا ترام

[أنشأ إمام الشعراء العرب المعاصرين هذه القصيدة الرائعة ليشكر بعض الذين شاركوا فى أداء بعض حقه من التكريم .

ولست أدرى أيهما أحق أن يقدم إليه الشكر : أهو الشاعر الذى غذا قلوب الأجيال العربية منذ أكثر من نصف قرن أم هو الذى يعرف له بأخرة هذا الفضل ويؤدى إليه فى استحياء بعض الحق . ولكنى أعرف أن هذه المجلة تشكر للشاعر العظيم الصديق إيثاره إياها بهذه القصيدة التى تصور قبل كل شىء ما يمتاز به خليل مطران من كبر النفس والقلب والأمل ومن هذا التواضع الذى يرفع أصحابه فوق المتكبرين .]

طه حسين

أمرُ مَن يَطلبُ الخُلودَ عَسيرُ … لا يعارُ الخُلودَ مَن يَستعيرُ

ذاك أسمَى مطالبِ المجدِ لا يُد … ركه مُدَّعٍ ولا مغرور

غايةُ الفنِّ لا تُرامُ وما يقـ … ـربُ منها إلاَّ النَّبيغُ الصبور

أدهشَ الخَلْقَ رافَئيل ولم يُبْـ … ـلِغْهُ منه ما شَاءَهُ التصوير

نَحتتْ فدْياسَ حيَّرَ الناسَ حتى … لغَدتْ تَدَّعى الحياةَ الصُّخور

ثمَّ ولَّى ذاك الصَّنَّاعُ ، وما فى … نفسه حالَ دونهُ التقصير

أشْعَرُ الخَلْق كانَ هومِيرَ هل أد … ركَ منه كلَّ المُنى هومير

لم يُتِمَّ الذى تَوخَّاهُ جُوتى … لا ولم يَقْضِ ما اشتَهى شكسبير

فى الفرنسيس هل تَقَضَّى مَرامٌ … لمُجيدٍ أوَ استَمرَّ مَرير

ومنَ العُرْبِ لا يُحاشَى امرؤ القيـ … ـس وَيَنْأَى عن القِياس جرير

قال شيئاً مما أرادَ حبيبٌ … وتغنَّى بما تسنَّى الضرير

وأتى مُعجزاتِه المتنبى … وهى مما أرادَ شىءٌ يَسير

سَلْ فحولَ القريض ممَّن بهم أثـ   ـلَ مَجْـداً هـذا الزمانُ الأخير
هل لسامٍ أو حافظٍ أو لإسما   عيل فيمن أجادَ شِعْراً نظير
جاء شوقى ببعض ما رامَ منه   وهو فى الحق للقريض أمير
كلُّهم لم يَصِلْ إلى ما توخَّى   فثوى فى الطريقِ وهو حسير
سرَّهُ وَحْيُهُ فلم يألُ جهداً   وأبى العجزُ أن يتم السرور
ولكلٍّ مكانهُ من هَوى النا   سِ وكلٌّ بالتكرماتِ جدير

هذه يا أحبتى سانحاتٌ   لا تمارى فى الحق والحق نور
كان فى الشعر لى مرامٌ خطيرٌ   فعدا طَوْقَ المرامُ الخطير
هائمٌ فى الوجودِ أسألهُ الوحـ   ـىَ كما يسألُ الغنىَّ الفقير
لَهِجٌ ما ادَّخرْتُ عزماً ولكنَّ   مُرادى نَاءٍ وباعى قصير
أكبرونى ولستُ أكبرُ نفسى   أنا فى الفنِّ مستفيدٌ صغير
فوق شعرى شِعْرٌ وفوقَ أجلِّ الشـ   ـعر ما قدَّرَ البديعُ القدير
لا يضقْ صدرُ شاعرٍ بأخيه   يكره الفضْلُ أن تضيْقَ الصدور
والسماواتُ لو تأملت فيها   ليس تحصى شموسُها والبدور
كلُّ جِرْمٍ يعلو ويصبحُ نجما   فلهُ حيِّزٌ وفيه يدور
والنجومُ التى تلوحُ وتخفى   ربواتٌ وما يضيقُ الأثير

ذاك قولى وليس ينقصُ شكرى   وأخوكم كما علمتم شكور
غير أنى أخشى تخطِّىَ حدِّى   وهو ضعفٌ منى فهل لى عذير
إنَّ هذا الإكرامَ للفنِّ ، لا لى ،   والمرامُ الذى ابتغيتم كبير
أىَّ قسطٍ أوليتمونىَ منهُ   هو فضلٌ على قليلى كثير

خليل مطران .

رابطة الماء فى وادى النيل

فى مقالين سابقين عالجنا موضوع الوحدة فى وادى النيل من ناحيتيه الجغرافية والتاريخية[1] ؛ فرجعنا بهذه الوحدة إلى أسسها الأولى فى البيئة ، واستعرضنا بعض ما فى تاريخ شعب الوادى من عبر وآيات قد تنير السبيل أمام من يعملون من أجل الوحدة فيما نحن مقبلون عليه من جهاد . ولكن هذا البحث لن يكمل أو يقارب الكمال إلا إذا عرضنا لناحيتين أخريين ، تتمثل إحداهما فى الماء وروابطه المادية ، وتتمثل الأخرى فى الجنس والثقافة وما إليهما من صلات . ويكفينا فى هذا المقال أن نعالج الناحية الأولى ، وأن نحاول أن نربطها بما للحياة فى وادى النيل من صلات مكينة بالبيئة ، واتصال وثيق بجريان هذا النهر العظيم الذى يمتد بمجراه الطويل فيصل ما بين البحر المتوسط وقلب إفريقية .

وقد سبق لنا فى تعريف وحدة وادى النيل أن اصطلحنا على أن يشمل « الوادى » تلك المناطق التى تعتمد فيها حياة السكان — فى مقوماتها الأساسية — على النهر اعتماداً مباشراً ، فى الاستقاء والرى والزراعة ، أو فى صيد الأسماك والأحياء المائية ، أو الاتصال بين جهة وأخرى على طول النهر ، أو فى غير ذلك من مرافق الحياة وأسبابها الأولية . وخرجنا من هذا التعريف بأن مصر والسودان وبعض أطراف الهضبة الاستوائية تدخل كلها ضمن هذا الوادى الذى ننادى بوحدته . ولكن هذا القول يحتاج إلى مزيد من الايضاح ، لا سيما فيما يتصل بأسباب الحياة الأولى فى الرى والزراعة . فمن المعروف أن الحياة الزراعية فى مصر لا يمكن أن تقوم بغير النيل ؛ إذ الأمطار فى حكم العدم ، ولا يمكن أن تكفى لشئ من الزراعة إلا على بعض السواحل الشمالية . ومثل هذا

---

(١) انظر الكاتب المصرى عددى فبراير ١٩٤٦ ومايو ١٩٤٧ .

ينطبق أيضاً على معظم جهات السودان لا سيما السودان الشمالى والأوسط حيث توجد الأراضي ذات التربة الغرينية الصالحة فى دنقلا ، وعلى جوانب النيل الأعظم وفى أرض الجزيرة ودلتا كسلا ، وهى كلها مناطق نشأت فيها بعض الزراعة فى العصور القديمة ، ولكن التوسع الحديث استلزم تنظيم الإفادة من مياه الرى على نطاق واسع جديد . أما جنوب السودان ، حيث تكفى الأمطار للزراعة ، ويمكن أن يستغنى عن مياه النهر ، فان التربة ليست من الجودة بما عليه الحال فى مناطق الرى بالشمال ، كما أن انعدام نظام الملكية الفردية وقلة استقرار السكان ونزوعهم إلى التجول والارتحال وتعلقهم بالرعى أكثر من الزراعة ، بل قلة عدد هؤلاء السكان وما هم عليه من حالة فطرية قطع الاستعمار ما بينها وبين المدنية الشمالية من أسباب ، كل هذه مضافاً إليها سوء الحالة الصحية وانتشار بعض الأمراض ، قد عطلت تقدم الزراعة فى الجنوب ، وستعطله ما دام المسيطرون على السودان يحولون دون توغل العناصر الشمالية إلى جنوبه لتزيد من سكانه ولتعلمهم فنون الزراعة واستغلال التربة على نحو يقربهم من أهل الشمال .

لذلك فان السودان فى حالته الراهنة ، وبمناطقه التى تصلح للرى والانتاج الزراعى الحديث فى الوسط والشمال يتساوى مع مصر فى اعتماده على مياه النهر . ومن واجب أولئك الذين يشرفون على ضبط النيل وتنظيم مشروعاته أن يسلموا بهذه الحقيقة ، وأن يدركوا إلى جانبها أن أى تفرقة بين أدنى الوادى فى مصر وأوسطه فى السودان إنما هى تفرقة مصطنعة ، نادى بها صوت الاستعمار فانخدع له فريق من الناس فى مصر فتحدثوا عن حقوق مصر المكتسبة فى مياه النيل ، وانخدع له فريق من الناس فى السودان فهمّوا أن يتحدثوا عن حقوق السودان المغتصبة من مياه النيل ، فى حين أن الطبيعة ذاتها وحدت بين شطرى الوادى فى كل شئ ، حتى فى الاستقاء والرى للانسان والحيوان والنبات ؛ ثم إنها فى هذا التوحيد قد رتبت من الماء ما يكفى كل حى على جوانب النهر ، مهما تكاثرت الأحياء من إنسان وحيوان ونبات فى حدود ما يسمح به المكان ويتسع له نطاق الأرض الصالحة للحياة المستقرة وللزراعة والانبات فى كل من مصر والسودان . فنحن إن حسبنا مجمل تصريف النهر بعد اقتطاع ما يفقد من الماء بسبب التبخر والتسرب وغير ذلك وجدنا أنه لايقل فى المتوسط عن الثمانين

ملياراً من الأمتار المكعبة فى كل سنة ؛ يقدر ما تستخدمه منها مصر الآن من مياه النهر الجارية بطبيعتها ومن المياه المختزنة بالخزانات بما لا يزيد عن الستة عشر ملياراً ؛ ويقدر أيضاً أن مصر مهما توسعت فى الزراعة فى المستقبل ورى الأراضى البوز بعد استصلاحها ، فان ما تستخدمه من مياه النهر لن يجاوز الخمسة والعشرين ملياراً ، أى أقل من ثلث موارد الماء فى النهر . أما السودان فان ما يستخدمه من مياه النهر الآن لا يعرف على وجه الدقة ، ولكنه على كل حال لا يجاوز المليار الواحد . وليس من شك فى أن مساحة الأرض المنزرعة والمروية مهما اتسعت فانها لن تستوعب أكثر من نسبة محدودة من مياه النهر التى تمر بالسودان . بل ليس من شك فى أن هذه المياه تكفى حاجات مصر والسودان جميعاً حتى فى سنوات قلة الماء قلة نسبية . ولكن الشيء الضرورى هو أن نتدبر أمرنا فى ضبط هذا النهر ؛ فمن المسلم به أننا لن نستطيع أن نتغلب على جميع الصعاب الطبيعية ، التى تقضى أن نخسر جانباً كبيراً من مياه النهر إبان الفيضان فندعها تنصرف إلى البحر دون أن يستفاد منها فى الزراعة . فالفيضان أقوى من أن يتحكم فيه إنسان تحكما تاما ؛ وقد تؤدى محاولة التحكم فيه إلى كارثة ليس من الخير أن نتعرض لها بوسائلنا الحالية فى الهندسة النهرية . بل إننا إذا حاولنا احتجاز مياه النهر فى بعض أجزاء مجراه إبان الفيضان الحبشى فقد ينتهى الأمر إلى إرساب طمى الحبشة فى حيضان الخزانات فتخسره التربة المصرية من جهة ، وتمتلئ الخزانات بهذا الطمى وتقل سعتها على مر الأيام من جهة أخرى . ولذلك فمن الخير أن تقتصر مشروعاتنا لاختزان المياه على تصريف النهر فى غير موسم الفيضان ، فلا يبدأ احتجاز الماء إلا بعد أن يجاوز ذروة الفيضان الحبشى من رافدى العطبرة والنيل الأزرق ، وهما اللذان تحمل مياههما أكبر كمية من الطمى . ومعنى هذا أننا لن نستطيع أن نتحكم بالاختزان فى أكثر من نصف تصريف النهر العام على وجه التقريب ؛ وهو قدر يكفى حاجات مصر والسودان فى الحاضر والمستقبل ، وإن استدعى الاحتياط لسنوات الجفاف أن تخصص بعض الخزانات لتكوين احتياطى من الماء يضاف إليه فى كل سنة ويحتفظ به للتعويض فى سنوات الجدب وقلة المطر فى منابع النيل .

وليس هذا مجال الاطالة فى سرد مشروعات النيل مما يعنى به المهندسون

ومما نراه مفصلا فى الكتب[1] . ولكن هناك ثلاث مسائل عامة يجب أن نتناولها بشيء من الابانة والتوضيح . فأما الأولى فان للنيل منبعين أساسيين ، أحدهما يأتى من الهضبة الاستوائية ويجلب الماء بانتظام طوال السنة ، ولكنه لا يمد النيل فى الوقت الحاضر بأكثر من ١٤,٥ فى المائه من مياهه فى المتوسط وهى نسبة محدودة إذا ما قورنت بالحبشة ومياهها ، ولكنها دائمة وتفيد فى الرى الصيفى فى مصر بصفة خاصة ، رغم أن جانباً كبيراً من هذه المياه الاستوائية يفقد فى الطريق إلى الشمال بسبب البخر ، وشدة الحرارة والجفاف فى سهول السودان . فأما النبع الآخر فيأتى من الحبشة ويمد النيل بباقى مياهه ، وقد تصل نسبة مياه الحبشة فى بعض السنوات التى يشتد فيها المطر على تلك الهضبة إلى سبعة أثمان مياه النيل كلها ؛ فضلا عن أنها تجلب معها معظم الطمى والغرين أوكله تقريباً ؛ وهو ضرورى بل حيوى للتربة المصرية ، وإليه يرجع الفضل فى احتفاظ أرض الكنانة بخصبها المعروف ، وفى تجديد قوة الانتاج فى كل عام . بل يقدر أن هذه المياه تجلب إلى مصر فى كل سنة مالا يقل عن خمسة وثمانين مليون طن من الرواسب ترفع مستوى الأرض ملليمتراً فى كل عام ، وتعوض ما يفقد فى إنماء النبات وتغذيته . على أن هذين النبعين الاستوائى والحبشى إنما يتم كل منهما الآخر ؛ لأن مياه الهضبة الاستوائية قليلة ولكنها دائمة الجريان ولأن مياه الحبشة غزيرة ، ولكنها لا تجرى طوال العام ، بل تجرى فى فصل

---

(١) يكفى أن نضيف هنا أن من المشروعات التى تمت فى خزان اسوان وسعته الآن بعد التعلية الثانية حوالى خمسة مليارات ونصف مليار من الامتار المكعبة ، وخزان جبل الأولياء وسعته حوالى المليارين والنصف ، وخزان سنار أو مكوار وسعته حوالى ثلاثة أرباع المليار ، ومن مشروعات الخزانات المقترحة مشروع البرت وقد يتسع لأكثر من اثنى عشر مليارا . وخزان طانا وقد يتسع لنحو أربعة مليارات لتصرف سنوياً ولنحو ضعف هذا الرقم ليحفظ فى البحيرة على سبيل الاحتياط لسنوات الجفاف ، ثم خزان الشلال الرابع وتتوقف سعته على مقدار ارتفاع سده المقترح ، ولكن للنتظر أن تزيد سعته كثيراً عن خزان اسوان . وهناك خزان وادى الريان لتفادى خطر الفيضانات العالية ، ولكنه قد يفيد فى رى الدلتا بنحو مليارين . والى جانب الخزانات المقترحة هناك مشروع قناة لتفادى المستنقعات ومنطقة السدود فى بحر الجبل حيث يضيع الآن من الماء بالبخر والامتصاص ما يقدر بثمانية عشر ملياراً . ويلاحظ فى احتساب هذه المليارات الكثيرة من الأمتار المكعبة أن جانباً كبيراً مما سيختزن فى الجنوب سيفقد بالبخر والتسرب فى طريقه إلى مصر فى الشمال . وقد تصل نسبة الفقدان إلى النصف أو أكثر إذا كانت الخزانات بعيدة فى أعالى النيل وأريد أن يستفاد بالمياه فى مصر .

معين من السنة ؛ ولولا مياه الهضبة الاستوائية لجف النيل فى بعض الأشهر لا سيما فى الربيع وأوائل الصيف . لذلك ينبغى فى رسم مشروعات النيل ألا يغفل أمر ما هنالك من تكامل بين مصادر المياه فى النيل ، ينبغى أن يتبعه وأن يترتب عليه تكامل مماثل فى مشروعات اختزان الماء ، فلا نعتمد على مياه الهضبة الاستوائية وحدها كما أراد أن يوجهنا الانجليز ومهندسوهم فى وقت من الأوقات ، ولا نتصور أننا نستطيع أن نستغنى بمياه الحبشة الموسمية الغزيرة والغنية بالطمى عن مياه النيل الأبيض الدائمة ولكنها تكاد تخلو من المواد العالقة .

أما المسألة الثانية فتتمثل فى أن مصالح مصر والسودان لا يعارض بعضها بعضاً كما يصور الحال نفر من المغرضين ؛ وإنما هى مصالح متكاملة . وليس من شك فى أن من صالح السودان أن تطمئن مصر إلى حبل الحياة الذى يمتد إليها من الجنوب ، وأن تجد كفايتها من الماء فى الوقت الحاضر وفى مقبل الأيام ؛ فازدهار الحياة فى مصر كان على الدوام معياراً لازدهار الدنية فى وادى النيل كله ، ومصر القوية تستطيع أن تدفع عن السودان كثيراً من الضر الذى قد يأتى من الشمال ، بل إن مصر كانت على الدوام مفتاح السودان ، فإن ضعفت طمع فيها الطامعون ولم يسلم من شرهم شطر وادى النيل الأعلى فى الجنوب . كذلك كانت مصر مخرجاً طبيعيا لحاصلات السودان منذ أقدم العصور ؛ فان رغدت حياة أهلها ازدادت مقدرتهم الشرائية ، وأفاد السودان من ذلك ما يفتح أبواب الرزق والتجارة ، ويعود على أهل الجنوب بالخير والبركة . وعلى نفس القياس نستطيع أن نؤكد أن مصلحة مصر المادية ذاتها تقتضى أن ينال السودان أكبر قسط من التقدم والمدنية . فقد كانت مصر على الدوام مضطرة إلى أن ترد عن السودان ضعفه إن كان ضعيفاً ، وأن ترد عنه فقره إن كان فقيراً لا يستطيع النهوض بنفسه . وقد عمدت سياسة الاستعمار فى السودان خلال ربع قرن كامل إلى أن تفقره بحيث يعتمد على الشمال فى المادة ويعتمد على يد الاستعمار فى الادارة ونظام الحكم . فلما استطاع السودان أن يقوم بنفسه وأن يقف على قدميه من ناحية الميزانية ، وقفت حكومة السودان فى سبيل التقدم الشعبى ، وحولت أبواب الرزق خلال ربع قرن آخر إلى الشركات البريطانية ، فاستنزفت من السودان كل قطرة فائضة من الرزق . وإذا سارت

الحال على سياسة الإفقار الحالية فان مصر ذاتها لابد أن تتأثر بالحالة فى السودان . ذلك أن مصر لا تملك أن تتقدم بنفسها وأن تترك السودان يتخلف عن الركب ؛ فجسد هذا الشعب جسد واحد ، رأسه فى الشمال وقوامه فى الوسط والجنوب . وقد رأينا سياسة المهندسين البريطانيين فى عهد الاحتلال والحماية فى مصر ترمى كلها إلى تركيز التقدم الزراعى فى الدلتا وشمال مصر حيث ينتج القطن الجيد والطويل التيلة لتموين المصانع البريطانية ؛ أما الصعيد وأما السودان فلم تهتم لها بريطانيا ، بل كان إهمالها لها فى أول الأمر عن قصد ، تنبه له نفر من مهندسينا المصريين . فلما استقل المصريون ببعض شؤونهم وجهوا همهم إلى الصعيد ، فأصلحوا من شأنه ونشروا الزراعة والرى الدائم فى ربوعه ، فرفعوا من مستوى أهله وقاربوا بذلك بينهم وبين أهل الدلتا . وليس من شك فى أن هؤلاء المصريين يدركون تماماً أن لا خير فى أن تقف هذه الحركة المباركة عند حدود الصعيد ، بل ينبغى أن تمتد إلى النوبة ودنقلا وبقية ربوع السودان ، مهما اشتط الانجليز ودفعتهم الأثرة إلى أن يضيقوا على الناس وقد بسط الله لهم فى الرزق ، بل مهما حاول مستعمروهم أن يقفوا فى طريق الزمن وأن يكتفوا بتلك المشروعات القليلة التى تستفيد منها الشركات البريطانية دون غيرها من أهل السودان .

مصلحة مصر إذن فى مصلحة السودان . وإذا نحن نظرنا بعين الأمل إلى هذا الوطن الموحد الكبير فلن يكون من الخير لأهله أن يزدهر فيه شطر دون شطر ، وأن يتقدم نصفه الشمالى فتدب فيه الحياة قوية فتية على حين يتأخر الشطر الآخر فيصيبه الهزال والكساح ويبقى عالة فى حياته الاقتصادية وفى كل ما يترتب عليها من فقر فى السكان وضعف فى القدرة على النضال والكفاح . . . بل الدفاع فى عالم تكاثر فيه المتكالبون على استغلال كل ضعيف .

أما المسألة الثالثة التى ترتبط فيها حياة مصر وازدهارها بحياة السودان وازدهاره ، فتتمثل فى أن مصر لا تملك أن تستغنى عن السودان إن هى أرادت أن تنجز مشروعاتها المختلفة لضبط مياه النيل وتسخيرها فيما يجلب الخير . وكذلك السودان لا يملك أن يستغنى عن مصر إن هو أراد أن يتم من هذه المشروعات ما يضمن له الخير والفائدة وما يفتح أمام أهله أبواب الرزق . ذلك كله أن مصر لاتستطيع أن تقيم من أعمال خزن المياه ومشروعاته داخل حدودها

السياسية المعروفة غير خزان أسوان وهو لا يختزن أكثر من خمس حاجاتها النهائية من الماء بعد جيل واحد ، وغير مشروع مشكوك فيه بعض الشك هو مشروع وادى الريان . أما المشروعات الأخرى فيجب أن تتم كلها فى أرض السودان من جهة ، وقرب منابع النيل فى الحبشة والهضبة الاستوائية من جهة أخرى . فأما فى السودان فطبيعة المجرى تسمح باختزان المياه من سنة لسنة ، كما هى الحال فى خزان جبل الأولياء الذى يملأ فى كل سنة ليفرغ فى أشهر التحاريق ، أو كما هى الحال فى خزان سنار أو مكوار . وهذا النوع من الخزانات السنوية يفيد إلى حد بعيد ، ولكنه لا يكفى بمفرده لأن النيل عرضة لأن يأتى شحيحاً جدا فى بعض السنين الشاذة ، بحيث يخشى ألا يكفى ماؤه فى بعض تلك السنين حتى لملء الخزانات ورى المساحات المزروعة بالفعل ، مما يترتب عليه قحط وإجداب ومجاعة لا شك فيها (١) . لذلك كان من الواجب أن يفكر أهل الهندسة والرى بمصر والسودان على السواء فى بناء خزانات تحتجز فيها كميات من الماء لمدة طويلة ، بحيث تكون بمثابة « احتياطى » يصرف منه فى مثل تلك السنوات المجدبة . وهذه الخزانات لا يمكن إقامتها فى سهول السودان ، وإنما تقام إما فى بحيرة طانا بالحبشة وإما فى إحدى بحيرات الهضبة الاستوائية وهى بحيرة البرت . وإذن فان السودان تواجهه — ولو فى المستقبل على الأقل — مشكلة من نفس النوع الذى يواجه مصر ؛ وهو أنه لا يمكن أن يعتمد اعتماداً كليا على مايقام فى أراضيه من خزانات . بل إن الطبيعة ذاتها قضت بما هو أكثر من ذلك ؛ فالسودان لا يستطيع فى يسر أن يفيد حتى من بعض مايخزن فى أرضه من ماء . فنحن نعرف مثلا أن النيل الأبيض يجرى فى مستوى منخفض عدة أمتار من مستوى أرض الجزيرة ، بحيث يتعذر تماماً أن تروى تلك الأرض من خزان جبل الأولياء . كما نعرف أنه حتى فى حالة خزان مكوار ، وهو على النيل الأزرق، لا تستطيع أرض الجزيرة المرتفعة أن تفيد منه أكثر من ثلاثة أخماس مايخزن فيه ؛ أما الباقى فلا مندوحة من أن يترك ليجرى فى النهر من جديد لتفيد

---

(١) من أمثلة تلك السنوات المجدبة عام ١٩١٣ حيث انخفضت جملة تصريف النهر طول العام الى ٤٤ مليارا من الأمتار المكعبة عند اسوان ؛ هو قدر يزيد قليلا عن نصف متوسط التصريف العادى للنهر هناك .

منه أرض النيل فى الشمال . وهكذا قضت الطبيعة ذاتها بألا يستطيع السودان أن ينفرد أو أن يجد كفايته تماماً فيما يقام فوق أرضه من مشروعات . . . بل هكذا قضت الطبيعة بأن يستوى السودان ومصر فى الحاجة إلى تنسيق مشروعات الرى كلها من منابع النيل إلى أدانيه ، وبأن يشارك السودان مصر فيما يخشى على تلك المشروعات من خوف ، وما قد يعترض تحقيقها من صعوبات تمتد إلى خارج نطاق الوادى بحدوده السياسية . فالمصالح الحيوية لمصر والسودان تتداخل أشد التداخل فى نطاق الوادى ، وتمتد إلى ماوراء الحدود السياسية امتداداً لا حياة معه لمصر والسودان إلا إذا كانتا يداً واحدة .

وفوق ذلك فمن غير المعقول ولا الممكن أن تكون لمصر مشروعاتها المستقلة فى نهر النيل ، وأن تكون للسودان مشروعاته . فذلك إن تصوره الخيال فان الحقائق الطبيعية الواقعة لاتجيزه . ولقد رأينا كيف أن خزان مكوار ، وقد أنشئ من أجل أرض الجزيرة إنشاء ، لم تملك حكومة السودان بحكم جريان النهر أن تحبس فائدته على نفسها ؛ وكذلك خزان جبل الأولياء (وهو مشروع مصرى) أو خزان الشلال الرابع إن تم إنجازه يمكن أن تفيد منه أراضى دنقلا الشمالية بواسطة الآلات الرافعة ، أو بواسطة إقامة بعض القناطر الموازنة فى المستقبل . ونستطيع أن نجرى فى سرد الأمثلة التى توضح مبلغ تداخل مصالح الرى فى مصر والسودان ؛ ولكننا نكتفى بأن نضيف أن السودان فى حالته الراهنة و بموارده المالية ، لا يستطيع أن يقوم حتى ببعض المشروعات الضرورية للرى . وقد أنشئ فيه سد مكوار ، ولكنه أنشئ بمال أجنبى ولمصلحة أجنبية قبل أن تكون مصلحة سودانية . وليس من الخير للسودان أن تمضى أموره فى المستقبل على نحو مامضت عليه فى الماضى ؛ فذلك حكم على أهله بالاستعباد الاقتصادى ، وبكل مايجره من استغلال يصيب الحياة القومية فى الصميم . ولكن السودان إن استجاب لما تقضى به الضرورة المادية من الارتباط بمصر فلن يخشى أن تجر عليه المعونة المصرية استغلالا أو مذلة ؛ فقد سبق أن أنفقت مصر فى السودان خلال أكثر من قرن ملايين وملايين ، ومنحت السودان من مالها ورجالها ومن خيرها ومادتها ما لم تمن به عليه . . . وهيهات أن تمن ، وهى إذ فعلت ذلك لم تقصد إلى أن ترتب

لنفسها حقوقاً مضاعفة ، ولا إلى أن تجلب لنفسها منفعة رابية كما فعل الانجليز فى السودان وفى مصر على حد سواء .

ولكن حديث الوحدة المائية بين شطرى الوادى لا يتم إلا إذا عرضنا لبعض ماجرت عليه الأحوال فى السودان عندما بدأ المشرفون عليه يوجهون مصايره ، ويعملون على تحقيق ما أسموه « رفاهية السودانيين » . وقد يكفينا أن نضرب مثلا بأرض الجزيرة ومشروعات الرى فيها . فقد بدأ التفكير فيها فى أوائل هذا القرن ، ونضج المشروع بعض الشئ قبيل الحرب العالمية الأولى ، حيث قدرت له بضعة ملايين قليلة من الجنيهات . ولكن وقوع الحرب عطل المشروع ورفع تكاليفه فى النهاية إلى أكثر من ثلاثة عشر مليوناً بما فى ذلك مصاريف السد ذاته عند مكوار . والشئ الطريف أن حكومة السودان تطوعت فسخرت نفسها ونفوذها فى خدمة نقابة الزراعات السودانية، وهى شركة بريطانية خالصة تولت المشروع ، فمكنتها الحكومة من الاستيلاء على الأرض نظير ثمانين قرشاً للفدان الواحد شراء ، أو نظير عشرة قروش للفدان إيجاراً فى العام ! وتم الاتفاق بين النقابة والحكومة على أن يتم انتزاع الأرض من أصحابها السودانيين ، ثم يجبرون بعد ذلك على استئجارها وزراعتها قطناً بحسب الشروط التى تضعها النقابة ؛ ويقسم المحصول فى النهاية بنسبة ٤٠ فى المائة للأهالى ومثلها للحكومة والباقى للشركة ، مع منح الأهالى الحق فى زراعة بعض المحاصيل الغذائية كاللوبيا والذرة وغيرهما مما قد تشتريه الحكومة أو النقابة أو غيرهما من شركات الإصدار بأسعار محدودة ليباع فى الخارج بأسعار مربحة !

وهذا المشروع الذى يبدو كأنه أدى إلى رفع مستوى المعيشة وزاد من رفاهية السودان قد يكون ظاهره الخير ولكن باطنه شر لا شك فيه . فالأرض قد انتزعت من الأهالى الذين أصبحوا بذلك أجراء بعد أن كانوا ملاكاً ؛ وهذا فى حد ذاته لا يمكن أن يكون أساساً لنهضة صادقة ، ولا يمكن أن تحتفظ معه جمهرة المنتجين بما ينبغى للمواطن من روح الاعتداد الشخصى والعزة القومية ، فضلا عن أن فيه غبنا فاحشاً لا يعادله إلا مافعله المستعمرون البيض حين استولوا على الأرض الصالحة من أصحابها السود فى مستعمرات شرق إفريقية وجنوبها . وفوق ذلك فان حكومة السودان ، مع الأسف الشديد ،

لم تشأ حتى أن يجرى العمل بعد تسوية مسائل أرض الجزيرة على أساس الاستئجار الجبرى من الأهالى . . . فسنت فى عام ١٩٢٥ قانوناً جديداً أسمته قانون تسوية الأراضى ، اعتبرت به جميع الأراضى غير المسجلة فى السودان ملكاً للحكومة حتى يثبت عكس ذلك . فاذا راعينا أن شؤون العقود والتسجيل لم تكن مرعية على الدوام فى ربوع السودان أدركنا كيف أن الحكومة قد استطاعت فى ظل هذا القانون أن تحرم الأهالى حتى قيمة الايجار الاسمية حين وضعت يدها على مساحات واسعة من الأرض ، ومهدت لنفسها أو للشركات البريطانية أن تستغلها برءوس أموالها الأجنبية .

وليت أضرار مشروع كشروع الجزيرة تقف عند هذا الحد من الاستغلال ؛ فقد استطاعت الحكومة بمالها من سلطة الاستيلاء أثناء الحرب الأخيرة مثلا أن تضع يدها على محصول السودان كله من القطن ، وأن تورده إلى المصانع والسلطات البريطانية بثمن حددته هى بما لا يزيد كثيراً على نصف ثمن القطن فى الأسواق المصرية بالذات .

لذلك كله لم يكن غريباً أن ينفر السودانى من التعاون والمشاركة الصادقة فى مشروع لم يلبث أن أدرك أن عليه منه الغرم . ولم تلبث حكومة السودان ذاتها أن رأت ذلك منذ البداءة فشجعت بعض الوافدين من السودان الغربى ونيجيريا على المرور والاقامة بأرض السودان أثناء ذهابهم إلى الأرض المقدسة للحج ، وأثناء عودتهم إلى بلادهم ؛ فتستأجرهم النقابة والشركات بأجور منخفضة وتضارب بذلك الأيدى العاملة الوطنية . وقد ترتب على ذلك فى آخر الأمر أن أصبح نحو ربع الأراضى المنزرعة قطناً بالسودان يفلح بأيد عاملة أجنبية عن السودان . وهكذا تنزع الأرض من الأهالى وتزرع برأس مال أجنبى وبأيد عاملة أجنبية . . . وهيهات أن يكون ذلك أساساً صالحاً لنهضة قومية فى بلد يقال إن القائمين على شؤونه يعملون من أجل رفاهيته ، ومن أجل إعداده للاستقلال الاقتصادى والقومى العام !

ولو أن حكومة السودان كانت تعمل حقا من أجل رفاهية السودانيين ورفع مستواهم العام لكان الواجب أن تفكر فى التوسع فى زراعات أخرى غير زراعة القطن التى تمون مصانع بريطانيا . بل لكان الواجب أن تعنى قبل ذلك بنشر زراعة الحاصلات التى تيسر الاستهلاك المحلى وترفع مستواه بين

عامة طبقات الشعب ، مثل القمح فى بعض الجهات التى تصلح له ، ومثل الفواكه ، ويكاد السودانيون يحرمون منها إلا من استطاع أن يدفع الثمن غالياً لما يستورد من الخارج ، ومثل قصب السكر الذى يمكن أن تنشأ عنه صناعة نافعة لولا أن الحكومة ذاتها تحتكر استيراد السكر وتجارته .

بل لو أن حكومة السودان كانت تعمل حقا من أجل تربية السودانيين وإعدادهم للنهضة الاقتصادية المرتقبة لكان الواجب ألا تغالى فى إقامة مشروعات الرى والزراعة على أساس المزارع الكبيرة التى تشرف عليها الشركات الكبرى وتستخدم فيها الآلات الحديثة ويرتب العمل فيها على أساس لا يمكن أن يتعلم منه الأهالى ولا أن يقلدوه بأنفسهم أو يحتذوه فى مزارعهم الصغيرة ، بل لا يمكن أن ينقل عنه وأن يقلده غير كبار المولين والملاك السودانيين ، وقليل ما هم ! لقد كان الأولى بالحكومة إن هى راعت مصلحة الشعب أن تشجع الملكيات المتوسطة ، وأن ترشد صغار المزارعين الملاك ، وأن تعد لهم من المشروعات مايعاونهم على تحسين أحوالهم ورفع مستواهم فى العمل والانتاج .

وغير هذه المسائل كثير مما يمكن أن نأخذه على حكومة السودان ، مع الأسف الشديد . وقد شوه ماجرت عليه من سياستها ق الرى والزراعة معنى إفادة السودان من مياه النيل ؛ كما شوه ماينبغى أن يفهم من مشاركة السودانيين والمصريين جميعاً فى مايسبغ النهر على واديهم من خير وبركة ، وما يجرى به عليهم من فيض وإنعام .

أما بعد فان الله سبحانه قد أجرى النيل فى فيض زاخر ، وأمده بالغيث فى أكثر من منبع واحد ، وميزه على غيره من الأنهار فأخرج من مائه كل شئ حى ، وأنبت على ضفافه من كل الثمرات . وما كان الله ليقتر على خلقه فى الكنانة الكبرى حين أبدلهم من أمطار السماء ماء يجرى على الأرض ، وحين شاء لهم أن تأتيهم أسباب الحياة مع الفيضان فى كل عام . وليس أبغض إلى الله من أن يمن الناس بعضهم على بعض بما لا يملكون ، ولا أبغض إليه من أن يضيق الناس بعضهم على بعض وقد بسط الله لهم فى الرزق . وليس أحب إليه من أن يذكر الناس نعمته السابغة ورحمته التى وسعت كل شئ . والله

سبحانه قد دبر الماء للناس فى ربوع هذا الوادى من أقصاه إلى أقصاه ؛ ولكنها الجهالة قد أعمتنا عن نور الله ، وكادت تضلنا سواء السبيل . بل هو المكر السيئ من جانب أولئك الذين فرضوا أنفسهم على الوادى وأبنائه ففرقوا بينهم وسعوا بالباطل يقطعون ما وصل الله ، ويحبسون الخير وقد منحه الخالق، ويقيمون أنفسهم حلفاء لنا ولكنه حلف الغالب للمغلوب ، ويظهرون للناس بالنصح والارشاد وهم نحو الغاية ساعون وبالباطل مرجفون . ومع ذلك فقد يكون من الخير لنا ونحن فى هذه المرحلة من كفاحنا القومى فى الشمال والجنوب ، أن نذكر قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وليس أمام أبناء الوادى جميعاً إلا أن يكونوا يداً واحدة تعمل من أجل الخير ، وإلا أن يوقنوا أن القطيعة فيما بينهم لم يأمر بها الله ؛ فقد أجرى عليهم الحياة من نيل واحد ليعيشوا فى كنانته الكبرى شعباً واحداً وأمة واحدة . وهم إن فعلوا ذلك فستدين لهم الأمور ، وسيجدون من ماء النيل إن هم عرفوا قدره وأحسنوا تدبيره مايروى الأرض ويخرج الثمرات ويفيض بالخير والبركة على الخلق جميعاً بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال.

سليمان حزين

تطور الدبلوماسية الأمريكية

من العزلة إلى سياسة عالميـة استعمارية

لم يكن خطاب الرئيس ترومان فى البرلمان الأمريكى (الكونجرس) وهو الخطاب الذى رسم فيه صورة قاتمة لعالم ما بعد الحرب ، وأعلن عزم الولايات المتحدة على مساعدة اليونان وتركيا ، ومقاومة خطر الدكتاتورية والشيوعية الذى ينساب رويداً إلى بعض نواحى القارة الأوربية ويهدد مصاير الشعوب الحرة ، مفاجأة لأولئك الذين تتبعوا سير الدبلوماسية الأمريكية فى عشرة الأعوام الأخيرة ، ولكنه كان بلا ريب عهداً جديداً يؤكد أهمية الطور الجديد الذى تجتازه الدبلوماسية الأمريكية فى عصرنا .

وقد تقلبت الدبلوماسية الأمريكية فى طورين بارزين ، لزمت أولها زهاء قرن من الزمان ملازمة قوية أمينة ، وهو طور العزلة السياسية التى لبثت دهراً أبرز ظاهرة فى السياسة الأمريكية ، ولم تعدل عنه إلا بفعل أحداث عالمية خطيرة رأت أنها لا تستطيع إزاءها المضى فى سياسة الانكماش والجمود القديمة ، وأنه لا بد لها أن تنزل إلى ميدان الحوادث الدولية لتأخذ فى توجيهها بنصيب يتفق مع قوتها ومكانتها وغناها .

ويقترن طور العزلة السياسية بتاريخ الولايات المتحدة طوال القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر . ولا بد لنا لفهم البواعث التى حدت بالسياسة الأمريكية إلى مجانبـة عزلتها المأثورة أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر حينما اتخذت أمريكا قرارها الشهير بانتهاج العزلة السياسية . ففى ذلك الحين كانت الولايات المتحدة حديثة عهد بالحرية والاستقلال ، وكانت أوربا قد هبت عليها عقب الحروب النابوليونية ريح من الطغيان تؤازره الملوكيات الأوربية المحافظة فى روسيا وألمانيا والنمسا ، وهى التى عقدت فيما بينها المعاهدة المقدسة -لتتعاون على قمع الحركات الحرة ، وكانت أمم أمريكا اللاتينية التى تحتل أواسط أمريكا وأمريكا

الجنوبية ، قد استطاعت أن تفوز بالتحرر من نير سيدتها القديمة أسبانيا . وكانت الولايات المتحدة وهي أقوى الأمم الجديدة المحررة تخشى عدوان الدول الأوربية القوية ، وتخشى أن تعود هذه الدول فتحاول غزو الأمم الأمريكية المحررة واستعمارها ، قبل أن يكتمل استقرارها ، وبذلك تهدد سلامتها وسلام القارة الأمريكية كلها . عندئذ اعتزمت الولايات المتحدة أن تصارح أوربا بنية كانت تساورها منذ عهد واشنطون ذاته ، فاتخذت قرارها الشهير الذي أعلنته على لسان الرئيس مونرو في ديسمبر سنة ١٨٢٣ .

ويتلخص تصريح الرئيس مونرو وهو الذي ألقاه أمام البرلمان فيما يأتي : « إن الولايات المتحدة لا شأن لها بالحروب الأوربية . ولكنها تحذر الدول الأوربية وتنذرها أن أية محاولة من جانبها لبسط سيادتها على أية بقعة من نصف الكرة الغربي سوف تعتبر خطراً على سلام الولايات المتحدة وسلامتها ، وإن حكومة الولايات المتحدة لن تحاول التدخل في شأن المستعمرات الحاضرة في أمريكا أو الأراضي التابعة للدول الأوربية ، ولكنها لن تسمح أن تقوم هذه الدول بأي ضغط أو تدخل يراد به اضطهاد أية دولة من دول أمريكا اللاتينية الجديدة أو السيطرة عليها . » ومعنى ذلك أن أمريكا لن تسمح لأية دولة من الدول الأوربية أن تحاول استرداد مستعمرات أسبانيا المحررة أو السيطرة على أية بقعة أخرى من القارة الأمريكية في المستقبل سواء بالفتح أو الشراء أو التعاقد .

تلك خلاصة التصريح الأمريكي الشهير الذي عرف من ذلك الحين بمبدأ مونرو ، والذي غدا أساساً لسياسة أمريكا الخارجية يؤكده كل رئيس جديد للولايات المتحدة ، ويعتبر بمثابة أصل دستوري لا محيص عنه ، وذلك بالرغم من كونه لم يدمج في الدستور ، ولم يصدر به قانون ولم يعترف به كأصل من أصول القانون الدولي .

وقد غدا مبدأ مونرو من ذلك التاريخ شعار الولايات المتحدة ، لا تبغي به بديلا أو تجعله موضع مساومة ، وتحرص على أن تضمن كل معاهدة دولية تعقدها تحفظاً خلاصته أنه لن يعتبر شيء في المعاهدة يخالف أو ينقص أو يضعف من مبدأ مونرو .

وشهرت أمريكا مبدأ مونرو في وجه فرنسا سنة ١٨٦٥ حينما أرسل نابليون الثالث حملته إلى المكسيك تحاول أن تنشئ فيها إمبراطورية على رأسها

مكسمليان فون هبسبورج ، وهددتها باستعمال القوة المسلحة لمقاومة محاولتها . ولكن فرنسا ما لبثت إزاء تطور الحوادث وثورة الوطنيين أن اضطرت إلى الانسحاب وكان هذا أعنف تطبيق لمبدأ مونرو لجأت إليه أمريكا فى القرن الماضى .

وكان مبدأ مونرو ما يزال أساس الدبلوماسية الأمريكية فى أوائل القرن الحالى ، وقد لخصه الرئيس ولسون فى قوله : «إن مذهب مونرو تؤيده كل موارد الولايات المتحدة » يلخص فى قولها لباقى دول العالم « ارفعوا أيديكم عن نصف الكرة الأمريكى » .

وبالرغم من أن مبدأ مونرو كان أعظم سياج لحماية الدول الأمريكية اللاتينية من الاستعمار الأوربى فإن هذه الدول كانت تشعر دائماً بأن مبدأ مونرو يهدد سيادتها فى الوقت نفسه ، ويجعلها دائماً تحت رحمة اتجاهات السياسة الأمريكية . وقد تدخلت أمريكا فى الواقع أكثر من مرة فى شؤون بعض الدول الأمريكية الصغرى مثل هايتى وكوبا وسان دومنجو ونكاراجو وبناما . واتهمت أمريكا بأنها تعمل تحت ستار مبدأ مونرو لفرض سيادتها على دول أمريكا اللاتينية وإخضاعها لنفوذها الاقتصادى . ولكن الولايات المتحدة كانت تؤكد دائماً بأنها ليست لها أية غايات استعمارية فى أمريكا اللاتينية .

ولما نشبت الحرب الكبرى وقع أعظم تطور فى الدبلوماسية الأمريكية ، وكان من جراء اعتداء الغواصات الألمانية المتكرر على السفن الأمريكيةو إغراقها أن دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء فى أبريل سنة ١٩١٧ . ولكن هذا السبب الظاهر كان يقترن بفكرة أبعد مدى ؛ فقد أشار الرئيس ولسون فى خطابه الذى طلب فيه من البرلمان إعلان الحرب إلى « أن العالم يجب أن يكون ملاذاً أميناً للديمقراطية» . وهكذا وقفت أمريكا إلى جانب جبهة الحلفاء الديمقراطية ضد ألمانيا الإمبراطورية ، وخاضت بذلك أول حرب أوربية فى تاريخها ، وكان ذلك أول خروج صريح على مبدأ مونرو وسياسة العزلة الأمريكية .

وفى أوائل سنة ١٩١٨ ألقى الرئيس ولسون دعوته إلى عقد الصلح « دون نصر » وأذاع مبادئه الشهيرة لتكون دستوراً لعقد الصلح ، ومنها النص على حرية البحار ، وإلغاء الحواجز الجمركية ، وخفض السلاح ، وتسوية المسائل الاستعمارية بمراعاة مصالح الشعوب ذات الشأن ، وإنشاء عصبة أمم

تشرف على تحقيق الاستقلال السياسى والسيادة الإقليمية لجميع الأمم كبيرها وصغيرها . ولما عقدت الهدنة مع ألمانيا وبدأت مباحثات الصلح فى فرساى (أوائل سنة ١٩١٩) كان الرئيس ولسون نفسه على رأس الوفد الأمريكى . ولكن ولسون لم يستطع أن يحقق فى مؤتمر الصلح كل ما كان يرمى إليه ، وكان أكبر عزاء له أن دستور عصبة الأمم أدمج فى معاهدة فرساى واعتبر جزءاً لا يتجزأ منها . على أن المعاهدة لم تحز قبول البرلمان الأمريكى . وبالرغم مما بذله ولسون من وسائل الاقناع والمحاجة ، وبالرغم مما ألقاه فى البلاد من خطب رنانة لتأييد السياسة التى سار عليها ، فقد رفض مجلس الشيوخ الموافقة على معاهدة فرساى . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى أخفق الديمقراطيون فى انتخابات الرياسة وانتخب للرياسة مكان ولسون رئيس جمهورى هو ورن هاردنج بأغلبية ساحقة . وبذلك أبدى البرلمان وأبدت الأمة كلها عداءها الصريح لسياسة ولسون الخارجية ، وهى السياسة المنطوية على التدخل فى الشؤون الأوربية ، و إيثارها لسياسة العزلة القديمة والتمسك بمبدأ مونرو .

واستمرت الدبلوماسية الأمريكية مدى حين على عزلتها المأثورة ، ولم تقبل تورطا فى المشاكل الأوربية حتى بدت نذر الخطر من جديد ، يذكيها ما أبدته إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية من ضروب الاعتداء والتحدى . ولما بدت طلائع الحرب العالمية الثانية واضحة ، رأى الرئيس روزفلت — وكان الحزب الديمقراطى قد عاد يومئذ إلى الرياسة — فى سياسة التحدى النازية والفاشستية ما يهدد سلام العالم وسلام أمريكا بطريق غير مباشر . فبذل وساطته لدى هتلر وموسولينى لكى يعملا على اجتناب أسباب الحرب والمعاونة لصون السلم فلم يثمر سعيه . ووقعت الحرب ، وظهر يومئذ من قوة ألمانيا وشدة بأسها ، وما أتيح لها فى فترة قصيرة من اجتياح فرنسا ودول أوربا الغربية كلها ، أن الخطر على الديمقراطية فى هذه المرة أعظم وأبعد مدى ، كما ظهر من روعة سلاح الطيران الألمانى وامتداد نشاطه حتى الجزيرة الخضراء جرينلند ، وامتداد نشاط الغواصات الألمانية حتى شواطئ الاطلنطيق الغربية ، أن الخطر ليس بعيداً عن أمريكا . وكان الرئيس روزفلت يرى منذ البداية ، ومعه فريق كبير من الشعب الأمريكى ، فى الاعتداء النازى تهديداً صريحاً لسلامة أمريكا ، وأن سقوط فرنسا بهذه السرعة ، وضعف انجلترا ووقوفها بمفردها فى الميدان من أخطر النذر التى تهيب بأمريكا

أن تعمل لتدارك الموقف ؛ ولذلك لم يدخر الرئيس روزفلت جهداً فى معاونة الجبهة الديمقراطية ومعاونة انجلترا بمختلف الوسائل الاقتصادية والعسكرية قبل أن تدخل أمريكا الحرب ، ولم يحجم عن توقيع ميثاق الأطلنطيق مع مستر تشرشل وهو صريح فى التحالف على مقاومة الاستبداد النازى والقضاء عليه . ولم تأت أواخر سنة ١٩٤١ حتى كان الرأى العام الأمريكى يؤيد روزفلت ويناصره فى سياسة التدخل فى الحرب . وما كاد الاعتداء اليابانى يقع على بيرل هاربور فى شهر ديسمبر حتى دخلت أمريكا الحرب العالمية الثانية توًّا إلى جانب الجبهة الديمقراطية وضد ألمانيا و إيطاليا واليابان .

ولم يكن اشتراك أمريكا فى الحرب فى هذه المرة مسألة عاطفية أو مثالية فقط على نحو ما كان يغلب على تدخلها فى الحرب العالمية الأولى . ولكنه يرجع إلى شعور أمريكا شعوراً عميقاً بأنها تدافع عن سلامتها وكيانها وسلامة نظمها ، و إلى الاقتناع بأن سقوط الديمقراطية فى أوربا وسقوط انجلترا حصنها الباقى أمام الغزاة النازيين نذير بسقوط الديمقراطية فى أمريكا . ومن ثم فقد نزلت أمريكا هذه المرة إلى الميدان بكل قوتها ومواردها ، واشتركت قواتها فى سائر الميادين : فى آسيا و إفريقية وأوربا ، وأمدت جميع دول الحلفاء بالعتاد والسلاح ، واضطلعت بأكبر قسط فى غزو التحرير فى أوربا ، ولبث رئيس الولايات المتحدة طول أيام الحرب أحد الأقطاب الثلاثة الذين يوجهون مصايرها فى مؤتمراتهم المختلفة . ولما انتهت الحرب العالمية الثانية بظفر الحلفاء أو الأمم المتحدة ، اشتركت أمريكا فى احتلال ألمانيا وإيطاليا واليابان ، واشتركت فى تنظيم شروط التسليم وفى مؤتمر بوتسدام وفى إعداد معاهدات الصلح مع إيطاليا وغيرها من الدول التى كانت محالفة لألمانيا . وهى تشترك فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى تقرر إنشاؤه فى مؤتمر بوتسدام منذ البداية . وقد قامت بدور بارز فى مؤتمر موسكو الذى الذى اجتمع لتقرير مصير ألمانيا . والخلاصة أن الدبلوماسية الأمريكية تأخذ اليوم بأعظم نصيب فى توجيه السياسة الدولية وتسوية المشكلات الأوربية والعالمية .

أضف إلى ذلك كله أن أمريكا قامت بنصيب بارز فى إعداد دستور هيئة الأمم المتحدة ، وهى اليوم من أبرز أعضائها و إحدى الدول الخمسة ذات الكراسى الدائمة فى مجلس الأمن . وفى أمريكا ذاتها يوجد مركز الأمم المتحدة و يجرى نشاطها الدولى الخطير .

وإذاً فنحن نشهد عهداً جديداً للدبلوماسية الأمريكية تنبذ فيه عزلتها القديمة للمرة الثانية، ونبذتها فيه هذه المرة بصورة مطلقة، ونزلت إلى معترك المشاكل العالمية بكل قوتها ومواردها. بل يبدو فوق ذلك أن أمريكا قد وطنت النفس على أن تنزل فى الوقت نفسه إلى ميدان التنافس الاستعمارى. وقد جاء خطاب الرئيس ترومان الخاص بمساعدة تركيا واليونان دليلا واضحاً على هذا الاتجاه الجديد. ولم يخف الرئيس ترومان أن أمريكا تقصد بهذه المعاونة المالية والعسكرية الواسعة المدى للدولتين اللتين تقعان فى المدخل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط أن تعمل على صد الزحف الروسى نحو هذه المنطقة ووقف التيار الشيوعى الذى يسيطر اليوم على رومانيا ويوجوسلافيا وبلغاريا. وقد كانت انجلترا حتى اليوم تتولى مهمة حراسة هذه المنطقة وتعمل بكل ما وسعت على معاونة تركيا واليونان لمقاومة سياسة الاندفاع الروسى، فلما لم تستطع المضى بمفردها فى تلك المهمة قامت أمريكا تؤازرها وتأخذ على عاتقها بذل هذه المعاونة وذلك باتفاق بين الدولتين. ومن الواضح أن المصالح الأمريكية البريطانية العظيمة فى الشرق الأوسط والتى تتركز حول استغلال مناطق الزيت الغنية فى إيران والعراق وجزيرة العرب هى الهدف الأول المقصود بالحماية، وذلك مهما حاول الرئيس ترومان أن يسبغ على أقواله لوناً عاطفيا مثاليا يتعلق بحماية الأمم الديمقراطية المحبة للحرية من عدوان الشيوعية والنظم الدكتاتورية. بل نحن لا ننسى أن الرئيس ترومان يعمل بمساعدته لتركيا على دعم الدكتاتورية العسكرية الكمالية التى تفرض على تركيا منذ خمسة وعشرين عاماً حكم طغيان مطبق، ويعمل بمساعدته لليونان على دعم نظام فرض على الشعب اليونانى بقوة الحراب البريطانية.

والحقيقة السافرة هى أن الدبلوماسية الأمريكية تتأهب لمقارعة سياسة التوسع الروسية ومقاومتها. وقد غدت منطقة البحر الأبيض الشرقية والشرق الأوسط مسرحاً هاما من مسارح هذا النضال. وأمريكا تحرص مثل بريطانيا على ألا يتسرب الروس إلى الدردنيل أو بحر إيجه والخليج الفارسى. وتحاول أمريكا فى الوقت نفسه أن تحصل على قواعد بحرية فى البحر الأبيض المتوسط؛ ولعلها تحصل على قاعدة فى قبرس، وفى رودس. ومن المعروف أنها تبذل مثل هذه المحاولة بالنسبة لطرابلس قاعدة

لوبية الغربية ، وهي محاولة تؤيدها انجلترا دفعاً لمطامع روسيا التي تطالب أيضاً بطرابلس .

والظاهر أن أمريكا لن تقف في مقاومة التيار الشيوعي عند مساعدة اليونان وتركيا . فقد ورد في الأنباء الأخيرة ما يدل على أن أمريكا تزمع مساعدة فرنسا اقتصاديا وذلك لتمكينها من مقاومة الضغط الشيوعي الذي يهدد لديها كل استقرار ونهوض ويخشى إذا عجزت عن مقاومة أن تنحدر إلى معترك الفوضى .

وتشعر روسيا السوفيتية بخطورة التدخل الأمريكي في شؤون البلقان والشرق الأوسط على سياستها ومشاريعها . وقد ظهر صدى خطاب الرئيس ترومان في تعليقات الصحف السوفيتية وحملاتها على مشاريع الاستعمار الأمريكي بعنف . ولكن أقطاب الكرملين لم يفصحوا حتى اليوم عن الاتجاهات الجديدة التي يمكن أن تجنح إليها روسيا لمقاومة السياسة الأمريكية .

وتثير السياسة الأمريكية الجديدة في داخل أمريكا ذاتها كثيراً من الريب والاعتراضات . وقد حمل عليها كثير من قادة الرأي ، وفي مقدمتهم مستر ولاس نائب الرئيس السابق حيث وصفها بأنها سياسة استعمارية وسياسة عنف وتحد تؤدي إلى الحرب . ورأى البعض الآخر أنها مناقضة لميثاق الأمم المتحدة ، ولكنا رأينا مجلس الأمن حين أثيرت لديه هذه المسألة يقر أمريكا على برنامجها لمساعدة اليونان وتركيا ويأبى كل تدخل في شأنه .

تلك هي أطوار الدبلوماسية الأمريكية في نحو قرن من الزمان . فقد بدأت في أوائل القرن الماضي حريصة على عزلتها التي قررها مبدأ مونرو ، ثم خرجت عن عزلتها التاريخية لأول مرة في الحرب الكبرى ،ولكنها سرعان ما انكمشت وعادت إلى التمسك بعزلتها . ومنذ الحرب العالمية الثانية تعود أمريكا فتهجر عزلتها وتنزل بكل قواها ومواردها إلى ميدان الكفاح العالمي سواء في الحرب أو السلم . وهي اليوم تنزل إلى ميدان التنافس الاستعماري الاقتصادي والسياسي لأول مرة في تاريخها . وكل ما هنالك يدل على أن أمريكا سوف تمضي في سياستها الجديدة قدماً ، وأنها لن تستطيع نكوصا إلى الوراء ولن تعود إلى عزلتها المأثورة ؛ فسبيل هذه العودة قد انتهى ، فيما يبدو ، بما ارتبطت به أمريكا من العهود والمصالح الدولية والاستعمارية الخطيرة ، وبما حققته لنفسها بانتصاراتها

فى الحرب الأخيرة من نفوذ عالمى تدعمه القوة الحربية والاقتصادية .

على أنه يبقى دائماً من مذهب مونرو شطر تتمسك به أمريكا وتحرص أشد الحرص على تطبيقه ، وهو ما ينص عليه من أن أمريكا لن تسمح لأية دولة من الدول الأوربية بأن تقوم بأى ضغط أو تدخل فى شؤون نصف الكرة الغربى . وقد كان مذهب مونرو يضع هذا الانذار للدول الأوربية مقابل العهد الذى أخذته أمريكا على نفسها من أنها لن تحاول تدخلا فى الشؤون الأوربية . ولكن ظروف العالم قد تغيرت اليوم تغيراً عظيما ، ولا تجد الدبلوماسية الأمريكية اليوم غضاضة فى أن تتحرر من هذا العهد القديم .

محمد عبد الله عنان

أمير تركى فى قصر البابا

ظل أهل روما منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية خائفين ،يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يتصل بهم الشر . لقد وضع المسلمون أقدامهم فى أوربا ووطدوها بالاستيلاء على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فأحدث ذلك رجة فى تلك المدينة العظيمة التى كانت عاصمة الامبراطورية الرومانية فيما مضى ، والتى كان يسيطر عليها عندئذ البابا وريث تلك الإمبراطورية فى سلطته الزمنية التى تشمل إقليما من إيطاليا ولكنها تمتد بسلطته الدينية لتظل العالم المسيحى بأسره .

دعا البابا أمراء المسيحيين للاتحاد والتآلف كى يقاوموا الخطر المحيق بهم ، ولكن المطامع كانت تحول دون ذلك . وظل الخطر يزداد باستيلاء السلطان التركى المسلم على أرض بعد أرض حتى وضع قدمه فى إيطاليا نفسها حين استولى على أوترانتو ، ولكنه لم يتقدم بعد ذلك .

وتتابعت السنون ولعبت المطامع دورها ، فوجد الفاتح حتى بين الأمراء المسيحيين أنصاراً وحلفاء ، وصارت السلطنة العثمانية التى تهدد المسيحية الأوربية لعبة سياسية تتخذها الدول الأوربية أداة للتغلب على خصومها ، وكانت روما تموج بالاشاعات والمتنبئين الذين يؤثرون فى عقول السذج . وكانت من أكثر النبوءات انتشاراً فى ذلك العهد نبوءة المتشائمين الذين يقولون إن سلطان الترك سيدخل روما .

وفى مساء يوم السبت ١٣ مارس سنة ١٤٨٩ تحققت هذه النبوءة . إذ عرف شعب روما بأسره أن سلطان الأتراك قد جاء إلى روما ، ولكنه جاء فى مناسبة سعيدة ، فهو يقابل مقابلة الضيف ، ولكنه أقرب ما يكون إلى الأسير . وهرع الناس إلى باب بورتيزى الذى سيقبل منه موكبه حين يدخل المدينة المقدسة قادماً إليها بالبحر من ميناء شيفيتافكيا . وذهبت الوفود من

رجال بلاط الفاتيكان على رأسهم جمع من الكرادلة لاستقبال السلطان التركى . حتى إذا دخل المدينة بموكبه يحف به رجاله تلقوه بالترحاب وأبلغوه تحية الحبر الكبير البابا إنوسنزو الثامن ، فتقبل هذه التحية فى هدوء وركب جواد البابا الأشهب وسار صامتا مربد الوجه وحوله المستقبلون . واحتشد الشعب يهتف لهذا السلطان التركى ضيف البابا . وكان هو يقابل هذا الهتاف فى كثير من الوقار ، لا تظهر على وجهه علائم الارتياح والغبطة ولا يحفل بهذا الهتاف إلا قليلا . وسار موكبه مخترقاً إيزولا دى سان بارتولوميو ثم ساحة جوديا ثم كامبودى فيورى ثم إلى قصر البابا حيث نزل فى الجناح المعد للضيوف من الملوك . وفى اليوم التالى استقبله البابا استقبالا خاصا ، وقد غير فى المراسيم من أجله ، فلم يفرض عليه أن يقبل قدم البابا كما كان يفعل الأمراء المسيحيون ، بل تقدم السلطان وقبل كتف البابا اليسرى فرحب به البابا كثيراً .

والحق أن هذا الأمير المسلم لم يكن سلطاناً ، بل كان ثانى أنجال محمد الفاتح ، ثم ادعى بعد وفاة أبيه أنه أحق بالسلطنة من أخيه الأكبر بايزيد ؛ لأنه ، على قول علماء الفقه والملتفين حوله من الروم ، ولد فى عهد سلطنة أبيه فهو ابن سلطان ، فى حين أن أخاه الأكبر بايزيد ولد قبل أن يتولى أبوه السلطنة . وكان التنافس بين الأخوين كبيراً حتى فى حياة والدهما . ولعل هذا الأمير الذى يدعى الأمير جم كان يشعر بشئ من الزهو ؛ لأن أمه أميرة سربية تزوجها محمد الفاتح ، على حين كانت أم بايزيد من الجوارى . وكان الأمير حتى فى صغر سنه يجد أنصاراً من رجال أبيه يعجبون بشجاعته ومايظهر عليه من مخايل النجابة والحكمة وحسن تصريف الأمور .

حتى إذا مات محمد الفاتح فجأة وهو لا يزال فى عنفوان رجولته وتولى بايزيد الحكم إذ هرع إلى القسطنطينية ، نازعه الأمير جم هذا الأمر ، وتألف جيشان ، وقام النزاع عنيفاً بين الأخوين ، ولكن حزم بايزيد قضى على الفتنة . واضطر الأمير جم أوجم سلطان ، كما كانوا يلقبونه ، أن يتقهقر إلى أطراف آسيا الصغرى ؛ وأرسل إلى الأستاذ الأكبر للفرسان الصليبيين فى جزيرة رودس مستنجداً به وبفرسانه . ففكر الفرسان وتناقشوا طويلا فى هذا الأمر وقرروا أخيراً أن يعاونوه فى الالتجاء إليهم ؛ إذ رأوا أن ثورته على أخيه قد يكون فيها بعض الفائدة لهم وللأمم المسيحية ، فكاتبوه يستدعونه إلى جزيرتهم ،

وأرسلوا سفينة من سفنهم لتأتى به معززاً مكرما مع خاصته من الرجال
ولم يكن أكبر الرسل الذين أرسلهم الأمير جم مطمئنا كل الاطمئنان إلى هذه الوعود ، ولكن الأمير لم يلتفت إلى رأيه وركب السفينة قاصداً إلى جزيرة رودس .

استقبل الأمير عند نزوله إلى الجزيرة بحفاوة كبيرة ؛ فقد تقدم الفرسان لاستقباله بمجرد أن وضع قدميه على البر ، فى حين أخذت القلاع تطلق المدافع تحية له والموسيقى تعزف مرحبة به . وتقدم الأمير فى وقار يحيط به أعوانه المخلصون ورد التحية لمندوبى الأستاذ الأعظم ثم امتطى فرساً وسار بموكبه وسط الجماهير التى كانت تهتف له بين طلقات المدافع . حتى إذا ماوصل إلى الساحة الكبرى للمدينة وجد الأستاذ الأعظم فى انتظاره . فنزل الأمير جم وتقدم إليه وحياه على الطريقة التركية بأن يرفع سبابته إلى فمه ثلاث مرات ، ورد الأستاذ الأعظم إليه التحية على طريقة الأمراء المسيحيين ثم تصافحا ، وسارا معا نحو القصر الذى خصص للأمير وهما يتحادثان ، بوساطة المترجم . فاذا وصلا إلى القصر استأذن الأستاذ الأعظم تاركا الأمير ليستريح من وعثاء السفر ، فدخل الأمير القصر .

فى ذلك اليوم افتتحت فى حياة الأمير صفحة جديدة لم يكن هذا الأمير ليقدرها . فقد جاء يطلب النجدة ، وظن أن الأمراء المسيحيين سيعاونونه على اعتلاء العرش ، وقد بذل له الأستاذ الأعظم الوعود نيابة عن الجهات التى كان متصلا بها من ملوك ورؤساء دينيين . وقد رأى ورأى معه مستشاروه من الفرسان أن من الخير أن ينقل هذا الضيف إلى فرنسا ، حيث يكون من اليسير الاحتفاظ به ؛ فأخبروه بذلك ، وأطمعوه فى مساعدة ملك فرنسا لويس الحادى عشر له ، وأنه سيكون بمأمن من أخيه ؛ فهم يخشون غضب السلطان بايزيد ومهاجمته جزيرتهم لإيوائهم أخاه الثائر . فلما سمع الأمير ذلك رحب بالفكرة ، وطلب الاسراع فى تنفيذها ، وعلى ذلك جهزت له السفينة التى تسير به إلى بلاد المغرب ، وأقيمت له مأدبة الوداع .

ويصف الواصفون أن الأمير جم جلس إلى المائدة التى جلس إليها الأستاذ الأعظم ، وكان يجد مشقة فى جلسته على الكراسى إذ لم يعتد هذا الجلوس أمام

مائدة حين يتناول طعامه ؛ فعادته فى بلاده أن يجلس على الأرض بعد أن تفرش له الوسائد ، ولذلك كان منحنياً فى جلسته ورأسه مطأطئ على صحاف الطعام . وكان بين وقت وآخر يسترق النظر إلى الأستاذ الأعظم للفرسان ليرى طريقته فى الأكل . وفى أثناء الطعام كانت الموسيقى تعزف ألحاناً أوربية ، وغنى أحد الانجليز لحناً أوربيا ، ولكن الأمير كان يجد هذه الألحان وتآلفها غريباً عليه ، فأظهر من العجب أكثر مما أظهر من الاعجاب . ولحظ الأستاذ الأعظم ذلك فأمر بأن يؤتى بعبد تركى ، فجئ به وغنى أناشيد بلاده مما أدخل السرور فى نفس الأمير وظهر على محياه شئ من الابتسام .

فلما انتهى الطعام تقدم الأمير وشكر الأستاذ الأعظم وشكر سائر الفرسان الحاضرين لما أظهروه من حفاوة ، وأعلن أنه لو استرد ملكه فسيعرف كيف يعبر عن شعوره بما هو فوق الشكر . وقدم إلى الأستاذ وثيقة عليها توقيعه وخاتمه يعلن فيها أنه يتعهد بالمحافظة على سلم دائم مع الفرسان بمجرد استرداد عرش أبيه ، وأن يكون بينهم وبين تركيا حرية التجارة ، دون أن تفرض أية ضريبة ، وأن يسلم إلى الأستاذ فى كل سنة ثلاثمائة من العبيد المسيحيين يتصرف فيهم كيف يشاء . وأخيراً وعد بأن يدفع لهم مائة وخمسين ألف دينار من الذهب للنفقات التى سببها لهم .

كان فرح الفرسان عظيما لهذه المعاهدة ، على أنها لم تكن الوثيقة الوحيدة التى استخلصوها من الأمير جم ؛ فقد قطع على نفسه عهداً بأن يخضع لرأى الأستاذ الأعظم ومشورته فى تصرفاته المقبلة كما وكل إليه حرية التفاوض مع أخيه لصالحه .

وفى اليوم التالى لهذه الليلة الحافلة التى كرم فيها الأمير جم ، نزل هذا الأمير إلى البحر مع أتباعه فى سفينة الفرسان قاصداً أرض أوربا .

لم يضع الأستاذ الأعظم الوقت سدى . ففى اليوم التالى كانت سفينة رسله تمخر عباب الماء قاصدة السلطان بايزيد ، ليخبروه بما كان من أمر أخيه ، ويعتذروا إليه بأنه إنما قوبل فى حدود ما يفرضه الواجب الانسانى ، وأن جزيرة رودس ملجأ مفتوح لكل من يلوذ به ، وأنه قوبل المقابلة اللائقة بأمير تركى من البيت الذى نشأ فيه . وجرت المفاوضات بين هؤلاء الرسل

ورجال السلطان ، وانتهت بعقد معاهدة بينهما كانت فى مصلحة الحاكين فى الجزيرة ؛ فقد نصت على وقف الأعمال العدائية بين الفريقين المتعاقدين واستئناف التجارة بينهما ، وأن تكون الرسوم التجارية كالمألوف ، وأن يرفع أى خلاف إلى المحاكم المختصة ، وأن تحيي سفن كل فريق سفن الفريق الآخر ، وأن يعاد الذين يهربون من الرقيق إلى أصحابهم ماداموا لم يغيروا من دينهم وألا تدفع عنهم الفدية .

وعاد الرسل ومعهم رسول تركى قابل الأستاذ الأعظم للفرسان ، واتفق معه على أن السلطان يتعهد بأن يدفع فى أغسطس من كل سنة مبلغ خمسة وأربعين ألف دينار دوقى من عملة فينيسيا ، على أن يحتفظ الأستاذ الأعظم بحراسة الأمير جم ويحول دون أن يكون هذا الأمير خطراً على السلام القائم بينهما .

وهكذا أقدم الأستاذ الأعظم على أول خطوة فى سبيل الغدر بذلك الأمير الذى استجار به . ولكن هل هذا العمل كان بعيداً عن روح العصر ؟

سارت السفينة تحمل الأمير جم وفى قلبه الآمال الكبار إلى ساحل أوربا وهى تقترب من مسينا حيث رأى الأمير تلك الجزيرة المحترقة ، وهى جبل يكتنفه الدخان من الصباح إلى المساء ، فاذا جن الليل صارت جبلا من النار .

كانت السفينة فى سيرها تتجنب سفن الدول الأوربية الأخرى لاسيا دولة البندقية ؛ إذ أن هذه الدول التى سمعت بحكاية هذا الأمير ، كانت تحاول الاستيلاء على شخصه طمعاً فيا يجره ذلك من فوائد مادية . وأخيراً وصلت السفينة إلى أرض سافوا حيث أنزل الأمير إلى مدينة نيس ، بحدائقها الغناء وغانياتها الحسان ، كما يقول المؤرخ التركى . وهنالك عاش جم فى انتظار الإذن بالالتجاء إلى ملك فرنسا كى يعاونه على استرداد حقوقه وملكه .

ولم يكن الأمير جم ليعلم ماقام حوله بين ملوك أوربا وأمرائها من تنافس مقنع ثم سافر للاستيلاء على شخصه ، يزعم كل منهم فى بادئ الأمر أنه يريد خير المسيحية ، ثم لا يلبث القناع أن يزول وتتبين روح الجشع فى النفوس .

فهذا ملك نابولى يبدى موافقته على مسلك الأستاذ الأعظم ، وهذا البابا يثنى على سلوكه ، وهذا ماتياس كورفن ملك المجر المهدد من الأتراك يؤيد ما فعله الأستاذ الأعظم .

وظل الأمير مقيما فى نيس أربعة أشهر ، ثم انتشر فيها وباء مخيف . فرئى أن ينقل منها ، وكان حراسه يفهمونه بأنهم ينفذون رغبته . ولكن من المؤكد أنه بدأ فى ذلك الوقت يشعر بما يدبره له الحراس وأنه ليس إلا سجينهم . ولقد سار موكبه وئيداً إلى شامبرى حيث التقى بدوق سافوا الذى وعده بالمعونة ، ولعله كان جادا فى وعده ، ولذلك أسرع به حراسه إلى الأراضى الفرنسية .

وقبل أن يدخل تلك الأراضى وصلته رسالة من أخيه السلطان بايزيد على يد رسول كان بايزيد قد أرسله إلى ملك فرنسا ، وفى هذه الرسالة يعاتب أخاه على مافعله من الخروج عليه ، ويتمنى له السعادة فى منفاه . وكان الرسول يرغب فى مقابلة الأمير جم ، غير أن الحراس عارضوا فى ذلك معارضة شديدة . وظهر للأمير جم تماماً أنه سجين ، وأنه لا سبيل لتحقيق مطامعه إلا بالافلات من حراسه ، فأخذ منذ ذلك الوقت يبدى الحذر فى تدبير أموره واستسلامه لهؤلاء الحراس .

أما حارسوه فأحسوا من جهتهم ريبة الأمير التركى بهم . وحدث أن توفى الملك لويس الحادى عشر الذى كان متولياً عرش فرنسا فى ذلك الوقت ، فخشوا أن ينتهز الأمير فرصة ما قد يحدث من اضطراب فى الأمور فى فترة تغير الجالس على العرش ، فقرروا أن يفصلوا بين الأمير وبطانته من الأتراك . وعلى ذلك أصبح الأمير ذات يوم فاذا به يجد مقره محاطاً بنحو ثمانمائة من الفرسان المسلحين الذين ينتزعون بالقوة تسعة وعشرين من رجاله الأتراك . واحتج الأمير احتجاجاً شديداً ، ولكن حراسه أجابوه بأنهم إنما يعملون ما فى مصلحته وما تقتضيه الأحوال ، وأن هؤلاء الرجال من بطانته سيعاملون خير معاملة ، وأقسموا له على ذلك بالانجيل .

ونقل الأمير مع من بقى له من رجاله إلى قصر حصين فى بلدة روشنفور ، وهنالك كان يزوره بعض النبلاء من حكام البلدان المجاورة . ومن الذين كانوا يزورونه وألفهم الكونت دى ساسناج ، وكانت له ابنة جميلة

تعرفت إلى الأمير التركى فمال إليها وأحبها ، وقد وضع المؤلفون حول ذلك الحب أكثر من قصة وأكثر من قصيدة .

وكانت الأنظار كلها فى ذلك الوقت متجهة إلى ذلك الأمير التركى الأسير على أن الأمير كان يفكر فى تدبير ما يرى فيه مصلحته ؛ فقد اتخذ عن طريق أتباعه جواسيس من الايطاليين ينقلون إليه الأخبار التى تهمه ويسعون للاتصال بأعوانه ، وكانت أمه قد ذهبت إلى قايتباى سلطان مصر تستنجد به كى يساعد ابنها على الخلاص من أيدى الفرنج ، فأخذ السلطان وهو مناوئ للعثمانيين يسعى لاستخلاص الأمير وإجلاسه على عرش آل عثمان كى يكون صديقاً بدلا من عدو .

وكان أخوه بايزيد فى الوقت نفسه يتوجس خوفاً من أن يفلت أخوه من يد ساجنيه ، فأخذ يتصل بأمراء الفرنج ويتودد إليهم محاولا أن يقنعهم بالاحتفاظ بأخيه وباذلاً لهم المال إغراء لهم بأن يظلوا على علاقاتهم الحسنة معه . وقد سبق أن قلنا إنه أرسل إلى لويس الحادى عشر رسولا من كبار رجاله اسمه حسين بك لكى يعقد معه اتفاقاً ، وكان الرسول يحمل الهدايا والطرف النفيسة . ولكن الملك لويس كان فى أيامه الأخيرة ، مشغولا بمن كان يحيط بهم نفسه من مشعوذين وسحرة لكى يحاول أن يطيل من أيامه المعدودات ، وقد ذهب فى سبيل ذلك إلى أن يشرب الذهب المذاب ، وقيل إنه شرب من دماء الأطفال ، فلم يكن مستعدا فى ذاك الوقت إلى أن يعقد أواصر الاتصال مع أمير غير مؤمن وهو على حافة القبر . وعاد حسين بك دون أن يصل إلى نتيجة وهو الذى حمل رسالة السلطان بايزيد إلى أخيه جم ، وحاول أن يقابل الأمير ولكن الحراس حالوا دون أن يوفق فى هذه المهمة أيضاً .

ورأى السجانون أن الوقت حان للانتقال بسجينهم إلى جهة أخرى ، إذ خافوا من هذه الاتصالات التى صار الأمير مركزها بعد أن مكث طويلا فى تلك الجهة ، فقرروا أن ينقلوه إلى أحد حصونهم فى مقاطعة أوفرن وذهبوا به إلى حصن حصين تقوم إلى جانبه أربعة أبراج ضخمة ، وهذا الحصن كان ملكا لأخى الأستاذ الأعظم ، ثم عادوا فنقلوه إلى جهة أخرى إلى أن يتيسر لهم أن يقابلوا بأسيرهم ملك فرنسا الجديد .

وكان الأستاذ الأعظم غير مكتف باحتجاز جم لصالح خزينته أو لصالح

المسيحية كما يزعم ، بل بدأ يتخذه سلاحاً سياسيا ينال به المراتب ، وهذا ما فعله مع البابا أنوسنزو الثامن حين التمس منه أن يرقى أخاه إلى مرتبة كردنال ، فقد كان البابا يعلم أنه يلوح بتسليمه الأمير التركى فى نظير ذلك ، فنال أخوه هذه المرتبة ؛ ولكن الأستاذ الأعظم ظل محتفظاً بأسيره فى أرض فرنسا .

ودخل الأستاذ الأعظم فى الوقت نفسه فى مفاوضة مع فرانتى ملك نابولى الذى رغب إليه فى أن يسلمه الأمير التركى ، ولكنه اعتذر بأنه خاضع للبابا . وكذلك كان يتقبل المنح والهدايا من قايتباى سلطان مصر ثم يلتمس الأعذار عن تحقيق رغبته . وأخيراً تمكن البابا بعد مفاوضات طويلة مع الأستاذ الأعظم من أن يصل إلى ما يشبه الاتفاق على أنه لصالح المسيحية جمعاء يجب أن ينقل الأمير إلى إيطاليا ويكون فى كنف قداسة البابا والكنيسة حيث توضع تحت تصرفه ضيعة يقيم فيها ، فى حراسة كردينال فرنسى يقسم على أن يحافظ عليه كل المحافظة ، ولا يسلم فى الأمير إلا بأمر البابا والمجمع المقدس والأستاذ الأعظم ومجمع فرسانه . وإزاء ذلك رفع البابا مرتبة الأستاذ الأعظم إلى مرتبة كردينال للكنيسة المقدسة ، وتم هذا الاتفاق فى سنة ١٤٨٦ .

ومن الدلائل على أن الأستاذ الأعظم كان يستفيد فائدة كبيرة من اللعب بالورقة التى يحتجزها أنه تلقى من السلطان قايتباى مبلغاً كبيراً من المال لكى يسمح باتصال والدة الأمير به ، فقبل المال وأرسل رسائل مزورة من الأمير إلى والدته يزعم فيها أنه مطلق السراح وأنه باق برغبته . ولكن ظهرت الحقيقة فيما بعد وعرف أنه تقبل المال دون أن يفى بوعده ، وغضب بعض الأمراء المسيحيين لهذه الحال .

وظل الأمير مقيما فى فرنسا وملكها شارل الثامن يمانع فى تسليمه للبابا إلى سنة ١٤٨٩ حيث رأيناه يدخل إلى روما فى موكب حافل كأنه ضيف كريم لا أسير محمول ليكون ألعوبة فى يد ساسة ذلك العصر .

عاش الأمير جم فى كنف البابا أنوسنزو الثامن . ولم يكن البابا فى ذلك الوقت خالياً من المتاعب ، بل الواقع أنه كان يجد عدوا شديد المراس فى شخص جاره فرانتى ملك نابولى الذى كان يجمع جنوده ليستولى على الأراضى التى يحكمها البابا ، وكان يبعث للبابا بالرسائل مهدداً وساخراً ، حتى خيل إلى

الناس فى يناير سنة ١٤٩٠ أن الحرب واقعة لا محالة بين البابا وجاره . وكان البابا يستنجد أمراء إيطاليا لمعاضدته ، وكانت تلك السنة ملبدة بالغيوم بالنسبة للبابا وثقلت وطأة المتاعب عليه حتى أصيب فى أغسطس بالحمى ، وبلغ به المرض حد اليأس . ثم استرد صحته قليلا ، ولكن المرض عاد إليه أشد مما كان ، وأشيع فى ٢٦ سبتمبر أن البابا توفى ، وأرسل بعض السفراء هذا النبأ لدولهم . فتسلح أهل روما انتظاراً لما سيحدث من اضطرابات فى المدينة بين وفاة البابا وانتخاب آخر . وحاول ابن البابا غير الشرعى — فرانشسكو تشيبو — أن يضع يده على خزائن المال البابوى ، وأن يخطف الأمير جم أسير والده الذى كان يقيم عندئذ فى القصر البابوى ، ليبيعه لملك نابولى . ولكن الكرادلة كانوا يقظين فلم تتم هذه المحاولة . وظهر أن البابا لم يمت و إنما غشى عليه ، ثم بدأ يتماثل صحته على ما به من ضعف كبير . وتمكن من السفر إلى بلدة أوستيا الساحلية للاستشفاء وعاد منها ولم يزل المرض يلازمه . وكان بعض الأمراء قد سعوا إلى الصلح بينه وبين ملك نابولى فتم ذلك ، ولكن حالة البابا كانت تدل على أنه لا يعيش طويلا . وفى ٢٥ يوليه من سنة ١٤٩٢ توفى البابا ، وكان على أمراء الكنيسة أن ينتخبوا من يشغل عرشه .

وهكذا ارتقى هذا العرش إسكندر السادس بورجيا ذلك البابا الأسبانى الذى كان يتصرف فى مركزه الدينى تصرف الأمير ، لا يهتم فى سياسته إلا بالأمور الدنيوية فى توطيد مركزه الكبير دون الرسالة الروحانية والمقام الدينى ، بل كان يتخذ من هذه الرسالة وهذا المقام وسيلة لتحقيق أطماعه كملك يريد الدنيا ويعمل لها . فكانت مساعيه ترمى إلى زيادة نفوذه، وتمكين أولاده غير الشرعيين الذين كان يجاهر بهم ، من اقتطاع عروش لهم من أرض الأمراء الايطاليين ، فكان لا يتردد فى استعمال كافة الأسلحة التى عرفها ذلك العصر من خناجر وسموم فى محاربة خصومه والقضاء عليهم أو فى إزالة أصدقائه إذا كان من وراء ذلك تحقيق مطمع له .

ولقد وجد فى تركة سلفه جوهرة ثمينة تدر عليه الخيرات والنعم ، هذه الجوهرة هى الأمير جم الذى كان أخوه يدفع مبلغاً كبيراً فى كل سنة لكى يظل أسيراً لا يفلت من يد ساجنه . وكان البابا إسكندر السادس خير سجان . فليس له من ضميره ما يجعله يتردد فى هذه المهمة الثقيلة . ولذلك تلقى البابا تهانى

بايزيد بالترحاب وقوبل رسله مقابلة عظيمة ، وأفهموا فى التو أن البابا حريص كل الحرص على أسيره ما دام يتلقى المال السنوى الذى يدفع فى سبيل الاحتفاظ به . بل لقد تسلم البابا أول دفعة منه ، وقيل أكثر من ذلك إنه عرض عليه أن يسلم الأمير جثة فى سبيل مال مضاعف.

وعاد الأمير جم كما كان دائماً مطمح أنظار البابا وخصومه ومدار النزاع فى روما ؛ فقد حاول الأمراء الذين يناوئون البابا ، كأمراء أسرة كولونا ، أكثر من مرة أن يستولوا على شخص الأمير ودبروا المؤامرات لذلك ، ولكنهم لم يفلحوا . ذلك لأن البابا كان حريصاً كل الحرص على أن يحتفظ بكنزه الثمين . وكان الأمير فى الوقت نفسه قد بلغ منه اليأس مبلغاً وصار لا يعتمد على المجادلات والمؤامرات للتخلص من موقفه ، بل انصرف إلى الملذات والشراب والنساء واستولى عليه الخمول . وكان بلاط إسكندر السادس مما يشجع على الانصراف إلى مثل هذه الملاذ .

وكان البابا إذا ما وقع فى مأزق من خصومه نقل الأمير معه إلى مأمن كأثمن ما يمتلكه . وذلك ما فعله عند ما حاربه شارل الثامن . حتى إذا وضعت شروط الصلح بين ملك فرنسا المنتصر وبين البابا فى ١٥ يناير سنة ١٤٩٥ ، نص فيها على أن يسلم الأمير التركى إلى فرنسا على أن يحتفظ البابا بالمال الذى يدفع له سنويا فى سبيله .

ولكن قدر ألا يسلم هذا الأمير ليد سجان آخر ؛ فقد توفى فجأة فى ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٥ وفى مثل هذه الأحوال وفى مثل تلك الأيام كانت هذه الوفاة الفجائية تعزى دائماً إلى السم . فهل نفذ البابا إسكندر السادس ما وعد به بايزيد ، أو ما قال خصومه إنه وعد به بايزيد ؟ ذلك ما يعتقده بعض المؤرخين ، وإن كان البعض الآخر يرى أن هذه الوفاة نشأت عن انصراف إلى اللهو والغماس فى المجون .

محسن محمود

يوم البطل الوطني جعفر أبو التمن

طالت ، ولو قصرت يد الأقدار ... لرمت سواك . عظمت من مختار
من صفوة لو قيل أيُّ فذٍّ هم ... لم تعدُ شخصك أعين النظار
لكن أرادت أن تحوز لنفسها ... عين القلادة ، فازدرت بنثار
وأرى المنايا — بالذى تختاره ... للموت — عاطلة ، وذات سوار
فطوتك فى درج الخلود فعطرت ... بك سالف الأحقاب والآثار
واستنزلتك لغربة ولأنت من ... علياك ، فى لجب من الأنصار
وتجاهلت أن البلاد بحاجة ... لك ، حاجة الأعمى إلى الإبصار
مُدت من « الأخرى » إليك معاصم ... من رفقة لك قادة أبرار
خلصاء سعيك فى الجهاد ، وإخوة ... لك فى الوفاء المحض والايثار
ورفاق هذى الدار فيما أسلفوا ... للكاتبين ، رفاق تلك الدار

بكر النعى فما سمعت بمثلها ... عبئاً على الأسماع ، والأبصار
رمت العمايات العيون ، وصكت الآذان صافرة من الإنذار
وترنح الأحرار ينذر بعضهم ... بعضاً ، بفقدهم أبا الأحرار
لله درك من نقىٍّ ، لم ينل ... أذياله وضر من الأوضار
فى حيث تزدحم الشرور وترتمى ... شبهاتها ، حتى على الأخيار
خاض السياسة ، وانجلى عن لجها ... ألق الجبين ، مكللا بالغار
فى حين رام سواه خوض عبابها ... فطغى عليه ، فضاع فى التيار
وصليب عود ، حين بعض مرونة ... فى ضعفها خطر من الأخطار
وطرىّ نفس . حين بعض صلابة ... فى عقمها حجر من الأحجار
وخفىّ كيد حيث يسمو كائد ... ومن المكايد جالب للعار
وصريح رأى لم يحد عن خطة ... ليلوذ عن تأويلها بجدار

حرب على مستعمر وربيبه ومسالم مستعمراً ، ومجار
أعزز علىّ — أباعزيز — أن أرى حضّار حفلك زائغى الأبصار
خلت المحافل من علاك ، وأوحشت من بعد وجهك ندوة السمار
وتعرت الأنظار عن مستشرف بادى السنا عال على الأنظار
ولقد يعز عليك ، أنك لا ترى فى الأربعاء سواكب الزوار

أأبا عزيز ، كنت تذكى جذوتى ويلذ سمعك منطقى وحوارى
غوث الصريخ ، أتتك تعول حرة حراء ، صارخة ، من الأشعار
هيجت منى أى داء كامن ، وقدحت منى أى زند وار
قسماً بيومك ، والفرات الجارى والثورة الحمراء ، والثوار
والأرض بالدم ترتوى من دمنة ، وتمجه عن روضة معطار
والخيل ترحف لم تدع لمغيرها جثث تغطى الأرض أى مغار
قسما بتلك العاطفات ولم تكن لى من يمين قبلها بالنار
إن الذين عهدتهم حطب الوغى لولاهمو لم تشتعل بأوار
واللاقحين نتاجها بأعز ما ملكت يمين من حمى ، وذمار
والداهنات دماؤهم لم الثرى والمؤنسات شواطئ الأنهار
والناحرين من الضحايا خير ما حملت بطون حرائر أطهار
ما إن تزال حقوقهم كذويهم فى القفر سارحة مع الأبقار
وأعز ما تبغى الحلائل منهم أن تستر العورات بالأطمار

خمس وعشرون انقضت وكأنها بشخوصها ، خبر من الأخبار
ضقنا بها ضيق السجين بقيده من فرط ما حملت من الأوزار
وتجهمت فيها السماء فلم تجد للخابطين بكوكب سيار
شاخ الشباب الطيبون وجددت فيها شبيبة شيخة أشرار
وبدا على وجه الحفيد وجده للناظرين ، تقارب الأعمار
من كان يحسب أن يمد بعمره حكم أقيم على أساس هار
ومن الفظاعة أن تريد رعية فى ظل دستور لها وشعار
ما يطلب المأسور من يد آسر إسداء عارفة ، وفك إسار

ورواية حبك الزمان فصولها فبدت لنا ممسوخة الأدوار
من شر ما اختلق الرواة ولفقت حيل ، وضمت دفة الأسفار
وممثلين تصنعاً ووراءهم خلف الستار ، ملقن متوار !

ومفرقين عناصراً ، ومذاهباً متكفلين سياسة استعمار
نزلوا على حكم (الغريب!) وعرسوا في ظل مأثمة له وفجار
وتحلبوا أوطارهم ! فاذا بها وشل لما استحلى من الأوطار
واستفرش الشعب الثرى ودروبهم مفروشة بنثارة الأزهار
وتحلأ الجمع الظماء ووكلت أبناؤهم بالورد والإصدار
ذعر الجنوب فقيل كيد خوارج وشكا الشمال فقيل صنع جوار
وتنابز الوسط المدل ، فلم يدع بعض لبعض ، ظنة لفخار
ودعا فريق أن تسود عدالة فرموا بكل شنيعة ، وشنار
ومشى (المغيث) على الجياع يقوتهم وعلى العواة ، بجحفل جرار !
وتساءل المتعجبون لحالة نكراء ، من هم أهل هذى الدار ؟
هى للصحابة ، من بنى الأنصار ! من كل «بدرى» ؟ وكل «حوارى» !
للحاكين بأمرهم عن غيرهم ولصفوة الأسباط والأصهار
من كل غاز شامخ فى صدره زاهى الوسام ، مدوخ الأقطار
هى للذين لو امتحنت بلاءهم لعجبت من سخرية الأقدار
هى للذى من كل ما يصم الفتى كاسٍ ، ومن جهد يشرف ، عار

ومسلط لمسلطين ، مشت به الأهواء ، مشية مثقل بخمار
نسى المعير ، ولو تذكر لا نثنى خزيان من ثوب عليه معار
كم رام غيرك مثلها فأحله نزق الغرور بشر دار بوار
بل لو تذكر ، لم يجد لضميره ومصيره ، عوناً من التذكار
لم يبق إلا أن تتم خطوة ويظل يلعب لاعب بالنار
فلرب ما نفثت الشكاة ، وقرنت يوم الخلاص ، سياسة الإصرار

أأبا عزيز والحديث — كما رووا — شجن وحر القول عذب جار
ومن العواطف ما يثور ويغتلي مثل الجحيم ، ويرتمي بشرار
عفواً ، وإن شط المدى عن غايتي ونبت جياد الشعر عن مضمارى
فلقد تحشدت البواعث واشتكت صمت القريض ، لفحله المدار
ولقد عهدتك بالبلاد وأهلها جم الشجون ، موزع الأفكار
ووجدت قدح الذكريات شجية برداً لأفئدة عليك حرار
وعرفت أشجاناً يثيرك بعثها فأثرتهن ، فطرن كل مطار

إيه ، شباب الرافدين ومن بهم يرجو العراق تبلج الأسحار
الحاملين من الفوادح ثقلها ليسوا بأنكاس ولا أغمار
والذائدين عن الحياض إذا انتحت كرب ، ولاذ مكابر بفرار
والباذلين عن الكرامة — أرخصت — أغلى المهور ، وأفدح الأسعار
الفقر ! إذ طرق الغنى مفتوحة والبؤس إذ غدق النعيم جوارى
ومؤججين نفوسهم وقلوبهم شعلا يسير على هداها السارى
والحابسين زئيرهم بصدورهم فاذا انفجرن به ، فأى ضوارى
والقانعين من الحياة رخية بلماظة ، ومن الكرى بغرار
والمغريات مراودات ترتجى وتخيب ! من عون ومن أبكار
يرثون للمتفيئين ظلالها علماً بما شريت به من عار
لا تيأسوا ، إن لم يلح من ليلة فجر ، ولم تؤذن بضوء نهار
فلئن صليتم من هنات جمرها ومشيتم منهن فوق شفار
فطوال ضائقة الأمور وإن قست فى شرعة التاريخ جد قصار
لا بد أن يثب الزمان وينثني حكم الطغاة مقلم الأظفار
وتجدد الأيام عهد وصالها من بعد إعراض لها ونفار
فهناك سوف يكون من زهراتكم أصفى معارفها وأطيب جار
وهناك سوف يرى الغنيمة معشر أن يمسكوا من خلفكم بغبار
فحذار من عقبى القنوط حذار وبدار ! للعهد الجديد بدار

[بغداد] محمد مهدي الجواهري

معروف الرصافى

الشاعر المجدد والمفكر الثائر

الوقت ظهراً ، واليوم الجمعة فى السادس عشر من آذار (مارس) ١٩٤٥ ، كنت أسير فى موكب حاشد ضاقت به دروب الأعظمية من ضواحى بغداد . وأكثر هذا الخلق من الشباب الواعى يتدافعون مع جموع الدهماء ، متسابقين إلى حمل نعش الشاعر الذى غنى بأحاسيس أمته وهى تتوجع بقيود الاستبداد والاستعباد ، وصور لها بقصيده مآسى الجمود وظلمات الجهل ، وعبر بألحانه عن نشدانها الحرية والاستقلال والمجد - فى هذه اللحظات ونحن نشيع جثمان معروف الرصافى إلى الحفرة التى كتب على ابن آدم أن يستريح فيها الراحة الأبدية كان يساورنى سؤال ملح :

ما نبغ الرصافى واستفاضت شهرته فى البلاد العربية ، وقد أذاعت أشعاره صحف مصر منذ أربعين سنة إلا ولمح المدركون فيها ظاهرتين سجلهما تاريخ النهضة الأدبية الحديثة عندنا : الأولى نصوع الديباجة وشدة الأسر فى النظم وفصاحة الكلم ، والثانية نزعة التمرد على الظلم وتعشق الحرية مع فهم صحيح لمقومات الحياة . فكيف نحلل الظاهرتين فى هذا الفتى ؟ ومن أين تأتيا له وهو من نعلم فى ثقافته وبيئته ؟

يولد النابغة ، ويولد معه عالمه الخاص ، فتلتمع مواهبه ، فاذا هو يرى بعينيه مالا يراه بنو جلدته ، ويسمع بأذنيه مالا يطرق سمع إخوانه ، وتخترق نظرته آفاقاً بعيدة وينفذ فكره إلى أعماق سحيقة . وهذه حال تنطبق على الرصافى ؛ فقد جدد ديباجة الشعر العراقى ، فكان أثره فى وادى الرافدين أثر البارودى فى وادى النيل ، مع أنه تخرج من المدرسة العتيقة وشب وترعرع فى جو الأدب التقليدى من السجع المتكلف والنظم المفكك والنسج المهلهل ، وبرز مفكراً جهورى الصوت فى قولة الحق من بيئة تملكها الخنوع وغشى على قلوب أهليها طغيان الحاكمين بأمرهم من فلول الغزاة والمغيرين .

ولكن لا ! إن هذه المواهب التى أفرغها الخلاق فى معروف الرصافى إنما هى انتفاضة من عبقرية الأمة العراقية ، تجود بها الأزمان بين عصر وعصر ، وتختار لسطوعها شخصية تكون عصامية حيناً ، وعظامية حيناً آخر .

فهذا الشعر المجلجل بفصاحة الضاد ، قد تحدّر إلى شاعرنا من وحى سماء السواد بزرقتها الصافية ، وتموجات دجلة والفرات فى لججهما المصطخبة ، وهذه المعانى الكثيرة قد تناقلتها الأجيال إلى أديبنا ، من سليقة أمراء الشعر العباسى ذى الطابع المذهب فى تاريخ الأدب .

أما الثورة على عسف الطغاة ، ومصاولة الاستبداد ، فهذه النفس العراقية ، وهذا الإباء العربى ، وهذه الكرامة القومية ، التى عجزت سيوف القاهرين وحديدهم ونارهم عن أن تعرى الشعب منها ؛ فقد تتعب الحوادث الجسام الأمة الكريمة فتسكن فترة من دهرها ولكنها لا تنحل إلى الأبد ، وقد تهمد جذوة الشمم حقبة من السنين غير أنها لا تنطفىء تماماً ، حتى إذا أرهقت الأيام النفوس، واعتصرت المظالم القلوب ، تفجرت ينابيع السجية الأصيلة ، فظهر بطل الفكر فى الميدان ، وطلع وجه القائد على الناس ، وارتفع صوت النابغة فى قومه .

ها نحن أولاء نتطلع إلى الماضى غير البعيد نريد أن نتعرف حال العراق قبل نصف قرن أو يزيد قليلا ، لنتخيل البيئة التى ولد فيها معروف ونما ، وشدا الأدب وتلقف المعرفة ، فنهتدى إلى بواعث الحس فى الشاعر ، ونستبين موحيات الوعى فى الفكر .

بلاد صحراوية ، أهملتها السلطنة المرهقة ، إذ عفى عليها الزمن ، فخملت بعد شهرة ، وخربت بعد عمران ، وذوت بعد ازدهار . فيها أنشأت الدول الناهضة حضارات خالية وسمت تقدم الإنسانية بمياسم العز والسؤدد فى العهد القديم والعصر الوسيط . وعليها كدست الحكومة العاجزة غبار الإهمال ، وأنقاض المغازى ، وتهديم الفتوح .

وكأن استبداد المماليك من باشوات بغداد ووزرائها فى غفوة الانحطاط لم يكن كافياً ، فمزقت تضامن الشعب غارات القبائل وشحناؤها المتواصلة ، وقد استخفت بهيبة الحكام ، وأغراها ضعف الدولة فى قاعدتها القصية ، فظل هذا القطر الغنى

بخيراته الطبيعية غارقاً فى سباته حتى بعد أن تنبهت مطامع الاستعمار إلى خطورته وحيويته فى طريق الهند . وقامت فى أذهان حراس الإمبراطورية مشروعات الخط الحديدى الذى يربط جزرهم بمستعمراتها الضخمة ماراً بوادى الفرات، وأخذت اللجان الدولية التى تقصده لحسم النزاع على الحدود بين إيران ودولة بنى عثمان تكتب لحكوماتها التقارير المفصلة عن هذه الكنوز المدفونة من بعيد . وقام أصحاب الأموال يحسبون لأسواق بين النهرين ألف حساب ، وشخصت عيون المنقبين الأثريين إلى ما تغطيه أطلال نينوى وخرائب بابل من أسرار لما ارتفع على هضابها من عروش وهياكل .

فى هذه الفترة هبت على الشرق الأوسط نسمة من يقظة فكرية بدأت بحملة نابليون على مصر ، ونهض محمد على باشا بأعباء مملكة جديدة أرادها عربية شرقية تتدرع بعلوم الغرب وفنونه ، لتنافس سلطنة عثمانية إسلامية وهنت منها القوى وأخذتها رعشة الانهيار . واقترنت هذه الأحداث بمجئ البعوث الدينية وإرساليات التعليم الأجنبية من أوربا ، فانفتحت للتمدن الأوربى مسارب إلى الشرق . ولكن العراق بقى منعزلا أول الأمر عن كل هذا النشاط لبعد رقعته عن مراكز النهضة الغربية ، ثم أخذ يتأثر بعض الشئ لصلته بالأقطار العربية الأخرى فى اللغة والدين وأصول الثقافة القديمة وبخاصة الشام ومصر .

أما الحياة الفكرية العراقية فى المرحلة التى نتحدث عنها فكانت محصورة فى محافل الدين وحلقات المساجد . ومجالاتها فى الغالب بغداد والنجف والحلة والموصل ؛ وفى الأخيرة ولدت فكرة الثقافة الجديدة فى المدرسة والمطبعة اللتين أسسهما البعث الفرنسى للآباء الدومنيكيين ، وكان الأدب شرعة الواردين عند القوم ومهوى أفئدة النابهين؛ لأنه يعتلج فى القلب ، وأدواته الحس والذوق ، وعماده الموهبة الفطرية . وطبيعى أن يتقدم الشعر على النثر لهذه العوامل ، ولأن المآتم الحسينية فى مدائن الفرات يهزها الانشاد ، ومجالس البيوتات ودواوين الولاة فى حواضر دجلة تحفل بالنظيم ، وبفضل هذين المجالين احتفظ العراق بروح العزة الموروثة ، واندفع إلى استحياء المجد التليد ، وتناقل المفاخر العربية تحت نير السيطرة التركية ، فصان اللغة الفصحى من الاندثار فى ربوعه . أما

الأسلوب والطريقة ، فكلاهما تقليديان ، يتأثر الناظمون بالسلف ويترسمون خطوات الشعراء القدامى ، للصنعة فيه آثار بارزة ، والتكلف باد مفضوح . ويكفى أن أذكر ثلاثة من شعراء هذا الطور بل أعلامه ، وهم عبد الباقى العمرى ، وعبد الغفار الأخرس ، والسيد حيدر الحلى ، ليحكم الملمون بتاريخ الأدب العربى فى القرن التاسع عشر على أن معروفاً الرصافى سباق فى هذه الحلبة ، يصح لنا أن ننعته بالمجدد الذى رجع ديباجة الشعر العراقى إلى روعتها أو بعض روعتها بعد أن أخلقتها عصور التقهقر .

ولد معروف فى بغداد سنة ١٨٧٥ فى أسرة لا مال لها ولا نشب . أبوه عبد الغنى محمود ينتسب إلى عشيرة كردية تقطن بين كركوك والسليمانية تسمى (الجبارية) . وفى زعم العشيرة أنها علوية النسب ، ويسلم لها أهل كردستان بذلك . فان صح ادعاؤها فهى عربية النجاد . أما أمه فاطمة بنت جاسم فهى من عشيرة القراغول بطن من شمر الذين يمرحون فى سهول العراق ، وهو ثانى ولدين لأبويه ، وقد اختضد أخوه البكر فى مهد طفولته . وحدث أن صحيفة بغدادية قالت وهى تؤبن الرصافى : إن أباه كردى وأمه عربية ؛ فبرم بهذا التصريح صديق له من أساتذة الأدب فأشار فيما كتبه عنه فى مجلة عراقية أن الفقيد كان قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته ؛ وأورد طرفاً من قصيدته التى مطلعها :

عهدتك شاعر العرب المجيدا فمالك لا تطارحنا النشيدا

وخلص منها الكاتب إلى هذا الإنكار : « فمن قال لك إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا ؛ فقد أبعد . . . » . فعادت تلك الجريدة ونشرت مقالا ضافياً حول العرق وكيف أنه لا علاقة له بمواهب الرجل ، وأن إنتاجه العقلى هو الأصل ، ولا عبرة بأن يكون الرصافى غير عربى الدم ، فهو عربى الروح والنزعة والثقافة إلى غيرها من شجون الحديث .

والذى تلقيته منه — رحمه الله — قبل خمس وعشرين سنة وأنا أكتب سيرته فى مجموعتى « الأدب العصرى فى العراق العربى »[1] إنه من أب كردى وأم عربية ، ولم يكن يتحرج من هذا مطلقاً ، حتى أنه اعتاد — كما أقرانى

(١) طبع منها جزآن فى مصر (المطبعة السلفية سنة ١٩٢٣)

فى بعض مكاتباته — كلما سأله كاتب أو مؤلف عن ترجمته أن يحيله إلى هذا الكتاب . هذا كان شأنه بحيث لم يكن يحفل بحسب موروث أو جاه دنيوى بل كان همه فى الحياة الجوهر لا العرض ، كما سنفصله فى بحثنا .

وكان أبو الشاعر عبد الغنى عريفاً فى الجيش العثمانى يتكلم التركية والكردية غير العربية - ولا يعجز عن القراءة والكتابة بأبسط مقدار ، خاض غمار الحرب الروسية التركية ، فلما نجا من القتال مال إلى مسلك الدرك فى صنف الخيالة ، فقضى معظم وقته نضو سفر على ما يتطلبه نظام الخدمة فى قوة الدرك . والمنطبع فى ذهن الولد عن والده أنه قد بدا له تقيًّا ورعاً يواظب على الصلاة وقراءة الذكر الحكيم ، كما يؤثر عنه حدة الطبع ، والعنف فى تأديب ابنه إذا خالف له رأياً .

ويظهر أن الطفل نشأ فى حضن أمه فانطبع حبها فى قلبه ، وأودعته خصائص نفسها وإن لم تقل الشعر وتكتب فى السيرة ، أو لعله لانفراده بعطف الأم فى غياب الأب فى الأغلب من الأوقات غرز فى نفسه هذا الأثر العميق لحنان الوالدة .

روى صديقه الأستاذ طه الراوى فى مقاله عنه أنه زاره يوماً فرآه منفعلا تنطق آثار الدموع فى محجريه ، فسأله ما به . فقال : « سمعت قينة إلى جوار منزلى تغنى غناء شجيا ، فأذكرنى غناؤها البيت الذى كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمى التى كانت تحنو على حنوًّا ما عليه من مزيد ، وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسما وروحاً » .

وطالما ردد معروف لأصحابه أن أمه كانت مرجعه فى كل شئ حتى بعد أن جاوز العقد الأول من حياته ؛ فهى التى أرسلته إلى الكتاب صبيًّا ، وظلت ترعى عمله فى المدرسة حتى تسأله عما يدرس فيها . ولم تكن تهجع إلا إذا أمسكت به إلى جانبها . وكانت تتصاعد من صدره زفرة وهو يذكر شديد حدبها عليه وسهرها على راحته ، وعنايتها بطعامه وملبسه ، فيحن إلى كنفها مهما باعدت السنون بينه وبين طفولته . وكم أسف لأن الحظ لم يسعده على وفائها بأداء واجبه نحوها إلى أبعد حد . وخير تعزية له أنه كان يصلها ببعض الدراهم وهو غائب عنها فى إقامته بدار الخلافة ؛ فلما اشتعلت الحرب العالمية ، وسقطت بغداد بيد الجيش البريطانى المحتل انقطعت عنه أخبارها ، وذكرها يتردد فى صدره . وكأن

عقله الباطن دله على مفارقتها الحياة فى غيبة ولدها الحبيب ، فنطق وهو فى الشام عام ١٩٢٠ يشهد ألاعيب السياسة وتقلبات الأيام وقد اجتواه أصدقاؤه وأنكره معارفه ، لأن السياسة أفسدت بينه وبينهم ، بقصيدة تعد من عيون شعره، وفيها كثير من فلسفة الحياة وحقائق الدنيا، موضوعها وعنوانها « ضلال التاريخ » ن فيها إلى أمه ، ويتحرق إلى رؤيتها بكبد حرَّى :

لعمرك أقصانى الزمان المفرّق — فهل أنا من بعد التشاؤم[1] معرق[2]
خليلىّ هل من بالرصافة عالم — بأنى الى من بالرصافة شيّق
بلاد إذا ما هبت الريح نحوها — تمنيت لو أنى بها أتعلق
ابيت على شوق وقلبى موثق — بهمى ، ودمعى فوق خدى مطلق
إذا ما تذكرت العجوز بكيتها — بدمع به الأهداب تطفو وتغرق
وما شرقى بالدمع يا أمّ وحده — ولكن بروحى عند ذكراك أشرق
ويهفو بقلبى الشوق حتى كأنما — تخطفه من بين جنبىَّ سوذق
فيا أمَّ صبراً إن لابنك همة — إلى المجد ترمى أو إلى المجد تسبق
تضايق عنها الدهر مستعظا لها — وأهلوه عنها يا أميمة أضيق
أكلف منها الدهر ما لا يطيقه — فليس بعار أننى فيه مخفق
لقد صغرت بغداد عن أن تضمها — وما وسعتها بعد بغداد جلق

نظم الرصافى هذا النسيج ، وهو لا يعلم أن أمه قد غيبها الثرى ، فلما عاد إلى بغداد بعد شهور افتقدها فلم يجدها . ولا أعلم أنه نظم شعراً فى رثاء أمه ، وقد تنحبس العواطف وهى فى عنفوان هيجانها ، فيكون هذا الحصر هو الشعر الحبيس المكروب ، وهو يقول : « إننى عند أوبتى إلى بلدى لم أقو على رؤية البيت الذى كنت أعيش فيه مع والدتى ، ولم يسعفنى جلدى حتى إلى سلوك الطريق المؤدية إليه . »

وعند ما نتعرض لألوان شعر الرصافى ، سنقف عند تفاهة شعره الغرامى ، وضعف حرارة الحب فى أناشيده ، فنحلل هذا على ضوء موقفه من المرأة ، ومذهبه فى الجنس . ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم شعراً جيداً فى الدفاع عن حقوق النساء فى الحياة ، والانطلاق من عبودية الرجال ، والحملة على الحجاب ، إنما

(١) صار فى الشام . — (٢) صار فى العراق .

عاطفة البنوة وتقديس الأمومة ظلت لصيقة به فانبثت فى تضاعيف شعره ولا سيما فى الطور الأول من مجده الأدنى ؛ فله قصيدة يتناشدها الفتيان إذ تحفل بها جل الكتب المدرسية فى لبنان وسورية والعراق وهى « التربية والأمهات » ؛ وفيها يقول :

ولم أر للخلائق من محل — يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت — بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسناً — بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا — كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت فى جنان — كمثل النبت ينبت فى الفلاة
فيا صدر الفتاة رحبت صدراً — فأنت مقر أسنى العاطفات
نراك إذا ضممت الطفل لوحاً — يفوق جميع ألواح الحياة
إذا استند الوليد عليك لاحت — تصاوير الحنان مصورات
لأخلاق الصبى بك انعكاس — كما انعكس الخيال على المراة
وما ضربان قلبك غير درس — لتلقين الخصال الفاضلات

و إذا أردنا أن نتعرف شكل الرجل وسمته رأيناه طويل القامة، عظيم الألواح ممتلئ الجسم ، قوى البنية ، أسمر اللون، أسود الشعر والعينين ، تشوب بياض عينيه حمرة خفيفة ، وظل بصره حادًّا ، فلم يستعن بنظارات، إلا أن عينيه أصيبتا بالمرض فى أخريات أيامه ، وقد درج على التؤدة فى مشيته حتى فى اكتمال شبابه وصحته . وكان يحمل مخصرة على مألوف الذوات فى عصره ، ثم صارت عصا يتوكأ عليها بعد أن هدّته السنون وزعزعت هيكله الأوصاب .

بعد أن بلغ معروف الثالثة من عمره حملته أمه إلى كتّاب فى الحى الذى يقطنانه ، وكانت المعلمة فى هذا الكتاب امرأة ، والتلاميذ الصغار من الجنسين . وتنقل بعده إلى عدة كتاتيب تيسر له فى حجراتها الضيقة وأسلوبها العقيم ، وفى رهبته من قصبة «الملا» وصياحه أن يختم القران العظيم . ولشدة حسه أبدع فى رجولته فى وصف هذه الخلايا التى تكون لتًّا للدجاج حيناً، أو كهوفاً ومغاور فى الأحايين .

وفى سن الثانية عشرة دخل مدرسة نظامية هى المدرسة الرشدية العسكرية ؛ لأن هوى الأهلين كان عهدئذ أن يتخرج أولادهم ضباطاً فى الجيش . وهذا سبيل الجندية أو إمارة الجند . وكانت المدرسة الأميرية الوحيدة فى مدينة السلام ، تعلم فيها ثلاث سنوات ثم رسب فى الامتحان ؛ لأن التعليم فى عمومه باللغة التركية، لسان الحكومة ، فانزعج الحدث المرهف الذهن ، وغادر معهده إلى غير رجعة .

وبعد لأى اتجه اليافع اتجاهاً جديداً فى الدرس الذى كانت أمه تحضه عليه ، فوضع العمامة على رأسه وأخذ يختلف إلى المدارس الدينية العلمية فى جوار الجوامع وحجرات التكايا ؛ فتتلمذ بادئ الرأى على الأستاذ محمود شكرى الألوسى الذى عرف بأنه علامة العراق ، واشتهر أديباً واسع الاطلاع منذ ألف كتابه « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » فمهد له المكانة المرموقة . وأحسب الالوسى صاحب اليد على الأدب العراقى بما ألقاه فى روع هذا الفتى الموهوب من تعلق بالأدب وقد التفت إلى موهبته الفياضة وحافظته القوية ، ومثابرته على الدرس ، فصار أثيراً عنده ، وفتح له خزائن مكتبته فعب منها طالب الأدب الناشئ الظمآن ، ما وسعه الوقت آناء الليل وأطراف النهار ، تمده قريحة متوقدة وينهض به نبوغ مهيأ ، فكان شاعر العراق المتفوق ، ومفخرته الخالدة .

ولنا أن نصرح بأن الرصافى تسمية أطلقها أستاذه شكرى عليه . وفى ذهن الناس فى الزوراء مقام « معروف الكرخى » الصوفى الشهير ، فتنبأ المعلم لتلميذه أن سيسجل التاريخ « معروفاً رصافيًّا » لا فى الصوفية التى تواضع عليها الفقهاء ، ولكن فى الشعر الفصيح ، وحرية الفكر التى عنت لها كل سلطة ظلوم .

تعلم الرصافى من الآلوسى مبادئ العربية وشيئاً من أوائل الفروع ، واتصل بعد ذلك بجماعة من أشياخ ذلك العهد ، منهم الشيخ عباس القصاب ، والشيخ قاسم القيسى . وإذا استثنينا معلمه الأول الذى تخطى الجادة البالية فى نزعة إصلاحية سلفية فالآخرون من أساتيذ الشاعر شديدو الحرص على التزام الخطة التى درج عليها من تقدمهم . وقد لازم صاحبنا شيخه المفضل اثنتى عشرة سنة وتخرج عليه فى علوم العربية وما يتصل بها ، فحفظ المتون من الاجرومية إلى ألفية ابن مالك وشرح السيوطى عليها ، ومن هذه المرحلة بدأ ينظم الأبيات من بحر الرجز . روى عن نفسه لصديقه الأستاذ الراوى قال : « حبب إلىّ فى بدء دراستى العربية

التبسط فى فهم الشواهد وشروحها وتذوق ما فيها من بلاغة ، فكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه وما يلحقه من أبيات ، فاجتمع فى حقيبتى وفى حافظتى منها شئ كثير ؛ وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر محاكياً ومحاذياً ، فقرضت الشعر وسنى دون السادسة عشرة ، فاجتمع عندى منه طائفة صالحة . وقد كان القريض يأخذ من وقتى الشئ الكثير . » عند هذا الاعتراف يلتفت الراوى فيعزو جزالة الشعر الرصافى ورصانته وروعة ديباجته إلى هذه النشأة والانطباع ؛ إذ أن شعر الشواهد مقصور على شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وهو أمتن شعر عرفته العربية .

ويؤثر عن معروف أنه ألف ، لشدة ولعه بالشواهد وجمعها ، كتاباً سماه « شواهد القطر » وقد أمعن فى حفظها بحيث جاوز المخزون منها فى حافظته عشرة آلاف بيت ، مما دعا أستاذه إلى أن يطلق عليه لقب « كتاب الشواهد » . وتسجل نشأة الشاعر أن قصيدته الأولى كانت فى مدح معلمه .

أما بقية ما أوغل فى نفس التلميذ من تعاليم الشيخ السلفى الكبير فهى هذه العزيمة الماضية فى عيشة غليظة وصلابة فى الفكرة ، ومقت للفخفخة والمظاهر، وعدم الركض وراء المال ، حتى ليؤثر عنه أنه فى ذلك الطور من حياته وهو شاب حاد الشباب عنيفه كان كثير التهجد فى الصلاة يتلو القرآن الكريم باكياً . وقد أراد الأستاذ عبد المسيح دريز فى تعليقه على ديوان الرصافى سنة ١٩٣١ أن يفسر تأثير هذه الفلسفة فى نفس الشاعر والمفكر فأوصلها إلى أن تسامت فى القراءة والتعمق فى الدرس والانغماس فى العواطف الدينية إلا أن عشقاً دهمه فى تلك المرحلة فمال به إلى وجهة أخرى . غير أننى أرى هذه الانطباعات ظهر تفاعلها فى ذهن الأديب الخصب فى مضامير حياته فى الاجتماع والسياسة ، حتى إذا أدركته الشيخوخة ، واعتكف فى كوخ له فى قرية الفلوجة ناجيا من صخب بغداد وتكالب الجشعين وأفاعيل السياسيين والحاكمين فيها ، تفرغ للتأليف ، وانصرف أكثر وقته لكتابة السيرة النبوية ، فوضع كتابه « اللغز الأعظم أو الحقيقة المحمدية » . ووجدناه فى هذا الكتاب يناقش كثيراً من العقد فى حياة محمد (ص) بالقياس إلى حيرات الزعماء السياسيين ومؤسسى الممالك .

رفائيل بطى

ثلاث شخصيات فى مسرحيات سوفوكليس

أذكر للكاتب الشهير فرنسوا مورياك عبارتين عندما أفكر فى مسرحيات سوفوكليس (٤٩٨ — ٤٠٦ ق.م) ، وأحاول أن أطوى تحت كلمات قليلة المعانى الفلسفية العميقة التى تحملها بين سطورها . وردت العبارة الأولى فى قصة عنوانها « ثوب الشباب » ، وهى : « فى كل إنسان شئ يفوقه بكثير » . وجاءت الثانية فى قصة « نهر النار » ونصها : « إنه كان يخشى منها على نفسه أكبر خيانة وهى أن تصبح غير التى ألفها » .

ويبدو لى أن سوفوكليس لم يطمح إلى أن يعلمنا شيئاً غير هذا ؛ وهو يضع تحت أنظارنا أناساً عند مفترقات الحياة ، فى آونة عسيرة قاسية ، وهم عاكفون على تعرف شخصياتهم وضمائرهم ، ومقبلون على اللحظة الثمينة التى يثوب الانسان فيها إلى نفسه ، فيفطن لكل ما يستطيع أن يأتيه من أعمال وأن يعالجه من أمور يعرض لها ، ليحاول ، كما يقول أندريه جيد فى « ثيسيوس » ، أن « يمضى إلى أبعد مما بلغ » . وتلك القوة اللانهائية التى نحملها بيننا وبين أنفسنا فى أعماق ضمائرنا هى التى برع سوفوكليس فى التنبه إليها فى الشخصيات التى وجدها فى الأساطير والتاريخ ، وهو يعلم حق العلم أن المواقف الحرجة الخطيرة ، والأهوال الشاقة العسيرة ، هى وحدها التى تعين الانسان على أن يدرك حقيقة نفسه ، وهى تلقى له القناع عن عالم داخلى كان يجهله ، وعن إرادة حاسمة تريد أن تعمل دون أن تقوى أية عقبة على ردها عن العمل .

وأنا إذا ذكرت كلمة « الارادة » لا أقصد قطعاً ذلك الميل إلى الالتزامات الخلقية والقيود الفكرية ، الذى يحبب إلى الانسان الحلول الصعبة ، ويدفعه إن لم يستدرجه على رغمه ، إلى التصرفات التى يأباها عقله وتنفر منها طبيعته . فالإرادة التى يتكون منها الركن الأساسى فى مسرحيات سوفوكليس إنما هى الحرية التى تقيم وزناً للقوة الإلهية فى العالم ، وتترك لإرادتنا فى الوقت نفسه مجالا واسعاً لتقدم على ما تحب وتحجم عما تأنف .

ليست الحرية فى آثار إيسكيلوس، وبنوع خاص فى « الأورستيا »[١] بالشئ الواضح البارز الذى يسيطر على ذهن القارئ أو الشاهد ، ولكنه ، على عكس ذلك ، وجود قدر محتوم يفوق الأبطال ويسحقهم . فكلوتيمسترا وألكترا وأورستيس يشبهون الدمى قيدت أطرافها بالخيوط واضطرت إلى حركات معينة . فالغضب السائد على قصر أجاممنون يريد أن يثأر لقتل فتاة[٢] ؛ ولا بد له من آلة ، فلتكن كلوتيمنسترا تلك الآلة ، ولتقدم على قتل زوجها ؛ وهى تعلم أن هناك قوة تقودها إلى ارتكاب الإثم ، ونسمعها تتحدث عنها فى موقفين من المسرحية قائلة : « هذه القوة بين أحشائنا تقوى ظمأنا إلى الدم » ثم « تمضى الأشياء كما يجب أن تكون » . وفى مسرحية « الصافحات » يقول رئيس الجوقة لأورستيس : « إلى العمل ، واخضع لتجربة القدر » ، وفى مسرحية « المنتقمات » ، يوجه أبولون حديثه إلى أورستيس ليحميه من شر آلهة السوء والثأر قائلا : ألست أنا الذى دفعك إلى طعن أمك ؟

ومن هنا كان اعتقادنا أن البطل الرئيسى فى مسرحيات إيسكيولوس ليس رجلا أو امرأة مثل فيلوكتيت أو ديجانير (زوج هركل) فى آثار سوفوكليس ؛ فالأدوار الهامة فى آثار إيسكيلوس تقوم بتمثيلها آلهة الأولمب عوضاً عن البشر ، وقد تستعين الآلهة بالمخلوقات لتحقيق إرادتهم على حين يلتمس البشر مساعدة الآلهة فى مسرحيات سوفوكليس ليعينوهم على ما يريدونه من أهداف .

ولننتقل الآن إلى هذه المسرحيات لنواجه الأبطال الرئيسيين ، وهم يقاسون المتاعب والمعضلات التى تعرض لهم ؛ ولنرى مثلا أهناك مواقف لم يبرهنوا فيها على تمسكهم بالمبادئ الخلقية وبالمثل العليا فى الحياة ؛ وهل حدث لهم مثلا أن يقبلوا على تلك الخيانة الكبرى التى وصفها مورياك بأنها حالة يكون فيها الانسان على غير ما ألف أن يكون أمام ضميره وأمام الناس .

وليس فى نيتى أن أعطى فكرة شاملة عن آثار سوفوكليس ولا أن أعرج على دراسة أخلاق الأبطال وطباعهم ؛ وكل ما يعنينى فى هذا المقال أن أتبين كنه بعض الانفعالات النفسية . وأنا إذا فعلت ذلك لا يفوتنى أن أفطن لما

---

(١) ثلاث مسرحيات تصور مصرع أجاممنون بيد امرأته وانتقام ابنه منها ثم معاقبة ابنها على هذا الانتقام .

(٢) هى ايفيجيني التى ضحى بها أبوها أجاممنون لتسمح له الآلهة بعبور البحر إلى طروادة .

يتعرض له مثل ذلك البحث من نقص وإخفاق لكثرة العوامل الخفية التى تدفع الانسان إلى العمل والكلام ، والتى يصعب على الباحث أن يخضعها لأساليبه فى التحرى والنقد ، إلا إذا كان له بها دراية كاملة وتجربة شخصية ؛ والشئ الوحيد المشجع هو أننا نعرف مع سوفوكليس ، كما نعرف مع راسين ، منذ المشهد الأول من آثارها ، جوهر الموضوع ، وحقيقة الصراع الداخلى الذى تتكون منه عقدة المسرحية ، فلا تلبث تلك المشكلات النفسية وتلك المواقف الشاذة المؤلمة التى يعانيها أبطال القصة أن تثير فى نفوسنا حب الاستطلاع الحاد لشدة ما تحتوى عليه المأساة من عنف وقسوة .

فلننظر إلى شخصية أياس مثلا فى المسرحية التى أطلق عليها سوفوكليس اسم هذا البطل : إنه يعد نفسه فى مأزق وفى حالة نفسية يرثى لها ؛ فقد أهدى الجيش اليونانى إلى أوديسيوس أسلحة أخيل ، مثيراً بذلك غضب أياس وسخطه وعزمه على سفك الدماء ، وقد ضللته أثينا ، فأخذ يعمل بسيفه فى ماشية اليونانيين ، وهو يخالها جماعات من الرجال ؛ وقد أثمله منظر الدماء السائلة بغزارة حوله ؛ ثم يعود إليه صوابه ، فيفطن لما أقدم عليه ، ويتبين الأمور على حقيقتها ؛ وهو إذا أمعن النظر فى الماشية التى نحرها ، اضطرب وارتعد ؛ لأنه سيصبح أضحوكة أعدائه .

وينبغى هنا على الشاهد أو القارئ أن يضع نفسه فى شخصية أياس ليلحظ ما فى موقفه من يأس وعذاب ؛ فمن هو هذا الرجل ؟ إننا نعرفه بما وصفه به هوميروس فى الالياذة من شجاعة وقوة ، ومن الصورة التى تركها لنا عنه سوفوكليس فى مسرحيته . فاذا تحدث عنه أوديسيوس وصفه « بأياس ذى الترس المعروف » [1] وهو يعلم قدر جرأته وبطشه ؛ ولذلك يرتعد عندما يتوقع خروجه من الخيمة ، ويستحلف أثينا : « ألا تطلب إليه البروز ». وتسأل الآلهة أوديسيوس : « أى رجل يمكنه أن يكون أعقل منه وأشجع منه إذا جد الجد ؟» فيجيبها : « لا أعرف أحداً يعدله عقلا وبأساً » . وإذا تحدث أياس عن نفسه قال : « أنا الذى يفاخر بأن طروادة لم تر مثله أحداً ». فكيف لا يجذب مثل

(١) العبارات التى نستشهد بها فى مسرحيتى « أياس » و « أوديبوس ملكا » مقتبسة من ترجمة الدكتور طه حسين بك لسوفوكليس فى كتابه « من الأدب التمثيلى اليونانى » .

هذا الرجل غضب الآلهة ! ولا بد لمثل هذه الكبرياء الفادحة المهينة أن تنزل بصاحبها أشق العذاب ؛ ولكن لم تكن هذه الضرورة كافية لتحط من شأن أياس ، ولتضعف إيمانه بحقه ؛ فعزة النفس تشرف صاحبها ، وإن أياس من الذين يقبلون الشدة ويواجهونها شجاعة ، ولا يعرضون ، بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين الناس ، عن الطريق الذى دأبوا على سلوكه ؛ والمثل العليا التى يستنير بها أياس ويسترشد بها فى تصرفاته واضحة ، لا يعتريها أى تردد ، وهو يقول : « إنما قصارى الرجل الكريم أن يعيش ماجداً أو أن يموت كريماً. وهو يريد قبل كل شئ أن يكون كريماً ، وأن يقاوم كل عقبة حتى لا تحدثه نفسه بأية خيانة ؛ فهو لا يرضى بحكم أتينا ، ولا أن يتخذ من السكوت حلا يلجأ إليه وراحة ينعم بها ، ولكنه على ذلك لا يئن ولا يتظلم ، وهو يقول : « إن الشكوى لا تليق إلا بالجبناء والضعفاء » ؛ أما هو فمحارب ، مقدام ، وجرئ لا يلازمه إلا النجاح ، فكيف يتراجع ويسلم نفسه للعدو ؛ وهو يؤثر الانتحار على عيش تنغصه السخرية والاهانة ؛ وقد يحرم عليه احتقاره لأعدائه أن يترك لهم فرصة الانتصار عليه . كلا ! إنه لن يسمع تهكمهم ، ولن يعرض نفسه لأذاهم ؛ وما من حل أمام أياس سوى الانتحار ؛ فهو يعلم ذلك ، ويقدر أهميته ، ويتنبأ بوقعه فى نفوس من يتركهم ، وهو يذكر ابنه الذى يحبه ، ويرق قلبه لاستعطاف زوجه ، ولكن كل ذلك لا يبقى له أثر بمجرد اصطدامه بتلك القوة الداخلية التى أشرنا إليها فى مطلع المقال ، والتى تفوق الانسان ، ولا ترضى إلا بأن تكون لها الكلمة الأخيرة فى كل جدال أو نزاع .

وهناك وجه شبه بليغ بين شخصية أياس ومسرحيته ، وشخصية فيلوكتيت ومسرحيته : إنه معذب مثل أياس ، لدغه ثعبان أثناء حملة طروادة ، فخاله اليونانيون مقصوداً من الآلهة ، وضاقوا بجرحه ، حتى إنهم نفوه إلى جزيرة ليمنوس ؛ فعاش بها عشر سنين فى عزلة وتقشف تام لخلو منفاه من السكان . وفى المشهد الأول من الفصل الثانى ، يقص فيلوكتيت على نيوبتوليم قصة بؤسه ؛ فلا يصعب علينا أن نتصور ونقدر عذابه ؛ فهو يقاسى ألم العزلة المادية ومشقة الوحدة النفسية فضلا عن دائه الذى يشتد عليه فى كل يوم . أما الأخبار التى يحملها إليه نيوبتوليم فانها تزيده حزناً ويأساً،

لأنها تعرفه موت أخيل وأيأس وأنتيلوك ، وشقاء نستور ، فيمتزج صوت هؤلاء الأعزاء بصوت الوطن ، وتصبح حياته لا تطاق ؛ إنه يريد أن يعود إلى بلاد اليونان ليرى أباه ، ويتوسل إلى نيوبتوليم ألا يهجره ؛ فيرضى ؛ ويبتهج فيلوكتيت ، ويتغنى بسعادة ذلك اليوم . ولكنه — وهنا نلمس أدق ناحية فى المسرحية — يعلم أن اليونان فى حاجة إليه ليحالفهم النصر فى حرب طروادة ؛ فيحدث لساعته انقلاب قوى فى نفسه ، ويتحول الفرح إلى حزن ، والأمل إلى يأس ، والابتسام إلى عبوس ؛ فقد زال القناع عن كل شئ ، وظهرت له الأمور ، كما ظهرت لأياس ، واضحة ، جلية ، قاسية : أياس قد ضللته أثينا ، وفيلوكتيت خدعه الناس ، وعاملوه كما يعامل الانسان الآلة التى يلجأ إليها ثم يتركها فى زاوية إذا فرغ من استخدامها .

أما هذا الرجل فانه ، بالرغم من الآلام الطويلة التى أوهنت بدنه ، يحتفظ بقوة إرادة لم يضعفها ولم يمسها أى سوء ؛ فهو يعلم أنه لن يلين ، وأن اليونان الذين أهانوه وأذاقوه ألواناً من الشقاء لم تطرق بخاطره ، لن ينالوا منه شيئاً . ونيوبتوليم ، وهو أكثر حكمة أو بالأحرى أقل بؤساً ، يتحدث عن « الضرورة » وعن « القوانين » ، ولكن فيلوكتيت لايفهم هذا الحديث مع إدراكه أن حياته متعذرة فى لمنوس إن هو بقى على عصيانه ، وقد جرده نيوبتوليم من قوسه وسهامه . وفى موضع بعينه من المسرحية عند ما يأخذ ، أوديسيوس فى تأنيبه ومعاملته بعنف ، يقول فيلوكتيت الأعزل القوى فى آن واحد ، هذه العبارة التى تهمنا فى هذا البحث : « ما أشقانى ! ألم يجعل أبى منى رجلاحرا ؟ » ثم هو يفكر مثل أياس أن يلقى نفسه فى أحضان الموت بمحض إرادته وحريته : « سأندفع إلى هذه الهاوية لأشج رأسى وأنا أقع من أعلى تلك الصخور » .

غير أن فيلوكتيت حريص على صداقة نيوبتوليم ، وربما أبى أن يكون إلى النهاية الرجل المنعزل الذى يعاند ويلح فى امتناعه ، ويحرم نفسه ، تحت تأثير الكبرياء ، لذة المغفرة وعذوبة الوئام ؛ فقد عاونه إيمانه بحريته على معارضة اليونان وحمله عليهم . أما الآن ، وقد طرق أذنيه صوت الصديق المقنع ، وسعت إليه الآلهة تستميله وتستعطفه ، فانه يستمد من حريته مايساعده على أن يأخذ نفسه بشئ من الرفق والهدوء ، وأن يجيب اليونان إلى مايطلبون ؛ وإن كان فى تصرف فيلوكتيت وفى تفهمه للحرية شئ أقرب

إلينا مما يصدر عن أياس ؛ فإنه من الخطأ أن نؤثر الأول على الثانى ؛ ليس لنا أن نفصل بينهما ، ولا أن نحكم عليهما ، وكل ما يعنينا هو أن الإرادة فى المسرحيتين هى العنصر الأساسى والعامل الجوهرى .

أما أويديبوس فيكفى أن يلفظ اسمه ليسبح خيال السامع فى عالم الأساطير الخالدة التى طالما استقى منها الكتاب موضوعات مسرحياتهم أو بعض عناصرها. ونحن إذا عكفنا على مسرحية « أويديبوس ملكا » نجد أنفسنا أمام رجل عطوف يؤلمه منظر البؤس الذى يسود البلاد التى يحكمها ، وهو لا يبخل بشئ فى سبيل معالجته و إبداله بأسباب السعادة والرفاهية ، لينعم السكان ، ولا سيما المحرومون منهم ، بذلك الفرح الساذج البرئ الذى يشيع فى النفس إذا زال عنها ألم الحاجة والفقر وثقل البؤس والقنوط . نسمعه يقول متحدثاً إلى شعبه : « لست أجهل أنكم تألمون جميعاً ، ولكن ثقوا بأن ليس منكم من يألم كما آلم » . وهو على أتم استعداد ليضحى من تلقاء إرادته بكل شئ لينسيهم وطأة ذلك العذاب المضنى ؛ يستنجد كريون بأبولون ، ويتضرع إليه، فيأمر الإله بالتحرى عن قاتلى لايوس وينفيهم عن البلاد أو الحكم عليهم بالقتل ؛ وهنا يصمم الملك أويديبوس ، فى شئ من الكبرياء الواضحة ، (وقد يؤاخذه عليها كريون فيما بعد) ، وهو يسعى وراء مصلحة غامضة قوية ، على أن يرجع إلى « المصدر » ، ليكتشف المجرم . وقد انقضى زمن طويل منذ ارتكاب الجريمة ، ولكن الملك لا ييأس ، بل يتسلح بذلك الصبر العجيب الذى يتصف به جميع أبطال سوفوكليس . وربما فكر البعض أن هناك إرادة إلهية عبر عنها أبولون لابد لها أن تنفذ ، وأن تعيد الأمور إلى نصابها ، كما هى الحال فى آثار إيسكيلوس . وقد قدمنا فى مطلع المقال الجواب على هذا الاعتراض عندما أشرنا إلى البون الشاسع بين مسرحيات الشاعرين . ليس أويديبوس لعبة تتناولها الآلهة ، وهو يعلن ذلك حينما يقول : « قد أنبأنا بذلك وحى الإله . كذلك أريد أن أنفذ أمر الآلهة وأن أثأر للملك المقتول » . ففى استطاعة أويديبوس إذن أن يتحرر من إرادة أبولون ، وهو يقر بالحاح أنه إذا أنصت إلى صوت الآلهة ولبى دعاءهم ، فانما يفعل ذلك بمحض إرادته .

وعندما يكشف تريسياس للملك أنه هو القاتل الذى أمر بالبحث عنه ،

يبرهن أويديبوس على مقاومة نادرة . تأخذه الدهشة من كل صوب ، فتنفر نفسه وتشمئز ، فهي ثائرة أكثر مما هي مضطربة ؛ ولا يفقد الملك وعيه بل يهدأ روعه ، وتمر بخاطره الفروض والتأويلات ؛ فهو يظن في أول الأمر أنه فريسة مؤامرة دبرها كريون ، وأن الغرض من حديث تريسياس هو إيقاع الريب في النفوس ، وخلق جو مضطرب مسمم حول العرش . وإذا أتت يوكاستيه بالبينات والأدلة التي تزيل الغموض ، تغمر أويديبوس موجة من الحيرة والقلق ، ويظهر ذلك في حوارهما السريع المضطرب ؛ ويشعر القارئ حينئذ أنه إزاء رجل أوشك أن يتراجع وأشرف على الهلاك ، ولكنه يحاول ، وقد أثر فيه اليأس ما أثر وأحاطه القنوط من كل وجه ، أن يبذل آخر مجهود ليصون عزة نفسه ، ويبقى رجلا كريماً حرا . يريد الملك أن يستزيد علماً وأن يحصل على أوفر قسط من الحقيقة ، وألا يرده شئ عن معرفة القاتل ، فيحضر الراعي الذي كان أول من خبر الناس باغتيال لايوس ويسأله ويستمع له .

تحاول يوكاستيه ، وهي لا تعير أهمية كبيرة للتنبؤات ، أن تصرف الملك عن ذلك الإلحاح ؛ ولكن أويديبوس يؤمن بحريته ، ويتمسك بها ، ولا يرضى أن يتنحى عما تبيحه له من دقة في التحرى ومداومة على الاستطلاع ؛ وهو يقول ليوكاستيه : « لا سبيل إلى طاعتك ؛ لابد من أن يتبين هذا اللغز » . ونحن نعلم جليا تلك الحقيقة المحزنة التي بلغها الملك بعد جهد طويل ، ولسنا في حاجة إلى الإمعان فيها ؛ ويكفينا أن نلاحظ ، وذلك كل ما نبتغيه ، أن أويديبوس لم يرتكن إلى شئ كما ارتكن إلى حريته من أول المسرحية إلى آخرها ، من اللحظة التي دعاه فيها بؤس الرعية إلى التفكير والتأمل والسعي وراء الحقيقة ، إلى وهلة الشؤم التي دفعته إلى عالم الظلمة الذي اختاره لنفسه، وإن لم ينكر أثر أبولون فيما يقاسي ؛ فانه يعترف بأمر خطير إذ يقول : « دفعني إلى ذلك أبولون ، نعم أبولون أيها الصديق هو مصدر آلامي التي لا تطاق ، ولكنه لم يفقأ عيني إلا أنا وحدي » . وعندما تفزع الجوقة لصورة الملك الضرير وتجرؤ على أن تنكر لون النكال الذي ألحقه بنفسه ، تعاود أويديبوس نزعة كلها عظمة وجلال ، فينفعل لها ويقول : « لا تحاول أن تظهر لي أني كنت أستطيع أن أفعل خيراً مما فعلت » .

ولم ينته هنا عهدنا بتلك الحرية التامة التي يحتفظ بها الملك في صميم بؤسه ،

فانها تظهر فى أكثر من مناسبة فى مسرحية «أوديبوس فى كولونا» ؛ ولكنها تختلف إلى حد ما عن الحرية الثائرة الصاخبة التى ألفناها فى « أوديبوس ملكا » ، فقد زال عنها عنفها ، وحل مكانه ذلك الهدوء الذى يتصف به وجه المرء وصوته وما يصدر عنه كلما أيقن بحسن نيته وبطهارة قلبه ، بالرغم مما أقدمت عليه يداه من إثم أوجدته الظروف وأبدعه الدهر شر إبداع .

والمسرحية تظهر لنا « أوديبوس البائس » كما تصفه ابنته ، وقد بلغ كولونا بعد هيام طويل ، تقاذفته فيه المدن الواحدة تلو الأخرى ؛ وأنتيجونا تصحبه منذ أصبح ضريراً ، ولم يطع الشيخ إلا ابنته . ومما يستوقفنا فى تلك المسرحية أن الملك الذى كان يضيق بنصائح زوجه ، ويأبى أن يعطى أى حساب عن تصرفاته ، يقول لأنتيجونا ، على مسمع من أهل كولونا ، وهم يزجرونه عن مكان آلهة الانتقام المقدس : « ما العمل يا ابنتى؟ » ثم يستسلم لرأيها .

ولكن الويل لمن يعرض أمامه لسيرة ابنيه اللذين عاونا على نفيه ووافقا عليه بأمر رسمى صدر عنهما ؛ فانه لا يقوى وقتئذ على كبح شعوره ، وعلى رد ذلك اليأس الشديد الذى ينصب عليه ويتغلغل فى نفسه المعذبة . تقبل عليه أسمينا وتنبئه بأن هناك نزاعاً بين إيثيوكليس وبولينيس ، فيجيبها بكبريائه المألوفة قائلا : « لن أدافع عنهما أبداً » ؛ وهو يعلم أيضاً أن كريون أوشك أن يأتى إليه ليرده إلى وطنه ؛ لأن قبره مصدر يمن على الشعب الذى يناله ، ولكن أوديبوس واثق أنه لن يلين ولا يخضع ، مثله فى ذلك مثل من صادفناهم فى المسرحيات السابقة ، وكأننا بفيلوكتيت آخر يمتنع عن العودة إلى وطن أساء إليه ، وآذاه فى حريته ، ودفعه عن أرضه وقصره ، ثم يجرؤ ، ساعة الحاجة إليه ، على استدعائه . فأوديبوس على عكس ذلك يثبت حريته، ويقدم نفسه هدية بائسة لثيسيوس الذى رحب به وأكرمه .

يحضر كريون ويحاول أن يقنع أوديبوس بضرورة العودة إلى ثيبة ، فينشأ جدال بين الماكر القوى والضرير الضعيف ؛ والكريم هو أوديبوس لأنه يتمتع بحرية أكبر من حرية كريون ؛ فكريون رسول أهل ثيبه ، مقيد برغبتهم ، وقد تنحى عن شخصيته فى سبيل إرضائهم . أما أوديبوس فهو هو ، بعيد كل البعد عن نزعات الشعب وأوامره والتزاماته ؛ وهو يشعر أن كريون يريد أن يباعد بينه وبين أنتيجونا وأسمينا ، وأنه ربما فكر فى خطفه وإعادته

رغم إرادته ، إلى ثيبة ، ولكنه لا ينفعل ولا يتقلقل لتهديد كريون ونذيره ؛ بل يبرهن على نفس القوة عندما يأتيه بولينيس ، بعد أن طرده أخوه من ثيبة ، ليستغفره ويستنجد به .

هكذا يظهر أويديبوس فى مسرحياتيه لسوفوكليس بشخصيته القوية الوقور التى استطاع القضاء إخمادها دون أن يقوى على إخضاعها .

إذا رأيتنى أحرص على درس بعض الشخصيات فى مواقف قليلة معينة ، فانما فعلت ذلك لتألف قليلا ما فى تلك المسرحيات من معان جوهرية ثمينة ، ولتلمس حقيقة ربما ظهرت غريبة فى أول الأمر ، وهى أن هناك شبهاً أساسياً بين أبطال سوفوكليس ؛ فمشكلتهم الداخلية الخفية هى نفس المشكلة ، إذا صرفنا النظر عن الأحوال والظروف والحوادث والعناصر الخارجية التى تختلف مع اختلاف الشخصية والبيئة والعمر ، وهى مشكلة كل فرد عالم بقيمته الانسانية ، وعازم على أن يقاوم الشدائد الناشئة عادة عن احتكاكه بغيره ، وعلى أن يقهرها مهما يكلفه ذلك من تضحية وعناء . ويبدو لى أنه من الخطأ أن نصفهم فقط بالثائرين الغاضبين الذين لا يقبلون الحياة ، ويرمون ، على كل حال ، إلى تغييرها أو إزالة أثرها ؛ لأنهم فى الواقع لا يأنفون إلا الحياة الذليلة التى تهينهم فيما بينهم وبين أنفسهم ؛ وإيمانهم بالعدل المطلق هو الذى يسمو فى قلوبهم بحرصهم على حريتهم . وما أنين اليأس الذى يصدر من ضمائرهم إلا سؤال موجه إلى الآلهة والانسانية عن معنى البؤس وأسبابه . وإذا غاب الجواب أو جاء مخالفاً لما دأبوا عليه من حقائق الحكمة والعقل فانهم يلجأون حينئذ إلى أقصى الحلول وأخطرها ؛ وهم لا يضعون شيئاً إلا على بصيرة ، وبعد إمعان طويل ؛ وربما سبق السكوت أغلب تصرفاتهم ، وكأنهم ، فى تلك اللحظة الصامتة ، ينصرفون عن العالم الخارجى ليتبينوا بوضوح حقيقة أمرهم ، ولتصل تلك الحقيقة إلى أعماق قلوبهم ، ثم يطفون فوق سكوتهم وتفكيرهم ، إن صح هذا القول ، ويذعنون آخر الأمر إلى هذا الإحساس القوى الذى يقودهم فى الحياة ، أى شعورهم بالحرية التى هى أعز شىء عندهم ، حتى لو جنت عليهم فى بعض الأحيان .

محمود فرنسيس

L'ART NOMADE

HILDE ZALOSCER

الفن البدوى

تنقسم القارة الإراسياتية ، أى آسيا وشبه جزيرتها الصغيرة أوربا ، بحكم تكوينها الجغرافى إلى قسمين يختلفان اختلافا جوهرياً : شواطئ القارة وأشباه جزرها النضيرة ، ووسط القارة الصحرواى القحل . وقدنمت الحضارة هى أيضاً نمواً متبايناً واتخذت شكلين مختلفين : فأزهرت عند الساحل « الثقافات الرفيعة » ثقافات البيوت — أى بيوت النبات — لأن النباتات يزداد نموها فى الظروف الملائمة ، وتصل فى أغلب الأحيان إلى الخصوبة والوفرة ، والحضارات كذلك تتأثر بالظروف إذا كانت صالحة . هذا على حين أن فى وسط القارة حيث السهول المترامية ، والجبال الشامخة ، فى تلك الطبيعة التى على عظمتها لا يأمن إليها الانسان ، نشأت حضارة أخرى ، وشب قوم آخرون ، وظهر بظهور الفن الذى أبدعته تلك الحضارة ، اتجاه فكرى يختلف اختلافا كلياً عن الاتجاه الفكرى الذى عرفناه حتى الآن .

إلى يومنا هذا كانت الثقافات التى سميناها « ثقافات رفيعة » هى وحدها موضوع دراسة علماء الاجتماع والآثار والمؤرخين بوجه عام ؛ وقد أينعت فى تلك الواحات الشاسعة مثل الصين ، عند وادى هونج هو ، والهند عند وادى الجانج وميزوبوتيا بين دجلة والفرات ، وأخيراً فى وادى النيل . والمعتقد أن تلك الثقافات هى التى على التوالى مهدت للحضارة القائمة فى أيامنا هذه . فقد كان لمذهب داروين التطورى أثره أيضاً فى التاريخ ؛ إذ وضع سلماً للقيم الاجتماعية ، وأوضح قوانين التطور التى استخرجتها هذه القيم من تلك « الحضارات العظمى ».

وإن الاكتشافات التى جاءت عفواً ، وعمليات الحفر المنظمة التى شرع فيها فى وسط آسيا من بحر الصين حتى البحر الأسود ، لم تكشف إلا منذ نحو

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى ».

ثلاثين عاماً فقط ، عن تحف فنية لحضارة كانت مجهولة إلى ذلك الوقت . ثظمت عمليات الحفر والتنقيب فى سيبريا والقوقاز ولورستان وفى وادى الأردوس حتى منغوليا ، وكانت التربة فى كل مكان تلفظ آثاراً من ثقافة غريبة ، تنم عن اتجاه فكرى وجمالى خاص بها . ونحن نستطيع اليوم بوساطة هذه الحفريات أن نكوّن تاريخ الحضارة والفن للشعوب التى تعيش فى وسط القارة الاراسياتية . وأفراد هذه الشعوب هم قبل كل شئ من البدو صيادين كانوا أم رعاة ، لا يعرفون لأنفسهم مقرا ثابتاً ، بل يجوبون أحراراً الفيافى الواسعة ، وينفقون أيامهم على صهوات الجياد ، وقد أعدوا أنفسهم أتم إعداد لحياة السهول . وليس لدينا من الوثائق المكتوبة ما يساعدنا على سرد تاريخهم ؛ وإن ما بقى لنا فهو ما استطعنا أن نتبينه من تأثير مباشر أو غير مباشر فى الشعوب الأخرى ، كما بقى لنا ما حفظته الأرض من آثار فنية .

وبفضل ماتجمع لدينا استطعنا أن نتعرف إلى حضارة جديدة ، وقوانين جديدة ، وقيم جديدة، هى الحضارة البدوية . وفى وسعنا اليوم أن نضع بصفة نهائية جنباً إلى جنب لونين من الثقافة يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : ثقافة الواحات التى نسميها بدافع الكبرياء « الثقافة الرفيعة » ، ثم ثقافة البدو .

فى المناطق المعتدلة حيث الجو ملائم والظروف مواتية ، عدل الإنسان أثناء تطوره عن هذا الصراع العنيف الذى كان يخوضه فى سبيل البقاء . لم تعد الطبيعة له عدوا ، ولم تعد قوة تشعره بضعفه بَلْهَ أن تشعره بقلة مكانته . ومن هذه الثقة بحقيقة ذاته ، استنبط الانسان أهمية نوعه ؛ فيظهر دين تكون الآلهة فيه على صورة الانسان ؛ ويسود نظام سياسى يوضع الحاكم فيه موضع الإله ؛ وينشأ فن يكون الانسان فيه النموذج الأوحد والعنصر المفضل ، والمعيار لكل القيم . ففن الواحات أى فن «ثقافات البيوت» هو فن يتجه فى جوهره وفى كل نواحيه إلى تصوير الانسان .

وإن البراهين لتملأ المتاحف . فلنذكر كل التماثيل التى تصور بوذا ذا الابتسامة التى لايدرك معناها ، ولنذكر كل هؤلاء الملوك والكهنة الأشوريين وهم جامدون فى جلالتهم ، ولنذكر الآلهة والملوك من الفراعنة ؛ فى كل تماثيل العذراء وفينوس والأبطال والقديسين ، فى كل هذا الموكب المكون من آلهة وملوك ، نجد مطبوعة صورة الانسان ؛ جامدة كانت تلك التماثيل أو مبتهجة ،

واجمة أو حاكية للطبيعة ؛ فان صورة الانسان هى التى تتمثل لأعيننا فيها . وهكذا يبدو الفنان فى هذه الحضارات مقلداً أكثر منه مبتكراً ، وينحصر فنه فى تصوير الانسان .

وعلى النقيض من ذلك لانجد إطلاقاً فى آثار الشعوب البدوية هذا الاتجاه نحو التقليد (وهو الذى يساعد على زيادة تقريب فن «الحضارات العظمى» إلى الرائى)؛ ففى الفن البدوى يستوحى الفنان خياله ، وهو إذا استعان بنموذج ، لا يحاول أن ينقله نقلا مطابقاً للأصل ، بل يحمله قيمة رمزية ، وهو دائماً يهدف إلى اختراع الرمز . وبذلك يكون النقل الفنى تاما ، فينشأ شكل جديد ، شكل مجرد بعيد دائم البعد عن الشكل البشرى ، خاضع لقوانين من عالم آخر .

ماذا نعرف من أمر أولئك المبتكرين ، ومن أمر تلك الشعوب البدوية ؟ من كان هؤلاء النفر من الناس الذين قامت على أكتافهم هذه الحضارة العظيمة؟ لا زال تاريخهم أبعد من أن يكون معروفاً تمام المعرفة . لا توجد وثائق مكتوبة ، غير أن الحفائر الحديثة والحملات الجديدة ، تأتينا بآثار لفن نستطيع على ضوئه أن نعيد بناء الأركان المميزة لاحدى الحضارات ، وأن نتبين اتجاهها الفكرى .

إلى أى الأقطار ينتمى هؤلاء المبتكرون ؟ إن أثر الجنس فى إنتاجهم أمر غير موثوق به . لا شك أن هذه السهول المترامية لا يقطنها شعب واحد . غير أن ساكنيها سواء كانوا من الجنس الايرانى كالقيثيين أو من الجنس التركى المنغولى كالهان والجيار والأتراك ، فهم قبل كل شئ بدو تطبعهم حياة مشتركة. هو فن واحد ، فن السهول ، الذى أظهرته لنا فى هذه المساحات كلها ، الآيات الفنية التى عثر عليها ابتداء من مقابر أقاصى منغوليا حتى السهل المنغارى . والمعتقد أن مركز هؤلاء الأقوام هو سفح جبل التاى **Mont Altai** . وكما أن الخزان إذا اشتد امتلاؤه فاض ماؤه ، كذلك نجد قبائل تنصرف مبتعدة عن المركز ، متجهة نحو السواحل ، ثم تصب فى الواحات الواقعة عند ساحل القارة . وأثر هذه التنقلات واضح فى تاريخ تلك الحضارات . فنجد أول ما نجد « الهجرة العظمى » التى تقلب أوربا ، وتؤدى إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وتساعد على تكوين مجموعة جنسية . ثم لا ينقضى قرن حتى تهز قبيلة جديدة أركان القارة الأوربية، تتبعها قبائل أخرى : الأفار ، والبلغار، والجيار ، وأخيراً الأتراك . على حين يزدهر فى آسيا الصغرى حكم السلاجقة

وعاصمتهم قونية ، فيهدد جنكيز خان مرة أخرى شبه جزيرة أوربا . وفى عام ١٤٥٣ ينزل العثمانيون فى أدرنة و يجهزون على الامبراطورية البيزنطية الشامخة ، ويؤسسون الدولة العثمانية التى تسلط سيف تهديدها على أوربا مدى خمسة قرون ، وتصل عن طريق الامبراطورية أوربا بآسيا . وفى الشرق الأقصى تحاول الصين عبثاً أن تقى نفسها شر غزوات البدو فتبنى « السور العظيم » . ولكنه لا يثبت لغزاة فى مثل هذه القوة . غير أن هؤلاء الغزاة سيكتبون للصين المغلوبة على أمرها صفحة من ألمع صفحات تاريخها . ففى عهد ينج المنغولى تعرف الصين مجداً سياسيا وفكريا لا مثيل له . أما الهند فتغزوها قبيلة أخرى من قبائل البدو ، وتجوز الهند تحت حكم عظماء المنغول آخر عهود ازدهارها ، قبل أن تستسلم لأيدى المستعمرين .

وما عدا هذه البيانات غير المباشرة ، وتلك الآثار الناجمة عن قوة نظن مركزها قائماً فى مكان ما من وسط القارة الكبرى ، فاننا لا نكاد نعرف شيئاً جليا عن أمر السكان أنفسهم . ولكننا نستطيع بما وصل إلينا أن نلاحظ صفة خاصة مميزة لهذه الشعوب ، وهى القدرة النادرة الرائعة على التنظيم . فحيثما اتصلت هذه القبائل بثقافات حضرية ، قامت بتكوين الجماعات البشرية وعملت على تركيزها وأنشأت الامبراطوريات العظيمة ، وابتدعت أنظمة سياسية واسعة المدى . أما تاريخها الخاص فلم يدون بعد . ولكن عندما أخذ حوالى سنة ١٩٢٥ فى تنظيم المعارض الأولى ، وقف الناس على فن لفت نظرهم بجماله كما لفت نظرهم بالفكرة الغريبة التى أوحته ، ووجدنا أنفسنا إزاء حضارة مختلفة كل الاختلاف ، وفى الوقت نفسه أمام فن هو نتيجة مباشرة للوضع الاجتماعى ؛ وقلما يظهر التداخل والتفاعل بين الثقافة الروحية والنظام الاجتماعى ، على مثل هذه الصورة الخالصة . والاتصال بينهما قوى إلى درجة أن كليهما لا تكاد تقوم له قائمة إلا لخدمة الآخر . فالانسان وحياته اليومية خاضعان خضوعاً كليا للتضاريس الجغرافية ولجو المناطق التى يعيش فيها . فهو عرضة لقوى العناصر . و إزاء هذا الفضاء الشاسع الذى يحيط به ، وأمام هذه المسافات القابضة القاسية التى يجوبها باحثاً عن الكلأ وساعياً وراء الغنيمة ، يدرك الانسان فى كل لحظة مدى ضعفه .

و إن الايمان بالنفس والشعور بالثقة لا يجدان إلى قلبه سبيلا ، وقد حاقت

به أخطار واقعية وأخطار وهمية أشد هولا ، كما يجدان سبيلهما إلى قلوب الذين يعيشون فى المناطق السمحة الصالحة . والآلهة التى يتصورها تبعث إليه الرعب ، وهو لا يدرك فى الوقت نفسه كنهها ؛ هى قوة تتبدى فى كائنات غريبة خطيرة ؛ فهى تكمن فى ثمرة شجرة تحجب الموت ، وهى تقطن فى حية تنساب فى سكون ، أو فى هذا الحيوان أو ذاك من الحيوانات التى لا تدرك طباعها لغرابتها . لا ترى الآلهة ، بل تنم عنها قوة خفية ، وهى تهدأ وتسكن بوساطة الطقوس السحرية . فى ذلك العالم المعمور بالأرواح يدرك الانسان ضعفه ؛ فالحيوان نفسه أعلى منه ، بل عليه يعتمد الانسان . فأغنامه تمده بضرورات الحياة ، وحصانه ليس رفيقاً أميناً له فحسب ، بل هو رفيق لا غنى له عنه ، وهو أشد حاجة إليه منه إلى الانسان الذى يقل شأنه فى هذا الصراع المستمر . و إذا لم نجد للانسان دوراً فى الدين وفى الفن — وهما أول ظاهرتين روحيتين للانسان وثيقتى الارتباط — فان ذلك نتيجة منطقية للحياة البدوية نفسها . فلا يتخذ الانسان شكلا فنيا أو عنصراً فنياً أى أن الفن البدوى ليس فناً مصوراً للانسان **anthropomorphe** وهو يناقض الفكرة الفنية التى أخذت بها ثقافات البيوت ، فلا يقتبس وحداته الفنية إلا عن الحيوان ؛ وهو يقابل فن « الثقافات الرفيعة » الذى يصور الطبيعة ويقلدها ، بالفن الحيوانى الرمزى الخاص بما ندعوه ثقافات بدائية ، أى ثقافات السهول .

وقبل أن ندرس الآثار الصحيحة الحقيقية لهذه الثقافة ، نحب أن نلقى نظرة على مدى تأثيرها فى الثقافات التى اتصلت بها .

لم يكن للشعوب البدوية بطبيعة الحال فن معمارى ، ولم يكن الفنان البدوى ليواجه مشكلة إقامة مسكن مستقر متين البنيان . كانت الحياة تضطره إلى الانتقال من مكان إلى آخر بخفة وبغير مشقة ، فكان لا يستطيع أن يحمل من الأمتعة ما يرهق وما يصعب نقله . كان رجال البادية يسكنون الخيام المصنوعة من البسط ، ويتخذون أثاثاً مصنوعاً هو أيضاً من البسط التى كانت أنعامهم تمدهم بما يلزمهم لصنعها . ولكن على مر العصور غزا أولئك الرحل الواحات ، ومن طبيعة الواحات أن تتوالى عليها الغزوات تلو الغزوات . وعندما استقر بهم المقام ، ظهرت حاجتهم إلى المعمار . ونحن نلحظ فى هذا المعمار الجديد الذى أنشأوه لأنفسهم ، مزاجاً كاملا من روح البداوة والفن الذى كان معروفاً حينئذاك

فى الواحات — ونعنى بالواحات وادى الجانج كما نعنى وادى الفرات أو وادى النيل — تنشأ فكرة معمارية جديدة . وإن ما نسميه المسجد العربى ليصور أتم تصوير هذا الاتجاه الفنى الجديد . فالمسجد الاسلامى فى القرون الأولى من التاريخ الهجرى، سواء كان مسجد ابن طولون أو مسجد سيدى عقبة فىالقيروان أو مسجد قرطبة ، يبدو لنا مؤسسة فراغية تختلف اختلافاً أساسياً عن كل ما نعرف من مساجد ، فعناصر البناء هى العناصر التى عثر عليها المعماريون من الغزاة فى الأماكن التى غزوها . ومن السهل أن نتبين فى آلاف الأعمدة التى شيدها المعمار الاسلامى الناشئ ، أعمدة ورءوس أعمدة يونانية أو بيزانطية ، ولكن هذه العناصر كلها قد صهرت فى معمار تتجسم فيه تلك الفكرة الفراغية الجديدة . ونستطيع أن نتبين هذا المعمار بشكل أوضح إذا قارناه بالفن المعمارى فى الحضارات الأخرى . فالقاعدة الأساسية فى كل بناء هى أن يقتطع من الفضاء الطلق جزء محدد الأبعاد ، وأن تحد أطرافه الخارجية بعناصر معمارية كالحيطان والسقوف وغيرها .على أساس هذه الفكرة تم بناء المعبد الفرعونى،والمعبد اليونانى،والقيسرية الرومانية والكنيسة المسيحية . فكل من هذه الأبنية ينتظم فراغاً محدوداً ، ويوجد توازناً بين العناصر التى تحد الفراغ وبين الفراغ أى الفضاء نفسه ، فلا بد من أن ينبعث من كل معمار قائم على هذا الأساس إحساس بالمغلق والمحدود . والفنان العربى وحده هو الذى أدرك فى المعمار إحساس غير المحدود . فالمعمار العربى ، مع أنه خاضع مثل أى معمار للقواعد البنائية عينها ، ومحاط فى خارجه بالحيطان والسقوف ، يترك فى النفس شعوراً بالفضاء الطليق ، ويوحى إليها باللانهاية . فهؤلاء القوم الذين ألفوا رؤية الأفق رحباً لا حدود له ، أدخلوا على معمارهم هذه الميزة العجيبة ، وجسموها بطريقة معجزة فى مساجدهم . إن هذه الأعمدة الكثيرة ، التى تتوالى جنباً إلى جنب مترامية فى كل الجهات ، غير مرتبطة بمركز بنائى ، والتى قد يضاف إليها غيرها حسب مشيئة أصحابها ، من غير أن تنهدم لذلك الفكرة الأساسية — إن هذه الأعمدة لتحتفظ للمعمار بخاصة من خصائص الفضاء الطلق . فالمسجد العربى يمتد كسماط أفقى مترامى الأطراف ، ويفقد العمود كل أهميته إذا نظر إليه كوحدة منفردة ؛ فلا يقام وزن إلا لتلك الصفوف من الأعمدة المرتفعة التى تنتصب على مدى البصر . ولا يغمر المرء هذا الاحساس بالغبطة والخفة ، إزاء أى معمار ، كما يغمره وهو فى

المسجد العربى . والصفة المميزة لهذا الفن الناشئ عن الروح البدوية هى انعدام التوجيه فيه ؛ إذ تجد أشكالاً متوالية يتشبث بعضها ببعض بطريقة غير واضحة ، حتى ليصعب علينا أن ندرك كيف أن هذه الأشكال تقوى على حمل المسجد كله . لا أثر هناك لقانون النقل . والفضاء يبدو غير متناه فى أبعاده ، عرضاً وارتفاعاً وعمقاً . وإذا استطاع الفنان أن يعبر بالأشكال المعارية عن آلامه وعن أحزانه ، وعن حاجته إلى الواقع المحسوس ، فهو أيضاً يستطيع أن يعبر عن حاجته إلى اللانهاية وعن انطلاق نفسه إلى ما بعد الطبيعة .

وللمرة الثانية يطبع فن الثقافة الحضرية بالروح البدوية ؛ فمن السهل أن نتبين أوجه الشبه بين خيمة البدوى وبين شكل « الضريح » ، ذلك البرج المشيد فوق مقابر الاسلام ، تعلوه قبة أو يعلوه هرم . فالخيمة قد نقلت أو « ترجمت » إلى مادة ثابتة من التى يتداولها أهل الحضر — هى مادة الآجر ، وأما جوهر الأمر ، أى الفكرة المعارية ، فيرجع الفضل فيها إلى البدو . وذلك هو الشأن فى العناصر الزخرفية نفسها . فالشرافة التى تمتد فى حرف الحائط عند اتصاله بالسقف ، لها أصل طرزى ، فهى تنقل هدب البساط إلى عنصر زخرفى معارى. والكسوة الفاخرة الخزفية ذات الألوان العديدة ، التى تغطى الحيطان والقباب فى المساجد والقصور العربية ، هى بلا شك أثر من آثار البسط المزخرفة المألوفة فى المسكن البدوى القديم ، أى الخيمة . وفى مقدورنا أن نجد آثار الابتكار الفنى البدوى فى ميادين غير التى ذكرناها . ويحدثنا المقريزى عن بساط رائع كان يزين قصر كسرى عندما استولى العرب على اكستيسيفون . هذا البساط ، على مايذكر المقريزى ، كان يصور «مفاتن روضة» ؛ فكنت ترى عليه أحواضاً وجداول ماء ، ورياضاً مزهرة ، وطيوراً عديدة الألوان . ومن غريب الأمر أن هذا الوصف الذى وصفه المؤرخ لهذا البساط الذى سماه « ربيع كسرى» يذكرنا بالطراز المعروف اليوم «بطراز الحديقة» ؛ ففى الوسط حوض ذو شكل هندسى منتظم ، تنبثق من جوانبه — أربعة جوانب عادة — جداول ماء يسبح فيها الطير والبط ، وباقى الطراز تنتثر فيه الشجيرات والأزهار . وها هم أولاء البدو قد انتقلوا إلى حياة الحضر يبتكرون لوناً فنيا جديداً ؛ إذ يخلقون من شئ كانوا يستخدمونه فى حياتهم اليومية ، أثراً فنيا ، يورثونه الحضارة الانسانية بعدهم .

فمن بساط البدوى نشأ البساط العجمي الفخم . ومن وراء العناصر الزخرفية كالعجيزات والأزهار والحيوانات ، نستطيع أن نتبين «ربيع كسرى » . ويلذ لنا أن ندرك أن فى «طراز الحديقة» هذا استطاع البدوى أن يسجل حبه وحنينه إلى الصحراء ، و إلى أعز الأشياء التى كان يطلبها فيهاً : الماء والنبات . وكان رؤساء القبائل البدوية وقد استقروا فى قصورهم الفخمة ، يستعيدون بما يحيط بهم من فاخر الأشياء ، ذكرى عاداتهم القديمة وحياتهم الماضية . فالطراز يصور أيضاً إلى جانب الحيوانات حياة القنص ، فنرى فرساناً قد انحنوا على سروجهم يتعقبون وحشاً . ذلك أن القنص بعد أن كان أهم شاغل للبدوى ، أصبح فى حياة الحضر وسيلة من وسائل التسلية الراقية ، ثم استقر آخر الأمر فى الفن كعنصر زخرفى . وأكثر الرسوم انتشاراً هو الذى يصور صراع الحيوانات ، ونجده فى القرون الأولى من الفن الاسلامى . ويحتمل كثيراً أن يكون هذا الرسم عند البدوى رسما دينيا ذا قيمة سحرية ، أو بمعنى آخر كان « طوطم » القبيلة . ولكن عندما أخذت المعتقدات القديمة تضعف وتختفى بظهور الدين الجديد ، استمرت تلك الرسوم على أنها مجرد عناصر زخرفية . وهكذا نجد أن الفن البدوى عند اتصاله « بالثقافات الرفيعة » ، لم ينفخ فيها روحاً جديداً فحسب ، بل أدخل عليها ميوله البدوية .

ولكن ما هو الفن البدوى فى صورته النقية ، وفى حالته الاصلية ؟ ربما خيب هذا الفن أملنا ، لأننا نشأنا مشبعين بروح الثقافات الرفيعة؛فهو لم ينتج منحوتات أثرية ، ولم ينشئ لوحات بها رسومات ذات طابع مسرحى مؤثر أو طابع شعرى ، تعبر عن درجات الاحساس البشرى كلها . فكل ما كشفت الحفائر عنه أشياء بسيطة المظهر ، تتصل اتصالا وثيقاً بحياة الفارس ؛ والجزء الأكبر منها خاص بعدة الحصان : من ركابات ومهاميز وحجب العين وأبازيم النُّطق ، وصفائح معدنية ودبابيس وغيرها . وقد نجد أحياناً من آثار هذا الفن آنية جميلة ، أقداحاً كان القوم يرتوون بها فى الفترات القصيرة التى كانوا يلقون فيها عصا الترحال .

أما المواد التى استخدموها فهى التى عثروا عليها وفيرة فى أماكن حلولهم ، أى المعادن ، والذهب منها بوجه خاص ، والفضة والنحاس ثم التوج (البرنز) فيما بعد . فعنهم تلقت الحضارات التالية فنون التعدين ، ونحن لهم مدينون بكل

هذه الصناعات المعدنية الدقيقة؛ فقد بلغوا الغاية فى ممارسة المعادن كما بلغوها فى الطراز .

ويحتوى متحف فينا على ثمان وعشرين قطعة من آنية وجرار وأقداح من الذهب الخالص ، آتية كلها من نفس الحفرة ، فى السهل المنغارى المعروف بناجى - شنت - ميكلوس Nagy-Szent-Miklos ، وقد أطلق هذا الاسم فى الأدب على ذلك الكنز . وسمى لجماله وروعته « كنز أتيلا » . وقد حير أمره العلماء زمناً طويلا ، وبعث من جديد أسطورة الكنوز الطائلة التى كان يمتلكها آل نيبلجن Nibelungen . لم يستطع علم الآثار الوصول إلى تحديد عصره ،فكان أن نسب ، كما جرت العادة ، إلى العصر الكلاسيكى المضمحل ، وبخاصة أن واحدة من الجرار كانت تحمل رسم طائر ضخم ، أشبه بنسر مزخرف ، قابض بمخالبه على كائن بشرى . وليس من الصعب أن نرى فى هذا الرسم قصة جانيميد Ganymède ساقى الآلهة ، وقد اختطفه جوبتر النسر Jupiter-Aigle . ومع ذلك فقد ظلت نسبة الكنز إلى ذلك العصر موضع الشك؛ غير أن أشياء أخرى، مصنوع أكثرها من الذهب والفضة ، وتتميز بالأسلوب نفسه ، كشف عنها شيئاً فشيئاً فى تلك المنطقة الشاسعة التى تمتد من السهل المنغارى حتى مصب المنغو Hoangho . وأخيراً رفع الستار عن معنى هذا المنظر الغريب ، وبعد أن كان يظن أنه يمثل خطف جانيميد — من غير أن يفهم لماذا صور جانيميد فى صورة امرأة — اتضح أنه يمثل الأسطورة البوذية : أسطورة جارودا Garuda طائر فشنو Vichnou المقدس حاملا بين براثنه الحية الالهية ناجا Naga . وتصور الأشياء الأخرى التى عثر عليها فى هذه المناطق أكثر ما تصور مناظر الحياة الحيوانية ، أو حيوانات مفردة ، وبوجه خاص الحمير الوحشية ، والتيوس البرية والحيوانات المفترسة . وعرفت آخر الأمر حقيقة كنز أتيلا ، وقد دلت المادة التى صنع منها على مصدره ، وهو عبارة عن مناجم الذهب الواقعة عند جبل ألتاى Mont Altai . وكان هذا الكنز ملك أحد زعماء البدو ، حمله معه خلال الهجرات العديدة التى ترامت على القارة الأوربية . وقد وجدت كنوز أخرى متشابهة ، فى شرق أوربا ، وبلغاريا ، وسيبريا ، والقوقاز ، وبلاد فارس ؛ كانت منثورة على طول الطريق التى عبرها البدو متنقلين آمنين من أقاصى الأرض . والفكرة هى هى والأسلوب هو هو نلمسهما فى هذه الأشياء كما لمسناهما فى غيرها

والمادة التى استعملت هى المعدن أيضاً ، والأشياء نفسها أجزاء من عدة الفارس ؛ غير أن ما هو أهم أن العنصر الزخرفى الرئيسى ، إن لم يكن الوحيد ، هو الحيوان .

والواقع أننا إزاء فن حيوانى نجد فيه الحيوان مفرداً أو ضمن مجموعة ، نراه متحركا منطلقاً فى عنف وشدة ، أو نراه جامداً على نمط مقدس تقليدى . وقد يشاهد أحياناً يطارده فارس أو يهاجمه وحش أشد منه . ولكن الفنان لا يختار لرسومه غير الحيوان ، فيجسم فيه أحلامه ، ويعبر بوساطته عن مخاوفه وآماله ، والحيوان يمثل الآلهة ، وهو الجد الأول للقبيلة ، هو الروح الأعظم . وعلى هذه الأشياء المزخرفة يظهر الحيوان مقطعاً بشكل غريب ؛ فتلغى بعض أجزاء جسمه ، فى حين تضاعف أجزاء أخرى . مثال ذلك أننا نرى مرسوماً على قدح عثر عليه فى الدانوب ، ويرجح أن يكون مصدره سيتيا Scythe ، غزالا ذا ثمانى أرجل ، على حين تعددت قرونه واستدارت حول الحرف الأعلى كله من القدح ، مكونة عنصراً زخرفيا . ربما كان المقصود رسما رمزيا لا ندرك معناه . وفى أشياء أخرى نجد مجموعة من رءوس الطير يعلو بعضها بعضاً ، مكونة نصاب خنجر اكتشف فى القوقاز وفى سيبريا . وهناك فأس مصدرها الصين ، مصنوعة من اليشم كانت تستخدم فى الطقوس الدينية ، صيغت على شكل تنين ، وفى هذه هذه الحالة لا يمكننا أن نشك فى المعنى الدينى لصورة الحيوان ؛ إذ أننا أمام شئ كان يستخدم لأغراض دينية . وكثيراً ما يكون الشكل مبسطاً إلى أبعد حدود التبسيط ، غير أن الناحية الجوهرية فى طباع الحيوان قد أبرزت فى صورة يدهشنا منها قوة التعبير مع الاعتدال وعدم التكلف . لا يمكن أن يكون القصد من هذه الرسوم مجرد الزخرفة ؛ لأن هذه الحيوانات كلها محملة بقوة كامنة خفية . لا شك أن أولئك الفنانين المجهولين ، على وفرة عددهم ، يدركون تمام الادراك فن الزخرفة ورسم الأطياف وتوازن الكتل ، ولكن لا شك أيضاً أن فنهم هو قبل شئ فن دينى ، شأنه فى ذلك شأن كل فن . وإن ما يبدو مجرد زخرف لعين الغربى المثقف الملحد ، هو فى الحقيقة جزء من المعتقدات الطوطمية السحرية التى كان يأخذ بها رجال تلك القبائل من فرسان ورعاة . وفكرة الفن للفن فكرة حديثة ، إن دلت على شئ فعلى اضمحلال الفن . وفى الحضارة البدوية ، تلك الحضارة التى كانت على حالة عنيفة من التطور الروحى ، كان كل مظهر

من مظاهر الحياة ، مهما بلغ من البساطة ، يتصل اتصالا وثيقا بفكرة دينية . فالفكرة الدينية تحكم وتوجه كل حركة من حركات الحياة وكل فعل من أفعالها . وقد لاحظنا مثلا أن أهم مايتميز به الفن البدوى هو رفضه تمثيل الانسان. وهذا الرفض توارثته كل الأديان التى نبعت من مناطق تأصلت فيها الروح البدوية . فلا وجود للانسان كوضوع فنى ، كما أن فى الوصايا العشر وصية تحرم تمثيل الله . فقد أخذ الحيوان مكان الانسان فى مجال الفن بصفة تكاد تكون مطلقة .

ويمتاز الفنان البدوى بصفات لا يعرفها فنان « الثقافات الرفيعة » ، تكشف عن نفسية دقيقة . وهذه الصفات تتصل بموقف الفنان من المادة التى يصطنعها ، وبالتوتر الموجود بين المبتكر والشىء المبتكر . ونلاحظ أن الفنان البدوى لايحاول أن يفرض إرادته أوقانونه الانسانى على المادة التى يستخدمها بل هو على النقيض يحاول فى غاية من التواضع أن يزيح الستار عن روح المادة ، وعن القانون الكامن فى هذه المادة بطبيعتها . فهو يطلق هذه القوى الكامنة ويعمل على إبراز هذه القوانين الخفية . فيظل الخشب بعد صنعه خشباً ، أو يصبح أكثر خشباً مما كان . ويجسم التوج (البرنز) روح التوج نفسه ، ويحتفظ الصخر بكل الصفات التى تجعله صخراً . وهذه النزعة فى الفنان البدوى تختلف اختلافا كليا عن نزعة الفنان الغربى . ونذكر مثالا لزيادة إيضاح ذلك ؛ فآنية الزجاج الفاخرة المصنوعة من البلور الصخرى ، والمعروفة « بآنية الفاطميين » مشغولة بحيث ان قانون البلور ، أو بمعنى آخر قاعدة التبلور تصبح هى الشكل الفنى نفسه . فالفنان يسبغ على أثره شكلا منشوريا دقيق الهندسة إلى أبعد حدود الدقة ، على قسط من الجمال المجرد البالغ غاية الكمال . وقد أنشأ الفن أثره خاضعاً للقانون الكامن أصلا فى البلور ،على حين أن الفنان الغربى يعتد بمقدرته ، فيخضع البلور لذوقه هو ولقانونه هو ، ويفرض عليه الأشكال التى تمر بمخيلته . فهو يغتصب المادة ، حتى لنراه ينقش الحيوانات والأزهار والأكاليل على البلور الملوث تماماً كأنما هو ينقشها على الخشب أو الصخر أو المعدن . إن الثنائية بين «الأنا» والعالم المحيط بى ، تلك الثنائية التى هى من خصائص كل الحضارات العظمى ، والتى ستصبح الموضوع الرئيسى فى كل ميادين الفكر ، لم يكن البدوى ليعرفها . فهو والطبيعة « كل » واحد ،

وهو منها جزء يسير تافه القدر . إنه ينتسب « للكل » ، ولذا ينعدم كل توتر وضغط فى فنه ، وهو بذلك منسجم مع عالمه كل الانسجام ، و إن خضع له فبمحض رغبته ، دون ما ثورة أو تمرد ، و يمثل فنه أتم تمثيل هذه الحالة من الانبساط والاكتمال .

ولا يعرف الفنان البدوى أيضاً تلك التنائية الأخرى . الموجودة فى الغرب بين الزخرف والشئ المزخرف . فى الفن الغربى يوجد الشئ المزخرف قبل أن يزخرف ، ثم تضاف إليه الحلية ، حتى إنه لمن السهل انتزاع تلك الأزهار ، والأغصان، والأكاليل ، عن هذه الصناديق ، والمنسوجات ، والأوانى . ليس فى الفن البدوى شئ من ذلك على الاطلاق ، فالزخرف ينشأ أثناء النسج ، والخيوط العديدة الألوان التى تكون الطراز تكون فى الوقت نفسه زخرفة ، وهذه الخيوط لا تحل ولا تفصل عن المنسوج . كذلك الشأن فى المعمار ؛ فالفنان الغربى يشيد البناء أولا ، ثم يمضى فى زخرفته ، على حين أن المعمارى البدوى إذا تحضر ، يغير ويبدل فى وضع طبقات الآجر ، فهى مرة فى وضع طولى وأخرى فى وضع عرضى أو فى وضع منحرف ؛ حتى لينشأ الزخرف ويأخذ فى الظهور كلما تكون البنيان وظهر شيئاً فشيئاً ، فيصبح جزءاً لا ينفصل عنه .

وهكذا تظهر فى كل أثر فنى تلك النزعة الفكرية التى تميز البدوى . ليس للفردية فيها من أثر ، ولا يخضع البدوى للقوانين البشرية ، بل للقوانين الأزلية الثابتة التى يحاول أن يبرزها للعيان . إن فنه يتجاوز نطاق الزمان ؛ لذلك لا نجد لفن السهول ، أى فن البدو ، نمواً فنيا . ولما كانت العلاقة بين الكائنات لم تتغير على مر الأجيال ، ففنه أيضاً لم يتغير . فهو ما فتئ يصور الحيوانات نفسها التى يرى أطيافها شاردة على بعد . ومن البحر الأسود حتى بحر الصين ، على طول هذه المسافات المترامية التى يجوبها البدو ، قد وقف الزمان سيره . وتحيط بهؤلاء البدو حضارات ثلاث عظمية : الصينية والفارسية واليونانية . ولكن ما من واحدة من تلك النزعات الفنية الجمالية البالغة حد الكمال ، أثرت فى أولئك البدائيين أو طغت عليهم ، بل على النقيض ، كان أولئك البرابرة هم الذين زودوا أو جددوا أكثر من مرة الفكرة الجمالية عند الشعوب الراقية .

ربما أنكرت العين التى تعودت رؤية آثار الثقافات الرفيعة لأول وهلة ، هذه الأشياء ذات المظهر البسيط المعتدل ؛ إذ لا تجد تلك النزعة الانسانية أو ذلك

الميل إلى البشر، الذى ألفته . غير أن بصيرة أكثر نفاذاً وأقوى حساسية لابد أن تدرك هذه الصفة القوية التى يتميز بها كل فن صحيح أصيل . وحينئذ ترى فنا ليس له أسلوبه الجمالى فحسب بل له أيضاً أسطورته بكل معنى الكلمة .

ونظن أن دراسة الفن البدوى لا يمكن أن تنتهى من غير أن نذكر أولئك الذين كانوا أول من أدركوا خطورة هذا الفن وشرحوا قيمته الروحية ، أولئك الذين كانوا بوجه خاص أول من بينوا تأثر كل من الثقافتين بالأخرى : الثقافة الرفيعة ، ثقافة البيوت ، والثقافة المنعوتة بالبدائية ، وأطلعونا على الدور المختلف الذى لعبه كل من هذين المظهرين الفكريين فى تطور الفن. ونذكر فى أول الأمر سترز يجوسكى **Strzygovski** وتلميذه هيرتويك جلوك **Herenrich Glück** ، اللذين تعقبا بادراكهما الواسع أسباب الصلة وأسباب الاستقلال فى هذين المظهرين الثقافيين . وكانت دراستهما كلها تكاد تكون مقصورة على البحث عن العلاقات بين هذين النظامين الاجتماعيين الروحيين .

وعلم الآثار مشغول الآن بمراجعة نظرياته ومقاييسه ، وقد فقدت « الثقافات الرفيعة » جزءاً من الثقة بها . فهى أشبه بالاسفنجات الضخمة ، تمتص القوى المبتكرة التى تأتيها من جوف القارة **Hinterland** . ويشبهها جلوك بأزهار جميلة يانعة تراها العين من بعيد ، ولكن جذعها وجذورها فى أرض نائية شاسعة ، تستمد الأزهار منها ماء الحياة . وأى عالم ذاك الذى يستطيع أن يفهم تكوين جسم حى إذا لم يصل إلى معرفة جذوره والأرض التى نبتت فيها ! وهكذا تقوم تلك الأشياء القليلة النادرة التى أنقذت بما يشبه المعجزة ، شاهدة على تلك الثقافة الثانية الخلاقة ، التى أنجبت حضاراتنا العظمى .

هيلدي زالوشر

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء

عندما أرسلت كلمتى على « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء » فى عدد يناير من مجلة « الأديب » البيروتية كنت أنتظر أن تثير هذه الكلمة بعض الشؤون فى البيئات التى تعنى بتاريخ الفكر عند العرب ، وأن يتحمس لفكرتها بعض الاختصاصيين فى مثل هذا الموضوع ، فيعالجها بما تقتضيه الدراسة الموزونة والرصانة العلمية . وكنت على شبه يقين من أن هذه الكلمة تروق كثيرين من أصحاب التجديد فى أساليب البحث والتنقيب ، الساعين إلى الحق الصراح ، وأنها قد لا تعجب نفراً آخر ؛ لأن البينات التى سقتها بحاجة إلى القطعية والحتمية ، وتقوم على افتراضات ، إن جاز لها أن تخط أمامنا أفقاً أُنفاً ، فهى لا تعرض لهذا الأفق بالتفصيل والتبيين . فكان أن أوجزت مجلة « الكاتب المصرى » فى عدد يناير ١٩٤٧ ملخص البحث ، ثم نشرت فى عدد أبريل ردا للأديب محمد كامل حسين حاول فيه أن ينفى عن إخوان الصفاء الهوى الوثنى . وأن يبين أن الافتراضات التى سقتها فى البحث «مغالطات جريئة » ، وأن النصوص قد عدلت وحرفت بحيث أصبحت مطاوعة للفكرة التى أهدف إليها . ووقف من الفكر التى استندت إليها ، لفتح هذه الثغرة فى معقل إخوان الصفاء ، موقفاً سلبيا ، أدى إلى الرجوع بدراستهم إلى نقطة الابتداء . وقد كان بودى ، مع احترامى لمجلة « الكاتب المصرى » التى يشرف عليها عميد الأدب العربى ، أن يذيع حضرة الأستاذ رده ، حسب أصول المناظرات العلمية ، فى مجلة « الأديب » نفسها ، فيقف عليه من اطلع على المقالة ، ولمس أسلوبها الافتراضى ، وتبين دقائق فقراتها ، بحيث ينتهى من مطالعة الكلمة والرد إلى نتيجة يرضى عنها استنتاجه الخاص . ولكنه آثر أن يقرأ الرد من لم يقف على البحث ، وأن يقف على البحث من لم يطلع على الرد ، فأضاع على كثيرين متعة الموازنة . فى رأيى أن ما ذكره

حضرة الكاتب ، وإن كان ترديداً للمألوف عن الاخوان ، لا يزال إلى الآن بلخص النظرية الشائعة فى البيئات التاريخية ، وهو بحاجة إلى إعادة نظر و بحث وغربلة . ولقد جاء فى المقدمة الممتعة التى مهد بها الدكتور طه حسين للرسائل منذ عشرين عاماً ، أن هذه الرسائل تتطلب مطالعة دقيقة ، وعيوناً تقرأ ما بين السطور، وأذهاناً تهتدى إلى الحقائق الخفية . والواقع أن أمرها غريب عجيب ؛ لأنك واجد فيها ماتشاء من المذاهب الدينية والفكرية ، وواجد فيها أثراً لجميع المتفلسفين والمدارس التى عرفت فى الحضارتين اليونانية — البيزنطية والعربية. وبوسعك أن تقرأ فى تضاعيفها ماتشاء من النصوص التى تؤيد إيمانهم القويم، وعقيدتهم الثابتة بالأصول ، وأن تتبين فيها أنهم روحانيون ، لا يعنون إلا بخلاص نفوسهم ، و إعداد العدة اللازمة لبلوغ مراتب الملائكة ، كما تتبين إلى جانب كل هذا سعيهم الحثيث نحو غاية سياسية معينة ، تقوم على قلب الحكومة الحاضرة ، وتأسيس حكومة جديدة فى أمة أخرى . وبوسعك أن تقول عنهم إنهم علويون ، وباطنيون ، و إسماعيليون ، ومعتزلة ، وفيثاغوريون ، وأفلوطينيون ؛ لأن لكل هذه النزعات أثراً بارزاً فى الرسائل ، ولأن هذا الخليط يتجاور فيها على غير وفاق ، ويترادف على غير اتساق . وهم فى الواقع ليسوا شيئاً معيناً ، بل هم كل شئ . تعاليمهم كقوس قزح من حيث تعدد الألوان . فيها ماتشاء من أقوال الفيثاغوريين ، والأكاديميين ، والمشائين ، والاسكندريين ، والرسل ، والأنبياء ، وأصحاب الفرق من أتباعهم .

لهذا أرى أن الكاتب قد تجنى على « معالم الوثنية » عندما ألح أن نحكم على إخوان الصفاء من ظاهر كلامهم ، وأن يكون اعتمادنا على النصوص التى تؤيد عقيدتهم الشرعية ، لا على النصوص التى نستشف منها أثراً وثنيا . وقد فات حضرته أن موقف الاخوان فى رسائلهم من الرأى العام المسلم ، فى ذلك الحين ، موقف المجرم الذى يسعى جاهداً فى إثبات براءته ، و إخفاء معالم جريمته ، وأن موقفنا منهم موقف القاضى الذى يحاول بضروب من الاستنتاج اختراق الحجب للوصول إلى الحقيقة ، فيتبين من دفاع الماثل أمامه مايثبت إدانته . وهذا ما أشار إليه حضرته فى قوله « . . . فقد عمد إلى تلخيص أجزاء من النص ، هى التى تتفق مع القضية التى افترضها ، ودفع باقى النص الذى يدحض فروضه ويخالفها » . وهو أمر لا أنكره ، ولا تنكره

الدراسة العلمية ؛ لأنى لا أريد أن أقف الناس على رأى إخوان الصفاء الظاهر فى إخوان الصفاء المستترين . وإلا فما على هؤلاء الناس إلا أن يأخذوا الرسائل فيطالعوها ، وينتهوا إلى مايشاء حظهم من الاستنتاج .

لسنا أول من ذهب هذا المذهب فى إخوان الصفاء وإنما تبدو طلائعه عند بعض المؤرخين القدماء والمحدثين . وأمهات الكتب التى عنيت بتدوين مراحل الفكر عند العرب ، تشير إلى هذا التلون وهذا التمويه . فأبو حيان التوحيدى المتوفى حوالى سنة ٤٠٣ هـ. يقول عن رسائلهم فى « الإمتاع والمؤانسة » ، بعد أن اطلع عليها « . . . وفيها خرافات ، وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وقد غرق الصواب فيها ، لغلبة الخطأ عليها » بعد أن تبين أنهم « قد حشوها بالكلم الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة » [١] . وهذا رأى ردده القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ. — ١٢٤٨ م. فى « أخبار الحكماء »[٢] ، ولا يخالفه أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ. — ١١١١ م. فى قوله الوارد فى « المنقذ من الضلال »[٣] . وفطن المستشرق ت. ج. ده بور إلى هذا التلون ، فذكر فى الباب الذى خصهم به رأيه فيهم ، قال : « . . . فنشأت جماعات سرية . . . وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا . نعم كانوا يردون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم فى التوراة أو فى القرآن ، ولكن أصولها مأخوذة من مذاهب الفلاسفة الوثنيين . . . » [٤]

ليس بودى أن أعود إلى نص كلمة الأديب محمد كامل حسين ، فأفند ماجاء فيها مخالفاً للواقع ، وأشير إلى النصوص المنثورة فى تضاعيف الرسائل التى تؤيد كل ما عرضته من بينات ، كسعى إخوان الصفاء فى فصل السلطة الدينية عن المدنية فى الخلافة الاسلامية ، واطرائهم المجوسية ، واحتذائهم

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٣ وما بعدها ــ القاهرة ١٩٤٢ .

(٢) ص ٥٨ وما بعدها ــ القاهرة ١٣٢٦ هـ .

(٣) ص ١١٩و١٢٠ ــ طبعة دمشق ١٩٣٤ .

(٤) ده بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٩٥ ــ ٩٦ وقد زاد المعرب فى الهامش قوله : « ... قارئها يجد أنها تقم من كل مذهب ، وتمزج الدين بالفلسفة مزجاً غير سائغ . فالآيات والأحاديث محشى بين العبارات الفلسفية حشواً ، ويستشهد بها فى غير موضعها » .

أساليب أحمد الكيال فى بث دعوتهم ، واحتفالهم بالأعياد الفصلية ، واعتقادهم بقدرة الانسان على الاتصال بالكواكب لتعديل الأحداث الكونية ، والقرابة التى تصلهم بالصابئة الحرانية ، وإنما أرى الاكتفاء ، لضيق المجال ، بالأمور الرئيسية ، فأعرضها مجدداً بما يزيدها وضوحاً أمام القارئ والناقد .

فصل الدين عن الدنيا

من مزاعم الكاتب أن المسلمين لم يسلموا جميعاً بأن الخليفة ينعم بالسلطتين الدينية والمدنية ، وأن « الفرق قد كثرت لخلافهم فى الخليفة » . والتاريخ الاسلامى الذى يتذرع به يشير إلى اختلاف الفرق فى أمر الامام ، وفى الشروط التى يجب أن تتوافر فيه . وليس هنالك فرقة إسلامية واحدة من الفرق الرئيسية تنكر عليه جمع السلطتين ، إلا إذا حاولنا الاعتماد على أقوال بعض الفرق الثنوية التى لا شأن لها . ويؤيد قولنا ماجاء فى الرسائل نفسها « اعلم أن الأمة كلها تقول إنه لابد من إمام يكون خليفة لنبيها فى أمته بعد وفاته ، وذلك لأسباب شتى وخصال عديدة . أحدها هو أن يحفظ الإمام الشريعة على الأمة ، ويحيى السنة فى الملة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتكون الأمة تصدر عن رأيه » (١) . وقد يفطن الكاتب إلى أن الأعمال التى خصها الاخوان ، فى هذا المقطع والذى يليه ، بالامام تعنى صراحة أن جميع المسلمين يؤمنون باجتماع السلطتين فى يد واحدة .

يقولون ذلك وهم يعتقدون « أن خصال النبوة والملك قد تجتمع فى شخص من البشر فى وقت من الزمان ، فيكون هو النبى المبعوث ، وهو الملك ، وربما تكون فى شخصين اثنين أحدهما النبى المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهم » (٢) .

ولعل صاحبنا يفطن أيضاً إلى المغزى البعيد الذى يرمى إليه الاخوان فى قولهم « فى وقت من الزمان » ، و « إن الله تعالى جمع لنبيه ، عليه الصلاة

---

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠ . — (٢) ج ٤ ص ٣٢ .

والسلام والتحية ، خصال الملك والنبوة جميعاً ، كما جمعها لداود وسليمان عليهما السلام ، وكذلك جمع أيضاً ليوسف الصديق عليه السلام »(١) . ونحن عارفون أن الاخوان لم يصرحوا فى نصوصهم الظاهرة بالحقيقة التى يضمرونها، ولم ينسقوا مباحثهم تنسيق العالم المعاصر ، من حيث المقدمات والعرض والنتائج إنما موهوا الحقائق تمويهاً . ولو أنعمنا النظر فى الصفحات القليلة التى بينوا فيها أسباب اختلاف العلماء فى الامامة لوضح لنا اعتقادهم أن الله إذا جمع النبوة والملك فى شخصية النبى ، كما جمعها من قبل فى سواه . فلأن النبى العربى اكتملت فيه الخصال الكريمة الضرورية للنبوة والملك ، وأن هذه الخصال ضرورية أيضاً للامام الذى يليه فى منصبه « لأن الخلافة نوعان : خلافة النبوة ، وخلافة الملك »(٢) ولأن « فى بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة ، وذلك أن الملك أمر دنيوى ، والنبوة أمر أخروى ، والدنيا والآخرة كأنهما ضدان ، وأكثر الملوك يكونون راغبين فى الدنيا ، حريصين عليها ، تاركين الآخرة ، ناسين لها »(٣) .

من هذا يتبين لنا :

١ — أن جميع المسلمين قالوا باجتماع السلطتين (كما ورد فى الرسائل) .
٢ — أن النبى كان نبيا وملكا لاكتماله بالخصال الضرورية .
٣ — أن هذه الخصال قد تكون فى شخصين اثنين : أحدهما النبى المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهما ، وهذا مايحدث فى الخلفاء من بعد .
٤ — أن بعض أخلاق الخلفاء مضادة لخصال النبوة ، فيرون أنهم ، « يسيرون سيرة الجبابرة ، وينهون عن منكرات الأمور ، ويرتكبون هم منها كل محظور ، ويقتلون أولياء الله . . . ويشربون الخمر ، ويبادرون إلى الفجور الخ . . . »(٤) ولهذا فهم يحبذون فصل السلطتين .
٥ — أن الأخوان يدعون لنظام شبيه بالنظام الكروتونى الذى أثر عن

---

(١) الرسائل جزء ٤ صفحة ٣٣
(٢) ج ٤ ص ٣١ .
(٣) ج ٤ ص ٣٤ .
(٤) ج ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

فيثاغورس[١] وذلك عندما يبينون للناس أن النبي بعد أن يتوفى قد لا تجتمع خصاله فى فرد واحد ، بل تتفرق فى جماعة تآلفت ، واتفقت كلمتها على رأى واحد ، وتعاضدت على نصرة الدين ، لتدوم لها الدولة فى الدنيا ، والعقبى فى الآخرة[٢] ويحضون المريد على الانضمام إلى هذه الجماعة ، أى الجمعية ، إذا كان عازماً على طلب إصلاح الدين والدنيا .

أما ما أوردوه من إشارات إلى علويتهم ، وميلهم إلى آل البيت ، فليس فى الواقع إلا تقية و إخفاء للواقع . وقد سبقهم من ادعى ادعاءهم . وأحمد الكيال الذى أشرنا إليه فى المقال الرئيسى أوضح مثال على الجماعات التى كانت تتستر بالتشيع ، وتضمر فى نفسها غاية خاصة . وقد آثرت المجوسية الظهور بزى الشيعة لأسباب عديدة ، لا مجال لتفصيلها ، منها اعتقاد هذه بمجئ المهدى وزعم المجوس أن سوسين الذى ينتظرون خروجه ويصير الملك إليه ، يخرج على بقرة ذات قرون ، ومعه سبعون رجلا ، عليهم جلود الفهود ، لا يعرف هرًّا ولا برًّا، حتى يأخذ جميع الدنيا[٣] .

أما إذا شاء كاتب الرد أن ينفى عن الاخوان التأثر بالوثنية ، فارسية كانت أو حرانية أو يونانية ، بقوله إنهم من الباطنية ، فلسنا نرى مجالا يتسع لمناقشته فى أمر هذه الباطنية ، وقرابتها من الوثنية ، بل نكتفى بأن ننقل إليه رأى أحد المؤرخين المشهورين هو عبد القاهر البغدادى فى كتاب « الفرق بين الفرق » حيث يقول : « ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

---

(١) النظام الكروتونى هو الذى اعتنقه الفيثاغوريون فى المدرسة التى أسسها فيثاغورس فى مدينة كروتونا من أعمال إيطالية . وذلك انه أنشأ عام ٥٣٠ ق . م . جمعية فى دار هجرته تضم الانصار والمؤيدين . ووضع لها أسساً عامة ، و نظماً داخلية ، وسن لحياة أعضائها العقلية والجسمية قوانين لا يمكن الخروج عليها أو تجاوزها . يؤمها الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم . والجميع يتلقون التعاليم تدريجياً حسب استعدادهم . وقد أخذت هذه الجماعة ، فيما بعد ، بالانكماش على نفسها ، والتقية فى أقوالها ، والتستر فى أعمالها ، وبدأت تؤمن ان لا حياة لها إلا فى استيلائها على الحكم ، وتعديل النظم القائمة لنشر مبادئها . ومن هنا نشا الاختلاف بينها و بين السلطة فى المدينة ، مما أدى إلى القضاء على الجمعية ، واحراق مقرها ، والفتك بأعضائها . والامر الثابت أن إخوان الصفاء كانوا يرمون إلى مثل هذه الغاية .

(٢) راجع الرسائل ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) الجاحظ كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢٧

كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره ، فوضعوا للأغمار منهم أساساً من قبلها منهم صار فى الباطن إلى تفضيل دين المجوس . وتأولوا آيات القرآن ، وسنن النبى عليه السلام ، على موافقة أساسهم » (١) .

أثر الكواكب والسيارات

من الآراء الطاغية فى الرسائل مذهب الاخوان فى الكواكب والأفلاك ، وأثرها فى « عالم الكون والفساد » . يوردون فصولا متعددة ، وشذرات متفرقة فى رسائلهم ، يؤيدون بها هذا الأثر ويفصلونه ، ويبينون أن كل ما يحدث فى العالم الأرضى ليس إلا بتأثيرها ومفعولها . ولا يفوتهم أحياناً القول ، على سبيل التمويه والتقية ، إن الله هو الذى قدر مصير الكليات والجزئيات ، فى حين أن رأيهم الحقيقى جلى يستشفه كل قارئ فى أغلب الرسائل . فهم يعتقدون أن هذه الكواكب كانت السبب المباشر فى التكون الطبيعى ، وظهور المادة والصورة ، وتشكيلها بالهيئات الجمادية والنباتية والحيوانية والانسانية ، وظهور الفردية فى الأنواع ، وهى بالاضافة إلى كل ذلك سبب مايصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب فى تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسيئ ، وباعث الحياة والموت . وهى دلائل بينة فى السماء ، يستنتج منها الراسخون فى العلم مصير الكائنات ، وأسرار الانقلابات ؛ ليس لأنها إشارات خفية ترسمها العلة الأولى فى السماء ، بل لأنها العلة المباشرة لكل ما يتكون وينحل ويفسد . وفى رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحياء ناطقون ، وهم ملائكة الله ، وملوك أفلاكه ، وسكان سمواته . وقد عرفوا ذلك — كما يقولون — بعد النظر فى العلوم الالهية وأحكامها(٢) . ويزيدون قائلين : « فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق . وهى الأشخاص الفلكية التى نصبها البارى تعالى وأجراها مجاريها ، وإن كان المنجمون يخطئون فى بعض استدلالاتهم

---

(١) ص ١٧٤ — مصر ١٩٢٤ .
(٢) ج ٤ ص ٣٧ .

أو فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة علم النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لأدريس النبي » [1] .

ليس لإدريسهم أية صلة بادريس النبي الذى اقتصر النص القرآنى على القول عنه : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً عليا » [2] فتواروا كعادتهم وراءه ، وأضمروا هرمس المعروف بالمثلث النعم الذى عاش — كما تقول الأساطير — قبل الطوفان ، وهو من يشير إليه ابن أبي أصيبعة « بأنه الذى تذكر الحرانية نبوته ، وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، أى آدم ، ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ ، وهو بالعربية إدريس » . ثم يزيد على ذلك « أنه أول من تكلم فى الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وأن جده علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى الهياكل ، ومجد الله فيها ، وأول من نظر فى الطب وتكلم فيه ، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة ، بأشعار موزونة ، وقواف معلومة ، بلغة أهل زمانه ، فى معرفة الأشياء الأرضية والعلوية [3] » . فهرمس هو هرمس فحسب . وأما مماثلته للنبى إدريس فليست إلا من الوثنية المتسترة ، ولا سيما الصابئة التى أطلقت على العلة الأولى اسم « الله » مجاراة للبيئة التى عاشت فيها ، وللظروف السياسية التى أحاطت بها . وعملية التماثل والتشابه بين الشخصيات الالهية القديمة ، عند مختلف الشعوب الوثنية ، أمر مشهور . كانوا إذا نزلوا بلداً من البلدان حملوا إليه آلهتهم ، وماثلوها بما هم واجدوه فى ديار الغربة . ولهذا لم نجد بين الوثنية الشرقية ، ولا سيما الفارسية والفينيقية ، وبين الوثنيتين اليونانية والرومانية تضارباً فى المذهب ، ولم نشهد نضال موت أو حياة ، وإنما هناك تداخل وتماثل ، وهناك آلهة تتخذ حيناً اسما شرقيا ، وأحياناً اسماً يونانيا أو لاتينيا ، فى حين أنها تحتفظ بميزاتها الرئيسية . والأمثلة على ما نقوله ميسورة فى كتب التاريخ المدرسية فلا نرى من الضرورى سوقها فى مثل هذه الكلمة . وقد شك المحققون فى القرابة التى تصل هرمس بادريس ، ونقلوها فى نصوصهم ، بعد أن أشاروا إلى ضعفها فقال الشهرستانى : « . . . ويقال هو إدريس النبي عليه السلام » [4] وجاراه فى

---

(١) ج ٤ ص ٨٣ . — (٢) مريم ٥٦ — ٥٧ . — (٣) ابن أبي أصيبعة ج١ ص١٦ .
(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ج ٢ ص ١١٢ .

الشك ابن خلدون ، فقال : « . . . وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أن إدريس هو هرمس المشهور بالأمامة فى الحكمة عندهم[1] » . ومن المعروف أن الوثنية ، على جميع أنواعها ، قابلة للتكيف والتعدل حسب المناخ الاجتماعى والسياسى ، وأن جماعة ، كاخوان الصفا ، ينثرون الآيات القرآنية شمالا ويميناً فى غير مواضعها لذر رماد فى عيون المؤمنين ، بوسعهم ، فى كثير من اليسر ، أن يقوموا بهذا التمويه الساذج .

نجد فى الرسائل ذكراً للأساليب المتبعة لنيل نعم الأشخاص الفلكية ، والدعاء لها ، وتخصيصاً للأثواب التى يجب أن تلبس ، والقرابين التى تقدم فى هياكلها . وكل هذا يذكرنا بالمأثور عن الصابئة الحرانية التى تعبدت للعلة الأولى ، ثم العقل الكلى ، وزحل ، والمشترى ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وجعلت لكل منها هيكلا خاصا ، وشعائر خاصة .

نجتزئ بمثال واحد من عبادة الصابئة الحرانية للأشخاص الفلكية ، فنقف على أساليبهم فى التقرب إلى الشمس وخصائصها ، كما جاءت فى أمهات الكتب التاريخية . فمن المعلوم أن الهيكل الخاص بعبادة الشمس مربع الشكل ، مذهب اللون ، دهنت جدرانه بالأصفر ، وستوره من الحرير الأصفر المذهب . وفى وسط الهيكل مقعد فوق ست درجات ، وعليه صنم من ذهب مقلد بالجوهر ومتوج بتاج الملك ، وتحته على كل درجة أصنام تتحلق حوله ، مختلفة فى مادتها ، ما بين خشب وحجر ومعدن مركب ، وأكثرها تماثيل ملوك ماتوا فأبقوا لهم أمثلة يذكرون بها . إذا شاء الكاهن أن يدعو للشمس يتحلى بالتيجان ، ويرتدى الحلل الثمينة ، ويدخل الهيكل ، وبيده مجامر العود والند ، ويضحى له بما يشبهه من الحيوان ويقول : « مسبح أنت أيها النير الأعظم ، حارق النور والمحترق به . أنت الرب النورانى ذو الحياة النارية ، والنفس الكلية ، والنور الباهر . قدمنا إليك هذه الضحية المختارة الشبيهة بك ، فتقبلها بنا ، وارزقنا من خيرك ، وأعذنا من شرك » .

ونحن واجدون فى الرسائل الطقوس والرموز نفسها ، دون زيادة أو نقصان . فالشمس مختصة بالملوك ، وبكل ما علا وارتفع قدره وعظم ذكره من النبات

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥ — مصر ١٩٣٦ .

والمعادن . واللباس الخاص بها الديباج الأصفر ، وحليها الذهب الأحمر . ولكن ما لنا ولهذه الموازنة التى قد تطول فتستوعب بحثاً كاملا ، فما علينا إلا الرجوع إلى الجزء الرابع من الرسائل ، وأن نقرأ المادة الواردة بين الصفحة الستين بعد المائتين إلى الصفحة السبعين بعد المائتين ، وأن نقف على ما نثروه فى تضاعيف الرسائل الأخرى ، وأن نطالع ما عرف عن الصابئة وهيا كلها وعبادتها السيارات ، لنتأكد أن المنبع واحد ، إذا لم تكن الجماعتان فئة واحدة .

أما القول بأن التنجيم من الأمور التى ألفها الناس فى حضارة العرب ، كما أنها عرفت فى الحضارات القديمة ، ولا يزال بعض الناس يؤمنون بها ، فهو قول فاسد لأن التنجيم للتنبؤ بالحوادث المقبلة شئ ، والاتصال بالكواكب لاكتساب خيراتها ، ورد شرورها ، وتحويل نتائج الحوادث المقررة ، شئ آخر . وعلى كل فان الاسلام وجميع الديانات الموحدة قد ناهضت التنجيم كتنبؤ بالمستقبل ، وكتعديل لحوادثه . وليس فى القرآن آية واحدة تؤيده ، بل كل ما ورد فيه بيّن ، إن الله إنما جعل القمر والشمس لنعلم عدد السنين والحساب والكواكب زينة للسماء[1] . وقد قال المستشرق الايطالى المشهور نللينو : « يكاد المتكلمون والفقهاء والفلاسفة يجمعون على مناهضة التنجيم . أما الشاذون كالكندى ، وإخوان الصفاء ، وفخر الدين الرازى فهم نادرون »[2] . وهناك نصوص تثبت بجلاء أن التعليم الأفلاطونى المحدث ظل حيا فى مدينة الاسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، ثم انتقل إلى أنطاكية ، ومنها إلى مدينة حران[3] ، وهكذا انطفأت الشعلة الأفلاطونية فى كل مكان لتزهر فى المدينة الوثنية . وإذا بالمذهب الاسكندرى الذى ترعرع فى ظل الوثنية الاغريقية يلتجئ فى ساعاته الحرجة إلى أحضان الوثنية الحرانية . فهل كان التنجيم

---

(١) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » يونس ٥ « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ... » الصافات ٦، ٧ « ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » الحجر ١٦، ١٧ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة Astrologie .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٠٥ ـ طبعة القاهرة ١٩٣٨

بمعناه السحرى ، أى العلم المحول والمعدل للأحداث العالمية ، من نتاج المدرسة الأفلاطونية المحدثة أخذته الصابئة كما اقتبسه الاخوان مباشرة عن مصدره الأول ؟

إن نظرة عجلى نلقيها على المجموعة الثانية من تاسوعات أفلوطين نفسه تبين لنا موقف مؤسس المذهب من هذا العلم . فهو يعتقد أن التنجيم يناقض كل المناقضة علم النجوم ، أو الهيئة ، لأن طلوع كوكب أو غروبه ، ونزوله فى الأبراج ، وانتقاله من منطقة فلكية إلى أخرى ، كل هذه الأمور تختلف باختلاف موقع الملاحظ أو المراقب الواقف على سطح الأرض . ويعتقد أن الأجسام العلوية ، منها السيارات ، هى كائنات تامة ، لا يطرأ عليها تعديل أو تحويل . وكل ما ينسب إليها من تبدل فى الخلق من لين وقسوة ، وحب وبغض ، لا حقيقة له . وهى تؤلف فى مجموعها جزءاً من الكائنات الخاضعة للنواميس التى تسير الكون بأجمعه . وأما القول بأنها تتأثر بالصلوات والدعوات والقرابين فذلك مما لا يسلم به . ويلاحظ هازئاً « إن حياة الكوكب لمزعجة حقا إذاً كان عليها أن توجه جميع الكائنات فى العالم الأرضى ، وأن تحيى فى النفوس الفضائل والرذائل ، وتوزع الثروات ، وتزرع العقبات والمصائب »(١) .

فمن الواضح إذاً أن إخوان الصفاء أخذوا هذا العلم مباشرة عن الصابئة الحرانية ، وليس من الأفلاطونية المحدثة . وذلك أن حران كانت المنبع الرئيسى لمثل هذه المباحث كما تقدم معنا . ومن الثابت أن الفيلسوفين اللذين اشتهرا بمجاراة الصابئة فى اعتقادها هذا ، أى الكندى والفارابى ، قد ترددا على حران، ووقف الأول منهما على كتبهم ، وأعجب بالآراء التى قالوا بها ، ورأى من المحتم على الفيلسوف أن يذهب مذهبهم . واتصل الفارابى بيوحنا بن حيلان فى حران ، وعاد منها بمذاهب جديدة تناسب الوثنية الحرانية ، فعرض مثلا لنظرية الفيض ، وتجاوز فيها الأسس التى وضعها أفلوطين ، وذهب فى سلسلة الروحانيات ، أو العقول المفارقة ، كما يسميها ، مذهباً لا تتبين له شبيهاً عند الاسكندريين ، بل عند الصابئين وحدهم .

---

(١) Plotin *Ennéades*, II pp. 33-34. Ed. Bréhier, Paris 1924

الأعياد الفلسفية

يوجهون الرسالة الخمسين التى يبدءونها بذكر الرسالة الجامعة إلى أحد الأعضاء — كما ورد فى مقدمتها — ليقرأها على من يخصه من الاخوان الكرام. ويطلقون عليها اسم « الفصل الجامع » ويأمرون الأخ السعيد ، بعد وقوفه عليها باتباع ما أمروه به ، لينال السعادة العظمى ديناً ودنيا . وفى رأينا أن هذه الرسالة من أكثر الرسائل دلالة على الغاية التى يهدف إليها الاخوان ، ومن النصوص التى يجب أن يتوقف عندها الدارس ، وينعم الناظر فى معانيها الظاهرة والباطنة .

يعرضون فى هذه الرسالة للعبادات ، فيقسمونها إلى نوعين : العبادة الشرعية الناموسية ، وهى اتباع صاحب الدين ، والانقياد لأوامره ونواهيه ؛ والعبادة الفسلفية الالهية ، وهى الاقرار بتوحيد الله . ولكنها فى الواقع — كما يقولون فى مقطع آخر من الرسالة نفسها — عبادة الفلاسفة القدماء ، والأجلة العلماء ، كانوا يأخذون بها أولادهم وتلاميذهم .

يحضون على القيام بالنوعين معاً ، ولا ينصحون بالتعرض للعبادة الثانية إلا من أتم الأولى وأتقنها ، ثم يأخذون فى بعض الشروح المتعلقة بالعبادة الفلسفية ، وهى شبه مدخل لها ، لعل قارئ الرسالة « يقوم بشئ منها »(١) وليس من الضرورى أن نعيد ما يذكرونه عن العبادة الشرعية ، لأنها لا تختلف فى شئ عن المألوف فى البيئة الاسلامية . وأما العبادة الفلسفية فتقوم على أن يكون لهم فى كل شهر من شهور السنة اليونانية ثلاثة أيام : يوم فى أوله ، ويوم فى وسطه ، ويوم فى آخره . وفى هذه الأيام الثلاثة يدعون بالدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الادريسى ، والمناجاة الأرسططالية . ولا يزال المصلى كذلك حتى يبدو الفجر فيقوم فيسبغ الوضوء ، ويتطهر . و إذا أقبل أول النهار ذبح بيده من محلل الحيوان(٢) .

ولهذه العبادة أربعة أعياد(٣) . يوافق الأول يوم نزول الشمس برج

---

(١) ج ٤ ص ٣٠٢ . — (٢) ج ٤ ص ٣٠٣ .
(٣) يذكرون انها ثلاثة (ص٣٠٤) غير انه يتبين أنها أربعة فى مقطع آخر(ص٣٠٥) .

الحمل ، عندما يستوى الليل والنهار ، ويعتدل الزمان ، ويطيب الهواء ، وهو اليوم الموافق ابتداء فصل الربيع . ويكون الثانى عندما تنزل الشمس أول السرطان ،أى عندما يتناهى طول النهار وقصر الليل ، و يجئ الصيف ، ويشتد الحر.ويوافق الثالث استواء الليل والنهار ودخول الخريف ، والرابع عندمايتناهى طول الليل ، ويدخل الشتاء . و يرمز العيد الأول للفرح والخصب والخروج من الشدة ، والثانى للتعب والنصب ، والثالث للفرح الممزوج بالحزن والغم ، والرابع للحزن والكآبة .

و يرون أنهم أحق الناس بالعبادة الشرعية ، كما أنهم أحق الناس أيضاً بالعبادة الفلسفية الالهية ، والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها . وبعد أن يستعرضوا هذه الأعياد التى ينسبونها إلى الحكماء القدماء ، ويذكروا أنهم أحرى الناس بها ، يشيرون إلى أن لهم أربعة أيام يتخذون منها أعياداً ، ويأمرون الاخوان بالاجتماع فيها ، والسعى إليها . وما هى فى الواقع إلا الأعياد الفصلية التى أشرنا إليها ، يحتفلون بها فى أول الربيع والصيف والخريف والشتاء . وهى ترمز إلى أمور معينة شبيهة بها .

لسنا نجد متسعاً للوقوف على حقيقة هذه الأعياد الشهرية الثلاثية ، والفصلية الرباعية ، ولكن من مبادئ تاريخ الوثنية أنها كانت من تقاليد قدماء اليونان والرومان ، ومن بقايا الكلدانية والبابلية والأشورية والمصرية ، وما تشعب عن هذه من عقائد وطقوس فرعية ، توزعت فى الشعوب التى تأثرت بها . ولم تكن الأعياد الوثنية تعتبر مناسبات للسرور ، و إحياء الأفراح ، والتمتع بلذائذ الحياة فحسب ، كما هى العادة الجارية فى بعض الديانات الموحدة ، و إنما تختلف طبيعتها ، كما نجد فى الصابئة و إخوان الصفا ، باختلاف الاله الذى تقام من أجله . فهناك أعياد فرح ، يبتهج فيها الشعب على اختلاف طبقاته . وهناك أعياد حزن وكآبة ، تقوم فيها جموع المؤمنين بضروب من الشعائر التى تعبر عن مدى أساهم .

والأعياد الفصلية التى يشير إليها الاخوان ، بل هم يتقيدون بها،و إن موهوا أمرها على المريدين ، نجدها بأجلى وضوح فى الديانات الشرقية القديمة ، كما نتبينها فى الوثنيتين الاغريقية والرومانية . وهى مناسبة مؤاتية للاحتفال بما يطرأ على الطبيعة من تعديل وتطور فى أوائل الفصول . فعيد الشمس مثلا

فى الخامس والعشرين من ديسمبر وهو اليوم الأول من السنة الجديدة أو يوم « الشمس الجديدة » *Sol Novus* وعيد الربيع فى ٢٥ مارس ، وهو يدل على تغلب الشمس على الليل ، ويمثل فى نظر الوثنية الرومانية عيد فرح ؛ لأن البحارة يبدءون فيه بمجابهة البحر ، بعد أن تهدأ العواصف . وكان القرنان الثالث والرابع المسيحيان عهد ازدهار لهذه الأعياد الفصلية (١) .

وأما الأعياد الشهرية التى وقفنا عليها عند إخوان الصفاء فنحن واجدوها بحذافيرها فى الوثنية الشرقية القديمة ، وفى المذاهب الغربية التى تأثرت بها ، وعرفت عهدئذ باسم « الأعياد الشهرية » . وكانت تقع فى أول الشهر ومنتصفه وآخره(٢) .

بعد هذه الاشارات الموجزة التى سقناها لا أعلم ألا يزال حضرة الكاتب على رأيه السابق من أن إخوان الصفاء لم يخرجوا عن التقاليد الحنيفية ، وأن كل هذه الأعياد لا أصل لها فى الواقع ، وإنما هى رموز يقصدون بها أعياداً شرعية ، وأن الدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الادريسى ، والمناجاة الأرسطالية رموز أيضاً ، لأن هذه الشخصيات تمثل الأئمة ! وقد وردت هذه الأسماء فى تضاعيف الرسائل مئات المرات ، لتدل على المسمى الحقيقى . وأما هنا ، هنا فقط — فى رأى الناقد — فهى للدلالة على الأئمة من أهل البيت ، وذلك لأن أحدهم قال : « أنا أرسطاليس هذه الأمة » !

خلاصة

وخلاصة ما أريد قوله « أن معالم الوثنية » بادية فى الرسائل ، ولا سيما فى النقاط الآتية :

١ — مخالفة إخوان الصفا لعامة المسلمين فى فصل السياسة عن الدين ،

---

(١) *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines*, t. II, p. 1062, Paris 1896.
Franz Cumont, *Les religions orientales dans le paganisme romain*, p. 90, Paris 1929.

(٢) E. Dhorme, *Les religions de Babylone et d'Assyrie*, pp. 234-235, Paris 1945.

وسعيهم لاقرار حكومة جمهورية يقومون هم على توجيهها ، وتسلم مقدراتها ، أسوة بالفيثاغورية الكرتونية .

٢ — ادعاؤهم بأنهم يستقون القسم الأوفر من تعاليمهم من هرمس ، وهو مشهور بأنه من آلهة الصابئة .

٣ — اشتهار الذين عرفوا بمساهمتهم فى الرسائل بالخروج عن المألوف(١) .

٤ — اعتقادهم بالتنجيم على الطريقة الوثنية الشرقية ، من حيث دلالة الكواكب على المستقبل ، والقيام بشعائرها الخاصة ، وتقديم القرابين لها ، لاستنزال خيراتها ، و إقصاء شرورها ، مما نجده مفصلا فى مذهب أهل حران .

٥ — احتفالهم بالأعياد الشهرية والفصلية ، وقيامهم بالدعاء الأفلاطونى والأرسطاليسى والفيثاغورى .

٦ — اشتهار الطبيب أبى الحكم القرطبى ناقل الرسائل إلى الأندلس بالسحر ، وهو من الذين نزلوا حران(٢) .

٧ — نسبة الفيلسوف اليونانى فيثاغورس إلى حران . وليس من الغريب أن يخطىء إخوان الصفاء فى أصله ، ولكن الغريب حقا هو زعمهم أنه حرانى المولد والنشأة . فلم اختاروا له هذه المدينة الوثنية ؟ فى رأينا أن الاخوان كانوا يعرفون الواقع ، ووقفوا على الفقرات المقتضبة التى وضعت فى ترجمة مشاهير علماء اليونان وفلاسفتهم و إنما تجاهلوا الحقيقة . ودليلنا أن ابن النديم ، وهو معاصر لهم ، أو جاء قبلهم بقليل ، أشار إلى فيثاغورس إشارة صريحة فى الفهرست(٣) .

---

(١) بين الذين أسهموا فى تدبيجها أبو احمد النهرجورى — ويقال فى بعض كتب التراجم « أحمد المهرجورى » — . وقد عرض ياقوت له ، فجاء فيما قاله فيه « ... وكان شيخاً قصيراً شديد الادمة ، متظاهراً بالالحاد ، غير مكاتم له ، ولم يتزوج قط ... » ياقوت معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٣ — ٧٩ مطبوعات دار المأمون — مصر .

(٢) جاء فى طبقات الامم للقاضى صاعد ما يلى « ... ورحل إلى ديار المشرق ، وانتهى منها إلى حران . . . ثم رجع واستوطن مدينة سرقسطة . . . وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا ، ولا أعرف أحداً أدخلها الأندلس قبله (طبعة الأب شيخو ص ٧٠ — ٧١) .

(٣) قال ابن النديم « ان أول من تكلم فى الفلسفة بوثاغورس ، وهو بوثاغورس بن ميسارخس من أهل سامينا ... وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، وانما سميت بهذا الاسم لان جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاما لها وإجلالا (ص ٣٤٢ — ٣٤٣ الطبعة المصرية ١٣٤٨ هـ .) .

وذكر أصله اليونانى ، وأورد ما ينسب إليه من الكتب والرسائل . وقد استقى ابن النديم قوله من كتب شائعة فى عصره . فلم حرف إخوان الصفاء النصوص التى بين أيديهم ، ونسبوه إلى حران المدينة الوثنية دون غيرها ؟

لست أجزم أن إخوان الصفاء جماعة وثنية منظمة ، وهذا ما لم أقله فى الكلمة الأولى التى أذاعتها مجلة « الأديب » البيروتية بعنوان « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفا » . ولكنى واثق كل الثقة أن مطالعة الرسائل بشئ من إنعام نظر وتحقيق ، قد تقفنا على أمور لا نفطن إليها الآن ولا تخطر لنا ببال ، وقد تجعلنا نعدل كثيراً من آرائنا فى الاخوان ، وننظر إليهم نظرة مغايرة لما هو مألوف ، بل قد تجلو أمامنا أفقاً جديداً فيما يتعلق بالأسس الظاهرة والخفية فى الفلسفة الاشراقية عامة ؛ لأن النظرية الشائعة فى كتب الباحثين من شرقيين ومستشرقين القائلة بأن العرب أخذوا عن اليونان وحدهم ، واقتصروا فى ثقافتهم على هذا المنبع ، هى نظرية بحاجة إلى إثبات ، ويجب أن نتدبرها بحكمة ، ونعيد التحقيق فى أصولها ؛ فالمفكرون فى حضارة العرب قبسوا من مدرسة الصابئة قسما وافراً من مذهبهم فيما وراء الطبيعة ، من فيض ، وانجذاب ، وأثر الكواكب السيارة ، كما أنهم أفادوا من العلوم التى رافقت هذا اللون من التفكير كالهيئة والتنجيم والحساب والجبر والهندسة[1] .

عبده عبد النور

(١) راجع بحثا لنا بعنوان « الصابئة وأثرها فى الفكر العربى » مجلة « الكتاب » عدد مايو ١٩٤٦ .

فى الأرض

فؤادك حتى آخر الليل خافق ... أمن نكد الأيام أم أنت عاشق
تقلب فى لوح السماء لواحظاً ... وفكرك فى لج الهواجس غارق
لعلك تستوحى السماء قصيدة ... وليس بها إلا النجوم الطوارق
تلفت حواليك الحياة تجد بها ... مشاهد قد ماجت بهن المشارق
لدى الأرض ما يوحى إليك قصائداً ... ففيها خيالات وفيها حقائق
لديها أساطير درجن مع النهى ... وما خلّفته المعجزات الخوارق
لديها نجوم ناظرات ، بواسم ... نوافث فيك السحر والسحر رائق
لدى الأرض آهات تثير شجوننا ... كأنْ بعث الآهات ثكلى ووامق
ويارب لحن يملأ النفس نشوة ... فتسلس أحلام بها وسلائق
وفى الأرض صدر بالكراهة جائش ... وفى الأرض قلب بالمحبة خافق
ولا خير فى الدنيا إذا لم تجد بها ... حبيباً تناغى أو خليلا تصادق
أرى الناس مرضى فى ظلام نفوسهم ... ويعوزهم من خالص الود شارق
تأكلت البغضاء صفو قلوبهم ... فساءت طواياهم وعزّ الأصادق
سواسية غر الوجوه وغبرها ... إذا من جمال النفس لم يك بارق
لدى الأرض أفراح بها الهم ينجلى ... وفيها من الآلام ما هو خانق
وكم قاء فيها الدهر نذلا فراعها ... وكم أنجبت حرّاً طوته المشانق
ويا رب كوخ بالسعادة عامر ... حواسده فيها القصور الشواهق
وفى الأرض عرض يستباح حريمه ... فتشبع أهواء وتشقى خلائق
وبعض من الخسران يحلو مع الهوى ... ورب نجاح بغّضته الطرائق
فبين الهوى والرأى للنفس موقف ... تنازع فيه مستحث وعائق
إرادات عقلى أم عواطف خافقى ... أشائع إما أخطأتنى الوثائق
ينهنه هذا بحين يأمر ضده ... فأيّا أقاويه وأيّا أوافق

على أنني أمضي وبالنفس ما بها ... لها رائد منها وناه وسائق
فلا عقل إلا والعواطف دونه ... ولا هي إلا وهو ند مرافق
ويندمج الندان طوراً فتمحى ... حدودهما في المبتغى والفوارق
حياة لها أغراضها في غموضها ... جلائلها دقت وجلت دقائق
تراءى لنا فيها نقائض جمة ... أتانا بين المحكم المتناسق !
أتنصل ألوان الحياة ملالة ... إذا انكشفت أسرارها والمغالق ؟
نسيّر مدفوعين نرجو ونتقي ... وكل بأحلام السعادة عالق
وبينا نرى فيها سويا طريقنا ... إذا هو مزور وفيه مزالق
على هذه الأخلاط قامت حياتنا ... نحمّلها حتى تنوء العواتق

مطالب شعر ما جلوت سردتها ... لعليَّ بعد اليوم فيهن ناطق

علي الخطيب

من هنا وهناك

نشأة الصحافة الفرنسية فى مصر

إذا كانت الطباعة قد سبقت الصحافة بأوقات متفاوتة فى البلاد الأخرى ، فان مصر لم تعرف عنهما شيئاً قبل قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، حيث جاءها نابليون بونابرت بالاثنتين معاً .

كانت مصر ولاية عثمانية . وقد أنشئت أول مطبعة فى القسطنطينية سنة ١٧٢٨ . ولم يفكر واحد من الباشوات الذين تعاقبوا على حكم مصر فى إنشاء مطبعة أخرى فى القاهرة أو فى الاسكندرية . أما البكوات المماليك فلم يكن لديهم متسع من الوقت للبحث فى مثل هذا الموضوع ؛ فقد شغلوا بالمؤامرات التى كانوا يدبرونها لولاة الباب العالى ، كما كان أكبر قسط من تفكيرهم يرمى إلى دعم سلطانهم وابتزاز الأموال من التجار والفلاحين وبث الذعر والرعب بين الأهالى ، حتى ضج القوم من مظالمهم وارتفعت الشكوى من طغيانهم .

ولم يكن غرض نابليون بونابرت من فتحه لمصر حربيا فحسب ، بل أراد لحملته مدى أوسع وأثراً أبلغ ؛ فاستصحب معه طائفة من أشهر علماء عصره ، قاموا بالبحث والتنقيب فى أرجاء البلاد وعاونوه فى نواحى النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى جميعاً . وكان هو حريصاً على أن ينشر الآراء ويذيع البحوث حتى يعرف رجال الحملة خاصة والفرنسيون عامة نتائج أعماله ومدى نجاحه . فأحضر معه لذلك الغرض مطبعة مزودة بالحروف العربية واللاتينية واليونانية .

ولم يمض ستون يوماً على نزول الحملة فى الأراضى المصرية حتى أصدر نابليون صحيفته الاخبارية السياسية ***Courrier de l'Egypte*** أى « بريد مصر » . وظهر العدد الأول منها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ فى أربع صفحات تقارب قطع هذه المجلة . وكانت الجريدة تظهر مرة كل أربعة أيام فى الشهر الأول ، ثم تجاوزت هذه المدة وأصبح صدورها غير منتظم .

وقد وضعت للجريدة منذ نشأتها

سياسة محددة لم تبتعد عنها فى يوم من الأيام ؛ فهى لا تتعرض بالنقد لأعمال الحكومة الفرنسية بأى حال من الأحوال، وكان المحرر يخضع لاعتبارات كثيرة عند اختيار الأخبار ونشرها ، فمصير الجريدة حتما إلى أيدى الجنود والضباط الفرنسيين المقيمين بمصر وغيرها . وقواد الجيش لا يهتمون بشئ مثل اهتمامهم بالروح المعنوية القوية التى يجب أن تسود قوات الاحتلال ، ولا يسمحون بنشر أى خبر يمس تلك الناحية من قريب أو من بعيد .

وعلى ذلك كانت جريدة لوكوربيه دائمة التفاؤل ، بعيدة كل البعد عن الأخبار المثيرة الداخلية منها والخارجية. ويغلب عليها الطابع العسكرى الذى يبث روح الشجاعة والاقدام فى الجنود والضباط. وهى تسرف فى وصف ساحات القتال ، وتحاول أن تثبت الكلمات الأخيرة لمن يموتون بين قصف المدافع وصليل السيوف . وتكثر من وصف الحفلات التى يحضرها نابليون بونابرت، وتتحدث باسهاب عن حركات المقاومة التى يقوم بها الأهالى فى مختلف البلاد. ولكنها كانت ترمى فى الأولى إلى مدح القائد العام ورجاله ، وتدعى فى الثانية أن الفلاحين يستقبلون الفرنسيين فى كل مكان بالفرح والابتهاج ؛ لأنهم يخلصونهم من عسف البدو الرحل وظلم المماليك .

وكانت النداءات والتنبيهات التى تصدر للأهالى تجمع بين الثناء على بونابرت والتهديد بالشدة والحزم . وكانت تترجم وتنشر فى الجريدة حتى يطلع عليها الجنود ، فيتخيلون مبلغ قوتهم ويتصورون مدى نجاحهم . مثل ذلك ماجاء فى أحد المنشورات من « إن نابليون قد منع القوات من إحراق مدينة القاهرة وسلبها ؛ لأنه حكيم ، وخير ورحيم بالمسلمين . فهو حامى الفقراء . ولولاه لما بقى أهل القاهرة على قيد الحياة » .

ومضى كليبر ومينو من بعد بونابرت على نفس الطريقة فى الدعاية بين الأهالى . وكان مينو خاصة يذكرها فى منشوراته بالمظالم التى عانوها وبالدماء التى سالت فى القاهرة وبولاق والمحلة الكبرى عندما استمعوا لأهل السوء ، ويهددهم آخر الأمر بالنار والحديد إذا ماسولت لهم أنفسهم العودة إلى مناوأة رجال الاحتلال . ويختم النداء بما يأتى : « سلام على من اتبع الهدى . . . والويل لمن ابتعد عن الصراط المستقيم . »

وكانت جريدة لوكوربيه تعنى عناية خاصة بأخبار الرحلات والبحوث

التى كان يقوم بها العلماء الفرنسيون . وكانت تأتى بملخصات لتقاريرهم عن الأماكن التى زاروها وعن نواحى نشاطهم العلمى والفنى : . . ثم يزيد المحرر عليها مايخالج فؤاده من الأمل فى التقدم والرقى .

فالزراعة مثلا تبشر بالخير لارتفاع مناسيب النيل ونتيجة للتحسينات التى أدخلت على وسائل الرى . . . كما أن الرجاء كبير فى تحسن الصحة العامة فى البلاد ؛ لأن الأطباء الفرنسيين يبحثون كل يوم عن الداء ، ويصفون الدواء الناجع ، وينشرون فى كل مكان وسائل الوقاية من الأمراض المتوطنة . . . وجباية الأموال « الميرى » سوف يسودها العدل والانصاف ؛ لأن الحكومة قد وضعت لذلك قواعد ثابتة ستقوم بتطبيقها فى كل أنحاء البلاد وعلى كل الأفراد بلا استثناء . . . أما الأمن والحرية فالفرنسيون ما جاءوا مصر إلا للدعوة لها علميا بواسطة علمائهم ومشرعيهم ، وعمليا بواسطة جيش الشرق . وليس من المعقول أن يأتى رسل « الحرية والاخاء والمساواة » إلى مصر ويضعوا فيها قواعد لا تقوم على الحرية والاخاء والمساواة .

ولم تكن الجريدة تقتصر فى أنبائها على مصر ، بل كانت تحمل أيضاً الكثير من الأخبار الخارجية . فهى تسجل تنقلات الجيش الفرنسى فى الشرق وتأتى بأخباره تباعاً . وتنقل النص الكامل لدستور الجمهورية الفرنسية .. كما أنها تفرد مكاناً خاصا فى كل عدد لأنباء فرنسا ، وتنشر المكاتبات المتبادلة بين بونابرت وخلفائه وبين حكومة الادارة . وكانت تحرص على العناية بالتقارير التى كان يقدمها قائد جيش الشرق إلى تلك الحكومة . وكان للهيئة التشريعية الفرنسية مكان ممتاز فى لوكوربيه ؛ إذ كانت تهتم اهتماماً خاصا بأخبارها وتنشر مناقشاتها ، وتسهب إذا كان الأمر يتعلق بالحملة وأعمالها ، وتسجل كلمات الثناء والتقدير التى كان يرسلها الأعضاء عابرة البحار لمواطنيهم فى مصر .

وكانت الجريدة تختار من أنباء أوربا ما يلائم السياسة الدولية الفرنسية فى ذلك العصر ، مثل اهتمامها بالصراع بين إيرلندا و بريطانيا العظمى ؛ فهى تنشر أخبار هذا النزاع فى بضعة أعداد متتالية تهاجم فيها بريطانيا هجوماً عنيفاً ، وتزعم أن الوزراء الانجليز قد أخفقوا فى سياستهم إزاء إيرلندا ، وأنهم كانوا ينتقمون من الارلنديين فيقتلون المجاهدين

منهم فى سبيـــل استقلال بلادهم .

أما فى الناحية الأدبية فقد حرصت لوكوربيه على ألا تثير شعور الحنـين للوطن . فاهتمت ببعض الشعر الذى يمدح الجيش وقائده . ونشرت بعض القصائد التى تصف النيل والبـــلاد والآثار المصرية وصفاً يحببها إلى القلوب ويدنيها من الذوق الفرنسى . ولـكن هذا الشعر كان يفتقر إلى الوحى الصادق والتعبير الصحيح ، فلاعجب إذا ظهرت هذه الناحية ضعيفة مبتـذلة سقيمة .

وجاءت الجريدة أيضاً ببعض الاعلانات التى تهم قراءها ، مثـل الاعلان المنتظم عن المجلة الأدبيـة التى يصدرها المجمع العلمى المصرى ، وإعلانات أخرى عن بعض الحوانيت أو عن أشياء مفقودة أو عن حفـلات ساهرة وغيرها . . . ومع ذلك فقـد ظل هذا البـاب ضيقاً وبقى عدد الاعلانات محدوداً طوال مدة ظهـور الصحيفة .

هذه بعض النواحى التى اهتمت بها الصحيفة الفرنسية الأخبـارية ، السياسية الأولى التى ظهرت فى مصر . ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر ، لـكى نعطى صورة واضحة لها بقـدر المستطاع . وكان يشرف على تحريرها تباعاً المواطن كوستاز Costaz ، ثم المواطن فورييه Fourier ، ثم المواطن الدكـتور ديجنت Desgenettes ، وقد صدر منها ستة عشر ومائة عـدد يحمل الأخير تاريخ ٩ يونية سنة ١٨٠١ . وطبع الثلاثون عدداً الأولى فى مطبعة مارك أوريل Marc Aurel أما الأعداد الأخرى فقد قامت بطبعها الطبعة التى أحضرها نابليون . وكانت لغتها بسيطة يتخللها الـكثير من الأخطاء المطبعيـة وبعض الغلطـات اللغوية . وقد لاقت رواجاً كبيراً بين المواطنين لأنها حملت لهم أخبار إخوانهم فى البلاد الأخرى وأنباء فرنسا موطنهم الأصلى .

وفى أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ صدر العـدد الأول من *La Décade Egyptienne* أى « العشرية المصرية وهى أول مجلة فرنسية أدبية علميـــة اقتصادية تظهر فى مصر . وقد تقرر إنشاؤها فى أول اجتماع للمعهد العلمى المصرى حتى تـكون سجلا له تنشر فيه بحوث علمائه وتقارير أعضـائه .

وقد جمعت الأعداد التسعـة الأولى التى ظهرت بانتظام مرة كل عشرة أيام فى مجلد أهدى إلى نابليون وجاء فى مقدمته التى حررها المـواطن تاليان Tallien » أن الهدف الذى

نرمى إليه ليس تعريف مصر إلى الفرنسيين المقيمين فيها الآن فحسب، بل نريد أيضاً أن نعرفها إلى فرنسا وإلى الأوربيين جميعاً». ثم ظهرت «لاديكاد» بعد ذلك مرة كل شهر، وكونت الأعداد التسعة التالية كتاباً أهدى إلى الجنرال كليبر. ثم شاءت الأقدار أن يهدى المجلد الثالث والأخير منها إلى الجنرال مينو.

وليس فى نيتنا أن نحصر هنا كل المواضيع التى عالجها العلماء الفرنسيون ونشرتها «لاديكاد». ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المجلة قد سجلت النواحى العديدة لنشاط الفكر الفرنسى فى مصر، ونقلت الكثير من التقارير بحيث أصبحت شبه موسوعة صغيرة نجد فيها التاريخ والجغرافيا والآداب والاقتصاد السياسى والعلوم الطبيعية والزراعية والطبية وغير ذلك من مختلف البحوث.

وقد حمل كل عدد من «لاديكاد» ملخصاً لمحضر جلسات المجمع والمناقشات التى تدور فيها. ومما يلفت النظر أنه قلما وجد عدد خلا من تقرير طبى لأحد أطباء الجيش الفرنسى. ومن طريف ما كان يقرأ فيها هذه الملاحظات التى أتى بها الطبيب سيرزول Cérésole فى تقريره عن رحلة قام بها من القاهرة إلى أسيوط. قال: «إن خوف الفلاحين من الأطباء شديد للغاية. وهم يميلون إلى الخرافات ولا يصدقون كلمة العلم. أما اعتقادهم بالقضاء والقدر فقد بلغ حد التعصب. وأظن أن ذلك ناتج عن الآراء والأفكار التى ورثوها عن قدماء المصريين... وإنى ليدهشنى أن أرى مقابر الأموات وقد اعتنى بها عناية فائقة على حين بقيت منازل الأحياء مهدمة قذرة لا تتوافر فيها أبسط الشروط الطبية...» وكانت هذه التقارير ترفع إلى الدكتور ديجنت كبير أطباء الجيش الذى يرجع إليه الفضل فى نشرها وإذاعتها.

وإذا أردنا أن نختار بعض الأمثلة للبحوث الأخرى التى كانت تنشر فى «لاديكاد» وجدنا صعوبة فى التفضيل بينها لما يحمل كل منها من المزايا العلمية والفنية جميعاً. وعلى كل حال فان تخطيط بعض البلاد المصرية ومواقعها والحالة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية فيها قد شغل مكاناً كبيراً من المجلة. فتحدث نويه **Nouet** عن موقع القاهرة الجغرافى. وكتب جيرار **Girard** عن الزراعة والصناعة والتجارة فى دمياط ومصر العليا، واهتم كارييه **Carrié** بمنطقة منوف. وبحث أندريوسى **Andréossy** فى تكوين

بحيرة المنزلة ووادى النطرون وحلل رنيو Regnault غرين النيل . ووصف فورييه Fourier الواحات . ودرس تاليان Tallien نظام الحكم فى مصر قبل الحملة ، وأبان طرق جباية الأموال الأميرية ، وتحدث عن النقود والميراث والأوقاف .

وقد كتب أسماء البلاد والأماكن فى هذه التقارير باللغتين الفرنسية والعربية . . . وكان للترجمة شأن ملحوظ فى « لاديكاد » ؛ إذ نقل المستشرق حنا يوسف مارسيل Jean Joseph Marcel فاتحة القرآن إلى الفرنسية شعراً . وكانت ترجمته صحيحة ما عدا بعض الألفاظ والعبارات التى اضطر إلى إضافتها لتكوين الشعر ، كما ترجم أمثال لقمان الحكيم وشرح قيمتها عند الشرقيين مستشهداً ببعض الآيات القرآنية مثل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .

وخلاصة القول أنه يمكننا أن نعتبر مجلة «لاديكاد» سجلا قيما يرجع إليه الناس إذا أرادوا أن يطلعوا على مختلف الموضوعات الشائقة، التى شغلت نخبة مختارة من العلماء الفرنسيين الذين أقاموا فى مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ .

وبانتهاء الحملة الفرنسية عادت مصر إلى خلوها من الطباعة والصحافة. ولكن لا يمكننا أن ننكر أثر « لوكورييه » « ولاديكاد » فى تاريخ بلادنا . ومع أن المصريين كانوا يجهلون اللغة الفرنسية فى ذلك العصر ، فإن انتشار هاتين الجريدتين بين العامة والخاصة من الفرنسيين ، قد لفت نظرهم إلى تلك القوة الجديدة التى يمكن الانتفاع بها للصالح العام .

ومع ذلك فقد ظلت مصر تفتقر إلى الطباعة والصحافة حتى جاءها بهما محمد على . ثم تطورت الصحافة من رسمية إلى شعبية فى عهد الخديو اسماعيل ، وتعددت لغاتها وتنوعت بحوثها وقوى ساعدها وسايرت مقومات الحضارة الحديثة .

اميل غالى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

الدولار يستحوذ على التركة البريتانيـة

سادت الميدان الدولى خلال الشهر المنقضى مظاهر الامعان فى التـدخل الأميريـكى ، وكأن إخفـاق مؤتمر موسكو قـد دفع بالولايات المتحدة إلى التوغل فى سبيل وضع اليد فى كل مكان على التركة البريتانية حـتى لا يستولى عليها الذين كانت تستثمرهم أو حتى لا تستهوى روسيا فتحل محلها مبادئ التوجيه الشيوعى . والشيوعية هى أخوف ما تخافه الطبقة الحاكـة فى الولايات المتحدة ، ونظام الشيوعية أعدى أعـداء الاحتكار . والطبقة الحاكة الآن فى الولايات المتحدة إنما تستند إلى نظام من الرأسمالية هو أدنى الأنظمة إلى الاحتكار .

لقد لمس سادة أميريكا واقع انهيار انجلترا فى الميدان المالى ، وفى الميدان العسكرى ، فهرولوا إلى أن يستبدلوا سيطرة الدولار بسيطرة الاسترلينى ، والنفوذ الأميريكى بالنفوذ البريتانى ، وقد لمسوا مناقضة النظام الشيوعى لنظامهم الرأسمالى ، فوجهوا ذلك الاستبدال فى السيطرة وفى النفوذ إلى مناهضة الاتحاد السوفيتى بالالتجاء إلى إعادة محاصرته بمثل ما كان مطوقاً به من جهات إثر الحرب العالمية الأولى . فسعوا حتى أقرت الهيئة البرلمانيـة الأميريكية تخويل رئيس الولايات المتحدة حق إقراض اليونان وتركيا ملايين من الدولارات ، لاعادة تنظيمهما وتسليحهما وضمان الدفاع عنهما ، وهما واقعتان إلى الجنوب الشرقى من أراضى الاتحاد السوفيتى . وهم يسعون لاحصاء حاجات السويد والنرويج والدنمرك لتقديم الأموال إليها وهى واقعة إلى الشمال الغربى من أراضى الاتحاد السوفيتى أيضاً . وهم فى سبيل مد إيتاليا بالمعونة المالية بعـد أن قدموها لفرنسا « ثمناً » أو محاولة لضمان إبعـاد الشيوعيين عن الحـكم فى البلدين ، و إيتاليا وفرنسا تتاخمان مع بلجيكا وهولندا بلاد النمسا ومناطق

ألمانيا الغربية التى تحتلها فرنسا وانجلترا وأميريكا كما تتاخم يوجوسلافيا ، فيتم بذلك التاخم تطويق الاتحاد السوفيتى والأمم الصقلبية جميعها من جهة الغرب بعد أن تم التطويق من ناحية الشمال الغربى والجنوب الغربى عن طريق معاونة الدول السكنديناوية معاونة اليونان وتركيا .

والأنباء الأخيرة تسجل زيارة « قائد أسطول الولايات المتحدة فى شرق المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط» مدينة طهران واجتماعه فيها بشاه إيران ورئيس وزارته ووزير حربيته . و إيران مجاورة لتركيا ومتاخمة لروسيا من الجنوب . والجيوش الأميريكية لا تزال تحتل اليابان وتحكمها ، والولايات المتحدة قد حصلت على الوصاية على بعض الجزر فى المحيط الهادى ، وهى كذلك تحتل جانباً من كوريا وتوسع سلطانها فى الصين ، واليابان وكوريا والصين والمحيط الهادى واقعة كلها فى شرق الاتحاد السوفيتى . فلم يبق أمام إحكام التطويق الذى تسعى إليه أميريكا إلا ناحية أفغانستان والهند و إلا ناحية القطب الشمالى . وهى إلى الناحيتين جادة .

على أن الولايات المتحدة لا تريد أن تكتفى بهذا التطويق الشامل المحكم، بل تريد أن تعتبره خطا أول يجب أن تتبعه خطوط تسعى إلى أن تتعاون هى وانجلترا ودول أخرى على احتمال أعبائها من الناحية العسكرية ولا سيما من ناحية الجنوب . وقد قيل إنها تعتبر شمال البحر المتوسط أول خطوطها الاستراتيجية من جزر الدوديكانيز إلى جبل طارق ، كما تعتبر جنوب البحر ذاته ثانى هذه الخطوط من قناة السويس إلى طبرق ببرقة و إلى بنزرت فى تونس، ويتخلل الخطين جزر قبرص وكورفو ومالطة وصقلية ذاتها . ثم يأتى ثالث الخطوط فى قلب إفريقية من ساحل البحر الأحمر عند أرتريا إلى ساحل المحيط الأطلنطى عند الدار البيضاء ودكار ، مارًّا بكنيا التى يقال إنها ستكون مقر القوات البريتانية وهيئة أركان حربها فى الشرق الأوسط كله . وبين أفغانستان والبحر المتوسط والبحر الأحمر تقع رقعة الزيت الكبرى فى عبدان الايرانية والموصل العراقية وظهران السعودية والجزيرة السورية اللبنانية وسيناء المصرية الفلسطينية .

وقد صدرت فى سبيل ذلك الاتجاه الاستراتيجى الجديد أقوال من مصادر عليمة ؛ فقد أذيع « أن بريتانيا تعد العدة لالقاء المسئولية العسكرية فى

البحر المتوسط والشرق الأوسط على عاتق الولايات المتحدة والتراجع باستحكاماتها الدفاعية الخاصة بالامبراطورية إلى شرق إفريقية» ، بل قدرت بعض المصادر المطلعة العسكرية التى تتصل اتصالا وثيقاً بوزارة الحربية البريتانية موعد سحب القواعد العسكرية والتموين البريتانية إلى شرق إفريقية من سنتين إلى ثلاث سنوات .

قضية فلسطين

تلك هى الظاهرة التى سادت أفق السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى، ظاهرة الاقتناع الأميريكى بالانهيار البريتانى، والهرولة الأميريكية إلى وضع اليد على التراث البريتانى قبل أن يتسلمه أهله أو خوفاً من استيلاء الأنظمة الشيوعية على كيانه . ولعل قضية فلسطين التى شغلت الميدان الدولى خلال الشهر المنقضى ذاته تعتبر ناحية من نواحى تطبيق تلك الظاهرة المتجلية .

فقد عقدت الأمم المتحدة دورة استثنائية تنظر أثناءها جمعيتها العامة المطلب الذى تقدمت به بريتانيا ملتمسة تأليف لجنة دولية لفحص المشكلة الفلسطينية والتقدم بتوصياتها فى سبيل معالجتها . وكان المطلب البريتانى مستنداً إلى حرج موقف الادارة البريتانية فى الاقليم الذى كانت منتدبة عليه من قبل عصبة الأمم . وإنما يرجع هذا الحرج فى الموقف البريتانى إلى حملة الارهاب التى تشنها الهيئات المسلحة السرية من الجانب اليهودى ، وإلى حملة المطالبة باستقلال الاقليم من الجانب العربى ، ثم إلى الدعوة التى أعلنها الرئيس ترومان مطالباً بادخال مئة ألف مهاجر يهودى جديد إلى فلسطين ، وإلى التأييد الذى تلقاه فى أميريكا حركة المناداة بجعل فلسطين كلها دولة يهودية ، وبخاصة إلى إحجام الولايات المتحدة فى الوقت ذاته عن تحمل تبعات الموقف من الناحيتين المادية والعسكرية فى فلسطين .

ورفع المشكلة إلى هيئة الأمم المتحدة من جانب بريتانيا مظهر من مظاهر الضعف فى السيطرة على الأمور داخل فلسطين ، وموقف الرئيس ترومان من استمرار الهجرة وتأييد الدولة اليهودية ، فيه معنى من

معانى الاحساس بذلك الضعف البريتانى وحث الأمور على أن تتهيأ لاحلال النفوذ الأميريكى محل النفوذ البريتانى فى هذه الأصقاع .

لكن للولايات المتحدة مصالح أخرى فى أكثر من بلد عربى مجاور لفلسطين ؛ فلها مصالحها الزيتية فى آبار العربية السعودية ، ولها مصالح نقل الزيت العربى السعودى إلى الساحل اللبنانى خلال الأراضى السورية ، ولها إلى جانب هذه المصالح الواقعية القائمة مشروعات اقتصادية تعدها فى العراق وفى مصر ، وهى تعلم علم اليقين قدر ارتباط الشعور القومى فى كل هذه البلاد العربية بالشعور القومى العربى فى فلسطين . وإذن فقد آثرت ألا يكون تدخلها فى القضية الفلسطينية ، وقد راحت بها انجلترا إلى الحظيرة الدولية ، بمثل السفور الذى يتجلى فى تدخلها فى شأن اليونان وشأن تركيا . فكانت خطتها ألا تكون هى عضواً من أعضاء لجنة التحقيق حتى لا تتحمل بطريق مباشر تبعات التوصيات التى قد لا ترضى العرب . فأيدت ألا تساهم الدول العظمى فى عضوية تلك اللجنة ، وتقدمت باقتراح حصر هذه العضوية فى دول محايدة لا هى من الدول العظمى ولا هى من الدول العربية .

وكذلك تبين خلال المواقف التى وقفتها دول أميريكا الجنوبية من المطالب والمقترحات العربية أن فعل الدعوة الأميريكية بل فعل التوجيه الأميريكى فيها كان عظيما ؛ فقد كان التضامن هو السائد إلى الآن علاقات الكتلتين اللاتينية فى جنوب أميريكا والعربية خلال مناقشات الأمم المتحدة وعند إبداء الرأى فى اجتماعاتها ، وكان بعض المتحمسين يرجعون ذلك التضامن البادى إلى أن عديدين من مئات الآلاف من أهل جمهوريات أميريكا الجنوبية ينحدرون من أصل سورى أو لبنانى ، لكن ظل التضامن قد تقلص أثناء النظر فى القضية الفلسطينية ؛ فقد كانت أصوات أميريكا الجنوبية متضامنة دائماً مع الولايات المتحدة ، سواء أكان ذلك عن طريق الادلاء بالصوت المعارض للموقف العربى مباشرة أم كان ذلك عن طريق الامتناع عن التصويت جملة .

صمت روسيا

لكن ظاهرة الشهر فى السياسة الدولية قد تجلت من الناحية الأميريكية. ويلوح أن انجلترا مضطرة لمسايرتها — وهى أشبه بالمفلس الذى يتلمس العون من دائنيه لعله يستطيع أن يستأنف عمله فى نطاق ضيق بدل أن يسقط إلى أعماق الهاوية — ويظهر أن الموقف منها غير مستقر فى البلاد التى ترمقها العين الأميريكية. فحكومة اليونان متقبلة العون الأميريكى فى لهفة، ولكن وسائل السلام الداخلى الذى تريد الولايات المتحدة أن تفرضها غير مستساغة لدى الحكومة اليونانية القائمة. والعون فى تركيا لم يقابل باللهفة اليونانية؛ لأن الأتراك فهموا ما وراءه من تدخل فى صميم الادارة التركية. وفى تركيا تحفز من ناحية أخرى على نظام الحزب الواحد أو نظام الحزب الأقوى على الأقل، وفيها اتجاهات يسارية تريد الحكومة أن تأخذها بالعنف الذى لا يساعد على الاستقرار شيئاً. وفرنسا التى انتهت أزمتها السياسية إلى إخراج الشيوعيين من مناصب الوزارة لاتزال فيها الشيوعية قوية، ولا يزال عدد الناخبين من الشيوعيين هو أكبر عدد لفئات الناخبين الموزعين على الهيئات والأحزاب السياسية جميعاً، ولا تزال الأزمة الوزارية فى إيتاليا غير مستطيعة الخروج من المأزق دون اشتراك الشيوعيين فى الوزارة الجديدة كما كانوا مشتركين فى الوزارة القديمة.

على أن فى تلك المواقف غير المستقرة شيئاً من التبين ولو على وجه العموم. لكن روسيا صامتة. وروسيا هى الطرف الثانى من طرفى الكيان الذى تريده أميريكا للعالم جميعاً. وصمتها يجعل النغمة المسموعة نغمة جانب واحد. وهى لا تكفى لتصوير الحقائق ولا تكفى لصحة الترقب.

وإذن فلنأخذ الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية على علاته. وقد سجلت فيه مظاهر أزمة عالمية دون ريب، لكن دون تحديد لمدى تطوراتها بعد.

محمود عزمى

شهرية المسرح

ركود

عطيل لشكسبير

وهذه المسرحية تعطينا صورة دقيقة لركود المسرح المصرى فى جميع نواحيه . فهى تصور ركود الاخراج كما تصور أيضاً ركود التمثيل . لقد أخرجت الفرقة القومية هذه المسرحية فى أول عهدها ، وها هى ذى تقدمها مرة ثانية بالاخراج نفسه ، مع أن هذا الاخراج يرجع إلى أكثر من عشر سنوات تطورت فيها شئون المسرح تطوراً يدعو إلى الدهش ؛ إذ جدت نظريات فى رسم المناظر وتركيبها . وقلما نجد فى فرنسا مثلا مسرحية تعاد دون أن يدخل عليها عدة ابتكارات فى المناظر والاضاءة والاخراج . لقد شهدنا فى مصر مسرحية « تارتيف » لموليير قدمتها فرقة جان مارشا فى أسلوب إخراجى جديد وقديم فى وقت واحد . فهو جديد لأنه مبتكر لم يألفه المسرح الحديث ، وقديم لأنه عود إلى مسرح موليير كما كان حينما مثلت هذه المسرحية لأول مرة . ولننظر إلى مسرحية «الناقم على الناس» *Le Misanthrope* لموليير . فهنا أيضاً إبتكار فى رسم المنظر وتركيبه على المسرح ، وابتكار أيضاً فى الاضاءة التى لم تكن من أعلى المسرح بل كانت من وراء أجزاء المنظر الشفافة . أما إذا نظرنا إلى إخراج مسرحية « عطيل » فلا نجد عدم الابتكار والتجديد فحسب ، بل نجد أيضاً أخطاء ما كان ينبغى أن تقع فيها الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى وخاصة بعد أن اضطلع بالدورين الرئيسيين اثنان من متزعمى حركة النهضة المسرحية فى مصر . ولا أشك فى أن هذه الهنات التى سأتكلم عنها لم تصدر عن نقص فى ثقافة المشرفين على إخراج هذه المسرحية ولا عن إهمال منهم، فلا يمكن أن يكون هؤلاء ذوى ثقافة محدودة أو من معتادى الاهمال فى عملهم . فهم يزعمون أنهم نخبة من رجال الفن فى مصر قد تلقوا أصوله على أئمة المسرح فى أوربا . وهذااليقين يحيرنى قليلا فى نسبة هذه الهنات التافهة التى لا يقع فيها إنسان له دراية بعمله

ويفنه . فكلنا نعلم أن حوادث «عطيل» تجرى فى مدينة البندقية ، وأن لأبنيتها أسلوباً خاصا وطابعاً معروفاً ، ولكن شهدنا فى مصر الحوادث الأولى فى هذه المسرحية تجرى فى منظرين لا يمتان بصلة إلى أسلوب البناء فى البندقية ، وهذان المنظران يستعمل أحدهما لـ « فلستاف » والآخر لـ « كارمن ».

وفى أحد المناظر التى تمثل ميناء رودس نرى الشاطئ غارقاً فى ظلمة حالكة ، لأن حوادث هذا المنظر تقع فى العاشرة مساء ، على حين نرى البحر مغموراً بضوء وهاج . هذا عدا الاضطراب الذى يقع فيه الكومبارس وهم على المسرح أو حين خروجهم منه.

ويصور لنا تمثيل هذه المسرحية أيضاً خمول ممثلينا وعدم اهتمامهم بالتجديد والابتكار فى أدائهم . لقد تلقى الأستاذ جورج أبيض بك أصول التمثيل عن سيلفان فى فرنسا . وهو منذ عاد إلى مصر لم يغير من أسلوبه شيئاً ؛ فهو يحافظ عليه كما تلقاه عن أستاذه غير مهتم بما جد فى فن الالقاء والتعبير . فنرى الآن الأستاذ جورج أبيض بك يؤدى أدواره فى أسلوب عتيق لا يناسب المسرح الحديث ، فهو يفخم بعض الكلمات ويتغنى بالبعض الآخر ويلجأ إلى الزئير فى تعبيراته لتمثيل بعض المواقف قد يكون الصمت أصلح لأدائها . غير أنه من المسلم به أن هذه المآخذ لا تنقص من قيمة الأستاذ جورج أبيض بك ، فقلما نجد بين ممثلينا وخاصة الناشئين منهم من يؤدى دوره بالأمانة التى يصطنعها هذا الممثل الفنان .

وقد قامت بدور ديدمونه السيدة أمينة رزق التى لم أرها فى دور من الأدوار إلا مغالية فى الصياح والعويل والبكاء ، فهى فى بكاء متصل ، تبكى حينما تكون حزينة وتبكى حينما تكون مرحة وتبكى أيضاً حينما تكون سعيدة . وقد أخرجت شخصية ديدمونه فصورتها كأنها فتاة كسيرة النفس حزينة الشعور . ولست أجد مايسوغ هذا الأداء إلا إخفاق السيدة أمينة رزق فى تنويع أدائها كلما تغيرت الشخصية التى تمثلها .

أما الأستاذ يوسف وهبى بك ، فلا يسعنى إلا الثناء على أدائه لدور ياجو ، هذا الأداء الأمين الذى يدل على فن رفيع وفهم دقيق لنفسية المنافق الدساس . غير أنى مع هذا الثناء آخذ على هذا الأداء المغالاة ، والاسراف فى الايماءات وفى التعبير أحياناً . ولأذكر على سبيل المثال هذا المنظر الذى قتل فيه عطيل

ياجو بخنجره فسقط ياجو (أى يوسف وهبي بك) على أربع مراحل . وهذا الأداء لم يعد مستساغاً فى المسرح الحديث .

الآن وقد دلت هذه المسرحيـة على ركود المسرح المصرى فى جميع نواحيه ،هل لنا أن نرجو من المشرفين على شئونه أن يوجهوا اهتمامهم إلى تجديد عناصره؟ فان المسرح المصرى لفى حاجة إلى عناصر جديدة نشيطة تتولى أموره بعد أن يتاح لها الاطلاع على الأساليب الحديثة المألوفة فى أوربا فى الاخراج والتمثيل ورسم المناظروالاضاءة وبعد أن تكون قد ألفت هذه الأساليب ، فتعود إلى مصر لتقضى على هذا الشئ البالى فى مسرحنا وتنشئ لنا مسرحاً حديثاً يلائم مكانة بلادنا الثقافية .

رشدى كامل

شهرية السينما

صورة ماريا كانديلاريا (مترو جلدوين ماير)

ما كادت تنقضى فترة الحرب القلقة المضطربة ، وما كاد يستقر السلام والطمأنينة حتى دب النشاط فى صناعة السينما فى جميع البلاد الراقية . وقد رأينا هذا النشــاط حينما أقيم مهرجان كان للسينما فتزاحمت عليه البلاد جميعها ، ومنها أمم لم نكن نعلم أن لها فى هذه الصناعة نشاطاً . ومما يدعو إلى الدهش ان هذه الأمم الحديثة العهد بصناعة السينما قد ظفرت بنجاح كبير رغم قلة استعدادها فى هذا الميدان وافتقارها إلى الآلات الدقيقة التى تساعــد على الانتاج الصحيح القيم . ومن هذه الأمم أذكر المكسيك التى تقدمت إلى المهرجان بفيلم «صورة ماريا كاندلاريا» فحازت به جائزة التصوير . والمكسيك لم تقتحم بانتاجها السينمائى أسواق العالم قبل الحرب ، وليست هى قديمة عهد بصناعة السينما ، ومع ذلك أظهرت فى هذا الفيلم عزيمة قوية على الانتاج الفنى المتقن ، حتى دلت على أن سيكون لها فى هذا الميدان مستقبل زاهر .

وقد عرض علينا هذا الفيلم فى الأسبوع الماضى فى حديقة سينما النصر ، فتنهدنا هذا التصوير البارع لا من الناحية الصناعية فحسب بل كذلك من الناحية الفنية . فهذا الفيلم بصوره يبتعد عن الأسلوب « الخاص بالالف » intimiste ويتجه بها نحو الطبيعة المجردة من كل حلية اصطناعية . وقد كان اختيار المناظر الطبيعية اختياراً موفقاً ، وزادت الاضاءة هذه المناظر جمالا ورونقاً .

وكنا نود أن تكون القصة أقل سذاجة وأكثر عمقاً . فالعنصر التأثيرى فيها تافه حتى إنه لم يؤثر فى الشاهدين مطلقاً . لقد قتلت ماريا كانديلاريا خطأ فى نهاية القصة . فهل يمكن أن تقوم المأساة على هذا القتــل الذى لا مسوغ له ؟

ولست أعتقد أن للقصة أهميــة كبرى فى هذا الفيلم . فهناك نواح

أخرى جديرة باهتمامنا . فهو يقــدم لنا معلومات طريفة عن عادات أهـل المكسيك ، وقد نجح التصوير فى تقديم هذه المعلومات فى أسلوب رائع جذاب . ولنذكر منها حفلة مباركة حيـوانات القرية فى ساحة الـكنيسة ، واحتشاد الزوارق فى النهر وقد زينتها الأزهار ، وغير ذلك من العـادات والحفلات التى تميز كل شعب عن الآخر .

ولا أريد أن أختم الحديث عن « صورة ماريا كانديلاريا » دون أن أتـكلم عن تمثيل دولوريس دلريو وأدائهـا المـوفق لشخصيـة القروية النافرة ، فقد نجحت فى إسباغ إيماءاتها ونظراتها ومشيتها عارية القدمين تلك السذاجة التى تميز القرويات .وأنت إذ تشهدها تمثل تعتقد أنها لم تـكن فى يوم من الأيام إلا قروية مكسيكية ساذجة .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

LA VIE QUOTIDIENNE EN EGYPTE DU TEMPS DES RAMSES

ETIEMBLE

الحياة اليومية فى مصر فى أيام الرماسسة *

بينما ترى الأحقاد الوطنية أو الدينية مفسدة لأكثر كتب التاريخ ، تجد مصر القديمة وقد اكتمل تاريخها اكتمالا بآخر فراعنتها ، فلم يعد فيه ما يثير شيئاً من تلك العواطف القوية التى ما برحت تشوه فى أنظارنا صورة الحروب الصليبية أو صورة الثورات التى ما زلنا نعانى آثارها . فبقدر ما تكون كتابة التاريخ ممكنة يكون التاريخ الصحيح لمصر ممكناً . وإذا حاولت أن أسترجع صورة الحياة الفرعونية بالقياس إلى أولئك الذين لم يدرسوها مثلى إلا فى المدارس الثانوية ، رأيت كهانا بالغى القوة ، وعدة من عجول أبيس ، وأخرى من الجعارين ، ورأيت توت عنخ آمون وقبره الرائع ، والكاتب الجالس القرفصاء وشيخ البلد ، ورأيت طابوراً من الحشرات البشرية يجلد عند قاعدة الأهرام . ثم رأيت أيضاً طائفة من الرسوم الغريبة التى تقوم مقام الكتابة ، ورأيت الثعلب الذئب أنوبيس ، ومسلة الأقصر ، وكلمات عجيبة ، تسر الأطفال مثل كلمة nome وهو المقاطعة ، وكلمة pschent وهو لباس الرأس لدى قدماء المصريين . ويا لهم من قوم أمرهم عجب أولئك المصريين ! إنهم لم يعرفوا رسم المنظور : ذلك فى رأى ما يتخيله فرنسى فى الخامسة والعشرين أو فى الثلاثين عندما تكلمه عن خوفو أو رمسيس . فهو يحسب الحضارة المصرية حضارة جامدة ، حضارة كهنوتية . ذلك طابع كل تعليم يهدف إلى التبسيط ، فهو إذ يبسط

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى »

إنما يشوه . ويرجع هذا إلى أن الكتب التي كنا ندرسها منذ ربع قرن لم تكن تعتمد إلا على المعلومات التي وصل إليها العلماء حتى حوالى عام ١٩٠٠ على حين أن تاريخ مصر تاريخ حديث رغم قدم مصر ، تاريخ يتغير كل عشر سنوات .

وبمجرد وصولى إلى هذا البلد ، كشفت لى مصر عن جهلى وأخطائى ومعتقداتى الفاسدة . فما كدت أرى بعض الرسوم من جدران سقارة حتى أدركت أن هناك فنا مصرياً آخر غير ذلك الفن الجامد المنتظم . وقرأت « المسرح المصرى » للدكتور دريوتون فعلمت منه أن التمثيليات الدينية قد وجدت فى مصر قبل اليونان القديمة وأنها شملت كل أنواع التمثيليات الحرة : تمثيليات تاريخية ذات مشهد عظيم مثل « ميلاد هورس وتأليهه » ، وكوميديات صريحة مثل هزيمة أبوفيس وتمثيليات سياسية مثل عودة سيت وهى ذم لاحتلال الفرس . وبدا لى أن ما كان يحدث فى العصور الوسطى الفرنسية ، حين كانت التمثيليات الدينية تمثل فى الكنائس ، من قذف الجمهور ليهوذا بالحجارة ، كان يحدث مثله فى المعابد المصرية حيث تزدحم جماهير الشعب مظهرة غضبها على المحتل ، فأصبح المصريون يعيشون أمامى . وكان الدكتور دريوتون هو أيضاً الذى أظهر لنا عيد الخمر . فبينما يرتعد فرعون أمام هاتور وهو يقدم له جرة النبيذ ، إذا بجمهرة من الناس كانت تقواهم تدفعهم إلى الافراط فى الشراب بل تتطلبه ، وتدع نفسها لسكر النبيذ الذى يسعى بها إلى النجاة . ثم زرت معابد الصعيد والمقابر المحفورة تحت الصخور ، وقرأت كتاب الموتى ، وحفظت بضعة من أسماء الفراعنة ، وبضعة تواريخ وبضعة وقائع . وأدت بى دراسة قواعد اللغة المصرية الكلاسية[1] إلى عالم الكتاب ، وأخذت أقضى بكل سرور بعض الوقت ، من زمن لآخر ، فى استطلاع الحروف الهيروغليفية التى أنشأها شاسينا Chassinat لمطبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة . ورغم ذلك فقد كان هناك شئ ينقصنى ، شئ مهم ، إذ تذكرت الفائدة التى جنيتها، بالنسبة لثقافتى اللاتينية ، من

---

(١) E. Lefebvre, *Grammaire de l'Egyptien classique*, Le Caire

اكتشافى فيما بعد لبضع طرق عن المطبخ الرومانى كتبها أبيكيوس Apicius . وكان طعام الباقلا بمزيج الخيانة الزوجية سحر خيالى . وأى كتاب بالغا ما بلغ علمه فى تاريخ اللغة ، أو فى التاريخ أو فى الجغرافيا يستطيع أن يعرف الحضارة الفرنسية ، لوجهل وجود طعام حساء السمك المصنوع بالتوابل (١) أو اللحم المطهى بالنبيذ (٢) أو لو جهل الحياة المنزلية الفرنسية ؟

كانت إقامتى فى مصر قد أزالت عنى العبارات المحفوظة عن مصر الجامدة ، الهيراطيقية ، التى لا تعرف رسم المنظور . ولكن كيف كان يعيش أناس ذلك الزمن ؟ ماذا يأكلون ؟ ماذا يقولون لنسائهم حين يثيرنهم ؟ وطالما أسفت لعدم استطاعتى أن أرجع إلى كتاب شبيه بكتاب كاركوبينو عن الحياة اليومية فى روما (٣) ولم أكن الوحيد فى ذلك الأسف ، فقد كتب لى جان بولان J. Paulhan فى عام ١٩٤٦ يسألنى أن أدله على كتاب عن الحياة الخاصة فى مصر الفرعونية .

وعندئذ علمت أن بيير مونتيه Pierre Montet سيصدر عما قليل كتاباً « عن الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرماسسة » . وليس مونتيه أقل كفاءة أو توفيقاً من زملائه المصرولوجيين الفرنسيين . وكأن المعابد والمقابر تشاركه فيما يبحث عنه . ولقد ظهر أخيراً كتابه وحقق الآمال التى كان يؤملها أمثالى فى كثرة مايستفاد منه .

فالمسكن ، والزمن ، والعائلة ، والمشاغل المنزلية ، والحياة فى الريف ، والفنون والصناعات ، والأسفار ، والفرعون ، والحرب والعيش والكتاب والقضاة ، والنشاط الدينى فى المعابد ، والجنائز ، كل ذلك مدروس فى هذا الكتاب بالدقة التى يسمح بها ما لدينا اليوم من وثائق . ولما كانت الأخلاق والنظم والفنون والمعتقدات قد تطورت خلال آلاف السنين التى نمت فيها الحضارة الفرعونية ، فقد اختار المؤلف حقبة ممتازة من التاريخ المصرى هى عهد الرماسسة الذى يميزه ثلاثة حلول عظام . ستوى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث . فالآثار الضخمة الرائعة ، والعديد من مقابر الملكات والملوك ، وأوراق البردى ،

(١) La bouillabaisse

(٢) La daube

(٣) *La vie quotidienne à Rome*, Paris, Hachette

والقصص، ومجموعات الخطابات والمقالات والعقود والمحاضر ، ووصية رمسيس السياسية ، كل ذلك قد أتاح للمؤلف مصدراً للوثائق متنوعاً وغزيراً . ومما لا شك فيه أنه قد قضى علينا أن نجهل بعض المظاهر لحياة الشعب ، إذ يبدو مثلا أننا لن نستطيع أن نعرف أبداً الشعور الديني للعامل أو للكاتب أو للكاهن المصرى . نعم إن بعض المراسم والطرق والمعتقدات معروفة ، وقد استطاع جاك فانديه J. Vandier أن يكون منها مؤلفاً لا بأس به عن الدين المصرى[1] نرى فيه القيمة الحقة للعبادة المزدوجة ، عبادة الشمس وأوزيريس . ولكنه لم يستطع هو ولا مونتيه أن يدلنا على العقيدة الفردية الحقة .

فلنرض بهذه المجموعة الضخمة من الوثائق التى جمعها وفسرها وعرضها علينا مونتيه ، وما من أحد ينكر اليوم القيمة العظيمة لقدماء المصريين أو ينكر تنوع المواهب لدى فنانيهم المعماريين والمصورين والنحاتين . ولكنا لا ندرى بالضبط كيف كانت حياتهم هنيئة فى مجموعها . يقول مونتيه: «كان المصريون يكثرون من شكر الآلهة لأن حياتهم على ضفاف النيل كانت حياة هنيئة . ولنفس هذا السبب كانوا يحاولون التمتع بنعم هذه الدنيا حتى فى قبورهم » . ومما لا شك فيه أن الفرعون كان بادى الشدة أحياناً ، ومن المؤكد أن الكتاب كانوا يميلون إلى الضغط على أبناء الشعب وأن استعمال العصا كان كثيراً . ومن المؤكد أيضاً أن الكهنة كانوا يسيئون استخدام سلطتهم الدينية التى كانت تعطى لهم بسبب تأملاتهم الروحية (ولكن الفرعون نفسه كان يقاسى من ذلك أكثر مما يقاسيه النساج والزجاج) . ومن المؤكد أن الفقراء كانوا طيلة الحياة ، بعيدين عن مساواة الأغنياء حتى إذا ماتوا ألقى بجثثهم ولحمهم وأحشائهم الفانية فى المقبرة العامة : فلا هرم لهم ، ولا خلود لهم . ولكن المصريين القدماء كانوا يعتنون بأجسامهم ، يستحمون مرتين أو ثلاثاً فى اليوم ، وينتزعون الشعر من أجسادهم ويتطيبون ، وكان الفلاحون والرعاة يغنون أثناء عملهم ، أو يكلمون حيواناتهم وكانت البيرة والنبيذ تهبهم أوقاتاً سعيدة ، كما كانت تسعدهم التمثيليات الدينية ، ومواكب الآلهة . فكان عيد

---

(١) *La religion égyptienne*, Presses Universitaires, collection Mana, 1946

آمون فرصة لهم يتمتعون فيه بالأكل الوافر والشراب طيلة شهر بأكمله. «كلا لم يكن الشعب المصرى ، كما قال رينان ، قطيعاً من الرقيق يقوده فرعون قاس وكهنة شرهون متعصبون. لقد كان عدد الفقراء عظيما من غير شك أيام الرماسسة ولكن الفرعون وموظفوه كثيراً ما كانوا حكاماً رحيمين . وأظن أن الأيام الطيبة فى حياة الشعب كانت أكثر من الأيام السيئة » .

وكان آمون رع يقوم أحياناً بالمعجزات ليخفف عن الشعب آلام الأيام السيئة .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده .

من وراء البحار

أوربا المتحدة أو المنقسمة

يشكو المهتمون بالمشاكل الدولية من أنهم لا يسمعون آراء الخبيرين من الروس ؛ فكل مايسمعونه شذرات وآراء مقتضبة تنقل إليهم عن طريق صحافة أمريكية أو بريطانية ذات هوى ، أو هم يقرءون شيئاً من هذه الآراء فى صحف تصدرها روسيا باللغات الأجنبية وهذه تحمل طابع الدعاية مما لا يجعل لها وزناً كبيراً . ولكن قرأنا أخيراً فى مجلة الأمور الخارجية الأمريكية التى تصدر كل ثلاثة أشهر ، مقالا لخبير روسى مطلع هو الأستاذ ألكسندر جالن الكاتب السوفييتى المعروف فى الأمور الدولية وأستاذ علم التاريخ بجامعة موسكو . وفى هذا المقال استعرض بجلاء و إسهاب واعتدال مشكلة أوربا وهل ستكون منقسمة أو متحدة ، وهو مقال فيه كثير من الآراء الطريفة وهو يتحدث عن فكرة تنظيم أوربا واتحادها ، وقد بدأت الصحف تتكلم عن هذه الفكرة فى أثناء الحرب العالمية الثانية وظهرت فى شكل إنشاء كتلة غربية أوربية أو اتحاد أوربى غربى .

ثم اقترح مستر تشرشل إنشاء ولايات متحدة أوربية، ولكن مسيو بلوم أراد أن يكون مظهرها أكثر براءة فأحب أن يسميها إنشاء أسرة أوربية غربية .

ومما لا شك فيه أن الفكرة كانت تعرض بين آن وآخر منذ قرنين أو ثلاثة ، وفيما بين الحربين الأخيرتين اتخذت اتجاهاً عمليا حين نادى بها الكونت كاليرجى السياسى النمساوى وحين اتخذت فى سنة ١٩٢٩ اتجاهاً شبه رسمى عندما عرض مسيو بريان على رؤساء الوفود فى جمعية الأمم إنشاء اتحاد ائتلافى أوربى ، وطلب إليه أن يضع مذكرة فى ذلك يبلغها جميع الدول ومنها دول الاتحاد السوفييتى . وكانت خلاصة مذكرته ضرورة وضع ميثاق مبدئى يؤكد مبدأ تضامن الدول الأوربية واتحادها أدبيا ، واقتراح إيجاد مؤتمر ولجنة سياسية دولية لتحقيق ذلك الاتحاد ووضع برنامج أساسى لذلك .

وكانت حكومة العمال البريطانية التى كانت متولية الأمور فى سنة ١٩٣٠ متحفظة فى إجابتها على هذه المذكرة ، ثم

قابلت ألمانيا هذه المذكرة بفتور ، وكانت إيطاليا معادية للفكرة . أما الرأى العام الأوربى فقابل هذه المقترحات بذعر كبير إذ رأى فيها مقاومة للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

أما روسيا السوفيتية فقد اعترضت على المذكرة التى دعتها للاشتراك فى فكرة تتعارض مع نظامها ورأت أن الفكرة أمليت على الدول بدون أخذ رأيها لا سيما أنها مبعدة عن جمعية الأمم .

وقد اعترض لورد سيسيل ممثل بريطانيا فى جمعية الأمم صراحة على الفكرة قائلا إن أوربا التى تكون معارضة للعالم بأجمعه تكون أشد خطراً على السلم من المنافسة الدولية.

وانتهى أمر هذه المقترحات بأن ضمت إلى محفوظات الدول.ولما استولى هتلر على الأمر فى ألمانيا عادت فكرة أتحاد أوربا على قاعدة جديدة . ونظام هتلر المسمى النظام الجديد مقتبس من مقترحات بريان و إن وضع لخدمة صالح الاستعمار الألمانى ، وفيه ادعت ألمانيا الزعامة فى أوربا . وكان هتلر فى خطوته الأولى يرمى إلى تحطيم بريطانيا وأمريكا وروسيا السوفييتية . ولكنه فى الخطوة الثانية أراد تحطيم روسيا السوفييتية ثم استخدام مواردها ضد بريطانيا وأمريكا بحيث يكون عندئذ اتحاداً أوربيا فعليا تحت الاستعمار الألمانى . وقد تحطمت ألمانيا وهى تجاهد فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض ، وتخلصت أوربا مرة أخرى من المنادين بالاتحاد .

وعادت الفكرة من جديد فى سنة ١٩٤٤ وقد تبناها الجنرال فرانكو الذى تنبأ بهزيمة ألمانيا و إيطاليا،فعمد فى رسالة أرسلها إلى تشرشل إلى الدعوة باتحاد أوربا لمقاومة روسيا السوفيتية ، غير أن تشرشل لم يؤيد الفكرة جهاراً إذ كان فى الحكم ، ولكنه مما لاشك فيه أن الحكومة البريطانية كانت تؤيد فكرة ائتلاف أوربى غربى . وهكذا شأن العمال البريطانيين إذ صرح هارولد لاسكى فى أغسطس سنة ١٩٤٥ قائلا : « مما لاشك فيه أن حزب العمال يؤيد فكرة اتحاد اقتصادى يضم بريطانيا وفرنسا والبلجيك وهولاندا والنرويج والدانمرك ، وأن يكون بينها أوثق رباط فى جميع الميادين» . وأيده كثيرون من العمال فى رأيه و إن لم يعلن الحزب تأييده رسميا . وعاد تشرشل إلى الفكرة يحبذها بعد أن أطلق من قيود المنصب لاسيما فى خطبته التى ألقاها بزيوريخ فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ حين أعلن فى عبارة منمقة

مليئة بالترغيب والارهاب تأييداً لهذه الفكرة التي هي أمل الفاشيين .

فمن هو الذى يوحد بين دول أوربا وما هو الغرض ؟ يرى تشرشل أن الزعامة لابد أن تتولاها فرنسا وألمانيا . ولكن أى جزء من ألمانيا ؟ من الواضح أنه يعنى ألمانيا الخاضعة للاحتلال البريطانى والأمريكى والفرنسى . والمعلوم أن ألمانيا لم تتبرأ بعد من النازية وأنها فى المناطق المذكورة بعيدة كل البعد عن الديمقراطية . ونرى مستر تشرشل فى عجلة لأنه يود أن يصل إلى غرضه قبل أن تنفذ الديمقراطية إلى هذه المناطق . ولقد وجدت أقوال تشرشل صدى لدى هانريخ ليختجنز زعيم الحزب الوطنى الديمقراطى الألمانى الذى أيد إيجاد اتحاد غربى أوربى تحت زعامة بريطانيا ، وأبدى احترامه وإعجابه بتشرشل .

ولقد سكت مستر تشرشل عن الدور الذى تمثله بريطانيا فى هذا الاتحاد وهو يلبسها ثوب الرجل الخير الذى لايرمى إلى غرض نفعى . ولعله لا يوجد فى العالم سياسى واحد يعتقد أن السياسة البريطانية الخارجية قائمة على نكران الذات .

فأية دول سيسمح لها بالانضمام إلى هذه الولايات المتحدة الأوربية ؟ تجنب مستر تشرشل الصراحة أيضاً فى هذه المسألة ، ولكن يبدو من أقوال أنصاره المتحمسين لفكرته أن هذه الدول هى فرنسا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وأسبانيا والبرتغال وبلجيك والدانمرك وهولندا وسويسرا والدولتان السكندناويتان . ولقد كان اتحاد بريان يقف عند حدود السوفييت فى سنة ١٩٣١ أما فكرة اليوم فلا تكتفى بابعاد الاتحاد السوفييتى بل هى تبعد أيضاً فنلندا وبولونيا والمجر ورومانيا والمنطقة السوفييتية من ألمانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا . فاذا تذكرنا أن روسيا الأوربية تشمل ثمانى جمهوريات سوفييتية يبلغ تعدادها ١٣٠ مليون من السكان وأن الدول المتاخمة لها والتى ستبعد عن هذا الاتحاد يبلغ عدد سكانها ٩٠ مليوناً ، بدا لنا أن تشرشل يريد أن يتحد نصف سكان أوربا ليقفوا فى وجه النصف الآخر .

ولقد زعم مستر تشرشل عن سخاء بأنه يكل الزعامة لفرنسا وألمانيا ، ولكن الحقيقة أن هذه الزعامة ستكون رمزية فقط وهو يضمر أن تكون بريطانيا سيدة الأقدار فى أوربا . وما هو الغرض من هذا الاتحاد ؟ هل هو سياسى أو اقتصادى أو حربى ؟ إنه الثلاثة معاً

فهو يريد إلغاء الحواجز الجمركية فى هذا الاتحاد ، وهو يريد أن يكون هذا النصف من أوربا محافظاً ليجد فيه طعاماً للمدافع فى المغامرات الحربية المستقبلة ولكنه الآن يخفى هذه الأغراض إلى أن تتألف الكتلة .

ولو أنه يريد مجرد إنهاض الدول الأوربية اقتصادياً ولو أنه يقصد إلى غرض سلمى لما أبعد عن اتحاده روسيا السوفييتية التى بذلت أكثر مما بذلت بريطانيا فى سبيل هزيمة هتلر . ولماذا أبعدت دول مثل بولونيا ويوغسلافيا التى حاقت بها المصائب من النازيين أكثر من غيرها ؟ الحقيقة أن فكرته ترمى إلى إنشاء كتلة معادية للسوفييت . وليس ذلك فحسب ،بل هى بالرغم مما ساقه من أزاهير الثناء على أمريكا معادية لأمريكا نفسها، لكى يتخلص من نفوذها الاقتصادى والسياسى فى ذلك الجزء من أوربا . ولو أنه كان صريحاً فى كلامه لقال فى جلاء إن بريطانيا خرجت من الحرب ضعيفة اقتصاديا وسياسيا وإن حليفتيها الكبيرتين هما الآن أقوى منها ، وإن مستعمراتها لا سيما الهند فى اضطراب خطير ، لذلك يجب أن نوحد بين الدول الأوربية لنمنع نفوذ السوفييت والولايات المتحدة فيها ؛ ولتكون هذه الكتلة خاضعة للتوسع البريطانى .

هذا مايجب أن يقوله ، ولكنه آثر أن يقتفى خطوات هتلر الذى بدأ بانشاء ميثاق مقاوم للكومنتيرن وانتهى بالحرب والكوارث . ولقد صدق الرئيس روزفلت حين وصفه بقوله « إنه محافظ قديم من المدرسة القديمة» .

وقد تألفت بلندن فى منتصف يناير الماضى لجنة للعمل على اتحاد أوربا برياسة مستر تشرشل وتجد هذه اللجنة تحمساً من زعماء كثيرين من المحافظين وانضم اليها بعض زعماء العمال . ولكن الحكومة البريطانية الحالية لاتؤيدها .

أما موقف روسيا السوفييتية فهو موقف معارض لمثل هذا الاتحاد الذى ينادى به زعماء رجعيون والذى يخالف الديمقراطية ،وسوف يؤدى إن تم إلى أن تحل الكوارث بأوربا والعالم بأسره .

ولقد نادى بعض أعضاء البرلمان البريطانى من العمال بضرورة المجاهرة بأن تعلن بريطانيا رغبتها فى التآلف مع أية دولة أخرى ومثل هذا التآلف يقوم على مبادئ غير التى نادى بها تشرشل،ولكنه يرمى إلى فكرة واحدة بالرغم من هذا الاختلاف هى جمع أكثر عدد من الدول حول بريطانيا لكى ينقذوا بريطانيا من صعوبتها الاقتصادية والسياسية على حساب هذه الدول . وهذا هو السبب فى أن زيارة

ليون بلوم لانجلترا قوبلت بالترحاب من جميع الجهات . ولكن بلوم ليس هو فرنسا ، ولانظن أن الشعب الفرنسى بالرغم من انقسامه فى هذه الفترة يرضى بأن تكون الجمهورية الرابعة أداة فى يد انجلترا لتحقيق أغراضها .

ولا ريب فى أن هذا الاتحاد يتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على أن المعاهدات بين مجموعة من الدول يجب ألا تكون موجهة لمعاداة مجموعة أخرى ، وأن التسويات التى تتخذ فى نطاق دول يجب ألا تتعارض مع نص ميثاق الدول المتحدة وروحه، وأن تعمل الدول التى اشتركت فى هزيمة المحور اشتراكاً كبيراً على تأييد السلم والأمن . إذن لا معنى بعد هذه النصوص لوجود هذا الاتحاد الذى يرغب فيه تشرشل ؛ إذ ما هو إلا شقاق تحت اسم آخر .

اتجاه فى السياسة الدولية

يرى السياسى الفرنسى بول رينو رئيس الوزارة فى زمن الهزيمة فى مقال افتتاحى نشرته له مجلة « ريفى دى بارى » الشهرية فى عدد إبريل أن يوم ١٢ مارس سنة ١٩٤٧ سيكون يوماً ثابتاً فى تاريخ العالم ، ففيه أعرب الرئيس ترومان عن اعتقاده بأن العهد الأمريكى قد بدأ فهو منذ الكلمة الأولى التى نطق بها فى خطبته التى ألقاها بالمجلس الأمريكى صرح بأن مسألة إقراض تركيا واليونان ليست مجرد مسألة مالية بل إنه فعل ذلك لأن « سياسة البلاد الخارجية ومشكلاتها الوطنية فى خطر » .

يسائل رينو ماهى هذه السلامة الوطنية مع أن القنابل الذرية التى تصنعها الولايات المتحدة اليوم تفوق القنبلة التى ألقيت على هيروشيما فى قوتها بستمائة مرة ؟ لذلك يرى أنه كان صادقاً حين صرح فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى ٢٧ فبراير الماضى بأن للولايات المتحدة تفوقاً ساحقاً على جميع الدول الأخرى مجتمعة . فالمسألة إذن ليست مسألة سلامة وطنية و إنما هى شعور بالقوة يدفع هذه الجمهورية العظيمة إلى التدخل القوى فى أمور العالم .

من المؤكد أن الغرض الأول هو تموين ذلك الشعب اليونانى الصغير الذى أبدى بطولة وتعذب كثيراً فى

أثناء القتال ، ولكن الغرض الهام هو منعه من أن يبتلع فى الكتلة الشرقية التى تؤلفها السوفييت؛فالحارس الأمريكى إذن سيحل محل الحارس الانجليزى .

أما الشعب التركى الذى لم يتألم أثناء الحرب ولكن حكومة السوفييت تلح فى إصرار عليه بحقها فى أن تحل معه على ضفاف الدردنيل ، فانه سيجد الاعانة نفسها التى منحت لليونان وسيمد مثل اليونان بالمعلمين الحربيين . وهكذا نرى الأمريكيين على الحدود السوفيتية فى القوقاز ، ونراهم يسيطرون على خروج السفن الروسية التى تتجه نحو البحر الأبيض المتوسط والبحار الحرة . وبلاد مترو إذن ستسيطر منذ الآن على البحر اللاتينى .فأى فرق بين موقف مجلس الشيوخ الأمريكى حين رفض التصديق على معاهدة فرساى وبينه اليوم ؟

وهكذا وضعت أمريكا حاجزاً لتقدم الكتلة الشرقية نحو الغرب ، ووقفت حارسة على الحدود الروسية .

وليس هذا كل شئ ، بل إن الرئيس ترومان يهاجم الكتلة الشرقية ويعيب أمام العالم أنها فرضت على بلغاريا وبولونيا ورومانيا نظاما دكتاتوريا بغير رغبة هذه الدول وبالقوة والارهاب بالرغم من اتفاقات يالتا . وهو بالطبع يريد أن يقول إنها فرضت نظاماً شيوعيا . وهو يقول إن هناك محاولات كهذه فى بلاد أخرى . فالأمر أمر خلاف بين نوعين من الحياة .

فأمريكا إذن لن تسمح بتحول النظام السياسى لأية دولة إما بالقوة أو على قول رئيسها بطرق ملتوية مثل التغلغل السياسى ، ولقد فهم العالم ذلك . وعلى كل حال ستساعد أمريكا « الأمم الحرة المستقلة على الاحتفاظ بحريتها » وبذلك تنفذ ميثاق الأمم المتحدة . ومما لا ريب فيه أن جمعية الأمم الزائلة كانت فى حاجة إلى حراس ، ولقد وجدت الجمعية التى حلت محلها هذا الحرس .

وليس ذلك إلا لأن القنبلة الذرية الآن أقوى ستمائة مرة من تلك القنبلة التى ألقيت على هيروشيما .

ولقد نزلت صراحة ترومان على موسكو كالبرق ، فأعمت أبصار وزراء الحلفاء المجتمعين فيها وتوقفوا عن ألاعيبهم الصغيرة . ونشرت جريدة « أزفتسيا » الروسية تعليقاً معتدلاً تكلمت فيه عن إخفاق الانجليز التام فى اليونان وصرحت بأنه ما من أحد يهدد سلامة تركيا . فهل كانت هذه اللغة تقال لو أن الولايات المتحدة أدارت ظهرها إلى أوربا ؟

ومن العجيب أن الجريدة التى

تنطق بلسان الحزب الشيوعى الفرنسى كانت أشد لهجة ، ووصفت تصريحات ترومان بأنها لا تحتمل وأنه يشجع الهاجمات التى هوجم بها الحزب الشيوعى فى أثناء مناقشة موضوع الهند الصينية .

وقد تكلم مسيو بول رينو طويلا عن هذه المناقشة التى كانت فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى ١٤ مارس الماضى ودافع عن موقفه فى هذه المناقشة ودفع ما اتهمه به الحزب الشيوعى من أنه يؤيد الرجعية .

أسطورتان سياسيتان

كتب مستر ليندلى الكاتب المعروف فى مجلة « ناشنال ريفيو » البريطانية الشهرية وهى من المجلات المحافظة مقالا فى عدد إبريل سنة ١٩٤٧ عن أسطورتين حديثتين تترددان فى الأفق السياسى. فهو يقول إنه مما يلذ للمراقب أن يرى أن البيانات الخاطئة تجد تصديقاً من الناس إذا رددت مرات كثيرة على آذانهم . ويضرب لذلك مثلين : أولهما مايسميه الناس «التجربة السوفينية » . فالشيوعيون لا يفتأون يعلنون بطبيعة الحال النجاح الكبير الذى يلاقونه فى كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية . وأغلب الصحف البريطانيــة والنقـاد البريطانيون لايؤيدون هذه المزاعم كاملة ، ولكنهم يريدون أن يظهروا بمظهر سعة العقل فيوافقون على أن النظام الحاضر فى روسيا هو خير من النظام القيصرى .

على أن الكتاب الذى وضعه كرافشنكو الكاتب الروسى الذى فر من الشيوعية وأسماه « لقد اخترت الحرية » يدل دلالة واضحة على أن هذا الكلام عبث، وكل مانحتاج إليه لصحة الحكم هو قليل من التقدير ومعرفة بدائية بروسيا قبل الثورة. فاذا استعرضنا مسألة الطعام أولا فاننا نجد أن روسيا قبل سنة ١٩١٤ — ولقد كان الكاتب عليما بها كل العلم — كانت تتمتع بكثرة الطعام ورخص أثمانه وجودة نوعه بما لايكاد يوجد له مثيل فى العالم ؛ فكان يمكن أن يطعم امرء أكلة من خير ما يكون فى مطعم أية محطة بما لا يزيد عن روبل واحد ، ويوجد ماهو أرخص من ذلك .ومع ذلك وبعد عشرين سنة قضتها روسيا فى السلم أى فى سنة ١٩٤٠ . صار الطعام موزعاً بالبطاقات . يدعى الشيوعيون أن توزيع الطعام بالبطاقة

حتى الآن هو نتيجة الحرب . وهذا غير صحيح ؛ فان موارد المنطقة التابعة للسوفييت فيما يتعلق بالطعام غير محدودة لو أن الحكومة كانت صالحة بعض الشئ ، فهى فى الواقع أكبر كثيراً من موارد الولايات المتحدة . والواقع أن هذه القلة فى الطعام هى نتيجة سوء الحكم الشيوعى .

و يزعم الناس أن المقاومة الناجحة التى قامت بها القوات السوفيتية ضد الألمان هى نتيجة لنجاح النظام الشيوعى. فمما تجب الاشارة إليه أن هذا النجاح نسبى فقد سبقته هزائم حربية فظيعة وخسارة فى الأرض والرجال لم يسبق لها مثيل فى حرب من الحروب ، ولم يتحول مجرى الحرب إلا بالعوامل التى هزمت نابليون وهى اتساع المساحة والشتاء، وأخيراً الصفات العالية للجندى الروسى ، وهذه الصفات مما لاينكرها أحد ممن رأوا الحرب العالمية الأولى ؛ ففى تلك الحرب قاتل الروس بمثل الشجاعة التى أظهروها أخيراً واستطاعوا أن يهزموا النمساويين ، والأتراك فى كل ميدان، ولكنهم لم يكونوا أكفاء للألمانيين كشأنهم فى سنة ١٩٤١ ولو أن الجيش القيصرى كان قائماً بالقتال لخرج من الحرب بانتصارات أبهر مما خرجت به الجيوش السوفييتية فى سنة ١٩٤٥ بعد أن استعمل رجال السوفييت الطرق التطهيرية التى اعتادوا استعمالها دون تردد .

أمر آخر من الأمور التى يرددها الناس هو إيجاد الحكومة لصناعات مزدهرة ، و إقامة هذه الصناعات من العدم . وليس هذا القول بحق ؛ فان روسيا كانت تتمتع فى سنة ١٩١٤ بصناعات هامة ثقيلة، كما أنه بدأت فيها صناعات جديدة مثل صناعة القطن ، وكان الكونت ويت يعمل بقوة على اتباع سياسة صناعية ناهضة ومد سكك حديدية ، و لم تقف هذه النهضة إلا بسبب الحرب والثورة الشيوعية .

ولو سارت الأمور فى هذا الطريق لما اضطر الشعب لأن يتحمل الحرمان من الضروريات الأولى حتى من بناء الدور فى سبيل التسليح فيما بين الحربين ، وبالرغم من هذه التضحيات الكبيرة هل يمكن مقارنة مجهود السوفييت فى الحرب بالمجهود الأمريكى؟ لقد استطاع الأمريكان فى ثلاث سنوات دون أن يحملوا شعبهم تضحيات مؤلمة أن يكونوا أبعد مدى فى كمية التسليح ونوعه بما لا يقارن به مجهود السوفييت فى ست سنوات . ولعل المقارنة بين هاتين الدولتين هو خير مثل

للعمل بالمجهود الفردى والعمل الذى تحتكره الدولة .

وثانى الأساطير أنه مما اعتاده الناس إذا ذكروا الشرق الأقصى أن يعتبروا سن يات سن من الذين أسدوا يداً للعالم . ولكن التفكير فى هذا الموضوع يثبت لنا أن الثوره التى قام بها هدا الرجل سببت تعاسة لبس لها مثيل ، وكانت من أكبر الكوارث التى حلت بالصين مدة خمس وثلاثين سنة ، وقد يمضى مثلها من السنوات قبل أن تتحسن الأمور . وكل من يعرفون الصين حق المعرفة يرون أن الصين كانت بحاجة إلى أسرة حاكة جديدة بدلا من الجمهورية التى أنشأها سن يات سن . ولقد كان يوان — شي — كاى الذى يعمل على ذلك بعيد النظر ، غير أنه قوبل بالمعارضة من روسيا واليابان فمات كسير الخاطر .

ويرى الكاتب أن الحكام البريطانيين لا يهضمون فكرة قتل الجماهير من الناس و اتخاذ معسكرات يساق إليها المعارضون وما ماثلها من الطرق التى يلجأ إليها النازى والسوفييت ، ولكن هذه الوسائلُ هى المتبعة للاحتفاظ بالتجربة السوفييتية . و إذا كانت الطرق الاشتراكية ستخفق فى بريطانيا فسيصيح الشيوعيون قائلين إن السبب هو عدم تطبيق النظام الشيوعى بأكمله، وسيتخذ هؤلاء الناس روسيا السوفييتية مثالاً للنجاح، ولن يفكروا لحظة فى أن الامبراطورية السوفييتية لها من الموارد ما ليس له مثيل فى الجزيرة البريطانية الصغيرة الغاصة بالسكان .

وأعرب عن أمله فى أن يتدبر الانجليز أمرهم لكى يتجنبوا هذه الأخطار .

ظهر حديثا

والدة قصة للكاتب الفرنسى فرانسوا مورياك ترجمة الأستاذين محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين (دار الكاتب المصرى)

فى هذه القصة نرى الكاتب الفرنسى فرنسوا مورياك فى خير مظاهره قصاصا خبيرا بفنه ، بلغ فى عالم القصة أكبر المراتب ، ونرى فيه باحثاً اجتماعياً من الطراز الأول ، واسع الأفق ، يبحث موضوعاً طريفاً قد نشهد أمثاله فى جميع الأسر على مختلف جنسياتها ، وإن كان قد أراد أن يتخذ لهذه القصة جو الريف الفرنسى . فالموضوع الذى أثاره هذا الكاتب فى هذه القصة بالذات ، موضوع عالمى ؛ ونستطيع أن نقول إن التوفيق صاحب اختيار هذه القصة بالذات ، لنقلها إلى العربية من بين قصص فرنسوا مورياك الذى يجنح أحياناً إلى موضوعات ضيقة قد تهم فريقاً دون فريق . فالمعروف عن مورياك هو نزعته الرجعية الدينية، وهى نزعة لها قيمتها وأثرها ، ولكنها قد تجعل من بعض مباحثه فى قصصه ضيقاً يبعد عنها جمهرة كبيرة مما قد يستفيدون ، لو عنى مورياك بموضوعات عالية ، بما له من مقدرة فى فن القصة، وقدرة على صياغة الحوادث وسردها .

فقصة « والدة » خالية من هذا العيب بموضوعها الحيوى ، الذى يدور حول تلك الشخصية التى نجدها فى أسر كثيرة كما أسلفنا ، وهى الأم العجوز التى تتسلط على الدار ومن فيها ، وتزعم أن هذه السيطرة لفائدة أبنائها ، ومن يلوذون بهؤلاء الأبناء . وهى تسيطر عليهم بروح قوية ، وحزم لا يعرف الكلل ، وتظل فى حركة دائمة ودأب على إخضاع الجميع لرأيها وأوامرها . وتزعم أن هذا العمل إنما هو لمصلحة الجميع ؛ فاذا هى لا تبذر إلا الشر للأسرة ، وتجر عليهم بشدتها وتصلبها الكوارث .

تلك هى الشخصية التى رسمها فرنسوا سورياك بفن يسيطر على القارئ منذ الصفحة الأولى ، حتى لا يستطيع ترك هذا الكتاب ، أو يغفل عن تتبع هذه الوالدة بسيطرتها وتصلبها اللذين يبلغان حد الاثم . ولعل كلمة «الوالدة» لاتعبر كل التعبير

عن الاسم الأصلى للقصة ، وهو اسم لا يتيسر التعبير عنه بكلمة عربية واحدة؛ ففيه معنى ذلك الاصرار والثبات الذى نجده فى الجذور العميقة. على أننا لا نريد أن نتبسط فى الكلام على مزايا هذه القصة بعد أن يسرت للقارئ العربى بنقلها فى عبارة عربية جزلة صحيحة ، وبعد أن أخرجت هذا الاخراج الجميل الذى صار سمة من سمات مطبوعات دار الكاتب المصرى .

جرائم واغتيالات القرن العشرين للأستاذ عبد الحليم الجندى فى جزأين
(دار سعد مصر)

كنت أحب أن يطلق على هذا الكتاب عنوان أقرب إلى محتوياته ؛ فان هذا العنوان قد يدل على أن الكتاب مجرد قصص أريد به إزجاء الوقت فى التسلية ، ولكنه فى حقيقته لا يمت إلى الجرائم والاغتيالات فى شئ ، وإنما هو دراسة عميقة لثلاثة من كبار المحامين : أحدهم انجليزى والآخر فرنسى والثالث مصرى ، وهى دراسة كاتب خبر وسط المحاماه وحياتها العملية ، كما خبر حياة الفكر والبحث العلمى . وقد أظهر مقدرته من قبل على البحث العلمى فى كتابه الذى وضعه عن أبى حنيفة ، وهو الآن يضع خبرته العلمية فى خدمة المحيط الذى قضى فيه زمناً طويلا من حياته العملية .

ومع ذلك فالكتاب ليس مجرد بحث علمى جاف . ففى حياة أمثال مارشال هول وهو من أساطين المحاماة الانجليزية ، وفى حياة هنرى روبير وهو من مفاخر المحاماة الفرنسية ، ما هو طريف كأية قصة للتسلية . على أن ما نراه طريفاً حقا وجديداً فى هذا الكتاب هو ذلك القسم الذى أفرده لمحام من أكبر المحامين الذين عاشوا فى القرن العشرين وهو المرحوم ابراهيم الهلباوى بك .

ومما يجعل لهذا البحث الطريف والجديد قيمة خاصة أن المؤلف، فيما نعلم ، قضى عشرات السنين يعمل إلى جانب هذا المحامى الكبير ، وأنه استطاع أن يطلع بحكم صلته على المذكرات الخاصة التى تركها ذاك المحامى الكبير ،وهو على ما يعلم الناس كان يملأ دور القضاء حياة كما يملأ بنشاطه جوانب كثيرة من الحياة السياسية والاجتماعية. فقد كان الهلباوى رجلا نشيطاً دءوباً فصيحاً طموحاً . وهكذا قضى حياته

الطويلة فى عمل ودأب فوصل إلى أكبر مراتب الشهرة فى المحاماة وإن لم يستطع أن يصل إلى أكبر المراتب فى الجوانب الأخرى من نشاطه. وهو إذا كان قد عجز فما ذلك لأنه لم يكن جديراً بها، ولكن خطأ واحداً ارتكبه فى حق بلاده أظل القسم الأخير من حياته فلم يستطع التقدم فى مجال الحياة السياسية والاجتماعية. وهذا الخطأ هو موقفه فى حادث دنشواى المشهور.

لم يغفل الأستاذ عبد الحليم الجندى ذكرى هذا الحادث؛ فلقد أشار إليه وتكلم عنه كما يجب على المؤرخ الأمين. ولكنه لاحظ جانب الصلة التى كانت تربطه بالمحامى الكبير، فخفف من موقفه، وعدل عن الألوان المظلمة إلى الألوان النيرة، واتخذ ثوب المحامى المدافع فى كلامه، وإن لم يستطع أن يخفى هذا الخطأ تماماً. والحقيقة أن الأستاذ عبد الحليم الجندى لم يرد أن يترجم للسياسى المخطئ، وإنما أراد أن يترجم للمحامى العظيم، الذى كان يدافع عن المظلوم والذى لم يكد يكون له قرين فى بلاغته وفصاحته وحضور بديهته عند المرافعة والمدافعة.

ولا ريب فى أن هذا البحث سيكون مرجعاً لجميع الذين يؤرخون حياة المحاماة والقضايا فى الفترة الأولى من القرن العشرين. ولا يمكن أن يهمله من يكتب التاريخ السياسى لهذه الفترة.

التفسير الاشتراكى للتاريخ وهو مختارات من فريدريك انجلز ترجمها وصدرها بمقدمة طويلة الدكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة)

لا يزال الدكتور راشد البراوى يخرج لنا كتاباً بعد كتاب، فى المسائل الحيوية التى تشغل أهل هذا القرن وتسيطر على عالم الفكر والاقتصاد. فقد أشرنا فى هذا الباب إلى كتابه عن حرب البترول فى الشرق الأوسط. وقد نكون قد أشرنا إلى ترجمته لكتاب رأس المال لكارل ماركس، وهو الكتاب الذى أثر تأثيراً كبيراً فى الحياة الأوربية والأمريكية وأدى إلى إنشاء ذلك النظام فى روسيا الذى هو موضع دراسة العالم بأسره. وهو الآن يتابع مجهوداته فيختار أهم الصفحات لكاتب من أكبر الكتاب الذين قامت الاشتراكية فى أوربا على أكتافهم، وهو

الـكاتب الاجتماعي فريدريك إنجلز . ولقد بدأ الدكتور راشد البراوى كتابه ببحث طويل عن التفسير المادى للتاريخ ، وهو المذهب الذى اعتنقه زعماء الاشتراكية . وهذا البحث مستفيض ووافٍ يبين فيه المذاهب المختلفة ويقارن بينها بحيث نقف منه على خلاصة وافية لهذا المذهب الاشتراكى الذى أثر كثيراً فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى أوربا .

وإنا لنرجو أن يقبل الكتاب على هذه الموضوعات الحيوية إذا أرادوا النهوض بهذا الشرق المتأخر فى عالم الفكر عن البلاد الأوربية ، لكى يصلوا به إلى أن يتبوأ المكانة التى يجب أن تكون له بين الأمم ، ولكى يساهموا بنصيبهم فى مجرى هذه الحياة الفكرية .

مصر الظافرة للبكباشى عبد الرحمن زكى (المطبعة الاميرية)

هذا الكتاب الذى أصدرته وزارة الدفاع الوطنى هو بحث مختصر وجليل يستعرض تاريخ مصر وأمجادها فى صور سريعة ودقيقة ؛ فهو يتكلم عن مصر الفرعونية وما كانت فيه من عزة، ثم ينتقل إلى مصر الاسلامية ومفاخر ذاك العهد حين كانت مصر دولة ناهضة قوية تحت حكم الكثير من الفاطميين والأيوبيين والماليك البحرية والشراكسة . ثم يتكلم عن عهدها المجيد الأخير فى حكم الأسرة المحمدية العلوية ، ففى نحو بضع ومائة وعشرين صفحة ، رسم لنا الأستاذ عبد الرحمن زكى صورة طريفة لتاريخ طويل يرجع إلى مايزيد عن خمسة آلاف سنة . وقد طبع الكتاب طبعاً جيداً ووضعت فيه صور طريفة متقنة ، كما ختم بسجل فيه أهم الأحداث فى تاريخ مصر .

حسن محمود

عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة للأستاذ محمد عزة دروزة
(مطبعة دار اليقظة العربية بدمشق)

مسند أحمد (الجزء الثانى) بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (دار المعارف للطباعة والنشر بمصر)

أبو هريرة لسماحة السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى العاملى (مطبعة العرفان بصيدا)

هى كتب ثلاثة أخرجتها المطبعة العربية منذ قريب ، تجمعها آصرة من أواصر العلم ، وتتناول من قريب أو من بعيد موضوعاً لا يكاد يختلف فى جملته وإن اختلفت وجهات النظر إليه واختلفت الغايات من تناوله ؛ ذلك هو موضوع السنة المحمدية والمأثور من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أول هذه الكتب « عصر النبي وبيئته قبل البعثة » فقد تناول هذا الموضوع تناولا سلبيا حين حاول مؤلفه أن يؤرخ عصر النبي على نهج جديد لا يستند فيه إلى ما روى من الأخبار وما أثر من الأحاديث ، وإنما يقتبس صوره من القرآن الكريم ليس غير ؛ إذ كان القرآن فيما يرى هو المصدر الأول — أو المصدر الأوحد — الذى ينبغى أن يوثق به فى الاستدلال على بعض ما كان — أو أكثر ما كان — فى عصر النبوة من أحداث وأحاديث .

وأما الكتاب الثانى «مسندأحمد» فهو ذلك الكتاب الأم الذى جمع فيه الإمام أحمد بن حنبل ما صح لديه من حديث رسول الله بأسناده ورواياته ؛ فكان إماماً فى هذا الباب .

وأما الكتاب الثالث «أبو هريرة» فيعرض للحديث عن رجل من رجال الحديث لا يكاد يخفى مكانه بين أهل الرأى والرواية .

فهى إذن كتب ثلاثة ولكنها تدور حول موضوع واحد من ثلاثة جوانبه : جانب سلبى ، وجانب إيجابى، وثالث بين بين . . .

عصر النبي — ولست من هذا الباب فى مقام الناقد بحيث يسوغ لى أن أتناول هذه الكتب الثلاثة كلها أو بعضها بالتعليق والنقد ورد الرأى ، أو التنويه والاشادة والمعاضدة . وحسب القارئ أن أعرض عليه هذ

الكتب وأعرفه إليها أصف له نهجها وما تهدف إليه .

أما الكتاب الأول فهو كما يدل عليه عنوانه : حديث جديد عن عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، يتنـــاول تاريخ تلك الفترة التي سبقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فيصفها زماناً ومكاناً وسكاناً ، وما كان من حياة العرب الاجتماعية والعقلية وأديانهم وعقائدهم ؛ فهو موضوع — كما قد يرى القارئ — غير جديد ، وإنما جاءت جدته من حيث الأسلوب الذى التزمه المؤلف والمنهج الذى سلكه .

ومؤلف هذا الكتاب رجل قد طوحت به أعاصير السياسة فأبعدته عن بلده وألزمته الإقامة غريباً عن أهله وصحبه بضع سنين ؛ فلم يجد فى غربته من أسباب الأنس والتسرية إلا القرآن يتلوه مصبحاً وممسياً ؛ فانكشف له فى القرآن من طول تلاوته وكثرة ترداده معان وصور من عصر النبوة حملته على أن يقول لنفسه : « لم لا يكون القرآن مصدراً لتصوير هـذا العصر والبيئة ، وفيه ما فيه من هذه الآيات ، وهو يعد أوثق وأصدق وأقدم ما يمكن أن يستند إليه كاتب أو باحث ؟ »

على أن حديثه إلى نفسه لم يطل، فلم يلبث أن جمع نيته على إخراج هذا الكتاب وهيأ أسبابه للعمل ؛ وكأنما كان يحيك فى صدره شبهات فى بعض ما روته كتب السيرة وغيرها من روايات « بسبب تأخر تدوينها وما يمكن أن يكون قد اعتور حفظ الصدور وصحة النقل من لبس ، أو ما يمكن أن يكون قد تسرب إلى الروايات من أصابع الأهــواء والميــول والصنعة والتلفيق » ؛ فآثر أن يطرح ذلك كله ليجعل القرآن عمدته وسنده، لا يستند إلى غـيره من الأخبار والآثار والروايات ، ولا يعرض له إلا حين يريد الاستئناس ترشيحاً لما استنبط من القرآن وما اهتدى إليه بسبيله ؛ « فان القرآن هو من جميع هذه الشوائب فوق كل مظنة وأقدس من أن تصل إليه شبهة سواء فى صحة التدوين أو سرعته ، بحيث كان كذلك دائماً عند جميع الناس تقريباً على مختلف أهوائهم وأجناسهم وأديانهم وأزمانهم » .

وعلى هذا النهج سار المؤلف من أول الكتاب إلى آخره ، فجاء كتاباً جديداً فى أسلوبه وطريقة الاستدلال فيه وما تضمنه من الرأى وما انتهى إليه من نتائج الاستنباط والتحرى والفقه التاريخى لمعانى القرآن .

وقد يضيق بعض القراء صدراً

إذ يرون المؤلف قد جانب ما درج عليه السلف حين اطرح ما روى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يأخذ بشئ منها ولم يجعل عليها معوّله، كأنما هو ينكرها جملة ولا يراها أهلا للثقة أو موضعاً للاستدلال؛ وهو معنى أراه يخطر بباله حين آثر هذا النهج، وما أراه قد التزم هذه المحجة إلا مبالغة فى التحرى والاستيثاق لتكون حجته أقطع فى وجوه الجاحدين من أهل الجدل والمكابرة.

وحسب المؤلف على كل حال أنه قد شرع نهجاً جديداً فى البحث عن عصر النبي وكشف آفاقاً لم يكشفها أحد قبله حين بسط ما بين دفتى المصحف للباحثين وأهل النظر ليستنبطوا مما فيه من معانى غير العبادات والتشريع وأسرار الإعجاز.

مسند أحمد — أسلفت الحديث عن هذا الكتاب الأم حين ظهر الجزء الأول منه منذ بضعة أشهر (١) فما بى حاجة إلى الحديث عنه بعد، وهذا هو الجزء الثانى من تلك الموسوعة، يبدأ بالحديث الثامن والعشرين بعد الخمسمائة وينتهى بالحديث الرابع بعد أربعمائة وألف، فى بضع وسبعين وثلثمائة صفحة، مذيلة بجريدة المراجع التى لم يرد لها ذكر فى الجزء الأول، وبفهرس المسانيد مرتباً على الأبواب إجمالا.

وقد مضى محقق الكتاب فى هذا الجزء على النهج الذى اختطه فى الجزء الأول؛ فهو يورد النصوص محققة مضبوطة؛ ثم يذيلها بالحديث عن سند الحديث وقيمته ورواته، معرفاً بهؤلاء الرواة إذا اقتضى المقام مزيداً من التعريف، شارحاً ما يرى وجهاً لشرحه من متن الحديث، مستطرداً أحياناً إلى ذكر أثره التشريعى ودلالته الفقهية. وحسبى تعريفاً بما بذل المحقق من جهد فى هذا الباب أن أنص للقارئ نصا من تعليقاته:

١ — « جاء النبي صلى الله عليه وسلم أناس من قريش، فقالوا: يامحمد، إنا جيرانك وحلفاؤك، وإن ناساً من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة فى الدين ولا رغبة فى الفقه، إنما فروا من ضياعنا وأموالنا، فارددهم إلينا. فقال لأبى بكر: ما تقول؟ قال: صدقوا، إنهم جيرانك. قال:

(١) الكاتب المصرى عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) ص ١٨٠.

فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لعمر : ما تقول ؟ قال : صدقوا، إنهم جيرانك وحلفاؤك . فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم »[1] .

ذلك نص الحديث ؛ وكأنما ذكر محقق المسند أمراً مما يجرى حوله بعض الجدل فى هذه الأيام وتتردد له أصداء فى المحاكم الوطنية والمختلطة ، فقال فى تعليقه :

« وهذا الحديث يدل على قاعدة عظيمة من أسس القواعد الاسلامية : أن يقبل ممن أسلم ظاهر إسلامه ، كما يدل عليه القرآن والسنة ، وأنه لا يملك أحد ، لا قاض ولا أمير ولا ملك ولا خليفة ، أن يبحث فى الدوافع التى تدفع من أسلم إلى الاسلام ، أسلم مخلصاً ، أسلم متعوذاً ، أسلم طائعاً ، أسلم لأى شئ — كل ذلك سواء فى ظاهر الحكم ، لا نملك غير ذلك ، حتى إن رسول الله، وهو الذى يوحى إليه ، تغير وجهه لصاحبيه أبى بكر وعمر ، إذ ظنا أنه يجوز البحث فى ذلك ، لما بدا لهما من صحة القرائن التى شرحها هؤلاء الوفد من قريش ، ولكن رسول الله اطرح كل هذا وأثبت ظاهر الاسلام ، وقد تأدب عمر بهذا الأدب الذى أدبه رسول الله ، حتى لقد جاءه فى خلافته رجل من الشعوب ، أى الأعاجم ، فشكا إليه أنه أسلم وأن الجزية تؤخذ منه ؛ فقال عمر : لعلك أسلمت متعوذاً؟ فقال الرجل : أما فى الإسلام ما يعيذنى؟ قال عمر : بلى ! فهذا الرجل لم يرض أن يجادل عن نفسه ، وأن يتحدث عن ضميره ، فيقول مثلا إنه أسلم خالصاً راغباً فى الاسلام ، وقد لا يصدقه عمر ، وإنما لجأ إلى سماحة الاسلام ، وإلى حكم الاسلام ، فهلا يعيذه هذا الاسلام ويحميه إذا كان أسلم متعوذاً ؟ سأل سؤالا واضحاً صريحاً فلم يستطع عمر إلا أن يجيب الجواب الصحيح : بلى . وإن عمر لصادق وموفق ، وإنه تعلم ما علمه معلم الخير ، رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

ب — مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم فى رءوس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : يلقحونه ، يجعلون الذكر فى الأنثى . قال : ما أظن ذلك يغنى شيئاً . فأخبروا بذلك ، فتركوه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن كان ينفعهم فليصنعوه ، فانى إنما ظننت ظنا،

---

(١) رقم الحديث ١٣٣٥ ص ٢٣٨ .

فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا أخبرتكم عن الله عز وجل بشئ فخذوه فانى لن أكذب على الله شيئاً »[1] .

قال فى تعليقه : « وهذا الحديث مما طنطن به ملحدو مصر . . . فجعلوه أصلا يحجون به أهل السنة وأنصارها وخدام الشريعة وحماتها إذا أرادوا أن ينفوا شيئاً من السنة وأن ينكروا شريعة من شرائع الاسلام فى المعاملات وشئون الاجتماع وغيرها ، يزعمون أن هذه من شئون الدنيا ، يتمسكون برواية أنس « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والحديث واضح صريح ، لا يعارض نصا ، ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسنة فى كل شأن ؛ لأن رسول الله لا ينطق عن الهوى ، فكل ما جاء عنه فهو شرع وتشريع ، « وإن تطيعوه تهتدوا » ، وإنما كان فى قصة تلقيح النخل أن قال لهم : « ما أظن ذلك يغنى شيئاً » فهو لم يأمر ولم ينه ، ولم يخبر عن الله ، ولم يسن فى ذلك سنة ، حتى يتوسع فى هذا المعنى إلى ما يهدم به أصل التشريع ، بل ظن ، ثم اعتذر عن ظنه ، قال : « فلا تؤاخذونى بالظن » ، فأين هذا مما يرمى إليه أولئك ؟ هدانا الله وإياهم سواء السبيل » .

وعلى هذا النسق يمضى فى تعليقاته .

أبو هريرة — وهذا كتاب — كما يقول مؤلفه — قد تنقبض دونه وجوه وتتقبض نفوس مزورة عنه ؛ فقد أنشأه لتجريح رجل من أصحاب رسول الله وكان أكثرهم رواية عنه ؛ ذلك أبو هريرة الأوسى ، وهو فيما يصفه « أمى ، مفرط ، مكثار ، كذاب ، مغلول ، مقلول ، متزلف ، سخيف ، سقيم العقل ، صنيعة بنى أمية ، احترف صناعة الأحاديث ليعيش من برهم » وهو ينكر عليه أن تكون صحبته لرسول الله سبباً إلى تنزيهه من أى هذه الصفات السابقة « والحق أن الصحبة بما هى فضيلة جليلة ، لكنها غير عاصمة ، والصحابة فيهم العدول وفيهم الأولياء والأصفياء والصديقون وهم علماؤهم وعظماؤهم ، وفيهم مجهول الحال ، وفيهم المنافقون من أهل الجرائم والعظائم . . . »

وكأنما خشى المؤلف أن يتأول عامة المسلمين رأيه فى أبى هريرة — وهو رجل صحب النبى سنوات —

---

(١) رقم الحديث ١٣٩٥ ص ٣٦٤

فيقول فى معرض الدفاع : « الجمهور بالغوا فى تقديس كل من يسمونه صحابيًا حتى خرجوا عن الاعتدال... إنما يعفون أبا هريرة وسمرة بن جندب والمغيرة ومعاوية وابن العاص ومروان وأمثالهم تقديساً لرسول الله ، لكونهم فى زمرة من صحبه صلى الله عليه وسلم ونحن إنما ننتقدهم تقديساً لرسول الله ولسنته صلى الله عليه وسلم . »

ويتضمن الكتاب مقدمة وثمانية عشر فصلا وخاتمة . ويتحدث فى فاتحة الفصل الأول عن السبب الذى حفزه إلى إنشاء هذا البحث فيقول : « أبو هريرة : حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثر ، وروت عن الصحاح الستة وسائر مسانيد الجمهور فأكثرت ؛ فلم يسعنا إزاء هذه الكثرة المزدوجة إلا أن نبحث عن مصادرها ./. لكن أسلات هذه الكثرة قد استفاضت فى فروع الدين وأصوله ، فاحتج بها أهل المذاهب الأربعة ومتكلموهم من الأشاعرة وغيرهم فى كثير من أحكام الله وشرائعه عز وجل ، ملقين إليها سلاح النظر والتفكير ؛ لذلك لم يكن لنا بد من البحث عن هذا المكثر نفسه وعن حديثه كما وكيفا ، لنكون على بصيرة فيما يتعلق من حديثه بأحكام الله عز وجل . »

ثم يمضى فى الحديث عن نسبه ونشأته وتاريخه منذ أسلم حتى مات فى عهد معاوية ، متعرضاً فى ثنايا ذلك لبعض ماروى عنه من أحاديث تنبو عن العقل والذوق والكياسة وتخالف تعاليم الدين ، مبيناً ما فيها من التناقض والاحالة وعلائم الوضع والاختراع . . . فى أسلوب خطابى يتراوح بين اللين والشدة .

ليت شعرى أكان أبو هريرة كما وصفه مؤلفه ، أم كان رجلا آخر ؟

سؤال لا أكاد أملك الرأى معه ، وقد عرف القراء أننى فى هذا الباب لست من أهل الاختصاص ، فحسبى أن وصفت لهم هذا الكتاب ؛ وإنه لكتاب حقيق بأن يلتفت إليه . أهل هذا الفن ، ليتولى كلتهم فى صحابى له مثل مكانة أبى هريرة فى رواية الحديث .

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

البيان النجف الأشرف العددان ٢٠و٢١ (ابريل - مايو ١٩٤٧)

مخطوطات عربية — من مقال للأستاذ على الخاقانى محرر المجلة ، عنوانه « النجف والانتاج العلمى » يقول فيه :

« فى النجف ثروة علمية كبيرة قل أن توجد فى مدينة من مدن العالم الاسلامى ، ولكنها تحتاج إلى إعداد كبير من المطابع والعمال ؛ وإلى ميزانية واسعة ضخمة تساعد على إحياء هذاالتراث الذى به نفخر ونعتز .

« هناك من المخطوطات مايزيد على أربعة آلاف مخطوطة لم تطبع ، وقفت عليها وكتبت عنها ، وكتابى « دليل الآثار المخطوطة » شاهد على ما أقول . وهناك علماء وقفوا أنفسهم للتأليف فقد ملأوا الخزائن والرفوف ، وأحيوا المندرس من النوادر الآثارية بخطوطهم، وهناك رجال لا يسرهم كل حديث غير حديث النشر والتأليف . ولكن هل يجدى هؤلاء النفر مع فقدان المال العامل الأساسى ، وهل يجدى ذلك والأديب عندنا لا يملك قوت يومه ولا يحصل على واحد من مائة من أمانيه ؟ »

ثم يعود المحرر نفسه فيقول فى العدد التالى من مقال عنوانه « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وهى لجنة أنشأتها وزارة المعارف العراقية منذ قريب :

« لقد سبق أن قلت غير مره إن مصر قامت بدور ناشر أكبر من قيامها بدور مؤلف . إلا فى الآونة الأخيرة ، وإن الكتب التى قامت باحيائها معظمها يرجع إلى العراقيين بالنظر إلى أنها أتقنت فن الطباعة وسرعة الاخراج المشفوع بالجمال ، وكادت أن تأتى على اخر كتاب عندنا ، غير أن الصدف شاءت أن يبقى عندنا نزر قليل من مخلفات الأجداد لم يعثر عليه غزاةمصر من الأدباء؛ فحرى بنا أن نقوم باحيائه وإخراجه لنكفر عن بعض السيئات التى عملناها لأنفسنا غير شاعرين بالتقصير تجاه تاريخنا . ولقد صممت أن

أتقدم بما أستطيعه من خدمة لهذه البلاد التي لم أحصلْ منها على ما يكفل راحتي وعيشي بهناء ، بمساعدة هذه اللجنة وتقديم ماتحتاج إليه من بحث أو كتاب يوجد عندي ، كما أني مستعد أن أكشف لها عن مخبآت لا تعلم عنها شيئاً ، مع الاحتفاظ بحقوق أصحابها وتعويضهم أتعابهم ؛ وبذلك أرجو أن أكون قد عملت لصالح العلم والعلماء ولصالح بلادي العزيزة . ولتنوير اللجنة أقترح أن تبدأ أولا بدراسة كتب لغوية وتاريخية لتعدها للطبع ، منها كتاب العين للخليل بن أحمد ؛ وكتاب الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول ، للسيد على خان الشيرازى صاحب السلافة ، وكتاب المحيط للصاحب بن عباد الذى قلل فيه الشواهد وكثر الألفاظ . وهناك كثير من كتب اللغة وغيرها من سائر الفنون لم تطبع . »

الأديب بيروت عدد ٥ (مايو ١٩٤٧)

رسالة الأدب — من مقال للأديب عيسى إبراهيم لناعورى عنوانه « الأدب المهجرى أدب رسالة » يحاول فيه فنا من الحديث عن أدب المهاجرين العرب فى أمريكا . ويمهد لذلك بالحديث عن رسالة الأدب ليخلص من ذلك إلى تقرير الحقيقة التى جعلها عنواناً لمقاله ، فيقول عن الأدب العربى فى ماضيه وحاضره :

« إن الأدب العربى فى حياته الطويلة الماضية لم يكن يعرف معنى « الرسالة الأدبية » فقد كانت المقاييس الكبرى للأدب هى أن يكون تعبيراً عن عاطفة مهما يكن نوعها ، أو تصويراً للنفس أو للمجتمع ، فى صدور ضيقة أو واسعة . لذلك كنا دائماً نعتبر الشعر والنثر هما الجناحان اللذان يتألف منهما « الأدب » . ونحن طبعاً نعتبر كل كلام منظوم « شعراً » وكل كلام غير ذى وزن وقافية « نثراً » ، مهما تكن صفات هذا النثر وذاك الشعر . وعلى هذا القياس تكون خمريات الأخطل وأبى نواس ، وغراميات امرئ القيس وابن أبى ربيعة — على تهتكها وبذاءتها — ، ومدائح المتنبى والبحترى وأهاجى جرير والحطيئة ، ومقامات الحريرى واليازجى ، أدباً ، وأدباً فى الصميم ، تماماً كتأملات المعرى وجبران ونعيمة وأبى ماضى ، تلك التأملات الانسانية التى تنزل على

القلوب برداً وسلاماً ، وترفع النفوس معها ، بعد أن تجردها من أوضار الطين وعبودية المادة ، وتحلق بها فى عوالم يغمرها النور ، وتتألق فى حواشيها ابتسامات التعزية والسعادة .

« هكذا كانت أحكامنا الأدبية السابقة ؛ وما تزال — مع الأسف — أحكام الكثيرين منا إلى اليوم . وهكذا كنا نفهم الأدب . أما نحن أبناء الجيل الحاضر فاننا ننظر إلى الأدب نظرة فيها علو وعمق وسعة، وفيها تقديس ومهابة . فليس المدح عندنا أدباً ، لأنه استجداء صريح ، أو وسيلة إلى الاستجداء فى الغالب ،، والاستجداء عندنا ذل ورذيلة . وليس الهجاء عندنا أدباً ، لأنه نقمة وشماتة وبغضاء ، والبغضاء عندنا رذيلة كبرى . وليس التبذل فى الحب والشراب عندنا أدباً ، لأنه دعوة صارخة إلى سيادة الرذيلة . وليس الفخر والحماسة عندنا أدباً ، لأنها غرور وكبرياء ، والغرور والكبرياء عندنا من أمهات الرذائل ، لا سيما وهما يصدران عن ابن الطين . ومتى كان للطين أن يغتر ويتكبر ؟

« وهكذا نحن اليوم نفهم أن الأدب رسالة تعلم الحياة ، وترشد البشر ، وأن قيمة الأدب هى فى مايسديه إلى الحياة وإلى الناس من خير ، أو فيما يمكن أن ينتجه فى الحياة من خير للأحياء . فالأديب — كما يقول نعمة قازان — هو « كل من يدلنى على الطريق ، ويسير أمامى . »

الأدب للانسان — وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » ، كلمة بقلم حميد حمدى محمود ، يحوم فيها حول ذلك الموضوع حوماً ، فيقول :

« يجب أن نثبت أولا أن الأدب للأدب مغالطة سفسطائية لا وجود لها فى الواقع ، وإن وجدت فان وجودها شئ شنيع يجب الاقلاع عنه .

«الأدب إذن للانسان ! ومن هذه الحقيقة يجب أن نبدأ . فالأدب الذى يخدم الانسان هو الأدب ، وذلك هو أدب الواقع ، فقلما ينفق اثنان على الأحاسيس ، وإذا اتفق أن وجد هذا الاتفاق فبين اثنين كبت كلاهما مطالبه النفسية الانسانية وتنكر لها ولبس لزميله لبوس الغيرية فخرج عن نطاق ذاته الخاصة وعقها .

« هذه هى نقطة الفصل بين الأدب الواهن الضعيف التأثير الذى يكتبه كاتبه لا من معمعان واقعه الدوار ، ولا من صراعاته مع الشدائد

التي عاناها ، بل من صفحة فكره البارد المتحجر . فنحن — على الأغلب نفضل العناوين الضخمة مثلا ، القضايا الغريبة لنختارها موضوعاً لكتاباتنا . وهذا بالطبع نوع من الهزيمة الأدبية ، ولو اختار كل أديب أسلوباً لنفسه يختطه وفلسفة عليا يستلهمها القوة والرشاد في كفاحه الدموى الحار ، ثم ترجم كل ما يقع له من نتيجة سلوكه الشخصي هنا لأفاد الأدب وأفاد القراء فائدة جلى ولغرس فيهم الروح الأدبية الحقة ، روح التحليل والاستقصاء والترجمة عن الحياة لا عن الفكر ؛ فان أدب الفكر قليل النفع .

« إن الأدب لن يكون محقراً في شئ كتحقيره على أيدى الأدباء المترمتين الذين يقصدون أن يروجوا شيئاً أرادوه لا حقيقة صرخت بها الطبيعة في أعماقهم .

« فخير لنا إذن أن نبتعد عن الأدب النابع من الفكر ونقبل على أدب الواقع أدب الحياة والتقدم والنماء ... أدب الصعوبة والألم الممض ، أدب الصراع العنيف ، أدب المعارك المدوِّمة الدائرة » .

الديمقراطية في الشرق — وتقتبس مجلة «الأديب» في باب البريد الأدبي ، كلمة عن جريدة « كل شئ » اللبنانية ، يقول كاتبها الأستاذ عبدالله العلايلي عن الديمقراطية في لبنان ، فكأنما خيل إلى أنه يتحدث عن أزمة الديمقراطية في الشرق كله لا في لبنان وحده :

« نحن إنما انسقنا في تيار الديمقراطية ، لا لأننا حملنا عليها حملا بل لأنها أعمق معنى في طبيعتنا . . . وهي (أي الديمقراطية) من هذه الطبيعة كالنبض الحي للقلب البشرى يكون أبداً العلامة على الصحة أو المرض .

« والديمقراطية اتخذت ضمانتها في النيابة ، فهل كانت النيابة لدينا ضمانة حقيقية ؟

« يسوءنى أن أجيب ، وأن أكون في جوابي أكثر ميلا إلى التشاؤم ، ويسوءنى فوق ذلك أن يكون هذا الجواب صدى لهمس كل ذلك الشعب المرهق .

« ولكن الشعب بعد اليوم لن يهمس همساً ، فالهمس جبانة . . . ولن يعتزل الميدان فالاعتزال خيانة . »

في مجلات الغرب

من لنـدن

هورايزون Horizon (عدد ابريل ١٩٤٧)

في الأدب — كلنا يعرف أن الكتاب القصصيين الأمريكيين يثيرون الاهتمام بالمباحث والدراسات الطويلة العميقة في البيئات الأدبية في جميع أقطار العالم وفي أوربا خاصة . ومصدر هذا طرافة هذا الأدب ولا سيما عنفه الشديد . ونرى مثلا لهذا الاهتمام في مجلة « الفكر الحديث » العراقية . قرأنا شهريتها « جولة في مجلات العالم » ، فرأينا فيها الكاتب يقول عن فصل لهنرى ميلر Henry Miller ظهر في مجلة «لارش» L'Arche : « . . . وليس من شك أن في هذين القولين شيئاً كثيراً من الرومانتيكية إلا أنه يجب ألا يغرب عن البال أن ميلر يعيش في بلاد الجهاد والفراغ الروحي ، في أمريكا ، وأنه لايمكن أن يكون هناك ثورة جبارة من دون رومانتيكية » .

أما في مجلة « هورايزون » فنقرأ دراسة طويلة قد نشرتها مجلة « كنيون ريفيو » The Kennyon Review لأول مرة عن الكاتب الأمريكي الكبير إرنست هيمينجوى E. Hemingway وعنوان هذا المقال : « القصصيون الفلاسفة : هيمينجوى » وصاحبه روبرت پن وارن [1] . وهو مقال طويل ، قسمه الناقد إلى ثلاثة أقسام . يصف لنا في القسم الأول مايسميه « عالم هيمينجوى » . ونرى من أول جملة في هذا القسم اعتراف الكاتب بعنف مؤلف « وداع السلاح » [2] ويقول ر. ب. وارن إن وراء كل حوادث قصص هيمينجوى ظل الخراب ماديا كان أو روحيا ، و إن أشخاص هذه الحوادث يقاومون الهزيمة أو الموت ،

---

(١) Novelist-Philosophers, X : Hemingway, by Robert Penn Warren

(٢) A Farewell to Arms

ولكنهم يحاولون دائماً أن ينقذوا شيئاً: « إنهم يمثلون صورة لبعض القوانين ، صورة للشرف الذى يجعل الانسان رجلا يمتاز من الذين يتبعون عن غير قصد أهواءهم المضطربة ويدفعهم ذلك إلى الخيبة ». هذا العالم العنيف البائس لم يبتكره هيمينجوى ، إنما كان أيضاً عالم زولا Zola ودرايزر Dreiser وكونراد Conrad وفولكنر Faulkner وقد أخذ هؤلاء الكتاب من علماء القرن التاسع عشر هذا العالم « الذى لا مركز له » . ونجد فى أثناء قراءتنا جملة تذكرنا برأى ناقد « الفكر الحديث » فى هنرى ميلر وهو أن فى بعض قصص لهنرى ميلر شيئاً كثيراً من الرومانتيكية. يقول ر. ب. وارن :« إن العواطف الشعرية والمؤثرة والفاجعة فى موضع لم يكن ينتظر منها شئ، ليس مقصورا على هيمينجوى وحده وإنما هو شئ نجده فى كثير من آثارنا الأدبية منذ الحركة الرومانتيكية . » فبين أدب هيمينجوى وميلر صلة الفن ، وبين النقاد الذين فرقت بينهم المسافات صلة الفكر . بعد هذا القسم الطويل يلتفت الناقد إلى قصة من قصص ا. هيمينجوى ويدرسها درساً جيداً . وعنوان القصة : « وداع السلاح » ويهتم صاحبها بالدين وإن لم يأت للقارئ بحل دينى للمشكلات التى يعرضها . وهى تطلب المعنى واليقين فى عالم لا معنى له ولا موضع فيه لليقين .

فى القسم الثالث والأخير لمقاله هذا ، يحاول الناقد أن يدفع عن هيمينجوى بعض الاعتراضات التى وجهت إليه . الاعتراض الأول أن آثاره تخالف الأخلاق . والثانى أنها تنحرف عن مجرى الحياة الحديثة وتجهل البناء الاقتصادى للجماعة . ومعنى هذا الاعتراض الأخير أن قصص هيمينجوى لا تعلم شيئاً لأن أفكاره لم تستمد من الحياة الحديثة أو لأنه لا يقيم أفكاره على أساس متين . ويجيب الناقد على هذا بنقل قول المصلح الدينى سافونارولا Savonarola : « كانت لى أفكار قليلة ولكنها خطيرة(١) » . ويختم ر. ب. وارن مقاله معترفاً بأن هيمنجوى لم يؤد إلينا مصدراً تاريخياً ولا تشخيصا طبياً (ولم يرد هذا قط) وإنما أدى إلينا أروع الرموز .

واقرأ فى هذا العدد أيضاً مقالا عن الشاعر الايطالى العظيم جياكومو ليوباردى Giacomo Leopardi. وهى

(١) «Le mie cose erano poche e grandi.»

الدراسة الأولى من سلسلة دراسات عنوانها العام : « دراسات فى العبقرية »(١) وأهم شئ نفيده من هذا المقال هو أن ليوباردى لم ير فى الحياة إلا عيوبها وإنما كان فى الوقت نفسه يثير فى نفوس قرائه ولعاً بالحياة لايطفأ ؛ لأنه كان يعتقد أن أوهام الانسان لن تموت كلها أبداً .

القرن التاسع عشر وما بعده . The Nineteenth Century and After

(عدد ابريل ١٩٤٧)

فى السياسة — فى هذه المجلة ثلاثة فصول موضوعها العام ساحل البحر الأبيض ، وبنوع خاص ثلاثة أقطار فى هذا الساحل هى اليونان وفلسطين ومصر .

أما المقال الأول فعنوانه :«اليونان والامبراطورية والولايات المتحدة » . صاحبه ف. ا. فويجت(٢) وسيتبع هذا المقال مقال آخر أو مقالات أخرى فى نفس الموضوع . أما المقال الأول ، عنوانه «قطاع الطرق» *The Bandits* فهو يصور لنا ما يسميه هو جرائم العصاة الذين يكونون الجيش الديموقراطى الذى يعترف به الحزب الشيوعى فى اليونان . ولا يمكن القارئ المنصف أن يكون لنفسه رأياً قاطعاً فى هده المشكلة إلا بعد دراسه عميقة . وهذا من أصعب ما يمكن إذا نظرت إلى اختلاط المصالح التى يعارض بعضها بعضاً فى هذه البلاد الآن . وهذا المقال نفسه دليل على هذا ، إذا لاحظت أن صاحبه متحمس أشد الحماسة ضد من يسميهم بعض زملائه من الصحفيين والكتاب : « بالوطنيين » . ولنعطى فكرة عن شدة بغضه ننقل ختام مقاله ، وهو كما ترى ، منقول من رسالة القديس بولس الحوارى إلى أهل رومية (٣)« حنجرتهم قبر مفتوح . بألسنتهم قد مكروا . سم الاصلال تحت شفاههم . . . أرجلهم سريعة إلى سفك الدم . فى طرقهم اغتصاب وسحق . وطريق

---

(١) **Studies in genius: I, Leopardi, by Foscarina Alexander**

(٢) **Mediterranean Seabord: Greece, the Empire and the United States, by F.A. Voigt.**

(٣) **III, 12-17**

السلام لم يعرفوه . ليس خوف الله قدام عيونهم . »

يتبع هذا الهجوم العنيف صد هؤلاء الوطنيين مقال عن فلسطين (١). فاذا امتاز المقال الأول بعنفه امتاز هذا بجده فى الاعتدال والرفق .

أما المقال الثالث والأخير فعنوانه « مصر والسودان والمعاهدة » . وأهم شئ فى هذا المقال هو المركز الممتاز الذى يخص به الكاتب مسألة السودان. وهى ، فى رأيه ، المانع الوحيد للاتفاق بين مصر و بريطانيا العظمى . . . (؟) والموضوع دقيق جدا لا يكتفى فيه بنقل جملة أو جمل من هذا المقال ؛ فقد يكون فى هذا النقل ما يلتوى برأى الكاتب عن الطريق التى أرادها . ولا شك أن الذين يهتمون بآراء الانجليز فى هذه المسألة الخطيرة سيقرءون بعناية مقال اللفتنت - كولونيل س. ب. بردوود (٢) .

من الجزائر

وصل إلينا العدد الأول من مجلة نصدر فى الجزائر باللغة الفرنسية وعنوانها « فورج » ***Forge*** . ويكتب فيها كتاب من العرب المغاربة ومن الفرنسيين . وتعرض مجلة «فورج» على قرائها ما تريد أن تعمل لخير الأدب والفكر فى شمال أفريقيا . فتقول : « نتمنى أن يلتقى فى أرض المغرب هذه ، أكرم ما فى الفكر الاسلامى القديم والحديث بأكرم ما فى الفكر الفرنسى أمس واليوم . . . و إذا حاولنا أن نجمع فى هذه المجلة أفضل كتاب المغرب الذين يكتبون بالفرنسية ، فنحاول أيضاً أن ننشر ترجمات أبرع المؤلفين فى اللغة العربية . فان غايتنا هى أن العقل وطن مشترك للذين يختلفون فى اللغات والعادات والدين . » وفى العدد الأول مقالات لصلاح الدين تلاتلى ، وهو مراسل المجلة فى تونس ، وقصة قصيرة لمحمود زروق عنوانها « حمّام » ، والقصة معجبة تجمع بين الروح الشرقى الجاد والمرح الفرنسى . وفى شهرية الكتب نقد قصير لكتاب أحمد توفيد المدنى عنوانه : « المسلمون

---

(١) *Palestine*, by Dudley Danby

(٢) *Egypt, the Sudan and the Treaty*, by Lt.-Col. Hon. C.B. Birdwood

في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا » . ومؤلف الكتاب كما نعلم من هذه الأسطر تونسي . ويقول الناقد في آخر مقاله إن هذا الكتاب جاء في الوقت المناسب ؛ لأنه لم يكتب عن هذا الموضوع إلا كتاب تاريخ صقلية الاسلامية للمستشرق الايطالى أمارى Amari ، ومقال للعالم التونسى السيد حسن حسنى عبد الوهاب . وفي الشهريات أيضاً لفرنسوا بونجان François Bonjean مقال عن كتاب له شهرة لا بأس بها في فرنسا وهو قصة « ضيعة تيوتيم » لهنرى بوسكو[1] . وكان بوسكو في المغرب حين ألف كتابه هذا الذى يصور حياة ضيعة في جنوب فرنسا . وكان يقرأ لصديقه بونجان صفحات هذه القصة شيئاً فشيئاً . ونحن لم ننس أن فرانسوا بونجان عاش في مصر بضع سنوات ، أستاذاً ، وألف مع المرحوم الدكتور أحمد ضيف كتاباً عنوانه « منصور » عن الحياة المصرية . ويسرنا أن ننتهز هذه الفرصة فنذكر بهذين الاسمين .

من باريس

العالم الفرنسى *Le Monde Français* عدد ١٦ (أبريل ١٩٤٧)

في الأدب — إقرأ في هذه المجلة مقالا لجان لويس بورى عن الكاتب العظيم بلزاك ، عنوانه : « بلزاك والظلمة »[2] .

ويتذكر القارئ الذى يعنى بالأدب الفرنسي الحديث أن جان لويس بورى كان نال جائزة جونكور Prix Goncourt سنة ١٩٤٥ لكتابه « قريتى في ساعة الألمان »[3] والمقال الذى نقرؤه في مجلة « العالم الفرنسى » عبارة عن بعض صفحات منقولة من كتاب عنوانه « بلزاك » سيظهر قريباً في باريس . وسبب عنوان هذه الصفحات «بلزاك والظلمة» ، في اختيار شخصية « فوتران » Vautrin وسطا لهذه الدراسة . والذين قرأوا « الملهاة

(١) Henri Bosco, *Le Mas Théotime*

(٢) Jean-Louis Bory, *Balzac et les ténèbres*

(٣) *Mon village à l'heure allemande*

الانسانية » *La Comédie Humaine* يعرفون الدور المهم الذى يقوم به هذا المجرم الهارب من الأشغال الشاقة فى قصة بلزاك . وتدور دراسة جان ـ لويس بورى حول هذه الجهة ، جهة التخفى العجيب التى تذكرنا بالقصص البوليسية . وهذا رأى مؤلف الكتاب عن بلزاك حين يكتب « بعبارة أخرى إن بلزاك حين جدد القصة القوطية قاده ذلك إلى القصة البوليسية وغمره فى الظلمة الاجتماعية فى نفس الوقت » . إن اتجاه هذا البحث غريب كما ترى ، ولكنه يلقى على آثار بلزاك ضوءاً عجيباً .

أمينة طه حسين

جائزة الكاتب المصرى للقصة

قرأت اللجنة ما قدم إليها من قصص لمسابقة الكاتب المصرى فلم تجد بينها ما يستحق الانفراد بالجائزة كلها . وإنما وجدت قصصاً لها حظ من جودة ، ويستحق أصحابها التشجيع ؛ لأنهم خليقون إذا جدّوا وأخلصوا ، وأكثروا من القراءة والملاحظة ، ونسوا أنفسهم شيئاً ما ، أن نعظم حظهم من الرقى فى التصوير والتعبير جميعاً .

ولذلك قررت اللجنة تقسيم الجائزة إلى جائزة أولى ، وقدرها ستون جنيهاً تمنح للأستاذ محمد حكمت محمد صاحب قصة « قلب يتفتح » ، وجائزة ثانية قدرها أربعون جنيها تمنح للأستاذ أحمد محمد عيش صاحب قصة « صرعى البؤس » ، وأوصت اللجنة دار الكاتب المصرى بأن تنشر قصة « ليلى » لصاحبها ابن الريف إن أراد .

محمود تيمور بشر فارس

ابراهيم عبد القادر المازنى

حسن محمود طه حسين

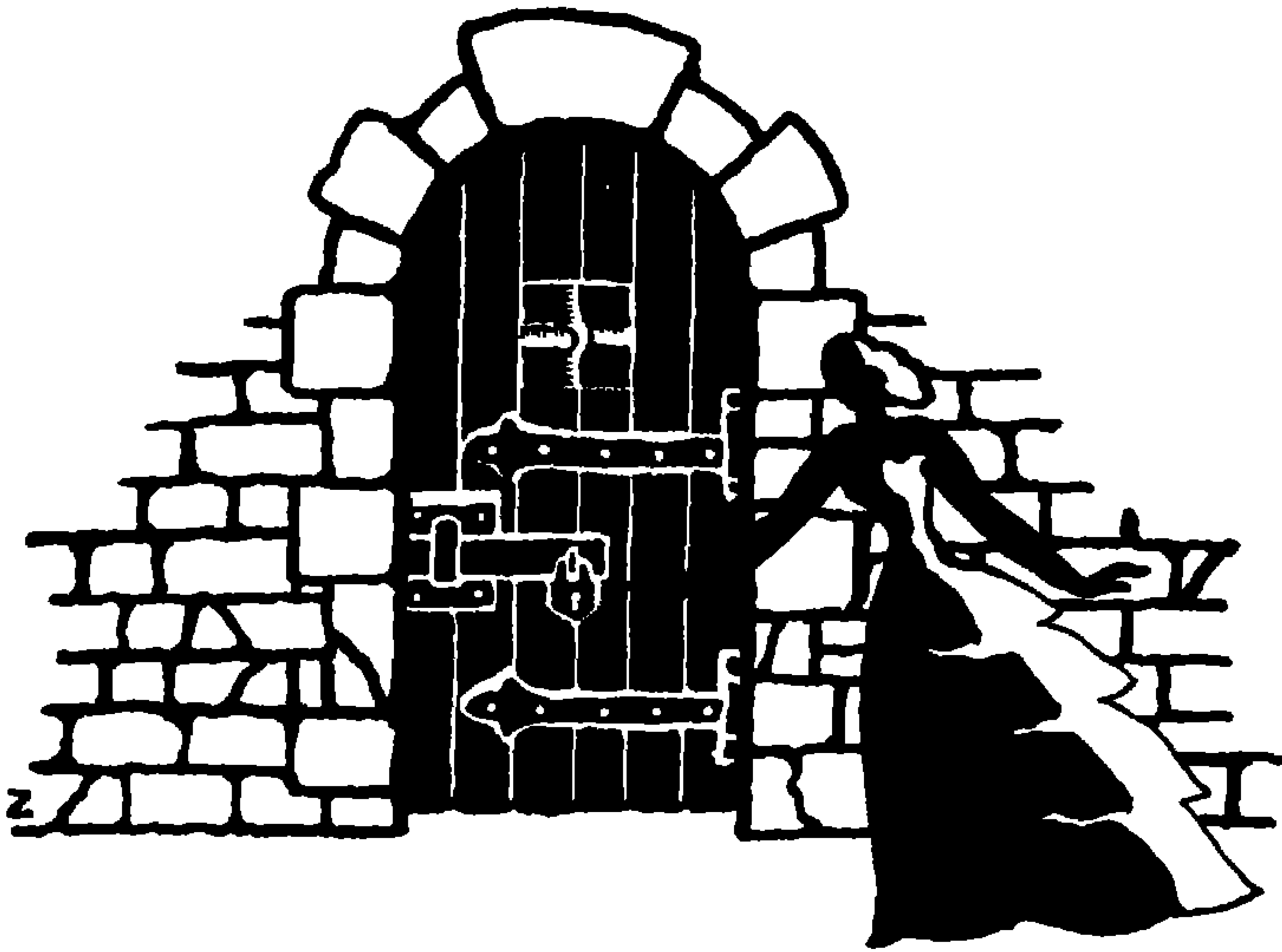
القاهرة فى ٢٤ مايو ١٩٤٧

ستندال

دير پارم

مغامرات حب وسياسة

تعريب عبد الحميد الدواخلي



طبعة
في جزأين



ثمن الجزء
٣٠ قرشاً
البريد للجزأين ٤٠ مليما

مجلد ٦ — عدد ٢٢ يوليو ١٩٤٧

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

أولدس هكسلي

العالم الطريف

تعريب محمود محمود



٢٩٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٠ مليماً



ظهر حديثاً

بروسپير ميريميه

كولومبا

تعريب محمد غلاب



٢٢٨ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً

البريد ١٦ مليما



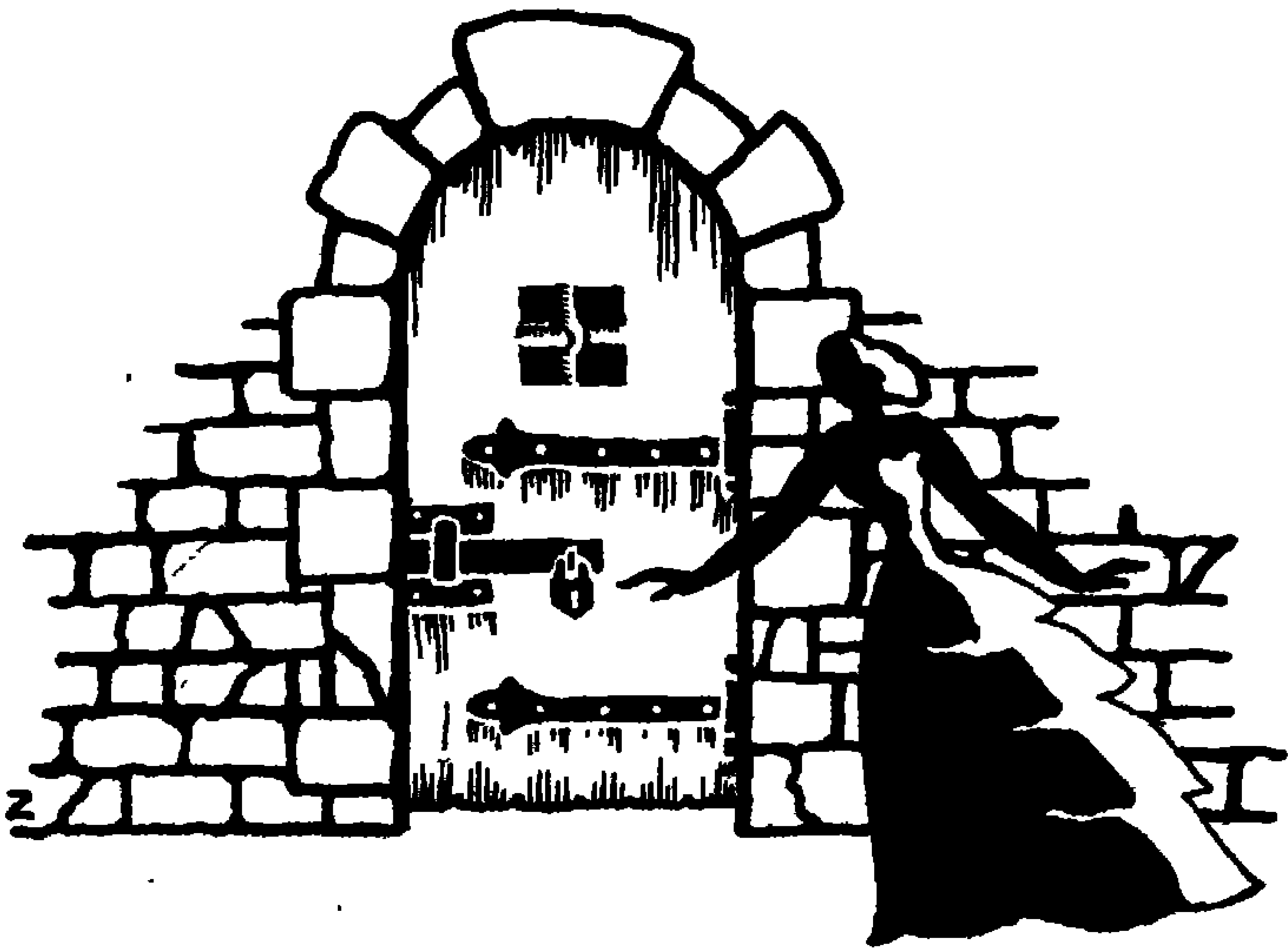
ظهر حديثاً

ستندال

دير پارم

مغامرات حب وسياسة

تعريب عبد الحميد الدواخلي



ثمن الجزء
٣٠ قرشاً
البريد للجزأين ٤٠ مليما



طبعة
في جزأين



٢٥٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



٣٢٠ صفحة

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



على باب زويلة

قصة تاريخية

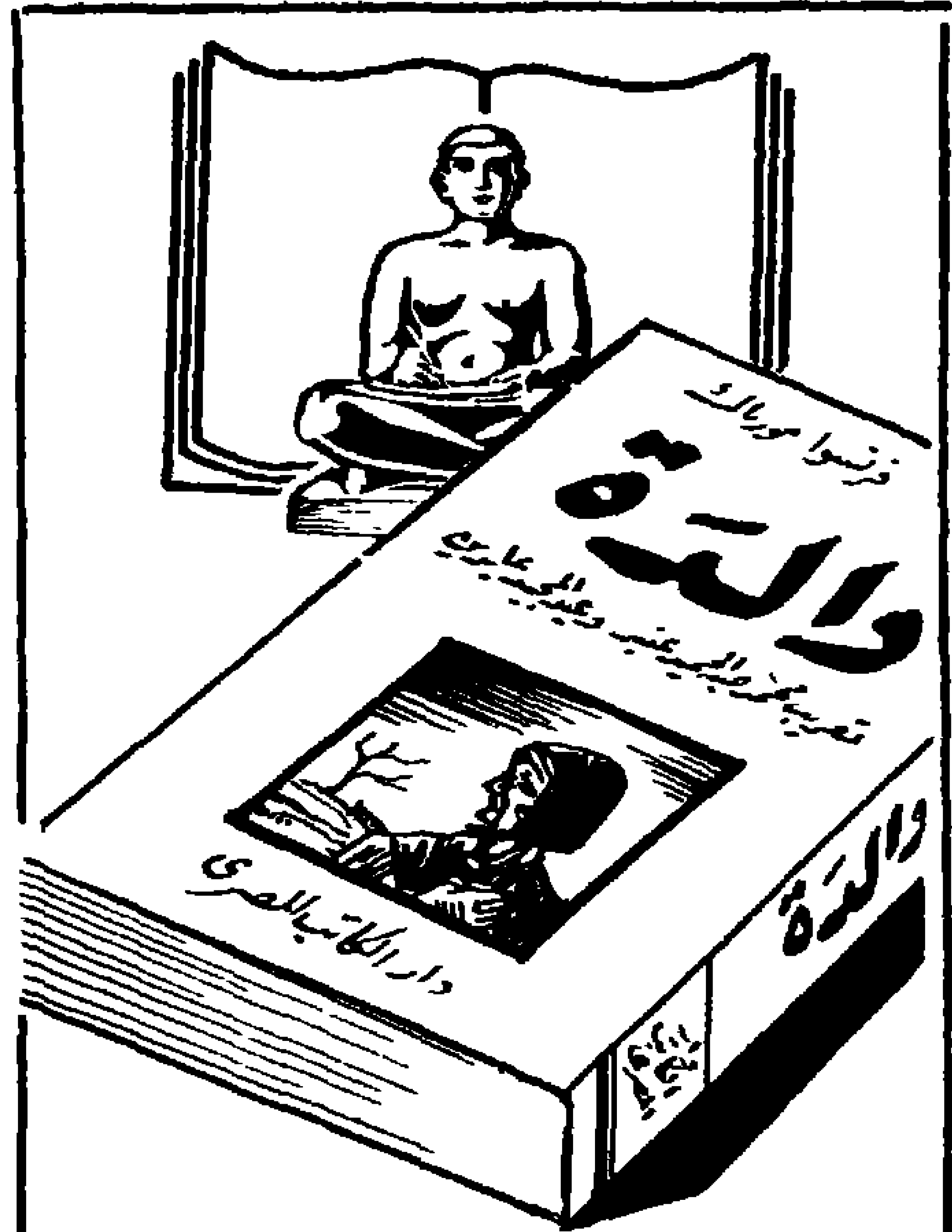
تأليف

محمد سعيد العريان

كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد ، كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين .

٣٥٠ صفحة ، طبعة مزينة بالصور

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٨ مليما)



١٧٥ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

مِن حولنا

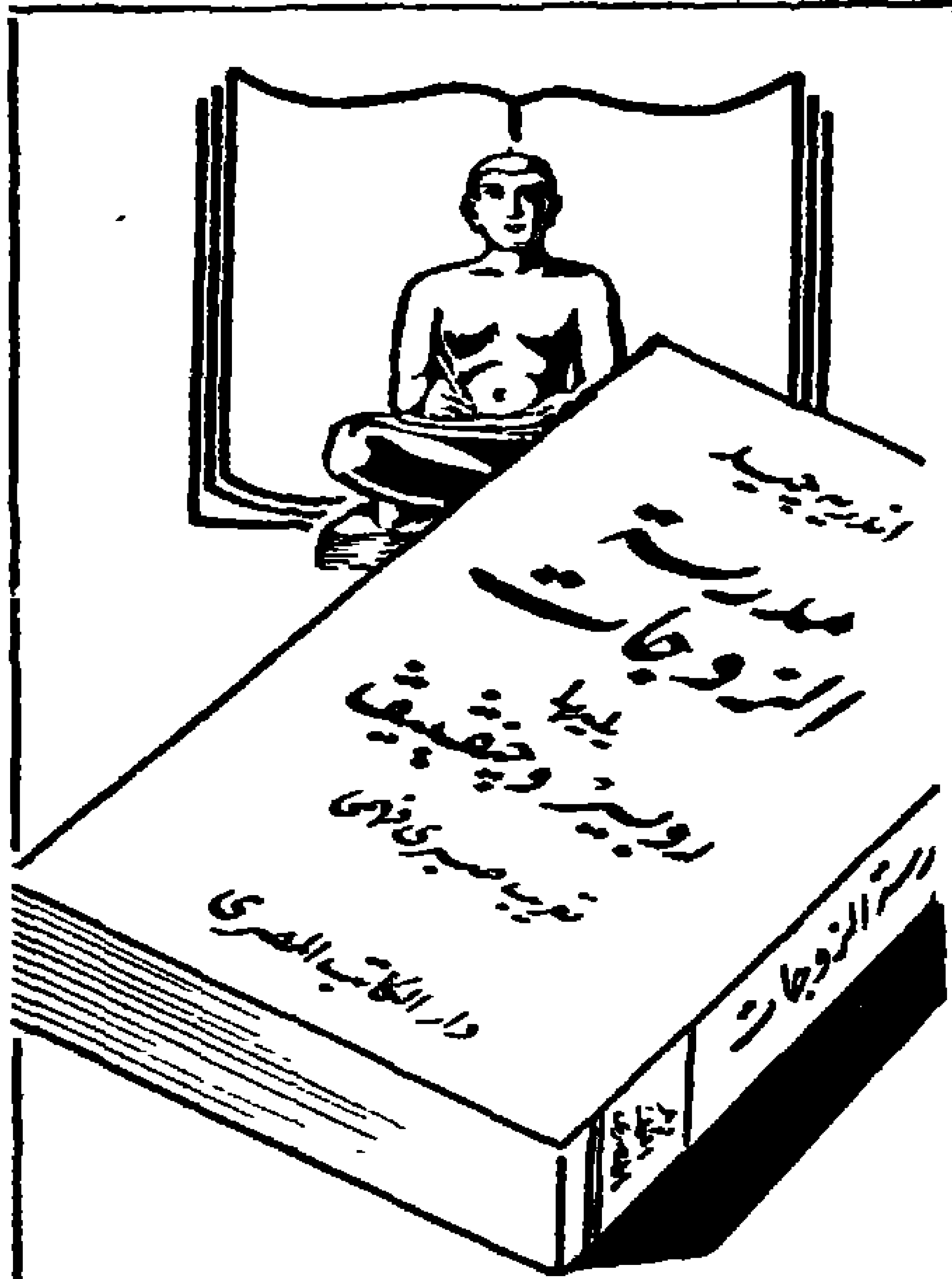
قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

٢٦٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)



مدرسة الزوجات

يليها روبير و جنفييف

تأليف أندريه چيد

تعريب صبرى فهمى

فتاة فى نشوة الحب

ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

٣١٢ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

مسابقة مجمع فؤاد الأول للغة العربية

لتشجيع الانتاج الأدبي لسنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨

قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية توزيع جوائزه لتشجيع الانتاج الأدبي على النحو الآتي :

١ — تخصص مائتا جنيه لأحسن إنتاج من الشعر العربي الفصيح ، سواء أكان مخطوطاً أم مطبوعاً منذ أول يناير سنة ١٩٤٥ إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، على ألا يكون قد سبق تقديمه للمجمع .

٢ — تخصص مائتا جنيه لأحسن قصة وضعت بالعربية الفصحى ، سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة منذ أول يناير سنة ١٩٤٥ إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بشرط ألا تقل القصة المقدمة عن مائتي صفحة من القطع المتوسط ، وألا يكون قد سبق تقديمها للمجمع .

٣ — تخصص ٤٠٠ جنيه للبحوث الأدبية توزع كالآتي :

ا) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « البيئة الأدبية في المدينة أيام بني أمية » .

ب) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « مهيار الديلمي وشعره » .

ويشترط ألا يقل البحث المقدم في كليهما عن مائتي صفحة من القطع المتوسط .

فعلى الراغبين في الحصول على هذه الجوائز أن يرسلوا إلى المجمع نسختين مطبوعتين أو مكتوبتين على الآلة الكاتبة من الموضوع المقدم للحصول على الجائزة ، في موعد لا يتجاوز نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وسيحتفظ المجمع بنسختي الانتاج الفائز .

وللمتبارين أن يذكروا أسماءهم أو يختاروا أسماء مستعارة ، وعليهم أن يكتبوا عنوانهم واضحاً ، ويوقعوا على كل نسخة يقدمونها .

وترسل الموضوعات المقدمة للمباريات بعنوان لجنة الادب بمجمع فؤاد الاول للغة العربية شارع قصر العيني ١١٠ بالقاهرة

مسابقة مجمع فؤاد الاول للغة العربية

لتشجيع الانتاج الأدبى لسنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩

قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية توزيع جوائزه لتشجيع الانتاج الأدبى على النحو الآتى :

١ — تخصص مائتا جنيه لأحسن إنتاج من الشعر العربى الفصيح ، سواء أكان مخطوطاً أم مطبوعاً منذ أكتوبر سنة ١٩٤٧ إلى أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

٢ — تخصص مائتا جنيه لأحسن قصة وضعت بالعربية الفصحى ، سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة منذ أكتوبر سنة ١٩٤٧ إلى أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، على ألا تقل القصة المقدمة عن مائتى صفحة من القطع المتوسط .

٣ — تخصص ٤٠٠ جنيه للبحوث الأدبية توزع كالآتى :

ا) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى فى مصر والشام » .

ب) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « أبى الفرج الأصفهانى وكتاب الأغانى » .

ويشترط ألا يقل البحث المقدم فى كليهما عن مائتى صفحة من القطع المتوسط .

وعلى الراغبين فى الحصول على هذه الجوائز أن يرسلوا إلى المجمع نسختين مطبوعتين أو مكتوبتين على الآلة الكاتبة من الموضوع المقدم للحصول على الجائزة ، فى موعد لا يتجاوز أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، وسيحتفظ المجمع بنسختى الانتاج الفائز .

وللمتبارين أن يذكروا أسماءهم أو يختاروا أسماء مستعارة ، وعليهم أن يكتبوا عنوانهم واضحاً ، ويوقعوا على كل نسخة يقدمونها .

وترسل الموضوعات المقدمة للمباريات بعنوان لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية شارع قصر العينى ١١٠ بالقاهرة .

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL-KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصري



شعبان ١٣٦٦ يوليو ١٩٤٧

السنة الثانية مجلد ٦ — عدد ٢٢

إجـــــازة

لا أريد تلك الإجازة التى كان القدماء من علمائنا يهدونها إلى تلاميذهم فتكون إذناً لهم أن ينقلوا عنهم هذا الكتاب أو ذاك ، مما نقلوا عن غيرهم أو أنشأوا من عند أنفسهم ، والتى ظل المحافظون من علمائنا يتلقونها من أساتذتهم ، و يهدونها إلى تلاميذهم ، ولا سيما فيما يتصل بالحديث ، يكتبونها نثراً فى أكثر الأحيان ، ويتأنقون فينظمونها شعراً بين حين وحين .

ولا أريد الاجازة التى نشأت عن هذا المعنى القديم ، واستعملت فى العصر الحديث ، لتدل على شئ محدث لم يكن مألوفاً فيما مضى من الزمان ، وهو هذا الإذن الرسمى الذى تمنحه الجامعات ، ومعاهد العلم للذين يتخرجون فيها من التلاميذ ، وتبيح لهم به أن يعلموا الأجيال الناشئة ، ما تعلموا من الأجيال الماضية .

لا أريد إجازة الأستاذ القديم لتلميذه القديم ، ولا إجازة التدريس التى تمنحها الجامعات الحديثة للتلاميذ المحدثين ، متأثرة فى تسميتها بالجامعات الأوربية فى القرون الوسطى ، أكثر من تأثرها بسنتنا الموروثة وتقليدنا القديم . ولا أريد الاجازة التى تصدر عن الملوك والأمراء وأشباه الملوك والأمراء ، إلى الشعراء والكتاب ، فتمنحهم الجوائز السنية من الذهب والفضة والجوهر ، ومن الإبل والشاء والطعام والثياب ، و إنما أريد الإجازة بمعناها الشائع الحديث بين الموظفين من جهة ، وبين الطلاب والتلاميذ نقلا عن الموظفين من جهة أخرى . فلم نكن أيام الشباب نطلق لفظ الإجازة على ما يتاح

للمعلمين والمتعلمين من أيام الفراغ ، وإنما كنا نسمى ذلك تسمية أخرى يسيرة واضحة قريبة الدلالة ، كنا نسميها « المسامحة » .

وكنا نعرف المسامحات الطوال حين يقبل فصل الصيف ، وحين يظل شهر رمضان أساتذة الأزهر وتلاميذه أثناء الشتاء ، والمسامحات القصار حين تعود الأعياد وتظل المواسم . وكنا نفهم من هذه الكلمة أن النظام الأزهرى أو المدرسى ، يسامح المعلمين والمتعلمين ، ويأذن لهم فى أن يستريحوا من جهد الدرس ومشقة الطلب وخشونة الحياة ، وفى أن يعودوا إلى أهلهم فى المدن والقرى ، ليجدوا عندهم أياماً فارغة ، تستريح فيها العقول ، وتنمو فيها الأجسام، وتستمتع فيها النفوس بشىء من الرّوح والهدوء . وكانت كلمة المسامحة هذه تؤدى معناها فى قوة ويسر ، لا نكاد ننطلق بها حتى نفهم منها الراحة والدعة والحرية والنوم إلى أن يرتفع الضحى ، لا نستيقظ قبل أن ندعى إلى صلاة الفجر لنشهد الصلاة ونسمع الدروس ؛ والنوم إذا زالت الشمس واجتمعنا حول مائدة الغداء وتفرقنا عنها ، لا نعجل عن ذلك بدرس النحو أو درس البلاغة ؛ والسهر حتى يتقدم الليل فيبلغ نصفه أو يتجاوز النصف ، نسمر أثناء ذلك بما يسلى ويلهى ، ولا نشق على أنفسنا بتلك المشكلات العلمية التى كانت تكلفنا ألوان العناء .

ولست أدرى كيف أعرضنا عن كلمة المسامحة تلك السمحة الحلوة التى يمتد بها الصوت ويشارك فى النطق بها الحلق واللسان والشفتان ، إلى كلمة الإجازة هذه القصيرة التى اجتمع بعض حروفها على بعض فلا يكاد الصوت يمتد بها ، ولا تكاد النفس تجد حين يجرى بها اللسان شيئاً من راحة أو دعة أو هدوء .

وأكبر الظن أن الموظفين هم الذين أدوا هذه الكلمة إلى أبنائهم، فاصطنعوها ليدلوا بها على أيام الراحة والفراغ ، يرون فى اصطناعها شيئاً من ترف ، ويقلدون آباءهم حين يدلون بهذه الكلمة على ما تمنحهم الدولة من أيام الفراغ فى كل عام . ومهما يكن من شىء ، فإنى أريد أن أتحدث عن الإجازة بهذا المعنى الذى يستعملها فيه الموظفون والمحدثون من الطلاب والتلاميذ ، وهو هذه الأيام الطوال أو القصار التى تمنح للموظفين والطلاب والتلاميذ ، والتى نمنحها نحن لأنفسنا حين نكون أحراراً لا من أولئك ولا من هؤلاء ، نرفه فيها على أنفسنا ، ونستريح فيها من عناء الأعمال ، كما يقال .

وواضح أنى إنما أتحدث عن هذه الاجازة ؛ لأنى منحت نفسى إجازة أريح فيها وأستريح من هذا العناء الطويل الثقيل الذى أنفقت فيه العام ، فتعبت وأتعبت ، وشقيت وأشقيت ، وأحسست الحاجة إلى أن أريح نفسى من التعب والإتعاب ، ومن الشقاء والإشقاء ، وأريح الناس الذين يتصلون بى من قرب أو بعد أشهراً أو أسابيع ، فلا أفكر فيهم ولا يفكرون فى ، ولا أشقى بالكتابة لهم ولا يشقون بالقراءة لى ، ولا أضنى نفسى بالاتصال بهم ولا يضنون أنفسهم بالاتصال بى .

وقد يخيل إلى كثير جدا من الناس أن معنى الإجازة مختصر قصير كلفظها، فهى أيام راحة ودعة وفراغ لا أكثر ولا أقل .

ولكنهم لو فكروا قليلا لتبينوا أن معنى الاجازة أوسع وأعمق وأطول من لفظها ، وأنه أدق وأشد تعقيداً مما يظنون . ولو لم يكن أمامنا إلا هذه الألفاظ الثلاثة نحللها ونستقصى معانيها لنفهم معنى الاجازة ، لكان هذا فى نفسه عسيراً شاقا ، فكيف وأمامنا أشياء أخرى أكثر وأعسر من هذه الألفاظ الثلاثة وكلها يحتاج إلى التحليل ، وكلها يحتاج إلى الاستقصاء !

فلنكتف الآن بهذه الألفاظ الثلاثة لا لنستقصى معانيها بل لنلم بهذه المعانى . فالإجازة أيام راحة ، فما عسى أن تكون الراحة ؟ ما موضوعها وما طبيعتها ؟ وما وسائلها وما غايتها ؟

تريد أن تستريح ، فمم تريد أن تستريح ؟ وممن تريد أن تستريح ؟ ألست ترى أن الجواب على هذين السؤالين يختلف أشد الاختلاف ويتفاوت بتفاوت الأشخاص وطبائعهم ، وما يمارسون من أعمال ، وما ينعمون أو يشقون به من ألوان الحياة منذ يسفر الصبح إلى أن يتقدم الليل ؟ أما أنا فاذا ذكرت الإجازة وذكرت أنها أيام راحة لى ، وحاولت أن أعرف مم أريد أن أستريح ، فقد يكون أول ما يخطر لى أنى أريد أن أستريح من ثلاثة أشياء أشقى بها فى مصر شقاء لا يكاد أحد يتصوره أو يقدره : أولها التليفون الذى يصلصل جرسه منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس ، لا ينقطع عن الصلصلة إلا ليستأنفها ، ولا يكف عنها إلا ليعود إليها . وصلصلة جرس التليفون هذه مختلفة متنوعة معقدة ، فيها كثير من العسر، وفيها كثير من الهم ، وفيها كثير من العناء ، وفيها قليل جداً من النعيم الذى تبتهج له النفوس وتطمئن إليه القلوب . فهذه

صلصلة تستلك من السرير استلالا ولما تشرق الشمس ، فاذا قطعتها واستمعت إلى هذا الصوت الذى يدعوك من أقصى الخيط ، كما يقول الفرنسيون ، فقد تقع أذنك أو يقع على أذنك صوت لا عهد لك به ولا أرب لك فيه . صوت مخطئ أراد أن يهدى إلى غيرك خبراً أو شرا ، وأبى سوء الظن إلا أن يغلط به ، فما زال يلح على أداة التليفون ، وما زال الجرس يصلصل حتى أزعجك عن راحتك وأخرجك من نومك ، واستلك من سريرك . ثم تسمع ثم تنكر ، ثم ترد مغضباً أو غير مغضب ، ثم تضع أداة التليفون كما ينبغى لها أن توضع عنيفاً بها أو رفيقاً ، ثم تعود إلى نفسك ، و إذا أنت تجد شيئاً مرًّا بغيضاً يصور الحنق على من أخرجك من نومك الهادئ المطمئن ، وأزعجك عن راحتك واستقرارك ، ويصور خيبة الأمل لأنك لم تجد من وراء هذا كله إلا هباء لا خطر له ولا غناء فيه . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك عن راحتك وبصرفك عن حلم لذيذ ويذود عنك نوماً هنيئاً ، فإذا بلغت أداة التليفون سمعت صوتاً تعرفه فأنبأك فى أكثر الأحيان بما لا تحب وابتدأ لك يوماً منكراً ؛ لأن الناس يبخلون عادة بما يسر من الأنباء ، وتطيب أنفسهم عن الأنباء السيئة يعجلون بها إليك فى غير أناة ولا رفق ولا استحياء . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك ويثقل عليك ويكلفك من المشقة فنوناً ومن الجهد ألواناً ، حتى إذا سمعت لصوت من دعاك ضقت بالدنيا وضاقت الدنيا بك ؛ لأنك تجد نفسك بإزاء رجل سخيف يسألك عن شئ سخيف أو يحمل إليك نبأ سخيفاً . و إذا ابتدأت هذه الصلصلة المختلفة المتنوعة فهيهات أن تسكن أو تهدأ أو تقطع ، و إنما هى متصلة ملحة ، حتى تصبح جلجلة لا صلصلة، وحتى تبغض إليك الحياة والأحياء وما حولك من الأشياء .

ولست أدرى أحاول بعض الناس أن يقارنوا بين اصطناع التليفون فى مصر واصطناعه فى غيرها من البلاد . ولكن الشئ الذى أحققه هو أن أهل القاهرة خاصة يسرفون على أنفسهم وعلى الناس فى اصطناع التليفون إسرافاً شديداً ، لا يرفق أحد منهم بنفسه ولا يرفق أحد منهم بغيره ، لا يفرقون بين العجلة والريث ولا بين ما ينبغى أن يؤدى من الرسائل فى سرعة وما يمكن أن ينتظر به إلى وقت يقصر أو يطول . والمصريون أصحاب فصاحة ولسن وفيهم غرور وعجب . وهم يحبون أصواتهم ويحبون ألفاظهم ويحبون ما يصدر عنهم من قول أو عمل . وهم إذا بدءوا الحديث لم يعرفوا كيف يفرغون منه . وهم لا يفرقون بين الحديث

الذى يسوقونه إليك وجهاً لوجه والحديث الذى يسوقونه إليك من أقصى الخيط . وهم يؤمنون بأنفسهم وبحقوقهم وبمنافعهم وبجدهم ولعبهم ، ولايكادون يؤمنون لأحد غيرهم بشئ من ذلك.وهم من أجل ذلك لا يقدرون أن التليفون أداة عامة قد أنشئت لينتفع بها الناس جميعاً لا لينتفع بها إنسان بعينه دون غيره من سائر الناس . وهم من أجل ذلك لا يقدرون أن التليفون أداة قصد بها إلى التيسير والسرعة . فلا ينبغى أن تستخدم إلا عند الضرورة الملجئة وإلا أقصر وقت ممكن . وهم من أجل هذا كله يتحدثون بغير حساب ويطيلون فى غير رفق ، لا يعنيهم أن يصدوا غيرهم عن التليفون ، ولا يعنيهم أن يشقوا عليك بحديثهم الطويل المتصل ، حسبهم أن يقولوا وأن يحسوا أنك تسمع لما يقولون ، وهم لا يرون وجهك حين يربدّ ، ولا يرون جسمك حين يضطرب ، ولا يرون ماتدفع إليه من حركات الغيظ والضيق ؛ فهم يقولون ويقولون ، وكل شئ يدعوهم إلى القول ، وكل شئ يدعوهم إلى إطالة القول . وكذلك يصلصل التليفون منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس. ولولا أن النوم فرض محتوم على الناس جميعاً لكان التليفون وإلحاح المصريين فى اصطناعه مصدراً خطيراً من مصادر الجنون ، وهو على كل حال مصدر خطير من مصادر اضطراب الأعصاب .

فاذا ذكرت الراحة التى أطمع فيها أو أطمح إليها ، فقد يكون أول شئ أفكر فيه هو صلصلة التليفون . وشئ آخر أفكر فيه إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ، وهو هذه الزيارات المفاجئة التى تصب عليك صبًّا بغير حساب وفى غير تقدير وعلى غير إيذان بها وانتظار لها . فأنت متى عنيت من قريب أو بعيد بالحياة العامة فلست ملكا لنفسك ولست ملكا لأهلك ولست ملكا لعملك؛ وإنما أنت ملك للشعب كله، يدبر أمرك كما يريد لا كما تريد، وعلى مايشتهى لا على ما تحب. وليس بالشئ المهم ولا بالشئ ذى الخطر أن تكون رجلا مثقلا بالأعباء التى تتصل بمصلحتك ومصلحة الناس ، أو أن تكون رجلا محبًّا لهذا اللون أو ذاك من ألوان النشاط تريد أن تفرغ له وتعكف عليه ، وإنما المهم كل المهم والخطير كل الخطير هو أن تكون رجلا سمحاً سهلا مفتوح الباب مؤذب الخدام ، لاترد ملما إن ألم ولاتمتنع على زائر إن زار . وقد يكون أظرف شئ فى هذه الخطوب أن يسعى إليك الرجل لم تعرفه قط ولم تتصل أسبابك

بأسبابه ، وليس بينك وبينه مايدعو إلى اتصال الأسباب ، ولكنه قرأ لك كتاباً أو جزءاً من كتاب أو فصلا فى مجلة أو مقالا فى صحيفة أو استمع لبعض أحاديثك فى الراديو أو سمع الناس يتحدثون عنك ، فأحب أن يراك وأن يجلس إليك ساعة من نهار أو من ليل ، لم يؤامرك فى ذلك ولم يشاورك ، وليس يعنيه أن تكون الساعة ملائمة أو غير ملائمة ، وإنما يعنيه أن يراك ويقول لك ويسمع منك ولا عليه بعد ذلك أن يضيع وقتك أو يفسد عملك ، فذلك آخر مايفكر فيه . والغريب أن الناس الذين يشقون عليك ويكلفونك هذه الألوان من الجهد ولا يحسبون لوقتك ولا لعملك حساباً هم الذين يلحون عليك فى أن تكتب فى كل يوم مقالا وفى كل أسبوع فصلا وفى كل شهر كتاباً ، فان لم تفعل فأنت مسرف فى الكسل بخيل بالأدب غارق فى البخل إلى أذنيك . وإياك أن تجمع لهم فصولا متفرقة وتنشرها فى سفر مستقل ، فانهم لاينتظرون منك ذلك ولا يرضونه لك ولا يرضونه لأنفسهم ، وإنما هم ينتظرون منك أن تقدم إليهم فى كل يوم شيئاً جديداً مبتكراً ، وألا تقرئهم أثراً من آثارك مرتين مرة فى الصحف والمجلات ومرة أخرى فى الكتب والأسفار .

هم إذن يضيعون وقتك ويحاسبونك على هذا الوقت الذى أضاعوه ، وهم على ذلك لايقدرون أن للجهد الإنسانى غاية يقف عندها ، وأن الوقت الضائع لاسبيل إلى استئنافه ، وأن الكاتب محتاج إلى أن يقرأ فيكثر القراءة ، وإلى أن يبحث ويحسن البحث ، وإلى أن يفكر ويطيل التفكير ، لينتج فيجيد الانتاج .

هم لايقدرون ذلك ولا يفترضونه ، وإنما ينظرون إليك كما ينظر الطفل الساذج إلى أبيه يحسبه قادراً على كل شئ فلا يتردد فى أن يطلب إليه كل شئ .

فأى غرابة فى أن أذكر هؤلاء الزائرين المفاجئين إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ؟ وشئ ثالث أذكره مغتبطاً به وأفكر فيه مبتهجاً له حين أمنح نفسى إجازة وألتمس شيئاً من راحة ، وهو أنى سأفلت وقتاً طويلا أو قصيراً من الكتابة فيما لا أحب أن أكتب فيه ، ومن العناية بما لا أحب أن أعنى به . والناس لا يقدرون ما يتعرض له الكاتب من الشر والنكر والشقاء من هذه الناحية . فالكاتب المصرى قادر بطبعه عند المصريين على أن يكتب فى كل شئ ، وعلى أن يلم بكل موضوع ، وعلى أن ينتج فى كل لحظة من لحظات الليل

والنهار . الناس كلهم محتاجون إلى الراحة إلا هو ؛ فإن الراحة لم تخلق له كما أنه لم يخلق لها ، كما أن التعب لا يمكن أن يجد إليه سبيلا . والناس كلهم ميسرون لما خلقوا له إلا الكاتب فانه ميسر لكل شئ لأنه خلق لكل شئ . وما ينبغى أن تقول لأصحاب العلم إنى صاحب أدب فلا أستبيح لنفسى أن أقدم كتاباً فى العلم ، ولا أن تقول لأصحاب السينما إنى لا أعرف من أمر السينما شيئاً فلا أستطيع أن أكتب عما يتصل به اتصالا قريباً أو بعيداً .

لاينبغى أن تقول شيئاً من ذلك إذا كنت كاتباً ؛ لأنك بحكم صناعتك قادر على أن تكتب فى كل شئ، وينبغى أن تكتب فى كل شئ . والناس لايعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل أو الحديث أو المقدمة رفقاً ولا ليناً ولا مياسرة ، وأكاد أملى ولا حياء . فهم يطلبون ويطلبون ويلحون ويلحون، فاذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب وتشفعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته رداً حتى يبغضوا إليك الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ويوشكوا أن يزهدوك فى الحياة .

وربما يتجاوز الأمر هذا الحد إلى حدود أخرى غير معقولة ولا منتظرة. فالناس يعرفون رأيك فى السياسة ، وأن هواك مع هذا الحزب أو ذاك ، ولكنهم لايترددون فى أن يطلبوا إليك أن تكتب حيث لا تحب أن تكتب . وهم يقولون لك فى ابتسام ساذج : إنا لانطلب إليك أن تقول غير ماترى ، وإنما نطلب إليك أن تكتب ما تشاء ، أكتب فى الأدب فالأدب فوق السياسة وفوق الأحزاب، ليس له وطن فأحرى ألا تكون له صحيفة ولا حزب . وكذلك تنفق نهارك معرضاً لهذه المطالب التى لاتنقضى والتى لاتعرف الرفق . فاذا ذكرت الصحف اليسيرة العابثة فحدث عن إلحاحها عليك وتحرشها بك ولا تخش مبالغة ولا إسرافاً . وأكاد أعتقد أن الله إنما خلق التليفون ليتيح لكتاب الصحف اليسيرة العابثة أن يمطروا عليك وابلا غزيراً من الأسئلة لاينقضى، وليس بينك وبين محدثك سبب وليس لك أمل فى أن يكون بينك وبينه سبب، ومع ذلك فيجب أن تستجيب للتليفون إذا صلصل جرسه ، وأن ترد على محدثك بعد أن تسمع سؤاله الغريب ، واعتذر ما شئت أن تعتذر ، فلن تخلص من إلحاحه إلا إذا خرجت عما ينبغى لك من الأدب وحسن المجاملة . وليس من المهم أن يكون لديك من العمل ما هو خليق أن يشغلك عن التليفون وعن الزيارة

وعما يحمل التليفون والزيارة إليك من أسئلة لا رأس لها ولا ذيل ، و إنما المهم أنك رجل قد اصطنع الكتابة واحترف الأدب ، فنزل عن نفسه للشعب أولا وللصحف والمجلات ثانياً ، و إذا لم يتح له أن يرد على أصحابها ومحرريها فلا أقل من أن يسمع لهم .

ومن طرائف هذا الباب أن أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد انتهزوا فرصة حياتنا السياسية فى هذه الأيام الأخيرة ، فطاردوا أصحاب السياسة من الوزراء وأشباه الوزراء ومن الرؤساء وأشباه الرؤساء ومن الزعماء وأنصاف الزعماء ، وما زالوا بهم حتى أنزلوهم على حكمهم . فهم يلمون بدورهم إذا أصبحوا ، ويلمون بدورهم إذا أمسوا ، ويلحقون بهم فى أنديتهم حين يرتفع الضحى أو حين يقبل المساء ، يلقون عليهم الأسئلة وينتزعون منهم الأجوبة ، وينشرون ذلك فى صحفهم متنافسين فيه متهالكين عليه . فاذا سعوا إليك أنت أو تحدثوا إليك بالتليفون وأحسوا منك إباء وامتناعاً كبر ذلك عليهم وأنكروا أن يستجيب لهم الباشوات من أعضاء نادى محمد على وأن يمتنع عليهم كاتب لم يبلغ الوزارة وليس يطمع فى الوزارة ، ولم تتح له الزعامة وليس يطمع فى أن يكون زعيما . فأى غرابة فى أن أفكر فى هذا اللون من العناء البغيض الثقيل إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها .

والحياة فى مصر منذ أثيرت أزمتنا السياسية شقاء كلها بالقياس إلى الرجل المثقف إن كان له قلب أو حظ يسير من العناية بالشؤون العامة . فهو يشارك مواطنيه قبل كل شئ فيما يجدون من شقاء وما يداعبون من أمل وما يحتملون من ألم . وهو بعد ذلك حريص على أن يحسن العلم بما يقع حوله من الأحداث وما يلم بالناس حوله من الخطوب ، و بما يكتب وما يقال فى تلك الأحداث وهذه الخطوب . وهو إذن مضطر إلى أن يقرأ سخفاً كثيراً ، و إلى أن يسمع سخفاً كثيراً ، و إلى أن يحتمل سخفاً كثيراً ، ليس له من ذلك بد إلا أن يكون رجلا قد قسا قلبه وغلظت كبده وآثر نفسه بالسلامة والعافية ، واعتزل مواطنيه وازدرى مايصيبهم من الكوارث والنازلات .

وهو إذا أصبح مضطر إلى أن يتجرع صحفاً أربعاً أو خمساً ، و إذا أمسى مضطر إلى أن يتجرع مثل ذلك ، و إذا دار الأسبوع مضطر إلى أن يتجرع فى كل يوم صحيفة أو صحيفتين من هذه الصحف التى تقصد إلى المزاح ولكنها

تمعن بمزاحها فى الجد إمعاناً خطيراً فى كثير من الأحيان . ثم هو إذا لقى الناس مضطر إلى أن يسمع منهم ويقول لهم. وويل لعقله وقلبه مما يسمع! وويل لعقله وقلبه مما يقول ! وهو بفضل هذا كله مصروف عن العمل المنتج والقراءة الممتعة والعناية بما يغذو العقول والقلوب ، فهو يبدأ يومه بالسخف ، ويقضى يومه فى السخف ، و يختم يومه بالسخف ، وهو سعيد إذا لم ينغص عليه السخف راحة النوم ولذة الأحلام .

أليس من الطبيعى أن أفكر فى هذا كله إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها، وأن أبتسم لهذه الأيام التى يمكن أن أقضيها دون أن أقرأ الصحف مصبحاً وممسياً ، ودون أن أتحدث إلى الناس أو أسمع أحاديث الناس عن مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وما يحيط بهما وبنا من الظروف !

كل هذا ولم أذكر العمل الأساسى الذى أقيم حياتى عليه ؛ لأنى لا أجد فى هذا العمل جهداً ولا مشقة ولا عناء ، و إنما أجد الجهد والمشقة والعناء فى أنى مصروف عن هذا العمل على شدة ظمئى إليه وكلفى به،وعلى كثرة دعائه لى و إلحاحه على.فأنا أشبه الناس بالمسافر الذى يكاد قلبه يتقطع من الظمأ والماء بين يديه عذب صفو زلال . ولكنه لايستطيع أن يدنى منه شفتيه ..

فاذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها فانما أذكر راضى النفس مطمئن القلب مبتهج الضمير أن هذه الراحة قد تتيح لى شيئاً من هذا التعب الحلو الذى أتحرق كلفاً به وشوقاً إليه . وقد يصدقنى القارئ أو لا يصدقنى ولكنى أعلم أنى أنفقت أيام السفينة عاكفاً على قراءة كتاب فى حياة عثمان لا صلة بينه وبين الراحة والدعة والفراغ ، وما أعرف أني استمتعت بشئ طول هذا العام كما استمتعت بهذه القراءة التى استطعت أن أفرغ لها دون أن تصرفنى عنها صلصلة التليفون أو الزيارة المفاجئة أو الأسئلة التى لا غناء فيها أو قراءة السخف السياسى والمشاركة فيه .

أترى إلى هذا النوع من معانى الراحة كما عرضته عليك فى هذه السذاجة التى لا تكلف فيها أنه معنى إضافى مقصور على أو يوشك أن يكون مقصوراً على ؛ فغيرى من الناس يذهبون فى الراحة غير مذهبى ويبتغون بها غير ما أبتغى، وينتظرون منها غير ما أنتظر، تتقارب آراؤنا وأهواؤنا فى ذلك وتتباعد، ولكنها تختلف على كل حال باختلاف أمزجتنا وطبائعنا وآمالنا وما نسعد أو نشقى به من ضروب الحياة .

فاذا ذكرت الدعة فأمرها فى ذلك كأمر الراحة يختلف معناها باختلاف طلابها ؛ فليست الدعة عندى ترفاً ولا شيئاً يشبه الترف ، وأكاد أقطع بأنى أجد من الترف فى دارى بالقاهرة ما لا أجده بل ما لا أجد قريباً منه فى أى مكان آخر من الأرض ، وإنما الدعة التى أطمع فيها وأطمح إليها حين أمنح نفسى الإجازة من عام إلى عام هى التخفف من أثقال التكاليف التى تفرضها حياتنا اليومية المنظمة ، هى التخلص من العادات المألوفة والنظم المقررة الملحة التى تلقاك إذا خرجت من نومك مع الصبح وأقبلت على طعامك تصيب منه على نحو لا يتغير أو لا يكاد يتغير ، ثم على ثيابك تلبسها على نحو لا ينبغى أن تحيد عنه قليلا ولا كثيراً ، ثم على مكتبك ثم على مكانك فى هذا المكتب ، ثم على عملك فى هذا المكان ، ثم على مايلم بك من هذه الأحداث المتشابهة التى تكاد تتنبأ بها قبل أن تنسل من سريرك ، وتكاد تحدد لها أوقاتها من النهار أو من الليل لا يفاجئك إلا مايكون من صلصلة التليفون وزيارة الزائرين ؛ وأنت مع ذلك قد قدرتها وحسبت لها حسابها ؛ لأنها أصبحت جزءاً من حياتك وقطعة من سيرتك لا سبيل إلى أن تخلص منها أو تتخفف من أثقالها. هذه الحياة المنظمة المضطربة التى تطرد ولكنها لا تخلو مع ذلك من الأمت والاعوجاج والنبو هنا وهناك ، والتى تفرض نفسها عليك من أول العام إلى آخره ، قد قدرت نفسها ودقائقها تقديراً مفصلا دقيقاً مضنياً ، هذه الحياة هى التى تضيق بك أو تضيق بها ، أو تبادلك ضيقاً بضيق حين يتقدم العام وما تزال بك حتى تعجز عن احتمالها ، وما تزال أنت بها حتى تعجز هى عن احتمالك . فاذا بلغ العام آخره أصبحت أنت مجهداً مكدوداً لا تقدر على شئ ، وأصبحت هى فارغة سخيفة لا تصلح لشئ ، وأصبحت الدعة هى هذا الشعور الذى يلقى فى روعك أنك فارقت هذه الحياة وأنها فارقتك ، وأن كليكما قد تخفف من صاحبه إلى حين .

كذلك أفهم الدعة ، وعلى هذا النحو أطمح فيها وأطمع إليها ، ولا علىّ بعد ذلك أن تثقل الأعباء أو تخف ، وأن يغلظ العيش أو يلين ، إنما قصاراى أن أتخفف من هذا الثقل المفروض الذى لا محيد عنه فى مصر ، وأن أحتمل ثقلا غيره ، قد يكون أشد منه تعنية وإضناء ، ولكنه ثقل آخر يصور حياة أخرى ويتيح للشخصية أن تجدد نفسها على نحو ما وهذا يكفى .

فاذا أضفت إلى هذا أن من الجائز أن تتيح لك الأيام أثناء الإجازة متعة

فنية هنا أو هناك فتقرأ كتاباً كان من الممكن ألا تقرأه ، وتقرأ هذا الكتاب رغبة فى قراءته لا أداء لواجب ولاوفاء بوعد ولا تأهباً لكتابة فصل ، وتشهد هذه المسرحية أو تلك،وتسمع للموسيقى هنا أو هناك،وتلقى هذا الأديب أو ذاك من الذين تسمع عنهم وتقرأ لهم ويحول بعد الشقة بينك وبين لقائهم — أقول إذا أضفت إلى هذا أن الأيام قد تتيح لك أثناء الراحة شيئاً من هذا المتاع فقد بلغت الدعة أقصاها وانتهت إلى غايتها .

وقد يفهم غيرى من الناس دعتهم على غير هذا النحو ، بل من المحقق أن لغيرى من الناس صوراً من الدعة لعلها لاتخطر لى على بال ، ولكن هذا كله إنما يدل على ماقدمت آنفاً من أن ألفاظ الراحة والدعة والهدوء تدل على معان أكثر وأعسر وأشد تعقيداً مما نظن . والهدوء ماهو أو ما عسى أن يكون ؟ أهو هذا الهدوء المادى الذى تنعم به حين تستقر فى قرية مطمئنة بعيدة عن المدن وعما يكون فيها من الضجيج والعجيج ؟ أهو هذا الهدوء المعنوى الذى تنعم به حين تفرغ لنفسك وتخلو إليها وحين تفرغ نفسك لك وتخلو إليك بعد أن يتاح لكما الإفلات من الحياة المنظمة المطردة ؟ أهو مزاج من الهدوء المادى والمعنوى ؟ كل ذلك ممكن ، بل كل ذلك واقع؛ ولكن الشئ المحقق أنى أجد الهدوء المادى والمعنوى فى كل مكان إلا فى مصر ؛ فقد أراد الله ألا تتيح الحياة لى فى وطننا العزيز الكريم راحة ولا دعة ولا هدوءا .

والناس يذكرون الفراغ حين يذكرون الإجازة وحين لا يذكرونها أيضاً . وقد يكون من الممكن أن نجد لكلمة الفراغ معنى فى معاجم اللغة ، وأن نجد من النصوص الأدبية فى العصور المختلفة ما يبين لنا عن هذا المعنى فى وضوح وجلاء . بل قد يكون من الممكن أن نجد بين أصحاب الترف والثراء العريض مثلاً قوية صادقة تبين لنا عن معنى الفراغ . أما أنا فأعترف ، مع الحزن أو مع السرور لا أدرى ، أنى لم أجد بعد للفراغ معنى أستطيع أن أحققه . وأكبر الظن أن هذا شئ لن يتاح لى إلى آخر الدهر . إنما يتحقق معنى الفراغ حين تستطيع النفس الانسانية أن تخلص من الحس والشعور والتفكير والتقدير والحكم واللذة والألم واليأس والرجاء ، وهى إذا خلصت من هذا كله فقد اشتمل عليها الموت . أتراها بعد الموت قادرة على أن تحقق معنى الفراغ !

فى هذه المعانى كلها وفى معان أخرى كثيرة من أمثالها فكرت حين منحت نفسى إجازة أقضيها خارج القطر كما يقول الموظفون . فالإجازة عندى إذن هى الخروج من حياة إلى حياة ، والتخفف من أثقال لاحتمال أثقال أخرى، والاستعفاء من بعض الواجبات لالتزام واجبات أخرى. فنحن إذن لا نعفى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل فى عمل آخر . فالخير إذن فى أن نعود بالاجازة إلى معناها اللغوى القديم وهو الانتقال من مكان إلى مكان ، والعبور من أحد شاطئى النهر إلى شاطئه الآخر . وإنى لأشهد لقد بدأت إجازتى هذا العام كما بدأتها فيما مضى من الأعوام فلم أشعر إلا بأنى انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن التزام إلى التزام . وإنى لأفكر فى هذه الأسفار الضخمة التى ملأ بها صاحبى حقيبة ضخمة والتى يجب أن تقرأ لعل قراءتها أن تؤدى إلى شئ يستطيع الناس أن يقرءوه ، إنى لأفكر فى هذه الكتب الضخمة وفى صلصلة التليفون التى أيقظتنى صباح اليوم فى باريس كما كانت توقظنى كل صباح فى القاهرة ، وفى المواعيد التى تطلب إلىّ وفى المواعيد التى أعطيها ، فأسأل نفسى أحقاً أنى قد منحتها إجازة تقضيها خارج القطر؟ نعم ! إن الإجازات التى تمنح للموظفين والعاملين والتى نمنحها نحن لأنفسنا بين حين وحين ، ليست إلا إجازات صغارا أو قل إنها إجازات بالاستعارة لا بالحقيقة . فأما الاجازة الكبرى ، الاجازة التى يدل لفظها على معناها دلالة لا تتعرض لشك ولا غموض ، فهى تلك التى لا يمنحها الناس للناس ولا يمنحها الناس لأنفسهم ؛ وإنما يمنحها الله للناس حين يريح منهم الحياة وحين يريحهم من الحياة .

طه حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧

فى أفق السياسة العالمية

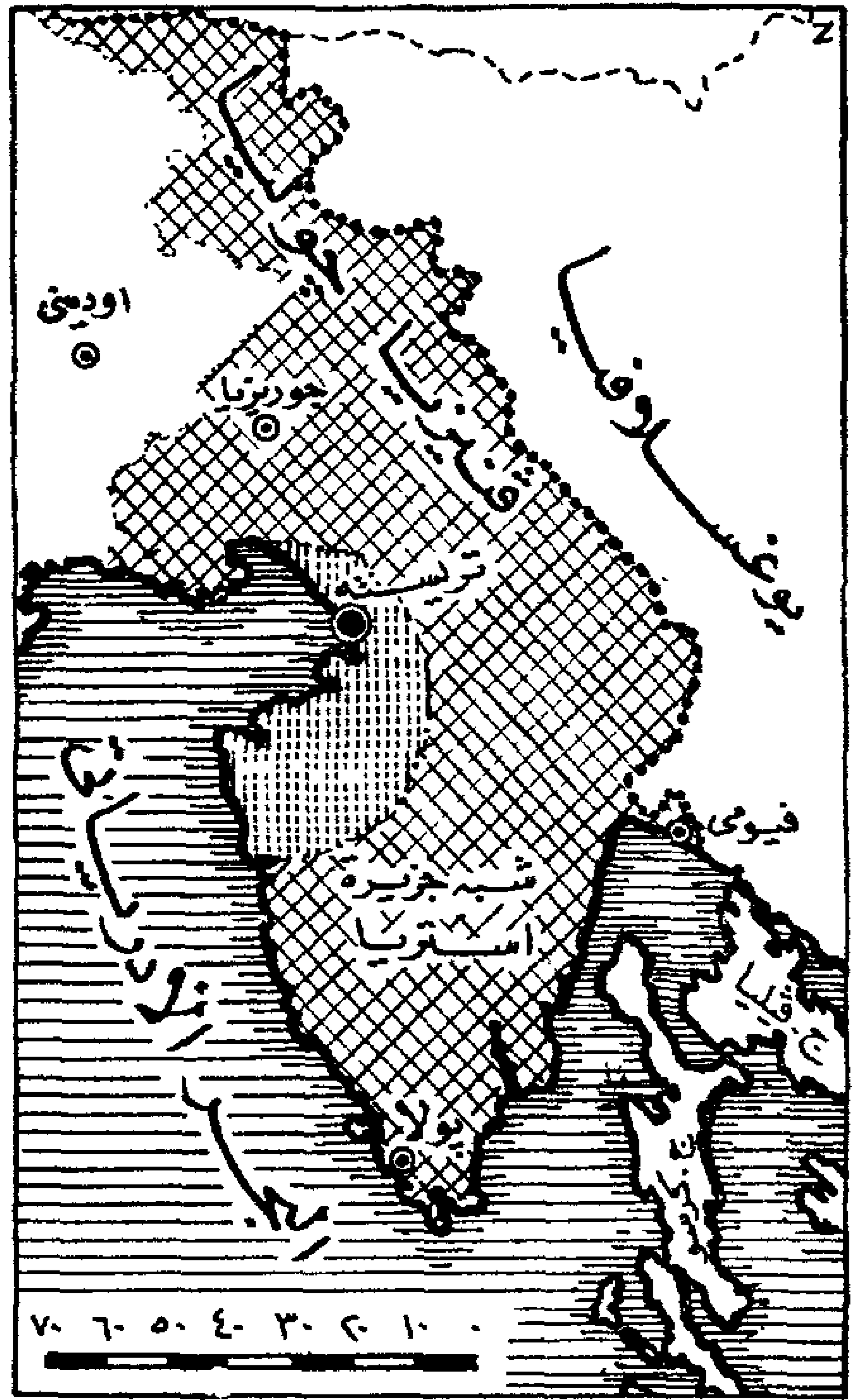
إيطاليا والبحر المتوسط

سخر موسولينى مرة — كما كان يسخر كثيراً من انجلترا — من قول شاعرها «إن الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا أبد الدهر» . فقال تعقيباً على كلمة الشاعر الانجليزى : ماهذا إلا سخف وقول هراء ؛ فقد جمعت روما قديماً بين الشرق والغرب فى دولة واحدة وتحت قانون واحد ، وكان البحر المتوسط هو واسطة هذه الوحدة التى استمرت عدة قرون . وقد كان البحر المتوسط خليقاً بأن يظل يربط بين الشرق والغرب لولا الاختراعات العلمية والكشوف الجغرافية الحديثة التى أوجدت طرقاً أخرى للملاحة وأنشأت أسواقاً جديدة للتجارة ، فخمل شأن البحر المتوسط وقامت فى العالم مدنية غربية جديدة موسومة بطغيان المادة . وكان موسولينى يؤكد أن الحكومة الفاشية كفيلة بأن تبعث فى إيطاليا روحاً جديدة تعيد إلى البحر المتوسط أهميته كعامل يربط الشرق والغرب ، تحدياً لبريطانيا وشاعرها .

والحق أن الحكومة الفاشية فى إيطاليا ما فتئت تعمل وتنشر دعايتها عن البحر المتوسط طوال عهدها ، حتى وقر فى النفوس ورسخ فى أذهان القوم أن البحر المتوسط مقترن باسم إيطاليا وقوتها ، وأنه جدير بأن يسموه فى كتبهم وخطبهم « بحرنا » . ولم يكتف الفاشيون بالاعلان والدعاية المجردة ، بل رسموا سياستهم الخارجية وخططهم الدفاعية على أساس القوة البحرية حتى أصبح للبحر المتوسط منذ العهد الفاشى فى إيطاليا كيان سياسى قائم لم تلبث الدول أن خصته بأكبر نصيب من اهتمامها وجعلت له مكاناً هاما فى خططها الحربية والدفاعية .

وتمتاز إيطاليا بأنها شبه جزيرة تغمرها المياه من جميع جهاتها تقريباً ، وأن البحر المتوسط يلامس سواحلها الشمالية والغربية والجنوبية على حين تطل سواحلها الشرقية على البحر الادرياتى الذى يتصل بالبحر المتوسط بمضيق أترنتو الذى تبلغ سعته ٤٦ ميلا . ولذلك كانت إيطاليا تقول إن حقها فى البحر

المتوسط لا تدانيها فيه أية دولة أخرى ؛ فليس لفرنسا على البحر المتوسط سوى ساحل صغير فى جنوبها . أما انجلترا فليس لها فيه أية حقوق ثابتة إذا ما أسقطنا من حسابنا المصالح الاستعارية التى تدعيها بريطانيا وفرنسا فى أجزائه المختلفة . ومع ذلك فقد ظلت إيطاليا وما زالت إلى اليوم تعتبر نفسها دولة سجينة فى البحر المتوسط ، وسجانوها هم منافسوها من الانجليز والفرنسيين . فبينما نرى لانجلترا وفرنسا منافذ ومسالك تجارية عدة تعبر المحيط الأطلنطى عن غير طريق البحر المتوسط تستطيع كلتاهما أن نلجأ إليها عند الحاجة ، لا تجد إيطاليا أمامها منفذاً آخر غير البحر المتوسط إذا بدا لها أن تولى وجهها نحو الشرق أو الغرب . ولا مندوحة لها إذا أعوزتها الظروف إلى التماس منفذ آخر عن طرق إحدى البوابتين اللتين تتحكمان فى مدخل البحر فإما قناة السويس شرقاً وإما جبل طارق غرباً وكلتاهما تقف على حراستها انجلترا وفى يدها دون غيرها المفتاح . لذلك ركزت إيطاليا الفاشية جهودها وسياستها لتحقيق غرض نهائى واحد هو أن تفلت من ذلك الحصر أو السجن البحرى . ولا يمكنها أن تبلغ ذلك إلا عن طريق التفوق البحرى والتوسع الخارجى .



المنطقة التى ضمتها يوغسلافيا اخيرا من ايطاليا
منطقة تريستة الدوليه

أما القوة البحرية فان موسولينى لم ين عن تذكير الشعب الإيطالى بماضيه البحرى وتفوق جنوه والبندقية فى مياه البحر المتوسط طوال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ، وكان يردد دائماً قوله إن مصير إيطاليا مرتبط منذ القديم بالبحر وسيظل مرتبطاً به ، ولا يحق لأحد أن يزعم أن إيطاليا مقلدة فى ذلك ية دولة أخرى . وقد شفع القول كدأبه بالعمل ، فأقام المصانع الكبرى لبناء

السفن فى جنوه وتريسته ونابلى ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار لايطاليا أسطول كبير به من الغواصات الصالحة للعمل فى البحر المتوسط وفى المحيطات ما يزيد عدده على المائة ، فضلا عن البوارج والمدمرات وسفن الطوربيد والقوارب المسلحة إلى السفن الحربية الصغيرة التى تلائم حاجة الملاحة والهجوم فى البحر المتوسط والتى زادت إيطاليا إنتاجها إلى درجة فاقت كل تقدير .

وقد حاول موسولينى أن يجرب حظه فى البحر قبل أن يكتمل استعداده ، فأمر باحتلال جزيرة كورفو من جزر الأيونيان التابعة لليونان ، ولكن الدول اضطرته إلى التراجع . فقد حدث أن اعتدى اليونانيون فى أغسطس ١٩٢٣ على الرئيس الايطالى للجنة الدولية التى كانت تعين الحدود بين اليونان وألبانيا فاغتالوه ومن معه من الطليان ، ولما تباطأت اليونان فى الاعتذار ودفع الغرامة التى طلبها موسولينى وحدد لها أجلا ، أمر فتحرك الأسطول الايطالى واحتل جزيرة كورفو بالقوة ، فلجأت اليونان إلى عصبة الأمم فتدخل مجلس العصبة فى الأمر وفرض على اليونان أن تدفع التعويض الذى طلبته إيطاليا وقدره ٥٠ مليون ليره إيطالية ، فقبلت اليونان التحكيم وسحبت إيطاليا قواتها من كورفو بعد أن تعلم موسولينى الدرس الأول وهو أن إيطاليا بمفردها لا تستطيع أن تتحدى الدول مجتمعة ما لم تنهض بقواتها إلى مستوى يفوق مستوى فرنسا ويدانى مستوى انجلترا منافستها فى البحر المتوسط .

وعلى ذلك اضطلعت الحكومة الفاشية بحركة الاصلاحات الشاملة التى تناولت جميع المرافق فى إيطاليا ، وفى مقدمتها تقوية أسلحة البر والبحر والجو ، حتى إذا اكتملت معدات الهجوم أو كادت لاحت أمام موسولينى أهدافه الكبرى قريبة المنال ، ليفلت من البحر المتوسط ويتوسع ما شاءت له أطماعه بالسطو على البلاد المستقلة الوحيدة التى تركها الاستعمار الأوربى دون أن يحتجزها لإحدى الدول وهى بلاد الحبشة ؛ حتى إذا ما تم له الاستيلاء عليها أصبحت إيطاليا بمنأى عن خناق البحر المتوسط من جهة وعلى مقربة من بوابة المحيط الهندى وأرض اليمن الدولة الصديقة لإيطاليا من جهة أخرى . وقدر موسولينى فى نفسه أن بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم ستقف لايطاليا بالمرصاد وتعمل جاهدة على إحباط المشروع الايطالى ، ولكنه أمعن فى درس موضوعه واستجلاء العوامل الدولية والسياسية التى تحيط به ما ظهر منها وما بطن ، فأدى به الدرس والتحليل

إلى أن القوات التى تتسلح بها الدول فى الميادين المختلفة لا يقتصر قياسها وتقدير قيمها على حساب عددها وأنواعها ومدى مفعولها ، بل لابد إلى ذلك من حسبان عامل معنوى آخر على درجة عظيمة من الخطورة وهو مقدار استعداد الدولة صاحبة الشأن لاستخدام تلك القوات ومبلغ قوة إرادة الشعب الذى تستند إليه الحكومات فى ذلك الشأن . وقد هداه النظر فى هذه الاعتبارات إلى أن قوات انجلترا سواء فى البحر أو الجو أو البر ليس لها خطر ولا ينبغى أن تدخل فى حسابه ما دامت الحكومة الانجليزية إذ ذاك تبذل غاية جهدها لتفادى الحرب ، وما دام الشعب الانجليزى على اختلاف طبقاته يمقت الحرب ويؤمن بميثاق العصبة ونظرية السلام العام .

وعلى هذا الأساس رمى موسولينى بسهمه وهو واثق من إصابة الهدف ،فتحدى بريطانيا ومعها العصبة ، واعتدت قواته على استقلال الحبشة ووطئت أرضها جيوش إيطاليا بمعداتها وطائراتها وغازاتها السامة مخترقة قناة السويس التى كانت تسيطر عليها بريطانيا ، وتم ذلك كله تحت سمع عصبة الأمم وبصرها .

ومع إجماع بريطانيا وسائر دول العصبة على توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا فلم تقف إلى جانبها من بين الدول المشتركة فى العصبة إلا ألبانيا والنمسا والمجر وإلا ألمانيا التى كانت خارجة على العصبة منذ ١٩٣٣ ،فان إيطاليا لم تتعثر فى طريقها أو تتردد فى مواصلة عدوانها معتمدة على الحالة النفسية التى ذكرناها وعلى ما بدا من خلاف فى الرأى بين انجلترا وفرنسا عقب زيارة الوزير الفرنسى لافال لموسولينى فى روما سنة ١٩٣٥ . وكان تنفيذ العقوبات الاقتصادية على إيطاليا من أقوى العوامل التى استغلها موسولينى فى إثارة حماسة الشعب الايطالى ضد الدول ، وفى تقوية عزمه على المضى فى تنفيذ خططه الحربية مهما كلفه ذلك من تضحية وحرمان .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين إيطاليا والحبشة فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ ولم تستطع الحبشة أن تقاوم طويلا أمام جحافل إيطاليا ووسائلها الحربية الحديثة المشروعة منها وغير المشروعة ، فتم لايطاليا النصر بعد ستة أشهر وأعلن موسولينى ضم أثيوبيا إلى التاج الايطالى ، وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطوراً عليها . ولم يسع الدول بعد ذلك سوى تجفيف عرق الخجل ومواجهة الأمر الواقع فاعترفت واحدة تلو الأخرى بالامبراطورية الجديدة التى أنشأتها إيطاليا فى

شرق إفريقية والتى وقفت فيها على قرب المحيط الهندى تهدد النفوذ الفرنسى فى جيبوتى من الصومال الفرنسى من جهة وتهدد بريطانيا فى السودان المصرى من جهة أخرى .

وما كاد موسولينى يخرج ظافراً من حلبة النزاع الايطالى الحبشى حتى اندلعت شرارة الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الوطنيين يرأسهم الجنرال فرنكو والجمهوريين الشيوعيين تناصرهم روسيا وفرنسا وفئات من المتطوعين الانجليز وغيرهم فرأى موسولينى فى محنة أسبانيا فرصة يغتنمها فيقف عند بوابة جبل طارق حائلا دون نفعها بالاستيلاء على إحدى جزر البليار ، وبذلك تقف إيطاليا حجر عثرة فى طريق مواصلات انجلترا فى البحر المتوسط من جهة وتهدد الخط الحيوى الذى يربط فرنسا بمستعمراتها فى شمال إفريقية من جهة أخرى ، فضلا عما تفيده إيطاليا إذا انتصر الوطنيون الأسبان من كبح جماح الشيوعية فى غرب أوربا وتثبيت نفوذها فى داخل أسبانيا . وكانت ألمانيا فى سبيل مناهضة الشيوعية قد عقدت مع اليابان فى سنة ١٩٣٦ ميثاق مناهضة الشيوعية الدولية المعروف بالأنتيكمنترن **Anticomintern Pact** . والحد من نشاطها فرحبت بالتدخل فى أسبانيا إلى جانب الوطنيين ؛ وكانت هى أيضاً تضمر الافادة بما تستغله من المعادن فى شمال أسبانيا وبتحصين ميناء سبتة المواجه لجبل طارق فى بلاد المغرب الاسبانية . وبذلك استحالت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى ميدان دولى تختبر فيه الدول والحكومات المتنازعة مخترعاتها وأسلحتها وتهيئ فيه لقواتها الفرص للمرانة والتدريب .

وفى الوقت الذى كانت الدول تقرر فيه رسميا عدم التدخل فى الحرب الأهليه كانت الشعوب والحكومات توالى إرسال المتطوعين والمساعدات إلى الفريقين المتحاربين . وقد بلغ ما أرسلته إيطاليا من المتطوعين فى جيش فرنكو نحو ١٠٠,٠٠٠ جندى ، واختصت ألمانيا بارسال الطائرات والدبابات والمدافع والخبراء الفنيين فى مختلف فنون الحرب وصناعاتها ، على حين أنشأت فرنسا فرقة دولية للمتطوعين لمساعدة الجمهوريين ، وسمحت لهم الحكومة باختراق الحدود إلى أسبانيا ، وكانت حكومة السوفيت تزودهم بالطائرات والمعدات . ولكن إيطاليا وألمانيا كانتا أسمى وأسرع فى معاونة فرنكو ؛ ولذلك تفوقت قواته فسقطت برشلونة ثم مدريد بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وانتهت الحرب فى أبريل

سنة ١٩٣٩ وقد أيقنت كل من إيطاليا وألمانيا بتفوق معداتهما على معدات فرنسا وروسيا . ولكن سياسة عدم التدخل والاحتفاظ بالحالة الحاضرة التى أقرتها الدول رسميا قد حرمت إيطاليا تحقيق مآربها فى احتلال إحدى جزر البليار . ووجد موسولينى نفسه مضطراً فى مقابل اعتراف انجلترا بالامبراطورية الايطالية فى الحبشة إلى تحسين علاقاته مؤقتاً مع انجلترا ، فتفاهما ووقعا اتفاق « الجنتلمان » أو اتفاق الرجل الشريف فى سنة ١٩٣٨ واعترفت فيه الدولتان بأهمية البحر المتوسط لكل منهما ، وتعهدتا بأن تحترم كل منهما مصالح الأخرى مع إقرار بقاء الحالة الحاضرة فيه دون تغيير . ولكن اتفاق « الجنتلمان » لم يفد كثيراً ؛ فما لبثت العلاقات بين بريطانيا و إيطاليا أن توترت على أثر مقاطعة إيطاليا لحفلة تتويج الملك جورج السادس ومعاودتها حملة الطعن والتشهير على انجلترا من محطات الاذاعة الايطالية ، وخاصة محطة بارى التى كانت تذيع باللغة العربية . ثم لم تلبث نيات إيطاليا أن ظهرت فيما بدا من الصلة بين هتلر وموسولينى ؛ فقد زار هتلر روما فى مايو سنة ١٩٣٨ ورد موسولينى له الزيارة فى أغسطس من تلك السنة .

ويظهر أن موسولينى قد أعاد إلى ذهنه تجربة سنة ١٩١٥ حين قررت إيطاليا إهمال المحالفة الثلاثية التى كانت تربطها بألمانيا والنمسا والانضمام إلى صفوف الحلفاء ، فوازن فى دخيلة نفسه بين ما تكسبه إيطاليا من انحيازها لهتلر وبين ما تستطيع أن تصيبه من جانب الحلفاء ، فآثر فى النهاية أن ينضم إلى ألمانيا إذ كانت إيطاليا تهدف بعد فتح الحبشة إلى ضم تونس وجزيرة قورسيقه ونيس فى جنوب فرنسا ، والحصول على مقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس بعد أن أصبحت مصالح الامبراطورية الجديدة مرتبطة إلى درجة عظيمة بمصير القناة . ولما كان تحقيق هذه الأهداف يتعارض تعارضاً تاما مع مصالح بريطانيا وفرنسا فى البحر المتوسط فقد رجحت فى نظر موسولينى كفة محور روما — برلين لا سيما أنه كان لا يزال ينقم على انجلترا والعصبة توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، ويتحرق لهفة للانتقام وانتهاز أول فرصة تسنح للقضاء على أعدائه أوعداء نظامه الفاشى . وما كان موسولينى لينقاد بسهولة إلى شهوة الانتقام لو لم تقنعه الحقائق الواضحة لكل ذى عينين بأنه أمام فرصة يحسن اغتنامها ؛ فقد كان يعارض بشدة فى ضم النمسا إلى ألمانيا ، ولكنه حين زار برلين فى خريف

سنة ١٩٣٨ راعه ما رآه من هول الأداة الحزبية الألمانية وما عرفه عن قوة استعداد ألمانيا إلى درجة تقرب من حد الاعجاز البشرى ، فاقتنع اقتناعاً ملك عليه عقله و إحساسه ومنطقه بأن ألمانيا هى حقا فوق الجميع وأنها لا يمكن أن تقهر بأية حال. ومن ثم قبل على مضض اندماج النمسا فى ألمانيا ، وفوّق السهم للمرة الثانية إلى هدف جديد ، فانضم إلى جانب ألمانيا وسايرها فى مناهضة الشيوعية الدولية وفى التشريع ضد اليهود ، ثم فيما هو أهم من ذلك كله وهو الخروج من عصبة الأمم وعقد المحالفة الدفاعية الهجومية مع ألمانيا فى سنة ١٩٣٩ .

وكانت أول ثمرة للمحالفة الجديدة أن سطت إيطاليا على ألبانيا فى يوم الجمعة الحزينة لعام ١٩٣٩ وشردت ملكها ومليكتها النفساء وضمت البلاد إلى التاج الايطالى ، وكانت ألبانيا هى المجاز الذى قررت إيطاليا متى اندلعت شرارة الحرب أن تثب منه على عدوتيها يوغوسلافيا واليونان . ومع أن موسولينى قد التزم الحيدة فى بدء نشوب الحرب لهول الصدمة التى تلقاها باعلان التحالف بين ألمانيا وروسيا ، فانه لم يلبث أن انساق لتنفيذ الخطة الموضوعة . وقد خاب فأله فى هذه المرة وجافاه التوفيق ، إذ تنكر لمبدأ إرادة الشعب فى الحرب وهو المبدأ نفسه الذى استند إليه موسولينى نفسه فى أثناء الأزمة الحبشية فأفلح . فقد كانت كثرة الشعب الايطالى فى هذه الفترة تكره أن تنساق وراء ألمانيا فى حروبها ، وتود لو أن إيطاليا لزمت الحيدة وحافظت على موقفها من الحلفاء ما دامت بأيديهم مسالك البحار والمحيطات حتى لا تتعرض إيطاليا لخطر الجوع والحرمان . ولكن موسولينى أغمض عينيه وأصم أذنيه وكأنما عميت بصيرته وغفل عن كل مايراه ويسمعه وما قد تجره الحرب على بلاده من ويلات ، واغتر بثقة الشعب به و إيمانه بأنه الزعيم الذى لا يمكن أن يخطئ ، فجرفه تيار الحرب وربط مصير بلاده بعجلة آلة الحرب الألمانية ، وانتهز فرصة انهيار فرنسا أمام ألمانيا فى يونيه سنة ١٩٤٠ فهاجمها من الخلف . وبدأت منذ ذلك الوقت محنة إيطاليا وارتفع الستار عن مأساتها الأخيرة .

لقد خان زعيم إيطاليا أمانة السلم والأمن التى كانت فى عنقه لبلاده ، فغامر بمستقبل الأمة التى عبدته والتى أفنى أكثر من ربع قرن فى تجديدها وتنشئتها خلقاً جديداً ؛ إذ أكرهها على دخول الحرب إلى جانب الشعب الذى كان الايطاليون يخشونه و يرهبونه ويضمرون له فى قرارة أنفسهم إلى ذلك مقتاً

شديداً . ولذلك لم يكن غريباً أن تتابع الكوارث الحربية على إيطاليا ، فمن تقهقر أمام اليونان فى البلقان إلى ضياع للامبراطورية الايطالية فى أثيوبيا وشرق إفريقية ثم إلى ارتداد وخذلان وفرار من ليبيا والجبهة الشرقية فى شمال إفريقية .

وقد حاول الألمان فى أول الأمر إصلاح حال حليفتهم ، فلما استعصى العلاج ونفد الصبر وضع الألمان أيديهم على أداة الحرب فى إيطاليا ؛ ولم تمض إلا ثلاث سنوات على دخول إيطاليا الحرب حتى فقدت البلاد تماسكها وتحكم الأجنبى فى مصايرها . ثم جاءت الساعة الحاسمة ؛ فما كاد الحلفاء يعبرون البحر المتوسط من تونس إلى جزيرة بنتالاريا وصقلية حتى زالت الغشاوة التى كانت ترين على أبصار الشعب الايطالى فى السنين الأخيرة . فبدلا من أن يستميت فى المقاومة كما نصح موسولينى ، مد الطليان أذرعتهم لاستقبال مخلصيهم من طغيان الفاشيين ومن النظام الألمانى الصارم ، ووضح للملك ولأعوان موسولينى وللناس جميعاً أن موسولينى قد خسر الموقعة الأخيرة ، فاجتمع المجلس الأعلى للفاشية وقرر فى ٢٤ يوليه ١٩٤٣ بأكثرية تسعة أصوات ضد سبعة أن يتولى الملك قيادة القوات الايطالية ، وكان معنى ذلك إبعاد موسولينى ، وعين الملك المارشال بادوليو Badoglio رئيساً للهيئة التنفيذية لحل الحزب الفاشى وقبض على موسولينى وأبعد الفاشيين من إدارات الحكومة ، وبدأ يفاوض الحلفاء على شروط الهدنة فتقررت فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ وانضم الطليان إلى جانب الحلفاء ، ثم أخذ الحلفاء يزحفون ببطء داخل إيطاليا حتى استطاعوا دخول روما فى يوليه سنة ١٩٤٤ .

وكان الألمان قد خطفوا موسولينى من معتقله بالطائرة . فلما ارتد الألمان أمام زحف الحلفاء الأخير فى الشرق والغرب والجنوب حاول موسولينى الهرب إلى سويسرا ، ولكن مواطنيه الطليان باغتوه وقبضوا عليه وقتلوه فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٥ ومثلوا به شر مثلة . وفى أوائل مايو استسلم القواد الألمان ، فانتهت بذلك الحرب فى ميادين أوربا . وخرجت إيطاليا من الحرب ذليلة مهيضة الجناح منكسة الرأس يلطخ العار جبينها ويغض أبصارها ، لا لانكسارها الحربى فحسب فقد سبق أن انهزم الطليان أمام الأحباش هزيمة منكرة فى موقعة عدوة كما أذاقهم العرب والترك من قبل فى طرابلس وبرقة طعم الهزيمة فى مواقع عدة ،

ولكنهم لم يجازفوا فى مرة من تلك المرات أو يقامروا باسم بلادهم وشرف زعمائهم كما فعلوا فى هذه المرة . نقد أذعنوا أو سلموا قيادهم لموسولينى وكان قويا بهم مع أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه على خطأ فيما جرهم إليه ، وأن دخول إيطاليا الحرب وهى لاتزال مكلومة من حرب الحبشة سينتهى بها حتما إلى الهاوية. ثم لم تكد الهزيمة تكشر عن أنيابها ويتحرج مركز الزعيم المعبود حتى انقلبوا عليه وأنزلوه من حالق فهوى إلى مواطئ نعالهم ، فداسوه وداسوا معه المبادئ التى طالما آمنوا بها ودعوا إليها . وكأنما كان معبود إيطاليا العتيد تمثالا من طين عبدوه فترة من الزمن وأحرقوا من حوله البخور ودقوا له الطبول ، ثم ما لبثوا أن كفروا به فهشموه حتى أحالوه تراباً . على أن إيطاليا التى جالدت خطوب الزمن وصارعت أحداثه آلاف السنين لم تفقد يوماً حيويتها ولم تعدم وسيلة لتلائم بين ظروفها وحاجاتها . فما كاد الحلفاء يسلمون زمام الأمور فى البلاد للهيئة الحاكمة الجديدة حتى بدأ الايطاليون يعوضون ما خسروه فى الحرب من إنتاج وأسواق فأقاموا كثيراً من مصانعهم ، واستعاضوا عن الوقود الذى قل فى أوربا جميعها والذى فقدته إيطاليا بعد ضياع شبه جزيرة استريا باستخدام الكهرباء من مساقط الماء وخاصة فى القسم الشمالى حيث جبال الألب والأنهار السريعة الجريان . وقد أبقت الحرب على كثير من محطات القوى المائية التى أقيمت بكثرة فى العهد الفاشى فلم ينلها عطب يذكر .

واغتنمت إيطاليا فرصة خروج ألمانيا واليابان من ميدان التنافس التجارى فنهضت بانتاجها الصناعى والزراعى ، واستبدلت بمنتجاتها الخامات من بريطانيا وأمريكا ومصر والهند ، ولم يبق مغلقاً أمامها إلا أسواق شرق أوربا ؛ فاذا سويت مسألة التعويضات بينها وبين روسيا انفتحت لها أسواق روسيا والبلقان ، واستطاعت إيطاليا أن تسترد كثيراً مما فقدته بسبب الحرب . وإذا كانت مالية البلاد قد تضعضعت إلى حد الافلاس — إذ بلغ العجز بين الايراد والمنصرف فى سنة ١٩٤٥ أكثر من ١١٥ ألف مليون ليرة كما بلغ الدين الوطنى ٨٥٠ ألف مليون ليرة عدا القروض الأجنبية — فان القرارات الأخيرة بشأن تخفيض قوات إيطاليا المسلحة إلى أدنى حد ممكن سيكون من شأنها أن ترفع عن كاهل البلاد جانباً ثقيلا من التبعات المالية التى كانت ترهق ميزانية البلاد قبل الحرب الأخيرة ، كما سيكون لإبعاد إيطاليا عن مستعمراتها أحسن الأثر فى

تركيز ثروة البلاد وإعفائها من تحمل تبعات الدفاع عنها واستتباب النظام فيها هذا إلى أن الايطاليين الذين يرغبون عادة فى الهجرة من بلادهم قوم فقراء تعوزهم رءوس الأموال اللازمة للتثمير . والتعمير وقد دلت التجربة القاسية فى ليبيا والحبشة على قلة استعداد الطليان لحكم المستعمرات على رغم حسن قابليتهم للاندماج مع الأهالى والعيش على الكفاف . وإذ كانت إيطاليا أول دول المحور استسلاماً وطلبا للصلح والانضمام إلى جانب الحلفاء ، جاءت قرارات الصلح الذى أبرم فى مارس الماضى مع حكومة إيطاليا الجمهورية الجديدة أخف وقعاً مما كان ينتظر . وتنحصر التعديلات والتغييرات الاقليمية التى اقتضاها الصلح فى تصحيح فرنسا لحدودها الشرقية باضافة بعض مساحات صغيرة إليها من الأراضى الايطالية ؛ وقد أصرت فرنسا على ضرورة ذلك عقاباً لايطاليا على هجومها المفاجئ فى يونية سنة ١٩٤٠ ومع ذلك فقد اشترط الحلفاء على فرنسا أن تحترم مصالح الايطاليين فى تلك المناطق ، وأن تحتفظ للطليان بمحطات القوى التى أنشئت بها . وأما جزر الدوديكانيز فقد كانت حجة إيطاليا فى الاستمساك بها بالغة منتهى الضعف ؛ إذ كانت تلك الجزر تابعة فى الأصل لتركيا ، وهى من حيث الجنس واللغة والدين والتقاليد تنتسب إلى اليونان ، وقد تسلمتها اليونان فعلا فى مارس الماضى . وأما مستعمراتها فى إفريقية فقد أرجئ تقرير مصيرها عاماً منذ تاريخ إقرار الصلح مع إيطاليا حتى تستطيع اللجنة التى ألفها الحلفاء أن تدرس الحالة وتقدم مقترحاتها . ولا يزال النزاع بشأنها شديداً بين حكومة اتحاد السوفيت من جهة والحكومات الديمقراطية من جهة أخرى . ويكاد أمل إيطاليا فى استرداد شئ منها يكون فى حكم المستحيل بعد الذى عاناه أهالى المستعمرات من الحكم الفاشى قبل الحرب الأخيرة .

بقيت مشكلة تريستة ومنطقة فنيزيا جوليا وشبه جزيرة أستريا **Istria** وهى الحاجز الذى يفصل بين شرق أوربا وغربها والذى تصطدم فيه مصالح يوغسلافيا بمصالح إيطاليا . وقد كانت هذه المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى مصدر نزاع بين الدولتين ، وقد أصرت يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية على استرداد تلك المنطقة من إيطاليا ، ووجدت من جانب حكومة السوفيت سنداً لها ، فضمت معظم المنطقة ما عدا تريستة التى احتلها الحلفاء ولايزالون بها حتى

الآن ، وقد دعا هذا إلى تحرج الموقف بين حكومات الغرب والشرق . وليس خافياً أن الموقف فى البحر الادرياتى لا يحتمل وجود دولة كبيرة كايطاليا إلى جانب دولة متوسطة كيوغسلافيا ، وأن كتلة الدول الشرقية حريصة على تكبير شأن يوغسلافيا وصبغ المنطقة جميعها باللون الأحمر . و بما أن إيطاليا بحكم تقاليدها وميولها قد اتجهت بسياستها نحو الدول الغربية فقد اشتد النزاع بين الجانبين بشأن تريستة وتقرر فى النهاية أن تكون منطقة دولية محايدة تخدم مصالح أوربا الوسطى جميعا . أما يوغسلافيا فقد وضعت يدها على جزر البحر الأدرياتى وعلى ميناء فيومى وبولا ومنطقة فنيزيا جوليا ، ولم يعد لايطاليا فى البحر الأدرياتى سوى البندقية ثغرها القديم وفيه ستركز إيطاليا الجديدة نشاطها البحرى والتجارى فى البحر الأدرياتى .

وبذلك تكون إيطاليا قد فصت أجنحتها البحرية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ؛ إذ خسرت مستعمراتها فى ليبيا وأرتريه والحبشة ، وضاعت عليها جهود ساستها فى مدى خمسين عاماً أو أكثر ، كما فقدت قواعدها فى جزر الدوديكانيز وفى البحر الأدرياتى . وتقضى معاهدة الصلح أن تهدم تحصيناتها فى جزيرة سردانية وبنتالاريا وغيرها لمعاهدة الصلح ومن الجزر الصغيرة التى كانت فى موقعها من وسط البحر المتوسط تهدد القواعد الانجليزية والفرنسية وتعلن عن قوة إيطاليا فى البحر الذى كانت تدعوه بحرها .

ولكن إذا كانت إيطاليا قد تركت — إلى حين — سياسة البحر المتوسط فان هذا البحر لن يتركها ، وسيظل من أهم العوامل الطبيعية التى تؤثر فى بعثها ونهضتها . وها هى ذى الآن وهى لم تزل فى محنتها تحرص على إحياء صناعة السفن من جديد فتشيدها وتجريها لمنفعة غيرها . وتحاول حكومة الجمهورية الجديدة بكل قواها أن تعيد إيطاليا إلى مكانتها الدولية ، فتتبادل الممثلين السياسيين مع سائر الدول وتطلب الاشتراك فى هيئة الأمم المتحدة ،وتريد أكثر من ذلك أن تنهض من كبوتها فتستأنف العمل على بسط نفوذها التجارى والدينى والثقافى فى منطقة البحر المتوسط دون أن يكون لها فى الوقت الحاضر من النفوذ السياسى أو الحربى مايؤدى بها إلى الهاوية مرة ثانية . وإنها لتفضل وهى فى حالتها الحاضرة أن تنسى ماضيها القريب وتكسب صداقة

الدول الديمقراطية من جهة ورضاء حكومة السوفيت وصاحباتها من جهة أخرى ، وبذلك تطمع أن تكون أداة الوصل بين الشرق والغرب . وإن لدى إيطاليا من قوة رجالها واطراد زيادة عدد سكانها مع ماعرفوا به من الوطنية والكد وقوة الاحتمال والبناء لصفات لو أضيفت إلى تالد مجدهم وموقع بلادهم الجغرافى فى وسط البحر المتوسط لكفلت لهم جميع المزايا التى تؤهلهم قبل مضى وقت طويل إلى اجتياز طور النقاهه سريعاً ، ثم الانخراط فى سلك الدول العظمى .

محمد رفعت

صور وصفية لشخصيات لامعة

عبد العزيز فهمى

كان شأنى مع عبد العزيز فهمى هو شأن كل امرىء مع الكبراء الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس، هؤلاء الذين تتناثر أنباء بطولتهم على الأسماع، وتتعطر بأحاديثهم الأندية والمجالس، وتتجلى صورهم فى الصحف مختلفة الأوضاع. فان تاح لك أن تراهم لمحتهم عبراً فى سيارة، أو خطفاً فى مجتمع. وإن صورتهم التى تتمثل فى الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف ذوات الهالات من نسج الخيال . . .

ظلت علاقتى بعبد العزيز فهمى لا تتجاوز هذا المدى . . .

أعلم أنه أحد ثلاثة، كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة المغتصب . . .

وتتناهى إلىّ تلك الأحاديث النادرة التى تصف مواقفه الرائعة الجبارة فى السياسة والتشريع والقضاء . . .

وأول مرة اجتليت فيها صورة الرجل عن كثب، كانت بدار المجمع اللغوى، فى زيارة لتلك الدار . . .

لمحته على أريكة يجلس جلسة تتوضح فيها الوداعة البالغة، متراخى الأوصال، قليلا على الأريكة شخصه الضئيل . . .

فاسترعى انتباهى منه طول إطراقه، وقد أزاح طربوشه إلى الوراء، كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق!

فناجيت نفسى:

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية لكتابة العربية، ذلك المشروع الذى انبعث من المجمع قذيفة اهتاج لها رجال الفكر فى أرجاء الأمة العربية، وكانت مثار يقظة ونشطة وانبعاث؟ . . .

ووقعت فى يدى نسخة من ذلك الكتاب الذى ترجمه عبد العزيز فهمى

منذ عهد قليل ، ذلك هو « مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى » . . . مجلد ضخم زاخر بخلاصة التشريع فى ذلك الزمن البعيد ، هو آية إعجاز فى دقة التعبير، و إحكام الأداء ، تتجلى فى ديباجة عربية بليغة عليها رونق ورواء . . .

ونمى إلىَّ أنه احتبس فى داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره فى الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ مما أراد فى الشهر الذى أكمل به عامه الخامس والسبعين ، فكأنه يتوج تلك السن المباركة بذلك الجهد العلمى الرفيع !

كنت أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فترف حوالىَّ صورة ذلك الرجل الذى لمحته منكمشاً على الأريكة فى دار المجمع ، غارقاً فى تأملاته ، أشبه ما يكون بفيلسوف هندى من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لا يطيقها إلا الأقلون الأندرون . . .

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم وهم مصور

شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى فى الريف بعض يوم ، فجزت فى طريقى بكفر المصيلحة ، بلد عبد العزيز فهمى . . . فألفيتنى أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة ، محدقاً فى بيت عبد العزيز فهمى الشامخ ، ذلك البيت العتيق الذى هو بقية من دور الأسر العريقة فى الريف ، تلك الدور التى كانت مثابة الآباء والأبناء والحفدة ، كل دار منها كأنما هى وطن يحوى أمة !

ولبثت أتسمع أحاديث الناس ، فاذا هى ألسنة تمجد مآثر الرجل ، وتشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهليها المتصافين . . .

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزراع من أهل منطقته ، يأخذ بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمير والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أياد كريمة لتمدين البلدة وتجديدها بتعبيد طرقها وتوشيتها بالمنازه والمؤسسات ، حتى لقد أضحت «هليوبوليس» الريف ، وأصبح هو « بارون أمبان كفر المصيلحة ! »

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل فى سبيل نشر التعليم بين أبناء بلده ، فإن الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التى نفخ فيها الرجل من روحه ، فانبرت ترسل النور . . .

فى هذه القرية المنزوية بين حواضر الأقاليم ، مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ، فلا بدع أن يقص علينا متحدث رابع أطروفة فكهة ، تلك هى أن الفلاحات يخرجن فى الأصائل إلى النيل ، حاملات جرارهن يستقين ، فإذا ما صدرن عن الماء آيبات إلى الدور ، وقفن فى منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع الصحف ، حتى إذا أهلَّ عليهن برزمته ، تخاطفن منه الصحف فى حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطرن ، وقد أملن على رءوسهن الجرار ، ومضين يروين ظمأهن من أنباء السياسة وشئون البلاد !

أذكت هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى عبد العزيز فهمى جلسة تحية وتعارف . فلما قفلت إلى القاهرة لم يهدأ لى بال حتى رغبت إلى صديق فى أن يضرب لى معه موعد لقاء .

وفى منتصف الثامنة من أمسية يوم ، كنت أنا وصديقى أمام دار الزعيم ، تلك الدار الصغيرة التى ترفعت عن أن تنافس فى ترف القصور . . .

وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة ، ولبثت واقفاً أجيل الطرف حولى ، وقد شملتنى رهبة ومهابة ، على الرغم من سذاجة ما يحيط بى من مظاهر . طابع شرقى محافظ ، مشبع بجو عائلى تشيع فيه الطمأنينة والهدوء . . .

فرحت أهجس :

هنا فى هذا البهو تلاقت شخصيات عظيمة ، واختمرت أفكار حاسمة . . . وإن حيطانه الصوامت لتختزن أصداء ذلك اللفيف من الرعيل الأول الذى كانت خطاه رسما لأقدار مصر الحديثة فى نهوضها السياسى والاجتماعى والعلمى .

هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس ، وإنى لأكاد أجثو من روعة التذكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم يذهب مع الريح !

لم تكد تمضى بضع لحظات ، حتى ارتقينا الدرج إلى عش الزعيم ، فأقبلنا عليه فى حجيرة خشبية نصفها الأعلى نوافذ تنسدل عليها الأستار ، وكان الزعيم جالساً فى ركن خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يديه منضدة بسطت عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه فى لبسة المتفضل : منامة صيفية ، وقلنسوة بيضاء تترامى على مؤخر رأسه . . . وكان لقاؤه لقاء السمح الأريحى فى حفاوة شرقية أصيلة تنشرح لها الصدور . . .

جلست إليه دقائق ، مستغرقاً فى صمتى ، شاخصاً ببصرى ، لا أريم وجه ذلك الرجل الذى تتضوأ شيخوخته أنيسة محببة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تتدفق من بين شفتيه فى عذوبة وصفاء . . .

وراعنى أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس . حتى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجاع واستجام ، فخشيت أن أكون قد لقيته فى وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديقى النظر أسائله ، فطمأننى بأن زعيمنا قد ألف هذه المجاهدة ، فليس عليه من ضير . . .

وأسرعت إلينا أقداح القهوة ، وكشفت علبة اللفائف ، وما هى إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض ، وجرى الحديث طلقاً زاخراً لا لغو فيه ولا فضول . فلبثت أستمسك بالاصغاء ، مؤثراً ذلك السكوت الذهبى الذى ينيح لى أن أودع سمعى غوالى الحديث . . .

حديث عبد العزيز فهمى صورة واضحة من شخصيته : خلابة فى المنطق ، ونصاعة فى العرض ، وصدق فى اللهجة . . .

إن الكلمات لتندفع على شفتيه مشبوبة الحيوية تتوهج ، وإنك إذ تستمع إليه لتستشعر خفوق قلبه وفورة دمه ، فيتجلى لك مظهر رائع من حرارة الايمان ، ونقاء الطوية ، وصراحة الرأى . . .

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض فيه من الحديث، لكى يستبين لك جماع الخصائص النادرة التى عرف بها فى حياته العامرة . . .

للرجل افتنان فى الحديث يتيح له أن يجوز بك آفاقاً رحاباً فى عالم الفكر ، وله عون أى عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة ، وذكاء عبقرى لا ترده حدود ، ونزعة إلى الاطلاع تعبٌ ولا تروى !

وإنه ليحاورك ، ويطارحك القول ، دون أن يفرض عليك وجهة نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه ، والإقناع به ، قوى العارضة ، طيع البديهة ،مسكت الجواب !

كان الباشا يستريح بين الفينة والفينة ، وهو يدور بعينيه حوله ، كأنما يتلمس من الهواء عوناً على تجديد الأنفاس . . . ثم إذا هو يستأنف الحديث أندى صوتاً ، وأقدر على مواصلة الكلام . . .

ودخلت علينا الحجرة سيدة ما إن لمحت سمتها حتى عرفت أنها قهرمانة

البيت ، تفصح ملامحها عن إغريقية واضحة . . . دخلت تحمل حفيد الزعيم ، يزود جده بتحية المساء ، فما إن رأى الطفل جده حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجد يبادله التحية والعناق . . . وكانت التحيتان كلتاهما تتشابهان وتنسجان فى الوداعة والسذاجة واللطف ، فلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر لايدرى أيتهما تحية الجد وأيتهما تحية الحفيد !

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هى إلا أن رجعت تحمل قدحاً فى قرارته جرعات الدواء ، فارتشفها الزعيم فى طوع واستسلام . . .

وكنا بين حين وحين نسمع الباشا ينادى تلك السيدة ، راغباً إليها فى إحضار كتاب ، أو علبة لفائف ، أو كوب ماء ، أو غير ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء رزينة السمت ، موفورة النشاط ، تزاول عملها فى جد و إقبال ، تغدو وتروح فى خفة بنت العشرين ، و إن كانت بادنة تقدمت بها السنون !

إذا دخلت الحجرة دبت بخطا متزنة ، غليها طابع السيادة والتأمر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وكل إليها أن تتعهد شأن الزعيم ، وتسهر على راحته ، لا ينازعها فى مهمتها منازع . . .

وقد نرى الباشا منبرياً يتحدث عن قصص القرآن ، وما له فى شأنه من رأى ، فاذا برغبة تهجس فى نفسه ، فلا يكاد يرفع الصوت منادياً تلك القهرمانة ، حتى نبصر بها أمامنا كأنما انشقت الأرض عنها . . . إنها لتحس رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطلب فى أسرع من رجع الطرف وخطف البرق !

حان وقت العشاء ، فجئ لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة ، زودت بمعدات الأكل وصحاف الطعام ، فأذكرتنى هذه الطريقة أسلوب الاطعام الأمريكى فى الطائرات والمطاعم المسماة فى أمريكا « كافيتريا » . . .

وهالنى ما حفلت به صينيتى وصينية صديقى من أطعمة شهية مختلفة الألوان ، فرفعت عينى إلى صينية الباشا فاذا أوضح مافيها قارورة ملئت حساء مجمداً يؤخذ منه القدر المطلوب ليذاب فى قليل من الماء السخين . . . و بجانب القارورة صحفة عليها شرائح رقيقة من شواء ، وخلفهما صحفة فيها قطع من الطماطم ، وغير بعيد صحفة ثالثة فيها شقة ضئيلة من فاكهة الشمام . . .

والتفت إلى الصديق أسائله فيما أرى ، فأخبرنى بأنه لا يعرف أن الباشا زاد فى طعامه على هذا النحو ، منذ وصلت بينهما أسباب اللقاء . . .

وكانت القهرمانة تشرف على الخدم ، تومئ إليهم فيأتمرون ، وتشير فينتهون . . . وما لبثت أن تولتنا بالرعاية والتعهد ، تلح علينا فى أن نأكل من هذه الصحفة أو من تلك ، وكأنها بذلك تسلكنا فى عداد أطفالها المدللين . . . لزام أن نملأ البطون ، لنكبر ونترعرع ، ونكسب رضاها الثمين ! . . .

ويا طالما وقفت تجاه الباشا تأبى عليه أن ينكلم ، وتحثه على أن يستوفى حظه من الطعام غير منقوص . فلا يملك زعيمنا العظيم إلا أن يرفع إليها بصره فى صمت هادئ ، وعلى محياه طابع الحمل الوديع !

وفرغنا من الطعام ، وحملت الصوانى ، فعادت منضدة الباشا إلى وضعها الأول : كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب . . . ولاحظت أن الباشا يعنى بهذه الكومات ، وكثيراً ما مد إليها يده ، يخشى أن يند منها شئ . . . فنظرت إلى الصديق ، فإذا الباشا يفطن إلى مادار فى خاطرى من سؤال ، فأخذ يحدثنى عن هذه المنضدة ، يزهدنى فيما حوت أكبر تزهيد ، ويهوّن من شأنها أكبر تهوين !

ولكنه فى ثنايا حديثه ، أشار إلى أنه ينهى أن يمس أحد منها ورقة أو يكشف عن مكنون مهما يكن من أمر ، وأنه يبسط عليها الصحف واحدة تلو الأخرى . . . فأدركت أن الباشا يتخذ الصحف دريئة تستخفى تحتها ذخائر وكنوز ، كما يتخذ الجندى أغصان الأشجار وألوان الرمال فى مناطق القتال ، تعمية لما يرغب فى ستره عن العيون !

سطح هذه المنضدة طبقات ، فى كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد ، تتشابك بها ضروب من وقائع تاريخية ، وذكريات عزيزة ، وتعليقات فى علم وأدب وسياسة وتشريع . وكأن كل طبقة من هذه الطبقات حقبة من التاريخ وكرة من الزمن عامرة بالكوائن والأحداث . . .

ذلك هو سر المنضدة ، نكشف عنه الستار ، وأمرنا إلى الله فيما يكون من عتاب وحساب !

عاد الباشا إلى حديثه الطلى ، حتى مر هزيع من الليل لم نكد نصدق

أنه مر . ولولا أنى آثرت راحة زعيمنا العظيم ، لما صدرت عن ذلك المجلس الذى أصبت فيه رفيعاً من إمتاع السمع والعقل والروح !

وقفت خاشعاً أمام مضيفنا الكريم ، آخذ بيده أحييه . . . أحيى قوة شعت أضواؤها ، فكان منها دستور ، وكان منها تشريع ، وكان منها توجيه وطنى آتى مصر أبرك الثمرات . . .

فى تلك اللحظة انتظمتنى تلك النشوة العلوية التى يستشعرها المرء فى مواقف الاكبار والتمجيد . . . وخرجت راضياً عن نفسى كل الرضا بما كسبتنيه هذه الزورة من التسامى فترة فى أفق مثالى خالص من شوائب الأغراض التافهة وشواغل الحياة الرخيصة مما يزحم دنيا الناس !

غادرت تلك الدار ، وقد طوفت برأسى خواطر : ذلكم زعيمنا العظيم يركن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة ، قانعاً فيها بتلك الحجيرة الزجاجية ذات الأستار ، يقضى شيخوخته النبيلة فى حشد من ذكرياته العطرة بالمآثر والأمجاد . . .

لم تمتد عين عبد العزيز فهمى إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها البذخ والترف ، بل لقد عف قادراً عن ذلك الضرب من كسب الحياة، وآثر لكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنجوة عن متاع خداع مصيره للزوال . . .

أعجب مايروعك من خصائص عبد العزيز فهمى ظمؤه الدائب إلى العمل؛ فانه ليقضى أطول يومه فى تلك الحجيرة الحبيبة إليه ، عاكفاً على المطالعة والمراجعة ، كأنه موكل بالهوامش البيض فى الكتب ينمنمها بما يجرى به قلمه من ملاحظة وتعليق . وإن العمل ليمتد به حتى يطغى على ليله ، وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار ، وما برحت أقداح القهوة توافيه ، وعلب اللفائف تغدو ملأى وتروح خالية ، والخدم يتناوبون خدمة ذلك المتهجد اليقظان !

حياة عبد العزيز فهمى سلسلة من المغامرات فى سبيل العمل؛ فهو لا يحل مثابة ولا يشترك فى شئ إلا كان العمل رائده فيه ، فاذا هو يثير حوله فورة النشاط والدءوب . هيهات أن يكون سلبيا فى موقفه ، مكتفياً بملء كرسيه ، فهو على يقين أنه صاحب رسالة لا يستأنى فى أدائها حيثما حل ، مقتحما فى سبيلها أشتات العوائق والأشراك . . .

يجلس عضواً فى لجنة الدستور ، فيكون أبا الدستور . . .

ويهبط الريف ، فيثير فيه ثائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .

ويتسنم ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحاً من القواعد الجديدة يتمثل فيه استقلال الرأى وعبقرية الذهن ، ويصبح شغلا شاغلا لمعاهد الفقه والتشريع . . .

ويدعى إلى المجمع اللغوى فاذا هو السباق إلى ارتياد آفاق جديدة تحدوه إليها حرارة العقيدة وألمعية التفكير . . .

عبد العزيز فهمى فى شيخوخته العالية فتىّ العقل ، طلاع دائماً إلى التجديد ، وهو إلى ذلك قوى الشكيمة ، غلاب الحجة ، لا يتهيب مواقف الاقتحام !

لا خلاف على أن عبد العزيز فهمى زعيم ، فإن زعامته ملء القلوب ، والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز خاص . . .

وكان محالا أن يكون الرجل زعيما من ذلك الطراز المعروف الذى تتولى فيه الزعامة قيادة الجماهير ، وتلف حولها أشتات الطبقات ، وتحرص على اجتذاب الناس بشتى الذرائع والأسباب ، وتؤثر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ بنواصيهم إلى ما تهدف إليه من أغراض وغايات . . .

ليس عبد العزيز فهمى ذلك الزعيم الشعبى ؛ فان الزعماء الشعبيين يفتقرون إلى مزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة الحيلة ، وممالأة الأحداث ، وتحسس الأهواء ، والتردد بين اللين والعنف طوعاً لطوارئ الجزر والمد . . وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفاً فى مثاليته، صلباً فى عقيدته ، متفرداً برأيه ، متحنثاً فيما يتخذ من وسائل لبلوغ الأهداف . . .

وعبد العزيز فهمى مزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحنث ، تلك الخصائص التى تجعله زعيما من ذلك الطراز الخاص الذى يورى الزناد ، وينفخ فى الروح ، ويبعث اليقظة ، ويختط الطريق ، ثم يدع لغيره من الزعماء أن يخوضوا وسائل التنفيذ ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجاريب !

هو صاحب « فكرة » يطرحها على أعين الناس ، وليس عليه بعد ذلك أن ينافس فى تحقيقها ، وأن يحتمل مايقتضيه ذلك التحقيق من أعباء دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالى المتحنثون !

لعبد العزيز فهمى فى أذهان عارفيه صورة تملأ الأفئدة رهبة وخشية ، بما علموه من حدة نفسه ، وعنف مواقفه ؛ ولكن هذا الرجل الجبار فى المواطن التى يشايع فيها حقا أو يدفع ظلامة ، ينطوى على إنسانية تتوهج فيها رقة العاطفة ورهافة الشعور . . .

ولعل أوضح ظاهرة تتمثل فيها إنسانيته العاطفية أنه فى بيته لا يأبه له اثنان : الطفل ، والقط .

فحفيده إذا دخل عليه أخذ يعابثه فى جسارة واجتراء ، وراح يختطف ما يحلو له مما بين يديه ، وهو على ثقة أن جده الشفيق لن تبلغ به الثورة إن ثار حدا يخاف !

وأما القط فإنه يقارب مجلس الزعيم ، فاذا زجره لم يكترث ولم يتحلحل ، وربما سمع القط نأمة بعيدة من أحد من أهل الدار ، فلا يلبث أن يلوذ بالفرار . . . وما أقر القط فى مكانه من مجلس الزعيم إلا إحساسه بأنه فى رحاب طمأنينة وأمن ، وأن الزعيم وإن زجره بلسانه ، فلن يصيبه منه أذى ! . . .

لأستاذنا الأكبر تحية اعتذار ، ومودة إكبار . . .

محمود تيمور

رابطة الجنس والثقافة فى وادى النيل

فى مقـالنا السابق[1] عالجنا رابطة الماء فى وادى النيل ، ورأينا كيف أن أسباب الحياة تمتد بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكيف أن سكان الوادى جميعاً يرتبطون بهذا النهر العظيم الذى اعتمد عليه أجدادهم واستمدوا منه الحياة منذ استقروا على ضفافه وفى جنبات واديه . ولكن هذه الدراسة التى تتصل بموارد الحياة ومقوماتها الطبيعية لا تكتمل ولا تنتهى بنا إلى صورة جلية شاملة إلا إذا عرضنا للجانب البشرى الخالص من حياة الناس ، ذلك الذى يتصل بأصل السكان وسلالاتهم من جهة ، وبثقافتهم وتراثهم الروحى والفكرى والانسانى العام من جهة أخرى . وإذا كنا فى المقال السابق قد حاولنا أن نرد الوحدة إلى بعض أصولها الطبيعية ، وأن نربطها بمقتضياتها العملية والمادية ، فان علينا فى هذا المقال أن نستعرض وجهاً آخر من تلك الوحدة ، تبرز فيه صلات الدم والأنساب بين من يقطنـون الشمال ومن يقطنون الجنوب ، ويتجلى فيه ذلك الرباط الانسانى الذى يميز حياة البشر ويخلد روحها على مر العصور . وواضح أن هذا الجانب البشرى والانسانى من الوحدة فى وادى النيل لا يقل فى شأنه وروعته عن الجانب الطبيعى والمادى الذى جلوناه من قبل ؛ بل واضح أن الجانبين متكاملان ، أو هما فى واقع الأمر وجهان لصورة واحدة من هذه الوحدة الرائعة التى أرادها الله فسخر فى إخراجها موارد الطبيعة من جهة ، وزكاها بدم الانسان وروحه من جهة أخرى .

وقبل أن نعرض لمسألة الجنس والسلالة ينبغى أن نشير إلى بعض الأسس والقواعد العامة التى تقوم عليها دراسة السلالات أو الأنثروبولوجيا بناحيتيها الطبيعية والاجتماعية . وأول هذه الأسس أننا فى دراسة « الشعوب » لانستطيع

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٢١ (يونيه ١٩٤٧) .

أن نفصل فصلا تاما بين دراسة التكوين الجنسى الذى يرتبط بالميزات الجسمية ، وتعرف أبحاثه بالأنثروبولوجيا الطبيعية ؛ وبين دراسة التكوين الاجتماعى وما يتصل به من ثقافة للروح أو النفس أو الفكر ، ومن نظام للحياة والاجتماع ، ومن تقاليد تتناقلها الجماعات وتتوارثها الأجيال ، وكل ذلك يعرف بالأنثروبولوجيا الاجتماعية . ولذلك فنحن إذ ندرس شعب النيل ينبغى أن نجمع بين أطراف شتى من تكوين الجسم ، وتكوين الروح والثقافة ، وتنظيم المجتمع والحياة بما يحكمهما من تقاليد وما يستندان إليه من تراث... وذلك كله حتى نخرج بصورة هى أدنى إلى الكمال وأقرب إلى الشمول مما لو درسنا ناحية واحدة .

وثانى هذه الأسس والفواعد أننا فى دراسة « السلالات » نعتمد على صفات جسمانية محددة ، ومقاييس أو ملاحظات يتصل بعضها بشكل الرأس أو لون البشرة أو شكل الشعر أو ملامح الوجه أو طول القامة أو غير ذلك من الصفات والميزات التى تقاس أو تلاحظ . ولكن علماء الأجناس قد مالوا فى السنوات الأخيرة إلى الشك فى قيمة تحديد « الجنس » تحديداً دقيقاً ، ومالوا إلى تقسيم البشر إلى «سلالات» تجتمع فى كل منها صفات جسمية كثيرة متداخلة ومشتركة بقدر ظاهر أو غير ظاهر بين أكثر من سلالة واحدة . وهذه السلالات لا توجد نقية خالصة مهما بدا غير ذلك لمن لا يتعمقون الأمور . بل إن علماء الأجناس الآن ينظرون إلى اختلاط الصفات وتنوع المميزات الجسمية فى مجموعة من البشر، فيرون فى ذلك علامة من علامات القوة والصلاحية للبقاء والتطور ؛ وكلما جمعت سلالة بين عدد من تلك الصفات كان ذلك دليلا على تنوع الملكات والمؤهلات بين أفرادها ؛ وذاك عامل هام فى حياة الجماعات . بل كلما جمع « شعب » بين أكثر من سلالة واحدة تمتزج فيه وتأتلف منها أمته كان ذلك مصدراً من مصادر القوة والحيوية ، على شرط أن توحد المصالح المادية والحياة الثقافية والبشرية العامة بين تلك السلالات ليتكون منها « شعب » واحد ولتأتلف منها « أمة » واحدة . والأمثلة على ذلك كثيرة فى عصرنا الحديث . فالولايات المتحدة الأمريكية تأتلف من سلالات كثيرة ، بعضها متداخل متزاوج ، وبعضها منعزل محدود الاختلاط بغيره . والاتحاد السوفيتى يأتلف من سلالات كثيرة ، بعضها

صقلبي ، وبعضها الآخر فى الشرق والجنوب وأقصى الشمال من سلالات غير صقلبية ، ولكنها مع ذلك مرتبط بعضها مع بعض برباط المصلحة المشتركة ، والثورة الاجتماعية الواحدة . وهاتان فى أمريكا وأوراسيا تجربتان هائلتان من تأليف أمة واحدة متماسكة من سلالات بشرية متباينة ، ولكن لكل منها مؤهلاته وملكاته التى تغذى ينبوع القوة فى الأمة الواحدة . بل هناك أمثلة أخرى من أمم أعرق فى التاريخ الحديث ؛ ومنها بريطانيا التى يقال إن شعبها قد امتزجت فيه دماء سلالات ثمان أو نحو ذلك ؛ وفرنسا التى تتمثل فيها ثلاث سلالات أصلية وعدد من السلالات الفرعية ، والتى تجتمع فيها صفات أهل شمال أوربا من جهة وصفات أهل الوسط والجنوب من جهة أخرى ؛ ولعل ذلك أن يكون سر القوة والحيوية فى أمتى غرب أوربا العتيدتين ، وفيما كتب لأبنائهما من تبريز متنوع المظاهر فى حياة أوربا والعالم كله فى التاريخ الحديث ، تبريزاً ظهرت آثاره فى نواحى المدنية المادية من جهة ، والحياة العقلية والفكرية وفى النظم الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى . بل إن ألمانيا ذاتها تأتلف من خليط من سلالات الشمال وسلالات منطقة الجبال الألبية ؛ وعندما حاول قادتها فى العهد الأخير أن يطهروها مما أسموه خطأ « بشوائب الجنس » كان فى ذلك ما أضعف الأمة فى تكوينها الجنسى وأصاب حياتها العملية والفكرية فى الصميم ، ومهد السبيل آخر الأمر لنكبة هائلة ترتبت على أن قيادة الأمة حاولت أن تسير بها ضد طبيعة الأشياء .

وإذا نحن رجعنا إلى التاريخ القديم رأينا أمماً كثيرة أنتجت وأضافت إلى تراث الانسانية لأنها جمعت من العروق والأنساب فى دماء أبنائها ماجعلها أقدر على الحياة المتطورة والعمل المثمر المتنوع الانتاج من غيرها من الأمم والشعوب . ومن تلك الأمم القديمة أمة وادى النيل ، وهى التى سندرسها الآن بشئ من التفصيل ؛ ثم أمة اليونان حيث اختلطت دماء أهل البحر المتوسط بدماء غزاتهم الذين أتوا من الشمال ، فمهد الاختلاط لظهور المدنية اليونانية المعروفة ؛ بل منها الأمة العربية ذاتها حيث يشتد اختلاط السلالات فى العراق والشام وجنوب غرب الجزيرة ، وقد كانت كلها من مواطن نشأة المدنية العريقة فى الجزيرة العربية . . . وغير ذلك أمثلة كثيرة يغنى عن ذكرها ما أشرنا إليه .

ولأمة وادى النيل فى واديها وما جاوره من أراض ملحقة به مواطن عدة استقر بها السكان فى أعصر متلاحقة ؛ منها الشطر الشمالى من الأرض الزراعية فى مصر شمال أسوان ، ومنها تلك الأراضى الزراعية المتقطعة فى السودان بمنطقة دنقلا وبعض أراضى النيل الأزرق ، ومنها أعالى النيل فى حوض الجبل والغزال ، ثم منها أرض الرعاة والرحل فى مناطق الأعشاب بالصحارى المصرية أو بسهول السودان . وقد اتصل السكان بعضهم ببعض فى هذه المواطن المختلفة منذ أقدم العصور ؛ بل منذ بدأت الحياة المتمدنة وعرف الانسان الزراعة والرعى وما إليهما من حرف ارتفع معها الانسان من الحياة البدائية إلى الحياة المتحضرة . ويبدو أن هذه المنطقة جميعها فى شمال شرق القارة الافريقية كانت فى أول الأمر موطناً هاما من مواطن الحاميين ، وهم فريق من السلالة الكبرى التى تعرف أحيانا بالسلالة القوقازية ، والتى تعتبر سلالة البحر الأبيض المتوسط أبرز أفرعها فى المناطق المعتدلة . ويرجع استقرار هؤلاء الحاميين — أو الحاميين الشرقيين تمييزاً لهم عن البربر ومن إليهم من الحاميين الغربيين فى شمال غرب إفريقية — إلى نهاية العصر الحجرى القديم ، أو فى القليل إلى العصر الحجرى الحديث . ومن المسلم به الآن أن المصريين الأقدمين إنما اشتقوا من هذه السلالة الحامية ؛ تشهد بذلك هياكلهم القديمة ، كما تشهد لغتهم وثقافتهم . ومن الطريف أنه قد كشفت هياكل لجماعة كانت تعيش فى مصر العليا ، وتعرف حضارتها باسم حضارة البدارى — نسبة إلى بندر البدارى المعروف ، شرق النيل فى مديرية أسيوط — ويرجع تاريخ تلك الجماعة إلى الألف الخامسة قبل الميلاد ، أو مابعد الحجرى الحديث مباشرة . وتبينت من دراسة تلك الهياكل بعض أوجه الشبه فى الجنس والتكوين الجسمى بين هذه الجماعة الأولى وبين بعض العناصر الحامية التى تقطن الآن شرق السودان ، ولا سيما قبائل الهدندوة ؛ بل إن سكان البدارى الأقدمين تظهر فيهم علامات الاختلاط بين الحاميين وبعض العناصر الزنجية القديمة . وإذا صح مايرجحه الباحثون الآن فان المصريين فى ذلك العهد إنما هبط فريق منهم أرض الوادى من الجنوب ، وبقوا على صلة بأسلافهم وأنسابهم فى مناطق السودان الشرقى ، وإن كانت قد أضيفت إليهم فى شمال مصر ووسطها بعض عناصر أخرى هبطت الوادى من الشمال .

ومهما يكن من أمر فقد احتفظ المصريون الأقدمون قبل بداءة العهد التاريخى وخلال العهد الفرعونى بصفاتهم الحامية الغالبة ؛ وبقيت تلك الصفات الجنسية متوارثة فيهم حتى الآن ؛ وإن كانوا قد أضافوا إليها بعض صفاتهم السامية المكتسبة ، كما استبدلوا بثقافتهم ولغتهم القديمة لغة وثقافة أو ثقافات جديدة هى أقرب إلى العالم السامى منها إلى الحامى . . . ثم نشروا بدورهم هذه اللغة والثقافة ، بل كثيراً مما أخذوه عن الساميين من الناحية الجنسية الخالصة فى ربوع السودان الشمالى والأوسط .

وأغلب الظن أن منطقة النيل الأدنى قد تعرضت لأكثر من موجة واحدة من موجات الهجرة الكبرى فى الأعصر الأولى وقبل أن يبزغ فجر التاريخ ؛ فانحدر إليها الحاميون من الجنوب والجنوب الشرقى أول الأمر ، لا سيما فى عصر حضارة البدارى ؛ ثم جاءت موجة كبيرة من الشمال فيما يعرف بالقسم الأوسط من عصر ماقبل الأسرات ، أى خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . وترتب على ذلك الضغط الآتى من الشمال أن اندفعت بعض العناصر من سكان مصر العليا إلى بلاد النوبة والسودان الأوسط . ولا يعرف بالضبط مدى ماوصلت إليه تلك العناصر فى انتقالها نحو الجنوب ، ولا الطريق الذى سلكته ؛ وإن كان من المعلوم والثابت الآن أنها وصلت على الأقل إلى ملتقى النيلين عند موقع الخرطوم . ومن المرجح أنها سلكت بعد ذلك طريق النيل الأزرق ، واحتكت هناك ببعض سكان أقصى الجنوب ، وربما وصل تأثيرها إلى شرق إفريقية .

والظاهر أن هذه كانت أولى موجات هامة من الشمال إلى الجنوب ، وأنه قد تلتها موجات متلاحقة فى أعصر التاريخ . ولابد أن تكون هذه الموجات قد حملت بعض العناصر الشمالية إلى الجنوب ، فاختلطت بأهله . ولكن معلوماتنا عن المؤثرات الجنسية القديمة لا تزال ضئيلة للغاية . فهذا جانب من البحث لا يزال مهملا حتى الآن ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتتبع تلك الصلات بين أقاصى الوادى فى شماله وجنوبه إذا ما رجعنا إلى الناحية الاجتماعية والثقافية من الحياة الشعبية فى أقاصى السودان وفوق الهضبة الاستوائية من ناحية الجنوب ، وقارناها بما هو معروف عن حياة المصريين فى عصورهم الأولى قبيل التاريخ وخلال العهد الفرعونى ؛ إذ الظاهر أن كثيراً من

المؤثرات الثقافية والاجتماعية التى نفذت من مصر نحو الجنوب قدّر لها أن تعمر وأن تبقى على الزمن فى أقاصى الجنوب ، حيث لم تكن الجماعات البشرية معرضة لنزعات التجديد والاتصال بالعالم الخارجى كما كانت الحال فى مصر ذاتها ؛ ولذلك فقد كان جنوب الوادى أصلح لأن تعمر فيه النظم الاجتماعية دون أن يصيبها التغيير ، ولأن تمارس فيه التقاليد والعادات القديمة دون أن يجرى عليها الزمن أو أن تجددها الأيام . وشواهد هذه الصلات القديمة بين مصر وأعالى النيل فى أقصى السودان كثيرة ؛ منها مايرجع إلى مايصح أن نسميه بالعهد الحامى الخالص ، قبل التاريخ ، عندما استقر الحاميون الشرقيون الذين أشرنا إليهم فى مناطق متباعدة بين أدانى النيل وأعاليه ؛ ومنها مايرجع إلى العهد الفرعونى ، عندما بدأت السلالات والثقافات الحامية والسامية يخالط بعضها بعضاً فى شمال الوادى ، ثم ينفذ نتاج تلك المخالطة وثمارها رويداً رويداً نحو الجنوب . وقد يفيد أن نذكر بعض شواهد الصلة الثقافية القديمة بين الشمال والجنوب ؛ فهى وإن كانت مما يهتم به علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والاثنوغرافيا أو علم وصف الشعوب ، فهى ولا شك تهم الباحث العام ؛ لأنها تلقى ضوءاً على مبلغ ما بين أطراف الوادى من صلات عريقة تمس حياة الشعب فى أسسها الأولية ، وتؤثر فيها إلى أبعد كثيراً مما قد يظن من يكتفون بالنظر إلى السطحيات .

ومن أبرز هذه الصلات مانراه متمثلا عند سكان حوض بحر الجبل والغزال، أو مايسمونه بالسودان الجنوبى أو السودان الزنجى ، وهو فى الحقيقة ليس زنجيا خالصاً،وإنما تأثر سكانه كما تأثر سكان الهضبة الاستوائية بالعناصر الحامية الشرقية ، أولئك الذين أثروا من قبل بدمائهم وثقافتهم فى بقية السودان وفى مصر بالذات . وفى حوض الجبل والغزال تعيش قبائل من النوير والرنكا وغيرهم ممن يحيون حياة الفطرة ، ولكن لهم ثقافتهم التى تتصل بثقافة مصر الأولى . وإلى جنوبهم فى أوغندة تعيش قبائل ممن يعرفون بأنصاف الحاميين ، وهم أيضاً قد اتصلت حياتهم فى نشأتها الأولى بحياة أهل الشمال. يتمثل ذلك كله فى بعض العادات المتأصلة ، ومنها نظام « الملك الإله » أو نظام « الرياسة المقدسة » ؛ وقد كان هذا النظام معروفاً فى مصر قبل قيام الأسرات ، فكان الملك أو الرئيس يحكم مدة ، حتى إذا ما أصابه الضعف خشى

أن يؤدى ذلك إلى ضعف الجماعة واضمحلال شأنها وضياع أرزاقها ؛ ذلك أن الملك أو الرئيس فى الجماعة أو القبيلة هو رمز القوة فى المجتمع ، فان كان قوى الجسم موفور العافية كان المجتمع فى خير وازدهار ؛ وإن أصابه الهزال أفل نجم المجتمع ؛ ولا يأتى الخلاص للجميع إلا بأن يضحى بالرئيس نفسه من أجل الجماعة ، ويقضى نحبه على نحو لائق يحتفل به الشعب إذ يقيم خليفته من بعده ، فتجدد الحياة فى الجماعة وينفخ فيها روح جديد . وهذا النظام القديم الذى لا يزال جارياً فى بعض صوره — رغم ما أدخل من قوانين جديدة على يد حكومة السودان — بين بعض القبائل فى السودان الجنوبى ، كالشلوك والرنكا ، وفى بعض أطراف الهضبة الاستوائية ، نشأ فيما يبدو عند القبائل الحامية الأولى وانتقل إلى مصر ، ولكنه عدل بالتدريج فى العهد الفرعونى ، وحل محله نظام آخر يقضى بالاحتفال بتجديد حيوية الرئيس ونشاطه إن أصابه الهزال ، أو طال به الحكم فناء بأعبائه ، وذلك بدلا من التضحية به أو القضاء عليه من أجل الجماعة . وتمثل التعديل فى مصر فى الاحتفال بأعياد التتويج، لا سيما بعد أن يقضى فرعون فى الحكم ثلاثين عاماً أو تزيد ، كما حدث فى حالة رمسيس الثانى وغيره . ومن الطريف أن مصر قد عادت فأنفذت بعض ماجددته وهذبته من عاداتها القديمة نحو الجنوب ، فتلقت الجماعات القديمة فى السودان ، بل فى هضبة شرق إفريقية ذاتها ، بعض مظاهر هذا التجديد فيما يعرف باحتفالات عيد « السد » وعيد « التتويج » ؛ وقد عرفت محرفة أو معدلة عند بعض الجماعات القرية فى السودان ، ولا يزال بعضها معمولا به فى صورة معدلة عند بعض قبائل أعالى النيل وأوغندة .

كذلك انتقلت بعض معالم المدنية المادية من الشمال إلى الجنوب حتى بلغت أعالى النيل ، ومنها بعض طرائق الزراعة وتربية الحيوان ورعى البقر الافريقى ذى القرون الكبيرة ؛ وقد بدأ الرعى فيما يبدو على أيدى الحاميين القدماء ثم انتقل إلى مصر ، ثم عاد فارتد إلى أعالى النيل . ومن الطريف هنا أن نلحظ أن قبائل حوض بحر الجبل لا تزال تهذب قرون ماشيتها على نحو ما كان المصريون القدماء يفعلون أيام الأسرة الخامسة الفرعونية ؛تشهد بذلك الرسوم القديمة ، إذا ماقارناها بما يجرى عليه العمل بين رعاة أعالى النيل فى الوقت الحاضر .

وكذلك امتدت صلات الثقافة ومؤثرات الشمال فشملت نواحى الفن والثقافة الروحية . فالموسيقى المصرية القديمة ، بل كثير من نواحى الموسيقى الشعبية المصرية فى الوقت الحاضر ، هى ولاشك من أصل إفريقى أو حامى قديم ؛ وقد عادت مؤثرات مصر فارتدت نحو الجنوب ؛ بل إن بعض قبائل أعالى النيل لا تزال تستخدم من الآلات الموسيقية ما يشبه ما كان يستخدم فى مصر الفرعونية . وغير الموسيقى هناك ألوان مختلفة من التشابه ؛ فبعض أمراء أوغندة لا يزالون يتخذون من النسر شعاراً أو طائراً خاصا يعتزون به، وتلك عادة مشتقة فيما يبدو من عادة تقديس الصقر فى مصر القديمة . كذلك انتشرت عبادة الشمس ذاتها من مصر إلى السودان القديم حتى امتدت مع النيل الأزرق إلى حدود الحبشة وأطراف أعالى النيل . بل إن بعض العادات الجنائزية من محاولة التحنيط وغير ذلك قد انتشرت حتى بلغت الهضبة الاستوائية وأطراف حوض الكونغو.

تلك كلها وكثير غيرها شواهد قديمة قد يرى القارئ فيها إطالة وتفصيلا يباعد بيننا وبين الوقت الحاضر . ولكن النيل فى مدنيته نهر عجيب ، قد جمع بين الماضى والحاضر فى مختلف أطرافه ، بل جمع بين أعصر ما قبل التاريخ وبين هذا العصر الذى نعيش فيه . ونحن كما ذكرنا فى مقال سابق(١) أمة تعيش فى الماضى وتحيا بتراثه بقدر ماتعيش فى الحاضر وتمتد بآماله إلى المستقبل ؛ وفى مجتمعنا المصرى بالذات كثير من العادات والتقاليد والنظم والأوضاع التى بدأت واستقرت بها الحال قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، ولكنها كانت صالحة للبقاء ، منسقة ومقتضيات البيئة ، فبقيت على الزمن ، وعمرت فى التاريخ ؛ ولعله أن يكون فى ذلك مايقربنا من أولئك الذين كان من نصيبهم أن يحيوا حياة الفطرة فى أعالى النيل وجنوب السودان ؛ بل لعله أن يكون فى ذلك مايجعلنا أقرب الناس إلى أولئك الذين يحاول المستعمرون ودعاة المدنية الغربية الحديثة أن يباعدوا بينهم وبين العالم ، وأن يقطعوا عليهم سبيل الاتصال مع بقية أبناء الوادى فى شمال السودان وفى مصر. وقد

---

(١) للكاتب مقال موضوعه «المصريون والمحافظة على القديم» . أنظر الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

ينفعنا فيا نحن بسبيله من إبراز وحدة وادى النيل ووحدة شعبه وثقافته أن نجلو معالم هذا التاريخ البعيد ، وأن نرد وحدة الجنس والروح إلى أسسها الأولى مهما بعدت وامتدت إلى عصر ماقبل التاريخ ؛ فتلك سبيلنا العلمية إلى أن نتفهم الأمور فى وضعها الصحيح ، بل تلك سبيل العلم إلى أن يتفهم العالم والناس قدر مابين مصر وجنوب السودان من صلات الأنساب وصلات الأرواح إلى جانب صلات المنافع وصلات الحياة . . . فاذا ماتبين كل هذا كان من الأولى أن يرعى أمور أولئك المساكين من أهل الجنوب الأقصى ذوو قرباهم من أهل السودان الأوسط والشمالى وأهل مصر ؛ فنحن فى تكويننا الشعبى ، ونحن بتراثنا الروحى والثقافى ، أقرب الناس إليهم ، وأولى الناس برعايتهم ؛ ونحن بحياتنا ونظمنا وثقافتنا ذات الجوانب القديمة الخالدة والجوانب الجديدة المتطورة نستطيع أن نحمل إلى الجنوب من ألوان الفكر والثقافة والنظم الاجتماعية ما يكون أدنى إلى أهله ، وأيسر تناولا مما يحاول أن يشيعه بينهم ، بل يفرضه عليهم ، جماعة المبشرين من البيض والمستعمرين ! بل نحن ولا شك بالنسبة لأهل الجنوب الأقصى بشر من الناس ؛ على حين قد تنظر بعض قبائلهم إلى البيض والمستعمرين على أنهم من أنصاف الآلهة أو أنصاف الشياطين !

كل هذا عن جنوب السودان . فأما عن وسطه وشماله ، واتصالها بمصر فى الجنس والثقافة فذلك أمره أوضح كثيراً من صلات الجنوب الأقصى بما إلى شماله . ذلك أن الحاميين القدماء لا يزالون يقطنون بادية السودان الشرقى وبعض بادية مصر الشرقية ، ويشهدون بما بين شقى الوادى وجنباته من صلة عريقة فى الدم والأنساب . ثم إن المؤثرات المصرية فى الجنس والثقافة كانت على الدوام قوية ظاهرة ، بل مستمرة دائمة ، فى شمال السودان ووسطه . وقد هاجر بعض المصريين فى أواخر عصر ما قبل التاريخ ونشروا حضارتهم ومدنيتهم فى السودان ، أو فى بعض أجزائه الشمالية ؛ واستمرت تلك الهجرات والصلات فى العهد الفرعونى ، حتى قويت فى الأسرة السادسة بصفة خاصة ؛ ونظر المصريون إلى أهل الجنوب على أنهم إخوانهم وأترابهم ، كما تشهد بذلك النقوش والنصوص . ثم تجددت الصلات وازدادت قوة فى عهد الدولة الوسطى ، عندما بدأت معالم المدنية الفرعونية المتقدمة تنتشر وتستقر استقراراً واضحاً

فى أراضى دنقلا الشمالية والوسطى . وفى عهد الدولة الحديثة ازدادت تلك الصلات قوة على قوة ، وانتشرت المدنية المصرية بل ازدهرت فى إقليم دنقلا برمته ، حتى امتدت إلى منطقة نباتا ومروى فى قلب السودان . وازداد شأن هذه المدنية المصرية — أو سمها إن شئت المدنية النيلية — حتى جاء وقت خرج فيه أبناء دنقلا ، ووحدوا أرض الوادى جميعاً فى مصر والسودان ، وأقاموا الأسرة الخامسة والعشرين فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ؛ وأقامت أرض النيل بذلك الدليل على أن الأمر بين مصر والسودان ليس أمر غلبة ولا سيادة من جانب الشمال أو من جانب الجنوب ؛ وإنما هو أمر وحدة شعبية وسياسية ، لا فرق بين أن يأتى دعاتها وحماتها من شق الوادى فى شماله أو فى جنوبه . على أن الشئ الطريف حقا من ناحية الحضارة والثقافة أن مصر الفرعونية كثيراً ما اتصلت بغير أرض النيل من أقطار الشرق الأدنى القديم ، وأعارت تلك الأقطار الشقيقة من مدنيتها وتراثها فى الحضارة والثقافة ؛ ولكن الأمر لم يتجاوز حدود ما يكون بين الجار وجاره ، بحيث إن غلبة مصر فى وقت من الأوقات على تلك البلاد أو بعضها ، أو غلبة بعض تلك الأقطار والأمم الشرقية القديمة على مصر، لم يكن من نتائجها توحيد المدنية والثقافة ، وإنما اقتصر الأمر على تبادل المؤثرات لا أكثر . أما الحال بين مصر الفرعونية والسودان فقد كان غير ذلك ؛ إذ امتدت المدنية والثقافة المصرية القديمة نحو الجنوب ، فوجدت تربة صالحة لا تختلف عن تربة النيل فى الشمال ، ووجدت شعباً هو أقرب ما يكون إلى شعبها فى تكوينه وتقاليده وتراثه بل فى استعداده ومؤهلاته واستجاباته . ولذلك كله فقد غرست المدنية المصرية فى إقليم دنقلا ووسط السودان غرساً ونمت فيه على نحو لم يكن ليختلف فى كثير عما كانت عليه المدنية والثقافة فى مصر ذاتها . ولعل هذا بمفرده يكشف عن أن ما بين أبناء النيل جميعاً إنما هو من صلات القربى وصلات الوحدة ، لا من صلات الجوار كما يصوره بعض الناس . فلولا أن الأمر كان أمر وحدة فى الطبيعة والجنس ما وجدت مدنية مصر مرتعاً خصباً فى السودان ، وما استجاب السودانيون الأقدمون لما امتدت به يد مصر والمصريين الأقدمين إليهم من مدنية وثقافة ، استجابة لم نشهد لها مثيلا بين مصر وأى شعب آخر من شعوب العالم الشرقى القديم . . . على قرب ما بينها وبين تلك الشعوب من صلات .

الأمر بين مصر والسودان إذن أعمق كثيراً من أن يكون أمر جوار. وكلما درسنا تاريخ الصلة بين شقى الوادى دراسة تقوم على البحث الصادق والاستقصاء الصحيح تكررت أمامنا الأمثلة والشواهد على أنه أمر وحدة إنسانية كما هى وحدة طبيعية. ومن الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن مصر لم تستطع أن تحبس على نفسها ثمار الثقافة مما أنتجته أرضها أو ما أصابته من الخارج، وإنما جاهدت دائما فى أن تنقل ذلك تباعاً إلى بقية أرض النيل فى السودان. ففى أواخر العهد الفرعونى امتدت المدنية المصرية من إقليم مروى إلى النيل الأزرق؛ واستمر الاتصال قائماً فى العهد المسيحى عندما نقل الدين الجديد من مصر إلى دنقلا، ثم إلى السودان الأوسط ومنطقة سنار؛ وبقيت ديانة المسيح عليه السلام قائمة مزدهرة فى السودان عدة قرون؛ بل امتدت بها الصلات إلى أرض أريترية وأثيوبيا القديمة فى وقت من الأوقات . . . وقد استمرت الكنيسة النوبية — كما تسمى — قائمة ومزدهرة ما دامت كنيسة مصر قوية ومزدهرة؛ ولا غرو فهى فرع منها، بل غصن من أغصانها. حتى إذا ما دب الضعف والانشقاق إلى الكنيسة القبطية المصرية بعد الفتح العربى ببضعة قرون ضعفت كنيسة النوبة واضمحلت، ثم تلاشت حوالى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد.

وعندما جاء الاسلام فتح عهد جديد فى صلات مصر والسودان فى الجنس والثقافة. ذلك أن مصر غدت طريقاً إلى السودان. والشئ الذى ينبغى أن نذكره أن العرب لم يهاجروا من الحجاز وشبه الجزيرة العربية إلى السودان عن طريق البحر الأحمر إلا فى القليل؛ وإنما هاجرت قبائلهم على الجملة بالبر إلى شبه جزيرة سينا ثم مصر، وسارت مع النيل فى شرقه أو فى غربه حتى بلغت شمال السودان. وقد بدأ تدفقها نحو الجنوب فى القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده، واشتد فى القرن الرابع عشر. وتشعبت هجرات العرب فى السودان، فاتجهوا فى شعب ثلاث، أولاها من النيل فى منطقة صعيد مصر الأعلى نحو شرق السودان، حيث اختلط الساميون بالحاميين القدماء. وثانيتها مع النيل الأعظم ذاته، ثم مع النيل الأزرق؛ كما فعلت طلائع المصريين القدماء من قبل عند بزوغ فجر التاريخ ثم فى فترات من العهد الفرعونى والعهد المروى والمسيحى بصفة خاصة. وثالثة الشعب من النيل عند دنقلا إلى دارفور وكردفان،

وأطراف بحر العرب وبحر الغزال . وعلى طول هذه الشعب الثلاث تقدمت جموع العرب تؤثر فى السكان وتكوينهم الجنسى من جهة ، وتنشر الاسلام وتعاليمه ولغته وثقافته بينهم من جهة أخرى ، وتقرب بذلك كله بين أهل السودان وأهل مصر . . . أولئك الذين ربط الدم الحامى بينهم جميعاً فى أول الأمر ، ثم زكته دماء الساميين فى موجات متلاحقة كانت آخرها تلك الموجة العربية التى بلغت قلب السودان وبعض أطرافه الجنوبية والتى كان مفروضاً أن تمضى فى سبيلها حتى ترق الهضبة الاستوائية وتلتقى هناك بموجة أخرى عن طريق شرق إفريقية . ولكن عوامل كثيرة تضافرت على أن تضعف تلك الموجة العربية الشمالية ؛ منها أن وصول العرب إلى السودان جاء متأخراً بعض الشئ ولم يعاصر عهد الثورة العربية وظهور الاسلام ، فكان توسع العرب فى السودان توسعاً طبيعيا تدريجيا ، لا غزواً سريعاً يجرف ما أمامه ، وينتهى إلى غايته فى سرعة خاطفة . ومنها أن انتشار العرب إلى السودان لم يلبث أن تبعه فى القرن السادس عشر ازدياد سلطان الأتراك العثمانيين وحلولهم محل العرب واستيلاؤهم على مصر بالذات ، وانقطاع حبل الثقافة العربية فى أرض الكنانة ، وتوقف هجرات القبائل العربية التى لم تستطع أن تتابع سيرها نحو الجنوب إلى السودان . وكذلك منها ضعف الاسلام ذاته ودخول الشرق الأدنى ومصر فى دور مظلم ، كان طبيعيا أن يتبع السودان فيه مصر ، فهو شريكها فى السراء والضراء ! وكما دخلت مصر فى عهد حالك من الاقطاع وحكم المماليك وتأخر الحياة والمدنية ، وانحلال ثقافة الروح والفكر ، دخل السودان فى عهد من الفوضى طويل ، امتاز بتشتت القبائل وضياع السلطان فيما بينها ، وتنافر المصالح بين سكان السودان ، وعدم إمكان قيام حكومة مركزية تربط بين أجزاء البلاد وتوحد مصايرها فى الفكر والثقافة . وبقيت الحال فى السودان على تلك الوتيرة حتى جاء العهد الحديث .

وقصة هذا العهد الحديث أطول من أن نسوقها فى هذا المقال ، وهى لا تزال ماثلة أمامنا ، قائمة بين أيدينا بحيث تغنى فيها الاشارة عن الاطالة . ويكفى أن نذكر أن هذا العهد الحديث قد امتاز بأن أيقظ محمد على مصر من رقادها ، ونفخ فيها من روحه ؛ فجاءت نهضتها الحديثة شاملة نواحى الحياة المادية والروحية والفكرية جميعاً . ولكن مصر فى هذه المرة أيضاً لم تكن لتستطيع أن تحبس

على نفسها كل هذا النشاط الذى بعث فيها ، وكل هذا الخير الذى أخذت سبيلها إليه ونهلت منه . فما هى إلا سنوات معدودة ، وإذا باب النيل يفتح نحو الجنوب ، وإذا طلائع مصر تبلغ إلى أعلى النهر فتحاول أن تكشف عنه ، وتجاهد فى أن تحمل مشعل النور إليه ؛ بل إذا طلائع مصر تجوس خلال السودان ، فتدعو أهله إلى الوحدة ، وتجمع شتات قبائله ودويلاته المنتثرة المفككة . وكما كان محمد على باعث النهضة فى الشمال ، فقد كان باعث الوحدة فى الجنوب ، وكانت هذه الوحدة التى بعثها أساس النهضة فى حياة السودان وأهله ، فاذا نور المدنية ينبعث فى أرجاء هذا البلد الشاسع ، وإذا ركب المدنية يسير مع أبناء النيل نحو الجنوب ؛ بل إذا هذا الجنوب ذاته يستجيب لهذه النهضة المباركة خلال نصف قرن أو يزيد ، فأضاء نور المدنية هذا الركن من إفريقية قبل أن يرتفع ستار التاريخ من أى جزء من أجزاء تلك القارة المظلمة . ومهما قيل عن نهضة السودان فى عهد محمد على وخلفائه ، وقصور تلك النهضة إذا ما قورنت بنهضة مصر فى نفس الفترة ، فانه ينبغى أن نذكر أن السودان كان قبل عهد محمد على قد أصابه التفكك فى الحياة والحكم إلى أبعد حد . ويكفى أن يكون السودان قد خرج من تلك الفترة بحكومة موحدة منظمة ، وبحياة لها طابعها العام الذى يوحد بين مختلف أرجاء السودان . بل يكفى أن نذكر أن عناية محمد على وخلفائه بأقصى جنوب السودان لم تكن لتقل عن عنايتهم بشماله؛ وقد نفذ المصريون إلى بحر الغزال ، وأطراف الهضبة الاستوائية ، واستقروا فيهما كما استقروا فى شمال السودان سواء بسواء . ولم يكونوا فى ذلك إلا مستجيبين لدعاء الوحدة فى هذا الوادى المقدس ، وعلى طول هذا النهر الذى لا يملك من يعيش على مائه ويتغذى بلبانه إلا أن يهب نفسه من أجله . وقد وهب كثير من المصريين دماءهم الطاهرة من أجل بعث الحياة فى السودان ، كما وهبوا روحهم وثقافتهم ، فحملوا رسالتهم وأبلغوها إخوانهم فى أقصى الجنوب .

ولكن التاريخ يأبى إلا أن يعيد نفسه . وكما جاء الأتراك العثمانيون فى عهد من العهود فقطعوا سبيل المدنية فى الشرق العربى ، وأضعفوا موجة العرب والثقافة العربية فى شمال شرق إفريقية ، ودخلوا بالشرق العربى كله بما فيه مصر والسودان فى عهد حالك الظلام ؛ كذلك جاء دعاة الاستعمار فى العهد

الحديث فقطعوا على مصر سبيل النهضة ، وحالوا بينها وبين أن تنفذ بنورها وثقافتها ودماء أبنائها الزكية إلى بقية وادى النيل ؛ فوقفت تلك الحركة المباركة أو وُقفت ، ودخل السودان فى عهد جديد من الفوضى وسوء الحكم والادارة ، يسأل عنه من تسببوا فيه وسعوا بالقطيعة بين مصر والسودان ، أكثر مما يسأل عنه أبناء السودان أو أبناء مصر . . . بل يسأل عنه أولئك الذين لا يزالون يعملون على إطالة عهد القطيعة ، وإن أتى ذلك ضد طبيعة الأشياء .

وبعد فان حديث الوحدة الجنسية والثقافية فى وادى النيل يشمل التاريخ من أوله إلى آخره ؛ بل يبدأ فى عصر ما قبل التاريخ ، ويمتد دون انقطاع إلى الحاضر والمستقبل . وهيهات أن نستطيع أن نلم بأطرافه جميعاً فى مقال واحد مهما طال . ولكن هذه العجالة تكفى لأن تبرز لنا روعة هذا الجانب البشرى من الوحدة فى وادى النيل . وقد شاء الله تعالى أن يتخذ من هذا الوادى المبارك كنانته ، يخلق فيها فيبدع الخليقة ، ويرتب فيها فيكون فى ترتيبه الاعجاز. بل شاء الله أن يأتى ترابط الخلق ، وتناسبهم فى هذه الكنانة من ترابط الطبيعة وتماسكها ، قويا كأقوى ما يكون الاتصال والنسب ، عريقاً كأعرق ما تكون صلات القربى وروابط الأرحام . وهو قد شاء أن يكون لأهل الشمال وأهل الجنوب أصل واحد أخذوا عنه ما بقى فى دمائهم بقاء الزمن ، كما شاء أن يزداد الترابط بينهما على مر الأيام ، تذكيه صلات الدم وصلات الروح وصلات الفكر فى آن واحد . وليس يضير هذا الشعب الموحد فى وادى النيل أن تكون قد اختلطت فيه دماء الحاميين والساميين والافريقيين وأهل الشمال ؛ فذلك كله قد نوع السلالة ، ونوع مصادر الوراثة فى هذا الشعب الذى صهرته الأيام وجرت فيه الحياة من ماء النيل . وإذا كان البحث الحديث قد هدانا إلى أن نعلم عن أصولنا ما يكشف عن وحدة تسبق فجر التاريخ وتسير مع الزمن إلى آخره ، فما أحرانا أن ندرس هذه الوحدة فى مختلف صورها من حياة بنى النيل فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب . . . بل ما أحرانا أن نتلمس فى هذه الدراسة نوراً من نور الله وهدياً من هديه . . . ولئن نحن فعلنا ذلك فإننا ولا شك واجدون فيما يكشف عنه العلم والدراسة ما يذكى فى نفوسنا الإيمان بهذه الوحدة

المقدسة ، وما يذكرنا رغم اختلاف السحنة وتباعد المسافات ، بما بيننا من صلات فى النسب والأرحام وروابط فى الروح والفكر والثقافة هى أقوى من أن يجرى عليها الزمان . . . ومن يدرى ! فقد يكون فى هذه الدراسة ما يزيل عن أعيننا وأعين العالم الغشاوة ، وما يخرج بوحدتنا الخالدة إلى النور . . . ولو كره المنكرون !

سليمان حزين

وراء الستار

من نعم الله سبحانه عليه حين ابتلاه بهوس المسرح والسينما أن ابتلاه فى الوقت نفسه بضيق ذات اليد ؛ فهو فى المسرح ينحط فى مقعد خلفى فلا يضايقه صوت الملقن أو الطلاء البشع الذى يكسو وجوه الممثلين والممثلات ، وإذا دخل السينما هرول شوطاً طويلا ثم جلس فى مقعد يشعر فيه بأنه يشارك أبطال الفلم فى حياتهم : همسهم له وحده ، وابتسامتهم تحية يخصونه بها دون الحاضرين .

وهو أيضاً مشغوف بالمسارح الاستعراضية ؛ إذ يجد فى موسيقاها وتهريجها وراقصاتها أشباه العاريات نشوة لروحه المتعطشة للمرح . . .

ودخل أحد هذه المسارح ذات مساء وهو هامد الجسم متعب الروح تدل نظرته المنطفئة على الهوة الكبيرة بين آماله وأوجاعه ، وقارب البرنامج نهايته وعزفت الموسيقى لحناً معروفاً ، ثم ارتفع الستار عن فتاة شقراء ، شاهد من قبل كثيرات من أمثالها ، وكاد يحول بصره عنها ؛ فحركاتها مفتعلة وقفزاتها نكراء ، ولا فتنة فى ثوبها الفضفاض الذى شقه من أمام مقص عابث فكشف عن ساقين عاريتين يتموج عليهما النور والظلال . وضحك فى نفسه إشفاقاً عليها وهو يقول : « تتعب نفسها فى لا شئ ! » وفجأة أزاحت الستار الجانبى يد يلمع فيها خاتم وخرج من ورائه شاب طويل القامة ، ممشوق القد ، هو صفحة مزقت من « ألبوم » الخياطين : بذلته السوداء ذات الذيل قد ركبها على جسمه كواء صبور ، وربطة عنقه البيضاء قالب من المرمر ، والسلسلة الفضية المدلاة إلى جيب سرواله قيست بالمليمتر ، ولولا خط الفرق الناصع كأنه مرسوم بالمسطرة ، لما اختلف شعره فى لونه ولمعانه وتماسكه عن حذائه المصقول .

وقف الشاب لحظة وقد رفع كتفيه ، وقطب حاجبيه ، يرمق الفتاة كما يرمق الصقر الحمامة ، وزادت الراقصة فى حركاتها واضطرابها وأخذت تذرع المسرح جيئة وذهاباً . ثم قطعت الموسيقى دقة عالية من الطبلة فانقض على

فريسته وطوقها بذراعه ، فجفلت منه ، فلاحقها وأطبق عليها من جديد ، وخرست الطبلة وارتفعت أصوات الكمان بلحن بطيء ناعم . ماذا به يسيرها إلى الأمام و إلى الخلف وهي خاضعة بين يديه و إن كان الغضب قد كسا وجهها ، ولكن على من؟ يا لله ! ما هذه الرجولة ! وما هذا السلطان ! استيقظ صاحبنا من سباته وامتدت رقبته قليلا . وجه هذا الراقص وجه صارم ، وشفتاه مطبقتان ، وعيناه قاسيتان ، ولساته رغم نعومتها تنبئ بأنه اعتاد أن يأمر فيطاع . . . وانفلتت منه الفتاة معرضة عنه ، فلم يبال ، وانصرف عنها ودار على نفسه مختالا وقد ثنى ذراعيه وراء ظهره كهذه الديكة المركبة على المداخن حين تضربها الريح . . . ثم اقترب منها وجذبها إليه جذبة لو كان فيها بقية من الكرامة لصفعته من أجلها على وجهه . وتمتم صاحبنا يقول : « هكذا المرأة حينما تحب » . شدها ورفع جسمها على كفه فاستسلمت كأنما ترقد على فراش وثير ، أما ساقها المدلاة فمن بعض الدلال . أخذ يدور بها ، هل يريد أن يدوخها أيضاً ! ثم أنزلها فجأة إلى الأرض فلم تترنح الماكرة أو تغمض عينيها هنيهة ليرتد إليها بصرها من زوغانه ، بل هبطت فى خفة الريشة وعلى وجهها ابتسامة النصر واللذة ، هذا أول الرضا والصلح . . .

وبلع صاحبنا ريقه وتحرك فى مقعده قليلا . . . هو سعيد لأنه وجد فى هذا الرافص خير تعبير عن عواطفه ، وعن آرائه فى المرأة . . . هى حيوان لا يخضع إلا للسيطرة ولا يؤخذ إلا بالعنف كما كانت تؤخذ جداتها من سواكن الغابات . ولهذا فانه حين يتعرض للفتيات فى الطرفات يقابلهن برأس شامخ ووجه متجهم ، و إذا ظلت حياته إلى اليوم خالية من الظفر فى معارك الحب فيكفيه رضا أنه لم يذل لامرأة . حقا أنه جرى وراء بعضهن وفى قلبه لهفة وتضرع وعلى لسانه ألف استجداء ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا من قبيل التسلية ، وأما ارتداده خائباً كل مرة فنسيٌ يحمد الله من أجله لأنه يحفظ عليه آراءه ومبادئه .

وأنّت أوتار الكمان أنيناً رقيقاً سيالا ، فإذا بجسم الفتاة يكاد يلتصق بجسم الفتى وذقنها بذقنه . . . والتفت ذراعه كالأفعى حول وسطها ، وسمت كفه إلى ما بين نهديها ، وخيل للحاضرين أنهما نسيا العالم والمسرح ومن فيه . . . نعم إن هذا هو الامتزاج والحب الذى من أجله وحده خلق الرجل . . . فنسى صاحبنا كبرياءه وسرح ذهنه ، فاذا به يرى نفسه بين يدى امرأة طيبة

القلب رقيقة اللمسة ، رقيقة الاشارة ، رقيقة الابتسامة ، تلفه كما تلف أغصان الشجر إنساناً ضالا فى حمارة القيظ ، من أنت ؟ وأين أنت ؟ أيا تكونين وأنى تكونين ؟ فأنا أنتظرك وسأجلس بين يديك أعترف أن كبريائى جراح أخفيها ، وأن رأسى لم يشمخ إلا لأنه لم يجد صدراً يستند إليه . ولو كشفت عن قلبى لوجدت معيناً من الحب والوفاء لا ينضب . . . ولو تنبه صاحبنا لوجد أن فتاة أحلامه تشبه هذه الراقصة شبهاً كبيراً ، غير أنها ترتدى ثوباً لم يعبث فيه المقص . . . ولكن هيهات ! أنى له كل هذا ؟ إنه فتى خجول منطو على نفسه ، بل هو مخلوق عجيب كأنما يتكلم بذهنه الثرثار ويفكر بلسانه الأخرس . . . وشاء المولى ألا يجود عليه كما جاد على هذا الفتى بالوسامة والرشاقة وقوة الإرادة ، واختلطت فى قلبه عاطفتان متناقضتان : إعجاب بالراقص وكره شديد له . . . وندم على مجيئه للمسرح ، وود لو أنه كان قد ذهب إلى السينما ؛ فهى بلسم النفوس الحزينة التى تشتكى الوحدة .

وبدأت الموسيقى تخف شيئاً فشيئاً وأقدامها تتثاقل معها حتى انتهى اللحن وهما على وشك أن يتبادلا قبلة خاطفة . ومالت الفتاة نحو الأرض وثنت إحدى ركبتيها لتحيى الجمهور . أما الفتى فقد ظل ممسكا يدها ، وحنى رأسه قليلا ، ثم رفعه فجأة وهو يبتسم . . . وأسدل الستار .

خرج صاحبنا يتنزه كعادته فى عصر اليوم التالى ، وسار فى الطرقات متمهلا وهو منكس الرأس ، وفى قلبه إيمان خفى بالمعجزات . . . ومرت به فتاة وثانية وثالثة ، ولكن لم تحس به واحدة منهن .

ووقف أمام واجهة متجر يعلن عن ورود نوع من الجوارب رخيص الثمن ، فدس يده فى جيبه وعد نقوده وتوكل على الله ودخل . ولم يكد يمر بين البائعين حتى وقعت نظرته فى قسم المنسوجات على اثنين من الزبائن جالسين وجهاً لوجه فى مقعدين أمام البائع : سيدة عجوز أطبقت يداها على محفظة قديمة كأنها تخشى أن تختطف منها ، وعلى رأسها قبعة من القش الأسود اللامع على شكل خوذة ، وبين يديها شاب أصلع محنى الظهر مصفر الوجه كسير النظرة شاحب الجفن ، أصابعه الطويلة النحيلة الناتئة العظام فيها وجل الكلاب الضالة . قال صاحبنا لنفسه : « أين رأيت هذا الوجه ؟ أين أين ؟ وفجأة تذكر ، هذا هو الراقص البديع

بعينه ، ولكن أهذا ممكن ؟ لم تكن لمعة العين إلا من الكحل الأزرق ، والشعر الأسود مستعار ، وبهاء الوجه طلاء ، والخاتم « الماس بيره . . . » ووقف صاحبنا ذاهلا برهة ، ثم اقترب منهما وجعل ينظر إلى الأقمشة المعروضة وهو يسارقهما النظر والسمع ، فاذا بها تقول له بصوت تخالطه موسيقى الربو :

— لا تتعجل . ولنحسب حسابنا ، فالقماش غال ويكفيك أن تشترى متر ين وثمانين سنتيمتراً . . . عليها لعنة الله . . .

— أليس من الخير أن نشترى ثلاثة أمتار كاملة ، فقد أحتاج فى المستقبل إلى تغيير « الياقة » .

— الآن عقلت ! وأين كنت حين هجمت عليك هذه الدنيئة ومزقت « فراكك » وأنت ولى نعمتها وكيف لم تنقذ نفسك منها ؟

— قلت لك يا أماه ألف مرة إننى خفت أن يرتفع الستار مرة أخرى إذ كان الجمهور لا يزال يصفق .

— أنت أحمق ! كان يجب حين أصرت على فسخ عقدها معك وأنذرتك أنها تراقصك ليلة أمس آخر مرة أن تصفعها على وجهها وتطردها . ولكنك هددتها بتمسكك بالعقد . . . ولماذا ؟ ألم يتركك كثيرات غيرها فلماذا آثرت هذه المرأة ؟ عساك سقطت فى حبائلها وفتنتك وظننت أنك تحبها . . .

فأجابها بصوت حزين فيه وسوسة الكذب :

— تعلمين يا أماه أننا لا نخلط فى مهنتنا بين العمل والعاطفة .

— هذا درس لك . وبعد فأنت لم تخسر شيئاً ، ولكنى أنا التى أضعت جهدى وتعبى ، فقد أبقيته لك جديداً عشر سنوات واحتفظت به كانسان عينى ، ولكنك أضعته فى طرفة عين بفضل هذه الساقطة . وإذا دامت حماقتك فخير لك أن تترك الرقص الكلاسيكى إلى الرقص البهلوانى ، فهذا أليق بك وأسلم .

وخرج صاحبنا من المتجر مهرولا ، وسار فى الطرقات يتعرض للفتيات تارة بابتسامة ذليلة وتارة بكبرياء وهو رافع الرأس متجهم الوجه . . .

ولا يزال إلى اليوم فى حيرته . . .

يحيى حقى

العتبي

فى هذه الصورة التى نقصد إلى جلائها مثل من الأمثلة التى توضح بعض النواحى الغامضة والتيارات الخفية السارية فى المائة الأولى من قيام الدولة العباسية ، وتبين شيئاً من الألوان التى كانت تسود الحياة الأدبية والعقلية فى هذه الفترة من الزمن . وفى هذه الشخصية التى نرجو أن نتبين — قدر ما يمكن أن يتاح لنا — شيئاً من ملامحها وقسماتها ، طائفة من الخصائص التى تميزها عن معاصريها ، سواء فى تلك الملامح والقسمات ، أم فيما أحاط بها من الأسباب والملابسات . وإذا كان تراثنا الأدبى الذى بقى لنا عن هذه الفترة يضعنا من هذه الشخصية أمام صورة غامضة مبهمة ، لا تكاد العين تستبين منها خاصة واضحة ، أو تتعرف فيها سمة بارزة ، لضآلة ما كتبوه فى ترجمتها من ناحية ، ثم لتشتت ما أثر عنها وذهابه فى ثنايا الكتب المختلفة وتضاعيف ذلك التراث الأدبى المختلط ، من ناحية أخرى ، فسنحاول فى هذا الفصل أن نضم المتفرق ونلم المتشعث ، ونستلهم روح العصر ، ونتعرف بذلك ما عسى أن يجلوها ويبرز بعض خصائصها ويضعها فى مكانها ، ويظهرنا على الصلات التى تربطها بما حولها .

والعتبى عالم راوية شاعر ، ولكنه طراز آخر غير ما ألفنا أن نراه فى رواة ذلك العصر وعلمائه وشعرائه . لم ينشأ نشأتهم ، ولم يخرج من طبقتهم ، ولا تعرض لما تعرضوا له من مشاعر وأحاسيس أحاطتهم بها طبقتهم الاجتماعية التى يمتون إليها . وإن هذا اللقب الذى يحمله ويعرف به ولا يكاد يعرف بغيره ليشير إلى هذه المفارقة ؛ إذ ينبه إلى ذلك الأصل الذى ينحدر منه ويرجع إليه ، وهو الأسرة الأموية عامة ، وعتبة بن أبى سفيان خاصة . فها هو ذا إذن عالم راوية من طبقة السادة الفاتحين ، لا من طبقة الموالى ، يصطنع العلم ، ويأخذ

الرواة عنه ، ويكتب الكتب فيدفع بها إلى الوراقين ، أو يتلقفونها عنه ليذيعوها ، شان أولئك العلماء من الموالى الذين ليس لهم من نبل الأصل ولا من تقاليد السؤدد ومواضعاته فى ذلك العصر ما يرفعهم عن هذه الصناعة . وها هى ذى ظاهرة من ظواهر التحول الاجتماعى الذى أخذت الجماعة الاسلامية تخضع له ، وقد جعلت بعض نوازعه تتمثل مبكرة فى أبى عبد الرحمن العتبى هذا ، وقد وجدت فيه من الملابسات الخاصة ما أبرز هذه الظاهرة ومكن لها وشق سبيلها لتصبح بعد قليل أبعد مدى وأوسع انتشاراً ، فكان — إلى جانب رجل كمصعب الزبيرى — من أول الذين تحطمت لديهم هذه الناحية من تقاليد السؤدد العربى فى العراق ، وإن كنا — حين نتتبع حياته العلمية واتجاهه الروائى — نراه محكوماً إلى حد غير قليل بجو خاص ، هو جو هذه الأسرة التى خرج منها ، وظل يحمل اسمها . وإذن فلا بد لنا أن نحاول تعرف ذلك الجو ، ومبلغه من التأثير فيه . ويبدو أن العامل الأول فى تكييف ذلك الجو ، ثم فى اتجاه العتبى تلك الوجهة ، يرجع إلى تلك الغير التى عانتها هذه الأسرة فى صلتها بالسلطان . فقد كان عتبة بن أبى سفيان ، وهو — كما قلنا — الجد الأكبر لهذه الأسرة ، أخا الخليفة وردءه، وأحد الذين بنوا تلك الدولة ومكنوا لها ، وردوا عنها كثيراً من المكايد التى كانت تتربص بها ، والفتن التى كانت تتوثب عليها . وقد كان — كما نستطيع أن نرى ذلك من مواقفه فى مصر وخطبه المأثورة بها — رجلا مهيباً شديد البأس قوى العارضة بيناً حاضر الحجة ، اجتمعت له فى شخصيته الصفات التى تجعله من بناة الدول ، وكذلك كان من أقوى بناة الدولة الأموية ، وإن عاجله الموت فمات سنة ٤٤ مرابطاً بالاسكندرية . وبموته انتهى — فيما يبدو — نصيب هذه الشعبة من السفيانيين فى الدولة ، فلم نعد نرى أحداً منهم يشارك فى أعمالها ، أو يتولى أموالها ، وإن كان فيهم رجل كعمرو ابن عتبة عرف ببعد النظر ورجاحة العقل وشجاعة القلب والاتزان والبعد عن الهوى ، وهى الصفات التى أهلته ليكون زعيما للسفيانيين ، يدافع عنهم ، وينطق بحجتهم ، ويتكلم بلسانهم ، فيما كان بينهم وبين المروانيين الذين صار الأمر إليهم ، وفيما كانت الدولة تنالهم به — ولا سيما فى أيام عبد الملك بن مروان — من تسخط عليهم ، وتنكر لهم ، وانتقاص لحقوقهم . ولكنه اكتفى بهذا القدر فى موقفه من الدولة ، فلم يغامر فى شئ من السياسة ، ولا شارك فى شئ مما كان يدبر ضدها ؛

ويراد به إحداث نوع من الانقلاب فيها ، وتهيئة الأمر لبعض هذه الأسر الأموية التي نحيت عنه ؛ فقد كان إلى جانب تلك الصفات التي ذكرناها رجلا مستقيم الخلق صريح المذهب قوى الشعور بحرمة الرحم الماسة .

ولعله كان أول من استوطن بأسرته البصرة ، وقد عاش بها سريا ممدحاً . ولعله لم يكن يتاح لنا أن نعرف إقامته فيها ، وأولية هذه الأسرة بها ، لولا هذه الأبيات التي قالها الفرزدق فى مدحه :

لولا ابن عتبة عمرو ، والرجاء له ... ما كانت البصرة الحمقاء لى وطنا
أعطانى المال ، حتى قلت : يودعنى ... أو قلت : أودع لى مالا رآه لنا
لجوده متعب شكرى ، ومنته ... وكلما زدت شكراً زادنى مننا
يرمى بهمته أقصى مسافتها ... ولا يريد على معروفه ثمنا

وانتهت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية مقامها ، والعتبيون بالبصرة وعلى رأسهم فى ذلك الوقت عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة ، جد العتبى . وكان على البصرة حينذاك سليمان بن على . وقد شارك فى الخطة التى اختطتها الدولة الجديدة للانتقام من بنى أمية وتتبعهم والتنكيل بهم . فاستطاع عمرو بن معاوية أن يختفى بأهله حيناً من الزمن ، حتى استقرت النفوس وهدأت الثائرة بعض الشئ ، فأظهر نفسه ، وتقدم إلى سليمان بن على ، فقال له : « أصلح الله الأمير ! لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك . فاما قتلتنى غانماً ، وإما رددتنى سالماً » . فقال له : « ومن أنت ؟ ما أعرفك ! » ، فانتسب له . فقال سليمان : « مرحباً بك ! أقعد آمناً غانماً . ما حاجتك ؟ » ، فقال : « إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خفن لخوفنا . ومن خاف خيف عليه » . فدمعت عينا سليمان ، ثم قال : « يا ابن أخى ! يحقن الله دمك ، ويحفظك فى حرمك . ويوفر عليك مالك . والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت . فكن متوارياً كظاهر ، وآمناً كخائف » . ثم استصدر سليمان بن على من الخليفة أماناً له ولمن كان ثمة من أسرته .

وهكذا نجت هذه الأسرة من تلك العاصفة العاتية التى هبت على الأمويين فى مختلف الجهات ، فاقتلعت معظمهم وطوحت بهم إلى ما وراء هذه الحياة ، واستطاعت أن تستقر آمنة مطمئنة فى هذه المدينة التى اختارتها لنفسها منذ

جيلين مضيا ، وكانت قد رأت فى الاقامة فيها ما يكفل لها الهدوء والبعد عن تلك التيارات والنزعات التى كانت تفسد على الأسرة الحاكمة حياتها فى الشام . ولكنها إذ تحس اليوم روح الأمن وبرد الطمأنينة تحس إلى جانب ذلك أنها فقدت مكانها الذى كانت تتبوؤه من قبل ؛ فلم تعد تلك الأسرة السرية التى تربطها بالدولة أوثق الأواصر ، والتى تملك من أحاسيس المجد ومظاهره ما يملؤها عزة ، ويحيطها بمعانى الكبرياء والرفعة ، ويرتفع بها عن اصطناع أساليب الحياة التى يصطنعها عامة الناس . فقد ذهب عنها ذلك كله بذهاب دولة بنى أمية ، وأصبحت لا تملك منه إلا ما بقى لها من ذلك الرباط التاريخى الذى يربطها به . فليس لها إلا أن تتبلغ برواية أخباره ، وتناقل أحاديثه وآثاره .

ولعل الأمر لم يقتصر على ذلك فيما يتعلق بهذه الأسرة . فهى لم تفقد مكانها الاجتماعى فى هذه المدينة فحسب ، بل تغير الجو من حولها كذلك فيما يمس مشاعرها العربية أولا ، ومشاعرها الأموية ثانياً . فلم تعد الدولة عربية ، كما كانت من قبل ، بل أصبحت فارسية فى كيانها وفى اتجاهها وفى هذه الألوان الغالبة عليها . ولم تعد تلك النزعة الشعوبية تتسلل فى خيفة ورقبة واستحياء ، بل أصبحت نزعة قوية عارمة ، تجاهر بالدعوة ، وتفرط فى الخصومة ، وتتقحم على الناس فى شئ غير قليل من الكبرياء والقحة ، غير متحرجة ولا متأثمة . ثم ها هى ذى الدولة القائمة لم تكد تفرغ من حملة المطاردة والتقتيل والتمثيل التى شنتها على الأمويين ، حتى أخذت تنظم حملة أدبية عليهم تتجه بها إلى نفوس الناس وعقولهم ومشاعرهم ، فأخذت توعز بالوسائل المختلفة إلى بعض العلماء والرواة ليكونوا أداتها فى هذه الحملة ، إذ يتناولون خلفاء الأمويين وأمراءهم ، يتعقبونهم ، وينقبون عن أخبارهم ، ويمثلون بتاريخهم ، ثم يولدون الأخبار المنكرة وينسبونها إليهم ، سواء فى ذلك حياتهم الخاصة وحياتهم العامة ، مما لا يزال لدينا منه أطراف مختلفة فى كتب الأدب والمحاضرات تمثل لنا هذا النوع من النشاط . وهكذا جعلت هذه الأسرة تتنفس ذلك الجو البغيض يمضها ويوغر مشاعرها ، ويثير فى نفسها ألم الذكريات . وفى ذلك الجو نشأ صاحبنا أبو عبد الرحمن محمد ابن عبيد الله العتبى .

خرج العتبي إذن من بيئة غير تلك البيئات التي تعودنا أن نرى العلماء والرواة في تلك الفترة من الزمن يخرجون منها ، وفي تلك الملابسات التي خلقت في تلك البيئة جوًّا خاصا بها . وقد تكون هذه الأسرة قد أحست منذ انتقل الأمر من السفيانيين إلى المروانيين ، شيئاً من العزلة . وقد يكون من مظاهر هذا الإحساس هذه الإقامة البعيدة في البصرة في غير حاجة إلى هذا الابعاد من ولاية أو نحوها . ولكن هذا الاحساس بالعزلة قد أوجد لها نوعاً من الاعتداد بالنفس ، ونزع بها — فيما يبدو — إلى استمداد الشعور بالكرامة ، واستبقاء روح العزة من أصول أبعد من الخلافة والملك ، كالذي نلاحظه في بعض مايروى من حديث عمرو بن عتبة إلى بنيه في شيء من الخصومة وقع بين آل أبي سفيان وبني مروان ، إذ يقول لهم : « إن لقريش درجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالا تخشع لها رقاب الأموال ، وألسناً تكل عنها الشفار المشحوذة ، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة . ولو كانت الدنيا لهم ضاقت عن سعة أحلامهم ، ولو احتفلت ماتزينت إلا بهم . ثم إن ناساً منهم تخلقوا بأخلاق العوام ، فصار لهم رفق باللؤم ، وخرق في الحرص . لو أمكنهم قاسموا الطير أرزاقها . إن خافوا مكروها تعجلوا له الفقر ، وإن عجلت لهم نعمة أخروا عليها الشكر . أولئك أنضاء فكر الفقر ، وعجزة حملة الشكر » .

فعمرو بن عتبة لا يحاول في هذه العبارة — إن صحت نسبتها إليه — أن يثير في ولده الشعور بالكرامة ، بالتحدث عن بني أمية ، بل هو يرجع بهم إلى ذلك الأصل الأبعد ، وهو قريش . ومهما يقع الشك في نسبة هذه الفقرات ، فليس يفوتها — إذ كان راويها العتبي — أنها تصور ذلك النوع من شعور الأسرة منذ حدثت الفرقة بين السفيانيين والمروانيين . فالذي يعنينا في حقيقة الأمر من هذا هو مايمكن أن يخلص لنا من تصور هذه الأسرة أنها كانت تعيش منذ عهد غير قريب — بالنسبة لعهد العتبي — منقبضة في نفسها وفي مشاعرها الخاصة بها . فلم تكن تعيش في الخارج قدر ما كانت تعيش في ذلك الجو المقصور الذي يضطرب بالأخبار والروايات والأحاديث الخاصة التي تنحدر إليه وتتسلل نحوه عن الآباء والأجداد والأهل والحاشية ، فتجد فيها أنواعاً من الأنس ، في وسط ذلك الشعور بالعزلة .

ومهما يكن من أمر هذا الشعور فقد كان يخالطه من بعض جوانبه —

بطبيعة الحال — الاحساس بمجد الخلافة ، على ما ذكرنا من قبل ، ولا سيما إذ كان الناس ينظرون إليها بهذا الاعتبار ، وإذ كان من الطبيعي أن يتجاوب وإياها إحساس هؤلاء الناس لقاءها . فالعزلة النفسية التي كانت هذه الأسرة تستشعرها إنما كانت إحساساً جزئيا على كل حال ، حتى تغير الأمر ذلك التغير ، وحدث ذلك الانقلاب ، وانتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس ، ثم حدث ما أشرنا إليه من استعلاء النزعة الشعوبية ؛ ومن ذلك الاتجاه إلى تشويه الذكريات الأموية ، ومحق ما عسى أن يكون فيها من مأثرة تؤثر ، أو فضيلة تروى وتذكر . وبذلك نمت هذه العزلة النفسية واستحكمت حلقاتها أو كادت ، وقوى إحساس العتبيين أنهم يحيون في غير زمانهم ، أو كأنهم لم يعودوا يعيشون إلا في هذه الذكريات والأخبار التي جعلت تملأ جوهم وتؤنس وحدتهم .

ولسنا ندري على وجه الدقة متى ولد محمد بن عبيد الله العتبي ، فلم يشر المؤرخون إلى ميلاده أية إشارة ، وكأنما كان ذلك من مظاهر تلك العزلة التي عانتها أسرته التي ولد فيها ، في إبان استحكام حلقاتها فيما يظهر . وإن كنا نستطيع أن نجد في مقارنة بعض النصوص والاستنتاج منها ما لعله يدلنا بعض الدلالة على وقت مولده في شيء من المقاربة . من ذلك ماحكاه المرزباني في حديثه عنه ، في كتابه معجم الشعراء ، أنه بلغ سنًّا عالية ، وما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه أنه مات سنه ٢٢٨ . فلنا من هذا أن نفترض القول بأنه ولد قبل منتصف القرن الثاني . فاذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرهالخطيب من أنه تلقى عن أبي مخنف لوط بن يحيى ، وقد مات أبو مخنف هذا — كما ينص على ذلك ياقوت — سنة ١٥٧ ، كان لنا أن نفترض سنة ١٤٠ تاريخاً لمولده ، أو قريباً من ذلك .

والأمر في نشأته كالأمر في سنة مولده غامض مبهم لم يصلنا عنه شيء ، إلا مايذكره الخطيب حين يجد نفسه مضطرا إلى أن يذكر شيوخه ، فيقول إنهم أبوه وسفيان بن عيينة وأبو مخنف . وقد يكون مما يلفت النظر ويثير الشعور بالغرابة أن يكون سفيان وأبو مخنف شيخيه ، وليس واحد منهما بصريا . فسفيان كوفي الأصل انتقل إلى مكة فصار محدث الحرم ، وأبو مخنف كوفي أيضاً . فما دلالة هذا ؟

والخطيب حين يذكر هؤلاء فانما يذكرهم على أنهم شيوخه في الحديث ،

فأما شيوخه فى غير الحديث فليس هنالك مايدلنا على أحد منهم ؛ فالتراجم التى وقفنا عليها لا تشير أية إشارة إليهم ، والأخبار المتناثرة المستندة إليه — مما بين أيدينا — لا تكاد تكون فى أسانيدها إشارة إلى شيخ من أصحاب الرواية كان يروى عنه هذه الأخبار وكأنه ليس هنالك إلا أبوه عبيد الله بن عمرو . وإذا صح أنه لم يتلق الأدب عن أحد من هؤلاء العلماء الذين كانت البصرة تزخر بهم كان ذلك أمراً غريباً ، غرابة ما أشرنا إليه من أنه لم يتلق الحديث عن أحد من شيوخ البصرة ، وإنما تلقاه — فيما يظهر — فى بعض رحلاته إلى الحجاز . وكأنه قصد إليه — أى إلى الحديث — كما كان يقصد إليه أبناء الأمراء ، فهو نوع من الترف ، وهو تقليد من التقاليد . ومن ذلك لم يعن بالتخير ؛ فأحد شيخيه وهو سفيان ثقة ، والآخر « كوفى ليس حديثه بشئ » كما يقول ابن معين عن أبى مخنف . فتأويل تلك الغرابة يمكن أن يكون فى هذا ، كما يمكن أن يكون فى تلك العزلة التى استحكمت واشتدت فى ذلك العهد الذى نشأ فيه العتبى . وبذلك كان شيخه الأول — ويكاد يكون شيخه الفرد — أباه عبيد الله بن عمرو ، وكان سيداً أديباً فصيحاً ، كما يصفه ابن النديم .

نشأ محمد بن عبيد الله فى وسط تلك الحالات النفسية المقصورة التى عرضناها ، وجعل عقله وخياله يتفتحان على هذه الأحاديث والآثار التى كانت أسرته تتناقلها ، والذكريات التى كانت تتوارثها : تتعزى بها ، وتأنس إليها . فجعل يتحفظها ويرويها ويملأ قلبه وعقله بها ، على ذلك الوجه ، لا على أنها علم يدرس . وإن كانت لم تلبث حتى صارت فنا من فنون الرواية يرويه الرواة ويستمع إليه الطلاب ويدونه الوراقون ويذيعونه ، حين اتجهت الدعاية إلى الغض من الأمويين وتشويه آثارهم ومحق مآثرهم ، بتأثير النزعة الشعوبية المتوثبة والدولة الجديدة جميعاً ، فأحس العتبى بما ينبغى أن يبذله لقاء ذلك ، فاتجه إلى إذاعة هذه الأخبار والآثار التى كان يحفظ منها قدراً غير قليل . وقد وصلت إلينا طائفة من هذه الأخبار منسوبة إليه ، وهى تتجه فى مجموعها إلى تمجيد بنى أمية ونسبة صنوف مختلفة من الفضل لهم ، سواء فى ذلك خلفاؤهم وأمراؤهم وولاتهم ، كمعاوية ، ويزيد ، وخالد بن يزيد ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد ، وعمرو بن عتبة ، والحجاج ، وعبيد الله بن زياد ، وخالد بن عبد الله

القسرى . وكأنما كان بذلك يحاول أن يصلح ماتفسده الدعاية ، وأن يعدل كثيراً من الصور التى كانت تذيعها عن رجال تلك الدولة الذاهبة . و إذا كانت فتنة الرواية فى تلك الفترة قد طرّقت سبيلا نهجاً لدعاة الشعوبية ورجال الدولة الجديدة ، فاستطاعوا فى غمرتها أن يدسوا دسائسهم ، ويبثوا ضد الأمويين دعايتهم ، فان هذه « الفتنة بالرواية » نفسها قد أتاحت لأبى عبد الرحمن العتبى أن يقاوم تلك الدعاية ، بما كان يذيع من أخبار الأمويين ومآثرهم .

و إذا كان دعاة الشعوبية قد وجدوا فى خلال تلك الثورة الاجتماعية التى صحبت قيام الدولة العباسية كثيراً من الآذان المصغية إليهم والقلوب المائلة نحوهم والمشاعر المشاركة لهم ، فقد كان هنالك من يحس العطف على بنى أمية والرثاء لهم ، ولا سيما فى مدينة كالبصرة كانت العثمانية تحتل فيها مكاناً ظاهراً ، وكانت روح السخط على الدولة الجديدة لا تزال متفشية فيها غالبة عليها . و إذا كانت النزعة الأموية فى ذلك الوقت أمراً محتاجاً إلى الدرس لتبين وجوهها المختلفة ، فليس هناك من شك فى أنها كانت موجودة على نحو ما . وليست أسطورة السفيانى إلا مظهراً من مظاهر تلك النزعة . فقد كان موقف العتبى إذن استجابة أدبية لها ، إلى جانب كونه عاملا من العوامل التى جعلت تغذيها وتشد من جانبها ، حتى أصبحت بعد ذلك بقليل ، وفى أيام الخليفة المأمون ، أمراً واضح الخطورة ، تحسب الدولة حسابه وتخشى جانبه ، وتتخذ التدابير لمواجهته . و إن كنا لا نشك فى أن نشاط العتبى من هذه الناحية كان نشاطاً أدبيا خالصاً فى ذاته ، وأنه لم يتجه به وجهه سياسية ، و إن وجدت السياسة فيه شيئاً تستطيع أن تستغله .

وهكذا نرى أن العتبى كان يمثل بتلك الوجهة التى اتجه إليها فى رواية الأخبار تياراً من التيارات الخفية السارية فى المجتمع الاسلامى لذلك العهد ، والذى لم يلبث أن جهر واستعلن . ولكنه كان يمثله من الناحية الأدبية التى نعنى هنا بملاحظتها وتسجيلها ؛ إذ كانت العناية بالصورة الأدبية الفنية لهذه الأخبار ظاهرة الأثر فيها .

وبعد فقد كان العهد الأموى — كما قلنا — عهداً عربيا يمثل الروح العربية فى جميع ألوانه ، فى رجاله وفى بيانه ، فلا جرم كان تصويره تصويراً للروح

العربية ، وكانت رواية آثاره تعتبر من بعض وجوهها استجابة لهذه الروح ، كما أنها كانت تجد الحافز لها عند العتبي من ناحية الأموية والعربية جميعاً ، وهما فيما يبدو متداخلتان عنده كل التداخل . وإن من الآثار التي كان يعني بروايتها مالا يتضمن تمجيداً للأمويين ولا إشادة بهم ، وليس يربطها بهذه الناحية إلا أنها من الآثار المنسوبة إلى عهدهم ، ثم هي ليست بعد ذلك إلا ألواناً من حديث الأعراب ، وصوراً من البيان العربي التقليدي الجميل . والواقع أن أول مايلاحظه المستقرى لما وصل إلينا من روايات العتبي في هذا الباب أنها رواية أدبية في جملتها وفي اللون الغالب عليها . فالأخبار المجردة قليلة الحظ فيها ، والكثرة الغالبة هي لهذه الآثار الفنية التي تمثل روح اللغة العربية ، على لسان بعض الأمراء الأمويين أو غيرهم ممن هم بسبيل منهم . ولعل من أوفر هؤلاء الأمراء حظا من ذلك جده الأكبر عتبة بن أبي سفيان ؛ فعناية العتبي برواية آثاره عناية ظاهرة ، لا لأنه جده الذي ينتسب إليه ويحمل اسمه فحسب بل لقدرته البيانية الرائعة فيما يؤثر عنه من خطب ، كخطبته في مصر حين أخذت الثورة على بني أمية تدب فيها ، وكخطبته في الحجاز سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بفتنة . فالأمر في مثل هذه الروايات يرجع إلى شعوره الشخصي وشعوره الأموي وشعوره العربي ونزعته البيانية جميعاً .

على أن هنالك إلى جانب هذا النوع من الرواية مجموعة من الآثار التي يعني العتبي بروايتها ، دون أن تكون أموية ، وإنما هي عربية أعرابية ، لا يربطها بالأموية إلا تلك الصفة العامة التي أشرنا إليها ؛ فهي أقوال من حديث الأعراب ، تختلف في موضوعاتها ، وفي نوع صياغتها ، وفي طولها وقصرها، ولكنها تتفق جميعاً في العبارة الجميلة المحكمة التي تصور روح اللغة العربية تصويراً جيداً ، وهي في جملتها أقرب إلى الحكم والأمثال وجوامع الكلم ومحكمات الأوصاف ، كقول أعرابي في صفة رجل شجاع : « نعم حشو الدرع ومقبض السيف ومدره الرمح هو . كان أحلى من العسل إذا لوين ، وأمر من الصبر إذا خوشن » ، وكقول آخر في وصف رجل جميل : « فلان إذا نظرت إليه موسسة سقط خمارها ، وإذا رأته العيدان تحركت أوتارها » ، وكقول ثالث في وصف الصديق : « خير الاخوان من ينيل عرفاً ، أو يدفع ضرا » ، وكقول

غيره في وصف مشهد طبيعي : « مررت ببلدة ألقى بها الصيّف بعاعه ، فأظهر غديراً يقصر الطرف عن أرجائه ، وقد نفت الريح القذى عن مائه ، فكأنه سلاسل درع ذات فضول » ، إلى غير ذلك من العبارات الجامعة التي تمثل روح العربية في التعبير وبناء الجملة وصفات الجمال فيها ، مما نجده متناثراً هنا وهناك في كتب الأدب العام كالأمالي والعقد وما إليهما .

على أن هناك سؤالا تثيره هذه الفقرات القصيرة المحكمة التي تمثل صورة أو تقدم حكمة ، والتي كان العتبي معنيا بروايتها عن الأعراب ، والتي تقابل نظائرها من صور الأدب الفارسي مما ذاع في العهد الساساني ، وعني بنقله إلى العربية في أوائل العهد العباسي : أهناك شيء من المعارضة كان يحسه العتبي ومن إليه حين كانوا يعنون برواية هذه الجمل القصيرة الجامعة ليضعوها بازاء ذلك النوع من الأدب الفارسي ، حتى لا يذهب الظن بالناس إلى أن مثل ذلك الفن لا عهد للعربية به ؟ إن روح ذلك العصر تجعلنا نرجح ذلك الفرض في الاجابة على ذلك السؤال . ومثل هذا يمكن أن يقال أيضاً عما يرويه العتبي مما يصور النسك عند الأعراب ؛ فقد ذهب في الناس أن النسك فارسي ، إذ كان أكثر النساك في ذلك العهد فرساً ، ومن ذلك نراه حريصاً على النص فيما سمعه من ذلك القبيل أنه سمعه من أعرابي .

وبعد فهذا هو العتبي الراوية ، وتلك هي وجهته في الرواية ، وذلك هو الأصل في تلك الوجهة . وقد رأينا مكانه من هذه الوجوه المختلفة التي كان يتخذها النشاط الأدبي في عصره ، وصلة ذلك بالنزعات السياسية السارية فيه . ولعلنا نستطيع أن نتعرف فيما قدمنا أثره في إمداد النثر العربي الفني وتوجيهه .

وليس من غرضنا في هذا الفصل أن نستقصي النواحي المختلفة لأبي عبد الرحمن العتبي . ولكنا لا نستطيع أن نغفل القول في المذهب الذي كان يصطنعه من مذاهب الحياة العقلية السائدة في ذلك الوقت . فقد كان الرجل إلى جانب تلك الثقافة العربية يأخذ نفسه ببعض فنون المعرفة الرفيعة، ويحاول أن يسبغ على نفسه بعض ألوان الحياة العقلية الممتازة ، وهي التي كانت تتمثل — أكثر ما تتمثل — في هذه الثقافة اليونانية التي أخذت الطبقة المترفة تراها مظهراً من مظاهر الترف ، فهي حريصة عليها حرصها على هذه المظاهر . وكذلك كان العتبي . ويشير الجاحظ في مقدمة الحيوان إلى الصلة

التي كانت بينه وبين رجل كمحمد بن الجهم ، من أصحاب تلك الثقافة — وقد أتيح لنا من قبل أن نتحدث عنه ونعرف بعض الشيء به [١] — وإلى أن تلك الصلة كانت تقوم بين ماتقوم عليه على التماس ألوان هذه الثقافة وآثارها.

وقد كانت هذه الثقافة اليونانية تسلك في ذلك الوقت سبيلين : سبيل المعتزلة ، وسبيل الأطباء . وكانت السبيل الأولى سبيل رجال الدين ،والثانية سبيل الرجال المدنيين ، ومن هؤلاء الأخيرين كان محمد بن الجهم ، وكان — فيما يصفه الجاحظ به — من فلاسفة الأطباء . وكذلك نستطيع القول بأن اتجاه العتبي إلى هذه الثقافة لم يكن اتجاهاً دينيا اعتزاليا ، وإنما كان اتجاها مدنياً فلسفيا ، وإن كنا لا ندري في حقيقة الأمر إلى أي مدى بلغ منها .

على أن الجاحظ يصوره لنا — في موضع آخر من كتاب الحيوان — صورة طريفة يحسن بنا أن نقف عندها وننظر فيها .فهو يعرضه في هيئة الرجل الذي يحرص أشد الحرص وأبلغه على دقة العبارة وتحرير المراد والتحرج في ذلك إلى أبعد مدى . ولكنه يدقق في غير موضع تدقيق ، ويتحرج دون مايدعو إلى التحرج ، ويبلغ من ذلك مبلغاً أدنى إلى السخف أو هو السخف نفسه . فهي صورة عابثة ساخرة تصور فن الجاحظ من ناحية ، وتبين من ناحية أخرى كيف كان ينظر إلى هذا الصنف من العلماء ؛ ولكنا مع ذلك لا نعدم أن نرى فيها أثر اتجاه الرجل للثقافة اليونانية في بعض مظاهر سلوكه في التفكير أو التعبير . قال :

« وكان العتبي ربما قال : « فقال لي المأمون كذا وكذا حين صار النجم على قمة الرأس ، أو حين جازني شيئاً ، أو قبل أن يوازي هامتي . هكذا هو عندي ، وفي أغلب ظني ، وأكره أن أجزم على شيء . وهو كما قلت إن شاء الله تعالى ، وقريباً مما نقلت » . فيتوقف في الوقت الذي ليس من الحديث في شيء . وذلك الحديث إن كان مع طلوع الشمس لم يزده ذلك خيراً ، وإن كان مع غروبها لم ينقصه ذلك شيئاً . هذا ولعل الحديث في نفسه لم يكن قط ، ولم يصل هو في تلك الليلة البتة . وهو مع ذلك زعم أنه دخل على أصحاب الكهف فعرف عددهم ، وكانت عليهم ثياب سبتية ، وكلبهم ممعط الجلد . وقد

---

(١) « فصول لم تنشر من آثار الجاحظ » الكاتب المصري عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا . »

فاذا نحن جردنا هذه الصورة من السخرية والمبالغة بقى لنا أن العتبي كان رجلا متنطساً متكلفاً فى حياته . ولعل ذلك كان أثراً من آثار البيئة المقصورة التى خرج منها وعاش فيها ، ووجهته تلك الوجهة التى رأيناها .

طه الحاجرى

علمان ضالان

الكيمياء قديماً والتحليل النفسى حديثاً

قد يقال وهل يجوز على العلم الضلال ؟ وهل يسمى الضلال علماً وحد العلم الهداية إلى الحق . الواقع أن لدينا تاريخ أحد هذين العلمين كاملا منذ أول نشأته و إبان ازدهاره وانتشار المؤمنين به إلى حين موته وانصراف الناس كافة عنه . ومع أن هذا العلم عاش نحو ألف عام فانه لا يمارى أحد اليوم أنه كان ضلالا كله من أوله إلى آخره . أما العلم الآخر وهو التحليل النفسى فهو علم حديث جدا وله أنصار عديدون ، وعلماؤه لايشكون فى صحة الأسس التى قام عليها وفى صواب نظرياته . ودليلهم على ذلك مجموعة كبيرة من النتائج وصلوا إليها وحققوا بها الشفاء لكثيرين من المرضى . وليس من السهل أن نتبين اليوم أضلال هذا العلم أم هو علم حق ، فالزمن وحده قادر على إثبات ذلك .

على أنه يخيل إلىّ أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذين العلمين ، وأن العلم الحديث سيصيبه ما أصاب أخاه من قبل ، ولن يمر وقت طويل حتى ينصرف الناس عنه ، ولن يعصمه من ذلك إيمان علمائه به ؛ فقد آمن علماء الكيمياء القديمة بها إيماناً تاما وساقوا الأدلة العديدة على صحتها ، ولم يكن يخطر ببالهم أن الزمن سيثبت أن علمهم لم يكن له أى نصيب من الحق .

هذه الدعوى الجريئة التى أتقدم بها تقوم على اعتبارات عدة ، أهمها عندى المطابقة التامة بين العلمين من حيث أن كليهما نتيجة لاستعمال طريقة بحث معينة فى مجال لا تصلح له ولا يصلح لها ، وأن كلا العلمين لا يخرج عن أن يكون مجموعة أخيلة وتصورات اخترعت اختراعاً لتفسير وقائع ينقصنا كل ما يجب أن نعلمه عن طبيعتها ، وكلاهما لا يصف الواقع و إنما يصوره ؛ ثم إن الغموض من أخص صفاتهما مما جعلهما من الصعوبة بمكان ، على حين أن العلم الحق يكون دائماً واضحاً صريحاً .

استعمل الكيميائيون القدماء طريقة الاستنتاج والمنطق فى فهم طبائع الأشياء وسنن الكون، وهى لا تصلح لهذ النوع من البحث، إنما يصلح لذلك طريقة العلم التجريبى ولم تكن قد استكشفت حينذاك . ولذلك حاول علماء التحليل النفسى أن يطبقوا المنطق التحليلى الحديث فى فهم معميات النفس، وهو أيضاً لا يصلح لذلك، بل لا بد لفهم طبيعة النفس من طريقة بحث أخرى غير المنطق التحليلى والتجارب ، وهو ما لم توفق له بعد . فعلم التحليل النفسى محاولة لفهم شئ بطريقة بحث لا تجدى . مثله فى ذلك مثل الكيمياء القديمة سواء بسواء .

وتفصيل ذلك فيما يتعلق بالكيمياء أنها نشأت بعد أن أتقن الفلاسفة طريقة الاستنتاج والمنطق إتقاناً حسبوه أماناً من كل خطأ وغرهم ما وفقوا له من النجاح فى بحث العلوم النظرية المحضة ، فخيل إليهم أنه ما دامت قواعد المنطق سليمة فكل بحث لا بد يؤدى إلى الحق . ولما اشتد ساعدهم حاولوا أن يتبينوا حقيقة الكون بهذه الوسيلة ، ولم يكونوا ليعلموا أن هذه الطريقة لا يمكن أن تؤدى إلى غايتهم التى ينشدونها .

و إذا حاولنا أن نتبين القواعد التى بنوا عليها علمهم العجيب وجدنا أن الضلال لم يكن نتيجة خطأ فى المنطق ،و إنما كان نتيجة لتطبيق المنطق البحث على مالا يصلح له . وأبسط نظرياته فى طبائع الأشياء يمكن تلخيصها فيما يأتى : عناصر الكون أربعة : نار وهواء وأرض وماء . وخواص الأشياء أربعة : اليبس والرطوبة والحرارة والبرودة ، والأجسام عبارة عن جوهر وخاصتين ؛ فالنار حرارة ويبوسة وجوهر ، والهواء حرارة ورطوبة وجوهر ، والماء رطوبة و برودة وجوهر ، والأرض برودة ويبوسة وجوهر ، والجوهر واحد فى الأشياء كلها ، إنما تتنوع الأشياء بتنوع صفاتها . ثم فرضوا أن الجسم الرطب من الخارج لا بد أن يكون يابساً من الداخل (و إلا اختل توازنه) ، والجسم الحار من الخارج بارد من الداخل . ويقول جابر بن حيان بعد شرح ذلك إنك إذا بلغت بحسن التدبير إلى خلاص البرودة والرطوبة والحرارة واليبوسة مفردات كان مقامها مقام الحرارة الأولى (أى عند بدء الخليقة) وأمكن بذلك أن تتعلق هذه المفردات بالجوهر ، و يمكنك أن تركب بعدئذ ما تشاء . ويقول جابر (فيما ينسب إليه) : إذا أردت أن تجعل من الفضة وهى باردة يابسة من الخارج ذهباً وهو حار رطب من الخارج ، فأبطن برودتها فان حرارتها (الداخلية) تظهر ثم

أبطن بعد ذلك اليبس فان الرطوبة تظهر ، وتصبح الفضة بعد أن كانت يابسة باردة رطبة حارة وبذلك تصير ذهباً ، وهى عملية عقلية بسيطة لا غبار عليها من الناحية المنطقية و إن لم يكن لها أصل من الواقع البتة .

ضل هذا العلم طريق الصواب لا لخطأ فى الاستنتاج ، ولكن لما قام عليه من فروض حسبوها بديهيات . فعلماؤه يجمعون بين فكر ناضج وعقلية راقية وعلم ضئيل جدا . وعدم التناسب بين فكرهم ومعلوماتهم هو السبب فى ما عرض للصنعة من تشويه ، فخطؤهم الأول أنه ليس فى الأجسام الطبيعية ما كانوا يبحثون عنه ، وخطؤهم الثانى عدم التناسب بين فكرهم وعلمهم ، والخطأ الثالث تجاهلهم كل ما يحد من شطط الفكر حين يطلق من كل قيد فالوضوح والدقة فى التعبير والشرح الوافى كل أولئك وسائل تجعل الفكر يقف عند حد الصواب ، أما علماء الصنعة فقد كسروا كل تلك القيود ، فأصبح الغموض شرطاً فى كل ما يكتبون ، وأصبحت الألفاظ تعنى أى شئ ، والرموز تغنى عن كل دقة فى التعبير ، وأصبح التأويل وسيلة للتخلص من كل تناقض ظاهر . بذلك ساروا فى طريق الغموض لا حبا فيه ، ولكن لأنه نتيجة حتمية للمأزق الذى وجدوا أنفسهم وأوجدوا علمهم فيه .

أما علم التحليل النفسى فيخيل إلىّ أنه يشبه أن يكون قد نشأ فى نفس الجو العقلى الذى نشأت فيه الكيمياء القديمة ، وذلك أن الطريقة التحليلية على النسق الذى رسمه ديكارت والتجربة وهما أساس العلوم الحديثة قد أصابا من النجاح ما جعلهما موضع الثقة التامة ، بل إن الحياة الحديثة وما فيها مما بهر الناس ترجع كلها إلى التطبيق العملى لهذه الطريقة فى البحث . حتى أصبحت عند الكثيرين الطريقة الوحيدة التى تستحق العناية . والناس لا يتصورون طريقة غيرها للوصول إلى الحقيقة ؛ وهم معذورون فى هذه الثقة العمياء . أنه بلغ من نقديسهم لها أن ظنوها قادرة على حل كل معضلة علمية من أى نوع كان ، وبذلك اليقين حاولوا تطبيقها على العلوم النفسية .

والواقع أن الظواهر النفسية لا تخضع لهذه الطريقة التحليلية بسهولة ، ولم نستطع حتى الآن أن نتبين كنه هذه الظواهر ، وما دمنا جاهلين ماهيتها فليس من الممكن تحليلها . ثم إن علم فسيولوجيا المخ البشرى لايدل على أنه من السهل تحليل الظواهر النفسية : مثال ذلك أن أجزاء كبيرة من المخ (الفص الجبهى)

الذى يظن العلماء أنه مكان التفكير والشخصية ، يمكن إزالتها دون أن يفقد الانسان شخصيته أو ذاكرته كلها أو بعضها ، وقد تتأثر الشخصية ببعض إصابات هذا الفص ، ولكنه أثر لا يدل على تخصص نوع من الخلايا بنوع معين من العمل . ولو ثبت فى الفص الجبهى أن كل جزء منه خاص بنوع من العمل ، كما هو الحال فى بعض أجزاء أخرى من المخ ، لأمكن تحليل عمليات النفس . بل هناك من الظواهر ما يدل قطعاً على أن المخ فى الجزء الخاص بالفكر البشرى لا يعمل بطريقة تحليلية ؛ فقد أجريت عمليات قطعت فيها الصلة التشريحية تماماً بين الجزء الجبهى من المخ كله وبين بقية المخ ، ولم يتغير تفكير الناس ولم يفقدوا ذاكرتهم أو عواطفهم كأن الصلة بين المخ الجبهى والجسم صلة لا علاقة لها بالاتصال المادى التشريحى ، ولعله اتصال كهربائى أو كيميائى أو — كما هو الأرجح — اتصال بطريقة لم تعلم بعد .

كل هذه الاعتبارات تجعل الباحث يتردد كثيراً فى تطبيق الطريقة التحليلية على الظواهر النفسية ، بل إن هذه الاعتبارات تجعل الانسان يكاد يجزم أن تطبيق هذه الطريقة على النفس سيؤدى إلى قيام علم لا أساس له ، كما قام علم الكيمياء كنتيجة لتطبيق طريقة الاستنتاج على الظواهر الطبيعية .

وعلم التحليل النفسى يعلق أهمية كبيرة على الأحلام ؛ فهى عند علمائه صورة لما يجرى فيما أسموه «تحت الوعى» ، وهذا أيضاً تعبير خاص بهم ، وهذه الصور التى يستخرجونها من الأحلام تدلهم على الظواهر النفسية العميقة . وخطأ هذا الفرض أنه لا دليل عليه . وذلك أن طبيعة الأحلام غير معروفة ، وطبيعة تكوينها غامضة جدا ، وقد تدل على ظواهر نفسية كما ثبت من نتائج التحليل النفسى فى حالات كثيرة ؛ على أن هذه الدلالة قد تكون نتيجة لعلاقة أخرى بين الأحلام والنفس لا يمكن تبينها الآن .

ولعل قائلا يقول إن من براهين صدق نظرية التحليل النفسى فى الأحلام ما وصلت إليه من النتائج . وهو فرض خطير جدا ، كما ظهر من تاريخ علم الكيمياء فقد وصل علماؤها قديماً إلى نتائج بتسخين الزئبق وخلطه بالمعادن لا شك فيها ، وظنوا أن وصولهم إلى هذه النتائج يثبت نظرية أن للزئبق روحا تطير بالحرارة فتصبح رماداً لا روح فيه ، وهى نظرية نعلم اليوم أنها خاطئة . فالقول بأن أى فرض يمكن أن يؤدى إلى نتائج صحيحة

فهو صحيح قول مردود عليه بتاريخ الكيمياء وهو البرهان الوحيد على أن نظرية التحليل النفسي فى الأحلام صحيحة .

ثم إن التحليل النفسي وقع فى خطأ آخر ؛ وذلك أن أساس البحث فيه أن هناك عقداً نفسية يجب علينا أن نبحث عنها إذا أردنا فهم بعض الظواهر النفسية ، وأن هذه العقد ليس عليها دليل ظاهر إلا ما تدل عليه الأحلام والخطرات العابرة التى تخطر للناس وهم يظنون أنها تخطر عفواً . ونظريتهم فى ذلك أن هناك علاقة سببية بين الأحلام والخطرات العابرة وبين العقد النفسية . فاذا أمكننا أن ندرس الأحلام استطعنا بوساطتها أن نتبين ماهية العقد النفسية . وهو فرض خاطئ ؛ فقد يكون تماثل العقد النفسية والخطرات والأحلام تماثلا عارضاً وقد لا تكون العلاقة بينها علاقة السبب بالمسبب . مثل ذلك مثل الآلة التى تخرج ضوءاً وصوتاً يمكن اتخاذ أحدهما دليلا على الآخر دون أن يكون الضوء سبباً للصوت أو الصوت سبباً للضوء ، ووجود هذه العلاقة لا يدلنا على ماهية الضوء أو الصوت . كل هذه الاعتبارات تجعل الأسس التى يقوم عليها تفسير العقد بالأحلام على فرض نجاحه أحياناً أمراً بعيداً عن أن يكون هو الواقع فعلا .

الأمر الثانى الذى يتشابه فيه علم الكيمياء القديمة وعلم التحليل النفسي هو أن كلا منهما علم لا يصف الواقع وإنما يصوره . والفرق بين الحالتين كبير كبير جداً .

ولنضرب لذلك مثلا من علم الكيمياء : نحن نعلم أن الزئبق إذا ارتفعت حرارته إلى ٣٠٠ تبخر ، وإذا ارتفعت إلى أقل من ذلك اتحد مع الأكسوجين فكون رماداً هو أكسيد الزئبق ، وأن الغبار وهو اتحاد الكبريت والزئبق إذا عرض للحرارة انفصل كل منهما وأصبح الزئبق سائلا واتحد الكبريت . والأكسجين . هذا هو ما أسميه وصفاً للواقع . وهو حقيقة ، وكل هذه المواد الزئبق والكبريت والأكسجين لها وجود مستقل ويمكن إثبات الاتحاد والانفصال لأنه يحدث فعلا .

أما الكيمياء القديمة وقد شاهدت هذه الظواهر نفسها فقد وصفتها وصفاً تصويريا ، فقالوا : « أما الزئبق فلا تشد عليه النار فى أول التدبير فيفر ، أما النار الخفيفة فتجعله تزهق روحه فيستحيل رماداً ، وأن الغبار

إذا أحكمت تدبيره بالنار عادت روح الزئبق إليه » . الظواهر واحـدة ، ولـكن العلم الحق يصف ما يحدث ، والعلم الضال يصور ما يحدث تصويراً لا يعدو أن يكون خيالا .

وغاية التفكير فى الـكيمياء القديمة هو تصور الفلوجستين ، وذلك أنه حين دلت التجارب على أن الزئبق يزيد بالوزن حين يتحول إلى رماد بالتسخين وأنه لا يفقد شيئاً ، رأوا الهروب من ذلك بفرض جديد وهو أن الزئبق يفقد الفلوجستين وهو شئ ذو وزن سلبي فاذا فقده ثقل وزنه . وهو مثل واضح من أمثلة التعسف الذى يؤدى إليه العلم التصورى بخلاف العلم الواقعى .

كذلك علم التحليل النفسى رأى الظواهر النفسية وهو لا يعلم كنهها ، ففرض وجود أشياء مثل الأيجو **Ego** والليبيدو **Libido** وصور الظواهر على أنه اصطدام بين هذه وتلك . وهو تصوير للواقع لا وصف له ، وهو أشبه الأشياء بفرض روح الزئبق لشرح تأكسده . وعلم التحليل النفسى بنقصه اكتشاف ما يقابل الأكسجين فى ظاهرة التأكسد؛ فليس الأيجو شيئاً معروفاً مستقلا له صفات نعرفه بها حين نلتقى به ولـكنه مجرد فرض .

لا شك أن للنفس حياة خاصة ، وأن دراستها تحتاج إلى طريقة بحث جديدة . ولـكن التحليل النفسى ليس الطريقة الجديدة المرجوة ، إنما هو تطبيق التفكير العصرى الحالى على ظواهر لا يصلح لتفسيرها .

هناك فرق كبير بين أن تصف الظاهرة وبين أن تصورها ، الأول حقيقة والثانى خيال . وقد تستعمل طريقة المشابهة لشرح بعض الظواهر الغريبة ، فتشبه بأخرى معروفة لتقربها إلى الأذهان ، على أن يظل مفهوماً أن الوصف تشبيه وليس الأمر كذلك فى هذين العلمين الضالين ؛ فهما علمان قائمان على تصوير الواقع لا على وصفه . ويمكن أن توضع للواقع صور كثيرة متنوعة ، ولـكن الوصف الحقيقى لا يكون إلا واحداً .

وفى كلا العلمين غموض قد لا يشعر به المختصون ، ولـكنه على الفـكر العادى غموض على كل حال . والغموض صفة ملازمة لـكل علم ضال . ولا أقصد بذلك الصعوبة ، فقد تـكون نظرية النسبية صعبة الفهم ، ولـكن ذلك يرجع إلى أن فهمها يحتاج إلى مقدمات رياضية عالية ، وهذا لا يسمى غموضاً ؛ وكذلك غموض الصوفية لا يدل على ضلالها لأنها ليست علماً . والعلم لا يكون غامضاً

إلا أن يكون به عيب من خطأ أو قصور . ويرجع غموض الكيمياء القديمة إلى قصور الصور التى تخيلها علماؤها عن أن تحيط بطبائع الأشياء كلها ، فاضطروا إلى جعل صورهم قابلة للتأويل وحشوها بالرموز وأصبحت الكلمات لا تعنى شيئاً معيناً بل قد تعنى كل شئ . ووصف الإكسير أوصافاً عدة منها ماهو مادى محض ومنها ماهو معنوى ، فقالوا إنه الماء الصافى وقالوا إنه الروح ، وإنه الصبغ وإنه الإدام ، ونسبوا إليه قوى ترفعه إلى ما يشبه قوة الخلق . كذلك فعل علماء تحليل النفس فى وصفهم الليبدو؛ فقد جعلوا منه مفتاح كل الحركات النفسية فهو المحرك للانسان ، وهو الذى يوجهه الوجهة التى يريدها ؛ وهو الذى يضل الناس أو يهديهم ، إما إلى النجاح و إما إلى المرض ، وهو أصل العقد النفسية ، إلى غير ذلك مما يكاد يجعله فى قوة الأكسير . فان أردت له تعريفاً جامعاً ووجوداً مستقلا لم تجد إلا فرضاً اخترع اختراعاً ليسهل فهم بعض الظواهر النفسية دون أن يكون على وجوده برهان .

و إذا استعرنا التعبير لمذهب الوجودية وجدنا أن عيب هذين العلمين ، هى أنهما فرضا خواص الأشياء قبل وجودها ، والعلم الصحيح يجب أن يثبت وجود الشئ قبل أن يتعمق بحث خواصه .

ولعلنا إذا وفقنا لمعرفة القيمة الحقيقية للتحليل النفسى أن نفتح الطريق للباحثين فى علم النفس ألا يركنوا إليه ، بل عليهم أن يلتمسوا طريقة جديدة فى البحث النفسى وفهماً جديداً لظواهرها ، كما حدث فى علم الكيمياء حين لم يتبين الحق فى هذا العلم إلا يوم اكتشفت طريقة التجربة والمنطق التحليلى . وعند ذلك تصبح العلوم النفسية علوماً حقة غير ضالة . ولا أظن أن التحليل النفسى سيستطيع أن يصل بنا يوماً إلى هذه الغاية .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

حيرة شاعر

أوكلمـا ألقيت يأسى جـانبـاً ... وسـعدت بالأمل الجنىّ رطيبـا
ودفنت آلامى بصـحراء الأسى ... ورجعت أبتـدر الحياة طروبا
عصف الزمان ببهجتى! فرأيتهـا ... تمضى ، وتترك فى الفـؤاد لهيبـا
ومشى على قلبى ، وملء جوانحى ... يحيى جراحـا فى الحشـا وندوبا
وأحـال أيامى قصـيدة شاعر ... عرف الحيـاة كآبة ونحيبـا
فأتيت آلامى بصـحراء الأسى ... قهراً ، كما يثب الطريد وثوبا
ورجعت لليأس القديم ، ولم يكد ... قلبى يخف إلى الرجـاء قشيبا
وسمعت وقع خطـا الكآبة حينما ... راحت على قلبى تدب دبيبـا
ماذا على الناس الذين أحبهم ... ألا يضيعوا شاعراً موهـوبا
ماذا عليهم أن أعيش كما اشتهت ... نفسى ، فأملأ عالمى تطريبـا
هم نصّبوا حولى الشـباك ، وصوبوا ... نحوى السهام ، فأحـكموا التصويبا
ورموا ، فلمـا أبصروا دم مهجتى ... يجرى صبيبا يسـتحث صبيبـا
فزعوا ، ونادوا بالطبيب، وهل يرى ... جان ينـادى للمصاب طبيبـا
لو أنصفـوا لجرت حيـاتى نسمة ... نشـوى تناجى زهرها المحبوبا
ولغردت أطيـار عمرى بالهـوى ... فشـفى الغنـاء جوانحاً وقلوبا
أنا لا أريد سـوى الهدوء ، فما لهم ... ملأوا حيـاتى ضجـة ونعيبـا
أو ما كفاهم أن أعيش مضيعـا ... جهـدى ؛ لأنى ما وجـدت حبيبا

سأمان ، أحمل يأس عمرى كله ! حيران ، أصحب قلبي المكروبا
ولقد وددت — وليت ذلك كائن — لو كان يأسي بالرجاء مشوبا
أو ما كفاهم أن أضم على الأسى قلبي ، وأخفى دمعى المسكوبا
أو ما كفاهم — ويحهم — ألا أرى أملا ينور أفقى المرقوبا
أمشى إليه على القتاد ، فإن شكت قدمى ، مشيت على اللظى مشبوبا
ولقد تعذبني الحياة بنارها فأبارك النيران والتعذيبا
إنى الشهيد ! وإن قومى ما رعوا هذا الشهيد الضائع المنكوبا
جهلوا عذابى كله ومواهبى لم يرهبوا لوماً ولا تثريبا
لو كان قلبي يستحل فراقهم أو كان يدفع بالذنوب ذنوبا
لشفيت نفسى ، أو تركت جوارهم وقضيت أيام الحياة غريبا
لكنهم قومى — على علاتهم — من ذا يضيع قرابة وقريبا
صبراً فؤادى حيث كنت ، وإن همو قد حملوك على الخطوب خطوبا
إن الحياة — على اختلاف وجوهها — سهم يصوبه القضاء مصيبا

ابراهيم محمد نجا

قصة الموريسكيين

ثغرة فى الرواية العربيـــــة

يتبدى لنا تاريخ الأندلس فى مراحله الأخيرة ، ولا سيما مذ أخذت مملكة غرناطة آخر الممالك الاسلامية فى أسبانيا تنحدر إلى هاوية الانحلال ، فى صور مضطربة جافة ينقصها التفصيل والوضوح . فاذا انتهينا بعد سقوط غرناطة إلى المرحلة الختامية تبدت لنا قصة الأمة الأندلسية المغلوبة فى صور قاتمة تزداد حلكا على ممر الزمن حتى تغيض فى النهاية فى عالم النسيان والعدم .

على أننا نستطيع خلال هذا الحلك الذى يكتنف نهاية الأمة الأندلسية أن نستعرض فى جلاء ووضوح صور ذلك الاستشهاد الطويل المؤثر الذى لبثت تعانيه أكثر من قرن من الزمان . ذلك أن ظفر أسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة وسحق دولة الاسلام فى الأندلس لم يكن سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية . ولم يكن فقد السيادة القومية وفقد الاستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد عدوها الظافر . أجل ! كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال سلطانهم من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . وهى مأساة لا تحتل مع شديد الأسف مكانها الحق فى الرواية الاسلامية ، بل إن الرواية الاسلامية تعرض لنا فى هذا الموطن ثغرة لا تكاد تتخللها سوى شذور ولمحات يسيرة . وهى على وجه العموم مقلة ضنينة فى مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة . ولم ينته إلينا فى هذا الموطن سوى رواية إسلامية واحدة تضمنها سفر صغير هو

كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر »[1] وهى رواية تتناول حوادث سقوط غرناطة (١٤٨٧—١٤٩٢ م) وحوادث التنصير الأولى التى وقعت بعد التسليم بفترة يسيرة ، كتبها فى سنة ٩٤٧ هـ (١٠٤٠ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً مؤلف مجهول ربما كان من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى سريرتهم. وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة ومأساة العرب المتنصرين . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة سوى رسائل وشذور وقصائد متناثرة نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ومعظمها مما كتبه أو نظمه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الاسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أن فى عصور الانحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية وتقل العناية بالتدوين التاريخى كما تقل فى جميع نواحى التفكير والأدب . ولدينا فى ذلك مثل بارز فى تاريخ مصر الاسلامية هو ضآلة المؤلفات والوثائق التاريخية التى انتهت إلينا عن العصر التركى وهو عصر انحلال فكرى واجتماعى مطبق . وقد كان هذا العامل أشد بروزاً فى المأساة الأندلسية حيث لم تجد الأمة الشهيدة التى صفدت بأشنع الفروض والأغلال ، وأرغمت على نبذ دينها ولغتها ، متسعاً من الوقت أو التفكير لتدوين محنتها وآلامها ، بل لم يكن ليسمح لها بأن تلجأ إلى مثل هذا التنفس الخطر . والعامل الثانى هو ما نرجحه من فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت عن المأساة فى هذا الوقت ، ووضعها على الأغلب نفر من الأندلسيين النازحين إلى المغرب بعد سقوط غرناطة أو بعض الكتاب المغاربة الذين كانت لهم بالأمة المغلوبة أو باللاجئين منها بعض الصلات . وهذا التراث الضائع هو الذى يلوح لنا أن المقرى وقف عليه وانتفع ببعض مخلفاته مما كان موجوداً منه فى عصره ،

---

(١) بنو نصر أو بنو الاحمر ملوك غرناطة هم آخر أسرة ملوكية أندلسية . وقد وجدت من هذا السفر نسخة وحيدة فى مكتبة الاسكوريال قام بتحقيقها ونشرها المستشرق الالمانى يوسف ميلر (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية .

أعنى القرن السابع عشر ، فنقل إلينا منه بعض الرسائل والشذور والقصائد .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية تشغل بالعكس فى تاريخ أسبانيا القوى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن ونصف ، وتخصه الرواية الأسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الأسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الاستشهاد المفجع الذى فرضته أسبانيا على الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، و إلى تلك الآثام المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التى اتخذت لتشريد الموريسكيين وإبادتهم بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى وتطهيراً للدين والوطن من آثار العدو المغير وآثار تراثه الروحى والاجتماعى . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ أسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحماسية التى تشيد بظفر أسبانيا النصرانية و بما أسبغته العناية الالهية على خطتها وسياستها فى إبادة الأمة الأندلسية ثم العرب المتنصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الاسلامية المجيدة التى ازدهرت فى أسبانيا ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها وكل ذلك التراث الباهر . على أن الرواية الأسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر ، وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها وعن تراثها القومى والروحى .

وليس تاريخ الموريسكيين قصة عادية لشعب مغلوب بل هى قصة العهود المنتهكة والنكث المدبر ، وقصة التعصب القومى والدينى المضطرم ، وهى أخيراً نضال الضعيف المكلوم ، ولكن الأبى الباسل ضد قوى جرارة لا قبل له بمغالبتها ، ولكنه يتفانى فى صراعها حتى تصرعه وتقضى عليه شهيداً كريماً .

كانت الأمة الأندلسية حينما سقطت غرناطة حصنها الأخير فى يد الأسبان وقضى عليها بالغلبة والذلة السياسية زهاء ثلاثة ملايين من الألفس تحتشد فى رقعة ضيقة ولكن نضرة زاهرة فيما بين نهر شنيل والبحر وتشمل عدا غرناطة

---

(١) هى المعروفة خطأ بمحاكم التفتيش Inquisition .

عدة من القواعد والثغور مثل وادى آش وبسطة والمرية ومالقة ، وكانت معاهدة التسليم التى عقدها أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس مع الملكين الظافرين فرديناند وزوجه إيزابيلا تكفل للأمة المغلوبة ضمانات مؤكدة بتأمين النفس والمال والعرض ، واحترام الدين والشعائر القومية ، والابقاء على شريعتهم ومساجدهم ، وعدم إرغامهم على التنصير ، وأن يجوز منهم إلى بلاد المغرب من شاء ، وألا يعرضوا على العموم لأية فروض أو قيود تحد من حرياتهم أومعتقداتهم أو تسيء إلى كرامتهم . وتضم معاهدة التسليم زهاء ستين شرطاً تدل فى روحها وتفاصيلها على ما كان يخالج الأمة المغلوبة من ضروب الريب والتوجس فى نيات سادتها الجدد .

والواقع أنه لم تمض أعوام قلائل حتى حدث ما توقعته الأمة المغلوبة من نكث وانتهاك للعهود المقطوعة ، وكانت السياسة الاسبانية يذكيها وحى الأحبار المضطرم ، ترى أنه لا بد لتحقيق ظفرها الكامل أن تسحق الآثار الأخيرة للاسلام وأن تمحى الخواص والتقاليد القومية للشعب المغلوب . فبدأت بتحوير نصوص ، المعاهدة ، والتنكر للمسلمين واضطهادهم . وفى سنة ١٤٩٩ اتخذت الاجراءات العنيفة الأولى لتنصير المسلمين على يد الكردينال كنيس مطران طليطلة ، ولم تدخر القوة وسعاً فى تنفيذ مأربها ، وأرغمت جموع كبيرة من أهل غرناطة على نبذ دينهاواعتناق النصرانية ، وحملت المحنة والتعلق بالوطن وهموم الأسرة والابقاء على الأهل والولد كثيراً من الأعيان والفقهاء على اعتناق الدين الجديد . وأتبع الكردينال ظفره بجمع الكتب العربية والمصاحف وحرقها فى ساحة غرناطة ليقضى على علوم الأمة المغلوبة وتراثها الروحى والعقلى ، وخرجت الأمة الأندلسية من هذه المحنة المؤلمة باسم جديد هو أمة الموريسكيين **Moriscos** أو العرب الأصاغر أو العرب المتنصرون .

وعملت السياسة الاسبانية فى الوقت نفسه على إنشاء ديوان التحقيق **Inquisition** فى غرناطة . وقد كانت هذه المحاكم الكنسية المروعة تعمل من قبل فى أشبيلية وغيرها لمطاردة اليهود وأهل الزيغ ، فألفت فى الموريسكيين فرائسها الجدد مرتعاً خصباً لنشاطها الرهيب ، وكانت تأخذ أولئك المتنصرين الأحداث بأتفه الشبه التى يمكن تصورها ، فاذا امتدح الموريسكى دين محمد أو باشر بعض عوائده القديمة كالاحتفال بيوم الجمعة أو التحدث باسم الله

أو إذا سمى أولاده بأسماء عربية، أو صام رمضان، أو امتنع عن أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر، أو ركع أو سجد، أو أنشد الأناشيد العربية أو خضبت المرأة يديها أو شعرها، أو غير ذلك من الشبه المماثلة اعتبر مرتدا كافراً، وعوقب بعقوبات شنيعة تصل إلى حد الموت والمصادرة، هذا فضلا عما يكتنف المحاكمة من إجراءات التعذيب المروعة، وهى إجراءات لا يتسع المقام لشرحها [1].

وتجهم الأفق حول الموريسكيين شيئاً فشيئاً وتتابعت التشريعات والقوانين المرهقة، فعليهم أن يسكنوا فى أحياء خاصة لا يتعدونها على نحو ما كان يلزم اليهود بالسكنى فى «الجيتو»، وعلى كل مسلم بقى على دينه أن يبادر إلى التنصير فى ظرف ثلاثة أشهر أو يترك الأرض الاسبانية تاركا أملاكه للدولة، وعليهم ألا يحملوا السلاح وإلا عوقب المخالفون بأشد العقوبات. ولم تكن هذه القوانين المرهقة تلقى دائماً من الموريسكيين قبولا سهلا بل كانت منهم جماعات كثيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرهما تجنح إلى المقاومة والثورة. وكانت ثورتهم الأولى فى سنة ١٥٠١ فى مفاوز البشرات وفيها قتلوا جمعاً كبيراً من الاسبان وقائدهم الدوق آجيلار، واضطرت الحكومة الاسبانية أن تصدر لهم عفواً. بيد أنها اتخذت هذه المقاومة ذريعة للتشدد فى معاملة الموريسكيين واعتبارهم خونة مارقين، واعتبر التنصير أقل ما يجب فرضه عليهم. وأقر مجلس الدولة فى عهد الامبراطور شارلكان هذه النظرية وصدرت على أثر ذلك عدة قوانين جديدة حرم فيها على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة، وحرم عليهم فى بلنسية حمل السلاح، وألزموا بتغيير الثياب العربية، على أن هذه القوانين المرهقة طبقت مدى حين فى نوع من الرفق والتساهل.

فلما كان عهد ولده فيليب الثانى، كان التنصير قد عم المسلمين، وأصبحوا يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية، ولكنهم مع ذلك لم يحظوا بعطف الحكومة الاسبانية، ولم يحظوا بالأخص بعطف الكنيسة التى أبت بعد إرغامهم على اعتناق مذهبها أن تضمهم إلى حظيرتها. وكان فيليب الثانى ملكا شديد التعصب يقع تحت تأثير الأحبار ونصحهم، فهبت فى عهده على الموريسكيين ريح شديدة

---

(١) تناولت فى كتابى ديوانى التحقيق والمحاكمات الكبرى، دستور هذه المحاكم الشهيرة واجراءاتها فى التحقيق والتعذيب والمحاكمة بتفصيل واف.

من الارهاق والتعصب ، وأحييت القوانين القديمة وصدرت قوانين جديدة تحرم عليهم حمل السلاح وتمنعهم من التخاطب بالعربية أو التعامل بها بعد مرور ثلاثة أعوام ، وتحرم عليهم قراءة الكتب والأوراق العربية ، وتلزمهم بترك الثياب العربية وارتداء الثياب الأوربية ، وتلزم نساءهم بترك الحجاب وارتداء الثياب المكشوفة ، وتحريم الخضاب وتحريم الأناشيد العربية ، وبفتح المنازل أثناء المآدب والاحتفالات للتحقق من أنها لا تجرى وفقاً للتقاليد العربية ، وغير ذلك بما يقصد به إلى القضاء الأخير على البقية الباقية من خواص الأمة المغلوبة وتقاليدها .

وكان هذا أشد ما تحتمل الطاقة البشرية . وكانت ثمة جذوة أخيرة ما زالت تتقد فى نفوس هذا الشعب الأبى التالد الذى حطمته الخطوب والرزايا . وكان صدور القوانين الجديدة وما بدا من تشدد فى تطبيقها نذيراً بانفجار جديد يذكيه اليأس المطبق ، فاضطرمت غرناطة بثورة جديدة عامة ، وبرز من بين الصفوف فتى يفيض حماسة وإقداماً هو فرديناندو دى فالور . وكان هذا الاسم القشتالى يحجب نسبة عربية ملوكية ؛ فقد كان هذا الزعيم الفتى ينتمى إلى بنى أمية خلفاء الأندلس القدماء ، ومن ثم فقد تسمى بمحمد بن أمية وبادر بالنزوح مع جماعة كبيرة من أنصاره إلى وادى آش وهنالك استعصم بشعب البشرات وأعلن الثورة (سنة ١٥٦٨) وفتك الموريسكيون بالجند الاسبان الذين تصدوا لمطاردتهم وفتك الاسبان فى غرناطة بالنساء والأطفال ، وتفاقمت الحوادث وتكررت المعارك فى أنحاء البشرات وفى غرناطة ، وندب فيليب الثانى أخاه الدون خوان على رأس قوة كبيرة لإخماد الثورة ، ولكنها استمرت فى تفاقمها وهلك من الفريقين عدد جم ، كل ذلك ومحمد بن أمية معتصم بقواته فى شعب البشرات يغير هنا وهنالك على القرى والمحلات المجاورة ، ويفتك جنده بالاسبان وعمال الحكومة ، ثم قتل محمد غيلة وخلفه فى الرياسة قريبه مولاى عبد الله ، واستمرت المقاومة حيناً حتى نضب معين الثوار وساءت حالتهم ، وهنا قتل مولاى عبد الله أيضاً وانهارت الثورة الموريسكية على أثر ذلك وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وأصدر فيليب الثانى قانوناً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية . وقضت المشانق ومحارق ديوان التحقيق والمحن المتوالية على كل نزعة إلى الخروج

والنضال ، وهاجر كثير من الموريسكيين إلى بلاد المغرب فى ظروف مؤثرة . وهبت فى النهاية ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ولا تقوم لهم قائمة فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى .

وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت بعد هذه المحن المتوالية وهذا النضال المضنى إلى جماعات مهيضة ممزقة تحتشد فى بعض القواعد الجنوبية وفى بلنسية بالأخص . وكانت للموريسكيين صلات وعلائق خفية مستمرة باخوانهم فى المغرب ، وكانوا يتوقون إلى مغادرة هذا الجحيم إلى ما وراء البحر ، ولكن الحكومة الاسبانية لبثت عصراً تحول دون هذه الأمنية ما استطاعت ، وكانت ثمة ظاهرة مزعجة تحفزها إلى حجز الموريسكيين والتشدد فى مراقبتهم ، تلك هى الغارات البحرية على الشواطئ الاسبانية ، وهى غارات قام بتنظيمها أكابر البحارة الترك مثل الأخوين أوزوج وخير الدين وطرغود ، وكان قوامها جماعات من المجاهدين المغاربة أو الموريسكيين الفارين ، وكانت السفن المغيرة تنقض على الشواطئ الاسبانية ما بين آن وآخر تحت جنح الليل تختطف جماعات كبيرة من الموريسكيين وكذلك الاسبان ، وكان الموريسكيون فى الثغور ولا سيما فى بلنسية يمدونها بالتوجه والارشاد . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر، وكانت تمثل بالأخص انتقام الموريسكيين وزملائهم المجاهدين المسلمين لما حل بالأمة الأندلسية من شنيع الظلم والاضطهاد . وانتهت السياسة الاسبانية إلى أن تعتبر الموريسكيين عنصراً خطراً على سلامتها يأتمر مع العدو ويجب التحوط منه والقضاء عليه . وكانت الحكومة تفكر منذ أيام فيليب الثانى فى مشروع ضخم تتخلص به أسبانيا من هذا العنصر الخطر . ففى أوائل عهد فيليب الثالث عكفت السياسة الاسبانية على وضع خطتها النهائية للتخلص من الموريسكيين بقايا الأمة الأندلسية ، وانتهت بعد طول البحث والجدل إلى اتخاذ خطوتها الشهيرة بنفى الموريسكيين و إجلائهم عن سائر الأراضى الاسبانية ، وأعلن مرسوم النفى النهائى فى سبتمبر سنة ١٦٠٩ واتخذ المرسوم سنده فى خيانة الموريسكيين واتصالهم بأعداء أسبانيا ، ووضعت إجراءات شاملة للنفى وتصفية المسائل المتعلقة به من شخصية ومالية ، وحددت مدد ضئيلة لانتقال الموريسكيين

إلى الثغور التى ينتقلون منها . وحشد الموريسكيون جماعات ممزقة دامية فى مختلف الثغور الاسبانية ، وحملوا فى مناظر مؤثرة مؤلمة إلى ثغور المغرب ، وسارت منهم جماعات أخرى إلى ثغور فرنسا و إيطاليا وهلك منهم ألوف فى السفن وعلى الشواطئ التى ألقوا فيها ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ، وسارت منهم جماعات إلى مصر وقسطنطينية ، واستقر معظم الناجين فى ثغور المغرب وعاد معظمهم إلى دين الآباء والأجداد . وبذلك ينتهى الفصل الأخير فى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتغيض البقية الباقية من الأمة الأندلسية وتطوى إلى الأبد صفحة شعب من أنبل وأمجد شعوب التاريخ .

تلك هى قصة الموريسكيين التى ينفطر لها الفؤاد أسى والتى تملأ أكثر من مائة عام من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومع ذلك فهى قصة مطوية منسية فى الرواية العربية .

وقد أثارت قصة الموريسكيين عطف العالم الغربى وكثرت حولها الآراء والتعليقات فى المؤلفات الغربية ، ويكاد البحث الحديث يجمع على أن إبادة الأمة الموريسكية كان ضربة أليمة لعظمة أسبانيا ورخائها ، وأن أسبانيا الحديثة لم تنهض من هذه الضربة قط . وهو رأى يؤيده كثير من المؤرخين والمفكرين الاسبان أنفسهم .

محمد عبد الله عنان

فلسفة للحياة وديانة للضمير

نعيش فى ضوضاء تلهينا عن الفلسفة ، أى تلهينا عن الدين . لأن الفلسفة هى الدين . والرجل العصرى الذى يدرس الفلسفات والأديان بروح المتعلم يجد بينهما اختلاطاً يشبه الاندغام . وذلك لأن قضية الدين هى نفسها قضية الفلسفة ، وهى : كيف نفكر التفكير السليم ونعيش العيشة الطيبة . ومقاييس الدين هى فى النهاية مقاييس الفلسفة ، كما نرى مثلا فى كلمة برنارد شو : إن الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . أى إن الدنيا تجد بعد انقضاء عمره أنها كسبت به ولم تخسر ، وأنفقت عليه أقل مما ترك لها . وهذا الذى تركه لها قد يكون حكمة أو قدوة أو علما أو اختراعاً أو زيادة فى الثروة أو الخير أو السلام .

وهذا المقياس فلسفى دينى . ولذلك حين أتحدث عن فلسفة الحياة التى أعيش بها هذه الأيام وأنا فى الستين أو حواليها ، أجد أنها مزيج من الفلسفات والأديان . وصحيح أن الدين يطالبنا بالتسليم ، والفلسفة تطالبنا بالمنطق ، ولكن ليست هذه الحال دائمة أو واضحة الحدود ؛ فان فى الدين منطقاً كما أن فى الفلسفة تسليما فى بعض الأحوال .

وقد يقال أيضاً إن فى الدين غَيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات . ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع أينشتين أو غيره إزاء غيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتمدد الذى يدأب فى الاتساع فى الخواء ؟

إنى أذكر ، أنى حين كنت فى حمى المراهقة ، شرعت أسائل وأشك فى الغيبيات المألوفة . ولم تزدنى السنون من ذلك الوقت إلا يقيناً بالانكار . ثم تطورت الفكرة الدينية عندى أو انتقلت من التسليم بالغيبيات إلى الايمان بالقيمة الاجتماعية للدين أو الفلسفة و إلى تربية الضمير ، حتى تتغلب ، فى اللغة السيكلوجية ، الذات العليا على الذاتين الاجتماعية والحيوانية ، أى تتغلب القيم البشرية على القيم الاجتماعية والمادية .

وليس من السهل أن يكشف الانسان عن ضميره الديني كيف تكوّن ثم نما ثم تبلور في قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسية ثم تجوهر في اتجاه مفرد يجذب إليه كل مافي الشخصية من نشاط روحي . ولكني أذكر أني وأنا دون العشرين أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينيا في نفسي ، وأنها قد حملتني واجباً روحيا . وقد نما هذا الواجب في نفسي إلى واجبات . ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت في العدد واللون ، كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيما . ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية أن كل حي على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة . لأن كل إنسان قد كان في وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فاذا به فيروس ، ثم أميبة مفردة ، ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم سمك ، ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الانسان سوف يكون سبرمانا .

فهنا قرابة تطورية بيننا وبين الحيوان . وفي هذا معنى ديني جليل ؛ لأننا والأسود والكلاب والقياطس والسمك أبناء عمومة ، وكلنا قد قطعنا هلى هذا الكوكب نحو ألف مليون سنة . وقد انقرض بعضنا وبقي بعضنا الآخر . ولكن مع هذا الانقراض والبقاء يتجه التطور في مجموعه نحو ما نفهم من الرقي البشري: وجدان موضوعي يأخذ مكان العواطف الذاتية ، أي عقل يسمو على الغرائز . وإذن نجد أن للرقي البشري أساساً طبيعياً . بل إن هذا الرقي مفروض علينا واجب حتم بل واجب ديني بحيث يتطور الفرد وتتطور الأمة وتتطور الدنيا . ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر لأنه يعارض الدين . وليس التطور كله منطقاً نستطيع أن نقيم عليه البرهان الناصع لأن فيه كثيراً من التسليم . ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية . وليس من الضروري ، كي يكون لنا دين أو ضمير ديني ، أن نؤمن بالغيبيات ؛ لأن المعارف العلمية في أيامنا تكسبنا نزعات دينية . فهناك رجال الثورة الفرنسية مثلا . فقد اشتطوا وألغوا الديانة المسيحية ، وأسسوا ما أسموه « ديانة العقل » . والانسان العادي حين يقرأ تاريخهم ويصفهم الوصف المألوف يقول إنهم « كفرة » ولكنا عندما نتأمل سلوكهم نجد أنهم كانوا مسوقين بروح ديني ، بل أكثر من هذا بعقائد دينية . وهنا تعجبني كلمة قالها ماتزيني الوطني الايطالي : « ليس

هناك انتصار للروح البشرى أو خطوة ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعهما عقيدة دينية راسخة » .

وفى سنى أجد أن مصادر ديانتى ، أو بالأحرى ضميرى الدينى ، إلى جنب البوذية والاسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية ، تعود فى كثير من النور الذى أهتدى به إلى السيكلوجية والبيولوجية والأنثربولوجية والتاريخ . فان هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية ، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا فى المستقبل . ولذلك كانت ديانتى موضوعية منطقية لا ذاتية عقيدية فقط .

ومع أنى نشأت فى المسيحية واحتضنتنى الكنيسة أيام طفولتى وصباى فانها كانت فى تلك السنين الأولى من عمرى فى جمود لا يحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربى الضمير . وليس شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت هذه الأيام ، وهى الآن غير ما كانت عليه قبل خمسين سنة .

وقد تغير إحساسى نحوها تغيرات مختلفة ؛ فقد عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى ، ثم عدت إليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت الفراعنة ينطق عالياً من منابرها ، فأصبحت الكنيسة القبطية عندى كنيسة قومية مصرية . ولكن لم يكن هنا دين إذ كان كل هذا إحساساً تاريخيا .

أجل ! قد يقال هذا القول ، وأنا أسلم بصحته إلى حد ما . ولكن الاحساس التاريخى ينطوى أيضاً على إحساس دينى . ولست أشك أنى حين انكببت على دراسة الفراعنة ، إنما كنت أنبعث بروح دينى قومى . والدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون موضوعية علمية كما يدرس أى علم . ولكن قلما نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومى .

وقد عرفت حوالى ١٩٣٥ المرحوم كامل غبريال باشا ، وكان قد درس اللغة القبطية والفرعونية ، وحاول أن يحملنى على درسهما . ولكن سنى المتقدمة حالت دون ذلك . وقد نهضت هذه اللغة فى بعض الأوساط القبطية ، ولكنها لم تبلغ المكانة التى بلغتها اللغة العبرية بين اليهود ، أى أن تصير لغة التخاطب والتفاهم بل التأليف . فان اليهود الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التى كانت قد انقرضت حتى فى أيام المسيح . وظنى أنهم يخسرون بذلك ؛ لأن هذه اللغة لن تتسع للثقافة العصرية . كما أن الأرلنديين الوطنيين قد خسروا أيضاً

باحياء لغتهم القديمة ؛ لأن اللغة الانجليزية خير لهم ، ولو أنها لغة الفاتحين الغاصبين ، من لغتهم التى لن تتسع للثقافة العصرية .

وما زلت أذكر الأثر السيكلوجى فى صديقى كامل غبريال باشا؛ فانه لتعلقه بلغة الفراعنة صد عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القومية . وكان كثيراً ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) وبين عقائد الفراعنة ، كى يقنعنى بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية .

وقد كان أثر العقليين كبيراً جدا فى نفسى ؛ حتى إنى لخصت أحد الكتب التى كانوا ينشرونها وهى « نشوء فكرة الله » لجرانت ألين ، وأصدرت هذا التلخيص فى نحو ثلاثين أو أربعين صفحة فى مصر حوالى ١٩١٢ . ويرى القراء هذا الكتيب ضمن كتابى « اليوم والغد » . وقد كان هدف المؤلف أن يثبت تسلسل الأديان ، وأن التوحيد الحاضر يرجع إلى الأديان القديمة . ولم يكن جرانت ألين مصيباً فى جميع افتراضاته ، ولكنه استهوانى فى تلك السنين للنظر المادى الذى اتبعه فى تفسير الغيبيات. وبعد ذلك عرفت «الغصن الذهبى» لفريزر وهو موسوعة رائعة للعقائد القديمة وتسلسلها إلى أيامنا تحت أستار مختلفة . ثم زادنى نوراً تلك البحوث المتشعبة التى قام بها أليوت سمث وزملاؤه فى إيضاح الأثر الذى تركته العقائد المصرية القديمة . وهذه المؤلفات لفريزر وأليوت سمث ، مع تناقضها ، هى تربية خصبة وتثقيف سام لكل من يدرسها ، ولا يستطيع إنسان أن يصف نفسه بأنه مثقف إلا إذا عرفها . ولكن اهتماماتى بهذه الدراسات وقتئذ لم تكن دينية بل كانت تاريخية .

على أن اهتمامى بالدين بدأ وأنا حوالى الأربعين . ذلك لأن النضج الدينى مثل النضج الجنسى لا يأتى إلا فى ميعاد . فقد شرعت أقرأ الكتب المقدسة جميعها فى عناية ، وأشغل نفسى بالمشكلات الدينية الهندوكية . وكنت أجد فتنة فى أنبياء التوراة بل فى أسلوب التوراة . كما أنى وجدت أن القوة الجاذبة فى شخصية المسيح كبيرة جدا . وقد مضى علىّ نحو عشرين سنة وأنا أحلم بتأليف كتاب عن شخصية المسيح بحيث أكتب فى حرية الضمير مع إيمانى به وحبى له . ولكنى كلما كنت أفكر فى الالتباسات ، التى سوف تنشأ بينى وبين

بعض القراء ، كنت أنكص وأنا فى أسف ومرارة ؛ لأنى أكره أن أولم المطمئنين المستقرين الذين قد لا يجدون الطمأنينة واليقين فى السيرة التى أرويها مخلصاً أنشد الحقائق ولا أبالى غيرها . وموقفى هنا هو موقف تولستوى ورينان .

ولست أشك أن الرجل المسيحى فى دنيانا هذه وفى عصرنا هذا هو المثال الأسمى فى الأخلاق . وهناك كثيرون يعيشون الحياة الطيبة ، أى الحياة المسيحية كما أرادها المسيح الذى دعانا من ناحية إلى أن نكون كالأطفال فى السذاجة والاستطلاع والبعد عن الشر، أى أن تكون القيم التى نعمل بها قيما بشرية ، نحب الأشياء التى يحبها الأطفال : نحب اللعب ونحب الزهر ونحب كل شئ حسن يرجع حسنه إلى قيمته الأصلية لا إلى القيمة التى يفرضها المجتمع . ثم دعانا من ناحية أخرى إلى أن نخشى مديح الناس . بل قال : ويل لكم إذا أثنى عليكم الناس ! وهنا دعوة إلى الاستقلال الفكرى أو الروحى ، استقلال الضمير ، حتى نعمل ما يوحيه إلينا الشرف دون مبالاة لاعتبارات المجتمع . وقد يكون هؤلاء مع ذلك غير مؤمنين الايمان الرسمى بالمسيحية إذ وليس من الضرورى ، كى يكون للانسان ضمير دينى ، أن يؤمن بدين معين ؛ فان جميع الأديان سواء من حيث إنها تنشد الحياة الطيبة . وأذكر هنا أن نحو ستين عضواً من جمعية الشبان المسيحية كانوا يصطافون فى صحراء العريش فى سنة ١٩٣٧ ، وكان بيننا المسلم والمسيحى واليهودى والبهائى . فكنا فى الصباح نقرأ قطعة من القرآن أو الانجيل أو التوراة مناوبة . وكان البهائى يجد فى كل واحد من هذه الكتب كتاباً مقدساً له ، وكنا نجد نحن فى جميع ما يقرأ لنا من أى كتاب منها دعوة صالحة توحى الخير والشرف والحياة الطيبة والحب . وقد وجدت أن الجمع بين هذه الكتب والاختيار منها على مبدأ المساواة قد بعث على التفكير الدينى البار بين الأعضاء وربط بينهم برباط دينى محايد أى غير متحيز . حتى لقد انتحى بى بعض الأعضاء وسألونى : لم لا يفعل جميع البشر مثلما نفعل نحن هنا فى العريش ؟ أى يضعون جميع الكتب المقدسة فى جميع المعابد .

وأذكر أنى نصحت لهم بأن يقرءوا حياة السلطان أكبر الهندي الذى تولى الحكم فى القرن السادس عشر ؛ فانه عقد مؤتمراً من الأئمة والكهنة من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين وطلب منهم أن يتفقوا على ديانة

جديدة موحدة من هذه الديانات الأربع . وقد أخفق المؤتمر لأن الأعضاء ، كما ينتظر ، لم يتفقوا . ولو أنه قد اختار أعضاء هذا المؤتمر من المدنيين دون الدينيين لكان هناك مجال للظن بالنجاح . وقلت لهم أيضاً إن السلطان أكبر هذا تزوج أربع نسوة إحداهن مسلمة والثانية هندوكية والثالثة مسيحية والرابعة يهودية . وذلك كى ينشأ أبناؤه على أساس من الحب الذى يدعمه التقارب الدينى . وقد عاشت أسرته جملة قرون وهى لا تعرف معنى للتعصب فى الهند بين المسلمين والهندوكيين . فكان الصليب يعلق فى الغرفة التى يأتى إليها القارئ فى الصباح كى يقرأ إحدى سور القرآن ، وكان المبشرون من اليسوعيين يقعدون فى حضرته إلى جنب كهنة اليهود . وقصة أكبر هى إحدى قصص القداسة الهندية التى نرى لها صورة أخرى فى عصرنا فى غاندى .

وجميع الكتب المقدسة سواء عندى . ولكنى أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب . ولذلك أقول إن بعض ديانتى يرجع أيضاً إلى « جمهورية أفلاطون » و إلى « الانسان والسبرمان » لبرنارد شو ، و إلى مؤلفات جان جاك روسو وتولستوى ودستويفسكى و إلى أخناتون ؛ فقد زودنى هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية . وقبل نحو خمس عشرة سنة شاعت دعوة فى أمريكا وأوربا إلى ما يسمى « البشرية » . وهى ديانة تستبعد الغيبيات ، وتؤمن بالرقى البشرى القائم على التطور . وهى تعتمد على الكتب المقدسة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة . وقد وجدت فيها إغراء كبيراً .

ولكن ما أحب أن أوضحه للقارئ هو أن الدين عندى كان تربية بطيئة لم أصل بعد إلى نهايتها ولكنى فى سبيلها . والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربى وتوجه . وهنا يغير كالفين هذا التعبير فيقول : إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ماوهبنا من نعمة الله .

وقد كان نفورى أيام شبابى من الغيبيات علميا منطقيا . ولكنى أنفر من الغيبيات الآن لأسباب اجتماعية ؛ لأنها ، أى الغيبيات ، جبرية ليست فيها حرية الماديات . أى إن التفكير المادى حر متطور . أما التفكير الغيبى فمقيد جامد . ونحن نتحرر بالأول ونتقيد بالثانى .

ولكن الفلسفة ، أى الديانة ، ضرورية لكل إنسان . والرجل إذ يقول إنه ليس له ديانة هو ، كما يقول برنارد شو ، رجل بلا شرف . ونحن حين نستقطر العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن كى نجد لها كلها غاية ، فانما ننشد بهذه الغاية ديانة نعيش بها أى دستوراً روحيا وأخلاقيا يعين علاقتنا بالطبيعة والكون والانسان والمستقبل . ونحن نحس الحاجة إلى هذا الدستور . وهو ليس دستوراً جامداً إذ هو يتغير ويتطور كلما تقدمنا فى السن وازدادت بصيرتنا نوراً .

ولما شرعت أدرس السيكلوجية وجدت ناحية من الدين لم أكن قد التفت إليها ، هى سلام النفس . فانه ليس شك فى أن المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يحرم منهما غير المتدين . ذلك أن المتدين يثق بالكون ، وكأنه يحس أنه ، أى الكون ، لن يخونه حتى حين يصطدم بالمصاعب ، أو قل إنه يعيش فى وسط أوسع كما أن آفاقه تمتد إلى آماد أبعد . ونستطيع أن نزن هذا الموقف حين نتخيل غاندى إزاء الجبال من المصاعب التى يلاقيها ؛ فانه فى كل حياته أكثر اطمئناناً وأعمق ابتهاجاً من أى إنسان آخر ، مع أنه يواجه من المصاعب أكثر مما يواجه أى إنسان آخر . وليس غريباً بعد هذا أن تكون للدين ، أى الفلسفة ،قيمة سيكلوجية عظيمة ؛ لأنه يؤدى إلى استقرار النفس ويحول دون التزعزع الذى قد ينتهى بالتحطم . وعندما نتأمل مرضى النفس نجد أنهم لم يترددوا فى الهوة إلا لأنهم استسلموا إلى قيم وأوزان مخطئة ، هى فى الأغلب قيم وأوزان اجتماعية انساقوا فيها وأرهقوا بها حتى حطمتهم ، وأنهم لو كانوا على فلسفة حسنة ، وعاشوا العيشة الطيبة التى يوحيها كل دين فى العالم ، لكانوا قد أخذوا بقيم وأوزان دينية تنيح لهم سلام النفس الذى فقدوه .

ولا بد أن القارئ سيسائل : أليس هناك فرق بين الدين والفلسفة ؟ وهل أنا محق فى التحدث عنهما باعتبارهما وحدة ؟

وجوابى أنى لا أعرف أمصيب أنا أم مخطئ ، ولكنى هنا أذكر إحساسى . وإذا شئت التمييز بينهما فانى أقول إن الاحساس الدينى هو طرب الحب ، حب الطبيعة وحب الحيوان وحب الانسان بل حب الحياة والكون . أما الاحساس الفلسفى فهو تأمل الفكر . ولكن الحقيقة أنهما يندغمان عندى . وإن كان

أحدهما قد يتغلب على الآخر فى بعض الظروف ، وأظن أن هذا هو إحساس غاندى : تأمل وطرب معاً .

وكثير من كفاحى الثقافى ، بل أحياناً السياسى ، قد سرت فيه بتأمل الفكر وطرب الدين . والتأمل يطلب السكون فى حين يستفزنا الطرب إلى الحركة . فاذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح . ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجى حيث أستسلم للتفكير بعيداً عن المعركة . إذ أنى لا أكاد أنتهى إلى فكرة بالتأمل حتى يعمنى الطرب فأنشط إلى الكفاح .

وقد قلت إن ديانتنا أو فلسفتنا تتكون أولاً ثم تتبلور ثم تتجوهر . وعندى أن هذه النهاية ، هذا التجوهر ، هو الحب . وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف ، كما انتهت السيكلوجية إليه أيضاً . والحب هو اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون والرغبة النهمة فى المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح . وهذا الحب هو أيضاً ما انتهى إليه الصوفيون المسلمون مثل محيى الدين ابن عربى حين يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وفى هذه الأبيات الأربعة قد استقطر ابن عربى روح الدين .

ومن الحسن أن تذاع مثل هذه الأبيات الذهبية وتعلق فى بيوتنا إلى الجدران ، وخاصة فى هذا الشرق العربى الذى يجب أن تتعانق فيه الأديان الثلاثة عناق الحب . ومثل هذه الأفكار الانسانية نجدها أيضاً فى المعرى حيث يقول وإن يكن موقفه سلبيا :

إذا الانسان كف الشر عنى ... فسقياً فى الحياة له ورعيا
ويدرس ، إن أراد ، كتاب موسى ... ويضمر ، إن أحب ، ولاء شعيا

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ... ولا صلاة ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً ... ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولكن يجب أن أقول إن ديانتى ، من الناحية الغيبية ، تشبه بل تطابق ديانة سبينوزا . أى إن المادة والقوة شئ واحد ليس بينهما انفصال . وكذلك الشأن فى الله والكون ، وفى العقل والجسم .

وليست هناك نهضة عالمية ، كالثورة على المظالم أو التجديد للمبادئ أو الدعوة إلى الاخاء والمساواة والحرية ، إلا وهى تسير على الأسلوب الدينى ، حتى لتتجاوز المنطق إلى الايمان ، وتسرف وتشط فى ناحية الغيرية والتضحية والحب ضد الأنانية والاستئثار والبغض . فهى ملهمة بالروح الدينى ، ولن تنجح إلا به . ولذلك كثيراً ما نجد الدعوة إلى الاشتراكية الحزبية تستحيل إلى دعوة دينية عالمية تغمرها الحماسة ويتغلب فيها الايمان . وحركتنا نحن فى مصر فى سنة ١٩١٩ لم تنجح إلا بمقدار ما كان فيها من الحماسة والإيمان أى بمقدار ما كان فيها من طرب الدين. وهى لم تتقهقر إلا بمقدار ما فقدت من هذا الطرب الدينى بتفشى الأنانية والاستئثار والبغض .

ولن تعود دعوتنا الوطنية فى مصر ، دعوة الحرية والاخاء والمساواة ، إلا إذا أحدثت لنا ، كما كانت تحدث فى سنة ١٩١٩ ، طرباً دينيا يتألف من الحماسة والايمان والحب والتضحية .

وأخيراً يجب أن نقول حين نتكلم عن ديانتنا ، كما يقول أندريه جيد : «لست كائناً أبداً ؛ إنما أنا صائر.» وبكلمة أخرى يجب ألا نجمد ونستقر ، بل ننمو ونتطور .

سلامه موسى

أقصوصتان ايطاليتان

LA LICENZA

STEFANO TERRA

الإجازة

كان ليوبولدو كريبا الضابط برتبة كابتن فى فرقة المشاة راقداً ينتظر هبوب نسيم المساء كى يستطيع القيام بالسير دائراً خمس مرات حول حواجز المعتقل ، مما يساعده على النوم ، وإذا به يرى أمامه الجندى جوفانى جاربرولو القائم على خدمته .

قال الجندى فى صوت سريع : إنى أثبت حضورى يا سيدى الكابتن . وأخذ الضابط يجلس على سريره الصغير وقد تأثر بذلك الصوت المرتفع الخشن ، ثم أخذ ينظر فى هدوء فاحصاً الجندى ، فاذا به واقف وقفة الانتظار منتصب القامة، وهو أمر غريب فى هذا المعتقل النائى ببلاد الهند . وجال بخاطره أن الجندى يريد المزاح ، وهمّ بأن يطلب منه أن يدع المزاح جانباً ، عندما رأى جوفانى جاربرولو يكرر ، دون أن يتحرك عن موقف الانتظار ، وهو رافع الرأس ، والعينان محدقتان إلى الأمام ، وهو يقول : « إنى أثبت حضورى يا سيدى الكابتن » .

كان الصوت فى هذه المرة أكثر ارتفاعاً ، وأعمق منه فى المرة السابقة ، وقد ذكره بأنشودة قديمة كان ينشدها الجنود ، ولكن لم يعد أحد ينشدها منذ سنوات ، وانشغل خاطر الضابط فوقف وهو يفرك عينيه المتعبتين من الضوء الذى كان ينفذ من بين قماش الخيمة الملتهب من أشعة الشمس ، وظل الجندى واقفاً دون أن يتحرك وذراعاه الطويلتان ممدودتان إلى جانب سرواله وهو من قماش لا يعرف نوعه ، وقد ضم قدميه فى حذائهما الذى قدمته السلطات ،

* هاتان الأقصوصتان كتبتا خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

وربت الضابط على كتفه بحركة أبوية وتحدث إليه فى لهجة عامية قائلا: «جوفانين ماشكايتك تحدث! جوفانين لا تقف هكذا جامداً فان ذلك متعب لك. إن الأكل الذى يعطيه لنا هؤلاء الانجليز . . . » ولكنه لم ينه عبارته ، فقد شعر بانقباض فى قلبه عندما رأىٰ عن كثب عينى الجندى جوفانى جار برولو الجامدتين ، ففيهما ذلك الضوء اللامع نفسه ، وذلك الانحدار نفسه ، الذى كان يبدو فى أعين أولئك الجنود الآخرين الذين أصيبوا بالجنون فى هذه الشهور الطويلة ، فى ذلك المعتقل للأسرى السحيق ، فى تلك الجهة النائية من قلب الهند ، وود لو استطاع أن يضمه بقوة ليحميه من ذلك الضوء الذى نفذ إلى عينيه ، والذى يؤثر الآن فى قلبه ، ولكنه لم يستطع إلا أن يقول فى صوت أجش : «جوفانين! لتكن قويا! إن الحرب قد انتهت ، وسنذهب إلى تورينو وأن والدتك ... » ولم يعرف كيف يتم العبارة ، وعلى وجه الجندى الجامد بدأت الدموع تتناثر فى حين أخذ فجأة يغنى فى صوت حزين :

إنى أثبت حضورى أيها الكابتن
إنى أثبت حضورى
إنى أثبت حضورى
إذ أريد الذهاب فى إجازه
إذ أريد الذهاب

أخذ الضابط وجه الجندى بين يديه وقبله على خديه كما يقبل أخاً ، وحاول أن يحمله على النظر فى عينيه ، ولكن جوفانى جفل فجأة كما يجفل الجواد العصبى ، ودار على نفسه دورة عسكرية ، وأخذ يمشى بتلك المشية التى يسير بها الجنود قاصدين الباب عندما يسمح لهم بالانطلاق والخروج .

وبعد تردد لحظات اندفع الضابط إلى خارج الخيمة ، ولم يكن قد تقرر لديه هل يجرى ليدعو أحداً من المستشفى الانجليزى البعيد ، حيث يعمل أيضاً بعض الأطباء من فرقته ، أو يجرى وراء الجندى الذى سار قاصداً الحواجز فى نهاية المعتقل . على أنه أخذ يصيح منادياً: جوفانين! جوفانين! لكى يكتسب بعض الوقت ، ولكن الجندى لم يهدئ من مشيته . وفكر الضابط فجأة أنه من

الواجب وقف الجندى بأى ثمن قبل أن يصل إلى الحواجز ؛ لأنه إذا وصل إلى تلك الأسلاك الشائكة التى تحد من المعتقل ، فان الحارس الهندى بعد صيحة إنذار غريبة ، سيستعمل سلاحه « كما تقضى الأوامر » وهذا ما حدث فى مرات سابقة .

وبلغ إلى جانب الجندى وحاول أن يقبض على ذراعه وأمسك بيده لكى يحول بينه وبين المضى ، ولكن الجندى وقد تملكته قوة عجيبة ، تابع السير دون أن يسمع كلمة من ضابطه . وكان كلام هذا الضابط توسلات سريعة وحزينة كلما زادا اقتراباً من الأسلاك .

وعلى بعد نحو عشرة أمتار من البرج الذى يقف فيه الحارس أخذ الضابط وقد تملكه اليأس يصيح لكى يلفت نظر الجندى الهندى ، وكان يردد الكلمة الوحيدة التى يعرفها بالانجليزية « صديق ! صديق ! » ولكن الهندى قام من جلسته وبندقيته فى يده وأخذ يتبع بنظره الأسير الايطالى الذى كان يسرع الخطى نحو موقفه . وجلس الضابط فى يأس على الرمال وهو يتابع بعينيه حركات الحارس الذى كان يسند طرف البندقية القصيرة فى حركة بطيئة إلى كتفه ويسدد فوهتها وهو يتبع الخطوات الأخيرة لجوفانين تحت برجه . وفكر الضابط « فى هذه المرة سيقتلون حتى بغير أن ينذروا » ، ورفع بغريزته يديه إلى عينيه .

كان قلب الضابط ينبض بسرعة ولكن لم يقطعه صوت طلقة الهندى . ربما لم تمر عليه غير ثوان قليلة ثم فتح عينيه ولكن لم ير الجندى لأول وهلة ، وبدا لخاطره أنه استطاع أن يقفز بمرونة الغزال الشريد . ولكنه عاد يطيل النظر فاذا به يرى الهندى يسير فوق الرصيف المرتفع ، ولم يتبين له لماذا ظل الأسير مطلقاً كما يقول الحربيون . وجال بخاطر الضابط أنه ربما بدا له أن يطعنه بسلاحه ، وأخذ يحاول لفت نظر الهندى بالصياح ولكنه كان متأخراً لأن جوفانين هرع إلى رصيف الهندى فاذا كان أمامه وقف ورأسه مرتد إلى الخلف .

لم يكن من السهل على الضابط أن يتتبع ما هو حادث فى ذلك البرج ؛ فقد كانت الشمس الغاربة ترمى شعاعها على عينيه فتمتلىء العينان بالدموع لانعكاس الأشعة الحمراء . ثم ما كان أشد دهشته إذ كان يرى كلاماً يدور بالاشارات بين الحارس القابض على سلاحه بيده وبين ذلك الجندى الأسير ، وأخذ يسائل نفسه : «ولكن بأية لغة يتفاهم الاثنان ؟ » وذلك ليطمئن نفسه على أن الخطر

قد تباعد ، ومع ذلك رآهما وقد تقدما معاً كأنهما يجدان رغبة فى هذا الحديث .

وأخيراً غابت الشمس فى سرعة فيما وراء غابة قريبة . واستطاع الضابط أن ينهد الرجلين على الرصيف وكأنهما قد جلسا القرفصاء . وأخرج جوفانين من محفظة أوراقه بعض الصور الفوتوغرافية ، وأخذ الهندى يحدق فيها باهتمام وعطف . ومر ليوبولدو كريبا بيده على جبهته عدة مرات وقرر أن يذهب ويضع رأسه تحت نافورة الماء فى المعتقل .

وفى هذه الليلة لم يقم بدوراته الخمس التى اعتادها حول المعتقل ؛ فقد فقد كان متعباً . وعندما عزم على النوم رأى الجندى جوفانى جار برولو يدخل إلى خيمته وعلى وجهه تلك الروح العادية المرحة .

سأله الضابط : كيف حالك يا جوفانين ؟

أجاب الجندى : « لقد كنت أشعر بتعب شديد فى رأسى بعد ظهر هذا اليوم. » ثم أضاف قبل أن يخرج : « جئت فقط لأرجو لك ليلة سعيدة يا سيدى الضابط » .

ستفانو تِرّا

LA FERITA NEL VENTRE

STEFANO TERRA

الجرح فى البطن

أصيب الجندى فاسكو دلاتورى بجرح فى بطنه ، فأطلق لنفسه وقتاً قليلا عنان الشكوى والحنين إلى أسرته ، وهى تعلته لنسيان هذا الجرح . ولكنه نظر أخيراً إلى ثيابه العسكرية وقد تمزقت فيما تحت قلبه بقبضة يد ، فتذكر أنه كلما تنفس خرج الدم منه إلى الخارج فيصبغ ثيابه الرمادية المخضرة ويجعل لونها كلون الجلد . فمد يده عندئذ ، ولمس تلك الثياب الممزقة الدامية ، وتأكد مما وقع له ، فشعر بعرق بارد يتصبب عليه كما حدث له وهو طفل ، حينما أمضى ليلة تحت وطأة حمى شديدة ؛ ثم كان لديه الوقت لينظر إلى الجهة التى اختفى فيها ضابطه ، ثم أدركه الموت .

تذكر هو نفسه هذه الوقائع لأنه وجد نفسه فجأة فى مركز الشخص المنحنى على جسد نفسه ، فاذا رأى عينيه الشاخصتين شعر بتأثر لذلك دون أن يجهش بالبكاء ، وشعر بأن أحزانه اليائسة تتردد وتذهب كما يذهب صدى الصوت فى تلك الغرف التى لا نهاية لها والتى تذكرها الأساطير . فظل طويلا يشعر بالشفقة على جثته الملقاة . أما الألم الذى شعر به وأدى به إلى الموت ، فقد تضاءل كثيراً ؛ وود لو يستطيع قطع يديه اللتين مرتا على الجرح بدافع حركة أخيرة عصبية . وما لبث أن فهم أنه انفصل عن هذا الجسد كما يطير اليراع الأزرق فى ظلمة الليل . ولم يبق من ذلك الذى كان حيا غير طعم مشروب الكونياك ، ولكن ربما كان ذلك مجرد رائحة ، فلقد شرب منه كثيراً قبل ساعات ، وكان الفم لا يزال فاغراً . ولم يأت الليل فلقد كان الضوء الأول ذا لون رمادى كأنه انعكاس للثلوج . وصار كل مايهمه هو الخوف من أن يفقد نفسه تدريجيا وجسمه ممدد متصلب ، قبل أن يأخذ فى الانحلال . وبقى فى هذا الانتظار الغريب وهو يستطيع أن يتذكر أشياء . ولكن لكى يفعل يجب أن يتمسك طويلا بجزء من جسمه . ولكن هذا العمل كان يتطلب تعباً ومجهوداً مضنياً وضائعاً . ولقد ساعدته يداه بأن يتذكر قصصاً من سنوات حياته الماضية ، فلم يعد يفهم لماذا تأخر هكذا طويلا فى أن يتصل بامرأة . ولقد استطاع بقدميه أن يرى كما يرى الجنى الصغير ، شوارع كبيرة وسلالم وأرصفة ، وما فى منزله من أثاث مترب .

وأخيراً بقى كعين سحرية فوق جسده ، عين ضعيفة كأنها تفقد قوتها كلما زادت جثته تحطما . على أنه استطاع أن يتذكر طويلا منظراً تشبث به كأنه يدافع عن نفسه : فلقد سقط ثلج كثير ، وكان هو بجرحه فى البطن ممدداً ، وعيناه مفتوحتان وثوبه العسكرى الملطخ بالدم ملقى كأنه رجل متعب فى نوم عميق . ولكنه إذا كان قد صار لا يشعر باختلاف الليل والنهار فانه شعر بشمس ذلك الربيع التى كانت تأبى أن تبقى على بقاياه . و إذا الأمور تظهر فجأة كأنها مهزلة فظيعة وقد انفرجت شفتاه . وفى الضوء بدت عليهما ابتسامة كبيرة إلى أن تحولتا إلى قطعتين من اللحم الكريه بفعل الذباب ثم الديدان ، التى هربت بعد قليل بسقوط الأمطار .

ومع ذلك كان لايزال يتملكه الخوف خشية أن يفقد نفسه.وكان خوناً وحيداً

ضيقاً عندما يرى تلك الألوان الغريبة التى أخذ يتلون بها جسده . وانتظر أن يزول عند أول هبوب ريح قوية كتلك الأزهار التى يسميها الأطفال بالزعفران، وفى كل هذه الأحداث كان يرى أخيراً ذلك الجرح التى لم تعد اليدان المتيبستان تلمسه ، وكان ذلك نهاية الجرح الذى نشأ عن قنبلة يدوية ، واستطاع أن يتذكر أنه فى وقت ما عثر على شظية من هذا النوع ووضعها فى حافظة أوراقه على سبيل التذكار .

وأخيراً ظهر فى هذا الجزء النائى من الجبل رجال يحملون فؤوساً ومطارق ونقالات . وتقدم إليه أحد هؤلاء الرجال وبحث فى سترته وأخرج منها حافظة الأوراق التى بدت له أنها مليئة . وجاء ضابط لفتحها وظل ينظر طويلا فى صورة خطيبته . وكانت رؤيته تتضاءل ، وأخذ يشعر بتعب شديد كالذى يأخذ الحارس الذى ينتظر بعد وقت طويل تغير الحراسة . وفى هذه المرة فقد وعيه دون أن يشعِر بأى ألم ، ولكنه كان يسمع فقط وقع أول حفنة من التراب .

ستفانو تزّا

نقلها عن الايطالية ح. م.

THE RECONSTRUCTION OF HOLLAND

HENRY BAERLEIN

إعادة بناء هولندة *

إن كل من زار هولندة بعد هذه الحرب الأخيرة ، لا بد أن يشعر بأكبر العطف على شعب عومل أفظع معاملة ، وتخلص من اليأس بقوة الصبر والمثابرة بالرغم من الظروف غير المشجعة ، فنجح فى وقت قصير فى المجهود الذى بذله للعودة إلى ما يقارب رخاءه القديم . ومن الطبيعى ألا يوفق فى مجهوده تماماً ؛ لأن ذلك متوقف على عوامل لا يسيطر الشعب الهولندى عليها . فهو على سبيل المثل لا دخل له فى إعادة ما سرق منه من متاع . فالهولنديون ينظرون الآن إلى مواشيهم تلوح من وراء حدودهم ويعلمون أنها ملك لهم ، ولكنهم لا يستطيعون استردادها ؛ إذ قيل لهم إن هذه الأمور وأمثالها تنظر فى التسوية العامة ؛ وإنما يعمل الشعب الهولندى ويدأب بغريزة أسلافه وبروحهم التى لا تقهر .

لقد حاول الألمان فى أثناء الحرب أن يكتسبوا ثقة الهولنديين فلم يبوءوا إلا بالسخرية . وحاول الألمان أن يؤثروا فى الهولنديين بما عرف عنهم من احترامهم لأسلافهم الأبطال الذين كانوا يقاتلون البريطانيين فى الأزمان الخالية . ومن أشهر هؤلاء الأبطال أمير البحر دى رويتر ، وهو الرجل الذى أبحر إلى ميداوى فى جنوب انجلترا متخذاً المكنسة شعاراً له وقد علقه فى مقدمة سفينته . وأعلن أنه يريد أن ينظف البحار من الانجليز . وكان ذلك فى زمن ضعفت فيه شوكة الانجليز جدا قبل أن يأتى أوليفر كرومويل ويضع حداً لهذا الضعف . ولم ينجح الأميرال فى محاولته كل النجاح، ولكنه مع ذلك أثار حماسة كبيرة فى مواطنيه . وكان الألمان يلحون دائماً على الهولنديين بأن يحذوا حذوه فى كراهيته للانجليز ، وأبوا أن يسلبوا صورته الكبيرة فى متحف لاهاى . واستعملوا صورة رأسه فى بعض طوابع البريد التى أصدروها، غير أنهم لم يحيطوا

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

تمثاله فى بلدة فلشنج مسقط رأسه بأكياس الرمل أو بأى نوع من الوقاية . فلما ضربت المدينة من قوة الطيران البريطانى أصيب التمثال وغضب الهولنديون . وجاء وقت صار من الضرورى فيه ضرب المدينة ، فدمرت جميع الدور التى تواجه الميناء،ولكن الأقدار قضت بأن لا يصاب التمثال ، وتعرض الألمان لسخرية الهولنديين ونكاتهم .

ذهبت إلى هولندة فىنوفمبر سنة ١٩٤٥ ثم فى أوائل ابريل سنة ١٩٤٦، وفى المرتين لم أزر فلشنج وحدها بل زرت أيضاً جهات من جزيرة فلشرين . وكان مما يسترعى النظر حقا أن يرى التقدم الذى تم فى هذه الشهور . فعندما كنت فى زيارتى الأولى كانت الجزيرة ، وهى أخصب أرض زراعية فى هولندة ، فى حالة محزنة ؛ فقد ماتت كل أشجار الفاكهة ، ولا بد أن تمضى سنوات قبل أن تنبت مكانها شجيرات فاكهة أخرى . وكانت الأرض فى حالة سيئة بعد أغرقتها المياه الملحة ؛ إذ أحدثت قوة الطيران البريطانية أربع ثغرات كبيرة فى السدود المحيطة بتلك الجزيرة . ولم يكن من الممكن بغير ذلك إخراج الألمان منها ولا استعمال ميناء أنتويرب الحيوية للتمكن من غزو ألمانيا .

ظلت هذه السدود أربعمائة سنة تقاوم مياه بحر الشمال ، وكانت تحت إشراف مهندسين تخصصوا فى هذا العمل . فحزن هؤلاء المهندسون حزناً شديداً عندما تهدم عملهم وعمل أسلافهم على هذه الصورة . وفى نوفمبر سنة ١٩٤٥ أخذوا يصلحون هذا التخريب . وكان من المستطاع الحكم على حالة الجزيرة بأجمعها من الطريق الأساسى الذى يصل ميدلبرج العاصمة الجميلة لمقاطعة فلشرين بميناء فلشنج ؛ فانه لم يكن يستعمل حينئذ إلا من جهة واحدة،فيشغل الطريق لمدة ثلاثة أرباع الساعة بالمركبات الذاهبة فى اتجاه ، ولمدة ثلاثة أرباع الساعة بالمركبات الذاهبة فى الاتجاه الآخر . وكان الطريق الذى سلكته سيارتنا عبارة عن تلال صغيرة وأودية إذ أثرت فيه المياه . وعندما عدت إلى فلشرين بعد أشهر قلائل كان الطريق منظما خير تنظيم حتى صار يضارع سائر الطرق العديدة فى هولندة ، وهى طرق لا تفضلها طرق أخرى فى العالم . فالكثير منها مغطى بالآجر (الطوب الأحمر) الذى صف بمهارة زائدة حتى كون أرضاً مسطحة ملساء . ومزية مثل هذا الطريق أن السيارات لا تنزلق عليه طول السنة . وقد غرس فى وسط الطريق خط من الشجيرات ، فالمركبات تسير فى اتجاه على اليمين وفى

الاتجاه المقابل على اليسار ، فتمتنع المصادمات ، ولا تحد السرعة فى السفر . ولا ريب فى أن طرق فلشرين فد تأثرت كثيراً من استعمال النقالات التى تسير فى البحر والبر معاً،وقد اضطرت القوات البريطانية إلى إحضار هذه النقالات واستعمالها بعض الوقت عندما كانت الأرض مغمورة بالماء ، ومثل هذه النقالات تخرب أى طريق تخريباً كبيراً . وقد عدل البريطانيون عن استعمالها بمجرد أن تيسر لهم ذلك . وكانت هنالك سهولة نسبية فى إنقاذ حقول فلشرين الواقعة على مقربة من ثلاث من الثغرات الأربع التى أحدثت فى السدود ، حيث كانت الأرض عند هذه الثغرات مرتفعة ، فلا تغمرها المياه إلا عند المد . ولذلك عمد المهندسون إلى سد الثغرات وتطهير الأرض من الماء تدريجياً على درجات . وكان العمل قد تم عند هذه الثغرات الثلاث حين عدت إلى فلشرين . أما المياه فى الجزء الباقى من الجزيرة ، وهو لحسن الحظ الجزء الأصغر منها ، فقد رفعت بالمضخات الماصة إذ أن هذه الأراضى منخفضة عن مستوى البحر ، واحتاج هذا الأمر إلى جهد ومال كبير . ولقد أقيمت مضخات ماصة كبيرة كنت أراقب عملها ، وأعيد بناء السدود جميعاً ، فلم يمض إلا القليل من الزمن حتى صارت فلشرين بعيدة عن أى خطر من البحر عدوها القديم ، ولكن لا بد أن تمضى سنوات قبل أن تسترد الجزيرة ما كانت عليه من رخاء .

ولقد زرت قسما آخر من هولندة وهو المسمى بحر فيرنجن، فاذا الألمان قدأغرقوه عند ما أحيط بهم وصاروا فى حالة اليأس ، ولم يكن هذا العمل منهم إلا مجرد الرغبة فى الشر . ولقد أسالوا بحر زيدر على الأرض التى بذل الهولنديون مجهوداً كبيراً لاستخلاصها من الماء منذ سنوات ، فزادوا مساحة بلادهم بهذا العمل نحو السبع . ولكن من حسن الطالع أن هذه الأراضى طهرت من الماء فى وقت قصير ،واتخذت وسائل لازالة أضرار الملح منها . وفى تلك المنطقة تعرفت إلى سيدة شجاعة تسكن مزرعة متطرفة مع زوجها . وكانت هذه السيدة تصغى إلى إذاعة اللاسلكى ، فتسمع فى ليلة معينة أن ستلقى قوة الطيران البريطانى أسلحة وذخيرة وطعاماً على مقربة من مزرعتها فى ساعة معينة ، فاذا كان الليل ملائماً تكررت الاشارات . فتذهب هذه السيدة وصحبها فى انتظار الأمتعة الثمينة التى تسقط بوساطة المظلات ، وحينئذ تخبئ الأمتعة وتدفن المظلات فى الأرض.وكانت هذه المظلات تهبط دائماً فى أماكن لا يحرسها الألمان ، وعندما انتهت الحرب أخرجت

هذه السيدة المظلات من الأماكن التى دفنتها فيها وعملت منها خيمة أولت فيها وليمة لجميع المزارعين من جيرانها ، ثم صنعت من حرير المظلات قمصاناً للرجال والنساء ووزعتها على من هم فى حاجة إليها . ولقد حدث أن قتل عدد قليل من الألمان تغلب فضولهم على الحيطة فأرادوا فى أثناء الحرب أن يتأكدوا من مكان هذه المظلات التى رأوها تسقط . وفى مرات عدة اقتحموا مزرعة هذه السيدة ، ومع أن منظرها يدل على أنها سيدة رقيقة القلب ، فان هؤلاء الألمان لم يسمع عنهم أحد من بعد شيئاً .

ونذكر بهذه المناسبة أن بريطانيا بذلت مجهوداً فى خدمة فلشرين لا فى تقديم الخبراء ، بل فى تقديم الآلات التى استعملت فى غزو نورماندى . وكانت هذه الآلات العديدة كبيرة الفائدة فى إعادة بناء السدود ، وكان من بنات أفكار أحد البريطانيين أن أرسل إلى هولندة كمية وافرة من الشباك التى استعملت فى جمع الرمال ، وتبين أنه أدى أكبر خدمة كان الأهالى يرغبون فيها .

وحدث بعد سنتين من ذهاب هؤلاء الانجليز إلى فلشرين لتحرير الجزيرة من عدوها القديم ، وهو البحر ، أن وقع بشرق انجلترا فى ربيع سنة ١٩٤٧ وفى منطقة المستنقعات مثل ذلك الطغيان من الماء يسبب ذوبان الثلج بعد شتاء شديد ، وكان مستر ج. ا. ريد أحد الذين عملوا بهولندة منذ سنتين واتصل أثناء عمله بمستر ج . ج . كاليس فاتصلا مرة أخرى عندما حدثت هذه الكارثة فى الأراضى البريطانية . وأخذا يتبادلان الرأى فيما صنع فى فلشرين ؛ ولكن الثغرات هنا كانت أوسع والمشكلة أعمق ، على أن العمل لم يكن متأثراً بمشاكل داخلية ، وكان مستقيما وأقل تعقيداً . ومما هو جدير بالذكر أن السدود على جانبى نهر الأوز بمنطقة المستنقعات بانجلترا بناها هولنديون . وكان المهندسون الهولنديون هم الذين استخلصوا الأرض من النهر ،وعملوا فى صرف المياه عنها عندما كان دوق بدفورد على رأس المغامرين الذين استخلصوا مساحة واسعة من المستنقعات وجعلوا منها أرضاً خصبة فى القرن السابع عشر .

لقد خرّب الألمان أراضى هولندية خصبة وبعضها سيستغرق إصلاحه وقتاً طويلا . وقد سرق الألمان من هولندة شيئاً كثيراً ، لذلك يطالب الهولنديون وكثيرون من الذين يعطفون عليهم بأن يعوضوا عما خسروه بطريقة ما . واقترح بعضهم أن تستولى هولنده ولو لبضع سنوات على مقاطعة ألمانية ،

واقترحوا لذلك قسما من أولدنبرج ، والاقليم المتاخم لهولندة ليس فيه مدن كبيرة ولا صناعات ضخمة وتعداده قليل . وعندما زار مستر شوكنج لندن أخيراً ، وهو سكرتير الجمعية الهولندية للأمور الدولية ، وكان يريد إلقاء محاضرات فى لندن ، ظن أنه سيعرب عن هذه الرغبة ، ولكنه أعلن أن مطالب هولندة متواضعة جدا ، ولا يجب أن يقال بأنها ترغب فى ضم إقليم بل هى ترغب فى تصحيح حدودها ؛ لأن المساحات التى تطلبها صغيرة جدا ، وليس غرضها إلا تسهيل إدارة الحدود . وهذا القول ينطبق أكثر ما ينطبق على مناجم الفحم فى جنوب هولندة لأن بقاء هذه المناجم تحت سيطرة الألمان مما يعطل استغلالها اقتصاديا ، وهذا الطلب هو فى مصلحة الجميع .

وقد أخبر مستر شوكنج سامعيه بأن رأى بلاده فى التعمير لم ينضج بعد ، ولا يزال الهولنديون فى طور تكوين الرأى ، وهم فى ذلك يسيرون بما يناسب سجيتهم فهم غير متسرعين فى الوصول إلى نتائج ، ولكنهم بمجرد ان يجمعوا على رأى يخلصون له كل الاخلاص ، فالهولنديون الذين يطالبون الآن بجزء من أولندبرج ليسوا هم الكثرة . ويقول مستر كوشنج إن الاتفاق هذه المرة يجب أن يكون مرضياً للجميع ، وأن يكون مستمرا ؛ فأمام بلاده مشاكل داخلية وخارجية كما هو شأن جميع البلاد . وأخذ يشرح لسامعيه كيف تسير الأمور الآن فى هولندة وكيف أن حزب العمال الذى أنشئ حديثاً وانفصل عن السياسة الماركسية يحاول النجاه من الانغماس فى الفردية من جهة ومن ضدها من جهة أخرى ، ويوجد بين أعضاء حزب الأحرار عدد من أعمق الدارسين للأمور الدولية ، على حين نجد تفوقاً سياسياً فى بعض الفرديين . على أن هذا الحزب بوجه عام لا يؤمن بالمستقبل ، وذلك بسبب جنوحه إلى الوطنية الضيقة . غير أن بعض أفراد هذا الحزب أبدوا مقترحات وجيهة فيما يتعلق بتسوية المسألة الألمانية . وكان الغرض الذى يرمون إليه إيجاد بلاد صالحة للمستثمر الأمريكى الذى تزداد الرغبة فيه .

ومن المظاهر الخاصة بهولندة وجود مظهر دينى فى بعض الأحزاب السياسية ؛ فتبدأ هذه الأحزاب اجتماعاتها بالصلاة ، وهذه الأحزاب تمثل آراء ترجع إلى عقلية ما قبل الحرب أكثر مما ترجعوا إلى آراء الأحرار . وهذان الحزبان الدينيان هما الحزب البروتستانتى والحزب الكاثوليكى ، والأخير أكبر من الأول . ويأمل

الحزب الكاثوليكى أن تصير أوربا موحدة لمقاومة روسيا السوفييتية .

ولقد زاد عدد أرباب الصناعة من الهولنديين فيما بين الحربين وزادت أهميتهم ، وأوجد اختفاء السوق الألمانية لهم مشكلة خطيرة . ومن خير المعبرين عن آراء هؤلاء مستر بيرنز دى هان ، وهو رئيس تحرير جريدة اقتصادية هامة اسمها «متجابش بلانجن» تصدر فى مدينة هارلم. وفى رأيه أن الحاجة ماسة إلى إحياء صناعة أوربا الغربية وإعادة تنظيمها . وهو يقول إنه إذا أرادت الدول فى أوربا الغربية الحياة فيجب ألا تعمل على تعطيل زميلاتها ، وهو لا يؤيد فكرة مزج الدول بعضها ببعض ، وإنما يؤيد فكرة مزج مصالحها الاقتصادية ، أو بعبارة أخرى يجب أن تكون جبهة اقتصادية واحدة . والمثل الواضح على ذلك هو اتحاد هولندة والبلجيك ولوكسمبرج فى جماركها؛ فلقد قضى هذا الاتحاد نهائياً على التنافس بين بلجيكا وهولندة عند ما كانتا خصيمتين على أثر تفضيل بلجيكا الاستقلال عن هولندة منذ مائة سنة . ومن الطبيعى أن تقوم بعض المصاعب فى تنفيذ هذا الاتحاد الجمركى ، وهو يجد من الحماسة لدى الكاثوليك أكثر مما يجد لدى البروتستانت . وقد يزيد التنافس بين البلدين بل بين البلاد الثلاثة ؛ لأن لوكسمبرج ، بتعداد سكانها الذى لايزيد على ثلاثمائة ألف نفس ، تخرج من الصلب مايجعلها سابعة أو ثامنة البلاد التى تصدر هذا المعدن الثمين فى العالم ؛ وهذه الغراندوقية الصغيرة هى من أكثر البلاد نهوضاً. ولقد استدعت منذ ست سنوات اثنين من المخترعين الانجليز أوجدا طريقة فى صنع الصلب تفوق طريقة بسمر إذا وجد الفوسفور ؛ وهى أول بلد أقر للعمال بأن يتمتعوا باجازة مع استيلائهم على رواتبهم . ومن المصاعب القائمة بين هولندة والبلجيك مسألة الأجور ؛ إذ أنها فى البلجيك أرفع منها فى هولندة ، ولكن العمال من الهولنديين لن يقنعوا حتى يبلغوا المستوى القديم لهم فى المعيشة . ولعل مايهم أوربا من مثل هذه التسوية التى قد تتم بين بلجيكا وهولندة أن تتخذ نواة إلى تسوية أمثالها بين بلاد أوربا ، أو على الأقل بين بلاد غرب أوربا . ومما تجب ملاحظته أن هنالك كثيرين ينتقدون تكوين كتلة أوربية غربية ثابتة بما تحويه من مخاطر وهم ، يذكرون فى هذا المعرض أن هولندة لها مساحات آسيوية وأفريقية واسعة مما لا يتفق وهذه الكتلة .

وفيما يتعلق بألمانيا يظهر أن الرأى السائد فى هولندة هو عدم تقوية السلطة المركزية . أما إنتاج الفحم الألمانى واستعمال وسائل النقل الألمانية فأمر يؤخذ فيه رأى جميع الدول التى يهمها ذلك . وفيما يتعلق بنهر الرين يرى الهولنديون أن الملاحة فيه تكون حرة لجميع الدول الواقعة عليه . على أن بريطانيا وأمريكا رغبتا فى أن يكون لها من الرأى مايتفق ومصالحهما العديدة . وقد استسلم الهولنديون بعد مفاوضات طويلة إلى هذه الفكرة واتخاذ نظام نهر الدانوب مثالا .

ويظهر أن الاتحاد الجمركى بين هولندة وبلجيكا ولوكسمبرج يضم تجارة كانت الرابعة وهى الآن الثالثة فى العالم . ولقد عظمت العلاقات التجارية بين هولندة وبريطانيا فى سنة ١٩٣٨ حتى صارت أهم من تجارة هولندة مع ألمانيا . وعقد أخيراً اتفاق بينهما يقضى بأن تستورد بريطانيا بعض المنتجات الزراعية الهولندية . ولن تغير هذه المنتجات فى حالة الطعام بانجلترا كثيراً ، ولكنها بداية حسنة . ولقد ذكر لى أحد الهولنديين الذين أمضوا بضعة أشهر فى هولندة أن الرجل العادى فى مدينة أمستردام يستطيع أن يحصل على طعام أكثر مما يحصل عليه الانجليزى ، وذلك دون الالتجاء إلى السوق السوداء . والأكل فى المدن الهولندية مرتفع الثمن فى المطاعم ، ولكنه خير منه فى مطاعم لندن : على أن بعض المواد الخاضعة لنظام التموين فى هولندة ليست كذلك فى انجلترا ، فالهولنديون يتناولون بالبطاقات البن واللبن والكاكاو والبرتقال، ويحصل الهولنديون على ٢٥٠ جراما من الزبدة أو الدهن فى الأسبوع ومثلها من اللحم ، على أن الحوانيت مليئة بالأغذية . وعندما زرت هولندة للمرة الأولى بعد تحريرها رأيت الحوانيت تعرض فى نوافذها مواد ليست للبيع وإنما كانت ترجو أن تتمكن من تدبير مايكفى للبيع منها فى المستقبل . أما الآن فلا تضطر ربات البيوت إلى الوقوف صفوفاً أمام المتاجر ولا يكون ذلك إلا أمام دور السينما والمسارح والمعارض . فأى تغيير طرأ على الصورة التى رأتها أعيننا فى أواخر سنة ١٩٤٥ ؟ لم نر عندئذ إلا قليلا من الكلاب والقطط فقد أكلها الناس فى أواخر شهور الاحتلال الألمانى عندما ووجه الهولنديون بالمجاعة ، بل إنهم اضطروا لأكل بصيلات زهرة التوليب الشهيرة فى هولندة مع أن الطعام المصنوع منها متعب للمعدة لا يهضم بسهولة ، ومع ذلك استطاع

الهولنديون أن ينتقموا أحياناً من معذبيهم . فلقد تناولت طعام الغداء فى أحد الأيام فى فولندام وهو مكان شهير لدى رجال الفن إلىجانب بحر زيدر ، وكانت حوائط غرفة الطعام فى الفندق مغطاة بصور مشاهير الرجال ومنهم صورتان من صنع المصور فيل ماى إحداهما صورة صاحبة الفندق ، وقد أخبرتنى هذه السيدة أن الضباط الألمانيين الذين كانوا ينزلون لديها بأمر السلطة كانوا يعطون ماء أجاجا ؛ فقد أخبرتهم السيدة أنها لا تجد غيره ، مع أنه يوجد خزان للماء الصالح . وقد حذرت خادمتها بأنها إذا أفشت هذا السر فلن تعيش على الأرض . والآن لا تزال الخادمة على قيد الحياة فى حين وجد الألمان طعامهم كريهاً . وكان البريطانيون والأمريكانيون يرسلون من طياراتهم الطعام كلما شعروا بأنه لا يقع فى يد الألمان ، وقد ساعدت جيوشهم الأهالى بمجرد دخولهم البلاد . ولقد استولى الألمان على أكثر من نصف الدراجات التى كان يستعملها الهولنديون ، ووضعوا أيديهم على إطارات الأخرى ؛ فكان الهولنديون يركبونها بلا إطارات أو يصنعون ما يعتاضون به عنها .

ومع ذلك لم يرحب الهولنديون بكل ما كانت تلقيه قوات الطيران البريطانية والأمريكية ؛ فلقد تمسك الألمان لسوء الحظ بمساحة واقعة بين مدينة لاهاى وشيقننجن ، وكانت هذه المساحة تبدو من الجو كأنها جزء من المدينة فأدى ذلك إلى ضرب المدينة بالطيارات . وكذلك ضرب الأمريكيون أثناء الحرب الجانب الهولندى من نهر الراين بدلا من الجانب الألمانى، فتخربت جهة نيمنجن تخرباً كبيراً . ولكن الهولنديين لم يحتجوا على ذلك وقالوا إنها حوادث منتظرة بين حين وآخر .

ويرى الهولنديون فيما يتعلق بمنطقة الرور أنها مسألة سياسية إلى جانب كونها اقتصادية ، ويجب أن تبقى الصناعات الألمانية الثقيلة فى مستوى لايهدد العالم بالأخطار كما كان الشأن فى الماضى ، وفى الوقت ذاته يجب ألا يقضى على هذه الصناعات الثقيلة فتصبح ألمانيا المريضة خطراً على الجميع . ولقد نهضت الحركة الوطنية التحريرية فى وقت قصير بهولندة وكان لها تأثير كبير ، ومن ثمارها تكوين حزب العمال .

ومن الدلائل الظاهرة على أن الهولنديين عازمون عزماً أكيداً على تسوية مشاكلهم الداخلية أن وزير المالية فى الوزارة التى تألفت بمجرد تحرير هولندة ،

أصدر عدة قرارت حاسمة فكر فيها بعناية فى أثناء اعتقاله فى أحد المعسكرات الألمانية . وقد أصدر أمراً بأن تصير أوراق العملة باطلة ولا قيمة لها بعد تاريخ محدد ، ثم صرف لكل شخص فى هولندة من الملكة إلى أبسط الناس بضعة شلنات لتنفقها فى أسبوع قبل العمل بالعملة الورق الجديدة . ولقد تخوف بعض الناس الذين كانوا يملكون الكثير من عملة الورق القديمة ؛ إذ فيها دلالة على أنهم حصلوا على أموالهم بوسائل مشكوك فيها . ولذلك رئى بعض الرجال يشعلون سيجارهم بورق العملة من فئة مائة جولدن ، ووضع غيرهم هذه الأموال التى حصلوا عليها بطرق مريبة فى شراء مجموعات لطوابع البريد أو بطاقات للترام أو بناء قبور لأسرهم . وقد حدث لفتاة أنها أعلنت للسلطات عن عزمها على الزواج ، وأن تستأجر مكاناً فخما من أحسن الأمكنة لتقيم فيه حفلة . وقد فعلت إذ أجرت بهو دار البلدية ودفعت الايجار بالنقود القديمة . وبعد أسبوع أو اثنين عادت مرة ثانية وشكت من أن خطيبها فر ولا تعلم مكانه ، وهى على ذلك لاتستطيع إقامة الحفلة وطالبت برد النقود إليها ، وكانت العملة الجديدة قد صدرت فردت إليها النقود من هذه العملة ، ولكن أولياء الأمور أخذوا يحققون الأمر ، وندمت الفتاة على أنها أقدمت على تنفيذ هذه الحيلة البديعة .

ولقد تأخر الهولنديون فى العودة ببلادهم إلى الرخاء بسبب كثرة الأنهار والقنوات ؛ إذ أنها كانت عقبات كبيرة بعد أن دمر الألمان الجسور . ولكن من حسن حظهم أن النفق الشهير الذى يمتد تحت الأرض عند روتردام ظل سليما. على أنهم استطاعوا أن يقيموا جسوراً مؤقتة فى أجزاء عدة من البلاد . ولقد ساعدهم البريطانيون بقدر مايستطيعون فنقلوا إليهم جسر ووترلو القديم ، وهذا الجسر انتهت به الحياة إلى أن قسم ثلاثة أقسام ، وتعمل هذه الأقسام على مساعدة الهولنديين حيث تكون أكثر فائدة . وفى خريف سنة ١٩٤٥ عندما ذهبنا إلى شاطئ نهر كبير وكان اليوم شديد الضباب أخبرنا بأنه يجب أن ننتظر أربع ساعات قبل أن تجد سيارتنا مكاناً فى القارب النقال ؛ وعلى ذلك سلكنا مع غيرنا من أصحاب السيارات طريقاً طويلا ملتوياً . ولكن هذه الأحوال تغيرت فى أقرب وقت،وصارت هولندة فى حالة تقارب ما كانت عليه قبل غزو الألمان . ولقد ترك هذا الغزو ذكرى وآثارا فى البلاد : فمن ذلك أن مؤلفة

هولندية كانت تلقى محاضرات على الألمان قد حرمت من حق طبع أى كتاب مدى عشر سنوات فى هولندة . ولقد قابلت خادمة قتلت أكثر من جندى ألمانى بأن كانت تطمع السكارى منهم الذين يحتكون بها فى الليل ثم تسير معهم إلى جانب قناة وفجأة تقذف بهم إلى الماء .

وحدث أنى زرت أثناء الحرب بعض البحارة والجنود والطيارين من الهولنديين المعسكرين فى أماكن من بريطانيا وكانوا شباناً بواسل ، وهذا الرأى يؤيده الفتيات البريطانيات اللاتى تزوجن عدداً منهم . وليس من الضرورى أن أطيل فى الكلام عن شجاعتهم ، ولكنى أستطيع أن أذكر أنه عند ما أقيم لهم معسكر فى جهة خالية عند وولفرهامتن ، أنشأوا طرقاً من الأسفلت فى بضعة أسابيع وزرعوا متنزهات من أشجار الأزهار كما زرعوا بعض أشجار الخضرة ، ورأيت ذات يوم نحو عشرة من الجنود المتقدمين فى السن وهم يدرسون اللغة الانجليزية فى اهتمام . وكان بينهم جماعة من أصل هولندى ولكنهم يعيشون فى جنوب أفريقية،وقد خدم هؤلاء مع مواطنيهم لأنهم لم يغيروا جنسيتهم . وقد أخبرنى المعلم الذى كان يلقنهم اللغة الانجليزية أن ابنته أتقنت لغة الأهالى السود من الزولو وكتبت فى شراء بعض السلع إلى تاجر من الزولو بهذه اللغة ، فظن أنها من أبناء جنسه فكان السعر الذى طالبها به أرخص من السعر الذى يبيع به للأهالى البيض .

هنرى برلين

نقلها عن الانجليزية ز. ى. ع.

جولة مستطلع

فى الموسيقى والمسرح

ليس من حق الموسيقى العربية لهذا العهد أن تقوم مصدراً من مصادر الثقافة : أما الغناء الدوار على ألسنة أهل الصناعة فمرذول لما فيه من الميوعة والإسفاف وقصر المجرى ، زيادة على مسخ طائفة من الأغانى الإفرنجية ؛ وأما العزف فقد جمد وجف بفضل جماعة قصروا هممهم على التقليد ، وفى ظنهم أنهم حضنة الموسيقى .

لذلك لا بد لمن سئم الطقطوقة والموال والمارش وسائر الترهات أن ينصرف إلى سماع الموسيقى الغربية . وإنى أذكر أن فرقة إفرنجية جلبتها وزارة المعارف قبل نشوب الحرب لم تصنع شيئاً فى سبيل الثقافة ، فنشرتُ فى ذلك مقالا فى مجلة « الرسالة » نبهت فيه المسئولين على إخفاق سعيهم مبينا لهم أن نوع الأوبرة الذى أدته تلك الفرقة رذيل ضعيف : فليس بارعاً كل ما يتصل بالموسيقى الغربية ، وهؤلاء الفرنج يميزون ويحكمون ومقابيسهم آيات ملحنيهم .

ثم هذه فرقة إيطالية تهبط علينا السنة لتؤدى ذاك النوع بعينه . فكأن من وكل إليه للمة أفرادها قال فى نفسه : « ليس فى مصر من يحسن السماع » قال هذا وربما أعجزته موازين الموسيقى الرفيعة ، فجاء بفرقة لا تتجاوب أطرافها، فيها نفر من المغنين المجيدين وكثير من المغنين الضعفاء . وقد أدت الفرقة طائفة من الأوبرات البالية والمبتذلة . وهذه الطائفة كنا بها مصابين فى مصر قبل قيام الحرب ، وأساميها لاكتها الألسنة : ***Rigoletto, Lucia di Lamermoor***
La Traviata, La Bohême, Aïda, Tosca, Madame Butterfly فكلها ما عدا ***Il Barbiere di Siviglia*** ، التى تفاوت أداؤها هذه السنة ، تلحق

منذ زمن بعيد فى أوربة بنوع الأوبرة الشعبية ؛ لأن الألحان فيها لا تعدو فى غالب الأمر النغم القريب النال . وتلك هى طريقة Verdi الإيطالى الذى ظل يعمد إلى اللحن الوجدانى الصرف تساوقه الآلات فى استرخاء ، ولم يخرج عن هذا إلا فى قطعته الأخيرة *Falstaff* إذ تأثر بطريقة Wagner ولكن هذه القطعة لم تعرض علينا هذه السنة (!) . وذلك اللون من اللحن الوجدانى عقبه ما يقال له الموسيقى الفيرية Le vérisme ، وخصائص هذه الموسيقى المأساة المفرطة والتشدق فى الغناء والمبالغة فى التعبير ، مع العجز فى التمثيل ، إرادة هز الأعصاب (على طريقة يوسف وهبى ، فتأمل !) . ومن أصحاب هذا اللون من الموسيقى Puccini الذى لحن أكثر ما عرض علينا هذه السنة ، وبئست السنة !

•

وليست الأوبرة الغربية السامية على هذه الصفة ، تلك الأوبرة التى نزهها Wagner وتسلمها Debussy وجماعة الروس وغيرهم من المحدثين المهرة .

إنه يحسن بالمسئولين — وكأنى بهم مسئولون بغير حق — أن يقلعوا عن أسلوب فى الاختيار سريض يجعلهم ينشطون للألحان المتداولة من سنين ، المنبثة فى الأسواق ، المسترخية فى الآذان ، الهالكة فى الصدور . وإذا كان قوم كتب عليهم أن يظلوا يطربون للأغانى الافرنجية المبتذلة ، — شأن قوم أصيبوا بالاقبال على تلاحيننا العربية الملفقة — فليقدم المسئولون إليهم طرفًا من الأوبرات الضعيفة مثل *Madame Butterfly* و *La Traviata* (ولا حول ولا قوة إلا بالله !) ، على شرط أن يجلبوا لأهل الذوق السليم والبصر الحديد أوبرات من اللون الرفيع بعضها من مختتم القرن الماضى وبعضها من هذا القرن . وإذا شق عليهم تعرف هذه وتلمسها فهل يسألون ويستبصرون ؟

على أن إدارة الأوبرة الملكية عوضت إخفاقها فى الموسم الموسيقى من نجاحها فى الموسم التمثيلى . ولا أدرى أعتمدت على نفسها فى اختيار الفرقة أم استشارت فى شأنها ، فلا شك أنها وفقت لفرقة فرنسية تعمل للفن الخالص أكثر ما تعمل . والحق أن ليس فى الممثلين غير الرأس وهو Jean Marchat إذ يجيد الأداء

الاجادة كلها . وأما إخوانه فيفلحون هنا وهنا و يجيدون إجادته ور بما بذوها فى مواطن معينة : من ذلك أداء Lucien Pascal فى المسرحية « البشارة إلى مريم » و Jean Ozenne فى مسرحية « موعد فى سنليس » . وأما المثلات فهن فى الجملة خير من المثلين ، وأشهد أن Michèle Alfa فى المرتبة الأولى فى جهة تمثيل المأساة وأن Gisèle Casadesus لا تكاد تهبط عنها فى جهة تمثيل الملهاة . ولسائر المثلات مواقف بارعة ، أذكر منها موقف A. Sapritch فى مسرحية « سأحيا حياة حب عظيم » وموقف E. Hardy فى مسرحية « موعد فى سنليس » .

ولست غامزاً بالفرقة ، ولكنى واضعها فى مكانها . وبعيد عن ذهنى أنى أنزلها عن المرتبة العليا ؛ لأن أفرادها —ما عدا ممثلة واحدة— ليسوا من مسرح « الكوميدى فرانسيز » . ففى أوهام جماعة من الناس أن فن المسرح إنما أوله وآخره بين جدران الكوميدى فرانسيز ، وأن سره بين أيدى رجالها ونسائها . وهنا أذكر أننا كنا نلهو فى باريس بالغرباء وأهل الريف إذ كانوا يستبقون إلى مقاعد الكوميدى فرانسيز مهملين المسارح التى فيها يتحرك الفن إلى جهة الكمال تأليفاً و إخراجاً وتمثيلاً ، وتهب الأنسام المنعشة سواء جاءت من قلب باريس أو من أطراف أوربة ، من روسية أو النرويج أو إنجلترة أو إيطاليـة . وكانت هذه المسارح أربعة بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٨ وأصحابها هم Jouvet و Pitoëff و Baty و Dullin . وعلى أيدى هؤلاء لا على يدى الكوميدى فرانسيز المسترخيتين المتشققتين أدركنا كنه المسرح وبعده ولطفـه وقوته . وبتلك الأيدى الحاذقة استغاثت الكوميدى فرانسيز لتصلح شأنها وتجدد طريقتها قبيل الحرب .

والفرقة التى جاءتنا هذه السنة هى بين التشدد والترخص فى اختيار المسرحيات ، ولكنها تميل إلى الحديث فى الاخراج على ألوانه . أما ترخصها فبتمثيلها هذه المسرحيات التى يفرح بها أهل العبث والتسلى من النظارة :
de Flers et Cavaillet, *L'âne de Buridan;* Feydeau, *Feu la Mère de Madame*; M. Durand, *Bonne chance Denis.*

وأما بعض تشددها فبإقبالها على المسرحيات الاتباعية (الكلاسيك) مثل

Tartuffe و *Le Misanthrope* ، أترجمهما بالمرائى ثم النَّفور ، وكلتاهما لموليير ، ثم *Les caprices de Marianne* أو بدوات مريان وهى لألفريد دى موسيه ، ثم « سأحيا حياة حب عظيم » *Je vivrai un grand amour* لـ Stève Passeur و « موعد فى سنليس » لـ Jean Anouilh ، وهذان المؤلفان الفرنسيان العاصران من طبقة حسنة ، ولكن لها مسرحيات خير من هاتين قد شهدتها فى باريس من سنوات ، وكأن المؤلفين آخذان الآن فى ترديد أفكارهما واستثمار طرائقهما .

ثم خطر لهذه الفرقة أن تغالى فى التشدد —وها هنا موضع فخرها— فأدت مسرحيتين هما — عندى — فى قمة فن المأساة : الأولى « حرب طروادة لن تقع » *La guerre de Troie n'aura pas lieu* لجيرودو Giraudoux صاحب الخفائف واللطائف ، وقد تكلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى عدد مضى على هذه المسرحية وعرضها أتم عرض . والثانية : « البشارة إلى مريم » *L'annonce faite à Marie* [1] لبول كلوديل P. Claudel وهو أكبر شاعر فرنسى لهذا العهد . وإنى محدثك فى شأنها بعض الشئ :

قد يرى غيرى أن مسرحية « النفور » لموليير ألطف وأجذب من « البشارة إلى مريم » وأن فى هذه ثقلا وغرابة . والحق أن ما بينها هو الذى بين الملهاة والمأساة ، ثم ما بين المستمتَع به من الخارج والمحسوس به من الباطن ، وبين اللفظ الواضح المجلجل واللفظ الغامض الخافق ، وبين المعنى القريب المعلق بالشفة والمعنى المستبعد الجائل فى الضمير ، وبكلمة واحدة : ما بين النثر والشعر . أجل بين النثر والشعر وإن كانت « النفور » منظومة و « البشارة » منثورة ، وليس الشعر فى التقاطيع والقوافى .

هذا وللفرنسيين أن يعجبوا بمسرحية « النفور » ما شاء لهم أن يعجبوا لظرف فيها وللون من الغرام المتدلل أحبوه ولطريقة من النظم المحكم غلبت على أذواقهم ولبراعة فى مط الحوار . وقد جعلوا هذه الأمور كلها مقاييس وأداروا عليها فن المسرح الاتباعى . للفرنسيين أن يروا كل هذا ولهم أيضاً أن يعدوا

---

(١) ترجها بعضهم ارتجالا « البشرى المبلغة إلى مارى » .

موليير آية أدبهم المسرحى بعد راسين أو إلى جنبه . ولكن كل هذا لا يشفع لموليير إذا قيس بكلوديل . فأدب موليير من عهد مضى وأسلوب جمد ومن إحساس مغاير وتصور مفارق ، وفيه أشخاص يأسرهم التصنع ويبعدهم عنا لفظهم المفرغ فى قالب من النظم المبهرج . وهنا أذكر فصولا للكاتب الفرنسى البارع الفطن ستندال **Stendhal** كشف فيها ، عند فاتحة القرن الماضى ، عن اللغو والتكلف والمباعدة التى فى مسرحيات الطريقة الاتباعية ، وهذه الفصول منشورة فى كتاب عنوانه ***Racine et Shakespeare*** .

هذا ، و إنى لا أكتمك أن عينى غلبتنى فى الفصل الثانى من « النفور » ، وقد أغفى الضمير قبل أن تغفى العين ، فسألت نفسى كيف نشطت للمسرحية طول الفصل الأول : هل نشطتنى المحاسن التى تعجب الفرنسيين ، هل جذبتنى وأنا أدرى أنها قريبة الأثر ؟ فكرت ففطنت أن تزويق المسرح كان غاية فى المهارة وأنه كان طريفا جداً مستمداً من التصوير الحديث فى فرنسة ، هذا التصوير الذى عرضت له فى عدد مضى من هذه المجلة . ففى ذلك التزويق عرفت أسلوب المصورين التعبيريين **Expressionnistes** وبه يوحى إليك الفضاء بخطوط مستوية متراكبة ، هذه مضيئة وهذه مظلمة كأن بعضها يدافع بعضاً . وفطنت أيضاً أنى نشطت للمسرحية بفضل الثياب الفاخرة من جهة ، المستظرفة من جهة .

أما « البشارة إلى مريم » فمن مادة أخرى . وهى لم تأخذنى بمناظرها وملابسها و إن كانت محكمة . إنها لم تأخذنى ، إنها أسرتنى ، مع أنى شهدتها قبل ذلك فى باريس . والحق أن هذه المسرحية تدخل فى نطاق الأدب الذى يصفه عامة النقاد بالصعوبة والإغلاق أحياناً . وهو الأدب الممتلئ قوة وطرافة وبعداً ؛ لأن مصدره مطاوى النفس ، ومشعله حرارات الروح ، وأداته لطافة النثر النابض شعوراً الواثب خيالا ، وغايته تمجيد القوى الروحانية وتعزيز القيم الانسانية .

« البشارة إلى مريم » تتلخص فى تضحية الجسم فى سبيل الروح ، ووقف هذه الروح لعبادة الله وخدمة الدين . و إن كانت المسرحية مسيحية فهى صالحة لكل بيئة تغلب المعنى على الحس وتتطلع إلى الأسمى والأبقى .

وليس يفوتنى أن المسرحية لم تنجح فى باريس إلا من سنوات معدودة نجاحاً محدوداً ، وأنها لم تنجح فى القاهرة نجاحاً صادقاً ، إذ أقبل أكثر الناس عليها

من باب الاستطلاع أو تكلف التأنق ؛ وقد سمعت جارتين لى تضحكان وجاراً يتأفف .

هذه المسرحية تدور على سرقبلة تضعها فتاة مؤمنة تقية على شفة بناءٍ أجذم حتى تشتف من دمه المرض القتال ، فيستطيع أن يتم إقامة كنيسة ننشأ لحمد الله على مننه . وتحيا الفتاة منبوذة ، مثلومة العرض ظلماً ، وفى ضميرها راحة القديسين ومن يديها تخرج معجزات القربين : انحلّ جسمها واشتعلت روحها ، ظلمت وحشتها وانتصر إيمانها . فهى أَمَة الله ، منه وله ثم إليه .

سيقول أهل العبث والتسلى أولئك الذين لا يستشفون دخلة المسرح وقد عميت بصائرهم عن الجد والبعد والشعر والسمو : إن هذا لا شأن له بالمسرح . ولست أناقشهم ، لأن رأيهم يمده الجهل بأصول الفن ، وذوقهم تفوته الرهافة .

وفى الجملة إن إدارة الأوبره الملكية أتاحت لنا هذه السنة بعض المتعة فى ناحية المسرح ، ويسرت لنا الصبر على السخائف والتوافه التى لا تنفك الفرقة القومية المصرية « الرسمية » ترمى بها الجمهور المسكين المظلوم .

بشر فارس

على رمال الساحل

أيهـا الساحل يا أول أسرى ... إعطني الوحي الذى يشرح صدرى
هل لمن ربيته معنى جديد ... لم يقله الناس فى شعر ونثر
رائع من ثغرك الرائع مغر ... من محياك الذى يسبي ويغرى
ليت شعرى لم عقلى فيك خاب ... أنت يا منبع إلهامى وشعرى ؟
أى روح قدسي ، أى معنى ... عبقرى ، أى خبء ، أى سر
حيثما أهتف تجبنى هاتفات ... عن يمينى أو شمالى أو بإثرى
فاذا وليت وجهى كى أراها ... هتفت خلفى وكان الأفق شطرى
ليت لى عينين فى أذنىَّ حتى ... أشهد التهتاف من ثغر لثغر
ما ترانى شاهداً إذ ذاك عرسا ... أم مثاراً عبقريا ؟ لست أدرى
لكأنى بالرمال البيض شبِّعـ ... ـن بضوء ثم روين بسحر
كلما البحر أتاها كاشفاً عن ... ألف ليل كشفت عن ألف فجر
سطرتها الريح فى فن عجاب ... فبدت ثمة سطراً خلف سطر
ضحكات البحر موجات حسان ... ترحم الأفق وهذا ضحك بر
مثلما الخلان قاما يذكران النـ ... ـادر المحكى فى لهو وبشر
وكأن الرمل إذ مالت ذكاء ... فضة بيضاء قد شيبت بتبر
ثم مالت فهو لألاء بهىّ ... يا لعينى فى سناه بالفكرى
أى أيد قدسيات قد أراقت ... ذوب شمس نضرة فى كل شبر

وحـدت فوق سماء الغرب مزنا منقـلات لا بمـاء بل بخمر
لامسـتها الريح فى رفق فرفت كرفيف الطـير لـكن أى طير
والصخور الصم تبـدو من بعيد فى طيوف من قنو الشمس حمر
هبطت فيهـا ذكاء فاقشـعرت عن ضـياء قرمزى مقشـعر
فـكأن القلعـة الشماء جن ملهب يسبح فى جـدول جمر
شفة السـاحل لاحت دون عبر ولهـاة الأفق لاحت خلف عبر
والشراع انسـاب فى يم منـير كوكبـاً ينسـاب فى عرض المجر
خفقت أنفـاس ريح الشرق فيه فمضى يجرى إلى الغرب ويجرى
فتن المـاضى وما يأتى تلاقت حول خـدر الشمس من دهر ودهر
راقصـات دائرات مطرقـات شاخصات باسمات حيث تسرى
مسرح ألقى عليـه الليـل ستراً من ظلام ثم ثنـاه بسـتر

محمود ادريس قمر

من هنا وهناك

رأى شاعر فرنسى كبير
فى أحد معاصريه من الكتاب

[هذا الحديث جرى مع الشاعر الفرنسى الكبير بول كلوديل . وهو معروف لدى جميع المتصلين بالأدب الفرنسى الحديث بنزعته الدينية وتمسكه كل التمسك بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية . وأكثر أشعاره وقصصه التمثيلية تظهر فيها هذه النزعة بوضوح. فليس بمستغرب عليه فى هذا الحديث، وهذه نزعته ، أن يهاجم التفكير الحر المطلق من القيود فى شخص أندريه جيد الكاتب الفرنسى العظيم ، وأن يلوم الحريصين على نشر أشعار الشاعر الفرنسى رامبو وتتبع آثاره .

ولهذا الحديث قيمته فى الدلالة على شدة تعارض الآراء وتطاحن النزعات مما يدل على نشاط الحياة فى الأدب الفرنسى .]

غرفة ذات طلاء أخضر فاتح وستائر فى زرقة السماء، وراءها أغطية من التل، ومصابيح جميلة ذات أغطية ينفذ منها النور ، تلك من ميزات السلام ، يقرب بول كلوديل بين مقعدين ويجلس ويصيخ بسمعه ، لقد طحنته السنون فلم يعد ذلك الرجل الذى وصف بأنه « المطرقة » ، أو الإعصار العاصف ، لقد قلت حدته وتضاءلت حاسته،فهو شيخ متين البنيان ، بدين وفيه حياة .

وبعد تبادل عبارات المجاملة نفذنا إلى لب الحديث .

— رامبو ؟ أفضل ألا أتكلم عنه فقد دلّله أكثر مما ينبغى . وإنى لتألم لهذا الاستعمال ، وإنه لما يحزن النفس تلطيخ مثل هذه المؤلفات ؛ فهى شبيهة بمكان جميل يكتشفه السياح فلا نلبث أن نجد فيه القمامة وعلب السردين ، فلا يعود صالحاً للزيارة .

— هل تذكر السردين ؟ إنى أرى فى قولك خير وصف لأنصار مذهب السيريالزم .

— لقد نشرت مؤلفات رامبو كلها ، ولكن أربعة أخماس هذه

المؤلفات يجب ألا ينشر . فما ظهر منها لا يضيف شيئاً إلى مجده و إلى معرفته ، وكان جديراً أن يبقى حيث كان فى عالم الخفاء .

— فى مثل هذه الحالة الغامضة التى تلفت نظر علماء النفس وعلماء وظائف الأعضاء وعلماء الحالات المرضية إلا تجد كل شئ ضروريا ؟ . . .

— لكنى لا أجد فى حالة رامبو غموضاً . إن الرجل الكاثوليكى مثلى ، لا يجد فى حالته غرابة وليس فى رامبو ما هو مدعاة للغرابة غير شبابه وصباحته وجماله .

— ما دخل الكثلكة فى مشارب الخمر والكؤوس والغراميات غير المشروعة والمال المغتصب وطلقات المسدس وما يوجد فى مؤلفاته من فوضى وثورة ؟

— لكن هذه الثورة هى من جهة مسيحية ، وليس فى كل ذلك ما هو عجيب . إنه لواضح تماماً . ولكن العجيب أنه بلغ فى فصاحته إلى الكمال طفرة واحدة . و إنه أنشأ فى الأدب قانوناً جديداً ، وهذا ما يميزه عن مقلديه الذين تنقصهم دقة العبارة والوزن . فمباحث الباحثين فيه خالية من كل قيمة .

— على أن العقل الباطن . . .

— العقل الباطن ! العقل الباطن ! إنه لا يصبر باطناً إذا أمكن التغلب عليه .

أجل ! التغلب عليه . . . فلنترك هذه الأشواك .

— إذا كنت لا تقر بمجهود تلاميذ رامبو فلعلك تهتم بغيرهم من الكتاب الناشئين ؟ إنه لمن المهم أن تخبرنى عن نظرتك إلى أولئك الذين يصدون بناء نظرية القيم الأخلاقية على الانسان وحده فى عالم تجرد من الآمال .

— إن القيم الأخلاقية هى أوامر الله وأوامر الكنيسة ، ولا توجد قيم أخلاقية أو روحية بعيدة عن ذلك ، وما يكتشفه كتابك هؤلاء هو فى نظرى حقير :

— إن مأساتهم و إخلاصهم . . .

— هذا لا يهمنى مطلقاً فليتصرفوا كما يستطيعون .

— . . .

وقد رأى علىّ علائم الاضطراب فرفت حاشيته .

— إنى مثل الديك الذى لا يفهم شيئاً عن البطة . وليس الفهم من شأنى أنا ذلك الرجل الكهل . و إن عدم الفهم لجزء من صفاتى .

— ومع ذلك فان البحث عن

الصفات التى لا ترفع من شأن الانسان هى عمل رجل من معاصريك وهو أندريه جيد .

— إنى لأمقت هذا كل المقت

— ؟ ؟ ؟

— إنى لا أعترف له بأى نوع من الموهبة.

أى قول هذا !

— إن حيرته أو ما يسميه عدم اطمئنان . . .

— ألا نظن أن هذا القول طعن فيه ؟

— . . . إن ما يغيب عن فهمى هو نفوذه . فمن الوجهة الفنية ومن الوجهة العقلية لا أرى فى جيد شيئاً . ونفوذه هو عندى موضع غرابة لا تنتهى .

— لقد قلت عنه : « إن الشر لا يخلق شيئاً ! » وهو يعترف فى مذكراته أنه لا يفهم تماماً معنى لهذه الغيبة .

— إن قواعد الدين تعلمنا أن الشر غير موجود ، بل هو عنصر مهدم وسلبى ، وأن الشر لا أهمية له إلا عن طريق الألم . فهو من هذه الوجهة عنصر خالق لا اعتراض عليه . ومن شأن جيد أن يستسلم للشهوات الرخيصة والحاجات التى يظن أنها طبيعية بدلا من أن يخلق وسطا حيا لنفسه . إن المسيحية لمدرسة للقوة نتعلم فيها البطولة .

— وإذا كان جيد لم يؤمن ...

— ذلك لأنه يسير بغير دليل فهو يضرب مثلا سيئاً للجبن والضعف.

— إنه لا يجب أن يدافع عنه... ولكن هل تجهل شجاعته فى آرائه المتناقضة و إخلاصه لها ؟

فضحك ضحكة الاحتقار الهادئ .

— لأترك لك كلمة الاخلاص لكى ترتاح نفسك .

ونظر إلى نظرة إشفاق .

— لا تعتقد أنى أضمر لك السوء ، ولكنك توجه إلىّ أسئلة غير منتظرة ولم يكن لدى من الوقت ما أفكر فيه .

— هل هذا ممكن !

— إنى لا أريد الجدل . لقد كنت متصلا بجيد عندما كنت أعتقد فى مسيحيته وكنت أجهل عيبه الفظيع . . .

وترك إتمام عبارته فى حياء :

— أجل إلى اللحظة التى عرفت فيها . . . سقطته. ولا ريب فى أن رجال الشرطة يقاومون الذين يدسون السم للناس ، وهو ممن يدسونه . ولا أقول ذلك جزافاً ؛ فكم من رسائل جاءتنى من شبان جرهم للغواية .

ونجد دائماً جيد فى أول طريقهم للشر .

— ثم ينتهون بك .

— بعد وقت يجدون طريق الشر لا يؤدى بهم إلى شئ ، فيتجهون نحوى .

— إن جيد علمنا جميعاً قيمة الاخلاص نحو النفس وأضاء لنا أسباب أعمالنا .

— هل تظن أنه يقول حقا أسباب أعماله ؟ إن جيد تخلبه مناظر المرآة . وليست مذكراته إلا سلسلة من صور نفسه كما يراها حين وقوفه أمام هذه المرآة . ونحن إذا ما نظرنا إليها نتخذ دائماً موقفاًصناعيا،فمذكراته من هذه الوجهة هى صرح من عدم الاخلاص .

— إن فى كتابات جيد صفحات عديدة تدل على القلق،ولا أزال أذكر عبارة يقول فيها تقريباً ما يأتى : إذا كنت قد امتنعت بعض الوقت عن كتابة هذه المذكرات فذلك لأن الكتابة تجعلها أقل إخلاصاً ، وهذا دليل على موقفه الأدبى .

— إنه يفتح جرحه بريشة طائر صغير ، أما المأساة الأساسية فى حياته فهو لا يتكلم عنها .

— يكفى القارئ أن يعرف أن هنالك مأساة أساسية .

— أما عيبه الخطير . . . عيبه . . . الطبيعى فانه لا يكاد يشير إليه .

— ولكن هذا غير حقيقى بعد ما كتبه . . . وبعد كتابه « إذا كانت البذرة لا تموت » .

ولكن هل أسمع من لا يريد أن يسمع ؟

— إنى أحارب هذا التأثير بكل الأسلحة لدى ، فماذا تريد؟ نعم أو لا .

— وإذا كنا نجمع بين نعم ولا؟

— لا أفهم ما تعنى .

واعتقدت أن الحديث قد انتهى .

ولكن كلوديل أضاف إليه كأنه على سبيل الانتقال :

— إن كل هذا لا يهمنى؟

— إذن ماذا يهمك .

— الصعوبات التى تجدها المظاهر الفنية فى فرنسا؛فان لدينا وزارة للفنون والآداب لخدمة الفن كما يقولون ... وقد أنشئت إدارة فيها مئات من الموظفين ، ومع ذلك تفرض ضرائب تخنق هذه الفنون . وخير مثل لذلك مايجرى فى الكوميدى فرنسيز . فأربعة أخماس البرامج يجب إلقاؤها فى سلة القمامة . فهم يمثلون «رى بلاس» ولابيش وأية قيمة لهذا وفى زمن مسيو فودواييه كانوا يخرجون مؤلفات

عظيمة « كالملكة المتوفاة » و « الحذاء من الحرير » فما أن رحل مسيو فودوابيه حتى أصدر مسيو ديكس أمراً بالعدول عن إخراج « الحذاء من الحرير». ولازلت أسائل عن السبب. وقد أنفقت ملايين فى سبيل تجديد مسرح الأوديون وهذا أكبر سخرية. فقد وضعوا متراً من الأسمنت المسلح تحت المسرح ، فصار من غير الممكن تمثيل « الحذاء الحريرى » لأن السفينة التى قد تغرق على المسرح لا يمكن أن تخترق الأسمنت المسلح. فأنت ترى أنه ليس لدى الوقت للتجارب إذ يجب أن أحافظ على أملاكى وأسهر على نتاجى وهذا زمنه.

وخرجت . . . أستنشق الهواء وأسير على غير هدى.

وبعد أن تخلصت من دهشتى لا من ذاكرتى ، رأيت بيتاً من الشعر يسرح إلى ذهنى ، بيتاً بسيطاً رناناً براقاً ، وهو من أشعار بول كلوديل ، وكان مصرا على البقاء فى الذاكرة كأنه تفسير لما حدث وهو :

إنى أسكن من إمبراطورية قديمة خرائبها الأساسية.

عن الفرنسية

دومنيك ارباد

محاضرة فى سر الزخرفة العربية

دعا الأستاذ المستشرق كونتز مدير المعهد الفرنسى للآثار الشرقية يوم الخميس ٢٩ مايو نخبة من الكبراء والأدباء إلى الاجتماع بدار المعهد لسماع البحث الذى افتتح به الدكتور بشر فارس أعماله فى المعهد على أثر تعيينه فيه عضواً مصريا.

وكان موضوع البحث يدور حول حكمة الزخرفة العربية واتصالها ببعض العقائد والمواقف الفكرية الاسلامية. فبين لنا الباحث بأسلوب فرنسى دقيق وشعرى فى آن واحد كنه هذه الزخرفة ، ففصل « الأرابسك » والتهذيب والتحوير والخط وأتى بألفاظ ومصطلحات جديدة بالفرنسية والعربية ، منها « الرمى » و« الخيط » لنوعين من أنواع التزويق. وقد أرجع كل ذلك إلى حياة روحية صرفة مستشهداً بآيات وأحاديث ، أنتجت

تصورات خاصة بين دينية واجتماعية .

ثم دلل الباحث على ماذهب إليه بعرض صور ناطقة إسلامية ثم مسيحية، وبخاصة قبطية تأثرت بروح الزخرفة العربية .

فجاء البحث غاية فى الطرافة والتدليل الصحيح ، وهو يعتبر اتجاهاً جديداً قائماً على الفلسفة وما بعد الطبيعة فى فهم الفن العربى الاسلامى .

م . ك

شهريات

شهرية السينما

لمحـــات

إن الموسم السينمائى فى مصر لقصير جداً ، فهو يمتد من شهر نوفمبر إلى شهر أبريل على الأكثر . وبابتداء الصيف نجد شبه ركود يشمل جميع نواحى النشاط السينمائى . والآن وقد انقضى موسم ١٩٤٦ — ١٩٤٧ نستطيع أن نلقى نظرة إلى الوراء لندرس درساً سريعاً الأفلام التى عرضت علينا فرنسية كانت أو مصرية أو أمريكية ونقدرها حق قدرها . ولست أرمى بهذه الدراسة إلى الحكم على الانتـــاج السينمائى فى بلاد العالم المختلفة التى تجهد فى هذا المضمار ، بل لأعرف أأتى لنا هذا الموسم بجديد فى ميدان السينما أم لا،لا من الناحيةالصناعية فحسب ، بل من الناحية الفنية أيضاً .

إن الذين اتبعوا أنباء مهرجان السينما الذى أقيم فى مدينة كان فى شهر سبتمبر ١٩٤٦ يعلمون حق العلم أن الأمم جميعها تسابقت إلى عرض أجود ما أنتجته ستوديوهاتها ، ويعلمون أيضاً حق العلم أنه لم يعرض فى القاهرة إلا عدد قليل جداً من هذا الانتاج الضخم الذى تقدمت به الأمم إلى هذا المهرجان. ومع أن دور السينما فى القاهرة والاسكندرية عديدة بحيث تستطيع أن تعرض على الجمهور المصرى أكثرية الانتاج السينمائى الذى عرض فى كان نجد أن هذه الدور لم يتح لها إلا عرض خمسة أفلام منه وهى : «عطلة الأسبوع المفقودة » ، « الحجاب السابع » ، « ماريا كاندلاريا »، ، « الحسناء والوحش » ، « الوطن » . وقد يزعم بعضهم أن الموسم السينمائى فى مصر قصير جداً بحيث لا يمكن عرض الكثير من أفلام السنة الماضية ، ولكن أرى أن الموسم كاف لعرض أحسن هذه الأفلام وأجودها صناعة وفنا إذا لم يمتد عرض بعض الأفلام الضعيفة السقيمة أسابيع وأسابيع تكون فيها دور العرض خالية من الشاهدين تماماً . ودور العرض تضطر إلى هذه الاطالة

لأن ثمة سيطرة أجنبية على توزيع الأفلام فى الشرق،وهذهالسيطرة تنفرد بها دولة واحدة ؛ فهى تشترى أفلام الدول الأخرى الأقل إنتاجاً وتتصرف فيها كما يتراءى لها، فهى تهيىء لانتاجها ربحاً كبيراً وتفرض على المصريين أسقم ما أنتجته وتطيل عرضه بحيث لا تسمح للأمم الأخرى بعرض أفلامها إلا لمدد قصيرة . ولولا هذه السياسة الباطلة فى توزيع الأفلام لشهدنا فى مصر أفلاماً فرنسية مثل « صراع القضبان » أو « السنفونية الريفيــة » أو « أبناء الفردوس » وأفلاماً انجليزية مثل « قيصر وكليوباترة » أو « إياك والشفقة » وأفلاماً إيطالية مثـــل «شوشا » أو « روما مدينة مفتوحة » .

فماذا عرضت علينا تلك الدولة التى تسيطر على توزيع الأفلام فى السوق الشرقية ؟ أو إن شئت ما هى الأفلام التى سمحت بأن تعرض علينا ؟ لقد شهدنا إلى جانب الأفلام الخمسة التى عرضت فى كان أفلاماً أخرى قليل منها جيد ، وكثيرها ضعيف لا حياة فيه . فالأفلام الأمريكية قد اتجهت فى هذا الموسم اتجاهاً نفسياً . فقــد عرضت علينا « المسحور » ، وهو لا يمكن أن يعد فيلماً ذا قصة ، وإنما هو محاضرة فى معالجة مرض البارانويا ، وقد تلا هذا الفيلم « خطابات غرامية» وتدور حوادثه حول فتاة فقدت الذاكرة وهى قصة ممتعة وإن لم تكن ذات موضوع طريف . ولكن ما يمكن أن يعد أحسن الأفلام الأمريكية قصــة وتمثيلا هو فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » الذى يدرس نفسية مدمن الخمر ويحللها تحليلا دقيقاً . وقد نجح المخرج والممثل فى عرض هذا التحليل فى السينما دون أن يشعر الشاهد بأى ملل . وهذا مما يعد براعة فنية قليلة المثيل . أما الأفلام الأخرى التى عرضتها أمريكا والتى تهتم بنواح أخرى من الحياة الانسانية ـ فلا أجد منها ما يستحق الذكر إلا « سعادة مغتصبة » و « كل ونصيبه » وذلك لتمثيل ممثلتيهما بيت دافيز وأوليفيا دى هافلاند ؛ و «أجراس سانت مارى » وهو ذو موضوع طريف يدرس بعض مشاكل التربية والتعليم ، و « حد الموسى » وهو قصة لسمرست موجام . ومما يحمد عليه المنتجون الأمريكيون اهتمامهم فى أفلامهم بالقيم والمشكلات الانسانية .

أما الأفلام الفرنسية فأكثرها يتجه اتجاهاً اجتماعيا ، ولم يتح لنا أن نشهد مما أنتجته فرنسا إلا القليل من أفلامها الجيـــدة مثل « الحسناء والوحش » وهو فيلم ذو إخراج فنى

متقن وتصوير رائع ، وفيلم « الوطن » وهو يمتاز بأداء متقن وتصوير جيد أيضاً ، و « سحر » ، الذى عرض فى الشهر الماضى ، وهو فيلم يصور عقلية أهالى مقاطعة الأوفرنى L'Auvergne فى فرنسا تصويراً دقيقاً بارعاً .

وقد رأينا أخيراً فيلما فرنسياً يصور لنا كيف يخفق فى عمله الفنان مهما عظم شأنه ، وعلا قدره ، وذاع صيته لا فى بلده فقط ، بل فى بلاد العالم أجمعها . والجمهور حينما يرى اسم هذا الفنان ، يرى نفسه فى لهفة إلى مشاهدة أثره الفنى ، فيسعى إلى دار العرض ليشاهد فيلمه فيخرج البعض آسفا على ما فقد من وقت فى المشاهدة ، فى حين يخرج البعض الآخر ، وقد سحره اسم الفنان اللامع ، فلم ير فى القصة عيباً ، ولا فى الاخراج مأخذا ولا فى التمثيل ضعفاً . والفنان بل الفنانون الذين أتكلم عنهم هم : كريستيان جاك ، جان ماريه ، وفيفيان رومانس فى فيلم « كارمن » . نشهد فى هذا الفيلم كريستيان جاك يجنح إلى محاكاة الامريكين فى الاخراج ، فيخفق إخفاقاً ذريعاً ؛ ونرى فيفيان رومانس تمثل دور كارمن ، فلا تؤدى الشخصية التى رسمها المؤلف ، بل الشخصية التى شاءت أن تمثلها ، وبهذا تخفق هى أيضاً إخفاقاً ذريعاً . وبهذه المناسبة أريد أن أقول لفيفيان رومانس ، إن التمثيل شئ ، والتهتك شئ آخر ؛ ونرى أخيراً جان ماريه لا يمثل بل يسرد دوره سرداً مملا ، فلا يصيب هو الآخر إلا إخفاقاً ذريعاً .

وقد جاءنا هذا الموسم بأفلام أمتين لم نشهد قط إنتاجهما السينمائى من قبل وهما إيطاليا والمكسيك . وقد تكلمت فى الشهر الماضى عن « صورة ماريا كاندلاريا » التى تقدمت به المكسيك إلى مهرجان كان فـازت جائزة التصوير . أما الأفلام الايطالية التى عرضت علينا فهى أفلام ذات قصص غنائية تدل على أن إيطاليا حديثة عهد بصناعة السينما ؛ فالتمثيل والاخراج لم يتحررا بعد من الطابع المسرحى ولو أنهما على شئ من الجودة فى بعض الأحيان . وقد نعيب على السينما الايطالية أنها لم تقدم إلا المثلين أنفسهم فى جميع أفلامها فيبدو للشاهد أن التمثيل السينمائى لم ينهض فى تلك الأمة ما دام المثلون فيها يؤثرون المسرح على السينما .

وقد عرض فى هذا الموسم قليل من الأفلام الانجليزية مع أنها أرفع فناً وأجود صنعاً من الأفلام الأمريكية .

فلم نشهد منها إلا « القناع السابع » وقصته تحليلية متقنة وتمثيله من ذلك النوع الذى يخلب النفوس : «والقافلة» وهو فيلم يصور حياة البوهيميين ؛ وثالثاً لم يعرض فى القاهرة للآن مع أنى شهدنه فى الاسكندرية فى شهر فبراير ، وهو « إياك والشفقة » وقصته مقتبسة من رواية لستبفان زفابج .

أما الأفلام المصرية فلا مكان للحديث عنها بعد أن خصصت لها مقالا فى السنة الماضية [1] ولم يغير من رأيى فيها ما أنتجته الستودوهات فى هذا الموسم .

ومهما يكن من عدد الأفلام الممتازه التى عرضت علينا فى موسم ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ، فإنى أرى أن نصيب مصر من الانتاج العالمى الجيد ضئيل جداً فى حين نرى دور العرض مزدحمة بالأفلام الأمريكية فحسب ، فنحن نريد أن نشهد أفلاماً فرنسية و إيطالية أكثر مما شهدنا ، نريد أن يكون فصل الصيف غنياً بالأفلام الجيدة وألا يعرض علينا تلك الأفلام البوليسية الرخيصة التى تفرض علينا فرضاً لمدة أربعة شهور طوال ، فلست أرى مسوغاً فى أن تحرمنا المزاحمة التجارية الاستمتاع بالانتاج الفنى الخالص . فلتتزاحم الدول تجارياً بعيداً عن الفن .

رشدى كامل

(١) « انطباعات من السينما المصرية » . الكاتب المصرى عدد ١٢ (سبتمبر ١٩٤٦) .

من كتب الشرق والغرب

LA PATRIE SE FAIT TOUS LES JOURS

ETIEMBLE

الوطن يخلق كل يوم*

منذ ظهر المنشور الشيوعي من نحو قرن ، ساءت سمعة الوطنية . وبينما كان البعض يعلمنا أن « لا وطن للعمال » ، كان الآخرون يؤكدون لنا، وهم يصوبون غدارتهم إلى رءوسنا ، أن العمال لا يملكون إلا وطنهم . وأمست الأوطان منكرة تحت ضغط الدوليات الاشتراكية من ناحية ، والدوليات الفاشية الاستبدادية من ناحية أخرى . وأخذ المرء يعلن — على أسوأ الفروض قوميته (بشرط أن تكون قومية تامة). أما الوطنية فقد صارت شيئاً قديماً يثير السخرية .

وإن من أروع نتائج هذه الحرب وما صحبها من الاستبداد النازي ، لهو عودة الوطنية إلى القلوب التي كانت قد نفرت منها . وقد قال فرنسوا مورياك ، ولكلامه اعتباره بوصفه بورجوازيا وكاثوليكيا ، إن طبقة العمال في بلادنا قد ضربت أعظم مثل للوطنية الخالصة. وعندما قام هتلر يناهض الأوطان ليقيم أوربا التي عمها الضباب والظلام ، أثار بذلك الأوطان على أوربا ، و بينما نرى التروتسكيين يسجلون هذه القوة الجديدة ويأسفون لها ، نرى الأحزاب الستالينية تطالب بالسيطرة عليها .

فما هي هذه الوطنية التي تلوكها الألسن اليوم ، والتي يريد كل واحد أن يحتكرها لنفسه ؟ أنا لا أعرف صفحات — فيما يختص بهذا — أدق وأوضح من تلك التي كتبها جان بولان **Jean Paulhan** مقدمة للنصوص الفرنسية التي جمعها هو ودومينيك أورى **Dominique Aury** من بين أروع ما ظهر أثناء

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

الحرب[1]. وهو يقول إنه جمعها للأطفال ، وإن المرء يتمنى أن يصير جميع الكبار أطفالا ، ولو لمدة نصف ساعة ، ليقرءوا هذه الأفكار . وبولان لايخدع فى كلامه ، فهو يقول : «هناك أكثر من مؤلف وطنى يشبه آلة حربية، معدة للحرب ضد بلد ما ، ضد النرويج ، أو ضد التبت ، ثم إنك لواجد فى تلك المؤلفات كل أنواع المدح مختلطة مضطربة، وهى على العموم يناقض بعضها بعضا . فاذا كانت جان دارك تحسن إذ تنصت لما تسمعه من أصوات ، فان فولتير يسىء إذ يسخر من جان دارك المنصتة لأصواتها . وإذا كان لنا أن نفخر بنابليون فلا يجدر بنا أن نفخر أكثر من اللازم بالقديس فرنسوا دى سال Saint François de Sales ثم إنه لا يمكن فرنسا أن تكون فى الوقت نفسه ابنة الكنيسة وأم التفكير الحر ؛ ولا أن تكون ضيعة الملوك الكابتيين Capétiens ومسيح الأمم . فلا بد لنا من اختيار أحد الجانبين » .

وبعضنا يؤثر نابليون على القديس فرنسوا دى سال ، والبعض الآخر يؤثر القديس فرنسوا دى سال على نابليون. وهكذا يقتطع كل واحد من وطنه ، وطناً عقليا ، وطناً مسبباً معقولا فلا يلبث أن يصبح غير معقول . « فالجمهوريون فى عام ١٨٧٠ لم يغضبوا عندما هزم نابليون ، كما لم يغضب الرجعيون فى عام ١٩٤٠ عندما دحرت الجمهورية . » والعاطفيون على صواب إذن حينما يزعمون أنه ليس وطنياً ، ولن يكون وطنياً ذلك الذى لا يحب بلده إلا لأسباب معينة .

وهناك فى الواقع نوع آخر من الوطنية ، لا يهتم إطلاقاً بالرسالات أو بالمبادئ ، « ظل خفيف منعطف ، هو ظل جدتنا وهى تهرع للقائنا حين ندخل . . . بيت صغير (غير منظم) شمس غاربة ، رقة فى الهواء (الذى نتقاسمه عن رضا) ، امرأة لا تريد مطلقا أن نتقاسمها » ، كل هذا يكون دوافع تلك الوطنية ، دوافع يصدرها القلب والسمع والنظر والشم : عبير أزهار الغابة ، أو عطر الياسمين أو « الجاردينيا » . لقد عرفت شخصاً مات فى دنكرك لأنه كان يحب رائحة ذلك الهواء الخانق المندفع من فتحات التهوية على حافة أفاريز النفق التى يسير بها المترو بباريس .

« فعلى المرء إذن أن يمزج فى نفسه

(١) Jean Paulhan et Dominique Aury: *La patrie se fait tous les jours.* Textes Français 1939-1945. Les Editions de Minuit, 1947.

بين العقل والعاطفة ليكون وطنيا حقا، عليه أن يحب وطنه كما هو . كما عليه أيضاً أن يريد لوطنه أن يصبح وطناً آخر ، وأن يصمم على أن يخلق منه وطناً عادلا ومعقولا ، ولكن عليه مع ذلك أن يحب وطنه ولو كان غير عادل أو غير معقول . وبالاختصار عليه أن يعبده ، ولكن لا يجدر به أن يخضع له دون أن يحاول التأثير فيه . »

وسواء أكان أولئك المؤلفون الستون الذين حشدوا فى ذلك الكتاب عقليين مثل جوليان بندا Julien Benda أو عاطفيين مثل جان جيهينو Jean Guéhenno ، أو ممن جمعوا بين العاطفة والعقل مثل جان بولان Jean Paulhan فانهم جميعاً كانوا طيلة خمس سنوات يخلقون الوطن من جديد كل يوم . « ومن الخير أن نفتح ذلك الكتاب حيثما اتفق ، كما تفتح ديواناً من الشعر ، ثم تدعه بعدئذ . ومن الخير أن تحتفظ به فى متناول اليد وأن تقلب صفحاته فتحنق عليه حيناً وترضى عنه حيناً آخر ، وأن تثق بما يثير فيك من آراء أكثر من ثقتك بما يحتويه من آراء . وسترى هكذا أنه كتاب مشوق إلى أقصى حد ، بل سترى أنه كتاب مثير . » ومن الخير — بعد أن تتعرف عليه بهذه الطريقة — أن تعاود قراءته من أول سطر إلى آخر سطر ، كما تفعل بالروايات البوليسية ، من الخير أن تقرأه من أول المقالات التى كتبت عن ميونخ إلى تلك التى كتبت عن الجمهورية الرابعة . فميونخ ، ومهزلة الحروب ، والاحتلال والنفى ، والثورة ، والتحرير ، هى فى الواقع مأساة ذات فصول ، إذا كان من الممكن أن تنتهى مأساة بانتصار الخير . نعم ! إن عدداً كبيراً قد جاءه التحرير متأخراً جداً ، فجاك دوكور J. Decour لم يعد بيننا إذ قتله النازيون رمياً بالرصاص . ومات فرنسوا فرنيه F. Vernet فى معسكر داشاو . ومات كذلك ماكس جاكوب M. Jacob فى معسكر درانسى ، وقتل جان بريفو J. Prévost فى المقاومة السرية ، وأما جان كاسو J. Cassou وأندريه مالرو A. Malraux وجان بولان J. Paulhan ، ولويس شوفييه Louis Martin-Chauffier ، فقد نجوا من الموت ولكنهم لم ينجوا جميعاً من العذاب . ونستطيع أن نقول هذا الشئ نفسه عن جميع الكتاب تقريباً الذين ثبتت أسماؤهم فى لوحة الشرف للآداب المعاصرة . « وأنا أعرف أن هناك من يقول : لقد ماتوا فى سبيل شئ تافه . فما كانت بعض المعلومات (التى لم

تكن دائماً مضبوطة) تستحقْ أن يضحى المرء من أجلها بحياته ، ولا كان منشور أو جريدة سرية (سيئة التأليف أحياناً) تستحق أن يموت المرء فى سبيلها . فالى من يقول ذلك أقول : لقد ضحوا بحياتهم لأنهم كانوا فى جانب الحياة ، لأنهم كانوا يحبون أشياء قد تبدو تافهة كبعضَ الأغانى وبعض البسمات . و يمكنك أن تضم يدك على نحلة حتى تقضى عليها، ولكنها لن تموت دون أن تلدغك . وستقول إن ذلك أمر تافه . نعم! إنه لأمر تافه ، ولكنها لو لم تلدغك ، لكان النحل كله قد فنى منذ زمان طويل . مات أولئك الكتاب لأنهم كانوا يحبون الحياة ، وذلك الحب هو سبب ما تجده فى كتاباتهم من جد واضح ومن سهولة بل من خفة أحياناً . ويكتب سارتر Sartre كثيراً عن فكرة الموت هذه دون أن تخونه شجاعته لحظة واحدة : « كنا نجعل من النفى والأسر ، والموت بصفة خاصة ، (هذا الموت الذى نخفيه بمهارة فى الأوقات السعيدة) موضوعاً دائماً لاهتمامنا ، وكنا نتعلم أن تلك الأشياء ليست حوادث يمكن منعها ، أو تهديدات دائمة خارجة عنا ، ولكنها نصيب لنا وقدر مكتوب علينا ، وأصل لوجودنا كأفراد من بنى البشر . وكنا نعيش فى كل لحظة تلك العبارة العادية « الانسان فان » ، كنا نحياها بأوسع ما تشتمل عليه من معنى . وكان اختيار كل واحد منا لطريقه اختياراً صحيحاً ، لأنه كان يحدث فى مواجهة الموت ، ولأنه كان يفضل الموت على الهوان . . . »

وترى اللهجة متغيرة فى كتابات جان برفو ، ولكن العزم والتصميم لا يتغيران . ففى إحدى أغانيه يقول :

لست بآسف على شئ
و إنى لراض بنصيبى من الدنيا
فقد عشت عيشة هنيَّه
وذلك الذى أفعمت نفسه
بثلاثة أطفال وامرأة
يستطيع أن يموت عارياً
وهو راض

أتريد أن يفيض المرح على
رسمى الدارس ؟
فليحمل اسمى قارب ذو مجدافين
ولتكن له سارية وشراع مثلث
وليكن خفيفاً رقيقاً جميلا

لقد قيل إن كل شئ فى فرنسا ينتهى بالأغانى . وفى هذه المجموعة يبدأ كل شئ بأغنية مثل أغانى أراجون الرائعة، وأغانى سيبرفييل **Supervielle**

الشجية . وكل شيء ينتهى بالتعذيب والموت . (وما أعجب أن تكون رءوس النصوص المجموعة هنا ، قصيدة محطمة أو قطعاً متناثرة من إحدى الأغنيات : باريس الحزينة ، نشيد النار ، أسلحة الألم ، مباركة البؤس ، سرب ميت ، خير من الغار على الرءوس ، خلود من لم أرهم . . .)

وإن المزايا الأدبية لما نقرؤه فى هذا الكتاب لهى جديرة بتلك القصيدة ولقد جمعه جان بولان تحدوه تلك الارادة القوية الطيعة التى سمحت له بأن يصدر تباعاً أو فى وقت واحد هذه المجلات : *La Nouvelle Revue Française, Mesures, Commerce, Les Cahiers de la Pléiade.*

وإنا لواجدوه بأكمله فى هذا الكتاب حيث نراه كريماً ولكن فى غير تنزل عن حقوقه ، وطنياً وحراً ، كلاسياً ومقداماً . إنه هو بمثابة الضمير فى آدابنا . وها نحن أولاء، قد عرفنا أخيراً أننا كنا مخطئين فى قولنا : المشاعر الطيبة تنتج أدباً ضعيفاً ، وإنه لكتاب رائع (ولكن هل لى أن آسف على أن بعض الكتاب مثل René Char (١) واثنين أو ثلاثة آخرين قد تخلفوا عن هذه المجموعة ؟)

وتبقى لنا أمنية ، هى أن تحتفظ الجمهورية العاملة اليوم فى وضح النهار بفضائل الجمهورية التى كانت تعمل فى الليل وفى الصمت ، كما قال سارتر ، أن تحتفظ بفضائل الجمهورية التى كانت تعد لنا أياماً سعيدة مشرقة ، ولنتمن أن تكون أيامنا المقبلة سعيدة مشرقة .

ايتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) أصدر René Char منذ قليل يوميات ضابط فى القوات الفرنسية الحرة بعنوان *Feuilles d'Hypnos* .

من وراء البحار

أسبانيا ووراثة العرش

تقاوم الدول الكبرى النظام الذى أقامه الجنرال فرانكو فى أسبانيا ، وهو الذى ظل قائماً حتى الآن بالرغم من انهيار الدكتاتوريات الأخرى. وقد أعربت هذه الدول أكثر من مرة عن رغبتها أن ترى انتهاء هذا النظام . واتخذت قرارات عدة أخذ بعض هذه الدول الكبرى فى تنفيذها جدياً ، ولم يعمل البعض الآخر على تنفيذها إلا ظاهرياً . ولقد رأى الجنرال فرانكو أنه لابد من أن يتخذ خطوات فى سبيل تغيير نظامه ، حتى يستطيع تحويل الدول الكبرى عن خطتها فى مقاطعة أسبانيا والتضييق عليها تجاريا وماليا . ولذلك انتهز فرصة الاحتفال السنوى الثامن بانتصار الوطنيين الأسبانيين فى الحرب الأهلية وهو يقع فى ٣١ مارس ، فأعلن مشروعه عن وراثة الحكم . وتقول مجلة « العالم اليوم » الانجليزية — فى عدد مايو سنة ١٩٤٧ — إن هذا الاعلان جاء بعد إحدى الاذاعات الطويلة التى اعتاد الزعيم أن يلقيها على مسامع الشعب الأسبانى . وهو يدل على أن الزعيم واثق تمام الثقة بنفسه ، وأنه يطمع فى إقامة نظام صورى يقف وراءه النظام الحاضر . وهو فى الواقع يرد بعد سنتين على بيان دون خوان الذى يدعى العرش ، إذ أعلن من لوزان فى سنة ١٩٤٥ أنه لايقبل فرانكو ولا نظامه .

ويدل هذا المشروع للوراثة ، الذى قرئ على أثر حديث الزعيم ، على أن لا غرض له إلا إقامة ملوكية صورية . ففى المادة الأولى يصف أسبانيا بأنها دولة « كاثوليكية اشتراكية » ستكون مملكة بحسب تقاليدها ، وأن الجنرال فرانكو هو رئيس هذه الدولة . ومعنى ذلك أنها ستكون دولة ملوكية بلا ملك على مثال نظام هورتى السابق فى المجر ، أو أنه ابتداء عهد أسرة جديدة يؤلفها فرانكو على طريقة نابليون .

وتنص المادة الثانية على إنشاء

مجلس للدولة يساعد رئيس الدولة فى الأمور الهامة . ويرأس هذا المجلس رئيس مجلس الكورتيز ويتألف منه ومن الكردينال الأول أو رئيس الأساقفة الأول ، وأكبر رؤساء الجيش مركزاً ، واثنين أو ثلاثة من عظماء الدولة ، وممثلين ينتخبهم أحزاب المهن الكبرى فى مجلس الكورتيز .

ثم تنص المادة الثالثة والرابعة على من يخلف الزعيم فى حالة وفاته أو عدم قدرته على العمل . وهذا الشخص يجب أن يكون من دم ملوكى له حقوق سابقة ، وتتوافر فيه الشروط المطلوبة فى قانون الوراثة ، ومنها القسم على الاحتفاظ بالقوانين الأساسية للنظام الحاضر . ومع ذلك يوجد نص بأنه إذا كان مجلس الدولة والحكومة مجتمعين يقرران أنه لا يوجد من تتحقق فيه الشروط المطلوبة أو أن الشخص المعين لا يقبله مجلس الكورتيز فانه يقترح إقامة وصى فى هذه الحالة .

وتنص المادة السادسة فضلا عن ذلك على مجلس وصاية إذا خلت رياسة الدولة .

وتعلن المادة السابعة أن لرئيس الدولة فى أية لحظة أن يختار من يخلفه . وهذا النص ينطوى على نوع من الدعوة لدون خوان بأن يعود إلى أسبانيا كملك على أن يخضع لشروط فرانكو . ومما يلاحظ أن اسم دون خوان لم يذكر مطلقاً ولم يشر إليه فى الوثيقة بأكملها . ومما هو جدير بالذكر أن حزب الفلانج لم يذكر أيضاً . ويظهر أنه خرج تدريجياً من ميدان السياسة ولو أن روحه لا تزال قائمة ، وقد حضنت الحكومة برنامجه الاجتماعى .

ولقد أعلن نبأ هذا المشروع لدون خوان فى مقامه بأستوريل قبل ساعات من إعلانه ، ولكن لم يذكر له بأن الزعيم سيعلنه فى ذلك المساء . وكان رد دون خوان طبيعيا ؛ فانه شهر بهذه الحركة فى صراحة ، وقال إن نظام الوراثة المقترح باطل إذ ينقصه أمران هما أن الوريث الشرعى للعرش لم يؤخذ رأيه ، وكذلك لم يؤخذ رأى الأمة الأسبانية . كما أن فكرة الملوكية الانتخابية لا تتفق مع أساس التاج الأسبانى .

الأدب الأمريكي في سنى الحرب

استعرض الأستاذ فريد ميليت ، من جامعة وزليان بالولايات المتحدة ، الأدب الأمريكى بين سنتى ١٩٤٠ و١٩٤٥ فى مجلة « أنجليش » التى تصدرها الجمعية الانجليزية فى بريطانيا، فقال : إن العلاقات الثقافية بين بريطانيا وأمريكا تعطلت بسبب الحرب فلم يكن بينهما ذلك الاتصال الوثيق الذى كان قبل سنة ١٩٣٩ . وتضاءل عدد الكتب البريطانية التى تنشر فى الولايات المتحدة حتى كاد لا ينشر منها شئ . وفى الوقت نفسه كان الناشرون من البريطانيين لا يقدمون على نشر الكتب الأمريكية فى بريطانيا . فكتاب جلنواى وسكوت المسمى «الصقر الزائر»(١) الذى نشر فى أمريكا سنة ١٩٤٠ لم يظهر فى انجلترا إلا فى سنة ١٩٤٦ . ثم أدت أزمة الورق فى بريطانيا فضلا عن الاقبال الشديد على القراءة إلى أن نفدت طبعات الكتب الانجليزية قبل أن يستطيع القراء الأمريكيون أو المكتبات الكبرى أن تحصل على نسخ من هذه الكتب . وكان الأمر كذلك فيما يعلق بالكتب الأمريكية .

ويمكن أن يقال بوجه عام إن الحرب كان لها تأثير فى إضعاف العناية بالفنون والآداب . وإذا كان من أغراض الحرب المحافظة على الحضارة، فان كل شخص كان مضطرا إلى أن يراجع أهمية ما يعنى به فى هذه الأزمة. وإذا كان من واجب الكاتب أن يكتب ومن واجب المصور أن يصور، فان هؤلاء لم يكونوا يجدون الهدوء الذى يتطلبه عملهم . ولقد قامت حكومة أمريكا كما فعلت حكومة انجلترا ببعض المحاولة للانتفاع بمواهب الكتاب والفنانين فى متابعة الحرب ، ولكن فى الغالب كان العلماء فى العلوم السياسية والنفسية بل الجنسية أنفع فى الحرب من الأدباء الخالقين . ولقد التحق كتاب كثيرون بقوات الجيش العامل؛ وإذا كانوا قد احتجزوا تجارب قيمة ، فانهم لم يكونوا أحراراً فى متابعة عملهم الأدبى ولذلك لم ينتجوا كثيراً . ومن الأمور التى تلاحظ فى الحروب اهتمام القراء والناشرين بالكتب التى تعالج الحرب نفسها ،

---

(١) Glenway Wescott, *Pilgrim Hawk*

وبالكتب والروايات التمثيلية والسينمائية التى تؤدى مؤقتا إلى الابتعاد عن الضغط النفسى والعاطفى للأزمة القائمة . ومما يلاحظ فى أمريكا أن الهوة بين المثقفين والعاديين من القراء أوسع منها فى فرنسا بل ربما كانت أوسع منها فى بريطانيا . وقد أدى جو الحرب فى أمريكا إلى اتساع تلك الهوة بدل إزالتها .

ولقد تمكن كتاب من المعروفين من الاستمرار فى الكتابة والنشر بالرغم من جو الحرب غير الملائم للفنون ، كما أخرج الناشرون سيلا من الكتب له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحرب .

ويلاحظ أن الكتاب القدماء الذين لهم اسم ثابت فى عالم الأدب لم ينتجوا كثيراً فى هذه الفترة ؛ فلقد نشر شيرود أندرسون كتاباً سماه « مدينته »[1] قبل موته فى سنة ١٩٤١ بعام واحد ، ونشرت له مذكراته فى سنة ١٩٤٢ وكلاهما لا يضيف شيئاً لشهرته . وكتاب « سفيرة والفتاة الأسيرة »[2] الذى نشرته ويللا كاثرز سنة ١٩٤٠ والذى نتكلم عن العلاقات بين الأجناس فى الجنوب الأمريكى ، لم يجتذب القراء كما اجتذبتهم قصصها الأولى التى صارت من عيون الأدب الأمريكى . على أن أرنست همنجواى فى كتاب «الذى يقرع من أجله الجرس»[3] (سنة ١٩٤٠) ولقى نجاحاً كبيراً لدى القراء ولدى الناقدين وزاده نجاحاً إصدار القصة فى السينما سنة ١٩٤٣ . وظهر لماريان مور مجموعتان من الشعر قوبلتا مقابلة حسنة . كما أظهر الناقد ولاس ستيفنس فى كتابيه « مذكرات نحو الوصول إلى فن للقصة عظيم » و « أجزاء من عالم » قوة جمعت بين جمال الأسلوب و براعة التحليل .

ولا ريب فى أن الفنان الأمريكى يحاول دائماً أن يقدر ماضى أمريكا وحاضرها ، وأن عمله هذا يصير واجباً عليه عندما تكون ثقافة بلاده مهددة كما حدث فى السنين الأولى من هذه الفترة ؛ فتكون روحه فى ذلك الوقت إما مرحة ثابتة و إما مفكرة عابسة . وهذا الاتجاه بدأ فى السينما والروايات التمثيلية فى السنين الأولى للحرب . فالروايات السينمائية لقصتى جون

(١) Sherwood Anderson, *Home Town*

(٢) Willa Cathers, *Sapphira and the Slave Girl*

(٣) Ernest Hemingway, *For whom the Bell Tolls*

شتاينبك « أعناب الغضب » [1] ، و « الفيران والرجال» [2] أظهرت لجمهوره بحوثه الأليمة فى حياة المحرومين ؛ كما أن الصورة السينمائية لقصة ثورنتون وايلدر « بلدتنا »وصفت الحياة فى نيوانجلند وصفاً مؤثراً . ولقد أخرج كونراد ريختر قصتين ظفرتا بنجاح كبير هما «الأشجار»(١٩٤٠) و«الحقول» (١٩٤٦) وصف فيهما الحياة عند افتتاح إقليم أوهيو.

وبمرور سنى الحرب أخذ الكتاب يزيدون بحثاً فى الحياة الأمريكية والأدب الأمريكى ؛ فكتاب ميرل كورتى عن نمو الفكر الأمريكى (١٩٤٣) هو بحث دقيق ورائق لم يأت بمثله مؤرخ للآداب من قبل . وقد أخرج كاتب جديد اسمه أرثر شريزنجر كتاباً عن عصر جاكسون (١٩٤٥) وكان كتاباً قيما حتى أصبح كاتبه بين يوم وليلة من أشهرالكتاب.

وأصدر الناقدون الأمريكيون كتباً عدة جديرة بالالتفات إليها . فكتابا فان فيك بروكس « نيو انجلند » (١٩٤٠) و «عالم وشنجتون ايرفنج » (١٩٤٤) هما سلسلة من الصور لأهم عهود أمريكا الثقافية . ولقد حلل فرنسيس ماتيش فى كتابه «النهضة الأمريكية»(١٩٤١) نحو ستة من أكبر كتاب القرن التاسع عشر من الأمريكيين . وأخرج فى سنة ١٩٤٤ كتاباً آخر عن هنرى جيمس فى طوره الكبير . وكتاب هارى ليفن عن جيمس جويس (١٩٤٢) هو دراسة قوية لهذا الكاتب الايرلندى .

ولقد ظهرت فى هذه الفترة كاتبتان برزتا إلى الصفوف الأولى ، هما الآنسة ماك كلرز والآنسة ولتى ، الأولى منهما بقصصها « القلب صائد فريد » (١٩٤٠) و « انعكاسات فى عين ذهبية » (١٩٤١) و « العضو فى حفلة الزواج » (١٩٤٦) والأخرى فى مجموعات قصصها لا سيما « الستار الأخضر » (١٩٤١) و « زواج فى الدلتا» (١٩٤٦) وكلاهما يهتم بالحياة فى الجنوب .

ولعل ويليم فولكنر هو أكبر شخصية فىعالم القصة الأمريكية ، ولقد استمر يخلق الجو الثقافى والروحى فى الجنوب فى قصتيه « هملت» (١٩٤٠) و « انحدر ياموسى » (١٩٤٢) . ولقد

---

(١) John Steinbeck, *The Grapes of Wrath*

(٢) John Steinbeck, *Of Mice and Men*

وضع ملكولم كاولى الناقد كتاباً عنه أشاد فيه بأدبه كما أشاد أندريه جيد الكاتب الفرنسى العظيم بأدبه من قبل .

وظهر بنشر قصة ريتشارد ريت « الابن الوطنى » (١٩٤٠) ثم كتابه عن حياته (١٩٤٥) كاتب فى طليعة الكتاب الزنوج فى أمريكا .

وكان من أولى نتائج الحرب الأوربية فى أمريكا أن هاجر إليها عدد من الكتاب الانجليز والأوربيين الذين وجدوا فيها ملجأ من فظائع عصرهم . وليس من المستطاع الآن تقدير ماكان للجو الأمريكى فيهم من تأثير . ومن أظهر الأسماء بين هؤلاء الأدباء الانجليز أسماء أولدس هكسلى وجرالد هيرد وكريستوفر ايشرودد وأودن . أما أشهر اللاجئين الألمان فهو بلا ريب توماس مان ، ولقد قرر أن يتخذ الجنسية الأمريكية وأن يظل أمريكياً . ولا حاجة إلى أن نذكر الفرنسيين الذين لجأوا بعض الوقت أمثال جول رومان وأندريه موروا وجوليان جرين .

فنحن نرى من هذا القليل الذى ذكرناه أن الأدب الأمريكى كان خصباً وإن لم يكن بالخصوبة التى كان يرجوها مؤلف المقال والتى تعودها الأمريكيون فيما قبل الحرب .

ماذا تريد روسيا

ساءل الكاتب السياسى أدوارد كرانكشو فى مقال نشره فى مجلة « ناشنال رفيو » الانجليزية المحافظة عما تريد روسيا . وقد افتتح مقاله بقوله : إنه لتقدير أغراض دولة أجنبية يجب النظر إلى أمرين: رغبتها وقوتها . فمثلا الارهابيون من اليهود يرغبون فى تحطيم بريطانيا ، ولكنهم لا يجدون القوة لذلك . والولايات المتحدة تستطيع تحطيم بريطانيا ولكنها لا ترغب فى ذلك . وفرنسا ليس لديها الرغبة ولا القوة . ثم يجب البحث فى أمور تنطوى عليها هاتان المسألتان الأساسيتان ؛ منها أن القوة التى يعتد بها هى القوة المحتملة فى المستقبل كما هو شأن القوة الحاضرة . أما الرغبة فانها أكثر تعقداً فهى مرتبطة بالصفات الوطنية للدولة التى نبحث فى أغراضها وفى طبيعة حكومتها وفى مطامعها وفى مخاوفها . ومن الأمثلة على ذلك أن الشعب مهما كان قليل الميل للحرب فقد يدفع إلى حرب هجومية وهو يعتقد

بأنها حرب دفاعية . وقد تقدم أفل احكومات مطامع على مهاجمة دولة مجاورة وهى تعتقد اعتقاداً صريحاً بأنها تفعل ذلك لتنقذ بلادها من خطر الغزو . والتحمس لعقيدة دينية أو سياسية قد يدفع دولة محبة للسلم إلى التدخل فى الأمور الداخلية لدولة أخرى مما يؤدى إلى اشتعال الحرب بينهما . ويمكن ذكر أمثال كثيرة على ذلك ، وكل هذه الأمثال تقع تحت مسألتين أساسيتين هما القوة والارادة . ويجب أن تقدر هذه الوجوه عندما نبحث فى أغراض دولة أجنبية .

وهو يرى أن البريطانيين آمنون من فرنسا فى ضوء هذا البحث وإن قويت . أما ألمانيا فكان من البين بسبب نزعة حكومتها حوالى سنة ١٩٣٠ أنها ترغب فى الحرب ولكن القوة كانت تعوزها . ولكن إذا تغيرت الآراء فى فرنسا بأن صارت شيوعية مثلا وفى الوقت نفسه قويت فرنسا فان فرنسا تكون غير التى عرفها الانجليز ، ويجب عليهم أن يستعملوا خيالهم فيما يدرأ عنهم الخطر .

على أن هذه الأمور بسيطة . أما المشكلة الملحة التى تواجههم فى هذا الزمن فهى معقدة وصعبة . فانه عند البحث عن أغراض الاتحاد السوفييتى لا يكون من السهل أن يستعمل البريطانيون خيالهم فقط ، لأنهم لا يعرفون القواعد التى يبنون عليها هذا الخيال . فالسواد الأعظم من البريطانيين لا يعرف ماهى روسيا السوفييتية ، فكيف إذن يعرفون ماترغب فيه ؟ وإذا كان من حظهم أن يعرفوا شيئاً عنها فان طريقة تفكير روسيا تختلف كل الاختلاف عن بريطانيا حتى ليصبح البريطانيون فى خطر حين يفسرون أعمالها بما يتفق مع آرائهم ؛ إذ يكون هذا بعيداً عن الحقيقة .

لذلك يجب على البريطانيين أن يكونوا على حذر من النتائج السريعة غير الناضجة ، وعليهم أن يتدبروا مسألتين : قوة روسيا وإرادتها . ويعتقد الكثيرون لا سيما الأمريكان أن روسيا لها القوة وبها الرغبة فى مهاجمة العالم الغربى . ولكن من الواضح أن هذا الاعتقاد ليس صحيحاً . فان الأمة إذا كانت لها الرغبة فى الهجوم وعندها الوسيلة أى القوة للقيام بهذا العمل ، فانها لا تتردد بل تقدم على الهجوم . لذلك لابد أن يكون الاتحاد السوفييتى تنقصه إما القوة وإما الرغبة وإما الاثنتان معاً وذلك مما ينقض الدعاية العصبية التى نكبت بها حياة الأمم الغربية اليوم ، كما يلقى ضوءاً فاضحاً على السياسة التى

تتبعها بريطانيا وأمريكا نحو روسيا ، بعد مؤتمر طهران وهى السياسة القائمة على رغبة روسيا وقوتها .

ولكن القول بأن روسيا تنقصها القوة للقتال اليوم ليس معناه أنها بعيدة عن هذه الرغبة ، ولا أنها لا تجد القوة فى الغد ، فيجب التفكير فى الغد أو فى اليوم التالى له للوصول إلى الحقيقة .

ففيما يتعلق بقوة الاتحاد السوفييتى إذا لم يستطع أن يصل إلى إتقان القنبلة الذرية أو إلى طريقة سهلةلتوزيع الأمراض بواسطة الميكروبات ، فانه تنقصه القوة لمهاجمة أمريكا أو بريطانيا فى السنوات العشر القادمة؛ وهذا أمر يستطيع أن يحكم عليه فقط العلماء الخبيرون بالتقدم العلمى فى روسيا . ولكن عندما ننظر إلى الرغبة الموجودة يجب على بريطانيا أن تفكر فيما يحدث بعد ثلاث سنوات أو خمس إذا وجد زعيم الروس نفسه قادراً على إيقاع ضرر ببريطانيا وبأمريكا بالهجوم المفاجئ . وهذا اعتبار يجب بحثه و إن كان الذين يعرفون روسيا يعتبرونه ضرباً من الخيال . لنفرض أن لدى روسيا الأسلحة لذلك ، فان الاستعداد والنظام الذى يتطلبه ضرب المراكز الحيوية لدى أعداء الروس أمر لايكاد يتصور . ولقد عجب الناس لفعال الجيش الروسى فى الحرب الأخيرة ، ولكنها فعال تمت وتحققت لمجردالتفوق فى العدد،والاحتمال فى يأس ، وتضحية الملايين من البشر بلا تردد . ولقد ظن كثيرون فى ذاك الوقت أن روسيا ستهزم فى ستة أسابيع ؛ ولا ريب فى أنهم أخطأوا التقدير ، ولكنهم كانوا فى الواقع أقرب إلى الصواب . فقد انتصرت روسيا ولكن بتضحية لاتقبل أمة أخرى فى العالم أن تدفعها ثمناً للنصر . ولم يكن فى الجيش الأحمر ما هو جدير بالاعجاب مثل بطولته ومقدرته على الابتكار فى المواقف الصعبة . ويجب ألايعزب عن أفكارنا أن الجيش الألمانى كان يفوق الجيش الروسى كثيراً ، ولو كان عدده كعدد الجيش الروسى لمسح تلك الأرض الواسعة وكان الآن فى فلاديفوستك .

ولقد كان من عادة بسمارك فى أوقاته الصريحة حين لا تكون له رغبة فى أن يخيف دول أوربا بالوحش الروسى ، أن يسمى روسيا اللاشئ الكبير. ولقد تحقق قول هذا السياسى ثلاث مرات فى حرب القرم ، ثم فى الحرب الروسية اليابانية، ثم فى حرب ١٩١٤ . والآن لم تتغير روسيا كثيراً عما كانت عليه فى الماضى .

ويرى هذا الكاتب المحافظ أن الأمور فى داخل روسيا سيئة وستظل سيئة بضع سنوات ؛ فوسائل الحياة صعبة ، وسكان المدن تظهر عليهم مظاهر قلة الغذاء ؛ والاهتمام الأكبر للروس هو تدبير الغذاء والمأوى . ولقد عملت الحكومة منذ سنة ١٩٢٨ على أن يشد الناس أحزمتهم حول بطونهم، ويتحملوا من الحرمان ما لا يمكن أن يفكر فيه البريطانى ، كى تصير روسيا من القوة بحيث لا تهاجمها دولة أخرى . ولقد ضحى الروس بكل شئ فى هذا السبيل ، فلما هاجمهم هتلر كان لذلك الهجوم تأثير كبير فى الروسى العادى . ولما صار الجيش الروسى الذى ظن أنه لا يغلب يذوق الهزيمة أثر الهزيمة على مدى واسع وفى سرعة ليس لها مثيل فى تاريخ الحروب ، كادت الروح المعنوية فى الأهالى المدنيين تنهار بعض الوقت .

ولكن إذا كان الشعب الروسى فى سنة ١٩٤١ قد بلغ هذه الحال السيئة فان ضعف هذا الشعب قد زاد بما أحدث الألمان فى تقهقرهم من تخريب منظم . ولقد أصيب الروس بضربة فى قوة الرجال لا ينهضون منها إلا بعد سنوات .

غير أن الشعب الروسى لا يترك لنفسه بل هو يجر للعمل أكثر مما يحب ، ثم هو يمرن دائماً على أن يفكر كما يحب أصحاب السلطان . وفى رأى الكاتب أن فى الروس من روح المقاومة للحاكمين أكثر مما يظن الناس . فقد اعتادوا منذ قديم الزمن على عدم تصديق الحكومة . وصار للروسى لغتان : لغة يتكلم بها إلى الأجانب ورجال الحكومة ، ولغة أخرى يتكلم بها إلى أصدقائه . ولو أن الحكومة كانت واثقة من أن الشعب يصدق السيل المنهمر من الدعاية بالاذاعة والصحف لخففت من وطأتها . ولكن فى استمرارها دليل على أنها لا تعتقد ، تأثير هذه الدعاية .

ولكن هناك نوع من الدعاية قد يصدقه الناس فى روسيا ، وهو أنهم مهددون من الدول الرأسمالية . وهذا طبيعى ؛ فلقد أخبرهم لنين أن ستأتيهم متاعب من الخارج فأتت هذه المتاعب، وأخبرهم ستالين بمثل هذا القول فتحقق قوله ، وكان ستالين يقول دائماً بالتفرقة بين الشعب الألمانى ونظام النازى ، وهو يفعل ذلك لكى يستطيع أن يقول بهذه التفرقة بين الشعبين الانجليزى والأمريكى وحكومتيهما فيما بعد الحرب . ولعل الطريقة الوحيدة لحمل الروس على العمل هو إدخال

الخوف على نفوسهم من هجوم الرأسماليين .

بلغت هذه الدعاية أوج قوتها منذ سنة ، ونجحت فى إدخال الذعر فى نفوس الروس . حتى إنهم لم يستطيعوا التخلص من هذا الذعر بالرغم من تراجع الحكومة ، وكان البسطاء من الروس يسألون المتصلين بمؤتمر موسكو فى أثناء انعقاده متلهفين « كيف حال المؤتمر ؟ هل هى حرب أم سلام ؟ » وكان آخرون يبدون معرفة أكبر بالأمور فيقولون : « لماذا ننخدع بالمؤتمرات حتى تبتدئ المأساة ؟ » .

ولعل مثل هذه الدعاية يكون أشد تأثيراً ؛ لأن الحكومة نفسها تعتقد أكثر مايجئ فيها . فمن أسس عقيدتهم أن تكون هنالك رواية نهائية بين رأس المال فى سيره نحو الهاوية وبين طريقة الحياة الماركسية أراد أحد الجانبين الحرب أم لم يرد . ومسلك الولايات المتحدة أخيراً مما يقوى هذا الاعتقاد .

وفى رأى الكاتب أن الروس لا يقدمون على الحرب فى حالتهم الراهنة وأنهم لو كانوا أقوياء لما أقدموا على الحرب ، بل هو يرجح أن يرتكبوا أعمالا خارج حدودهم ربما أدت إلى الحرب إذا لم تعالج بحزم وعناية ؛ فالهجوم ليس من تقاليد الروس ولا البلشفيك ، بل سيعملون على التسرب إلى البلاد عن طريق الشيوعيين . ويرى الكاتب أن الحكومة السوفييتية هى عدوة الغرب المحتومة . ولكن إذا استطاع الغرب أن ينظم أموره الداخلية تنظيما متيناً فلا خوف من روسيا . وهو يقول إن النظرية الماركسية إما صحيحة وإما خاطئة ، فاذا كانت صحيحة فلا بد من الحرب مع روسيا أراد البريطانيون أم لم يريدوا ، وستنتصر روسيا فى آخر الأمر وإن لم يكن انتصارها فى القريب مؤكدا . أما إذا كانت النظرية خاطئة فيجب على البريطانيين أن يثبتوا خطأها بأن يحتفظوا بتوازنهم وألا يشتركوا مع الروس فى لعبتهم ؛ فاذا كان ذلك اضطرت روسيا أن تجرى تعديلا بعد تعديل فى نظريتها فيزول الخطر فى هدوء .

ظهر حديثا

العالم الطريف لألدس هكسلى نقله إلى اللغة العربية الأستاذ محمود محمود (دار الكاتب المصرى)

هى جرأة محمودة تلك التى أوحت إلى دار الكاتب المصرى نشر هذا الكتاب ، وإلى الأستاذ محمود محمود نقله إلى اللغة العربية ؛ فان نقل هذا السفر إلى لغتنا العربية لما يبشر بذلك الوقت، الذى نرجو أن يكون قريباً ، حين نرى الأدب العربى بساير الأدب الأوربى جنباً إلى جنباً ؛ فكما نجد كل مؤلف قيم فى لغة من اللغات الأوربية لا يلبث أن ينقل إلى اللغات الأخرى، كذلك نود أن نرى مثل هذا المؤلف لا يلبث أن ينقل إلى اللغة العربية ؛ وحينئذ نشعر كل الشعور بأن اللغة العربية تسير مع الزمن ، وأن عالم الفكر العربى يتابع النهضة الفكرية ويساهم فيها . ولكننا نرى من الجرأة نقل هذا المؤلف ؛ لأنه بموضوعه وبأسلوب مؤلفه وبطريقته فى معالجة الأمور يتطلب نقله إلى اللغة العربية جهداً ليس بالهين ، بل هو مجهود يعتبر بعض التوفيق فيه مدعاة للفخر ، فكيف إذا كان مجهوداً موفقاً كل التوفيق !

يتميز ألدس هكسلى من الكثير من الكتاب الانجليز فى هذا العصر بطابع خاص ؛ فهو سليل قوم عرفوا بالانكباب على الآداب والعلوم والانقطاع لها ، وأونوا بسطة من العيش فليس منهم من شغل بتدبير أمور حياته ، ونشأوا منذ طفولتهم يعملون لتنمية مواهبهم ، واتباع ميولهم . فلا عجب إذا اشتهر من أهله أفراد بلغوا أوج الشهرة فيما اختاره كل منهم من نواحى الفن أو العلم . فجده هو هكسلى الطبيب الشهير فى تاريخ العلوم الذى أيد داروين فى آرائه . وأخوه اليوم عالم من أكبر الباحثين فى علم الحياة ، وهو يرأس الآن تلك الهيئة الثقافية التى أنشأتها هيئة الأمم المتحدة . أما ألدس فقد مال إلى الأدب وإن كان لم يهمل ثقافة العلم ، وكان فى شبابه ممن يعجبون بالكاتب د. ه. لورنس . ولقد تولى نشر جانب من رسائل لورنس إليه . ومنها نعلم تأثره بهذا الأديب . ولكن

الفرق بين طريقة الأستاذ فى قصصه والتلميذ كبير ، وإن كان أدب كل منهما يمثله كل التمثيل .

كان د. ه. لورنس يكتب باحساساته وبقلبه ، وكان شديد الاسهاب فى بعض المواقف حيث تمس آراء ونظريات يهتم بها اهتماما خاصا ، وذلك أكبر السر فيما كان له من تأثير فى قرائه .

أما التلميذ فقد أظهر حتى فى مؤلفاته الأولى وجهة جديدة خاصة ، تدل على أنه مع إعجابه بالأديب لورنس لم يتأثر به ولم يسر فى ركابه ؛ بل هو صاحب طريقة خاصة فى معالجة قصصه ، كما أنه صاحب نزعة خاصة فى أفكاره . فهو أولا وقبل كل شئ ذلك الرجل الذى امتلأ ذهنه الكبير بقراءات واسعة شاملة فى موضوعات مختلفة ، وهو الرجل الذى وجد الوقت ليدرس كل مايحب وكما يحب ، فحشد طائفة كبيرة من المعلومات الأدبية والعلمية وهو فى مقتبل العمر لا يمكن أن يحصل عليها كاتب نشأ فى فاقة مثل لورنس ولا يمكن أن يصل إليها إلا أن يبذل العمر فى هذا السبيل .

وشئ آخر نلاحظه فى كتابات ألدس هكسلى ومؤلفاته ولا نجد مثله بل نجد خيراً منه فى كتابات د. ه. لورنس ؛ ذلك أن وسطه العلمى جعل عباراته دقيقة حادة قاطعة كالشرط فلا تجد فيها روح الشعر الذى تجده فى عبارات د. ه. لورنس ولا تلك البسطة فى العبارة .

الحقيقة أن ألدس هكسلى ظل يصدر عن عقله ، وعقله فقط ، فى كتاباته ، أما مشاعره فهى مشاعر الرجل الذى لا يؤمن إلا بالعقل وحده ؛ ففيه روح السخرية قوية لاذعة ، وهى إن تلطفت صارت فكاهة ولكنها لن تنزل إلى العطف .

ولذلك ترى أشخاص رواياته يتحركون ويتكلمون ويضطربون فى الحياة تدفعهم أهواؤهم وغرائزهم هنا وهناك ، وتسيطر على أقدارهم روح شريرة مرحة يتبين للقارئ بقوة أنها روح مؤلفهم الذى هو خالقهم .

أما موضوع القصة فلا يهتم به هكسلى . وقد تقرأ قصة من قصصه وتحاول جاهداً أن تعيد موضوعها لصديق فلا نكاد تجد موضوعاً . فلنرجع مثلا إلى قصة تلك الأوراق الخاوية إذا أحببت أن تسميها ، أو إلى قصة المتناقضات إذا شئت أن تسميها ، فان التسميات عند هكسلى معقدة ذات مرام كثيرة وليس من السهل ترجمتها ؛ وهاتان القصتان مما ظهر

قبل القصة التى نشير إليها اليوم فماذا نجد ؟ نجد أحاديث لا تنتهى بين جماعة من الذين يعملون فى الحياة أعمالا عقلية أو جماعة من المترفين ،ولكنهم جميعاً ممن أصيبوا بأمراض الحياة الحديثة ، فليس فيهم من يخلو من عقد نفسية وليس من فيهم يسلك فى حياته الخاصة مسلكا مستقيما كما اصطلح عليه الأجداد .

ولكن أهم ما يسترعى النظر ويبعث على الرضا أحياناً قليلة وعلى السخط كثيراً ، هو تلك النظرة الساخرة التى ينظر المؤلف بها إلى أشخاص قصصه ؛ حتى إنك إذا كنت تشعر بالكراهية نحو هؤلاء الأشخاص مرة ، فانك تشعر بالكراهية نحو الذى يعرضهم على مسرح الحياة مرات عديدة .

أما القصة التى أصدرتها اليوم دار الكاتب المصرى فان لها موضوعاً طريفاً حقا ، هى الحياة فى هذا العالم كما يتخيلها المؤلف بعد تقدم العلم وتطور المجتمع . وفيها يستعمل الكاتب براعته فى السخرية من هذه الحياة الناشئة عن تقدم العلم ، وهو يبتدع أساليب طريفة فى هذه السخرية ، فمن سخرية بالعلم نفسه تنطوى تحت المسميات التى يبتدعها وينحتها على مثال مايفعل العلماء ، ومن سخرية بالمجتمع واتجاهه إلى محو الشخصية الفردية والانطواء تحت ألوية المذاهب ، وهذه بذور يجدها الأديب ويقتبسها من المجتمع الحاضر ، أو على الأصح من المجتمع الذى ألف القصة فى زمنه ، ويسير بها إلى نتائجها المرتقبة ، أو قل غير المرتقبة. وهو فى هذه الصوره يكشف لنا الغطاء بنظرته الساخره عن حياتنا وعن معنى ما نؤمن به فى الوقت الحاضر. ونحن فى هذه الصورة نعطف على المؤلف ونشاطره آراءه ، ولا نجد تلك الكراهية التى نشعر بها نحو المؤلف فى رواياته الأخرى .

فقصة « العالم الطريف » هى نقطة تحول عند ألدس هكسلى ، قبلها كان ألدس هكسلى ساخراً لاذعاً لا يشفق وكأنه لا يحفل بهذه الحياة التى يشترك فيها ، ولكنه فى هذه القصة بدأ يهتم اهتماما حقيقيا ، ويرى أن عليه واجباً فى هذه الحياة لا يستطيع إلا أن يقوم به وإن لم يتخل نهائيا عن سخريته .

لذلك نراه فى الكتاب الذى يليه يتجه اتجاها جدياً ، فى غير مواربة ، ومن غير اتخاذ ستار القصة ، إلى معالجة مشكلة - الديمقراطية والحرية الفردية وكانت أوربا عندئذ على حافة الهاوية.

ووقعت الواقعــة ونشبت الحرب الأوربية الأخيرة ومسته فى صميم حياته. فماذا فعل الأديب حينئذ ؟ غادر انجلترا وهاجر إلى أمريكا وانضم للقائلين بأن البلاد التى تصلى نار الحرب ليست أصلح البلاد للأدب ؛ وأن موضع الأديب ليس الاقامة فى وطن يضج بالسلاح ؛ فضجيج السلاح يشوس الأفكار ويخفت صوت الأقلام ، وإنما موضعه بلاد بعيدة عن القتال ولو فسر ذلك على أنه خيانة لوطنــه ؛ فأول واجب للأديب هو المحافظــة على سلامة نظرته وابتعاده عن المؤثرات الوقتية ، ولا يتيسر ذلك إلا فى جو غير جو انجلترا التى كانت وقتئذ فى أشد المعمعة ، لا يعرف أهلها الراحة يوماً أو نهاراً .

وسواء أكان مخطئاً أم على صواب فقد عاش فى أمريكا طول مدة الحرب، وأخذت كتاباته تتجه اتجاهاً قوياً نحو مشكلات الفلسفة ، ونحو نزعــة قد تصفها بأنها صوفية وقد تصفهـا بغير ذلك ، ولكنها تنم عن نفس مريرة فيها من التبرم بالحياة أكثر مما فيهـا من السخرية .

ولسنا نريد أن نتعرض لدراسة ألدس هكسلى فى تطوراته الأخيرة فان لمثل هذه الدراسة مجالا آخر ، ولا نريد أن نتكهن بما ينتظر منه وهو لا يزال يرجى منه فى شيخوخته الشئ الكثير . غير أننا نستطيع أن نقول إن ألدس هكسلى يزداد شهرة على شهرة ، ليس فى انجلترا وحدها بل فى جميع البلاد الأوربية والأمريكية ، ولعل شهرته فى البلاد الأوربيــة والأمريكية أكبر منها فى انجلترا .

فدار الكاتب المصرى بنشر هذا الكتاب الطريف وإخراجه فى الصورة الأنيقة التى عرفت بها مطبوعاتها قد أسدت يداً إلى المكتبة العربية .

صورة جديدة تمثل النبي العربي للدكتور بشر فارس (مطبعــة المجمع العــلمى المصرى) .

هذا الكتيب هـو عبارة عن محاضرة ألقــاها الأديب المعروف الدكتور بشر فــارس فى المجمع العلمى المصرى فى ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ ، وهى نتيجة لكشف خطير عثر عليه الدكتور بشر فارس ؛ فلقد وجد « منمنمة » وهى التسميــة التى ابتدعها للتعبير عن الصورة الصغيرة

التي تزين بها الكتب وتقابل كلمة miniature في اللغات الأجنبية . وهذه المنمنمة يرجع عهدها إلى سنة ٦١٤ ﻫ وفيها صورة للنبي العربي صلى الله عليه وسلم . وكان المعروف لدى العلماء والباحثين أن تصوير النبي في منمنمات الكتب لم يحدث إلا بعد ذلك بقرن . ولكن الدكتور بشر فارس تمكن بدأبه وبحثه من الرجوع بتاريخ هذا التصوير إلى ما قبل قرن من الزمان .

وقد احتفظ حضرته بحقوق النشر والنقل والتصوير ؛ إذ هو عازم على متابعة هذا البحث ثم نشر ما جمعه من معلومات قيمة سيكون لها شأن كبير في تاريخ التصوير العربي .

حسن محمود

قلوب الناس قصص تحليلية للأستاذ ابراهيم المصري (دار الكاتب المصري)

مجموعة قصصية تشتمل على إحدى عشرة قصة في بضع وثلاثين ومائة صفحة ، تعالج كل قصة منها حالة من حالات النفس في شدة نالتها أو كارثة ألمت بها أو عاطفة مشبوبة حصرتها في زمان ومكان وفكرة ؛ ففي كل قصة منها حادثة ، ولكن مما يجري في داخل النفس لا في ظاهر الحياة ؛ ولذلك اختار المؤلف أن يكون عنوان مجموعته « قلوب الناس » إذ كان في كل قصة منها صورة قلب .

ومثل هذا الضرب من القصص التحليلي عسير المطلب على قارئه وعلى كاتبه جميعاً ؛ إذ كان الكاتب لا يبلغ فيه مبلغ الاجادة إلا إذا بلغ من قوة النفس وعمق النظر ونفاذ البصيرة مبلغاً يتيح له أن يرى في كل منظر من صور الحياة ما لا يراه غيره من ذوي العيون الباصرة ، وأن يسمع في نبر كل حديث من ألحان النفس ما لا يسمعه كل ذي أذن ؛ ثم يكون له إلى ذلك من المقدرة على « التجرد » ما يعينه على التخلص من وساوس نفسه وخصائص وجدانه وحوادث ماضيه ؛ ليكون لفنه من صفة « العموم » ما يرتفع به عن بعض هذيان المحمومين من ضحايا « الفكرة الثابتة » الذين لا يستطيعون الخلاص من بعض ما يؤثر في خاصة حياتهم فلا يطيقون كتمانه ولا يملكون الأسلوب الصريح للتعبير

عنه ، فيحاولون نوعاً من القصص التحليلى ليتنفسوا به من ضيق ويتفرجوا من حرج ، فلا يبلغون من الفن شيئاً ولا يزيدون على أن يقدموا للقراء صورة حائلة لجانب من جوانب نفوسهم المريضة فى إطار ملفق من الرياء والكذب والأثرة ؛ ومن ثمة كانت صعوبة تناول هذا اللون من القصص النفسى .

بلى ! قد يبلغ الكاتب من قوة الايمان بنفسه مبلغاً يهيء له أن يعرض حياته — أو جزءاً من حياته — عرضاً قصصياً رائعاً يبلغ به الغاية فى الفن ، ولكن شرط الاجادة الأول فى هذا اللون هو « الصدق » ، ولابد فيه كذلك من « التجرد » بمعنى الارتفاع على التقاليد الاجتماعية التى تفرض عليه نوعاً من الوقار — أو التوقر — يجعل فنه غثًّا بارداً لا حياة فيه ولا عاطفة !

أما بعد فهذه إحدى عشرة قصة تحليلية قد استطاع مؤلفها أن يحقق فيها شرط الاجادة ، فكان له من قوة النفس وعمق النظر ونفاذ البصيرة ، ثم من القدرة على التجرد ، ما هيأ له أن ينفذ إلى قلوب بعض الناس فيصفها وصفاً رائعاً كأنما يصف حادثة فى ظاهر الحياة رآها رأى العين وسمعها سمع الأذن ؛ فلولا بعض المبالغة فى الوصف وبعض الاسراف فى التعبير عن بعض حركات النفس أو بعض حركات الجسد، لأحس كل قارئ فيما يقرأ صورة من نفسه أو صورة من حوله قد وعاها وعى ذى قلب وعين .

أما القصة الأولى « سامية وإنعام » فتصف حال فتاة من أوساط الناس قد نشأت على الفضيلة والمحافظة فلا تعرف من فنون الحياة إلا الطهى والخياطة وإعداد الفراش ، وإلا الصلاة والصوم وتلاوة القرآن والأدعية ؛ والأوراد ، فلما نضجت أنوثتها واكتملت انتقلت إلى بيت زوجها ... ثم . . . ثم كان كل ذنبها عند زوجها أنها لا تعرف إلا الطهى والخياطة وإعداد الفراش ، وإلا . . . فاتخذ زوجة ثانية يلتمس عندها من فنون « الأنثى » ما لا يجد عند زوجته الأولى . وتعصف الغيرة بالمرأة فتحاول أن تتكمل وتتعوض مما بها من النقص ، فتسرف فى الزينة والتجمل إسرافاً يزيد الهوة اتساعاً بينها وبين زوجها ؛ ثم يكون ذلك أول سقوطها . . .

لعل بعض القراء أن يسأل : أهذه هى القصة ؟ وإلى أى غاية تهدف ؟ وأين منها فن القاص وصفة العموم

وما رأينا فى الحياة العامة أن التربية الدينية المحافظة تقود فتاة إلى السقوط؟

ولست أملك جواباً عن واحد من هذه الأسئلة أو عنها جميعاً ؛ وليس يعنيني حين أعرض هذه المجموعة من القصص أن أتحدث عن الغاية التى تهدف إليها كل منها ؛ وليست هذه الحادثة هى القصة فيما قرأت ، وما التمست صفة العموم — ولعل المؤلف لم يلتمسها مثلى — فى الحادثة ، وإنما التمسها فيما تضمنته الحادثة من الانفعالات وصور الوجدان . وأحسب أن المؤلف قد أجاد — لولا المبالغة — فى وصف هذه الانفعالات وتلك الصور الوجدانية العامة ، على حين لم ينظر إلى الحادثة إلا على أنها إطار لهذه الصور والانفعالات .

ويصف المؤلف فى القصة الثانية « المقامر » قصة شاب أغرم بالقمار ثم سلا . تلك هى الحادثة كلها ؛ ولكنها قصة ، قصة إنسانية رائعة تصور فى أروع أسلوب وأحسن معرض كيف تتنقل نفس المقامر فى الإثم والرذيلة منزلة بعد منزلة حتى تهوى به إلى الحضيض الذى لا نهضة منه .

والثالثة « قصة امرأة » فى رسالة وهى امرأة يتراوح قلبها بين كهل غنى وشاب فقير : قد استهواها المال فتزوجت ذلك الكهل ، فلما تحقق لها فى بيته ما كانت تصبو إليه من الغنى والجاه عاودها الحنين إلى الشباب ، فاصطنعت الأسباب للطلاق من زوجها الكهل لتتزوج الشاب الذى كان هواها إليه ؛ ثم لم يكد يتحقق لها ما أرادت حتى افتقدت ما كانت فيه من الغنى والسيادة ، فهمت أن تعود ... ولكن . . .

وفى القصة الرابعة « أطوار النساء » يحاول المؤلف أن يعالج مشكلة الأم الثانية ، ثم ينتهى إلى الرأى بأنه لا أم إلا الأم ؛ فاذا ترمل الأب فقد حق عليه أن يصير لولده أباً وأماً ، وحرم عليه أن يتزوج ثانية إلا أن ينسى أبوته وولده .

والخامسة « مأساة ضمير » ، ضمير رجل انغمس فى القمار والرذيلة وأضله هواه حتى فقد كل ما كان يملك أو أوشك أن يفقده ، فلم يجد لنفسه خلاصاً من ضيقه إلا أن يبيع إمرأته لاحدى شركات التأمين ليتفرج بثمنها من ضيقه ، فأمّن على حياتها ثم دس إليها أسباب الموت ليحصل على قيمة التأمين . . . ثم استأنف حياة جديدة وتزوج أخرى، وتطورت به الأيام من حال إلى حال حتى وجد نفسه ذات يوم فى مثل ما كان فيه من الضيق قبل أن يقتل

امرأته الأولى ، فسولت له نفسه أن يعيد تمثيل المأساة . . . وألحت عليه وساوسه فلم يجد إلى الخلاص إلا سبيلا واحدة . . . وثأر من نفسه لامرأته القتيل !

ثم القصة السادسة ، وعنوانها « بعد سبع سنوات » . ولو أنصف المؤلف لسماها « قصة شاب » لتكون بازاء « قصة امرأة » التي أسلفنا الحديث عنها ؛ فالحادثة واحدة فى القصتين أو تكاد ، ولكن البطل فى هذه القصة شاب ، لا امرأة ، يتراوح قلبه مثلها بين الغنى والشباب ، فتبدأ قصته كما بدأت قصته تلك ، وتكاد نهايتهما تكون واحدة ! أكان من الضرورى أن تكون المجموعة إحدى عشرة قصة ؟

والسابعة « نداء البحر » وكل ما فى العنوان من الدلالة على الموضوع ، أن أكثر حوادث القصة كانت على شاطئ البحر فى الاسكندرية ، أما « النداء » فلم أسمعه ؛ وفى القصة مشابه من قصة سامية وإنعام ؛ كل الفرق بين الحادثتين أن الفتاة هنا همت أن تتزوج رجلا ثانياً — إن صح هذا التعبير — أما فى القصة الأولى فقد تزوج الرجل امرأة ثانية . على أن الجو النفسي مختلف فى القصتين ،فلولا تشابه الحادثة لكانت هذه القصة بأصالة موضوعها وحركات النفس فيها أروع وأمتع وأعمق أثراً .

ولست أستطيع أن أعرض القصة الثامنة « روايح الجنة » إذ كان قلب المرأة فيها من نوع لا أعرفه من « قلوب الناس » ؛ قلب متناقض الأهواء متقلب الاحساس ، يحب الشئ ويبغضه فى وقت معاً ، ويرضى ثم يأبى لا يعرف أحد فيم كان رضاه وفيم كان إباؤه !

فاذا بلغت القصة التاسعة « الحياة الثانية » قرأت قصة تستحق أن تقرأها ، ثم لا تلبث بعدها قليلا حتى تذكر قصتين أخريين من المجموعة نفسها : « قصة امرأة » و « بعد سبع سنوات » فيحملك التشابه القوى بين هذه القصص الثلاث — على تفاوته فى بعض المراحل — على أن تظن ظنا أن بين هذه الحادثة بألوانها الثلاثة فى هذه القصص وبين نفس المؤلف رابطة ما ، وأن ثمة فكرة لا تزال تلم به حيناً بعد حين لأن لها فى حياته أثراً ما . . .

أما القصة العاشرة « هو القدر » فنمط من الحكاية معروف ، وهو إلى باب « الحواديت » أقرب !

ثم تأتى القصة الأخيرة « سلطان

المثل الأعلى » ويبدؤها المؤلف بالكلمة الآتية :

« هذه قصة قد لا تقع فى بيئة مصرية . وقد تقع كل يوم فى كل مكان. وليست العبرة فيها باللون المحلى أو الرسم الواقعى ، بل بما تنطوى عليه من نزعة مثالية كامنة فى كل نفس بشرية وكل خيال إنسانى . »

ولعل القصة كما وصفها مؤلفها ، بل إنها كذلك فيما أرى ؛ ولكن النزعة المثالية التى يشير إليها المؤلف لم تكن إلا فى الطفل ، فى الطفل وحده دون كل من فى القصة من رجال ونساء ؛ لولا أن ذلك الطفل المسكين لم يجد خلاصاً من أزمته إلا بأن يزهق نفسه ! وقد كانت المثالية أن يجد من نفسه القوة على مواجهة الحياة بشجاعة ، ولكنه طفل ، ولكنها مثالية طفل !

هذه هى « قلوب الناس » كما رآها الأستاذ إبراهيم المصرى فى مجموعة قصصه التحليلية التى أخرجتها دار الكاتب المصرى هذا الاخراج الأنيق فأسدت إلى الأدب العربى يداً .

ولكنى لا أريد أن أختم حديثى دون أن أنبه الكاتب الأديب إلى ضرورة عنايته بلغته ؛ فان ثمة أغلاطاً فى اللغة والنحو والتعبير ليس يجمل بأديب مثل الأستاذ إبراهيم المصرى يعالج الكتابة منذ بضع عشرة سنة أن يقع فيها .

وثمة شئ آخر لا أجد مندوحة من التنبيه إليه ، هو إيثاره العامية المصرية فى بعض الحوار ، على حين كانت العربية أسلس أداء وأطوع للسان . وقد يحتج الأستاذ المصرى لمذهبه ذاك ببعض ما كان يحتج به دعاة العامية من البكم والعجزة : أنه لم يجنح إلى العامية إلا فى بعض الحوار لتكون اللغه طبيعية على ألسنة الناطقين بها . . . وهى حجة لا أرى الأستاذ المصرى يؤمن بها ؛ فهو لم يلتزم عامية الحوار إلا فى قصة واحدة دون سائر المجموعة ؛ فلو أن طبيعة الحوار كانت تقتضى العامية كما يزعم من يزعم لما آثر الفصحى فى عشر قصص من إحدى عشرة ، فكانت العامية فى قصة واحدة هى الشذوذ الذى يلفت النظر وينبو عنه السمع ويلتوى به اللسان .

محمد سعيد العريان

دير بارم تأليف **ستندال** تعريب الأستاذ عبد الحميد الدواخلى (دار الكاتب المصرى)

« دير بارم » هى قصة من أروع ما كتبه ستندال من قصص ، وآية من آيات الأدب القصصى الفرنسى . قصة من هذا النوع الذى يتسلط عليك ، فما نكاد نبتدئ قراءتها حتى تشغف بها شغفاً شديداً و إذا بك تواصل القراءة وتجد فيها لا تريد أن يشغلك عنها شاغل ولا أن يمنعك عنها مانع حتى تصل إلى نهايتها . وهذا الشغف بالقصة إنما يتولد فى نفسك من حبكة حوادثها وتسلسلها المنطقى ، ومن التحليل النفسى البارع الذى اشتهر به ستندال والذى جعله منعزلا فى عصره . فستندال الذى عاش أثناء ازدهار المذهب الرومانتيكى سنة ١٨٣٠ يسرف فى التحليل النفسى إسرافاً جعل معاصريه يملون قراءة كتبه وقصصه ؛ إذ كان الأدب فى عصره لا يتعرض لتحليل النفس الانسانية ، بل كان يكتفى بوصف الشعور والاسراف فى هذا الوصف . فهذه الحساسية المريضة لا نجدها عند ستندال ، و إنما نجد استقصاء عن أسباب الأشياء ونتائجها . وهذا الميل إلى الاستقصاء هو الذى جعل ستندال منعزلا فى عصره ، وكدت أكتب منعزلا فى الأدب الفرنسى كله ؛ فهو لا يعد من الرومانتكيين مع أنه عاصرهم ، ولا يعد من الكلاسيين مع أنه يمت إلى هذه المدرسة بأكثر من سبب ، ولا يعد من الواقعيين مع أن هؤلاء نظروا إليه كأنه المنشئ الأول لمذهبهم . وفى الحقيقة أن ستندال يجمع فى أدبه شيئا من مميزات كل مذهب : فهو رومانتيكى إن شئت أن تعده كذلك ، وهو كلاسى إن أردت أن تعتبره من الكلاسيين ، وهو واقعى إن أحببت أن تضمه إلى أنصار هذه المدرسة . ولكنه قبل كل شئ عالم قدير بالنفس الانسانية وأسرارها ودقائقها وغموضها ، وقصصى بارع قلما نجد فى الأدب الفرنسى من يضاهيه براعة فى هذا الفن .

اكتشف ستندال نحو سنة ١٨٣٣ بعض مخطوطات إيطالية من القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر . والناظر إلى هذه المخطوطات يجد فيها قصة تحمل هذا العنوان : « نسب أسرة فرنيزيه الكبيرة » وهى التى أوحت إلى ستندال قصة « دير بارم » . ففبريس دلدنجو بطل القصة يشبه

شبهاً كبيراً البابا الكسندر فرنيز ، لأن حياة الكسندر فرنيز قد أوحت إلى ستندال مغامرات فبريس وأخلاقه. وقد يظن من يعرف أن حادثاً عابراً قد أوحى إلى ستندال قصة « الأحمر والأسود » أن خيال هذا الكاتب محدود لا يعرف إلى الجموح سبيلا . وهذا الزعم باطل لا يمت إلى الواقع بصلة ؛ فخيال ستندال جامح كل الجموح ، ويشهد بذلك قصصه المتعددة التى كتبها مثل « لوسيان لوين » و « أرمانس » و « حياة هنرى برولار » ، ولكنه يحتاج إلى بعض الوقائع الثابتة ليسترسل . فقصص ستندال ما هى فى بادئ الأمر إلاعود جاف يحتطبه ثم يعيده إلينا بعد أن يزينه ويخلع عليه أجمل الحلل فيبدو مزهراً ناضراً حافلا بالثمرات .

ومهما يكن المصدر الذى أمد ستندال بقصة « دير بارم » فهذه القصة بما تعرض علينا من تحليل لشخصياتها ولشعورهم وما تصوره من صميم الحياة الايطالية ، تشهد ببراعة مؤلفها و إدراكه الواسع بخفايا النفس الانسانية . فهى تختلف إذن كل الاختلاف عن المصادر الجافة التى استمد حوادثها منها .

تبتدئ هذه القصة بصورة دقيقة لمدينة ميلانو وحالة سكانها وعاداتهم عقب موقعة لودى ، وهى صورة صادقة رسمها ستندال لا من الخيال بل من الواقع ؛ لأنه حارب مع نابليون وتبعه فى جميع حروبه . ثم ينتقل بقارئيه من إيطاليا إلى فرنسا حيث يصف لهم موقعة واترلو وصفاً دقيقاً يفوق وصف فيكتور هوجو لهذه الموقعة فى كتاب « البؤساء » . وأخيرا يسرد لنا مغامرات فبريس دلدنجو وغرامياته والمحن التى ألمت به واضطرته أن يعتزل الحياة العامة ويلجأ إلى دير بارم ليجد فيه راحة النفس وهدوء البال .

وقد أتاحت هذه المغامرات للمؤلف أن يطلعنا على خفايا السياسة الايطالية ويعرض علينا لوناً من الحياة فى بلاط أحد ملوك إيطاليا الصغار وما يملأ هذه الحياة من مؤامرات وضيعة شائنة . كل هذا يعرضه علينا ستندال بطريقة جذابة محببة إلى نفس القارئ .

وأسلوب ستندال يجعل قصصه عسيرة الترجمة ؛ فميله إلى الدقة فى اختيار الألفاظ ، وروحه الساخرة اللاذعة ونكاته البارعة لا تسهل مهمة مترجمه . فمهما بذل المترجم من جهد لنقل هذا الأسلوب وهذه الروح الساخرة لا يمكن أن تعطى الترجمة العربية صورة صادقة

من فن ستندال ، فالمترجم دائماً فى حاجة إلى أن يبتعد قليلا أو كثيراً عن النص الفرنسي لكى يتجنب ما تعسر عليه ترجمته وتأتى عباراته عربية صحيحة . وقد أجاد الأستاذ عبد الحميد الدواخلى فى ترجمته وأحسن كلما وجد إلى الاجادة والاحسان سبيلا ، والتزم الأمانة ما وسعه ذلك ؛ لأن الترجمة شقت عليه، وقد تشق على من هو أبرع منه إن كان هناك من هو أبرع منه . فلا يسعنى إلا أن أحمد له هذا المجهود الجبار لما تغلب عليه فى الترجمة من مشقة وعسر، وأشكره لأنه أهدى إلى قراء العربية أثراً أدبيا خالداً ، وأهنئه على هذا الأسلوب الرفيع الذى قدم فيه ترجمته .

رشدى كامل

في مجلات الشرق

صوت المرأة بيروت العدد ٦ (يونيو ١٩٤٧)

« هل في لبنان أديبات ؟ »

سؤال توجهت به بعض المجلات اللبنانية إلى قرائها ، ويحاول الأستاذ يوسف الخال في مجلة « صوت المرأة » أن يجيب ، ولكن على الهامش ، فيقول :

« هل في لبنان أديبات ؟ هكذا يتساءلون : فكأني بهم يضمرون التأكيد بأن في لبنان أدباء ، فلماذا لا يكون فيه ، يا للشماتة ، أديبات !

«ونحن هنا لا نتوخى الرد على هذا التساؤل ، بل نحن هنا نتوخى التعليق على هذا التساؤل بتساؤل مثله : هل في لبنان أدباء ؟

« أجل ! هل في لبنان ، حاضراً ، أدباء ؟ نعني أدباء حقيقيين قد تمرسوا بصناعة الأدب ، وانصرفوا بكليتهم إليها ، وتثقفوا بفنونها الرفيعة ، وتعمقوا في دراسة آثارها الخالدة ، وانبروا ينتجون من فيض قرائحهم نتاجاً يساهم، ولو من بعيد ، في مفاخر الفكر والروح.

« أدباء حقيقيين نعني : لا منشئين يدور على معانيهم الباهتة اللفظ المشرق ، ولا صحافيين يقف القول على أبوابهم في ذل السؤال ؛ ولا متشدقين يرمون وجوهنا بالفتات واعدينا بالمآدب السخية في « سوف » من الأيام ؛ ولا بهلوانيين يمشون أمامنا على الحبل ، ويرقصون السعادين ، ويخرجون الفيران من أكمام سترتهم السوداء ؛ ولا مذهبيين بتأدبون في السياسة وينسيسون في الأدب .

«أدباء حقيقيين نعني : يعالجون مشاكل النفس البشرية كما تنعكس في شخصيتهم ، وفي أمتهم ، وفي العالم كله ؛ وينفلتون في القول البليغ من حدود الموضوعات الهزيلات المطروقات ، إلى ما عمق وغاص في خضم الكيان الانساني — هذا الكيان الرحب بما فيه من قلق وانهمام وألم ويأس وفرح وأمل وحب وبغض ، وبما ينطوي عليه من تفجر وخلق وتمرد .

«أدباء حقيقيين نعني : فأين هم في لبنان اليوم ؟ أيستطيع هذا الذي يزعم أن ليس في لبنان أديبات ، أن يدلني على أكثر من أديبين أو ثلاثة في

لبنان حق لنا ، مع التساهل ، أن نحسبهم كذلك ؟

«ولبنان كما نعلم ، قيم منذ فجر النهضة على الحركة الأدبية فى المشرق العربى ، فاذا شاء أن يظلّ ، ينبغى له أن يعى الحال التى هو فيها ، فيعمد إلى النهوض بها ورفع مستواها .

«وبعد، فاذا كان البعض يتساءلون عما إذا كان فى لبنان أدبيات ، فأحر بهم أن يتساءلوا عما إذا كان فيه أدباء . وعندئذ ، ولا ريب ، يخفضون جناح المسكنة والعار . . . »

الجزيرة الموصل العدد ١٤ (يونيو ١٩٤٧)

خواطر يثيرها الأدباء — يسائل الأديب عبد المنعم رءوف الدورى فى مجلة الجزيرة : أيهما أجدى : النزعة الفردية أم النزعة الجماعية فى الأدب؟ ثم يحاول الجواب ، فيعرض آراءأصحاب المذهبين وما يحتج به كل منهما لمذهبه ، ثم يقول :

« والواقع أن لكل من النزعتين فوائد ومزايا ، تحمد عليها ونشكر لها . فالنزعة الفردية مثلا تريد أن تجعل الأدب حراً فى تفكيره ، حراً فى اتخاذه مادة فنه ووحى إلهامه . وهى ترى أن من حق الأديب أن يكون حراً ، وأن نوسع أمامه المجالات لكى يخلق لنا أدباً إنسانياً زاهراً ، يتسرب إلى المكان ويبقى مشمخراً فى حدود الزمان . أما النزعة الجماعية ، فهى ترى أن من واجب الأديب — وهذا مفروض فيه بداهة — أن يتعرف إلى مشاكل عصره وشؤون مجتمعه ، فينظر إليهما نظرة الفاحص المدقق ، ثم يحاول معالجة كل ذلك . ومما لا ريب فيه أن مثل هذا الاتجاه جليل المزايا ، عظيم الأثر ، سيما فى الرقى بالمجتمع والنهوض به .

« ولكن لنقف لحظة متمعنين متدبرين ، ولنحاول أن نتعرف إلى معنى كلمة « فرد » ومعنى كلمة « مجتمع » لنصل إلى نتيجة معقولة ، فأقول :

«ليس المجتمع إلا مجموعة من أفراد، فالفرد فى المجتمع هو بمثابة الحجيرة الحية فى الجسم الحى ، وبدون الأفراد لن يكون المجتمع ، فبين المجتمع والفرد إذن علاقة كبيرة ، أو قل إن المجتمع لن يوجد من غير الأفراد الذين يكونونه . وعلى ذلك فالفرد هو دائماً وأبداً يعيش فى المجتمع ، ولا يتصور قط وجوده وحيداً ، أى خارجاً عن الجماعة . وإذا كان الفرد يعيش داخل الجماعة

فلا بد أن توجد بينها وبينه روابط وعلاقات ، ولا بد أن ينتج من كل هذا شعور واحد ، وهذا الشعور هو الذى يجعل من الجماعة أمة أو دولة .

«وإذا كان هذا فينبغى أن نعلم أن هذا الشعور الذى يسود جماعة من الجماعات ، يسيطر بطبيعة الأحوال على أكبر كية من الأفراد المكونين لتلك الجماعة أو الجماعات ، وبكلمة أدق أن رجال الفكر — وفيهم الأدباء هم الصفوة التى تتمثل فيها رغائب الأمة ، فهم والحالة هذه مرآة لجماعتهم أو لمجتمعهم ينعكس فى إنتاجهم كل ما يدور فى تلك الجماعة أو ذلك المجتمع من مؤثرات ، وما يلابسها من أحوال .

« فالواقع إذن أن ليس هناك إنتاج أدبى فردى محض ، ولا إنتاج جماعى محض ، بل الحقيقة أن الانتاج الأدبى هو خليط أو مزيج من تلكم النزعتين . »

الجندى اللبنانى بيروت المددان (مايو ـ يونيه ١٩٤٧)

الرقيـــق الأبيض — فى عدد مايو من هذه المجلة ، نشر الخبر التالى ، بعنوان « ٢٥ ألف امرأة ألمانية : تعويضات أستراليا الحربية » وهو :

« بلغت خسارة أستراليا فى الحرب العالمية الثانية ٣٠ ألف مقاتل ، وهو عدد ضخم بالنسبة لعدد سكانها الذين لا يزيدون عن خمسة ملايين نفس ؛ لذلك قررت الحكومة الاسترالية أن تكون حصتها من التعويضات الحربية التى ستفرض على ألمانيا ٢٥ ألف امرأة بشرط أن يسافرن إلى أستراليا بملء إرادتهن ، حتى إذا وصلن إلى هنـاك استقبلهن معتقل مؤقت وعرضن فيه على أنظار طالبى الزواج من الشبان الأستراليين .

«ومعروف أن أستراليا يكثر فيها الذكور ، وهى محتاجة دائماً إلى استيراد نساء من الخارج ! ومنذ مئة سنة استوردت عدداً كبيراً من نساء الهند ، ولكن تجربة الزواج بهن من الشبان الاستراليين أخفقت إخفاقاً عظيما ؛ لأن الشبان رفضوا اتخاذهن رفيقات لحياتهن ، فعادت الهنديات إلى وطنهن ، ومنهن من تزوجن بصينيين . »

الحرب الثالثة — تلك بعض أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تعود بالانسانية إلى الدرك المنحط الذى يجعل بعض الآدميين — أو بعض الآدميات —

رقيقاً في يد النخاسين ؛ رقيقاً لا يساوم عليه في الأسواق ، بل يساوم عليه في المؤتمرات الدولية التي تجتمع لاقرار السلام وتأمين الانسانية . فالى أي درك أحط وأسفل يمكن أن تنحدر الانسانيــة إذا نشبت الحرب الثالثة ؟

ولكنهم مع ذلك لا يزالون يهيئون أسبابهم لتلك الحرب الثالثة و يحسبون حساب نفقاتها وتكاليفها دون أن يفكروا فيما وراء التكاليف والنفقــات من أعقاب . وهذه نبذة من عدد يونيه من تلك المجلة ، عنوانها « تكاليف حرب عالمية ثالثة : ۱۰۰ مليار فرنك كل يوم » وهي :

« من الصعب تقدير المبالغ التي أنفقت على الشؤون العسكرية بين ۱۹۳۹ ، ١٩٤٥ ، لأن الاتحـــاد السوفياتي لم ينشر أي إحصاء في هذا الباب ، كما أن خبراء الحلفــاء لم يتمكنوا بعد من تقدير نفقات ألمانيا العسكرية ؛ على أن المرجح أن نفقات المحاربين من الحلفاء والمحور كانت تتراوح بين ٢٠ ، ٥٠ مليار فرنك كل يوم منـــذ إعـــلان الحرب حتى الهدنة .

« وقدر إحصاء قامت به دائرة المعلومات الكندية أن الدول المنتصرة في الحرب الأخيرة تنفق ٢٤ مليار فرنك كل يوم في سبيل الاستعداد للحرب العالمية الثالثة ، وأن الحروب الجارية في الهند الصينية ومدغشقر والصين وأندونيسيا تكلف مليـــار فرنك كل يوم .

« ومنذ ثلاثين سنة كان الجندي المعبأ يكلف دولته نفقات يومية للأكل فقط دون السلاح ، نصف دولار ، ولا يستبعد أن يكلفها في الحرب المقبلة ثلاثة دولارات .

« و إذا أضفنا إلى هذه النفقات أثمان الأسلحة الجديدة ونفقات العناية بها ، فضلا عن نفقات استخدامها في القتال ، فقد لا تقل تكاليف حرب عالمية ثالثة عن مئة مليار فرنك كل يوم . »

المرأة دمشق العدد ٣ (يونيو ١٩٤٧)

المجهود الأدبي للإناث — وفي سوريا — كما في لبنان — عناية ما بتتبع الآثار الأدبية للمرأة ، فهذه الكاتبة نديمة النقبادي تقول في العدد الأخير من مجلة « المرأة » :

« وهذه ناحية جديرة بالبحث ...

فالمجهود الأدبي يقوم الآن في كافة نواحيه تقريباً على الرجل والرجل وحده . . . ولا أريد بهذا أن أنتقص من جهد هذا الرجل ، فهو قد لمس في نفسه الاستعداد للعمل ، فنشط إليه يصقله وينميه ، وكان من ثمرته إنتاج خصب في عالي العلم والأدب .

«أما المرأة في بلادنا فما أعتقد أنها سارت في ذلك شوطاً بعيداً أو قريباً ... وإذا حدث أن ظهرت مؤلفات أدبية لبعض الكاتبات فهي من الندرة بحيث تعد في يسر وسهولة . . . ولست أرمي إلى أن المرأة ضعيفة الانتاج ، تأخذ أكثر مما تعطي ، وإنما أعتقد أنها في حاجة إلى شيء من الشجاعة لتنهض من استكانتها الأدبية ، وإلى شيء من النشاط لتجرد قلمها وبيانها ، وإلى جو حافز يضمن لها التقدير والتشجيع في خطواتها الأولى . »

نحو الآفاق البعيدة — على أنه ليس من الانصاف أن ننكر ما بلغته المرأة اللبنانية والسورية من الأدب ، أو نجحد فضلها في هذا الميدان ، ولدينا ثبت حافل بأسماء السوابق في مضماره ؛ وحسبي أن أقتبس سطوراً من مقال ممتع للسيدة أسمى طوبي ، عنوانه « نحو الآفاق البعيدة » في ذلك العدد من مجلة « صوت المرأة » تتحدث فيه عن نهضة فتيات الشرق . وإذا كانت قد قصرت حديثها على الفلسطينيات ؛ فان لهن أخوات في سوريا وفي لبنان ؛ تقول :

« وفي بيروت اليوم عدد من الفتيات الفلسطينيات يدرسن للحصول على شهادة ب . ع ، كما أن من حصلنها ، وهن كثيرات ، أصبحن يشتغلن مراكز جيدة في الدوائر الحكومية في البلاد . أما شهادة م . ع فقد حصلها كثيرات أيضاً .

« وفي مصر أيضاً عدد لا بأس به من الطالبات ، أعرف منهن الآنسة باكلين نوري من حيفا وهي تدرس الصحافة ، والآنسة رائدة جار الله من القدس وقد حصلت شهادة ب. ع من الجامعة الأميركية في بيروت ، ثم التحقت بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة لحازت في العام الماضي درجة ماجستير في التاريخ الاسلامي ، فكانت أول فتاة من الأقطار الشقيقة تحوز هذه الدرجة من الجامعة المصرية ؛ وقد عادت الآنسة رائدة إلى الجامعة لتعمل على نيل الدكتوراه .

«وفي لندن اليوم فتاتان فلسطينيتان تدرسان نظم الشؤون الاجتماعية لتطبقاها

فى فلسطين ، ولم تخل لندن منـــذ عشرين عاماً من طالبات فلسطينيات كن بعثات حكومية يدرسن نواحى علمية مختلفة .

« ولفلسطين اليوم ثلاث طبيبات الأولى تخرجت من لندن والثانيـة تعمل فى المستشفى الحكومى فى القدس والثالثة تعمـل لحسابها فى حيفا .

«أما المدارس العالية فى فلسطين، وأما اللواتى يدرسن فيها ليثبن إلى مصر أو أوربا ليحققن أمانى تخفق فى صدورهن فما أكثرهن ! »

فى مجلات الغرب

من باريس

الآداب *Lettres* عدد ٨ و ٩

يبدأ هذا العدد بمجموعة من الحكم بقلم الكاتب بتنكور وبعنوان ، « جسدى يدافع » يتجه أكثرها إلى مناقشة الدين ، ولكن من بينها مايتجه إلى الدنيا كقوله « يقول نيتشه : لا أسمح إلا للناجحين فى الحياة بأن يعالجوا فلسفة الحياة . ويقول فاليرى: لا حق لأحد أن ينتحر إلا إذا بلغ السعادة الكاملة . فهل نجح نيتشه فى الحيـاة ؟ أو لم يكن فاليرى سعيداً ؟ » . وفى هذا العدد أربع قصائد مترجمة من شعر جارسيا لوركا الشاعر الاسبانى . وفيه بحث طريف للوى كورتيس عن الكاتب والمفكر الانجليزى ألدس هكسلى ألم فيه الباحث بتطوراته الفكرية وحلل طريقته فى الكتابة . وفيه قطعة مختارة من الرواية الأخيرة لسمرست موجام الروائى الانجليزى . ونشرت المجلة ٣٠ رسالة لفولتير لم يسبق نشرها ، وبحثاً لجان بنليفيه عن مكان الباحثين الفرنسيين فى السينما .

وهو بوجه عام عدد ممتاز بهذه المجموعة وغيرها من المقالات ، كما هو ممتاز بالعشرات من البحوث الأخرى فى الأبواب العادية الأخرى التى تعالج الأدب والمسرح والتصوير والفلسفة والمقالات والرسائل الخارجية ، ومن أهمها نقد لكتاب عن روسيا بالأمس واليوم ، وكتاب آخر عن الأدب الأمريكى .

فونتين *Fontaine* عدد ٥٨

تحدث جوليان جراك فى العدد ٥٨ من مجلة «فونتين» الفرنسية *Fontaine* عن أندريه بريتون ، وهو يقول إن الناقد ليصطدم بصعوبة عند الرغبة فى تحليل هذا الأديب ، هى حركته الدائمة وانتقالاته حتى ليصعب إصدار

حكم أو رأى فى شأنه . ولعل الكاتب نفسه يرحب بهذه الصعوبة ؛ فهو ليس من الذين يؤمنون بالتقسيمات التى يحاول أن يفرضها الناقدون ؛ ومع ذلك استطاع كاتب المقال أن يحلل أندريه بريتون تحليلا وافياً قد لا يكون آخر كلمة فى هذا الأديب الفرنسى ، ولكنه على كل حال من أوفى ما كتب عن هذا الأديب حتى الآن .

وفى هذا العدد بحث مترجم عن الألمانية من هيدجر الفيلسوف الألمانى عن العودة إلى أصول الميتافيزيقا ، وهو من آثار هذا الفيلسوف التى لم يسبق نشرها حتى بلغة بلاده .

ونشر الأديب دى روجمون صفحات من يومياته أثناء التجائه إلى الولايات المتحدة فى زمن الحرب ؛ وفيها صور طريفة عن حياة الأدباء فى نيويورك ووصف لزيارة إلى جامعة هارفارد ، ومحاولاته لنشر بعض مؤلفاته وسياحاته فى جهات مختلفة من أمريكا .

وتكلم الكاتب فوجير عن توماس مان وانجذابه إلى وصف الموت وفى المقال تحليل لروايته العظيمة « الجبل المسحور » .

ونشر فيكتور أوكامبو الكاتب الأرجنتينى ملاحظاته عن باريس وما يجده الغريب القادم من جنوب أمريكا فى البلد الجديد من مناظر تسترعى النظر .

وكتب رولان كايوا بحثاً طريفاً عن ماكرو وقيمته الأدبية ، كما بحث شارل إتيين فى التصوير وكنهه . وهذا عدا دراسات قيمة بقلم جوليان بندا وهنرى بوسكو ، وغيرهما من الكتاب الذين تعودنا أن نقرأ لهم فى «فونتين» .

من لندن

العالم اليوم *World Today* عدد مايو ١٩٤٧

فى عدد مايو سنة ١٩٤٧ من المجلة الشهرية الانجليزية «العالم اليوم» وهى التى يصدرها المعهد الملكى للأمور الدولية ، فضلا عن البحث الخاص بمشروع قانون الوراثة الجديد فى أسبانيا ، وهو الذى تكلمنا عنه باسهاب فى غير هذا المكان ، بحث عن الجنرال دى جول وحركته فى تحدى الأحزاب الفرنسية ، وتابع أحد كتاب المجلة البحث القيم الذى ينشره

عن السياسة والرأى العام فى جنوب أفريقيـة ، وهو يتكلم فى هذه المرة عن النضال بين الأجناس المختلفة الألوان وكيف تهضم حقوق السكان الأصليين. فمثلا لو سئل أحد أهل جنوب إفريقية من البيض عن عدد سكان بلاده لقال انه مليونان ونيف كأن التسعة الملايين الآخرين ليسوا إلا من المواشي ، ومع ذلك فان هؤلاء الأوربيين يشعرون بقلتهم أكثر مما يريدون أن يظهروا . ثم يتـابع صاحب المقـال الـكلام فى التفرقة بين الأجناس ومظـاهرها السخيفة التى تدل على التعصب والطغيان .

وفى العدد أيضاً مقال عن الميدان السياسى فى رومانيا ، و يريد الـكاتب أن يدل على أن النظام الحالى الذى يرأسه الدكتور جروزا هو نظام غير ديمقراطى ، وأنه قائم بنفوذ روسـيا وتأييدها . وفى المجلة بحثان فيمان آخران عن تغيير الحكومة البلجيكية وماينطوى عليه هذا التغيير . ومطالب تشيكوسلوفاكيا فى معاهده الصلح من الدول المجاوره . وفى المجلة أيضاً بحث عن بعض الواجبات التى يجب أن تقوم بها الدول حتى يمكن إحيـاء اليونان و إعادة حياتها الاقتصادية والزراعية .

ناشيونال ريفيو National Review عدد يوليو ١٩٤٧

أما مجلة « ناشيونال ريفيو » وهى المجلة الشهرية الانجليزية التى تعتبر من أهم المجلات التى تنطق بلسان حزب المحافظين ، ففى عدد يونيه منها الباب الافتتاحى ، وفيه حوادث الشهر . وأهم ما جاء فيه الـكلام عن مؤتمر موسكو وإخفاقه والحالة فى رومانيا ، ثم فيه كلام عن السياسة الداخلية ، وما تدفعه بريطانيا من الاعانات لهيئة الاعانة والتعمير والهيئات الدوليـة الأخرى . وفيه حملة على الحكومـة البريطانية ، و يزعم المحرر أن بريطانيا تسير نحو القحط والمجاعة ، وقد تـكلم عن زيارة ملك بريطانيا وملـكتهـا لجنوب إفريقية ومغزى هذه الزيارة وما قوبلت به الأسرة المالـكة من ترحاب لا سيا من الهنود والأجناس الملونة ؛ وود لو أن حكومة جنوب إفريقية تعيد النظر فى موقفها من الأجناس الملونة أثر هذه الزيارة .

وفى هذا العدد بحث عما تريده

روسيا أتينا على خلاصة وافية له في مكان آخر .

وفيه بحث طريف عن السياسات المالية والاقتصادية الدولية المختلفة كتبه هنرى دراموند وولف تحت عنوان « ما القصد من هذا ؟ »

وفيه قصة طريفة لهنرى هاردنج بعنوان « الأموال السهلة » .

هوريزن Horizon عدد يونيو ١٩٤٧

وعدد «هوريزن» المجلة الأدبية الانجليزية لشهر يونيه يزدان ببحث واف عن آرثر كيستلر الكاتب الأمريكى ، وفيه دراسة لحياه القديس يوحنا الصليبي وشعره ، كما أن رنيه ليبوفتز يوالى بحثه عن التجديد والتقليد فى الموسيقى الأوربية الحديثة ، وقد درس فى عدد سابق فن الموسيقار شونبرج ، وفى هذا العدد دراسة وافية لأنطون فبرن .

انجليش English عدد الربيع

وعدد الربيع لمجلة «انجليش» التى تصدرها الجمعية الانجليزية حافل بدراسات عن معنى المأساة لكليفورد ليش وعن مترلنك وفنه فى الدراما وفيه نصائح للمبدئين فى النظم ، كما أنه يحتوى على طائفة من الدراسات والأشعار التى تسترعى النظر .

من روما

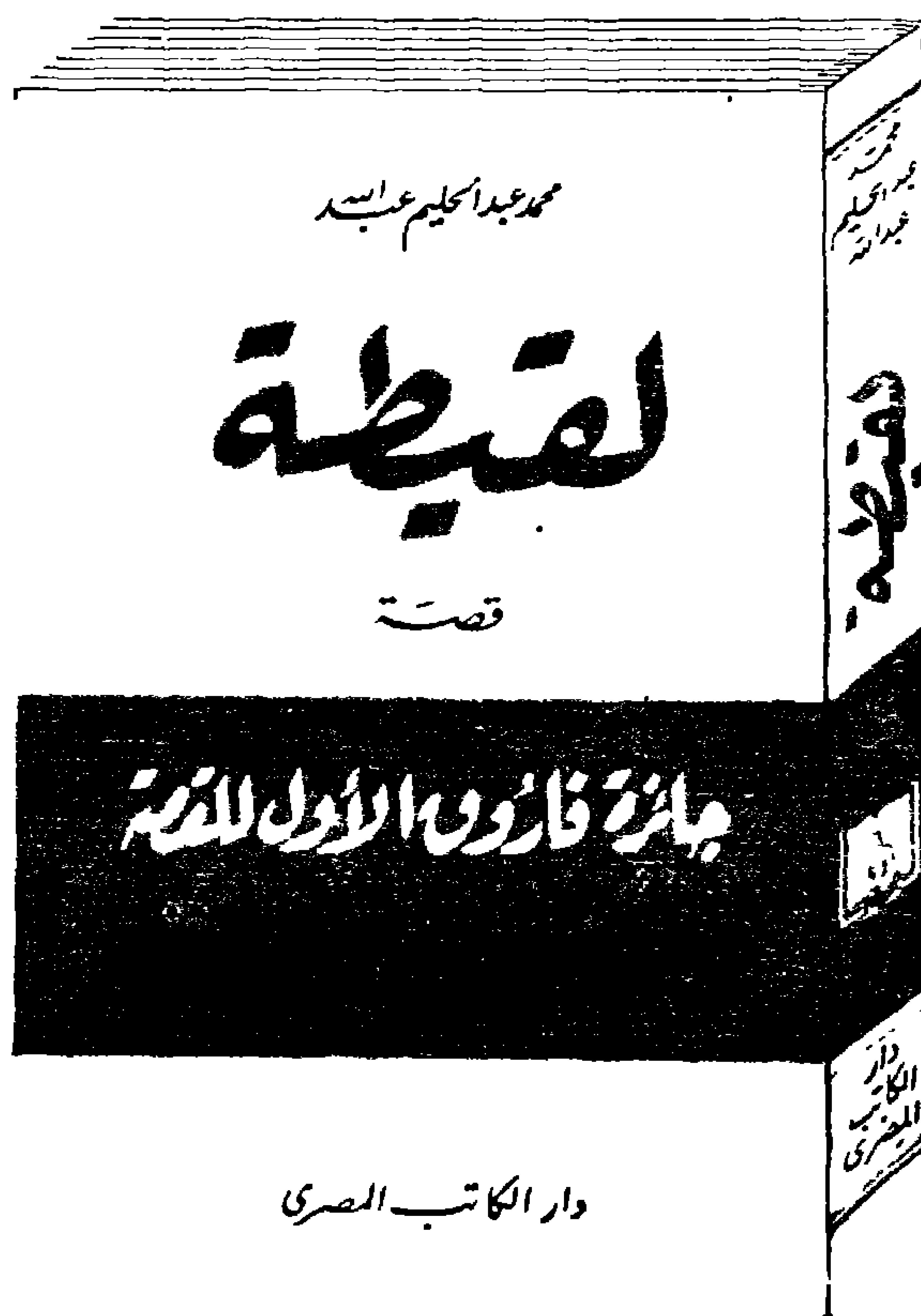
أوريِنت مودرنو Oriente Moderno عدد ديسمبر ١٩٤٦

وقد وصل إلى أيدينا عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ من مجلة «الشرق الحديث» Oriente Moderno الايطالية وفى القسم السياسى التاريخى منه بحث بقلم السنيور برونو أليتى عن إيطاليا والسنوسية ، وفيه رد على ماجاء فى بحث للأستاذ ايفانز بريتشارد أستاذ الاجتماع سابقاً فى جامعة فؤاد

الأول نشره فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ؛ وينفى كاتب المقال ما جاء فى مقال الأستاذ بريتشارد من أن إيطاليا كانت تعمل على القضاء على السنوسيين ، ولو أن بريتشارد استقى معلوماته من كتاب إيطالى نشره مكالوزو تحت عنـــوان « الترك والسنوسيون والايطاليون فى ليبيا » ببنغازى سنة ١٩٣٠ .

ويرى السنيور أليتى أن مؤلف هذا الـكتاب ، لم يكن ليعرف السياسة الايطالية ويعبر عنها ، وأخذ يثبت أن السياسة الايطالية لم تتجه قط هذا الاتجاه .

ومن الأبحاث الطريفة فى هذا العدد الحافل بالأخبار والوثائق عن بلاد الشرق ، كما تعودنا دائماً فى هذه المجلة ، بحثان جديران بالذكر : أحدهما بقلم السنيور أنريكو شيروللى عن المخطوطات الحبشية فى مكتبـة وزارة الهند بلندن . والآخر بقلم السنيور أومبرتو ريتزيتانو عن الرمزية فى مؤلفات الأستاذ توفيق الحكيم الأديب المصرى .


محمد عبد الحليم عبد الله
لقيطة
قصة
جائزة فاروق الأول للقصة
دار الكاتب المصري

مجلد ٦ — عدد ٢٣

أغسطس ١٩٤٧

ڤولتير

زديج

أو القضـاء

ترجمة طه حسين



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

تحت الطبع

كتاب البخـــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليفى بروفنسال

أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون

مدير معهد الدروس الاسلامية بجامعة باريس

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

زديج

أو القضاء

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها . يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٠٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : **Taha Hussein**

فولتير

زديج
أو القضاء

قصة شرقية

١٧٤٨

ترجمة
طه حسين



دار الكاتب المصري

العنوان الأصلى للقصة
بالفرنسية

ZADIG

OU LA DESTINÉE

Histoire Orientale

الكاتب المصرى



رمضان ١٣٦٦ أغسطس ١٩٤٧

السنة الثانية مجلد ٦ — عدد ٢٣

تقـــــــدمة

هذه قصة من قصص فولتير التى عنى فيها ببعض المشكلات الفلسفية العليا التى شغلت الناس دائماً ، وشغلت الفرنسيين بنوع خاص أثناء القرن الثامن عشر ، وهى مسألة القضاء والقدر ، ومكان الانسان وإرادته منهما .

وما أريد أن أتعمق قضية القضاء والقدر فى نفسها ، ولا أن أتعمقهـا بالقياس إلى الفلاسفة والمثقفين الذين عاصروا فولتير ، ولا أن أتعمقها بالقياس إلى فولتير نفسه . فنحن فى فصل الصيف ، وهو فصل لا يحتمل مثل هـذا البحث الذى يكلف الكاتب والقارئ من العناء مايحتاج إلى حياة رائقـة شائقة يستحب فيها النشاط ولا يشق فيها الجهد الذهنى .

وأنا بعد ذلك لم أفكر فى تقديم هذه القصة إلى القراء فى هذا الفصل الشديد إلا لأريح الزملاء الذين يشاركون فى تحرير هذه المجلة ، والقراء الذين يتفضلون بقراءتها ، من تكليف أنفسهم عناء الجد فى الكتابة والجد فى القراءة أثناء فصل القيظ . والراحة حق للكتاب كما هى حق للقراء . ولكن الراحة ألوان وأشكال ، فهناك الراحة التى يستمتع بها الانسان حين لا يعمل شيئاً ، وهى راحة بغيضة لأنها عقيمة لا تنفع صاحبها ولا تنفع الناس . وهناك

الراحة التى يستمتع بها الانسان حين يتجه من العمل إلى ما يمتعه ويمتع الناس دون أن يشق على نفسه وعليهم ، وهذه هى الراحة الخصبة التى يدل لفظها على معناها دلالة صادقة ، والتى تعصم الانسان من الفراغ الفارغ الجدب الذى يميت القلوب ، وهى الراحة التى تلائم المثقفين من الكتاب والقراء جميعاً . فالرجل المثقف لا يبغض شيئاً كما يبغض الفراغ الجدب العقيم ، والراحة بالقياس إليه هى الانتقال من عمل مجهد مضن إلى عمل يجمع بين التسلية والمتاع . وإلى هذه الراحة قصدت حين فكرت فى أن أعفى محررى هذه المجلة من إنشاء بحوثهم المضنية ، وقراءها من العكوف على تفهم هذه البحوث ، وفى أن أعفى القراء فى الوقت نفسه من الفراغ الذى كانوا قد يضطرون إليه ساعات من نهار أو أياماً من شهر لو لم تقدم إليهم المجلة شيئاً ، وفى أن أترجم لهم آية أدبية رائعة يجدون فى قراءتها مايرضى حاجتهم إلى التفكير ، وحاجتهم إلى الراحة ، وحاجتهم إلى المتعة الأدبية الرفيعة فى وقت واحد . وأنا أحد الألوف أو الملايين من الناس — إن حسن ظننا بالناس — الذين يعجبون بأدب فولتير ، وينتهى بهم الاعجاب إلى الفتنة فى كثير من الأحيان ؛ لأن هذا الأدب لم يكتب له الخلود فحسب ، وإنما كتب له الخلود والشباب جميعاً . أو قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الانسانية على اختلاف العصور والبيئات والأجيال . ولن أقيم الدليل على شئ من ذلك ؛ فقد فرغ التاريخ الأدبى من إقامة الدليل عليه ، وهذه القصة نفسها ستدل عليه فى وضوح وجلاء وإقناع . وما أظن القراء يكلفوننى أن أوثرهم بشئ لا أوثر به نفسى ، أو أن أحتمل فى سبيلهم من الجهد والمشقة مالا أحب أن أحتمله فى سبيل نفسى .

وقد قرأت هذه القصة مرات توشك أن تبلغ عشراً ، وأكبر الظن أنى سأقرؤها وأقرؤها ، وقد وجدت فيها وسأجد فيها دائماً متعة العقل والقلب والذوق . فاذا قدمتها إلى القراء فقد آثرتهم بما أوثر به نفسى ، ولم يظلمك من سوى بينك وبين نفسه .

وقد كتب فولتير هذه القصة حين كاد القرن الثامن عشر ينتصف سنة ١٧٤٨ ، وتكلف فنوناً من الجهد والحيلة ليطبعها خارج فرنسا ولينشرها فى فرنسا بعد ذلك ، وليستأنف طبعها فى فرنسا . ولولا ضيق الوقت ، وأنى فى

باريس مشغول بما يشغل به الانسان حين يلم بباريس ليقيم فيها وقتاً قصيراً وليرحل عنها بعد ذلك — لولا هذا لقصصت على القراء من جهد فولتير وحيلته فى نشر هذه القصة ، ثم من جحوده إياها وتنصله منها مخافة أن تجر عليه شرا ، ما فيه كثير من الفكاهة والتسلية . ولكنى أرجو أن أعود إلى هذا كله فى وقت قريب .

وقد مر بفولتير طور من أطوار حياته الأدبية قرأ فيه ترجمة « ألف ليلة وليلة » ، فشاقته وراقته ووجهته إلى دراسة أمور الشرق ، فغرق فى هذه الدراسة إلى أذنيه ، وأخرج للناس قصصاً شرقية بارعة كثيرة ، منها هذه القصة وأرجو أن يتاح لى أن أترجم لقراء العربية طائفة من قصصه الشرقية الأخرى .

وبطل هذه القصة فتى من أهل بابل ، يسميه فولتير زديج ، ونسميه نحن صادقاً . وقد كدت أضع صادقاً مكان زديج فى القصة كلها ، ولكنى آثرت أن أحتفظ لفولتير باسم بطله كما أراد هو أن يكون . وهذا الفتى البابلى المثقف الممتاز قد اختلفت عليه الأحداث وتعرض لكثير من المحن فى وطنه أولاً وفى الأوطان التى تغرب فيها بعد ذلك ، فى مصر وفى بلاد العرب وفى جزيرة سرنديب وفى سوريا ، وكانت هذه الأحداث والمحن كلها مخالفة لمنطق الأشياء وطبيعة الحياة كما يراها الناس ؛ فقد كان يكافأ بالشر على الخير دائماً ، وكان يستقبل ذلك بالحيرة والاذعان وبالصبر والاحتمال ، حتى كوفىء آخر الأمر بما يلائم ذكاءه ووفاءه وثقافته و براعته وصبره واحتماله ، فأصبح ملكاً على الدولة البابلية العظمى .

ففى القصة إذن عرض لمشكلة القضاء والقدر كما يتصورها الشرقيون ، أو كما خيل لفولتير أن الشرقيين يتصورونها . وفيها حل لهذه المشكلة على نحو ماتصوره الفلاسفة منذ أقدم العصور ، وهو هذا الحل الذى لا يحل شيئاً ، والذى يلخص فى أن الانسان أقصر عقلا وأكل ذهناً من أن يفهم حكمة الخالق الذى أبدع العالم ووضع له مايدبره من القوانين . فما عليه إلا أن يكد ويجد ويعمل الخير ما وسعه أن يعمل الخير ، و يجتنب الشر ما أتيح له أن يجتنب الشر ، ولا عليه بعد ذلك أن تسره الأيام أو تسوءه ، وأن تسخطه الأحداث أو ترضيه .

ولكن فى القصة أشياء أخرى غير هذا العرض الفلسفى لمشكلة القضاء

والقدر ، هو الذى أتاح لها الخلود ؛ وهو نقد الحياة الانسانية من ناحيتها السياسية والاجتماعية والخلقية ، والنفوذ بهذا النقد إلى صميم الطبيعة الانسانية، وما ينشأ عن احتمالها للحياة وتصرفها فيها من الخطوب . وواضح جداً أن فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة إلى نقد الحياة الأوربية عامة والحياة الفرنسية خاصة ؛ واتخذ مدينة بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس ومن أجل هذا أتنفق من نسبة هذه القصة إليه . ومن أجل هذا فتن الفرنسيون بهذه القصة فى عصر فولتير ، ومازالوا يفتنون بها إلى الآن . ومن أجل هذا أعتقد أن قراء العربية سيجدون فى قراءة هذه القصة مايلائم حاجتهم إلى نقد الحياة الانسانية من ناحية السياسة والاقتصاد والاجتماع . فليقرءوا ، وليتفكروا ، وليتذكروا ، وليستريحوا إلى القراءة والتفكر والتذكر ، ثم لينتفعوا بعد ذلك بما يقرءون وما يتفكرون وما يتذكرون .

طه حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧

زديج

أو القضاء

رسالة إهداء قصة زديج

إلى السلطانة شعرا

من سعدى

في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٨٣٧ هجرية

أى بهجة العيون ، وعذاب القلوب ، ونور العقول ، لن أقبل تراب قدميك لأنك لا تكادين تمشين ، أو لأنك إنما تمشين على بسط إيران أو على الورد . إليك أهدى هذه الترجمة لكتاب ألفه حكيم قديم أتيحت له سعادة الفراغ فسلى نفسه بانشاء قصة زديج ، وهى قصة تقول أكثر مما يظهر أنها تقول . وأتوسل إليك أن تقرئيها وتقدريها . فمع أنك فى ربيع الحياة ، ومع أن اللذات كلها تسعى إليك ، ومع أنك حسناء ، وأن ذكاءك يضيف إلى جمالك جمالا ، ومع أن الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل إلى أن يسفر الصبح ، وأن من شأن هذا كله أن يباعد بينك وبين القصد ، فأنت على رغم هذا كله راجحة العقل مترفة الذوق ، وقد سمعتك تتحدثين فاذا أنت أرجح عقلا من الدراويش ذوى اللحى الطوال والقلانس المحددة . وأنت رفيقة لا تحبين الارتياب ، وأنت رقيقة دون أن تنتهى بك الرقة إلى الضعف . وأنت محسنة مع العلم بمواضع الاحسان . وأنت تحبين أصدقاءك ولا تتعرضين لعداوة أحد . وأنت لاتزينين عقلك ببهرج الغيبة ، وأنت لا تقولين السوء ولا تأتينه على كثرة مايدعوك إلى ذلك . ثم إن نفسك قد ظهرت لى دائماً نقية نقاء حسنك . بل إن لك حظا يسيراً من الفلسفة حملنى على أن أقدر أنك ستؤثرين أكثر من غيرك هذا الكتاب الذى ألفه حكيم .

وقد كتب أول الأمر فى اللغة الكلدانية التى لا تفهمينها أنت ولا أفهمها أنا ، ثم ترجم إلى العربية ليتلهى به السلطان المعروف أولوج بب . كان ذلك

فى الوقت الذى أخذ العرب والفرس فيه يكتبون « ألف ليلة وليلة » و « ألف نهار ونهار » . . . وكان أولوج يؤثر قراءة زديج على حين كانت السلطانات يؤثرن قراءة ألف وواحد . وكان أولوج الحكيم يقول لهن : « كيف تؤثرن قصصاً لا مغزى لها ولا تدل على شئ ؟ » وكن يجبنه : « لهذه العلة نفسها نحب هذه القصص . »

وأنا أزعم أنك لن تشبهين ، وأنك ستكونين أشبه شئ بأولوج . بل أنا أرجو أن أجد لحظة قصيرة أتحدث إليك أثناءها فيما يلذ العقل حين تسأمين الأحاديث العامة التى تشبه الألف والواحد ، على أنها أفل منها تسلية وتلهية. ولو قد كنت تالستريس التى عاشت أيام الاسكندر بن فيليب ، أو ملكة سبأ التى عاشتَ أيام سليمان ، لسعى إليك هذان الملكان .

وإنى أضرع إلى الفضيلة السماوية أن يكون نعيمك صفواً وحسنك باقياً، وسعادتك خالدة .

معدى

الفصل الأول

الأعور

كان يعيش فى بابل أثناء حكم الملك مؤبدار ، فتى يسمى زديج ، وقد فطر على طبع كريم زادته التربية كرماً . كان غنيا ، وكان فى ريعان الشباب ، ولكنه كان على ذلك يعرف كيف يكبح جماح شهواته ، لم يكن يتكلف ، ولم يكن يحرص على أن تكون له الكلمة الأخيرة دائماً ، وكان يعرف كيف يقدر ضعف الناس . وكان الناس من حوله يدهشون لأنهم لم يروه قط على ما كان يمتاز به من الذكاء يهزأ بهذه الجمل الغامضة المتنافرة الصاخبة ، ولا بهذه الغيبة الجريئة ، ولا بهذه القرارات الجاهلة ، ولا بهذه السخافات الفجة ، ولا بهذا الضجيج الباطل ، مما كان أهل بابل يسمونه حديثاً . وكان قد تعلم من الكتاب الأول من آثار زرادوشت أن الاعتداد بالنفس كرة نفختها الريح ؛ فأيسر ثقب فيها يخرج منها زوابع . وكان من أخص صفات زديج أنه لم يكن يفاخر بازدراء النساء أو اختلابهن . وكان كريماً لا يكره أن يحسن إلى الجاحدين ، يتبع فى ذلك هذه الحكمة البالغة من حكم زرادوشت : « إذا أكلت فأطعم الكلاب ، وإن أغراها ذلك بعضك » . كان حكيما كأحسن ما يكون الحكيم ؛ لأنه كان حريصاً على معاشرة الحكماء . عرف علم القدماء من الكلدانيين ؛ فلم يكن يجهل أصول الطبيعة التى كانت تعرف فى ذلك الوقت ، وكان يعرف مما بعد الطبيعة ما عرف الناس فى كل عصر ، أى قليلا من الأشياء . وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن العام يشتمل على خمسة وستين وثلاث مئة يوم وربع يوم ، على رغم الفلسفة الجديدة فى عصره ، وبأن الشمس هى مركز الكون . وكان يؤثر الصمت فى غير غضب ولا ازدراء إذا قال له كبار الكهنة إنه سيئ العقيدة ، وإن من الخروج على الدولة أن يعتقد الانسان أن الشمس تدور حول نفسها ، وأن العام يأتلف من اثنى عشر شهراً .

وقد اعتقد زديج أن من الممكن أن يكون سعيداً ؛ فقد كان يملك ثروة ضخمة ، وكان له من أجل ذلك أصدقاء كثيرون ، وكان جيد الصحة ، رائق الوجه ، مستقيم العقل ، معتدل المزاج ، له قلب مخلص نبيل ، وكان يزمع التزوج من سمير التى كانت تمتاز من فتيات بابل جميعاً بموادها وجمالها وثروتها . وكان يعطفه عليها ميل نقى متين ، وكانت هى تحبه حباً عنيفاً ، وكانا يدنوان من اللحظة السعيدة التى كانت ستجمع بينهما ؛ ولكنهما ذات يوم كانا يتنزهان معاً عند باب من أبواب بابل فى ظلال النخيل التى تزين شاطئ الفرات ، وإذا هما يريان رجالا يقبلون عليهما مسلحين بالسيوف والسهام ، وكانوا نفراً من أتباع الفتى أوركان قريب أحد الوزراء ، الذى خيل إليه متملقو قريبه الوزير أن كل شيء مباح له . ولم يكن على شيء من ظرف زديج أو خلقه ، ولكنه كان يرى نفسه خيراً منه ، وكان مغيظاً محنقاً لأنه لم يكن آثر عند الناس من زديج . وقد خيلت إليه هذه الغيرة التى لم تأته إلا من الغرور أنه يحب سمير . وقد اختطفها أتباعه وكانوا من العنف بحيث آذوها ببعض الجراحات ، وأسالوا بذلك دم حسناء كان منظرها وحده خليقاً أن يشيع الحنان فى أنمار جبل ايمايوس ، وكانت تشق السماء بصيحات الشكاة ، وكانت تدعو : « أى زوجى العزيز إنى أُنتزع انتزاعاً من أحب الناس إلى » . لم يكن يشغلها ما كانت تتعرض له من الخطر لأنها لم تكن تفكر إلا فى زديج العزيز . وقد دافع عنها زديج بما تنيح الشجاعة والحب من قوة ونجدة ، ولم يكن يعينه إلا عبدان من رقيقه وقد هزم المغيرين مع ذلك ، ورد سمير إلى دارها دامية مغشيا عليها ، فلما أفاقت وفتحت عينيها رأت محررها ، فقالت له : « أى زديج لقد كنت أحبك حب الزوج ، فأما الآن فانى أحبك كما أحب من أنا مدينة له بالشرف والحياة . » ولم ير الناس قط قلباً أشد تأثراً من قلب سمير ، ولا رأى الناس قط فما أشد سحراً يعرب عن شعور ساحر بألفاظ من نار يمليها الاعتراف بالجميل والاندفاع فى الحب الذى يملؤه الحنان من فمها . وكان جرحها يسير ، فبرئت منه فى وقت قصير . أما جرح زديج فكان أشد خطراً ، أصابه سهم قريباً من إحدى عينيه فأحدث جرحاً عميقاً . ولم تكن سمير تطلب إلى الآلهة إلا شفاء عشيقها . وكانت عيناها غارقتين فى الدموع آناء الليل وأثناء النهار ، وكانت تنتظر الوقت الذى تستطيع فيه عينا

زديج أن تستمتعا بتلقى لحظها ؛ ولكن دملا ظهر فى العين الجريحة فأنذر بخطر عظيم . فذهب الرسل وأبعدوا حتى وصلوا إلى منفيس يدعون الطبيب العظيم هرميس الذى أقبل تحف به حاشية ضخمة . وقد فحص المريض ثم أعلن أنه سيفقد عينه . وتنبأ حتى باليوم والساعة اللذين ستقع فيهما هذه الكارثة ، قائلا : « لو قد أصاب الجرح عينه اليمنى لأبرأته ، أما جراحات العين اليسرى ، فليس لها شفاء . » وقد رثت بابل كلها لزديج ، وأعجبت مع ذلك بما امتاز به هرميس من علم عميق . ولم يمض يومان حتى انفجر الدمل من تلقاء نفسه وبرئ زديج برءاً تاما . هنالك ألف هرميس كتاباً أثبت فيه أنه لم يكن من حق زديج أن يظفر بالشفاء . ولم يقرأ زديج هذا الكتاب ، ولكنه لم يكد يستطيع الخروج من داره حتى تهيأ لزيارة تلك التى كانت معقد أمله فى السعادة ، والتى كان حريصاً من أجلها وحدها على أن تكون له عينان . وكانت سمير قد ذهبت إلى الريف منذ ثلاثة أيام . وقد عرف زديج فى طريقه إليها أن هذه الحسناء لم تكد تعلم أن حبيبها قد يفقد إحدى عينيه حتى أعلنت أنها لا تطيق العور وتزوجت أوركان من ليلتها تلك . فلما نمى إليه هذا الخبر خر مغشيا عليه وانتهى به الألم إلى حافة القبر ، وقد طالت علته ، ولكن العقل تغلب على الحزن ، بل وجد شيئاً من العزاء فى قسوة ما عانى من الآلام .

ثم قال لنفسه : « أما وقد لقيت هذا الجموح القاسى من هذه الفتاة التى نشأت فى القصر ، فسأتخذ لى زوجاً من بيئات الشعب » . فاختار أزورا وهى أحكم بنات المدينة وأحسنهن مولداً . فاقترن بها وعاش معها شهراً ملؤه العطف والحنان ، ولكنه لاحظ فيها شيئاً من خفة وميلا شديداً إلى اعتقاد أن أعظم الشبان حظا من الجمال هم أصحاب الحظ العظيم من الفضيلة والذكاء .

الفصل الثانى

الأنف

وذات يوم أقبلت أزورا من نزهتها ، غاضبة ، ثائرة ، صاخبة . قال لها : « ما بك يا زوجى العزيزة ؟ وما عسى أن يخرجك من طورك إلى هذا الحد ؟ » قالت : « واحسرتاه ! لو رأيت المنظر الذى رأيته لهاجك ما يهيجنى من الغضب . لقد ذهبت أعزى الأرملة الشابة خسرو التى أقامت منذ يومين اثنين قبراً لزوجها الشاب . وقد عاهدت الآلهة أثناء حزنها على أن تقيم على هذا القبر ما جرى ماء هذا الجدول قريباً منه . » قال زديج : « هذه امرأة كريمة قد أحبت زوجها حقا . » قالت أزورا : « آه لو عرفت ما كان يشغلها حين زرتها ! » « ماذا كان يشغلها أى أزورا الحسناء ؟ » « كانت تحول الجدول من مجراه » . ثم اندفعت فى لوم طويل وهجاء عنيف حتى ضاق زديج بهذه الفضيلة المتكلفة .

وكان له صديق اسمه كادور ، وكان من بين هؤلاء الشبان الذين كانت أزورا تؤثرهم لأنهم على حظ عظيم من الأمانة والكفاية ؛ فأظهره على جلية أمره ، واستوثق من وفائه بما أهدى إليه من هدايا قيمة . ومضت أزورا لتنفق عند إحدى صديقاتها فى الريف يومين ثم عادت فى اليوم الثالث إلى دارها . وهنالك أعلن إليها الخدم وهم ينتحبون ، أن زوجها قد مات فجاءة من ليلته تلك ، وأنهم لم يجرءوا على أن يحملوا إليها نبأ الفاجعة حيث كانت تستجم ، وأنهم قد فرغوا الآن من دفن زديج فى قبر أسرته هناك فى طرف الحديقة . فأجهشت بالبكاء وانتزعت شعرها ، وأقسمت لتقضين على نفسها بالموت . فلما كان المساء استأذنها كادور فى أن يتحدث إليها فبكيا معاً . فلما كان الغد بكيا أقل مما بكيا أمس وجلسا معاً إلى الغداء . وأسر إليها كادور أن صديقه أوصى إليه بمعظم ثروته ، ثم لمح لها بأنه يرى السعادة فى أن يقاسمها ثروته . هنالك بكت السيدة ثم غضبت ، ثم لانت ، وكان العشاء أطول من الغداء ، وكان الحديث

أدنى إلى الثقة ، وأثنت أزورا على الفقيد ، ولكنها اعترفت بأنه لم يخل من بعض العيوب التي برئ منها كادور .

وفى أثناء العشاء شكا كادور ألماً عنيفاً فى الطحال ، فقلقت السيدة واهتمت، وأحضرت كل ما كان عندها من طيب ، لعلها تجد من بينه ما يكون فيه شفاء للطحال ، وأسفت أشد الأسف لأن هرمس العظيم لم يطل الاقامة فى بابل ، بل تفضلت فلمست موضع الألم من جسم كادور . قالت له فى عطف :« أعرضة أنت لهذا الألم ؟ » قال كادور : « إنه ألم يدنيني غالباً من القبر ، وليس له فيما علمت إلا دواء واحد يستطيع أن يرفه على ، وهو أن يوضع على جنبى أنف رجل مات من أمسه . » قالت أزورا :« يا له من دواء غريب . » قال كادور : « ليس أغرب من تمائم السيد أرنو[1] التى يعالج بها الفالج » . وكان هذا الرد مضافاً إلى كفاية هذا الفتى مقنعاً آخر الأمر للسيدة . قالت : « وأخيراً إذا عبر زوجى من حياة أمس إلى حياة غد على جسر تشينافار ، فلن يرده الملك عزرائيل عن العبور لأن أنفه أقصر قليلا فى حياته الثانية منه فى حياته الأولى » . ثم أخذت موسى ومضت إلى قبر زوجها فسقته بدمعها ، ثم دنت تريد أن تجدع أنف زديج الذى رأته مستلقياً فى قبره . هنالك ينهض زديج حامياً أنفه باحدى يديه ، راداً الموسى باليد الأخرى ، قائلا :« سيدتى لا تلومى الأرملة خسرو فالتفكير فى جدع أنفى كالتفكير فى تحويل الجدول عن مجراه . »

(١) كان يعيش فى بابل لذلك الوقت رجل يسمى أرنو وكان يداوى الفالج ويتقيه بتمائم تعلق فى العنق .

الفصل الثالث

الكلب والجواد

وقد تبين زديج ، كما هو مقرر فى كتاب زند ، أن الشهر الأول من شهور الزواج هو شهر العسل ، وأن الشهر الثانى هو شهر الشبح . ثم اضطر بعد قليل إلى أن يطلق أزورا التى أصبحت بغيضة العشرة وطاب السعادة فى درس الطبيعة . وكان يقول : « ليس أسعد من رجل فيلسوف يقرأ فى هذا الكتاب العظيم الذى نشره الله أمام أعيننا وهو الطبيعة . فالحقائق التى يستكشفها القارئ خالصة له ، يغذو بها نفسه ويرفعها ويعيش هادئاً مطمئنا ، لا يخاف من الناس شيئاً ولا يتعرض لأن تدنو منه زوجه الرفيقة به لتجدع أنفه » .

وقد امتلأ بهذه الخواطر ، واعتزل فى دار ريفية على شاطئ الفرات . وفى هذه الدار لم يكن يشغل نفسه بحساب ما يجرى تحت أفواس الجسور من الماء ، ولا ما يسقط من خط مكعب من المطر فى شهر الفأر أو فى شهر الشاة . ولم يكن يتخيل أن يتخذ الحرير من نسج العنكبوت أو الخزف من حطام القوارير ، ولكنه درس فى عناية خصائص الحيوان والنبات ، ولم يلبث أن انتهى إلى مقدار من الفطنة أظهره على ألف من الفروق بين أشياء لم يكن الناس يرون بينها إلا تشابهاً .

وذات يوم كان يمشى قريباً من غابة صغيرة ، فرأى خصيًّا من خصيان الملكة يسرع إليه ومن ورائه جماعة من الضباط يظهر عليهم قلق شديد ويعدون هنا وهناك كأنهم قوم حائرون يبحثون عن شئ عظيم الخطر قد فقدوه . قال الخصى الأول : « ألم تر كلب الملكة يا فتى؟ » قال زديج فى تواضع : « إنما هى كلبة لا كلب » . أجاب الخصى الأول : « صدقت » . أضاف زديج : « إنها كلبة صغيرة جدًّا ، وقد ولدت منذ وقت قصير وهى تظلع برجلها الأمامية اليسرى ، ولها أذنان مسرفتان فى الطول » . قال الخصى الأول مجهداً : « لقد رأيتها

إذن ؟ » أجاب زديج : « لا ، لم أرها قط ، ولم أعلم قط أن للملكة كلبة » .

وفي الوقت نفسه بالضبط على نحو ما تجرى عليه المصادفات الغريبة أفلت أجمل خيل الملك من يد سائسه وهام فى سهل بابل . وأقبل كبير الساسة ومن ورائه أصحابه يبحث عن هذا الجواد فى لهفة تشبه لهفة الباحثين عن الكلبة . واتجه كبير الساسة إلى زديج يسأله : «أرأيت جواد الملك ؟» قال زديج : « إنه أحسن الجياد ركضاً ، إنه يرتفع فى الجو خمسة أقدام ، وإن حذاءه صغير جدا ، وله ذيل طوله ثلاثة أقدام ونصف قدم ، وشكائم لجامه من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً ، وسنابكه من فضة معيارها أحد عشر دانقاً » . قال كبير الساسة : « أى طريق سلك ؟ وأين يكون ؟ » قال زديج : « لم أره ولا سمعت به قط » .

فلم يشك كبير الساسة ولا الخصى الأول فى أن زديج قد سرق جواد الملك وكلبة الملكة ، فقاداه أمام جماعة القضاة الذين قضوا عليه بالجلد وبأن ينفق ما بقى من حياته فى سيبيريا . ولم يكد الحكم يصدر حتى وجد الباحثون الجواد والكلبة ، واضطر القضاة فى ألم إلى أن يغيروا حكمهم ، ولكنهم قضوا على زديج بغرامة قدرها أربع مئة مثقال من الذهب لإنكاره رؤية ما رأى . ولم يكن بد من أداء الغرامة أولاً ثم يؤذن له بعد ذلك بالدفاع عن نفسه أمام القضاة ، وقد دافع عن نفسه قائلا :

« يا نجوم العدل ، ويا كهوف المعرفة ، ويا مرايا الحقائق ، أنتم الذين لهم ثقل الرصاص ، وصلابة الحديد ، وإشراق الماس ، وكثير من خصال الذهب . أما وقد أذن لى بالحديث أمام هذه الجماعة الجليلة ، فانى أقسم بأورزماد ما رأيت قط الكلبة المحترمة التى نقدتها الملكة ، ولا الجواد المقدس الذى فقده ملك الملوك . وإليكم ما عرض لى : لقد كنت أتنزه قريباً من الغابة الصغيرة حيث رأيت الخصى الجليل والسائس العظيم البعيد الصوت ، فرأيت على الرمل أثر حيوان ، فتفرست فى يسر أنها آثار كلب صغير . ورأيت خطوطا خفافاً طوالا قد طبعت على مرتفعات صغار بين آثار الأرجل ، فعرفت أنها كلبة قد حفلت أطباؤها فتدلت ، وأنها لذلك قد ولدت منذ أيام . ورأيت آثاراً فى اتجاه آخر مجاورة لآثار الرجلين الأماميتين ، فعرفت أن للكلبة أذنين مسرفتين فى الطول . ولاحظت أن الرمل أقل تأثراً باحدى الأرجل منه بالثلاث الأخرى فتبينت أن

كلبة ملكتنا الجليلة عرجاء شيئاًما إن أذن لى فى أن أتحدث على هذا النحو .

« أما جواد ملك الملوك ، فقد كنت أسعى فى طرق هذه الغابة ، فرأيت آثار السنابك لجواد ، ورأيتها كلها تقع على مسافات متساوية فقلت لنفسى هذا فرس كامل الركض . وكان تراب الشجر فى طريق عرضها سبعة أقدام قد زال عن يمين وشمال فى ارتفاع قدره ثلاثة أقدام ونصف قدم ، فقلت لنفسى : « إن لهذا الفرس ذيلا بهذا الطول قد أزال بخطواته التراب عن هذه الأشجار » . ورأيت تحت الشجر الذى يمد من أغصانه مهداً يرتفع خمسة أقدام ورقاً حديث عهد بالسقوط ، فعرفت أن هذا الجواد قد مس الغصون ، وأن ارتفاعه خمسة أقدام . أما شكيمته فيجب أن تكون من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً لأنه حك بها حجراً يقاس به الذهب وقد جربته . ثم عرفت آخر الأمر من آثار سنابكه على حجر من نوع آخر أن هذه السنابك من فضة معيارها أحد عشر دانقا » .

وقد أعجب القضاة جميعاً بدقة زديج وفطنته . وارتفع أمر هذه القصة إلى الملك والملكة ، فلم يكن للناس حديث فى القصر إلا زديج . ومع أن جماعة من الكهنة قد أشاروا بتحريقه لأنه ساحر ، فقد أمر الملك أن ترد إليه غرامة أربع مئة المثقال من الذهب التى فرضت عليه . وقد أقبل الكتاب والحجاب والنواب إلى داره فى موكب عظيم يحملون إليه المثاقيل أربع المئة ، ولم يحتجزوا منها إلا ثلاث مئة وثمانية وتسعين مثقالا على أنها نفقات القضاء ، وطلب خدامهم بعض العطاء .

وقد رأى زديج إلى أى خطر يتعرض الانسان حين يكون واسع العلم ، وعاهد نفسه على ألا يقول ما يرى حين تسنح له أول فرصة .

وقد سنحت هذه الفرصة بعد وقت قصير . فقد هرب سجين من سجن الدولة ومر من تحت نافذته . فلما سئل زديج أجاب بأنه لم ير شيئاً . ولكن الحجة أقيمت عليه أنه كان ينظر من نافذته ، وقضى عليه بغرامة قدرها خمس مئة مثقال من ذهب ، وشكر هو قضاته لأنهم رفقوا به ، كما جرت العادة فى بابل أن يرفع المحكوم عليهم شكرهم إلى القضاة . قال زديج لنفسه : « يا لله ! إن الانسان لخليق بالرثاء حين يتنزه فى غابة مرت بها كلبة الملكة وجواد الملك ، وإنه لخطر أن ينظر الانسان من نافذته ، وإنه لعسير أن يسعد الانسان فى هذه الحياة . »

الفصل الرابع

الحسود

أراد زديج أن يتعزى بالفلسفة والصداقة عما جر الحظ عليه من الآلام . وكانت له فى ضاحية من ضواحى بابل دار أنيقة قد زينت فى ذوق ، جمع فيها ألوان الفنون وضروب اللذات التى تليق بالمثقف الكريم . فكانت خزانة كتبه مفتوحة فى الصباح للعلماء جميعاً ، وكانت مائدته فى المساء ممدودة لكرام الرفاق . ولكنه لم يلبث أن تبين أن خطر العلماء شديد ؛ فقد أثيرت خصومة عنيفة حول قانون من قوانين زرادوشت كان يحظر أكل العنقاء . قال بعضهم : « كيف يحرم أكل العنقاء مع أنها غير موجودة ؟ » وقال بعضهم : « يجب أن تكون موجودة ما دام زرادوشت قد حرم أكلها » . وقد أراد زديج أن يوفق بين المختصمين فقال : « إذا وجدت العنقاء فلنجتنب أكلها ، وإذا لم توجد فليس إلى أكلها سبيل ، وكذلك نطيع جميعاً أمر زرادوشت » .

وكان هناك عالم قد ألف كتاباً من ثلاثة عشر مجلداً فى خصائص العنقاء ، وكان فوق ذلك من كبار أصحاب الكرامات ، فأسرع إلى عظيم من الكهنة يسمى ييبور ، وكان أشد الكهنة حمقاً ، وأشدهم من أجل ذلك تعصباً ، فاتهم أمامه زديج . وكان هذا الكاهن خليقاً أن يذيق زديج عذاب الهون تمجيداً للشمس ، وأن يتلو فى أثناء ذلك كتاب زرادوشت راضى القلب مطمئن الضمير . ولكن الصديق كادور — وصديق واحد خير من مئة قسيس — زار ييبور الشيخ وقال له : « لتحى الشمس ، ولتحى العنقاء ! احذر أن تعاقب زديج ، فهو قديس ، يملك فى داره ضروباً من العنقاء ، ولكنه لا يأكل منها . وخصمه الذى يتهمه صاحب بدعة يزعم أن للأرنب رجلا مشقوقة ، وأنها ليست حيواناً نجساً » . قال ييبور وهو يهز رأسه الأصلع : « هذا حسن فلنعذب زديج لأنه ذكر العنقاء بالسوء ، ولنعذب خصمه لسوء رأيه فى الأرنب » . وقد استطاع

كادور أن يصلح الأمر بواسطة غانية من غوانى الشرف كان قد أولدها ولداً ، وكانت لها مكانة ممتازة عند جماعة الكهنة ، ولم يعذب أحد . فجمجم لذلك بعض العلماء وتنبأوا بسقوط بابل . وصاح زديج : « ما قوام السعادة ؟ كل شئ فى هذا العالم يضطهدنى حتى الكائنات التى لا توجد » . ومقت العلماء وأزمع ألا يحيا إلا مع أصدقاء لذته .

ثم جعل يجمع فى داره أشرف الرجال وأجمل النساء من أهل بابل ، وكان يولم لهم ولائم أنيقة ، ويقوم بين يديها بفنون من الموسيقى وضروب من الأحاديث العذاب التى حرص على أن تبرأ من تكلف النكتة ؛ لأن هذا التكلف هو أقرب الطرق إلى إفساد الذوق وإفساد الصلات بين الناس . ولم يكن للغرور أثر فى تخير الأصدقاء ولا فى تخير أصناف الطعام ؛ لأنه كان يؤثر الحقائق على المظاهر ، فيظفر من الاكبار والتقدير بما لم يكن يريد .

وكان يقيم فى دار أمام داره أريماز ، رجل كان منظره البشع يصور سوء سريرته . كان الحسد يأكل قلبه والكبر ينفخ جسمه ، وكان على ذلك مملا لكثرة تكلفه فى الحديث . لم يتح له النجاح قط فكان يتعزى عن ذلك بالغيبة . وكان على ثرائه يجد أشق الجهد فى أن يجمع حوله المتملقين . وكانت ضوضاء العربات التى تدخل دار زديج كل مساء تؤذيه ، وكان الثناء على زديج يزيده حنقاً إلى حنق . وكان يلم بدار زديج أحياناً ويجلس إلى المائدة دون أن يدعى إليها ، فكان يفسد بمحضره بهجة الجماعة ، كما يقال عن بعض الطير البغيضة : إنها تفسد ما تمس من الطعام . وقد هم ذات يوم أن يولم تكريماً لإحدى السيدات ، ولكنه بدا له فلم يستقبلها وتناول العشاء عند زديج . وكان مرة أخرى يتحدث إلى زديج فى القصر وهما يسعيان ، فلقيهما أحد الوزراء ، وإذا هذا الوزير يدعو زديج إلى طعامه دون أن يدعو صاحبه . وأشد أنواع العداوة لا يعتمد غالباً على أسباب أعظم خطراً من هذه الأسباب التافهة . وقد أزمع هذا الرجل الذى كان يعرف فى بابل كلها بالحسود أن يهلك زديج لأن الناس كانوا يلقبونه بالسعيد . وفرص الإساءة تسنح مئة مرة فى اليوم على حين لا تسنح فرصة الاحسان إلا مرة واحدة فى العام ، كما يقول زرادوشت .

وقد زار الحسود ذات يوم زديج ، فلقيه يتنزه فى الحديقة مع صديقين وسيدة حسناء كان يوجه إليها بين حين وحين بعض الغزل لا يريد به أكثر من قوله .

وكان الحديث يدور حول حرب انتصر فيها الملك على أمير من عماله فى أركانيا . وكاد زديج قد أشاد بشجاعة الملك ، وجعل يثنى عليه ويثنى على هذه السيدة . وقد أخذ لويحة وكتب عليها أبياتاً أربعة دفعها إلى السيدة لتقرأها . فطاب إليه أصدقاؤه أن ينشدهم إياها ، فمنعه من ذلك التواضع أو شئ من الاعتداد بالنفس ، كما يكون عند الرجل الكريم . وكان يعلم أن الشعر المرتجل لا يلائم إلا من وجه إليه من الناس ، فحطم لويحته التى كتب فيها هذه الأبيات شطرين ، وألقاها بين جماعة من الورد ، ثم طال البحث عنهما فى غير غناء . وقد تلبث الحسود فى الحديقة بعد انصراف الجماعة ، وألح فى البحث حتى وجد شطراً من شطرى اللويحة . وكانت اللويحة قد حطمت بحيث أصبح كل شطر من أشطر الأبيات مستقلا يدل على معنى خاص . وأرادت المصادفة الغريبة أن تدل هذه الأبيات المشطورة القصار على معنى يصور أبشع هجاء للملك ؛ فقد كان يقرأ فيها :

بأفبح جريمة
ثبت على العرش
من هو فى السلم العام
عدو وحيد

وقد سعد الحسود لأول مرة فى حياته ؛ فبين يديه ما يمكنه من أن يهلك رجلا خيراً محبباً إلى النفوس . وقد ملأته هذه السعادة القاسية ، فأوصل إلى الملك هذا الهجاء الذى خطته يد زديج ، وإذا زديج يلقى فى السجن ومعه السيدة وصديقاه . ثم نظرت قضيته على عجل دون ان يؤذن له بالدفاع عن نفسه . فلما أحضر ليسمع الحكم عليه مر فى طريقه بالحسود الذى قال له إن شعره سخيف لا قيمة له . ولم يكن زديج يزعم أنه شاعر مجيد ، ولكنه كان غارقاً فى اليأس لأخذه بجريمة هجاء الملك ، ولأنه يرى سيدة وصديقين يظلون فى السجن مع أنهم لم يقترفوا إثماً . ولكن كذلك كانت قوانين بابل . وقد سيق إلى العذاب ، فجعل يسلك طريقه بين جماعة من المستطلعين لا يستطيع أحد منهم أن يظهر رثاء له أو عطفاً عليه ، وإنما كانوا يسرعون إليه لينظروا فى وجهه وليتبينوا أيستقبل الموت مبتسما له ، مرتاحاً إليه . وكانت أسرته

وحدها حزينة لأنه لم يترك لها ميراثاً ؛ إذ كانت ثلاثة أرباع ثروته مصادرة لخزانة الملك وربعها مصادراً مكافأة للحسود .

وبينما كان زديج يتهيأ للقاء الموت طارت ببغاء الملك من إحدى شرفات القصر إلى حديقة زديج فوقعت على جماعة من الورد . وهناك كانت خوخة قد سقطت من إحدى الأشجار فأصابت قطعة من لويحة من لويحات الكتابة فلصقت بها . واحتملت الببغاء الخوخة وما لصق بها ، ومضت حتى وضعت ذلك فى حجر الملك . وكان الملك طلعة ، فقرأ فى هذه القطعة من اللويحة كلمات لاتدل على شئ ولكنها تشبه أن تكون قوافى لبعض الشعر ، وكان يحب الشعر . وللملوك الذين يحبون الشعر حظ من سعة الحيلة ، فدعته مغامرة ببغائه إلى التفكير . وكانت الملكة تذكر ما كتب على القطعة التى حملها حاسد زديج فأمرت باحضارها . فعورضت القطعتان ، وتبين أنهما تتفقان اتفاقاً تاما ، وهنالك قرئت الأبيات كما كتبها زديج ، فاذا هى كما يأتى :

لقد رأيت الأرض تملؤها اضطراباً أعظم الجرائم
وقد ثبت الملك على العرش قادراً على ضبط كل شئ
وإذا وسعت السلم كافة الناس فالحب وحده هو الذى يثير الحرب
وهو العدو الوحيد الذى يجب أن يخاف .

وما هى إلا أن يأمر الملك باحضار زديج ليمثل بين يديه ، وبأن يخرج من السجن صاحباه والسيدة الجميلة . فلما مثل زديج بين يدى الملك والملكة قبل الأرض بين أيديهما ، وتوسل إليهما أن يغفرا له هذه الأبيات الرديئة التى اقترفها ، وقد تحدث فى ظرف ولباقة وذكاء ، فرغب الملك والملكة فى أن يريله . وقد عاد فازداد إعجابهما به ، وقد أهديت إليه ثروة الحسود الذى كاد له بغير الحق . ولكن زديج رد هذه الثروة إلى الحسود الذى لم يتأثر إلا بأن ثروته قد ردت إليه . وقد جعل رضا الملك عن زديج يزداد من يوم إلى يوم ؛ فكان يحضره كل لذاته ويشاوره فى كل أعماله . وجعلت الملكة منذ ذلك الوقت تنظر إليه فى شئ من العطف كان خليقاً أن يصبح خطراً عليها وعلى زوجها الملك العظيم وعلى زديج وعلى الدولة كلها . وجعل زديج يظن أن ليس من العسير أن يكون الانسان سعيداً .

الفصل الخامس

الكريم

وقد أقبل العيد الذى كان يقام فى بابل كل خمسة أعوام . وكانت العادة قد جرت بأن يعلن فى بابل كل خمس سنين اسم الرجل الذى أتى عملا يدل على الكرم والفضل . وكان العظماء والكهان هم القضاة . وكان محافظ المدينة يعرض أمام القضاة أحسن ما أبلى الناس من بلاء أثناء ولايته للحكم. ثم يتداول القضاة وينطق الملك بالحكم . وكان الناس يأتون إلى هذا الحفل من أقصى الأرض . وكان الفائز يتلقى من يد الملك كأساً من الذهب الخالص مرصعة بنفيس الجوهر ، ويسمع من الملك هذه الكلمات : « تقبل جائزة الكرم هذه وليكثر الله بين رعيتى من أمثالك » .

فلما كان يوم العيد ظهر الملك على عرشه يحف به وجوه الدولة وكهانها ونواب الأقاليم الذين أقبلوا يشهدون هذا اليوم الذى لا يكتسب فيه المجد بسباق الخيل ولا باصطراع المصطرعين ، وإنما يكتسب بالاستباق إلى الفضيلة والتنافس فى الخير . وقد عرض محافظ المدينة بصوت جهورى الأعمال النبيلة التى تؤهل أصحابها لهذه الجائزة السامية. فلم يذكر كبر النفس الذى أتاح لزديج أن يرد على الحسود ثروته، فلم يكن هذا العمل من الأعمال التى تهيئ صاحبها للاشتراك فى هذه المسابقة.

وإنما قدم أول الأمر اسم قاض دفع فى بعض القضايا إلى خطأ لم يكن مسئولا عنه ، فنزل عن ثروته كلها للخصم الذى خسر قضيته بهذا الخطأ ، وكانت ثروة القاضى تعدل ما خسر الخصم .

ثم قدم بعد ذلك اسم فتى كان يحب فتاة أشد الحب ، ويريد أن يتخذها له زوجا ، ولكنه علم أن لها محباً يكاد يهلكه الحب فنزل له عنها . ثم لم يكتف بهذه المكرمة وإنما أدى المهر من ماله الخاص .

ثم قدم بعد ذلك اسم جندى أبلى فى حرب هيركانيا بلاء حسناً يتضاءل بالقياس إليه بلاء سابقيه ؛ فقد اختطف جنديان من جيش العدو خليلته وكان

يدافع عنها ليستردها منهما ، وإذا النبأ يصل إليه بأن جنوداً آخرين من جيش العدو يريدون أن يختطفوا أمه غير بعيد منه ، فترك خليلته باكياً وأسرع فاستنقذ أمه ، ثم عاد إلى خليلته فوجدها تحتضر . فهم أن يقتل نفسه حزناً ، ولكن أمه بينت له أنه وحيدها وليس لها عائل غيره ، فكان له من الشجاعة ما أعانه على احتمال الحياة فى سبيل أمه .

وكان القضاة يميلون إلى هذا الجندى . ولكن الملك قال : « إن بلاءه وبلاء من سبقه حسن ، ولكنه لا يدهشنى ، أما زديج فقد أبلى أمس بلاء راعنى ؛ فقد غضبت منذ أيام على وزيرى وعلى أثيرى كوريب ، وكنت ألومه فى عنف شديد ، وكانت الحاشية كلها تؤكد لى أنى كنت به رفيقاً ، وكانوا جميعاً يستبقون أيهم يكون أشد إساءة فى القول إلى كوريب . فسألت زديج عن رأيه فيه ، فاذا هو يجترئ فيثنى عليه . وأعترف أنى قرأت فى تاريخنا أن الناس كثيراً ما أصلحوا خطأهم بانفاق أموالهم كلها ، وأنهم كثيراً مانزلوا عن خليلاتهم وآثروا أمهاتهم على عشيقاتهم ، ولكنى لم أقرأ قط أن رجلا من أهل القصر استطاع أن يثنى على وزير مقال قد غضب عليه ملكه غضباً شديداً. وإنى أمنح كل واحد من هؤلاء الأبطال عشرين ألف دينار ذهباً خالصاً ، ولكنى أخص بالكأس زديج . »

قال زديج :

— مولاى ! إن جلالتك وحدها هى التى تستحق الجائزة ؛ لأنها أتت عملا لا نظير له فى الروعة ، فأنت يا مولاى ملك ، وأنت مع ذلك لم تغضب على عبدك حين اجترأ على أن يعارضك وأنت مغيظ .

وقد أعجب الناس بالملك وبزديج . وتلقى القاضى الذى نزل عن ثروته، والعاشق الذى زوج خليلته من صديقه ، والجندى الذى آثر سلامة أمه على عشيقته هدايا الملك ، ورأوا أسماءهم تسجل فى سجل الكرماء ، وتلقى زديج الكأس . واشتهر الملك بأنه ملك عظيم خير ، ولكنه لم يحتفظ بهذه الشهرة وقتاً طويلا . واختص هذا اليوم بأعياد أطول مما قرر القانون . وما زال الناس يذكرون هذه الأعياد فى آسيا إلى الآن . وكان زديج يقول :« إنى إذن لسعيد . » ولكنه كان مخطئاً .

الفصل السادس

الوزير

وقد فقد الملك وزيره الأكبر ، فاختار زديج ليشغل هذا المنصب ، وصفقت لهذا الاختيار حسان بابل جميعاً . فلم تعرف الدولة منذ إنشائها وزيراً له هذا الشباب . وحزن رجال القصر جميعاً حتى انتهى الأمر بالحسود إلى السل الذى انتهى به إلى أن يبصق دماً ، وورم أنفه ورماً مروعاً . أما زديج فقد رفع شكره إلى الملك والملكة ثم ذهب ليهدى شكره إلى الببغاء قائلا لها : « أيها الطائر الجميل ! لقد أنقذت حياتى وجعلتنى وزيراً أكبر . ما أكثر ما أساءت إلىّ كلبة الملكة وجواد الملك ، وما أكثر ماقدمت إلىّ أنت من الاحسان ! وكذلك يتعلق مصير الناس بأوهى الأسباب . » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « ولكن هذه السعادة الغريبة خليقة أن يكون أمدها قصيراً . » قالت الببغاء : «نعم! » فوجم زديج لهذا الجواب ، ولكنه على ذلك كان عالماً بطبائع الأشياء والأحياء، وكان يعرف أن الببغاء لم تطلع قط على علم الغيب ، فلم يلبث أن عاد إلى الثقة والاطمئنان ، ونهض بأعباء الوزارة على أحسن وجه ممكن .

فأشعر الناس جميعاً بما للقوانين من سلطان مقدس ، ولم يشعر أحداً ما بثقل كبريائه الخاصة ، ولم يفرض رأيه على الديوان ، وإنما كان لكل وزير أن يجهر برأيه دون أن يسوءه أو يتعرض لسخطه . وكان إذا جلس للقضاء لم يقض هو ، وإنما كان يترك القضاء للقانون ، ولكنه كان يلطف القانون إن آنس فيه قسوة أو غلوًّا فى العنف . وكان إذا حدثت واقعة لم يعرض لها القانون قضى فيها بالعدل حتى كأنه زرادوشت .

فمنه تعلمت الأمم هذا المبدأ الخطير ، وهو أن إنقاذ المجرم خير من الحكم على البرئ . وكان يعتقد أن القوانين شرعت لإغاثة المواطنين كما شرعت لإخافتهم . وكان يمتاز بالحرص على إظهار الحقيقة التى يحرص الناس كلهم على إخفائها .

ولم يكد ينهض بأعباء الحكم حتى انتفع فيه بذكائه كله . وكان تاجر كبير من تجار بابل قد قضى نحبه فى الهند ، وكان قد قسم ثروته بين ابنيه قسمة عدلا ، على أن يزوجا أختهما ، ثم ترك ثلاثين ألف دينار ذهباً على أن تكون منحة لأى ابنيه يظهر أنه أشد حبا لأبيه . فأما الابن الأكبر فاتخذ لأبيه قبراً ؛ وأما ابنه الأصغر فزاد من نصيبه فى الميراث مهر أخته ، وكان الناس يقولون : « إن الابن الأكبر مؤثر أباه على حين أن الابن الأصغر يؤثر أخته ، فللابن الأكبر يجب أن تؤول هذه الثلاثون ألفاً من الدنانير . »

أما زديج فدعاهما إلى المثول بين يديه واحداً فى إثر صاحبه . وقال للأكبر: « إن أباك لم يمت ، وإنما برئ من علته الأخيرة وعاد إلى بابل . » قال الفتى: « الحمد لله ولكن هذا القبر قد كلفنى كثيراً من المال ! » قال زديج للابن الأصغر ما قاله لأخيه فقال : « الحمد لله لأردَّن إلى أبى نصيبى من الميراث ، ولكنى أود لو ترك لأختى ماقدمت إليها منه . » قال زديج : « لن ترد شيئاً وستساق إليك الثلاثون ألفاً من الدنانير ، فأنت الذى تؤثر أباك بالحب . »

وكانت فتاة عظيمة الثراء قد وعدت كاهنين بالزواج ، وبعد أن تثقفت أشهراً على الكاهنين أصبحت حاملا ذات يوم . وكان كلا الكاهنين يريد أن يتخذها لنفسه زوجاً . أما هى فأعلنت أنها لن تختار منهما إلا الذى أتاح لها أن تمنح الدولة مواطناً جديداً . قال أحدهما : « فأنا الذى أتاح لها هذا المواطن . » قال الآخر : « بل أنا الذى أتيحت له هذه المزية . » قالت الفتاة: « فإنى أختار منكما أيكما يكون أقدر على أن يربّى الطفل تربية ممتازة . » وقد ولدت غلاماً وتنافس الكاهنان فى تربيته . وقد رفعت القضية إلى زديج ، فدعا الكاهنين وقال لأولهما: «ماذا تريد أن تعلم الصبى ؟ » قال الكاهن : « سأعلمه الخطابة والمنطق والفلك وخصائص الشياطين ، وسأعلمه حقيقة الجوهر والعرض والمجرد والمركب ، والوحدات التى يتألف منها الكون والنظام الذى سبق به القضاء . » وقال الكاهن الآخر :«سأحاول أن أجعله عدلا خليقاً بأن يكون له أصدقاء . » قال له زديج : « لتكن أباه أو لاتكن ، فأنت الذى سيتزوج أمه» .

وكانت الشكوى ترتفع إلى القصر فى كل يوم من حاكم ميديا ، وكان يسمى ايراكس ؛ فقد كان سيداً عظيما كريم الطبع قد أفسده الغرور وحب اللذة ، وكان لا يكاد يحتمل أن يتحدث إليه الناس ولا يسمح بأن يخالفه

مخالف . ولم يكن الطاووس أشد منه غروراً ، ولم يكن الحمام أشد منه إيثارا للذة ، ولم تكن السلحفاة أشد منه حباً للكسل . ولم يكن ينعم إلا بالمجد الباطل واللذة الكاذبة . وقد حاول زديج إصلاحه .

فأرسل إليه من قبل الملك موسيقياً بارعاً يصحبه اثنا عشر من المغنين وأربعة وعشرون من الموقعين ، وأرسل إليه مع هؤلاء قيما على الخدمة ومعه ستة من السعاة وأربعة من الحجاب لم يكن يباح لهم أن يتركوه ؛ وصدر أمر الملك باتباع النظام الآتى دون مخالفة عنه أو خروج عليه . وإليك كيف نفذ هذا النظام .

لم يكد إيراكس يفيق من نومه فى اليوم الأول حتى دخل عليه أستاذ الموسيقى ومعه المغنون والموقعون ، فغنوا له أغنية استمرت ساعتين ، وكان يتردد فيها كل ثلاث دقائق هذا الكلام :

ما أحسن بلاءه
ما أجمله ! ما أعظم خطره !
ما أجدر مولانا
بأن يرضى عن نفسه !

فلما فرغ المغنون تقدم أحد الحجاب فألقى بين يديه خطبة استمرت ثلاثة أرباع الساعة لم تشتمل إلا على الثناء عليه بما ليس فيه . فلما انتهت الخطبة قيد إلى المائدة على نغم الموسيقى وقد اتصل الغداء ثلاث ساعات لم يكن يهم فيها بالكلام حتى يقول الحاجب الأول : « لن يقول إلا صواباً . » ولا يكاد ينطق بكلمات أربع حتى يقول الحاجب الثانى : « لقد أصاب . » ويضحك الحاجبان الآخران مما قال أو مما كان يمكن أن يقول . فاذا فرغ من غدائه أعيدت عليه الأغنية .

وقد وجد فى يومه الأول لذة أى لذة ، واعتقد أن الملك إنما أراد أن يعطيه حقه من التكريم ، فلما كان اليوم الثانى وجد فيه من اللذة أقل مما وجد فى اليوم الأول . فلما كان اليوم الثالث ضاق به شيئاً . فلما كان اليوم الرابع لم يستطع له احتمالا . فلما كان اليوم الخامس وجد فيه عذاباً شديداً . ثم ضاق آخر الأمر بكثرة ما كان يقال له من أنه خليق أن يرضى عن نفسه ، وبكثرة ما كان يقال له لقد أصاب ، وبكثرة ما كان يلقى بين يديه من الخطب

فى ساعة معينة من كلَ يوم . فكتب إلى القصر يتوسل إلى الملك فى أن يتفضل فيسترد حجابه ومغنيه وخدامه ، ويعد بأنه سيحرص على أن يكون فى مستقبل أيامه قليل الغرور كثير النشاط ، ثم أعرض عن الثناء الباطل واللذة الكاذبة وأصبح سعيداً . « فان اللذة المتصلة ليست من اللــذة فى شئ » ، كما يقول الكتاب المقدس للبراهمة .

الفصل السابع

الاستقبالات والخصومات

وكذلك كان زديج يظهر فى كل يوم دقة ذكائه وكرم نفسه . وكان الناس يعجبون به ، وكانوا مع ذلك يحبونه ، ويرون أنه أسعد الناس ، وكان اسمه يملأ الدولة كلها ، وكان النساء جميعاً ينظرن إليه ، وكان المواطنون جميعاً يثنون على عدله ، وكان العلماء يرون أن مكانه منهم مكان الوحى ، وكان الكهنة أنفسهم يعترفون بأنه يحيط من العلم بأكثر مما يحيط به عظيمهم الشيخ يبور . وكان العهد بعيداً بقضية العنقاء . ولم يكن الناس يقبلون إلا ما كان زديج يرى أنه خليق بالقبول .

وكانت فى بابل خصومة عظيمة قديمة قد اتصلت منذ خمسة عشر قرناً ، وانقسمت لها الدولة إلى فريقين متعاديين . أحدهما كان يرى ألا يجوز أن يتخطى الداخل عتبة المعبد لترا إلا بقدمه اليسرى ، والآخر كان يمقت هذه العادة أشد المقت ، ولا يدخل المعبد إلا برجله اليمنى . وجعل الناس ينتظرون يوم العيد الأكبر للنار المقدسة ليروا أى المذهبين يؤثر زديج . وكانت أعين العالم كله تتجه إلى رجليه ، وكانت المدينة كلها مضطربة قلقة . ولكن زديج دخل المعبد وثباً فلم يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ثم بين للناس فى خطبة رائعة أن إله السماء والأرض الذى لا يختص أحداً بفضله لا يؤثر قدماً على قدم سواء أكانت اليمنى أو اليسرى .

وقد زعم الحسود وامرأته أن خطبته لم تشتمل على مقدار ملائم من المجاز

وأنه لم يرقص فيها التلال والجبال . وكانا يقولان إن خطبته جافة لا براعة فيها ، فليس يرى فيها البحر هارباً ولا النجوم متساقطة ولا الشمس ذائبة كما يذوب الشمع ، فليس له الأسلوب الشرقى الجميل . أما زديج فكان يكفيه أن يكون أسلوبه ملائماً لعقله . وقد سار الناس كلهم على أثره ، لا لأنه كان على الصراط المستقيم ، ولا لأنه كان حريصاً على موافقة العقل ، بل لأنه كان الوزير الأول .

وهو كذلك قد قضى قضاء حسناً بين الكهنة البيض والكهنة السود . وكان البيض يزعمون أن من الاثم أن يتجه الناس إلى المشرق إذا صلوا فى الشتاء ، وكان السود يؤكدون أن الله يكره الذين يصلون إلى المغرب فى الصيف ، فأمر زديج أن يولى الناس وجوههم فى الصلاة حيث يشاءون . وقد نظم وقته ، فكان يصرف الأعمال الخاصة والعامة فى الصباح ، وينفق بقية اليوم فى تجميل بابل . وكان يأمر بتمثيل المأساة التى تبكى والملهاة التى تضحك . وقد أحيا هذه العادة بعد أن ماتت لأنه كان عظيم الحظ من الذوق . ولم يكن يزعم أنه يعرف الفن خيراً من أهله ، وإنما كان يكافئ أصحاب الفن بالمال وأنواع التمييز ولا يخفى الغيرة من تفوقهم . فاذا كان المساء فرغ لتسلية الملك والملكة خاصة . وكان الملك يسميه الوزير الأكبر ، وكانت الملكة تسميه الوزير الظريف ، وكانا يضيفان كلاهما أن الدولة كانت تتعرض بفقده لشر عظيم .

ولم يتح لوزير قط أن يستقبل السيدات بمقدار ما كان يستقبلهن . وكان أكثر من يسعين إليه يعرضن عليه أموراً لا تعنيهن ليحدثن بينهن وبينه أموراً ذات بال . وكانت زوج الحسود منهن فى الطليعة ، وقد أقسمت له بمترا وبالزند أفستا وبالنار المقدسة ، أنها كرهت سيرة زوجها معه ، ثم أسرت إليه بعد ذلك أن هذا الزوج غيور عنيف ، ثم لمحت له بأن الآلهة يعاقبونه على ذلك فيحرمونه الاستمتاع بهذه النار المقدسة التى ترفع الناس إلى مكان الخالدين . ثم أسقطت رباط جوربها وقد التقطه زديج فى أدبه المألوف ، ولكنه لم يرده إلى موضعه من ساق السيدة . وكانت هذه الغلطة — إن صح أن تكون غلطة — مصدراً لخطوب منكرة شداد . لم يفكر زديج فى هذه الغلطة ،ولكن امرأة الحسود أطالت فيها التفكير .

وجعلت سيدات أخر يزرنه فى كل يوم . وقد سجل التاريخ السرى لمدينة بابل أنه هفا هفوة واحدة ، ولكنه دهش أشد الدهش لأنه لم يجد فى هذه

الهفوة لذة ،.ولأنه كان يقبل خليلته لاهياً عنها . وكانت المرأة التى ميزها بهفوته هذه وهو لا يكاد يلتفت إليها وصيفة من وصائف الملكة استارتيه . وكانت هذه البابلية الرقيقة تقول لنفسها ملتمسة العزاء : « يجب أن يكون هذا الرجل كثير الهموم إلى حد أنه يفكر فى همومه أثناء الحب .» وقد أفلتت من زديج فى الساعة التى لا يقول الناس فيها شيئاً أو لا يقولون فيها إلا ألفاظاً مأثورة كلمة نطق بها عن غير وعى ، وهى :« الملكة » . فظنت البابلية أنه قد ثاب إلى نفسه آخر الأمر ، وأنه يدعوها ملكته . ولكن زديج مضى فى ذهوله حتى نطق باسم الملكة استارتيه . وخيل إلى السيدة فى هذه اللحظة السعيدة أنه كان يقول لها إنها أجمل من الملكة استارتيه . وقد خرجت من قصر زديج ومعها طرف كثيرة . فما هى إلا أن تزور زوج الحسود وكانت لها صديقاً حميماً، فتقص عليها مغامرتها تلك . وتغار هذه لأن زديج آثر عليها صاحبتها . قالت : « إنه لم يتنزل حتى إلى أن يضع لى رباط الجورب هذا فى موضعه ، ولقد كرهت هذا الرباط منذ ذلك اليوم . » قالت السيدة السعيدة للسيدة الحسود : « إنك لتتخذين لجواربك نفس الرباط الذى تتخذه الملكة . لعلكما تشتريانه من صانعة واحدة. » ففكرت زوج الحسود طويلا ولم تقل شيئاً ،ثم أظهرت زوجها الحسود على القصة كلها .

وكان زديج فى أثناء ذلك يلاحظ أن شيئاً من الذهول يصيبه حين يقضى وحين يستقبل ، ولم يكن يعرف كيف يعلل هذا الذهول .

وقد رأى فيما يرى النائم كأنه كان مستلقياً على عشب جاف فيه شوكات تؤذيه . ثم كأنه بعد ذلك قد كان نائماً على سرير من الورد ، فخرج منه ثعبان لدغ موضع القلب منه بلسانه الدقيق الحاد المسموم . وكان يقول لنفسه : « واحسرتاه ! لقد نمت طويلا على العشب الشائك ، ثم هأنذا الآن أنام على سرير من الورد ، فما عسى أن يكون هذا الثعبان ؟ »

الفصل الثامن

الغيرة

وقد جاء شقاء زديج من سعادته نفسها ومن كفايته بنوع خاص . فقد كان يخلو في كل يوم إلى الملك فيتحدث إليه و إلى زوجته الجليلة أستارتيه . وكان سحر حديثه يزداد لحرصه على أن يثير الاعجاب . ومكان هذا الحرص من النفوس مكان الزينة من الأجسام . وقد أثر شبابه وظرفه في نفس استارتيه تأثيراً لم تفطن له أول الأمر ، فجعل حبها ينمو في ظل البراءة . وكانت استارتيه تستمتع غير متحفظة بالنظر والاستماع إلى فتى عزيز على زوجها الملك وأثير عند الدولة كلها . ولم تكن تكف عن الثناء عليه عند الملك والتحدث عنه إلى وصائفها اللاتي كن يضفن إطراء إلى إطراء . وكان كل شيء يعين على أن ينفذ في قلبها ذلك السهم الذي لم تكن تشعر به . وكانت تهدى إلى زديج من الهدايا ما يدل على الميل أكثر مما كانت تقدر ، وكانت تظن أنها إنما تتحدث إليه كما تتحدث الملكة إلى وزير قد رضيت عن عمله ، على حين أنها إنما كانت تتحدث إليه حديث امرأة رقيقة مرهفة الحس .

وكانت أستارتيه أروع جمالا وأبرع حسناً من سمير تلك التي كانت تكره العور ومن تلك المرأة التي كادت تجدع أنف زوجها. وما هي إلا أن يثير تبسط أستارتيه مع زديج ، وحديثها الرقيق الذي أخذ يسبغ على وجهها شيئاً من حمرة ، ولحظها الذي كانت تريد أن تحوله ولكنه كان يستقر على لحظه هو فيذكي في قلبه ناراً دهش لها دهشاً شديداً . وقد قاوم ، واستعان بالفلسفة التي كانت تعينه كل ما التمس عندها العون ، ولكنها في هذه المرة لم تمدده إلا بنور المعرفة دون أن تخفف من وجده شيئاً . وكان الواجب وعرفان الجميل وجلال الملك، كل أولئك يتمثل له كأنه آلهة الانتقام . كان يقاوم وكان ينتصر . ولكن هذا الانتصار الذي كان يجب أن يظفر به كل ساعة كان يكلفه كثيراً من

من الأنين والدموع . وقد أصبح لا يجرؤ على أن يتحدث إلى الملكة فى تلك الحرية الحلوة التى كانت تسحرهما جميعاً . وكان إذا لقى الملكة غشيت عينيه سحابة وتقطّع حديثه واختلط ، فكان يغض بصره ، فاذا تحول لحظه على رغمه نحو الملكة رأى عينيها يبللهما الدمع وتنطلق منهما فى الوقت نفسه سهام من نار ، وكأنما كان كل منهما يقول لصاحبه : « إن الحب يشغفنا ولكننا نخاف الحب ، وإن ناراً واحدة تحرقنا ولكننا نبغض هذه النار . »

وكان زديج يخرج من عندها هائماً واجماً قد أثقل قلبه عبء لا قبل له باحتماله . وقد تجاوز الهيام به حده ، فأظهر صديقه كادور على مكنون سره ، وكان يشبه فى ذلك رجلا شق عليه الألم حتى أضناه فانتزع منه صيحة شاكية وأسال على جبهته عرقاً بارداً ، فظهر من أمره ما كان مستوراً .

قال كادور : « لقد تبينت هذا الشعور الذى كنت تريد أن تخفيه حتى على نفسك ؛ فان للعواطف الجامحة آيات ليس إلى الشك فيها سبيل . فقدّر أيها الصديق العزيز ، وقد استطعت أنا أن أقرأ فى قلبك ، كيف تكون حال الملك لو قرأ فى هذا القلب بعض ما يهينه ! فليس للملك عيب إلا أنه أشد الناس غيرة . إنك تقاوم حبك فى قوة أشد مما تبذل الملكة لمقاومة حبها . ومصدر ذلك أنك فيلسوف ، وأنك أنت زديج . أما استارتيه فامرأة ، وهى تبيح للحظها أن يتكلم فى غير تحفظ ؛ لأنها مازالت تعتقد أنها غير آثمة . وهى مع الأسف قد اطمأنت إلى براءتها ، فيدعوها ذلك إلى الاهمال فى التحفظ والاحتياط بالقياس إلى أشياء خارجية لا ينبغى أن تهمل ، وسأظل مشفقاً عليها ما لم تقترف شيئاً تلوم نفسها فيه . ولو قد اتفقتما لهان عليكما خداع الرقباء . فالحب الناشئ المكبوت لابد من أن يفتضح ، أما الحب الذى ظفر بالرضا فهو قادر على أن يستخفى . » وقد اضطرب زديج لهذه الفكرة التى تغريه بخيانة الملك وهو الذى أحسن إليه ، ولم يبلغ من الوفاء للملك قط مثل مابلغ حين تبين أنه قد تورط فى هذه الخطيئة عن غير إرادة منه . ومع ذلك فقد كانت الملكة تكثر من ذكر زديج ، وكانت الحمرة تغشى وجهها كلما ذكرته ، وكانت حين تتحدث إليه بمحضر الملك تتحمس حيناً وتنقطع حيناً ، وكانت تغرق فى التفكير العميق إذا خرج ، حتى أثار هذا كله شيئاً من الاضطراب فى نفس الملك ، فصدق كل ما رأى وتخيل كل ما لم ير ، ولاحظ بنوع خاص أن حذاء امرأته كان أزرق ،

وأن حذاء زديج كان أزرق ، وأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وأن قلنسوة زديج كانت صفراء . وكانت هذه الأشياء كلها آيات خطيرة بالقياس إلى ملك مترف . وما هي إلا أن يتحول الشك إلى يقين فى نفسه الساخطة .

وخدام الملوك والملكات جميعاً جواسيس على قلوبهم . فما أسرع ماتبين هؤلاء الخدم أن استارتيه عاشقة ، وأن مؤبدار غيران. وأغرى الحسود امرأته بأن ترسل إلى الملك رباط جوربها الذى يشبه رباط جورب الملكة . وكان هذا الرباط ، لشقاء زديج ، أزرق ، فلم يفكر الملك بعد ذلك إلا فى الانتقام . وأزمع فى ذات ليلة أن يميت الملكة مسمومة ، وأن يميت زديج مشنوقاً . إذا أسفر الصبح . ثم صدر الأمر بذلك إلى خصى قاس من خصيانه موكل بانتقامه . وكان فى غرفة الملك حين أصدر هذا الأمر قزم أخرس ولكنه سميع ، وكان يخالط الملك ولا يخفى عليه من أمر القصر شئ كأنه بعض الحيوان المستأنس . وكان هذا الأخرس القزم وفيا للملكة ولزديج . فلما سمع الأمر بموتهما أحس دهشاً لا يعدله إلا ما أحس من هول . ولكن كيف السبيل إلى اتقاء هذا الأمر الفظيع الذى يوشك أن ينفذ فى ساعات قلائل ؟ لم يكن القزم يحسن الكتابة ، ولكنه كان يحسن التصوير ويجيد المقاربة بين الصورة والأصل. فأنفق شطراً من الليل فى رسم ما كان يريد أن يؤدى إلى الملكة من المعنى . وكان رسمه يصور الملك مغيظاً محنقاً مصدراً أمره إلى الخصى ، ومائدة غير بعيدة قد ألقى عليها حبل أزرق ورباط جورب أزرق وشريط أصفر وقام عليها إناء . والملكة فى وسط اللوحة تحتضر بين أذرع وصائفها ، وزديج مخنوق تحت قدميها . وكان الأفق يصور طلوع الشمس ، ليدل بذلك على أن هذا الأمر المنكر سينفذ إذا أسفر الصبح . فلما أتم صورته أسرع إلى وصيفة من وصائف الملكة وأفهمها أن هذه الصورة يجب أن تصل إليها من الفور .

وفى أثناء الليل طرق باب زديج ثم أوقظ ودفعت إليه رسالة من الملكة. فيشك فى أنه حالم أو عالم ، ثم يفض الرسالة بيد مرتعشة . فأى دهش وأى حزن أصابه حين قرأ هذه الكلمات :

« النجاء فى هذه اللحظة وإلا فقدت حياتك ! النجاء يا زديج إنى آمرك بذلك وأستحلفك بحبنا وبشرائطى الصفر . لم أكن آثمة ولكنى أشعر بأنى سأموت مجرمة . »

ولم يكد زديج يجد القوة على الكلام ، فأمر بدعاء كادور . ولم يقل له شيئاً ، وإنما دفع إليه الرسالة . فأكرهه كادور على الطاعة ، على أن يأخذ من فوره الطريق إلى ممفيس . قال له : « إن حاولت لقاء الملكة عجلت موتها ، فاذا تحدثت إلى الملك عجلت موتها كذلك . فعلىّ أن أدبر أمرها ، فدبر أنت أمرك . وسأذيع أنك سلكت طريقك إلى الهند . وسألحق بك بعد قليل وأنبئك بما يكون قد حدث فى بابل من الخطوب . »

وفى الوقت نفسه أمر كادور بإعداد نجيبين خفيفين سريعين أمام باب خفى من أبواب القصر ، وحمل على أحدهما زديج حملا ، فلم يكن يستطيع أن يسعى ، وإنما كان يوشك أن يموت حزناً ، وصحبه خادم واحد .وما هى إلا ساعة حتى كان كادور غارقاً فى حزن عميق وقد غاب صديقه من بصره .

ومضى هذا الهارب العظيم ، حتى إذا بلغ تلا مشرفاً على بابل التفت إلى قصر الملكة ثم أغمى عليه ، ولم يفق من إغمائه إلا ليسفح الدمع ويتمنى الموت . فلما قضى حق الملكة التى هى أحب النساء إلى القلوب وأبعد الملكات صوتاً فى الآفاق ، وفكر فيما قضى عليها من شقاء ، عاد إلى نفسه وفكر فى أمره، ثم صاح قائلا : « ما حياة الناس إذن ؟ أيتها الفضيلة بماذا نفعتنى ؟ لقد خانتنى امرأتان وهذه الثالثة لم تقترف إثماً وقد قضى عليها الموت . كل ما فىّ من خير كان مصدر شقاء لى . ولم أرتفع إلى أرقى المراتب إلا لأهوى إلى الدرك الأسفل من الشقاء . ولو قد كنت شريراً ككثير من الناس لظفرت بما يظفرون به من السعادة . » ومضى فى طريقه إلى مصر تثقله هذه الخواطر المهلكة ، ويغشى عينيه سحاب الألم ، وتعلو وجهه صفرة الموت ، وقد هوت نفسه من أعماق اليأس إلى قرار سحيق .

الفصل التاسع

المرأة المضروبة

مضى زديج يهتدى بالنجم فى طريقه ، وكانت الجوزاء والشعرى تقودانه نحو كانوب ، وهو يعجب بهذه الكرات الضخمة من الضوء التى لا تظهر لأعيننا إلا كمستصغر الشرر ،على حين تظهر الأرض لمطامعنا شيئاً عظيما جليل الخطر ، مع أنها ليست فى حقيقة الأمر إلا نقطة ضئيلة فى الكون . وكان يرى الناس كما هم فى الواقع جماعات من الحشرات يأكل بعضها بعضاً على ذرة ضئيلة من الطين . وهذه الصورة الصادقة كانت تلغى شقاءه إلغاء ؛ لأنها تضائل من شخصه ومن مدينة بابل نفسها . وكانت نفسه تتجرد من شخصيته وتثب نحو آفاق اللانهاية ، وتلاحظ هذا النظام المستقر الذى يمضى عليه الكون . ولكنه حين كان يثوب إلى نفسه ويتعمق دخيلة قلبه لم يكن يستطيع إلا أن يفكر فى أن استارتيه قد تعرضت لأعظم الخطر ، ولعلها قد لقيت الموت . هنالك كان العالم كله يستخفى ، ولم يكن هو يرى إلا استارتيه تحتضر وزديج يتجرع كأس الشقاء !

وبينما كان يتردد بين هذا المد والجزر من فلسفة رفيعة إلى ألم ممض جعل يتقدم نحو حدود مصر . وكان خادمه الأمين قد سبقه إلى إحدى الضواحى ليلتمس له منزلا . وجعل زديج يتنزه فى الحدائق التى تحيط بهذه الضاحية ، فرأى غير بعيد من الطريق العامة امرأة مولهة تستغيث بالأرض والسماء ، ورجلا يتبعها وقد أخرجه الغضب عن طوره . وقد لحقها الرجل وهى تستعطفه لاثمة ركبتيه ، والرجل يشبعها شتما وضرباً . فقدر زديج لمنظر هذين المصريين أن الرجل كان غيوراً وأن المرأة كانت خائنة . ولكنه حين نظر إلى هذه المرأة ورآها ذات جمال مؤثر وفيها ملامح من استارتيه رق لها وسخط على الرجل . أما هى فأعولت والعبرات تخنقها قائلة لزديج : « أعنى أنقذنى

من هذا الرجل الذى ليس له نظير فى الغلظة والجفاء . أنقذ حياتى . »

هنالك أسرع زديج فألقى بنفسه بينهما ليرد عنها عنف هذا الرجل . وكان له شئ من العلم بلغة المصريين ، فقال له فى هذه اللغة : « إن كان لك حظ من رحمة فانى أتوسل إليك أن تحترم الجمال وترفق بالضعف . أتستطيع أن تهين إلى هذا الحد آية من آيات الطبيعة قد جثت أمامك وليس لها عاصم منك إلا الدموع ؟ » قال الرجل العنيف : « فأنت تحبها أيضاً ! ومن حقى أن أنتقم منك . » ثم أرسل شعر المرأة الذى كان يجذبه وصوب إلى الغريب رمحه يريد أن يشق به صدره . وكان زديج محتفظاً بهدوئه ، فاستطاع أن ينحرف عن الطعنة فى يسر . وأخذ بسنان الرمح يجذبه إليه ، والمصرى يريد أن يحتفظ به ، فيتحطم الرمح بين الرجلين . ويسل المصرى سيفه فيسل زديج سيفه ، ويسعى كلاهما إلى صاحبه . فأما المصرى فيرسل ضرباته فى غير نظام ، وأما خصمه فيتقيها فى مهارة . والمرأة جالسة على العشب تصفف شعرها وتنظر إليهما . وكان المصرى أقوى من خصمه ، وكان زديج أمهر من المصرى : أحدهما يقاتل ورأسه يدير ذراعه ، والآخر يقاتل وقد ملك الغضب عليه أمره كله . ثم يهجم عليه زديج فيجرده من سلاحه . ولكن المصرى يبلغ من الغضب أقصاه فيهجم على زديج الذى يأخذه فيضغطه فيلقيه على الأرض فيضع ذباب السيف على صدره ويعرض عليه الحياة . هنالك يفقد المصرى صوابه ، فيستل خنجر ويجرح به زديج فى نفس الوقت الذى كان يهدى إليه العفو فيه . وقد ثارت حفيظة زديج فأغمد سيفه فى صدر خصمه . ويدفع المصرى صيحة هائلة ثم يلفظ الروح .

ثم يتقدم زديج فى خضوع إلى هذه المرأة قائلا لها فى صوت هادئ : « لقد أكرهنى على أن أقتله . فأنت الآن صرت طليقة قد أمنت شر هذا الرجل الذى لم أر مشبهاً له فى العنف . فماذا تريدين منى الآن يا سيدتى ؟ » قالت المرأة : « أريد أن تموت أيها المجرم . أريد أن تموت ! لقد قتلت حبيبى ! وددت لو أمزق قلبك تمزيقاً . » قال زديج : « إن لك فى الحق لمزاجاً غريباً يا سيدتى ! لقد كان يضربك ضرباً مبرحاً ، ولقد كاد يسلبنى حياتى لأنك طلبت إلىّ النجدة فاستجبت لك . » قالت معولة : « وددت لو يضربنى الآن ضرباً مبرحاً ! لقد كنت أهلا لما كنت ألقى منه ، لقد دفعته إلى الغيرة . وددت لو يضربنى الآن

وأنك ملقى مكانه.» قال زديج وقد أخذ منه الدهش والغضب مأخذاً عظيما: « سيدتى إنك لرائعة الحسن ، ولكنك أهل لأن أضربك أنا أيضاً لأنك شاذة الأخلاق ، ولكنى لن أكلف نفسى هذا الجهد . » ثم جلس على جمله وسعى نحو الضاحية . ولكنه لايكاد يمضى إلا قليلا ثم يسمع نبأة،فيلتفت و إذا سعاة أربعة من أهل بابل قد أقبلوا مسرعين . فيرى أحدهم هذه المرأة ويصيح: « هذه هى إنها لتشبه الصورة التى وصفت لنا . » ثم لا يلتفتون إلى الميت و إنما يحيطون بالسيدة فيخطفونها خطفاً . وهى تصيح : « أنقذنى مرة أخرى أيها الغريب ! إنى لنادمة على الاساءة إليك . أنقذنى ، إنى لأعتذر إليك بأنى شكوت منك ! أنقذنى وأنا لك إلى أن أموت . » ولكن زديج كان قد فقد الميل إلى أن يقاتل فى سبيلها ، فأجابها : « أطلبى المعونة من غيرى فلن تخدعينى مرة أخرى . »

على أنه كان جريحاً وكان دمه ينزف وكان محتاجاً إلى بعض العناية ، وقد ملأه منظر هؤلاء البابليين الأربعة قلقاً، فهم رسل الملك مؤبدار . فيسرع نحو القرية ، غير متخيل للسبب الذى من أجله يختطف البابليون هذه المرأة ، وغير فاهم لأخلاق هذه المرأة نفسها .

الفصل العاشر

الرق

ولا يكاد يدخل القرية المصرية حتى يرى الناس قد أحاطوا به ، وهم يتصايحون : « هذا هو الذى اختطف ميسوف الحسناء وقتل كليتوفيس » . قال زديج : « أيها السادة ليعصمنى الله إلى آخر الدهر من أن أختطف حسناءكم ميسوف ، فانها جامحة مسرفة فى الجماح . أما كليتوفيس فانى لم أقتله عن عمد ، و إنما دافعت عن نفسى حين اعتدى على . لقد كان أراد أن يقتلنى لأنى طلبت إليه فى أرفق الرفق أن يكف أذاه عن ميسوف وكان يضربها ضرباً

مبرحاً . وإنما أنا رجل غريب قد أقبل لاجئاً إلى مصر .وليس مما يلائم العقل أن أسعى إليكم مستجيراً بكم ثم أبدأ بخطف امرأة وقتل رجل . »

وكان المصريون في ذلك الوقت أولى عدل ورحمة . فقد قاد الشعب زديج إلى المركز ، وهناك ضمدت جراحه قبل كل شيء ، ثم حقق معه ومع خادمه كل على حدة لاستجلاء الحقيقة . فتبين أن زديج لم يتعمد القتل ولكنه قد أراق دم إنسان ، وكان القانون يقضى عليه بالرق . فبيع جملاه لمصلحة القرية ، وفرق ما كان يحمل من ذهب على أهلها ، وعرض هو وخادمه للبيع فى سوق الرقيق . وقد تنافس فيهما المشترون وتمت الصفقة لتاجر عربى يسمى سيتوك . على أن ثمن الخادم قد كان أرقى من ثمن سيده ؛ لأن الخادم أقدر على العمل وأجدر أن يحتمل من المشقة ما لم يكن سيده يقدر على احتماله . ولم ينظر إلى مابين السيد وخادمه من تفاوت فى العقل والمنزلة ، فأصبح زديج إذن عبداً خاضعاً لخادمه ، وقد قرن كلاهما إلى صاحبه فى حبل واحد من رجليهما ثم دفعا إلى بيت سيدهما الجديد . وكان زديج فى أثناء الطريق يعزى خادمه ويرغبه فى الصبر ، ولكنه كان على عادته يفكر فى حياة الانسان ومصيره . وكان يقول لخادمه : « إن الشقاء الذى كتب علىّ يمتد إليك . فقد دارت الأشياء كلها بالقياس إلىّ دورة غريبة إلى الآن ؛ فقد قضى على بالغرامة لأنى رأيت كلبة تمر ، وأشرفت على الموت من أجل العنقاء ، وأرسلت إلى العذاب لأنى صنعت شعراً أثنيت فيه على الملك ، وكدت أشنق لأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وهأنذا أدفع معك إلى الرق لأن رجلا عنيفاً ضرب خليلته . فلنحتفظ بشجاعتنا ؛ فقد يكون لألمنا حد يقف عنده ، ولابد لهذا التاجر العربى من أن يملك الرقيق . ولم لا أكون أنا رقيقاً كغيرى من الرقيق ، مادمت رجلا كغيرى من الرجال ؟ ولن يكون هذا التاجر قاسياً ؛ فقد ينبغى أن يرفق بعبيده إن كان يريد أن ينال منهم خيراً . » كذلك كان يقول لخادمه على حين كان قلبه مشغولا بمصير الملكة استارتيه .

وقد ارتحل سيتوك العربى بعد يومين مستصحبا خادميه وإبله إلى صحراء بلاد العرب ، وكانت قبيلته تسكن قريباً من صحراء أوريب . وكانت الطريق طويلة شاقة . وكان العربى أثناء السفر يؤثر الخادم على سيده ، لأن الخادم كان يحسن وضع الأثقال على ظهور الإبل ، فكان العربى يخصه بالعناية .

وقد نفق أحد الجمال على مسيرة يومين من أوريب ، فوزع حمله على الخدم وحمل زديج نصيبه . وكان سيتوك يضحك حين يرى عبيده جميعاً يمشون وقد انحنوا لثقل ما كانوا يحملون . وقد استباح زديج لنفسه أن يبين له سبب هذا الانحناء ، ففسر له قوانين التوازن . فدهش التاجر وجعل ينظر إليه نظراً جديداً . ولما رأى زديج اهتمامه بما سمع استحث حبه للاستطلاع ، فتحدث إليه فى أشياء كثيرة كانت تتصل بتجارته ، كالثقل النوعى للأشياء التي تختلف مادة وتستوى حجما ، وخصائص بعض الحيوان التى تنفع الناس ، وطرائق الانتفاع بما لايظهر فيه نفع ، فتبين لسبتوك أن خادمه حكيم ،فآثره وقدمه على خادمه الذى كان يفضله عليه من قبل ، ثم أحسن معاملته . ولم يندم فيما بعد على ما قدم إليه من معروف .

ولم يكد سيتوك يصل إلى مضارب القبيلة حتى استقضى يهوديا خمس مئة مثقال من الفضة ، وهو دين كان اليهودى قد اقترضه منه أمام شاهدين ، ولكن الشاهدين كانا قد فارقا الحياة ، فالتوى اليهودى بالدين حامداً لله أن أتاح له هذه النعمة التى مكنته من أن يجحد دين رجل من العرب .فأفضى سيتوك بهمه هذا إلى زديج الذى كان قد أصبح له مستشاراً قال زديج : «فى أى مكان أقرضت مثاقيلك لهذا الكافر ؟» قال التاجر : « على صخرة ضخمة قريباً من جبل أوريب . » قال زديج : « وما أخص ما يمتاز به مدينك ؟ » أجاب سيتوك : « يمتاز بالغدر . » قال زديج : « ولكنى أسألك أنشيط هو أم كسل ، أحذر هو أم أخرق . » قال سيتوك : « هو بين الذين يلتوون بالدين أعظمهم حظا من النشاط . » قال زديج : « أتأذن أن أكون محاميك أمام القضاة ؟ » ثم دعا اليهودى أمام المحكمة وتحدث إلى القضاة على هذا النحو : « يا وسائد العرش الذى يستقر عليه العدل إنى أطلب إلى هذا الرجل نيابة عن سيدى خمس مئة مثقال من الفضة قد التوى بها وأبى أن يؤديها . » قال القاضى : « أعندك بينة ؟ » قال زديج : « لا ! لقد مات الشاهدان ، ولكن هناك صخرة عريضة عدت عليها المثاقيل ، فاذا أذنت المحكمة بحمل هذه الصخرة فقد أرجو أن تشهد لى وسنبقى نحن هنا حتى تحمل الصخرة . وسأرسل من يحملها على نفقة سيدى سيتوك . » قال القاضى : « لا بأس . » وجعل ينظر فى قضايا أخرى .

فلما كان آخر الجلسة قال لزديج : « ألم تأت صخرتكم بعد ؟ » فتضاحك اليهودى قائلا : « تستطيع عظمتكم أن تبقى فى الجلسة إلى غد دون أن تحضر الصخرة ؛ فهى تقوم على بعد ستة أميال ، ولا يستطيع أن يحولها عن مكانها أقل من خمسة عشر رجلا . » فصاح زديج : « ألم أقل لكم إن الصخرة ستشهد لى ؟ فما دام هذا الرجل يعرف مكانها فهو يقر بأن المثاقيل قد عدت عليها . » فبهت اليهودى واضطر آخر الأمر إلى الاعتراف ، وأمر القاضى بأن يشد هذا الرجل إلى الصخرة ولا يقدم إليه طعام ولا شراب حتى يؤدى الدين .

ومنذ ذلك الوقت أصبح العبد زديج والصخرة موضع ثقة وثناء فى بلاد العرب .

الفصل الحادى عشر

التحريق

وبلغ الرضا من سيتوك أن جعل من عبده لنفسه خليلا ، وأصبح لا يستطيع أن يستغنى عنه كما كان ذلك شأن الملك فى بابل . وكان زديج سعيداً لأن سيده لم يتخذ لنفسه زوجاً . وكان يتبين فى سيده طبعاً ميالا إلى الخير وكثيرا من الاستقامة فى السيرة والإصابة فى التقدير . وساءه أن سيده كان يعبد جيش السماء أى الشمس والقمر والنجوم ، كما جرت بذلك عادة العرب . وكان يتحدث إليه فى ذلك متحفظاً أشد التحفظ . ثم قال له آخر الأمر : « إن هذه الكواكب والنجوم ليست إلا أجساماً كغيرها من الأجسام ، وليست أحق بالتعظيم من شجرة أو صخرة . » قال سيتوك : « إنها كائنات خالدة تحقق لنا منافعنا كلها ؛ فهى تشيع الحياة فى الطبيعة وتدبر فصول العام ، وهى بعد ذلك بعيدة عنا بحيث لا نستطيع إلا تقديسها . » قال زديج : « إن البحر الأحمر يحقق لك من المنافع أكثر مما تحقق لك هذه الكواكب حين يحمل تجارتك إلى الهند . وما يمنعه أن يكون قديم العهد كالنجوم ؟ وإذا لم يكن بد من أن تعبد ما بعد عنك فقد يجب أن تعبد أرض جنجاريد التى هى فى أقصى

العالم . » قال سيتوك : « كلا ! إن النجوم مشرقة إشراقاً يفرض عليّ عبادتها . » فلما جن الليل أشعل زديج عدداً ضخماً من المصابيح فى الخيمة التى كان يجب أن يجلس فيها إلى العشاء مع سيتوك . فلما أقبل مولاه جثا أمام هذه المصابيح قائلا : « أيها الضوء المشرق الخالد وفقنى دائماً لما أريد . » ثم جلس إلى المائدة دون أن ينظر إلى سيتوك . قال سيتوك دهشاً : « ماخطبك ؟ » قال زديج : «إنما أصنع صنيعك ، فأعبد هذه المصابيح وأهمل سيدها وسيدى . » هنالك فهم سيتوك فحوى هذه الاشارة ، ونفذت حكمة عبده إلى نفسه ، فأعرض عن عبادة المخلوقات وعبد الخالق الخالد الذى فطرها .

وكانت تتحكم فى بلاد العرب لتلك الأيام عادة منكرة نقلت إليها من بلاد السيتيين بعد أن استقرت فى الهند بفضل البراهمة وكادت تعم الأرض كلها . وكانت هذه العادة تقضى إذا مات رجل وأرادت امرأته أن تكون قديسة أن تحرق نفسها على جسم زوجها بمشهد من الناس . وكان ذلك يجرى فى حفل عظيم يسمى حريق الترمل . وكانت القبيلة التى تعد كثيراً من النساء المحرقات تمتاز بحسن الذكر وبعد الصوت . وقد مات عربى من قبيلة سيتوك ، فقررت زوجته ألمونا وكانت صالحة ، أن تتبعه ، وأعلنت اليوم والساعة اللذين اختارتهما لتلقى نفسها فى النار على قرع الطبول ودعاء المزامير . وقد أظهر زديج لسيتوك أن هذه العادة البشعة مسيئة أشد الاساءة إلى النوع الانسانى ؛ فهؤلاء النساء اللاتى يتركن نهباً للحريق فى كل يوم خليقات أن يمنحن الدولة عدداً ضخماً من المواطنين ، وأن يربين أطفالهن على أقل تقدير. وما زال به حتى أقنعه بأن من الخير إلغاء هذه العادة إن كان ذلك ممكناً. قال سيتوك : « لقد مضى أكثر من خمس مئة وألف عام والنساء يحرّقن، فأينا يجرؤ على أن يغير قانوناً قدسه الزمن ؟ هل يوجد شئ أجدر بالاحترام من ظلم بعد به العهد؟ » قال زديج : « إن العقل أقدم من هذه العادة . فتحدث أنت إلى شيوخ القبيلة ، وسأذهب أنا إلى هذه الأرملة الشابة . »

فتلطف حتى قدم إليها ، ثم جعل يتملقها بالثناء على جمالها ، ثم بين لها أن مما يحزن ويسوء أن يحرق سحرها العظيم للنار ، ثم أثنى على ثباتها وشجاعتها. ثم قال لها : « أكنت تحبين زوجك إذن حبا جما ؟ » قالت : « أنا ، كلا لم أحببه قط ! لقد كان عنيفاً غيوراً لا سبيل إلى احتماله ، ولكنى على ذلك مصرة على

أن أحرق نفسي في أثره . » قال زديج : « يجب أن تكون هناك لذة لانظير لها في أن يحرق الانسان نفسه حيا . » قالت السيدة : « هذا شيء ترتعد له الفرائص ، ولكن لابد مما ليس منه بد . إني تقية ، وما أحب أن أشتهر بالسوء ولا أن أتعرض للسخرية لاجتناب هذه النار . » فبين لها زديج أنها إنما تحرق نفسها إرضاء لغيرها ، وأن الغرور هو الذي يدفعها إلى ذلك . ثم مازال يرفق بها حتى حبب إليها الحياة شيئاً ما ، بل استطاع أن يعطفها قليلا على هذا الذي كان يتحدث إليها . ثم قال لها : « ما عسى أن تصنعي لو برئت من هذا الغرور الذي يدفعك إلى النار؟ » قالت السيدة : « واحسرتاه لو برئت من هذا الغرور لطلبت إليك أن تتخذني لنفسك زوجاً . »

ولكن زديج كان مشغولا بحب استارتيه ، فلم ير بدًّا من أن يروغ عن هذا الدعاء . ثم سعي إلى شيوخ القبيلة ، وطلب إليهم أن يصدروا قانوناً يحظر على كل أرملة أن تحرق نفسها دون أن تخلو ساعة كاملة إلى فتى من الفتيان . ومنذ ذلك الوقت لم تحرق عربية نفسها ، ودانت بلاد العرب لزديج بهذه المكرمة التي ألغى بها في يوم واحد عادة مضت عليها القرون . وأصبح زديج محسناً إلى بلاد العرب كلها .

الفصل الثاني عشر

العشاء

وقد أصبح سيتوك حريصاً على ألا يفارق زديج هذا الذي استقرت الحكمة في قلبه ، فاستصحبه إلى سوق البصرة حيث كان يلتقي أكبر التجار في جميع أقطار الأرض التي يسكنها الناس . وكان لقاء عدد ضخم من الناس على اختلافهم في الوطن والمنزلة والطبقة مصدر عزاء لزديج عن بعض همه . وقد خيل إليه أن العالم إنما هو أسرة كبيرة قد اجتمعت في البصرة . فلما كان اليوم الثاني من إقامته في البصرة جلس إلى مائدة العشاء مع جماعة فيهم المصري والهندي من

جنجاريد ، والنازح من أرض كتاى واليونانى ، والكاتى ، وآخرون من الغرباء ، وكل هؤلاء الناس قد تعودوا الرحلة إلى شط العرب حتى تعلموا شيئاً من العربية كانوا يديرون به الحديث فيا بينهم . وكان المصرى يظهر شديد الغضب ، وكان يقول : « ما أقبح البصرة من بلد ! إن أهلها يأبون أن يقرضونى ألف مثقال من ذهب على أن يرتهنوا بها أقوم عين فى الدنيا . » قال سيتوك : « وكيف كان ذلك ؟ وما هذه العين التى لم يرتهنوها بهذا المال ؟ » قال المصرى : « جثة عمتى ، وكانت أرضى نساء مصرخلقاً ، وكانت ترافقنى دائماً فماتت فى بعض الطريق ، وقد اتخذت منها أحسن ماعرفت مصر من المومياء. ولو رهنتها فى وطنى لأخذت عليها كل ما طلبت من مال . وإنه لغريب أن يضن علىّ بألف مثقال مع أنى أقدم فى سبيلها هذا الرهن القيم الخطير . » وكان فى أثناء غضبه يتهيأ لأكل دجاجة سليق . فأخذ الهندى بيده وصاح متألماً: « ماذا تريد أن تصنع ؟ » قال صاحب المومياء : « أريد أن آكل من هذه الدجاجة . » قال الهندى : « إياك أن تفعل ! فقد يجوز أن يكون روح عمتك قد تقمص هذه الدجاجة ، وما أراك تحب أن تأكل عمتك . وإن فى طبخ الدجاج لإهانة بالغة للطبيعة . » قال المصرى الغضوب : « ماذا تريد أن تقول حين تحدثنا عن طبيعتك ودجاجك ؟ إنا نعبد الثور ونأكل منه مع ذلك . » قال ساكن شاطئ الجانج : « أيمكن أن تعبدوا ثوراً ؟ » قال المصرى : « لا غرابة فى ذلك ، فنحن نعيش على عبادة الثور منذ خمسة وثلاثين ومئة ألف من السنين ، لم ينكر ذلك أحد منا . » قال الهندى : « خمسة وثلاثون ومئة ألف ! هذا غلو فى الحساب . فلم تسكن الهند إلا منذ ثمانين ألف سنة ونحن مع ذلك أقدم منكم ، ليس فى ذلك شك . وقد حرم علينا براهما أن نأكل من الثور قبل أن تضعوه أنتم على المذابح لتعبدوه ، وفى النار لتأكلوه . » قال المصرى : « إنك لتضحكنى حين تذكر براهما لتوازن بينه وبين آبيس . وماذا تظن أن براهما قد صنع من غرائب المعجزات ؟ » قال البراهمى : «هو الذى علم الناس القراءة والكتاب ، وهو الذى تدين له الأرض كلها بلعبة الشطرنج .» قال كلدانى كان يجاورهما : « لقد أخطأت! إنما يونس الحوت هو الذى أسدى إلى الناس هذه المكارم ، فينبغى أن يرد إليه حقه ويعرف له فضله . والناس جميعاً ينبئونك بأنه كان كائناً إلهيا له ذيل مذهب ورأس إنسان ، وأنه كان

يخرج من الماء ليعظ أهل الأرض ثلاث ساعات فى كل يوم . وقد ولد له بنون كثيرون وكلهم كان ملكاً كما يعرف الناس جميعاً . وإن عندى صورة له أعبدها كما ينبغى لها أن تعبد . وللناس أن يأكلوا من لحم الثور ما أحبوا ، ولكن ليس لهم أن يطبخوا السمك . ومع ذلك فأنتما تنتميان إلى أصل حديث العهد قليل الحظ من الشرف فما ينبغى لكما أن تجادلا . فالأمة المصرية لاتعد إلا خمسة وثلاثين ومئة ألف عام ، والهند لا تفاخر إلا بثمانين ألف عام ، أما نحن فان تقاويمنا تسجل أربعة آلاف من القرون . فاسمعا لى وأعرضا عن هذا الهذيان ، وأنا زعيم أن أهدى إلى كل واحد منكما صورة من صور يونس».

قال ساكن كبالو : « إنى أكبر المصريين ، والكلدانيين ، واليونان ، والكلتيين ، وبراهما ، والثور آبيس ، والحوت العظيم يونس ، ولكن ربما كان «اللى» وهونور الطبيعة أو «القيان» وهو السماء والإله أحق بالتكرمة من الثور والسمك . ولن أقول شيئاً عن وطنى فهو أكبر من مصر وبلاد الكلديين والهند جميعاً . ولن أجادل فى قدم العهد ، فحسب الانسان أن يكون سعيداً، وليس أهون من أن يكون قديم الأصل . وإذا لم يكد بد من ذكر التقاويم فانى أقول إن آسيا كلها تستعير تقاويمنا ، وأننا أحسنا وضع التقاويم قبل أن يتعلم الكلدانيون الحساب . »

هنالك صاح اليونانى : « إنكم جميعاً لجاهلون ! ألا تعلمون أن الكاووس هو أصل كل شئ ، وأن المادة والصورة هما اللتان جعلتا العالم كما هو الآن ؟ » وقد تكلم هذا اليونانى فأطال الكلام . ولكن الكلتى الذى أسرف فى الشرب أثناء هذا الحوار ظن أنه أعلم منهم جميعاً ، وصاح قائلا إن ليس غير توته والبلوط شئ يستحق التكريم والاجلال ، وإنه هو يحمل دائماً من هذا الزهر فى جيبه ، وإن أجداده السيتيين هم وحدهم أهل الخير فى الأرض كلها ، وإنهم فى الحق ربما أكلوا جسم الانسان ، ولكن ذلك لا يمنع من أن من الحق على الناس أن يعرفوا لهم قدرهم ، وإن من ذكر توته بسوء فسيعلمه كيف ينبغى أن يعيش .

وقد اشتدت الخصومة حينئذ ، ورأى سيتوك أن المائدة توشك أن يصبغها الدم . وكان زديج قد احتفظ بالصمت أثناء هذا الحوار كله ، فنهض إذذاك ثم اتجه إلى الكلتى لأنه كان أشد القوم غضباً وقال له إنه مصيب ، وطلب

إليه بعض زهره ، وحمد لليونانى بلاغته ، وهدأ النفوس الثائرة . ولم يقل لصاحب كتاى إلا قليلا لأنه كان أعقل القوم جميعاً . ثم قال لهم جميعاً : « أيها الأصدقاء لقد كدتم تختصمون فى غير طائل لأنكم جميعاً متفقون . » هنالك تصايح القوم . قال للسيتى : « أليس من الحق أنك لا تعبد الزهر والبلوط ، وإنما تعبد صانعهما ؟ » قال الكلتى : « لا شك فى ذلك . » « وأنت يا سيدى المصرى إنما تعبد فى بعض الثيرة من خلق لك الثور . » قال المصرى : « نعم . » « ويونس الحوت يجب أن يذعن لمن خلق البحر والسمك . » قال الكلدانى : « أوافق على ذلك . » قال : « والهندى والكاتى يعترفان من غير شك بالمبدأ الأول لكل شئ . ولم أفهم هذا الكلام الرائع الذى تكلم به اليونانى ، ولكنى واثق بأنه يسلم بوجود كائن عظيم هو الذى أنشأ المادة والصورة . » قال اليونانى وقد أحس الاعجاب به إن زديج قد فهم عنه حق الفهم . قال زديج : « فأنتم إذن على رأى واحد ، وليس هناك ما يدعو إلى الخصومة . » فأقبل القوم عليه يعانقونه . ثم باع سيتوك تجارته بيعاً رابحاً وعاد مع صديقه إلى قبيلته ، ولكن زاديج عرف عند وصوله أن قضيته قد نظرت أثناء غيبته . وأن الحكم قد صدر عليه أن يحرق فى نار هادئة .

الفصل الثالث عشر

الموعد

وكان كهنة الكواكب قد أزمعوا أثناء رحلته إلى البصرة أن يعاقبوه . فقد كانت جواهر الأرامل اللاتى يرسلن إلى النار وحليهن تؤول إليهم ، فلم يكن أقل من أن يحرقوا زديج عقاباً له على ما جر عليهم من خسارة . فاتهموه إذن بسوء رأيه فى جيش السماء ورفعوا القضية ، وأقسموا على أنهم قد سمعوه يقول إن نجوم السماء لا تغرب فى البحر . وقد ارتعد القضاة لهذا الكفر الشنيع ، وكادوا يمزقون ثيابهم حين سمعوا هذا المنكر من القول ، وقد كانوا أحرياء أن يفعلوا

لو علموا أن لزديج من المال ما يعوض عليهم ثيابهم ، ولكنهم حين انتهى بهم الألم إلى أقصاه اكتفوا بالحكم عليه أن يحرق فى نار هادئة . وقد جزع سيتوك وأنفق ما كان يملك من جهد لينقذ صديقه ، ولكنه أُكره على الصمت إكراهاً . هنالك أزمعت الأرملة الشابة ألمونا أن تنقذه ، وكانت قد أحبت الحياة بفضل زديج ، فأرادت أن تعصمه من النار التى بين لها ما فيها من الظلم . فأدارت رأيها فى رأسها دون أن تتحدث به إلى أحد ، وكان مقرراً أن يحرق زديج من غده ، فلم يكن أمام الأرملة إلا الليل لإنقاذه . وإليك الخطة التى دبرتها فى رحمة ورفق وحذر .

تعطرت وازّينت حتى جعلت جمالها ساحراً فتاناً ، ثم طلبت لقاء خاصا إلى رئيس كهنة النجوم . فلما مثلت أمام هذا الشيخ الجليل قالت له : « أيها الابن البكر للدب الأعظم يا أخا الثور ، وابن عم الكلب الأكبر — وكانت هذه ألقاب رئيس الكهنة — لقد أقبلت أفضى إليك بذات نفسى . إنى لمشفقة أن أكون قد وقعت فى خطيئة عظيمة حين لم أحرق نفسى فى أثر زوجى العزيز . وعلى ماذا أردت أن أبقى جسم هالك قد أخذت فيه السن ! » قالت ذلك وهى تخرج من كمها الحريرى الطويل ذراعها العارية ذات الصورة الرائعة والبياض الخلاب ، قالت : « أنظر ما أهون هذا وما أقل خطره ! » ووجد زعيم الكهنة فى دخيلة نفسه أن هذا شئ عظيم الخطر ، قالت ذلك عيناه وأكد ذلك فمه ، فقد أقسم أنه لم ير قط فى حياته أجمل من هذه الذراع . قالت الأرملة : « واحسرتاه ! لعل الذراع أن تكون خيراً من سائر الجسم ، ولكنك توافقنى على أن النحر لم يكن خليقاً بعنايتى . » ثم أظهرت أجمل ثدى صنعته الطبيعة لو قرن إليه زر من الورد على تفاحة من العاج لأذى بها ، ولو قرنت إليه الحملان بعد غسلها لظهرت بالقياس إليه صفراء مشبعة بالسمرة . هذا النحر ، وهاتان العينان الكبيرتان الفاترتان المشرقتان بنار رفيقة ، وهذان الخدان اللذان يزدهيان بأجمل الأرجوان قد خالطه بياض اللبن النقى ، وأنفها الذى لم يكن كبرج جبل لبنان ، وشفتاها اللتان كانتا كطرفى محارة من مرجان تضمر أجمل ما فى بحر العرب من اللآلىء(١)، كل هذا مجتمعاً أشعر الشيخ بأنه ابن عشرين ،

(١) تعريض فى هذا الوصف كله ببعض ما فى نشيد الأناشيد

فأعلن إليها حبه متلعثما . ولما رأته ألمونا ملتهباً سألته العفو عن زديج ، قال : « واحسرتاه ! أيتها السيدة الحسناء لو أجبتك إلى ما تطلبين لما أغنى عفوى عنه شيئاً . فقد يجب أن يمضى هذا العفو ثلاثة آخرون من الزملاء . » قالت ألمونا : « فأمض أنت . » قال الكاهن : « مع السرور بشرط أن يكون عطفك ثمناً لعفوى . » قالت ألمونا : « إنك لتغلو فى تشريفى ، فتفضل بزيارتى إذا غربت الشمس وأشرقت فى الأفق النجمة شيت ، فستجدنى على إيوان وردى اللون ، وستصنع بخادمك ما تشاء . » ثم خرجت ومعها الإمضاء، وتركت الشيخ يصرعه الحب ويخيفه الشك فى قوته ، وأنفق سائر اليوم فى حمامه ، واحتسى شراباً مزاجه من قرفة سيلان وبهار تيدوروترنات ، وانتظر وقد كاد يفقد الصبر أن تظهر النجمة شيت فى الأفق .

وفى أثناء ذلك مضت ألمونا الحسناء فلقيت الكاهن الثانى ، فأكد لها أن الشمس والقمر وكل ما فى السماء من نجوم ليست إلا ناراً موهومة بالقياس إلى سحرها . فطلبت إليه العفو نفسه، وطلب إليها أن تؤدى ثمنه ، فأظهرت الإذعان وضربت موعداً للكاهن الثانى حين تشرق النجمة الجنيب . ثم مضت إلى الكاهن الثالث وإلى الكاهن الرابع ، ظافرة دائماً بالإمضاء ، ضاربة موعداً من نجم إلى نجم. ثم طلبت إلى القضاة أن يلموا بدارها لأمر ذى بال . فلما حضروا أظهرت لهم الأسماء الأربعة ، وأنبأتهم بأى ثمن باع الكهنة عفوهم عن زديج . وأقبل كل واحد من الكهنة فى موعده ، ودهش كل واحد منهم حين رأى زملاءه وبنوع خاص حين رأى القضاة الذين تبينوا خزيهم واضحاً . وكذلك نجا زديج ، أما سيتوك فقد فتنته مهارة ألمونا ، فاتخذها له زوجاً .

الفصل الرابع عشر

الرقص

وكان على سيتوك أن يذهب بتجارته إلى جزيرة سرنديب ، ولكن الشهر الأول لزواجه — وهو كما يعلم الناس جميعاً شهر العسل — لم يسمح له بفراق امرأته ولا بتخيل أنه يستطيع فراقها إلى آخر الدهر ، فتقدم إلى خليله زديج أن يقوم عنه بهذه الرحلة . وكان زديج يقول فى نفسه : « واحسرتاه ! أيجب أن أمعن فى السفر حتى أجعل بين أستارتيه وبينى أبعد الآماد ! ولكن يجب أن أخدم من أحسنوا إلىّ . » قال ذلك ثم بكى ثم ارتحل .

ولم يمض عليه قليل من الوقت فى جزيرة سرنديب حتى نظر إليه على أنه رجل متفوق ممتاز ، وقد أصبح حكما بين كبار التجار وصديقاً للحكماء ومشيراً على هذه القلة من الناس الذين يحبون أن يستشيروا . وقد أراد الملك أن يراه ويسمع منه . فما أسرع ما عرف قيمته ووثق بحكمته واتخذه خليلا . وقد اضطرب زديج لما وجد عند الملك من إلف ومودة ؛ فقد كان فى أثناء الليل والنهار مروعاً بما جرّت عليه عشرة مؤبدار من شقاء . وكان يقول لنفسه : «لقد أعجبت الملك ، أفلا يمكن أن يسوقنى هذا إلى التهلكة ؟ » ولم يكن من الممكن مع ذلك أن يتخلص من لطف الملك ، فيجب أن نعترف بأن نابوسان ملك سرنديب ، ابن نوسناب ابن نابسون ، ابن سنبوسنا كان من خيرة ملوك آسيا ، وكان عسيراً على من تحدث إليه ألا يحبه .

وكان هذا الملك الكريم ممدحاً دائماً مغشوشاً دائماً مسروقاً دائماً ، وكان صاحب بيت المال فى سرنديب قدوة فى ذلك يتبعها الموظفون جميعاً . وكان الملك يعلم ذلك ، وقد غير صاحب بيت ماله غير مرة ، ولكنه لم يستطع تغيير السنة المقررة التى تقتضى أن يقسم دخل الملك إلى قسمين غير متساويين ، يبقى أصغرهما لجلالته ، ويؤول أكبرهما إلى الموظفين .

وقد أفضى الملك نابوسان بهمه هذا إلى زديج . قال له ذات يوم : « إنك تعرف أشياء كثيرة قيمة ، فهل تعرف الطريق إلى أن أجد خازناً للمال لا يخون ؟ » قال زديج : « ليس فى ذلك شك ، إنى أعرف السبيل الأمينة إلى أن أجد لك خازناً نقى اليدين » . قال الملك مأخوذاً وهو يقبله : « ما عسى أن تكون هذه السبيل ؟ » قال زديج : « إنما هى أن تدعو المرشحين لهذا المنصب جميعاً إلى الرقص ، وأيهم كان رقصه خفيفاً نشيطاً فأئمنه على بيت مالك » . قال الملك : « إنك لتمزح ، و إنها لطريقة رائعة يختار بها الأمين على بيت المال . ماذا ! أتزعم أن أحسن الناس وثباً وعبثاً بقدميه هو الخازن الأمين النقى ؟ » قال زديج : « لا أزعم لك أنه سيكون أمهر الخزان ، ولكنى أؤكد أنه سيكون أعظمهم حظا من الأمانة . » وكان زديج يقول هذا فى ثقة وحزم ، حتى خيل إلى الملك أن لديه سرا خارقاً يعرف به دخائل المديرين للأموال . قال زديج : « إنى لا أحب الخوارق ، وقد ضقت دائماً بأصحابها وبالكتب التى تخوض فيها . فاذا أذنت جلالتك لى فى تنظيم الامتحان الذى أقترحه فستعلم أن السر يسير لا عسر فيه ولا التواء . » وقد دهش نابوسان ملك سرنديب حين سمع أن هذا السر يسير سهل أكثر مما كان خليقاً أن يدهش لو قيل له إن السر خارق لقوانين الطبيعة . قال لزديج : « هو ذاك ، فنظم الامتحان كما تشاء . » قال زديج : « دعنى أفعل وستربح من هذا الامتحان أكثر مما تقدر . » وفى اليوم نفسه أعلن باسم الملك أن من يرشح نفسه لإدارة بيت المال للملك نابوسان بن نوسناب فعليه أن يتخذ ثوباً من حرير رقيق ، وأن يسعى إلى قصر الملك فى اليوم الأول من شهر التمساح . وقد سعى المرشحون إلى القصر وكان عددهم أربعة وستين رجلا ، وكانت قد أعدت فى الحجرة المجاورة جوقة موسيقية . وقد أعد للرقص كل شئ ولكن باب الحجرة ظل مغلقاً ، وكان من أراد الوصول إلى الحجرة سلك إليها ممرا ضيقاً مظلماً بعض الشئ . وأقبل حاجب فقاد المرشحين واحداً فى إثر واحد إلى الحجرة من هذا الممر ، وجعل يترك كل واحد منهم فيه منفرداً دقائق . وكان الملك قد عرف سر زديج فعرض كنزه كله فى هذا الممر . فلما انتهى المرشحون جميعاً إلى الحجرة أمر الملك بترقيصهم . ولم ير أحد قط راقصين رقصوا فى غير ظرف ولا خفة كهؤلاء الناس الذين كانوا يرقصون وقد خفضوا رءوسهم وحنوا ظهورهم وألقوا أذرعهم بجيوبهم ، وكان زديج يقول همساً :

« يا لهم من خونة ! » وكان واحد منهم ليس غير ، يرقص رقصاً خفيفاً مرفوع الرأس مطمئن الخط مستقيم القد ممدود الذراعين ثابت الساقين . وكان زديج يقول : « يا له من رجل شريف ! يا له من رجل كريم ! » وقد قبل الملك هذا الراقص المجيد وجعله على خزائنه وعوقب الآخرون وفرضت عليهم الغرامات فى أدق العدل وأقومه ؛ فقد كان كل واحد منهم أثناء اجتيازه للممر قد ملأ جيوبه حتى أثقله ما حمل ، فلم يكن يرقص إلا فى جهد شديد . وقد حزن الملك على الطبيعة الانسانية ؛ إذ رأى بين أربعة وستين راقصاً ثلاثة وستين سارقاً . وسمى الممر المظلم دهليز الإغراء . ولو وقع هذا الحادث فى فارس لسيق الثلاثة والستون رجلا إلى العذاب ، ولو وقع هذا الحادث فى بلد آخر لحوكم هؤلاء الناس أمام محكمة ينفق عليها ثلاثة أمثال المال المسروق ، دون أن تعيد إلى خزانة الملك شيئاً . وفى بعض البلاد الأخرى كان هؤلاء السارقون يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم أحسن الدفاع ، وأن يصبوا غضب الملك على هذا الراقص الخفيف . أما فى سرنديب فلم يقض على هؤلاء الناس إلا بإغناء بيت المال ؛ لأن نابوسان كان رجلا حليما عفوًّا .

وكان كذلك عارفاً للجميل ، فأهدى إلى زديج مالا عظيما أعظم مما سرق أى سارق من خزانة الملك . وقد انتفع زديج بهذا المال ، فأرسل رسلا إلى بابل ليعلموا له علم أستارتيه . وقد اضطرب صوته حين أصدر أمره إلى الرسل وعاد دمه إلى قلبه ، وغشيت عينيه سحابة من ظلمة ، وكادت نفسه تفارقه ، وقد أبحر الرسل ورآهم زديج يبحرون ، فعاد إلى قصر الملك . ولما لم ير أحداً ظن نفسه فى خلوة فنطق لسانه بلفظ الحب . قال الملك : « الحب ! إنه هو الذى يشغلنى . لقد استطعت أن تعرف مصدر حزنى . إنك لرجل عظيم ، وإنى لأرجو أن تدلنى على الطريق التى أعرف بها امرأة أمينة شريفة كما دللتنى على الطريق التى اهتديت بها إلى خازن أمين . » وقد ثاب زديج إلى نفسه ، ووعد الملك بأن يعينه على الحب كما أعانه على تدبير المال ، وإن كان أمر الحب أشد عسراً .

الفصل الخامس عشر

العيون الزرق

قال الملك لزديج : « الجسم والقلب . . . » فلم يستطع البابلي إلا أن يقاطع الملك قائلا : « ما أشد شكري لك لأنك لم تقل العقل والقلب ! فإنا لا نسمع إلا هاتين الكلمتين في أحاديث البابليين . وما أكثر ما نقرأ من الكتب التي تتحدث عن القلب والعقل ، وقد أنشأها قوم لا حظ لهم من قلب أو عقل . ولكن تفضل يا مولاي فأتمم حديثك . » قال نابوسان : « إن جسمي وقلبي قد خلقا للحب ، وقد رضي الأول ؛ ففي قصري مئة امرأة قد خصصت لخدمتي ، وكلهن حسان طائعات سابقات إلى ما أريد ، بل محبات للذة أو متكلفات هذا الحب ابتغاء مرضاتي . ولكن قلبي بعيد أشد البعد عن السعادة . فقد تبينت أكثر مما ينبغي أن هؤلاء النساء يمتعن ملك سرنديب ، ولا يفكرن في نابوسان . ولست أظن بنسائي خيانة أو إثماً ، ولكن أود لو أجد نفساً تخلص لي . ولو قد ظفرت بهذا الكنز لافتديته بهذه المئة من الحسان اللاتي يمتعنني بسحرهن ، فانظر هل تجد في هذه المئة من السلطانات واحدة أستطيع أن أثق بأنها تحبني؟ »

فأجابه زديج على نحو ما أجابه حين ذكر له الخُزّان : « مولاي ، دعني أفعل ، وأذن لي في أن أتصرف في الكنوز التي عرضتها في الممر ، وسأرفع إليك حسابها ولن تفقد منها شيئاً » . فترك له الملك الأمر كله . وتخير هو من بين أهل سرنديب ثلاثة وثلاثين رجلا كلهم أحدب ، وكلهم قد مني بقبح بشع ، وتخير كذلك ثلاثة وثلاثين من خدم القصر كلهم رائع الجمال ، وثلاثة وثلاثين كاهناً كلهم فصيح وكلهم قوي ، وترك لهم جميعاً الحرية في أن يدخلوا على السلطانات في مقاصيرهن ، وأتيح لكل أحدب أربعة آلاف دينار يغري بها . فلم يمض اليوم الأول حتى كان الحدب جميعاً سعداء . أما خدم القصر الذين لم يكن لديهم ما يعطون إلا أنفسهم فلم ينتصروا إلا بعد يومين أو ثلاثة أيام .

أما الكهنة فقد وجدوا مشقة أشد ، ولكن ثلاثاً وثلاثين من الصالحات أسمحن لهم آخر الأمر . وكانت للملك نوافذ يشرف منها على هذه المقاصير ، فرأى هذا الامتحان كله وبلغ منه العجب أقصاه . وقد رأى تسعاً وتسعين من نسائه يسقطن بمنظر منه . وبقيت واحدة شابة حديثة لم يدن منها الملك قط . فأرسل إليها أحدب وأحدبان وثلاثة عرضوا عليها أكثر من عشرين ألف دينار . ولكنها ثبتت على الشرف ، وضحكت من هؤلاء الحدب الذين قدروا أن المال يبلغهم ما يشاءون . ثم قدم إليها خادمان هما أروع الخدم جمالا ، فقالت إنها ترى الملك أجمل منهما . ثم أغرى بها أفصح الكهنة ثم أفواهم ، فوجدت أولهما ثرثاراً ولم تلتفت إلى ثانيهما. وكانت تقول : « إن القلب هو كل شيء ، ولن أستسلم آخر الدهر لأحدب من أجل ماله ، ولا لشاب من أجل جماله ، ولا لكاهن من أجل فتنته ، إنما أحب نابوسان بن نوسناب ، وسأنتظر أن يتنزل فيحبني . » هنالك غلب الفرح والدهش والحنان على الملك ، فأخذ كل ما قدم الحدب إلى النساء من مال وقدمه هدية إلى السلطانة الشابة ، وكانت تسمى فاليد . ثم أهدى إليها قلبه وكانت خليقة به ، ولم يرقط زهرة الشباب أشد إشراقاً ولا سحر الجمال أشد فتنة للقلوب كما رآهما فيها . والدقة التاريخية لا تسمح بأن نخفى أنها لم تكن تحسن التحية ، ولكنها كانت ترقص رقصاً رائعاً ، وتغنى كبنات البحر ، وتتحدث كآلهة الجمال ، وكان حظها عظيما من الفضيلة والذكاء .

وقد أحبت نابوسان ، وعبدها هو ، ولكن عينيها كانتا زرقاويين ، وكانت زرقة عينيها مصدر شقاء عظيم . وكان فى بابل قانون قديم يحظر على الملك أن يحب امرأة من هؤلاء النساء اللاتى سماهن اليونانيون فيما بعد ذوات عيون المها . وكان زعيم الكهنة قد شرع هذا القانون منذ خمسة آلاف سنة ، أراد بذلك أن يستأثر بخليلة الملك الأول بجزيرة سرنديب ، وجعل هذا القانون جزءاً من دستور الدولة ؛ فما هى إلا أن تسعى طبقات الدولة كلها إلى الملك لترفع إليه احتجاجها . وجرى على الألسنة كلها أن ساعة المملكة قد اقتربت ، وأن الشر قد بلغ أقصاه ، وأن الطبيعة كلها معرضة لخطر عظيم ؛ لأن نابوسان بن نوسناب يحب عينين كبيرتين زرقاوين . وقد امتلأت المملكة بشكاة الحدب ورجال المال والكهنة والنساء السمر .

وانتهز الشعب المتوحش الذى يسكن شمال الجزيرة فرصة هذا السخط

العام ، فأغار لجأة على مملكة نابوسان الخير ، وطلب الملك إلى رعيته مالا ، فاكتفى الكهنة الذين يملكون نصف الدولة برفع أيديهم إلى السماء ، وأبوا أن يدخلوها فى خزائنهم ليعينوا الملك ، وأعلنوا صلوات موسيقية رائعة ، وتركوا الدولة نهباً للمغيرين المتوحشين .

قال نابوسان : « أيها العزيز زديج أستقذى أنت من هذه الورطة أيضاً ؟ »
قال زديج : « حبّا وكرامة ، ستظفر من أموال الكهنة بكل ما تريد . فدع الأرض التى أقاموا عليها قصورهم ودافع عن أرضك وحدها . » وقد استجاب نابوسان إلى زديج ، فما أسرع ما أقبل الكهنة إليه ضارعين يلتمسون معونته . وقد أجابهم الملك بصلاة موسيقية رائعة توسل فيها إلى السماء أن تحمى أرضهم من العدوان . هناك قدم الكهنة أموالهم ، وانتهى الملك بالحرب إلى غاية سعيدة . وكذلك جر زديج على نفسه بمشورته الحكيمة الموفقة وخدمته العظيمة عداوة لا هوادة فيها من أكبر رجال الدولة . فأقسم الكهنة والنساء السمر ليهلكنه ، وتحالف الحدب ورجال المال على أن ينغصوا عليه الحياة . وما زالوا به حتى شككوا فيه الخير نابوسان . وقد قضى زرادوشت بأن ما يؤدى من خدمة يظل فى حجرة الانتظار ، وبأن الشك والريبة ، ينفذان إلى ماوراء الأبواب . وكان كل يوم يتكشف عن اتهام جديد . فأما التهمة الأولى فتدفع ، وأما التهمة الثانية فتمس مسا رفيقاً ، وأما الثالثة فتجرح ، والرابعة هى التى تقتل .

وكان زديج قد ارتاع لما رأى ، وكان قد باع تجارة صديقه سيتوك وحصل أمواله ، فلم يفكر منذ ذلك الوقت إلا فى الرحيل ، وأزمع أن يذهب بنفسه ليعلم علم أستارتيه . وكان يقول لنفسه : «إن أقمت فى سرنديب دفعنى الكهنة إلى العذاب. ولكن إلى أين أذهب ! سأكون رقيقاً فى مصر ، وسأحرق فى أكبر الظن إن ذهبت إلى بلاد العرب ، وسأشنق فى بابل . ومع ذلك يجب أن أعلم مصير أستارتيه ؛ فلنرتحل ولننظر ماذا ادّخر لى القضاء الكئيب . »

الفصل السادس عشر

قاطع الطريق

بلغ زديج الحدود التى تفصل بين بتراء وسوريا ، فرأى قصراً عظيما خرج منه أعراب مسلحون ، ورأى نفسه وقد أحيط به والأعراب من حوله يتصايحون : « كل ما معك من مال فهو لنا ، أما شخصك فلسيدنا . » وقد أجاب زديج فاستل سيفه ، وكان خادمه شجاعاً فصنع صنيعه . وما هى إلا أن يصرعا من الأعراب أول من تقدم إليهما ليضع عليهما يده ، ثم تضاعف العدد ، فلم يدهشهما ذلك وإنما أزمعا أن يموتا محاربين . وكان رجلان يقاتلان جماعة ضخمة من الناس وموقعة كهذه لا يمكن أن تطول . وكان صاحب القصر واسمه أربوجاد ينظر من إحدى النوافذ ، فلما رأى بلاء زديج ونجدته أحبه ؛ فنزل مسرعاً وأقبل حتى فرق عنه الجماعة وقال : « كل ما مر بأرضى فهو لى ، وكل ما وجدت بأرض غيرى فهو لى أيضاً ، ولكنى أراك رجلا شجاعاً ، فقد وضعت عنك ثقل هذا القانون العام . » ثم أدخله القصر ، وأمر أصحابه أن يحسنوا العناية به . فلما كان المساء دعاه إلى مائدته .

وكان سيد القصر رجلا من هؤلاء الأعراب الذين يسمون لصوصاً ، ولكنه كان أحياناً يأتى قليلا من الحسنات بين كثير من السيئات : كان يسرق فى كثير من الطمع وحب المال ، وكان يعطى فى كرم وسخاء . كان شجاعاً فى الحرب ، حلو العشرة ، ماجناً على المائدة مرحاً فى مجونه ، وكان على هذا كله شديد الصراحة . وقد أعجبه زديج إعجاباً شديداً ، وقد كان حديثه نشيطاً حيا فطال جلوسه إلى المائدة . ثم قال أربوجاد : « إنى أنصح لك بأن تنضم إلى جندى ، فذلك خير ما تستطيع أن تصنع ؛ فان هذه المهنة لا بأس بها ، وجائز أن تصل ذات يوم إلى ما وصلت أنا إليه . » قال زديج : « هل لى أن أسألك منذ كم مارست هذه المهنة الشريفة ؟ » أجاب : «منذ شبيبتى الأولى ؛ فقد كنت

خادماً لعربى ماهر ، وكنت أبغض مكانى منه أشد البغض ، وكنت شديد الحنق لما كنت أرى من أن هذه الأرض التى سخرت للناس جميعاً لم يتح لى منها نصيب . فأفضيت بهمى إلى عربى شيخ ، فقال لى : يا بنى ، لا تيأس ، فقد كانت فى قديم الزمان حبة من رمل تشكو مر الشكوى من أنها ذرة ضئيلة فى الصحراء ، فلما مضت عليها سنون أصبحت ماسة ، وهى الآن أبهى ما يزدان به تاج ملك الهند . وقد أثر فىّ هذا الحديث . كنت حبة الرمل ، فأزمعت أن أصبح ماسة . وقد بدأت فسرقت فرسين ، ثم جمعت حولى بعض الرفاق ، وتهيأت للسطو على صغار القوافل ، وكذلك ألغيت قليلا قليلا ما كان بين الناس وبينى من الفروق . وقد أخذت حظى من متاع هذه الدنيا ، ولعلى آن أكون نلت من الخير أضعاف ما احتملت من الحرمان . وقد ارتفعت مكانتى بين الناس وأصبحت أميراً قاطع طريق ، وأخذت هذا القصرعنوة . وقد هم حاكم سوريا أن ينتزعه منى ، ولكنى كنت قد بلغت من الغنى حدًّا لا أخاف معه شيئاً . ثم بسطت سلطانى على جزء عظيم من الأرض ، وعهد إلى أن أكون جابياً للإتاوة التى تؤديها بتراء إلى ملك الملوك . وقد جبيت الاتاوة ، ولكن لم أؤد منها شيئاً .

« وقد أرسل خازن بيت المال للملك مؤبدار فى بابل حاكماً ما ليشنقنى ، وقد أقبل هذا الرجل ومعه الأمر بشنقى ، وكان يعلم كل شىء ، وقد شنقت بين يديه الأشخاص الأربعة الذين استصحبهم لشنقى . ثم سألته ما عسى أن يغل عليه شنقى من المال ؟ قال : نحو ثلاث مئة دينار . فبينت له أنه يستطيع أن يكسب عندى أكثر من ذلك . ثم جعلته لصا مساعداً ، وهو الآن من خيرة رجالى . وإنك لخليق إن أطعتنى أن تنجح كما نجح . فلم تكن الظروف قط مواتية للسطو كما هى الآن بعد قتل مؤبدار . »

قال زديج : « قد قتل مودبار ؟ وإلام صار أمر الملكة أستارتيه ؟ » قال أربوجاد : « لا أدرى ! وكل ما أعرفه هو أن مؤبدار قد جن ثم قتل ، وأن بابل قد أصبحت موطناً للجرائم ، وأن الدولة كلها قد ظهر فيها الفساد ، وأن هناك سبلا إلى العمل ، وأنى قد أبليت بلاء حسناً وحقيقاً بالاعجاب . » قال زديج : « ولكن أضرع إليك فى أن تنبئنى : ألا تعلم من أمر الملكة شيئاً ؟ » قال أربوجاد : « لقد حدثت عن أمير لأركانيا ، وأحسب أنها بين إمائه إن لم تكن قد قتلت فى الموقعة . ولكنى أحرص على الغنيمة منى على الأنباء . وقد أخذت

فى غزواتى نساء كثيرات وبعتهن جميعاً ، وأنا أغالى بالحسان منهن دون أن أحتفظ بواحدة منهن أو أسأل عن أنبائهن . وليس من سبيل إلى شراء المراتب ، وإن الملكة القبيحة الخليقة ألا تجد مشترياً . ولعلى قد بعت الملكة أستارتيه ، ولعلها قد ماتت ، لا يعنينى شئ من ذلك ، وأنت خليق ألا تعنى بشئ من ذلك . »

وكان يقول ذلك ويمعن فى الشرب حتى اختلط عليه كل شئ . ولم يستطع زديج أن يعلم منه شيئاً .

فلبث ذاهلا واجماً قد أثقلته الهموم . وكان أربوجاد ممعناً فى شربه ، ملحًّا فى حديثه ، معلناً دائماً أنه أسعد الناس ، ملحا على زديج أن يجعل نفسه سعيداً مثله . ثم دفعته الخمر إلى نوم هادئ هنئ . وأنفق زديج ليلته مضطرباً أشد الاضطراب . وكان يقول لنفسه : « ماذا ! لقد جن الملك وقتل ! إنى لأرثى له أشد الرثاء . لقد مزقت الدولة ، وقاطع الطريق هذا سعيد . يا للحظ ! ياللقضاء! إن اللص لسعيد ، وإن أجمل من صورت الطبيعة يمكن أن يكون قد مات أبشع الموت ، أو أن يكون قد كتبت عليه حيــاة شر من الموت ! أى أستارتيه إلام صار أمرك ؟ »

فلما أسفر الصبح جعل يسأل كل من لقيه فى القصر ، ولكن الناس جميعا كانوا عنه فى شغل فلم يرجع عليه أحد جواباً . وكان القوم قد أغاروا وغنموا أثناء الليل ، فكانوا يقتسمون الغنائم . وكل ما استطاع أن يظفر به فى هذا الاضطراب والاختلاط هو الإذن له بالسفر ، فأسرع إلى الرحيل غارقاً فى تفكيره الأليم .

ومضى زديج أمامه مضطرباً قلقاً قد شغل عقله بالبائسة أستارتيه وبملك بابل ، وبخليله كادور ، وباللص السعيد أربوجاد ، وتلك المرأة الجامحة التى اختطفها البابليون على حدود مصر ، ثم كل المصاعب والمصائب التى ألحت عليه .

الفصل السابع عشر

الصائد

فلما كان على مراحل من قصر أربوجاد وجد نفسه على شاطئ جدول صغير وهو يندب حظه و يرى أنه صورة صادقة للشقاء . ولكنه رأى غير بعيد منه صائداً نائماً على الشاطئ ممسكاً فى فتور وبيد كسلى شبكته التى كان كأنه يهملها وقد رفع عينيه إلى السماء وهو يقول :

— إنى لأشقى الناس جميعاً ، ما فى ذلك شك . لقد كنت عند أهل بابل أعظم باعة الجبن الأبيض ، ثم حل بى الخراب . ولقد كانت زوجى أجمل امرأة أتيحت لرجل وقد خانتنى . وقد بقيت لى دار ضئيلة حقيرة ، فرأيتها تنهب وتدمر ، وأنا الآن لاجئ إلى كوخ صغير لا أجد سبيلا إلى الرزق إلا الصيد ، ولكن لا أظفر بسمكة واحدة . أيتها الشبكة لن ألقيك فى الماء بل سألقى نفسى فيه .

ثم ينهض ويسعى فى هيئة الرجل الذى يريد أن يلقى نفسه فى الماء ليختم حياته .

قال زديج لنفسه : « ماذا ؟ أفى الناس من يعدل شقاؤهم شقائى ! » ثم كان نشاطه إلى إنقاذ هذا الرجل سريعاً كخاطره هذا ، فيجرى إليه فيمسكه ويسأله فى لهجة يشيع فيها الرفق والحنان والتعزية . والناس يزعمون أن الشقاء يخف على الانسان إذا لم يكن وحيداً . ولكن مصدر ذلك فيما يقول زرادوشت ليس هو الدهاء ، و إنما هى الحاجة ، فالانسان يشعر حينئذ بأنه مجذوب إلى إنسان شقى كما يجذب النظير إلى نظيره ، بحيث يصبح ابتهاج الرجل السعيد كأنه إهانة للبؤس . ولكن الشقيين إذا التقيا كانا أشبه بشجيرتين تعتمد كل واحدة منهما على صاحبتها فتثبتان بذلك للعاصفة .

قال زديج للصياد : « لماذا تستسلم للشقاء ؟ » قال الصياد : « لأنى لا أجد

لى منه مخرجاً . لقد كنت أرفع الناس مكانة فى قرية دير لباك قريباً من بابل ، وكنت أصنع مستعيناً بامرأتى أجود ما فى الدولة من الجبن الأبيض ، وكانت الملكة أستارتيه والوزير المشهور زديج يحبان هذا الجبن أشد الحب . وقد قدمت إلى قصريهما ست مئة قطعة منه . وذهبت ذات يوم إلى المدينة لأقبض الثمن ، فلما وصلت إلى بابل عرفت أن الملكة وزديج قد استخفيا . فأسرعت إلى قصر زديج ولم أكن عرفته قط ، وإذا أنا أرى جند صاحب الخزانة ومعهم أمر ملكى، ينهبون القصر ويدمرونه كأحسن ما يكون النهب والتدمير .فأسرعت إلى مطبخ الملكة ، وهنالك أنبأنى بعض القائمين على طعامها أنها ماتت وقال آخرون إنها فى السجن ، وزعم آخرون أنها لاذت بالفرار . ولكنهم جميعاً أكدوا لى أن ثمن الجبن لن يؤدى إلىّ . فذهبت ومعى امرأتى إلى الأمير أوركان ، وكان أحد عملائى ، وطلبت إليه أن يحمينا من هذه المحنة . فمنح حمايته لامرأتى ورفض أن يمنحنى إياها ، وكانت أنصع بياضاً من هذا الجبن الذى كان أصل شقائى ، ولم يكن إشراق الأرجوان الذى تصدره مدينة صور أشد بهجة مما كان يشرب بياضها من الحمرة . وهذا هو الذى أغرى أوركان باحتجازها وطردى من قصره . فكتبت إلى امرأتى العزيزة رسالة من بلغ به الحزن حد اليأس . فقالت لمن أدى إليها الرسالة : « إنى لا أعرف صاحبها ! لقد سمعت الناس يتحدثون عنه ، يقال إنه يصنع جبناً متقناً فليحمل إلىّ بعض هذا الجبن وليؤدى إليه ثمنه . »

« فلما اشتد بى الشقاء أردت أن ألجأ إلى القضاء . ولم يكن بقى لى إلا ستة مثاقيل من ذهب ، فلم يكن بد من أن أدفع اثنين منها إلى رجل القانون الذى استشرته ، واثنين للنائب الذى تولى قضيتى ، واثنين لأمين القاضى الأول . فلما فرغت من هذا كله لم تكن قضيتى قد ابتدئت ، وكنت قد أنفقت من المال أكثر مما يساوى جبنى ومما تساوى امرأتى . فعدت إلى قريتى وأنا أريد أن أبيع دارى لأسترد امرأتى .

« وكانت دارى تقوّم بستين مثقالا من الذهب ، ولكن الناس كانوا يروننى فقيراً حريصاً على البيع . فساومنى أول من عرضت عليه الدار ثلاثين مثقالا ، وعرض علىّ الثانى عشرين والثالث عشرة . وكنت مستعدا لإمضاء البيع لكثرة ما كان يشغلنى عن التبصر فى أمرى . ولكن أمير أركانيا

أقبل مغيراً على بابل ودمر فى طريقه كل شئ، ونهبت دارى أول الأمر ثم أشعلت فيها النار.

« فلما فقدت مالى وامرأتى ودارى أويت إلى هـذه الأرض حيث ترانى ، وحاولت أن أعيش من صناعة الصيد . ولـكن السمك يسخر منى كما يسخر منى الناس فلا آخذ منه شيئاً . وقد كاد الجوع أن يهلكنى ، ولولا أنت أيها المعزى الـكريم لأغرقت نفسى فى هذا النهر . »

لم يسق الصياد قصته هذه على نسق واحد ؛ فقد كان زديج يقاطعه من وقت إلى وقت متأثراً محزوناً قائلا : « ماذا ؟ ألا تعلم شيئاً عن مصير الملكة ؟ » كان الصياد يجيبه : «لا يا سيدى ! ولـكنى أعلم أن الملـكة وزديج لم يؤديا إلىّ ثمن الجبن، وأن امرأتى قد أخذت منى ، وأنى قد صرت إلى اليأس.» قال : « أنا أزعم أنك لن تفقد مالك كله ؛ فقد سمعت الناس يتحدثون عن زديج هذا وهو رجل شريف ، وأنه إذا عاد إلى بابل كما يأمل أن يعود إليهـا لؤد إليـك أكثر مما لك عنده . أما امرأتك التى ليست على هذا الحظ من الوفاء فانى أنصح لك أن تتخذ مكانها زوجاً أخرى . صدقنى وعد إلى بابل ، وسأبلغها قبل أن تصل أنت إليها ،فأنا فارس وأنت راجل . فاذا بلغت المدينة فاذهب إلى كادور المشهور وقل له إنك لقيت صاحبه فى بعض الطريق وانتظرنى عنده حتى ألقاك . إمض فعسى ألا تـكون شقيا دائماً . »

ثم مضى زديج قائلا : « أيها القوى العظيم أوروزماد إنك لتسخرنى لتعزية هذا الرجل ، فمن عسى أن تسخر لتعزيتى ؟ » قال ذلك ودفع إلى الصياد نصف المال الذى احتمله من بلاد العرب كلها ، وجعل الصياد الدهش السعيد يقبل رجليه ويقول : « إنما أنت ملك منقذ . »

وكان زديج مع ذلك يطلب الأنباء ويذرف الدموع . قال الصياد : « ماذا يا سيدى ! أيمـكن أن تـكون شقيا إلى هذا الحد وأنت الذى يبذل المعروف ؟ » قال زديج : « إنى لأشقى منك مئة مرة . » قال الصياد :« ولكن كيف يمـكن أن يـكون من يعطى أشد شقاء ممن يأخذ ؟ » قال زديج :« لأن معظم شقائك يأتى من الحاجة ، أما شقائى فمصدره القلب . » قال الصياد : « أيمـكن أن يـكون أوركان قد اغتصب منك زوجك ؟ » فأثارت هذه الكلمة فى نفس زديج ذكرى مغامراته كلها ، وجعل يعدد ما ألم به من المصائب ،

مبتدئاً بكلبة الملكة ومنتهياً بوصوله إلى قصر أربوجاد . ثم قال للصياد : « إن أوركان خليق أن يعاقب ، ولكن العادة جرت بأن أمثاله هم أحسن الناس حظا . ومهما يكن من شئ فامض إلى قصر السيد كادور ، وانتظرنى هناك . » ثم افترقا ، ومضى الصياد يثنى على حظه ، وعاد زديج يلعن حظه لعناً .

الفصل الثامن عشر

الباسليك

وانتهى زديج إلى مرج جميل ، فرأى جماعة من النساء يبحثن عن شئ ويمعنّ فى البحث . فاستباح لنفسه أن يدنو من إحداهن وسألها : ألا يستطيع أن يشرف بمعونتهن على التماس ما يبحثن عنه . قالت السورية : « إياك أن تفعل ؛ فان ما نلتمسه لا ينبغى أن يمسه إلا النساء . » قال زديج : « هذا شئ غريب ، هل لى أن أسألك عن هذا الذى لا ينبغى أن يمسه إلا النساء؟ » قالت : « إنه الباسليك . » قال زديج : « الباسليك يا سيدتى ! وفيم تبحثن عن الباسليك ؟ » قالت السورية : « إنما نبحث عنه لمولانا أوجول صاحب هذا القصر الذى تراه على شاطئ النهر فى أقصى المرج ، فنحن إماؤه ، وقد أصابته علة فوصف له الطبيب الباسليك مطبوخاً فى ماء الورد . وهذا الحيوان نادر لا يستسلم إلا للنساء ؛ فقد أزمع مولانا أوجول أن يتزوج ممن تظفر له بالباسليك ، فدعنى أبحث إن شئت ؛ فقد ترى ما أتعرض له إن ظفرت إحدى صاحباتى من دونى بالباسليك . »

وقد ترك زديج هذه السورية وصاحباتها يبحثن عن الباسليك ، ومضى فى المرج يسعى أمامه . حتى إذا بلغ شاطئ الجدول رأى سيدة أخرى مستلقية لا تبحث عن شئ ، وكان قدها يظهر فخما وقد ألقى على وجهها نقاب ، وكانت منحنية نحو الجدول ترسل من فمها زفرات عميقة . وقد أخذت بيدها عوداً صغيراً جعلت تخط به حروفاً على الرمل الدقيق المنبسط بين العشب والجدول . وقد

أحس زديج الحاجة إلى أن يتعرف ما كانت هذه السيدة تخط من حروف ؛ فدنا وتبين حرف الزاى ، ثم حرف الألف ، ثم ظهر حرف الدال ، فأخذته رعدة ، ولم يبلغ الدهش من أحد قط مابلغه منه حين رأى الحرفين الأخيرين من اسمه . فلبث ساعة ساكناً ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج قائلا : « أيتها السيدة الكريمة ، عفوك عن غريب بائس إذا اجترأ فسألك بأى مصادفة مدهشة يجد هنا اسم زديج . » فلما سمعت السيدة هذا الصوت ، وهذه الألفاظ رفعت نقابها بيد مرتعدة ، ثم نظرت إلى زديج ، ثم صاحت صيحة فيها الحنان والدهش والفرح ، ثم صرعتها العواطف المختلفة التى أخذت نفسها من كل وجه فخرت مغشيا عليها بين ذراعيه . وكانت هذه السيدة هى أستارتيه ، هى ملكة بابل ، هى التى كان زديج يعبدها ويلوم نفسه على عبادتها ، هى التى بكى عليها ما بكى ، وخاف عليها ما خاف . فظل ساعة لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وقد وجه لحظه إلى عينى أستارتيه اللتين ، كانتا قد أخذتا تتفتحان فى فتور وخجل وحنان . هنالك صاح زديج : « أيتها القوة الخالدة التى تدبر مصير الناس ، أيمكن أن تردى إلىّ أستارتيه ؟ فى أى زمان فى أى مكان ، فى أى حال ألقاها . » ثم جثا أمام أستارتيه ومرغ جبهته فى التراب عند قدميها . فتنهضه ملكة بابل وتجلسه إلى جانبها على شاطئ الجدول ، ثم تمسح غير مرة عينيها اللتين كانتا لا تجفان إلا لتستأنفا سكب الدموع . وكانت تستأنف عشرين مرة حديثها الذى كان يقطعه الأنين . وكانت تسأله عن المصادفة التى جمعت بينهما، ثم تصرفه عن الرد عليها بأسئلة أخرى تلقيها عليه. وكانت تبدأ قصة آلامها ثم تقطع ذلك لتعرف من آلام زديج ما كانت تجهل. ثم انتهيا آخر الأمر إلى تهدئة ما سيطر على نفسيهما من اضطراب ،وقص زديج عليها فى حديث موجز ما ألم به من الخطوب . ثم قال : « ولكن أيتها البائسة العزيزة كيف أتيح لى أن ألقاك فى هذا المكان المنعزل فى زى الإماء مرافقة نساء أخريات يبحثن عن الباسليك ليطبخ فى ماء الورد تنفيذاً لأمر الطبيب ؟ »

قالت الحسناء أستارتيه :

— سأدعهن يبحثن عن الباسليك ، وسأنبئك بكل ما احتملت وبكل ما أتجاوز عنه للأقدار بعد أن أتاحت لى لقاءك . لقد علمت أن الملك زوجى

قد أنكر أن تكون أحب الناس إلى النفوس . ومن أجل هذا أزمع ذات ليلة أن يشنقك ويسمني . وقد علمت كيف أذن الله للقزم الأخرس أن ينبئني بما دبر الملك العظيم . وما كاد الوفى كادور يكرهك على أن تطيع أمرى وتفر من بابل حتى دخل على بعد أن نفذ إلى القصر من باب سرى . ومن هناك اختطفني وذهب بي إلى معبد أوروزماد حيث خبأني أخوه الكاهن فى جوف تمثال عظيم تستقر قاعدته عند أساس المعبد ، ويبلغ رأسه قبته . هنالك أقمت كالمدفونة . ولكن الكاهن كان يخدمني ويوفر لى كل حاجاتى بحيث لم ينقصني شئ مما لابد منه . ثم لم يسفر الصبح حتى دخل غرفتى صيدلى الملك يحمل شراباً مزاجه سم نافع من البنج والأفيون والشوكران والخربق وخانق الذئب . وذهب موظف آخر إلى قصرك ومعه حبل من حرير أزرق ، فلم يوجد منا أحد . وأزمع كادور أن يخدع الملك فأقبل إليه يشكوني ويشكوك ، وزعم أنك اتخذت طريقك إلى الهند ، وأني اتخذت طريقى إلى مصر ، فأرسل السعاة فى أثرك وفى أثرى .

« وكان الذين يطلبونني لا يعرفونني . ولم أكن قد أظهرت وجهى قط إلا لك بمحضر من الملك وبأمره . فمضوا يطلبونني على هدى الصورة التى وصفت لهم عليها ، فصادفوا على حدود مصر امرأة لها قامتى ، ولعلها أن تكون أجمل منى . وكانت باكية هائمة . فلم يشكوا فى أنها ملكة بابل ، فحملوها إلى مؤبدار . فلما رأى الملك خطأهم أخذه غضب عظيم ، ولكنه تأمل ملامح هذه المرأة ، فرأى جمالها وبهجتها ، فسكت منه الغضب وأسرع إليه العزاء . وكانت هذه المرأة تسمى ميسوف وقيل لى بعد ذلك إن هذا الاسم معناه عند المصريين الجامحة الحسناء . وكانت جامحة حقا ، ولكن مهارتها لم تكن أقل من جموحها ، وقد أعجبت مؤبدار وتسلطت عليه ، حتى أعلن أنها أصبحت له زوجاً . وهنالك ظهر خلقها كله ، فاندفعت فى غير خوف إلى كل ما أوحى إليها خيالها من آيات الجنون . وقد أرادت أن تكره عظيم الكهنة ، وكان شيخاً كبيراً قد أخذه النقرس ، على أن يرقص بين يديها ، فلما أبى اضطهدته أشد الاضطهاد . وقد أمرت صاحب خيلها أن يصنع لها كعكة من الحلوى . وقد اجتهد صاحب الخيل فى أن يقنعها بأنه ليس صاحب هذه الصناعة ، ولكنها أبت إلا أن يطيع ، ثم عاقبته بعد ذلك لأن كعكته أصابها بعض الحريق . وقد اختارت قزمها

لمنصب صاحب الخيل ، وجعلت سياسة الدولة إلى أحد خدم القصر . وكذلك حكمت مدينة بابل ، وكان الناس جميعاً يذكرونني آسفين . أما الملك الذى كان رجلا شريفاً مستقيما إلى اليوم الذى أزمع فيه أن يقتلني ويشنقك ، فكان يظهر كأنما أغرق فضيلته فيما استأثر به من حب عظيم للجامحة الحسناء . فلما كان يوم العيد المقدس سعى إلى المعبد ، ورأيته جاثياً أمام التمثال الذى كنت أستخفى فيه وهو يستنزل عطف الآلهة على ميسوف ، فرفعت صوتى صائحة به : « إن الآلهة يأبون أن يسمعوا لملك أصبح طاغية ، وهمّ أن يقتل امرأة عاقلة ليتزوج مكانها امرأة خرقاء . » وقد صدم مؤبدار بهذا الكلام حتى اختلط عقله. فكان الوحى الذى ألقيته وطغيان ميسوف كافيين ليفقد الرجل صوابه فلم تمض أيام حتى انتهى إلى الجنون .

« وكان جنونه الذى رأى الناس فيه عقاباً من السماء أول بوادر الثورة. فثار الناس وطاروا إلى أسلحتهم ، وأصبحت بابل التى طال عهدها بالبطالة والترف ميداناً لحرب أهلية منكرة ؛ فأخرجت من جوف التمثال ووضعت على رأس أحد الأحزاب . وأسرع كادور إلى ممفيس ليردك إلى بابل . ولكن أمير اركانيا لم يكد يعلم بهذه الأحداث حتى أقبل بجيشه ، فكون حزباً ثالثاً فى بلاد الكلدانيين وقد هجم على جيش الملك فأسرع الملك إلى لقائه فى حماقته المألوفة ومعه مصريته الخرقاء . فقتل مؤبدار مطعوناً ؛ وسقطت ميسوف بين أيدى المنتصرين . وأراد سوء الحظ أن يأخذنى أنا أيضاً جماعة من جند اركانيا وأن أقاد أمام الأمير فى نفس الوقت الذى قيدت إليه فيه ميسوف . وقد يتملقك فيما أظن أن تعلم أن الأمير وجدنى أجمل من المصرية ، ولكن قد يسوءك أن تعلم أنه أضافنى إلى حريمه ، وقال لى فى عزم وتصميم إنه سيسعى إلىّ متى فرغ من غارة كان يريد أن يتمها ، فقدّر ألمى . لقد انقطعت الأسباب بينى وبين مؤبدار ، وأصبح من الممكن أن أقترن بزديج ، وهذه الأقدار تسلمنى إلى أمير متوحش .وقد أجبته مع كل الكبرياء التى تتيحها لى منزلتى وعواطفى . لقد سمعت دائماً أن السماء تمنح أمثالى من الناس مزية تتيح لهم إذا نطقوا بكلمة أو نظروا نظرة ، أن يردوا إلى الضعة والاستخذاء كل جرئ يحاول أن يريدهم بسوء . وكنت أتحدث حديث الملكة . ولكنى عوملت معاملة الوصيفة. فلم يلتفت الاوركانى إلى ، وإنما قال لخصيه الأسود إنه يجدنى وقحة ولكنه

يرانى حسناء . ثم آمره أن يحسن العناية بى و يحملنى على خطة الخطايا فى الطعام والشراب ، حتى يردنى رخصة مشرقة ، وحتى أصبح أهلا لرضاه حين يتفضل فيمنحنى قربه . وقد أعلنت إليه أنى سأقتل نفسى ، فأجاب ضاحكاً أن الناس لا يقتلون أنفسهم ، وأنه خبير بهذا النحو من الإباء، ثم انصرف عنى وكأنه رجل قد وضع ببغاء فى حظيرته التى خصصها لغرائب الحيوان . فالى أى هوان دفعت أكبر ملكات الأرض ! بل إلى أى حال دفع هذا القلب الذى كان موقوفاً على زديج ! »

هنالك جثا زديج أمامها وبلل ركبتيها بدموعه . فأنهضته أستارتيه فى حنان ومضت قائلة :

— فكنت أرى نفسى أسيرة عند همجى متوحش ، وخصما لامرأة مجنونة قد حبست معى . وقد حدثتنى بقصتها فى مصر . وقد عرفت من الملامح التى ذكرتها ومن وصف النجيب الذى كان يحملك ، ومن كل الظروف التى أحاطت بهذه القصة أن زديج هو الذى قاتل من أجلها . ولم أشك فى أنك كنت مقيما فى ممفيس ، فأزمعت أن آوى إليها . فقلت لها : « أيتها الحسناء ميسوف إنك أنضر منى جمالا ، وأقدر منى على تلهية أمير اركانيا . أعينينى على الهرب فسيتيح ذلك لك أن تتسلطى وحدك ، وأن تسعدى بالتخلص من منافسة . » وقد دبرت ميسوف معى وسيلة الهرب ، فانسللت ذات يوم ومعى خادم مصرية .

« وكنت قد قاربت بلاد العرب ، ولكن قاطع طريق يسمى أربوجاد يعدو علىّ فيخطفنى فيبيعنى لبعض التجار ، ويحملنى هؤلاء إلى هذا القصر الذى يقيم فيه السيد أوجول . وقد اشترانى دون أن يعرف من أكون . وهو رجل صاحب لذة لا يعنيه إلا أن يعكف على الطعام ، وهو يعتقد أن الله لم يخلقه إلا ليجلس إلى المائدة . وهو ضخم قد تجاوزت ضخامته الحد حتى لتوشك أن تخنقه ، وليس لطبيبه عنده خطر إذا حسن هضمه لما يلتهم ، ولكنه يحكمه حكم الطاغية إذا أسرف على نفسه فى الأكل . وقد ألقى فى روعه أنه سيبرأ من علته إذا أكل الباسليك مطبوخاً فى ماء الورد . وقد وعد السيد أوجول بالزواج أى إمائه تحمل إليه الباسليك . وها أنت ذا ترى أنى أتركهن يجهدن فى استحقاق هذا الشرف ، وما أعرف أنى زهدت فى الظفر بالباسليك بمقدار ما زهدت فيه منذ أذنت السماء لى فى أن ألقاك . »

ثم أفضى كل من العاشقين إلى صاحبه بكل ماتوحيه العواطف التى طال كبتها ، وبكل ماتلهم الآلام والحب للقلوب الكريمة من حنان نبيل ، ورفعت الأرواح الموكلة بالحب حديثهما حتى بلغت به فلك الزهرة .

وقد عاد النساء إلى القصر دون أن يجدن شيئاً . ومثل زديج بين يدى أوجول متحدثاً إليه على هذا النحو : « لتهبط العافية الخالدة من السماء لتعنى بحياتك كلها . إنى طبيب، سمعت بعلتك فأسرعت إليك أحمل الباسليك مطبوخاً فى ماء الورد . ولست أطلب لذلك ثمناً ان اقترن بك ، وإنما أطلب أن تعتق أمة شابة بابلية حملت إلى هذا القصر منذ أيام ، وأنا زعيم أن أكون فى مكانها من الرق إن لم أشف الأمير العظيم أوجول . »

وقد قبل عرض زديج ، وسافرت أستارتيه إلى بابل ومعها خادمة ، وقد وعدته بأن ترسل إليه فى أقرب وقت رسولا ينبئه بكل ما يجرى فى بابل من الأحداث . وكان وداعهما مفعما بالحنان كما كان لقاؤهما .

وقد جاء فى كتاب الزند العظيم أن ساعة اللقاء وساعة الوداع هما أخطر ساعات الحياة . وكان زديج يحب الملكة بمقدار ما كان يؤكد لها حبه ، وكانت الملكة تحب زديج أكثر مما كانت تعلن إليه .

ثم قال زديج لأوجول : « سيدى إن الباسليك الذى أحمله لا يؤكل وإنما تنالك خصائصه من طريق المسام . وقد وضعته فى قربة منفوخة مغطاة بجلد رقيق ، فيجب أن تدفع هذه القربة بكل ماتقدر عليه من قوة وأن أردها عليك . وإذا مضينا على هذا النحو أياماً قليلة فسترى إلى أى حد يستطيع فنى أن يصل . » فلما كان اليوم الأول وجد أوجول مشقة عظيمة فى التنفس حتى ظن أنه ميت من الإعياء . ولما كان اليوم الثانى تعب أقل من أمس ونام أحسن مما نام أمس . ولم تمض أيام ثمانية حتى استرد كل قوته وخفته ومرحه الذى ألفه فى أعوامه السعيدة . قال له زديج : « إنما لعبت بالكرة وأخذت نفسك بالقناعة ، فتعلم أن الباسليك لا يوجد فى الطبيعة ، وأن صحة الانسان رهينة بالقناعة والتمرين ، وأن الفن الذى يتيح للانسان أن يجمع بين الصحة والشره إنما هو فن خيالى يشبه حجر الفلاسفة وطوالع النجوم وسحر الكهان . »

وقد أحس طبيب أوجول بأن زديج قد أصبح خطراً بالقياس إليه ، فاتفق مع صيدلى القصر على أن يرسل زديج يلتمس الباسليك فى العالم الآخر . وكذلك

بعد أن عوقب زديج على إحسانه أصبح الآن معرضاً للموت لأنه أبرأ من العلة أميراً شرهاً . وقد دعي إلى وليمة فاخرة . وكان قد تقرر أن يوضع له السم في الدور الثاني من أدوار المائدة . ولكنه في الدور الأول تلقى كتاباً من الحسناء أستارتيه ، فترك المائدة ومضى لوجهه . وقد قال زرادوشت العظيم : « إن الانسان الذي تحبه غادة حسناء ينقذ دائماً من المشكلات في هذه الحياة . »

الفصل التاسع عشر

المبارزة

كان استقبال الملكة في بابل مليئاً بالعطف على ملكة حسناء بائسة . وكانت بابل في ذلك الوقت تظهر هادئة مطمئنة ، فقد قتل أمير إركانيا في بعض المواقع ، وقرر البابليون المنتصرون أن أستارتيه ستكون زوجاً للأمير الذي يختارونه ليكون لهم ملكاً . وقد أبوا أن يكون أرفع مكان في العالم وهو مقام الذي سيقترن بأستارتيه ويصبح ملكاً على بابل موضوعاً للدسائس والكيد ، فأقسموا ليملكن عليّ أنفسهم أعظم الناس حظا من الشجاعة والحكمة . وقد أنشئ على فراسخ من بابل ميدان عظيم أحاطت به مدرجات فخمة قد زينت أحسن زينة وأروعها ، وكان على المصطرعين أن يذهبوا إليه مدججين بالسلاح ، وكان لكل واحد منهم من وراء المدرجات بيت يعتزل فيه فلا يراه أحد ولا يرى أحداً . وكان عليهم أن يطاعنوا بالرماح أربع مرات ، وكان على الذين يتاح لهم أن يقهروا أربعة فرسان أن يصطرعوا فيما بينهم ، حتى إذا أتيح لأحدهم أن ينتصر على خصومه جميعاً ويصبح سيد الميدان أعلن أنه هو الفائز في المسابقة ، ثم وجب عليه أن يأتي بعد أربعة أيام مدججاً بالسلاح ليحل الألغاز التي يعرضها عليه الكهان ، فاذا لم يوفق لحلها لم يرق إلى العرش ووجب استئناف المبارزة من جديد حتى تظفر المدينة بالمنتصر الذي يقهر الخصوم في الميدان ، ويحل الألغاز أمام الكهنة ، لأن البابليين كانوا يرون ألا يملك عليهم إلا من كان شجاعاً حكيماً

وكان يجب أن تحرس الملكة فى أثناء هذه الأيام حراسة شديدة دقيقة ، ولا يسمح لها إلا بأن تشهد المبارزة وقد ألقت على وجهها نقاباً ، ولكن لا يؤذن لها أن تتحدث إلى أحد من المتنافسين حتى لا تكون محاباة ولا يقع جور .

بهذا كله كتبت أستارتيه إلى خليلها آملة أن يظهر فى سبيلها من الشجاعة والذكاء ما لا يستطيعه أحد غيره . وقد وصل زديج إلى شاطئ الفرات قبيل ذلك اليوم العظيم،وقد سجل شعاره بين شعار غيره من المتنافسين ساتراً وجهه مخفياً اسمه كما يقضى بذلك القانون ، ثم ذهب إلى البيت الذى خصصته له القرعة . وكان صديقه كادور قد عاد إلى بابل بعد أن بحث عنه فى مصر بغير طائل ، فأرسل إلى بيته لأمةً كاملة كانت الملكة قد بعثت بها إليه ، وقاد إليه من عندها كذلك أجمل جواد من خيل فارس . وقد عرف زديج الملكة فى هديتها ، فاستمد من هذه المعرفة قوة وثقة وأملا .

فلما كان الغد أقبلت الملكة فجلست تحت مظلة يزينها الجوهر ، واكتظت المدرجات بالسيدات وبالرجال من جميع الطبقات ، وظهر المتنافسون فى الميدان، وأقبل كل واحد منهم فوضع شارته عند قدم الكاهن الأعظم . ثم أجريت القرعة بين الشارات فكانت شارة زديج هى الأخيرة . وكان أول من تقدم سيد يدعى إيتوباد ، وكان عظيم الثراء كثير الغرور قليل الشجاعة ، أخرق قليل العقل ؛ وكان خدمه قد ألقوا فى روعه أن رجلا مثله يجب أن يكون ملكا. فأجابهم :« إن رجلا مثلى يجب أن يملك . » فسلحوه من رأسه إلى قدمه . وكان يحمل لأمة مرصعة بالخضرة وعلامة خضراء ورمحاً تزينه شرائط خضر . وقد لاحظ الناس حين رأوا سياسته لفرسه أنه ليس هو الرجل الذى قدر له أن يستأثر بصولجان بابل . وقد استطاع أول فارس سعى إليه أن يزعجه عن مكانه ، واستطاع الثانى أن يكبه على عجز فرسه وقد ارتفعت ساقاه فى الهواء وامتدت ذراعاه . وقد استطاع إيتوباد أن يستوى فى سرجه ولكن على نحو غريب أضحك منه الناس جميعاً . وأقبل الثالث فلم يتكلف استعمال رمحه وإنما مر إلى جانبه فأخذه من ساقه اليمنى وألقاه على الرمل إلقاء ، وأسرع ساسة الميدان إليه ضاحكين فردوه إلى سرجه . ولكن المبارز الرابع يأخذه من ساقه اليسرى ويلقيه على الرمل من ناحيته الأخرى ، ثم قيد تشيعه السخرية إلى بيته حيث كان يجب أن ينفق الليل بحكم القانون .

وكان يقول وهو يسعى ظالعاً : « أى مغامرة بالقياس إلى رجل مثلى ! »

وأدى الفرسان الآخرون واجبهم كأحسن ما استطاعوا ، فكان منهم من هزم مبارزين متتابعين ومنهم من وصل إلى أن يهزم ثلاثة . ولم ينتصر على أربعة إلا امير أوتام . ثم برز زديج فأزعج عن خيلهم فرساناً أربعة فى كل رشاقة ممكنة . ولم يبق إلا أن يعرف أيهما سيكون له الفوز : الأمير أوتام أم زديج . وكان الأول يحمل لأمة زرقاء مذهبة وعلامة من لونه ، وكانت لأمة زديج بيضاء . وكانت أمانى الناس كلهم مقسمة بين الفارس الأزرق والفارس الأبيض . وكان قلب الملكة يخفق ، وكانت تتوسل إلى السماء لتنصر اللون الأبيض .

وقد تبادل الفارسان الكر والفر فى خفة ورشاقة وتبادلا طعنات رائعات بالرماح ، وكانا جميعاً ثابتين فى سرجيهما ، حتى تمنى الناس كلهم إلا الملكة أن يكون لبابل ملكان . ثم أجهد الفرسان وانحطم الرمحان ، فعمد زديج إلى هذه الحيلة وهى أنه أسرع فاستدبر جواد الفارس الأزرق ثم وثب فأصبح رديفه على فرسه ، ثم أخذه من خصره فانتزعه من سرجه فألقاه على الأرض ، ثم يأخذ مكانه من السرج ويدور حول أوتام الملقى صريعاً على الأرض . هنالك ضجت المدرجات كلها : « الفوز للفارس الأبيض ! » ويستأثر الغضب بأوتام فينهض ويستل سيفه ، ويثب زديج عن فرسه والسيف مصلت فى يده ، وهاهما هذان فى الميدان يختصمان خصومة تنتصر فيها القوة مرة والخفة مرة أخرى ، وقد أخذ ريش خوذتيهما ومسامير مغفريهما وخرز درعيهما تتطاير إلى بعيد لعنف ما كانا يتبادلان من الضربات ، وكلاهما يضرب بحد السيف وعرضه عن يمين وعن شمال ، على الرءوس وعلى الصدور ، وهما يتأخران ويتقدمان ، ثم يتبادلان التحدى ، ثم يلتحمان ، ثم يأخذ كل منهما بصاحبه ثم ينعطفان كأنهما الحيتان ، ثم يهجم كل منهما على صاحبه كأنه لأسد ، والنار تتطاير فى كل لحظة من وقع ضرباتهما . ثم يثوب زديج إلى نفسه ساعة فيقف ثم يحتال ثم يمر إلى جانب أوتام فيلقيه على الأرض ويجرده من سلاحه ، ويصيح أوتام: « أيها الفارس الأبيض أنت وحدك أهل لعرش بابل . » وقد بلغ الفرح بالملكة أقصاه . ثم يقاد الفارس الأزرق والفارس الأبيض كل إلى بيته شأن المتنافسين جميعاً كما قضى بذلك القانون . وأقبل خدم خرس يحملون إليهم الطعام . . وتستطيع أن تقدر أن قزم الملكة الأخرس هو الذى حمل الطعام إلى زديج .

ثم خلى بينهما وبين النوم ليقبل المنتصر إذا كان الغد فيحمل شارته إلى الكاهن الأعظم ليمتحنها ويعرف صاحبها .

وقد نام زديج وإن كان عاشقاً ؛ لأن الجهد كان قد بلغ منه غايته . أما إيتوباد الذى كان بيته قريباً من بيت زديج فلم ينم ، وإنما نهض أثناء الليل ودخل بيت زديج فأخذ لأمته البيضاء وشارته وترك له لأمته الخضراء. فلما ذر قرن الشمس ذهب إلى الكاهن الأعظم وأعلن إليه أن رجلا مثله هو الفائز . ولم يكن الناس ينتظرون ذلك ، ولكن فوزه أعلن على حين كان زديج لا يزال مغرقاً فى نومه . وقد عادت أستارتيه إلى بابل دهشة قد ملأ الألم قلبها . وكانت المدرجات قد كادت تخلو من النظارة حين استيقظ زديج فالتمس سلاحه فلم يجد إلا هذه اللأمة الخضراء ، فاضطر إلى أن يدخل فيها لأنه لم يجد شيئاً آخر يستر به جسمه . وقد لبس هذا السلاح دهشاً مغضباً وتقدم فى أداته الغريبة هذه .

وجعل كل من بقى فى المدرجات والميدان يستقبلونه ساخرين منه يحيطون به ويواجهونه بالاهانة . ولم يلق أحد قط مثل مالقى من الاهانة المخزية . ففقد صبره وفرق الناس عنه بسيفه ، ولكنه كان حائراً لا يدرى ماذا يصنع. لم يكن يستطيع أن يرى الملكة ، ولم يكن يستطيع أن يطالب بلأمته البيضاء التى سرقت منه ، فلو قد فعل ذلك لفضح سر الملكة . وكذلك اجتمع عليه الألم والغضب والقلق ، وجعل يمشى على شاطئ الفرات مقتنعاً بأن القضاء قد كتب عليه شقاء محتوماً لا مخرج منه ، مستعرضاً فى نفسه مصائبه كلها من المرأة التى كانت تكره العور إلى نكبته فى سلاحه . وكان يقول لنفسه : « هذا جزائى لأنى استيقظت متأخراً . ولو قد نمت أقل مما نمت لأصبحت ملك بابل وزوج أستارتيه . وإذن فالعلم والأخلاق والشجاعة لم تنته بى إلا إلى الشقاء . » ثم أفلت منه شئ من الاعتراض على القدرة الإلهية ، وكاد يؤمن بأن العالم خاضع لقضاء قاس يظلم الأخيار ويسبغ النعمة على الفرسان الخضر . وكان مما يحزنه اضطراره إلى حمل هذه الأمة الخضراء التى عرضت صاحبها لكثير من السخرية . وما هى إلا أن يمر به بعض الباعة فيبيعه سلاحه بثمن بخس ويشترى منه ثوباً وقلنسوة . ويمضى فى هذا الزى مصاحباً شاطئ الفرات ناعياً على القدرة الالهية أنها تظلمه دائماً .

الفصل العشرون

الناسك

وقد لقى فى طريقه ناسكاً قد انتشرت لحيته على صدره ، وتدلت حتى بلغت حزامه . وكان فى يده كتاب يقرأ فيه معنيا أشد العناية . فوقف زديج وانحنى له فى إجلال . وقد رد الناسك تحيته فى وقار ورفق ، حتى رغب زديج فى أن يتحدث إليه . فسأله فى أى كتاب ينظر ؟ قال الناسك : « هو كتاب القضاء ، أتريد أن تقرأ فيه شيئاً ؟ » ثم وضع الكتاب فى يد زديج الذى جعل ينظر فيه دون أن يتبين حرفاً من حروفه على علمه المتقن بكثير من اللغات ، وكان هذا سبباً فى ازدياد حبه للاستطلاع . قال له هذا الأب الرحيم : « إنى لأراك شديد الحزن . » قال زديج : « واحسرتاه ما أكثر ما يحزننى ! » قال الشيخ : « أتأذن فى أن أصحبك لعلى أن أنفعك ؟ فقد استطعت أحياناً أن أشيع العزاء فى نفوس البائسين . » وقد أحس زديج شيئاً من الاحترام لمظهر الناسك ولحيته وكتابه ، ووجد فى حديثه نوراً ممتازاً ، وكان الناسك يتحدث عن القضاء والعدل ، والأخلاق ، والخير الأعظم ، وضعف الانسان ، والفضيلة والرذيلة ، فى بلاغة قوية مؤثرة ، حتى أحس زديج كأنما يجذبه إليه سحر لا يقهر . فألح عليه فى ألا يتركه حتى يبلغ بابل . قال الشيخ : « إنى أطلب إليك هذا الفضل . فأقسم لى بأوروزماد ألا تفارقنى إلى أيام مهما أفعل . » فأقسم زديج ومضيا معاً .

وانتهى المسافران مع المساء إلى قصر فخم . وهناك طلب الناسك الضيافة لنفسه وللشاب الذى يصحبه ، فأدخلهما البواب الذى كانت تظهر عليه شارات السيادة إلى القصر فى شئ من العطف المستخف . ثم قدما إلى رئيس الخدم ، فأظهرهما على جناح صاحب القصر ، ثم أذن لهما بشهود المائدة ، وأجلسا فى أقصاها دون أن ينزل صاحب القصر فيمنحهما طرفه ، ولكنهما طعما كما طعم غيرهما ، وأظهر الخدم لهما رقة وسماحة وسخاء . ثم قدم إليهما لتغسل أيديهما

طست من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت . ثم قيدا إلى حجرة جميلة أنفقا فيها الليل ، فلما كان الغد أقبل خادم فدفع إلى كل واحد منهما قطعة من ذهب ثم صرفهما .

فلما كانا فى الطريق قال زديج : «يخيل إلىّ أن صاحب القصر رجل كريم وإن كان فيه شئ من كبرياء ، وهو على كل حال حسن الضيافة . » وبينما كان يقول هذا الكلام رأى جيباً عريضاً كان يحمله الشيخ وقد انتفخ انتفاخاً عظيما ، فلما نظر تبينَ الطست الذهبي المرصع بالجوهر ، وقد سرقه الشيخ . فلم يجرؤ أول الأمر على أن يقول شيئاً ، ولكنه كان فى دهش مؤلم .

فلما انتصف النهار وقف الشيخ أمام دار صغيرة كان يسكنها رجل غنى بخيل ، فاستضافه ساعات من نهار ، فتلقاهما خادم شيخ أشعث لقاء خشناً ، ثم قادهما إلى الاسطبل ، وقدم إليهما شيئاً من زيتون فاسد وخبزاً رديئا وجعة حامضة . فأكل الناسك وشرب راضياً عن طعامه الغليظ ، كما رضى أمس عن طعامه ذاك الرقيق ، ثم اتجه إلى الخادم الشيخ الذى كان يراقبهما ليرى لعلهما يسرفان شيئاً وليستحثهما على الرحيل ، فوضع فى يده الدينارين اللذين تلقاهما مصبحاً ، وشكر له عنايته بهما . ثم قال : أرجو أن تتيح لى التحدث إلى سيدك . » فأدخلهما الخادم دهشاً . قال الناسك : « أيها السيد العظيم ، ليس يسعنى إلا أن أشكر لك فى خضوع نبل لقائك لنا . فتفضل بقبول هذا الطشت الذهبي آية على اعترافى بالجميل . » وقد كاد البخيل يصرع من الدهش . ولم يتح له الناسك أن يفيق من دهشه ، وإنما مضى مسرعاً يتبعه صاحبه الشاب . قال زديج : « ما هذا الذى أراه يا أبت ؟ ما أرى أنك تشبه غيرك من الناس ، إنك تسرق طستاً ذهبياً من أمير تلقانا أحسن اللقاء وتهبه لبخيل عاملك أحقر المعاملة ! » قال الشيخ : «تعلم يا بنى أن هذا الأمير العظيم الذى لا يستقبل الناس إلا غروراً ليظهرهم على ثرائه سيصبح منذ اليوم عاقلا حذراً . وسيتعود البخيل أن يكون مضيافاً فلا تدهش لشئ واتبعنى .» فلم يدر زديج أيصحب أعظم الناس حظا من الجنون أم أعظمهم حظاً من الحكمة . ولكن الناسك كان يتحدث فى ثقة وكان زديج مرتبطاً بقسمه فلم يسعه إلا أن يتبع الشيخ .

فلما كان المساء بلغا دارا متقنة البناء ، ولا يظهر عليها ما يدل على الاسراف ولا ما يدل على البخل . وكان صاحب الدار فيلسوفاً قد اعتزل الناس وعكف

على الحكمة والفضيلة ، وكان على ذلك لا يحس مللا ولا سأماً . وكان قد راقه أن يقيم هذه الدار ، وأن يستقبل فيها الغرباء لا مستعلياً ولا مغروراً . فسعى من تلقاء نفسه إلى السائحين وقادهما إلى حجرة وثيرة ليستريحا . ثم أقبل بعد حين فدعاهما إلى مائدة نظيفة وطعام متقن ، وتحدث إليهما رفيقاً متحفظاً عن الثورة الأخيرة التى اضطربت لها بابل . وقد ظهر أنه مخلص للملكة أشد الاخلاص ، وأنه كان يتمنى لو ظهر زديج فى الميدان واستبق مع المستبقين ليظفر بالتاج . ثم قال : « ولكن الناس لا يستحقون أن يملك عليهم رجل مثل زديج » وكان زديج يحمر خجلا ويشعر بأن آلامه تتضاعف . وقد اتفق القوم أثناء الحديث على أن الأشياء فى هذا العالم لا تجرى على ما يحب الحكماء ، وقد أكد الناسك دائماً أن الناس لا يعرفون طرق القدرة الإلهية ، وأنهم يخطئون حين يحكمون على كلٍّ لا يعرفون إلا أيسر أجزائه .

ثم تحدثوا عن الشهوات . فقال زديج : « ما أشد خطرها ! » قال الناسك : « إنما الشهوات هى الرياح التى تنشر قلاع السفينة ، وهى تغرق السفينة أحياناً ، ولكن السفينة لا تستطيع أن تجرى من دونها . إن المرارة تدفع الانسان إلى الغضب ، وقد تجلب عليه العلة ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يعيش بدونها . كل شئ فى هذه الأرض خطر ، وكل شئ فى هذه الأرض ضرورى لا بد منه . »

ثم تحدثوا عن اللذة ، وأثبت الناسك أنها منحة من الآلهة ، قائلا : « إن الانسان لا يستطيع أن يعطى الحس ولا الفكرة ، وإنما يتلقى كل شئ تأتيه اللذة والألم من غيره كما يأتيه شخصه هو . »

وكان زديج يعجب حين يرى رجلا قد أتى تلك الأعمال الغريبة يفكر على هذا النحو الدقيق .

فلما أخذ القوم بحظهم من سمر ممتع لذيذ قاد المضيف ضيفه إلى حجرتهما شاكراً لله أن أرسل إليه رجلين على هذا الحظ من الحكمة والفضيلة . ثم قدم إليهما شيئاً من مال بطريقة سمحة كريمة لا تؤذى النفوس . فاعتذر الناسك وودع مضيفه زاعماً أنه يريد أن يسافر إلى بابل قبل أن يشرق النهار . وكان وداعهم رقيقاً ، وكان زديج يشعر بشئ من الاحترام لهذا الرجل الحبيب إلى القلوب .

فلما صار الناسك وصاحبه فى حجرتهما أثنيا ثناء جميلا على مضيفهما . ثم أيقظ الشيخ رفيقه من آخر الليل قائلا له : « يجب أن نرحل ، ولكنى أرى قبل أن يستيقظ الناس أن أترك لهذا الرجل آية على ما أضمر له من حب وإكبار . » قال ذلك وأخذ مصباحاً فأشعل النار فى الدار . وقد روع زديج فجعل يصيح ، وهم أن يمنع الشيخ من اقتراف هذا الاثم المنكر . ولكن الناسك كان يجذبه بقوة لا تقاوم على حين كانت الدار تشتعل ؛ والناسك ينظر إليها من بعيد فى هدوء أى هدوء قائلا : « الحمد لله هذه دار مضيفى قد دمرت تدميراً . ما أسعد هذا الرجل ! » فلما سمع زديج هذا الكلام هم أن يضحك وأن يضرب الشيخ وأن يسبه وأن يمضى لوجهه . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئاً ، وإنما خضع لسلطان الناسك وتبعه كارهاً إلى الرحلة الأخيرة .

وقد انتهت بهما هذه الرحلة إلى أرملة محسنة فاضلة ، يعيش معها فتى قريب لها فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان جميلا محبباً وكان أملها الوحيد ، وقد ضيفتهما كأحسن ما استطاعت ، فلما كان الغد أمرت قريبها أن يصحب المسافرين إلى جسر قد قطع منذ حين فأصبح عبوره خطراً على الذين لا يعرفونه . ومضى الفتى أمامهما حفيًّا بهما . فلما بلغوا الجسر قال الناسك للفتى : « أقبل فانى أريد أن أشكر لعمتك صنيعها . » ثم يأخذ بشعره ويلقيه فى النهر . ويسقط الفتى ثم يطفو ثم يستخفى فى لجة الماء . هنالك لم يستطع زديج صبراً فصاح : « يا لك من وحش ! يا لك من مجرم لم ير الناس مثله ! » قال الناسك : « لقد وعدتنى أن تصبر على ما ترى . فتعلّم أن تحت هذه الدار التى دمرتها القدرة الإلهية كنزاً عظيما قد ظفر بهصاحبها . وتعلّم أن هذا الفتى الذى قتلته القدرة الإلهية لو عاش لقتل عمته بعد عام ، ولقتلك أنت بعد عامين . » قال زديج : « من أنبأك بهذا أيها الهمجى ؟ وهبك قرأت هذا فى كتابك أمن حقك أن تقتل صبيا لم يسئ إليك ؟ »

وبينما كان البابلى يتكلم نظر فاذا الشيخ قد فقد لحيته وظهرت على وجهه ملامح الشباب ، وقد زال عنه ثوب الناسك ونبتت فى جسمه المهيب أجنحة أربعة . قال زديج ، وهو يجثو : « أى رسول السماء أيها الملك الإلهى فأنت إذن قد هبطت من أعلى عليين لتعلم إنساناً ضعيفاً هالكاً أن يذعن لسلطان القضاء الخالد . » قال الملك جسراد : « إن الناس ليقولون فى كل شئ دون أن يعلموا

شيئاً ، وقد كنت أشد الناس حاجة إلى أن تتعلم .» فاستأذنه زديج فى أن يتكلم : « إنى أتهم نفسى . ولكن أأجرؤ على أن أسألك أن تجلو لى شكاً يقوم بنفسى؟ ألم يكن إصلاح هذا الصبى وتقويمه خيراً من إغراقه ؟ » قال جسراد : « لو قد أتيح له أن يكون خيراً وأن يعيش ويتخذ زوجاً لقتل وقتلت معه زوجه وقتل معهما ابنهما . » قال زديج : « ماذا ؟ أليس من الجريمة والشقاء بد ؟ أليس بد من أن يلم الشقاء بالأخيار ؟ » قال جسراد : « إن الأشرار أشقياء دائماً ، وإنهم محنة تمتحن بهم قلة من الأخيار مفرقة فى الأرض ، وليس من شر إلا وهو مصدر للخير . » قال زديج : « وما يمنع أن يوجد الخير ولا شر معه ؟ » قال جسراد : « إذن لتبدل الأرض غير الأرض وتتابع الأحداث على أسلوب آخر من الحكمة . وهذا الأسلوب من الحكمة الكاملة لا يمكن أن يوجد إلا فى الملأ الأعلى حيث لا يستطيع الشر أن يرقى . وقد خلق الله مالا يعين من العوالم ليس منها واحد يشبه الآخر . وهذا الاختلاف العظيم آية على قدرته التى لاحد لها ، فليس من ورقتين فى الأرض ولا كرتين فى حقل السماء تشبه إحداهما الأخرى . وكل ما تراه على هذه الذرة الضئيلة التى ولدت عليها قد قدر له مكانه تقديراً حسب النظام الثابت الذى أبدعه القادر على كل شئ . إن الناس يظنون أن هذا الصبى الذى هلك قد سقط فى الماء مصادفة ، وأن المصادفة نفسها هى التى حرقت الدار . ولكن المصادفة لا وجود لها ؛ فكل شئ إما امتحان ، وإما عقاب ، وإما مكافأة ، وإما احتياط . تذكر ذلك الصياد الذى كان يرى نفسه أشقى الناس ، لقد أرسلك أوروزماد لتغير مصيره . أيها الهالك الضعيف لا تعترض على من يجب أن يعبد . » قال زديج : « لكن . . . » وبينا كان يقول «لكن» كان الملك يرقى فى السماء العاشرة . فجثا زديج ورفع إلى القدرة الالهية عبادته وإذعانه . قال له الملك من أعلى السماء : « أسلك طريقك إلى بابل . »

الفصل الحادى والعشرون

الألغاز

مضى زديج فى طريقه هائماً ، وقد خرج عن طوره كرجل سقطت الصاعقة منه غير بعيد . فدخل بابل فى اليوم الذى اجتمع فيه المتنافسون فى بهو من أبهاء القصر ليمتحنوا بتفسير الألغاز ، وليجيبوا على أسئلة الكاهن الأعظم . وقد اجتمع الفرسان جميعاً إلا صاحب اللأمة الخضراء . فلم يكد زديج يظهر فى المدينة حتى اجتمع الشعب من حوله ، ولم تكن العيون تشبع من النظر إليه ، ولم تكن الأفواه تكف عن الثناء عليه ، ولم تكن القلوب تكف عن أن تتمنى له الملك . وقد رآه الحسود فارتعش وحول وجهه ، ثم حمله الشعب إلى مكان الاجتماع . وأنبئت الملكة بمقدمه فتنازعها الخوف والرجاء ، وكان القلق ينهب نفسها نهباً ، ولم تكن تفهم لماذا كان زديج مجرداً من سلاحه ولا لماذا كان إيتوباد يحمل اللأمة البيضاء . فلما رأى المجتمعون زديج ارتفع بينهم ضجيج مختلط . وكان المجتمعون دهشين سعداء لمحضره . ولكن لم يكن يؤذن إلا للفرسان الذين شاركوا فى المبارزة بشهود الاجتماع . قال زديج : « لقد بارزت كما بارز غيرى ، ولكن رجلا غيرى يحمل سلاحى فى هذا المكان ؛ وإلى أن يتاح لى الشرف باثبات ذلك أرجو أن يؤذن لى بالمشاركة فى تفسير الألغاز . » وأخذت الأصوات ، فلم يتردد أحد فى قبوله لأن أمانته وصدقه وشرفه كانت لا تزال مستقرة فى القلوب .

وقد بدأ الكاهن الأعظم فألقى هذا السؤال : « ما شئ هو أطول الأشياء فى العالم وأقصرها ، وأسرع الأشياء وأبطؤها ، وأشد الأشياء استعداداً للانقسام وأشدها امتداداً ، وأشد الأشياء تعرضاً للاهمال وأشدها تعرضاً للحزن عليه ، بغيره لا سبيل إلى أن يصنع شئ ، وهو يزدرد كل ما هو صغير ، ويحيى كل ما هو كبير ؟ »

وكان على إيتوباد أن يتكلم ، فأجاب بأن رجلا مثله لا علم له بالألغاز

وحسبه أنه انتصر برمحه . قال بعض المتنافسين إن جواب اللغز إنما هو الحظ . وقال بعضهم هو الأرض . وقال بعضهم هو النور . وقال زديج « إنه الزمان ليس شيء أطول منه لأنه مقياس الأبد ، وليس شيء أقصر منه ، لأنه يقصر عن آمالنا . وليس شيء أبطأ منه للمنتظر ، وليس شيء أسرع منه للمبتهج ، وهو يمتد فى السعة إلى ما لا نهاية ، وينقسم فى الصغر إلى مالا نهاية ، والناس جميعاً يهملونه ، والناس جميعاً يأسفون على ضياعه ، لا يصنع شيء بدونه ، وهو ينسى مالا يستحق الخلود ، و يخلد جلائل الأعمال . » فأجمع القوم على أن زديج قد أصاب .

ثم سئل بعد ذلك : « ما شيء يقبل ولا بشكر معطيه ، وينعم الناس به دون أن يعرفوا كيف ينعمون به ، ويعطونه غيرهم دون أن يعرفوا أين هم منه ، ويفقده الناس على غير وعى منهم ؟ »

فأدلى كل بجوابه ، وقال زديج إنه الحياة . وفسر سائر الألغاز على هذا النحو من اليسر ، وكان إيتوباد يقول : ليس شيء أيسر من هذه الألغاز ، ولو قد أراد لأجاب عليها فى غير مشقة ، وقد ألقيت أسئلة حول العدل والخير الأعظم وفن الحكم ، فكانت أجوبة زديج أقوم الأجوبة . وكان الناس يقولون من حوله إن مما يحزن حقا أن يكون صاحب هذا العقل الممتاز فارساً غير ممتاز .

قال زديج : « أيها السادة العظام ! لقد شرفت بالانتصار فى الميدان ، و إنما اللأمة البيضاء هى لأمتى ، وقد أخذها السيد إيتوباد أثناء نومى . وقد رأى فى أكبر الظن أنها أليق به من لأمته الخضراء . و إنى مستعد أن أثبت أمامكم بثوبى هذا ، وسيفى ، على رغم كل ما يحمل هو من هذه اللأمة البيضاء التى اختلسها منى . إنى أنا الذى أنتصر على الأمير أوتام . »

وقد قبل إيتوباد هذا التحدى واثقاً بنفسه أعظم الثقة . ولم يكن يشك فى أنه وقد حمل الخوذة والدرع والمغفر سينتصر فى غير عناء على خصم ليس عليه إلا ثوب وقلنسوة . وقد استل زديج سيفه وحيا الملكة التى كانت تنظر إليه يتنازعها الفرح والخوف . واستل إيتوباد سيفه ولم يحى أحداً . ثم تقدم إلى زديج كما يتقدم رجل لا يهاب شيئاً . وكان يوشك أن يشدخ رأسه . وقد اتقى زديج هذه الضربة معارضاً بقوة سيفه ضعف خصمه ، بحيث انكسر سيف إيتوباد هنالك هجم زديج على خصمه فأخذ بتلابيبه وصرعه على الأرض ، ثم أنفذ

ذبابة سيفه من ثنايا الدرع قائلا له : «دعني أجردك من سلاحك و إلا قتلتك.» وقد دهش إيتوباد لسوء الحظ الذى ألمّ برجل مثله ، وخلى بين زديج وبين سلاحه وقد بدأ فنزع خوذته ، ثم درعه الفخمة ، ثم مغفره الجميل ، ثم لبس هذا كله وجرى فى لأمته هذه حتى جثا عند قدمى أستارتيه . وأثبت كادور فى سهولة أن هذه اللائمة هى لأمة زديج فنودى به ملكاً عن رضا من الناس جميعاً ، وخاصة من أستارتيه التى نعمت بعد كثير من الشقاء بأن ترى عاشقها خليقاً فى رأى العالم كله أنْ يصبح لها زوجاً . وعاد إيتوباد إلى قصره حيث يدعوه خدمه سولاى، وأصبح زديج ملكاً وأصبح سعيداً . وكان يتمثل فى نفسه ما قال له الملك جسراد : بل تذكر حبة الرمل التى أصبحت ماسة . وقد شكرت الملكة وشكر هو للآلهة هذا الفضل . وترك زديج الجامحة الجميلة ميسوف تطوف فى أقطار الأرض ، وأرسل بدعو قاطع الطريق أربوجاد فرفعه إلى مرتبة حسنة فى جيشه ، ووعده بأن يرفعه إلى أرقى المراتب إن سار سيرة الجندى الشريف ، وأن يشنقه إن عاد إلى قطع الطريق .

ودعى سيتوك مع ألمونا الحسناء من أعماق بلاد العرب ، فجعل على تجارة بابل . وأنزل كادور منزلة تلائم بلاءه ووفاءه فأصبح صديق الملك ، وأصبح زديج هو الملك الوحيد الذى استطاع بين ملوك الأرض أن يكون له صديق مخلص . ولم ينس زديج القزم الأخرس . ومنح الصياد داراً جميلة . وقضى على أوركان أن يؤدى إليه مقدارا ضخماً من المال وأن يرد إليه امرأته ، ولكن الصياد وقد صار حكيما أبى أن يأخذ إلا المال .

ولم تتعز سمير الحسناء من خطئها حين ظنت أن زديج سيصبح أعور ، ولم تكف أزورا عن البكاء لأنها همت ذات يوم أن تجدع أنفه . وقد خفف زديج ألمهما بما أهدى إليهما من الهدايا . ومات الحسود غيظاً وخزياً ، واستمتعت الدولة بالسلم والمجد والرخاء . وكان هذا العصر أجمل عصر عرفته الأرض ؛ فقد حكمها فيه الحب والعدل . وكان الناس يحمدون زديج ، وكان زديج يثنى على الآلهة .

وهنا تنتهى المخطوطة التى تقص تاريخ زديج . والناس يعلمون أنه تعرض لمغامرات كثيرة أخرى قد سجلت تسجيلا دقيقاً . فنرجو أن ينشرها المستشرقون إن وصلت إليهم

رسائل لفولتير

يتكلم الكاتب ريمون ناف فى كتابه عن «الذوق عند فولتير»[1] ، فيقول إن فولتير فى الواقع هو خير مثـــال لمن يريد أن يعرف الذوق الفرنسى باتجاهاته الشخصية وابتداعاته ومكانه من قرن طال إلى آخر مدى حضارة تطورت . ويقول : « إن من أبرز صفات فولتير إخلاصه ؛ فقد كان دائماً شجاعاً فى الاعراب عن عاطفته مهما كانت نظرته ضيقة . وهو ينشر بلا توان أحكامه ولو كانت معلوماته غير صحيحة أو بدائية . وهو فى الواقع أقل الرجال تعصباً ؛ لأن مبادىء الذوق ليست قواعد يتعصب لها وإنما هو يفضلها . وهذا الاخلاص لم ينفعــه لأنه مكن النقد من أن يتبين فى سهولة أخطاءه ، وطيشه أحياناً ، وأن يقيس حدوده . ولكن هذه الحدود التى يقف عندها فولتير قابلا لها عن عمد ومعلناً لها ، هى مثال نادر للاستقامة . »

وقد يمكن أن نضيف أن هــذه الاستقامة هى أكبر الأسباب فى أن صار فولتير من الكتاب العالميين الذين عرفوا كيف يستخلصون إعجاب غير الفرنسيين قبل الفرنسيين .

والواقع أن السبب فى شهرة فولتير وفى بقاء اسمه على الزمن ، مع أنه نشأ فى القرن الثامن عشر فى زمن كانت فيه التقاليد سائدة ، هو أنه كان بطبيعته وربما كان بظروف حياته ساخراً سليط اللسان ، لاذعاً فى القول والكتابة ، ينظر إلى الحيـــاة بغير العين التى ينظر بها أقرانه من معاصريه ، فينفذ إلى قلب الحياة وتتهتك أمام عينيه أستارها ، وتبدو له فى ثوبهـــا الحقيقى ، فيكتب عنهـــا ويصفها وقد زال سحرها وبدا لهوجهها بدون تطرية ولا ألوان .

هـذا ما جعل اسم فولتـير باقياً على الزمن بعـــد أن مضى عليـــه أكثر من قرن ، وهـذا ما يلوح أنه سوف يضمن لاسمه البقاء قروناً

---

(١) Raymond Naves: *Le goût de Voltaire*, Garnier Paris

أخرى . لأنه بهذه النظرة الفاحصة الساخرة التى ترى ما وراء الحجب، قد صار أول رجل حديث نشأ فى غير عصره . ولكى نتبين صحة هذا القول يجب أن نوازن قليلا بين عصر كان يعيش فيه ، وبين عصر نعيش نحن فيه . فقد نشأ فولتير فى فرنسا فى أيام لويس الرابع عشر [1] . وكانت فرنسا فى ذروة ما بلغت من مجد ، وهو مجد مشوب بكل الكوارث التى تنتاب شعباً يساق ليخدم مطامع رجل واحد ، ويعمل هذا الشعب مجهودا ليضيف إلى الرواء الظاهر لهذا الفرد العظيم ؛ فهو شعب عرف الفاقة وحرم التمتع بكل شئ ، وهو شعب كبتت حريته وكتمت أنفاسه فلم يستطع أن يعرب عن حاجته وبؤسه .

لم يكن فولتير من طبقة الشعب بل كان من طبقة مميزة بعض الشئ ؛ فقد كان أبوه مسجلا للعقود ونال شيئاً من الثراء ، فطمع فى أن يعد من طبقة النبلاء . وقد رباه أبوه مسيو أرويه والاسم الحقيقى لفولتير — هو فرانسوا مارى أرويه — فى كلية لويس العظيم ولم يسلم معلمو هذه الكلية الأفاضل من لسانه وسخريته اللاذعة من بعد .

وأخذ فولتير يقبل على الكتابة وعلى الشعر ، وبدأ يطمع فى أن يكون له مكان مرموق بين الشعراء ، فأقبل يؤلف المسرحيات ويقرض لشعر ، وقد تبينت مهارته بصفة خاصة فى الهجاء.

وقد اتصل الشاب الناشئ ببلاط فرساى ، وظل الشاعر الشاب نحو عشر سنوات يعيش فى كنف البلاط وهو يجد بين النبلاء ترحاباً بنكاته اللاذعة وفكاهاته الظريفة ، وسرعة بديهته فى الشعر ، ثم حبه للهو والعبث والمغامرات التى كانت هى الشغل الشاغل لأبناء النبلاء فى البلاط . وكان ينتقل من قصر إلى قصر ، وأحياناً ينتقل إلى قصر من نوع آخر هو سجن الباستيل ، وكانت مهارته فى الهجاء هى السبب فى هذا الانتقال الأخير .

وقد حدث مرة أن وضع بيتين من الشعر يسخر فيهما من الدوق دورليان ، فنفى إلى تول . على أنه لم يلبث أن عفا عنه ومع ذلك لم يرتدع .

لم يكن فولتير يكره الوصى دورليان، وكان يعيش فى كنف أصدقاء الوصى

---

(١) ولد فولتير بباريس عام ١٦٩٤ .

وكثيراً ما دافع عنه من بعد فى حياته، ولكن كانت طبيعته المغامرة ، وشىء من العناد وحب الشهرة ، تدفعه إلى أن يتعرض للوصى ، فلم يلبث أن وضع شعراً فى ذمه . وسرعان ما عرف قائل هذا الشعر ، فقبض عليه وسجن فى الباستيل سنة ١٧١٧ وظل فى هذا السجن نحو سنة كاملة و إن كان قد عومل فيه معاملة كريمة .

خرج من السجن وفى جعبته أول مأساة من تأليفه هى مسرحية «أوديب». وكان من العادة أن من يسجن لا يمكث فى العاصمة الفرنسية بل يذهب إلى الريف بعض الوقت . وقد فعل فولتير ذلك ، ولكنه مالبث أن عاد . ومثلت مسرحيته فنالت نجاحاً غير معتاد ، ومنحه الوصى عليها نوطاً وراتباً . ومنذ تلك اللحظة ترك اسم أرويه واتخذ اسم فولتير . ومن الراجح أنه اسم ضيعة صغيرة تمتلكها أسرته.

ولسنا نريد أن نتتبع أقدام فولتير من شهرة إلى شهرة فى حياته وسط الملاهى التى كانت سائدة فى عصره ؛ فانه من الميسور الاطلاع على تفاصيل حياته فيما أشرنا ونشير إليه من كتب ألفت عنه . ولكن ما نريد أن نسجله هو التحولات الهامة فى هذه الحياة .

مات أرويه والد فولتير تاركا ثروة ضخمة ظن أنها ستكفل لابنه العيش الرغيد . ولكن هذا الابن لم يلبث أن بددها فى مشروعات خيالية ، ولكن المركز الذى اكتسبه فى البلاط بمؤلفاته المسرحية التى كانت تمثل فيه والتى كانت تثير دموع الملكة ، عوضه عن هذه الخسارة شيئاً ما إذ خصصت له الملكة راتباً .

ثم حدث حادث كان له شأن كبير فى حياته . ذلك أنه تشاجر مع أحد كبار الأشراف السيد دى روهان . ولا يعلم سبب هذه المشاجرة حتى الآن ، ولكن مما لا شك فيه أن فولتير عرف كيف يستعمل لسانه السليط .

وبعد ذلك بأيام كان فولتير فى ضيافة الدوق دى سوللى ، فاذا بخادم يدعوه إلى الباب ، فخرج فرأى عربة فى انتظاره . فما اقترب منها حتى خرج منها رجال وانهالوا عليه ضرباً ، وكان غريمه على ما يقال واقفاً على الباب يشير على الضاربين بألا يقربوا الرأس فان فيه ما يستحق المحافظة عليه .

وعاد فولتير إلى مضيفه والدموع تنهمر من عينيه ، وقص عليه الحادث، وطلب منه أن يصحبه إلى مدير الشرطة ولكن الدوق أبى ذلك ، لمركز الغريم

أو لعلــه اعتبر الحــادث مهزلة لا قيمة لها .

وقد غضب فولتير لما وجده من إهانة واحتقار ومعاملة تدل على القارق فى النظرة إلى النبيل و إلى الشاعر ، فأخذ يهدد ويتوعد آل روهان ويدأ يتعلم السلاح ، فخشوا مغبة أمره وشكوه إلى الوزير طالبين حمايتهم ، فأدى ذلك إلى سجن فولتير فى الباستيل مرة أخرى ، ثم أطلق سراحه بعد قليل على أن يرحل من فرنسا (١) .

وجد فولتير فى انجلترا الحياة نفسها التى كان يجدها فى باريس . وما لبث أن تعرف إلى عظماء الانجليز ، فكانت دار بولنجبروك موئله ، وإليها ترد الرسائل من أهله ، وكثيراً ما كان ينزل فى ضيافة فولكنر واللورد بيتربورو . ووجد أن هذه الجماعة مثقفة تثقيفاً فرنسيا ، وأن حياتهم مطبوعة بطابع فرنسى . وعاش فولتير فى انجلترا نحو سنتين يكتب ويؤلف ويعيش فى الوسط الذى يحبه ، وقد وجد فى الحياة الانجليزية وفى التاريخ الانجليزى مادة لبعض كتبه . ومن أشهر ما نشره من كتب فى ذلك الوقت الرسائل الانجليزية أو الرسائل الفلسفية ، ثم مقاله عن شعر الملاحم ، وكتابه فى تاريخ شارل الثانى عشر .

وتعد الرسائل الفلسفية ، بالرغم مما فيها من زلات وتحيز وسرعة فى الحكم ، من أحسن ما كتبه فولتير فى سبكها وجمعها بين الخفة والجرأة . ويضعه تاريخه عن شارل الثانى عشر فى المقــام الأول من كــتاب النثر الفرنسى (٢) .

عاد فولتير إلى فرنسا بعد أن قضى سنتين ، وعاد إلى تأليف القصص والمسرحيات . ولسنا هنا فى معرض الكلام على مؤلفاته ، فتلك يلتمس لها ما أشرنا أو نشير إليه من كتب . ولكن اسمه أخذ ينتشر وطارت شهرته إلى أنحاء أوربا . وكان مستمراً على عيشة اللهو والاتصال بالبلاط الفرنسى ، ولكن حياته لم تكن تخلو من مخاطر بسبب ما يضمنه كتبه وأشعاره من نقد لاذع أو هجاء ، يحاول أن يخفيه فلا يلبث أن ينكشف ، وكان فى كل

(١) André Bellessort: *Essai sur Voltaire*, Perrin, Paris.

(٢) Morley: *Voltaire*, Macmillan, London

لحظة يضيف إلى أعدائه المخلصين فى عداوته أعداء آخرين ، حتى صارت حياته فى البلاط الفرنسى قلقة أو قل خطيرة ، واضطر فولتير إلى الرحيل عن فرنسا .

إلى أين ؟ إلى مغامرة عجيبة جديدة ؛ فقد كان هنالك ملك شاب تولى عرش دولة من الدول الألمانية كانت ذات مقام ثانوى بين دول أوربا . هذه الدولة هى مملكة بروسيا ، ولقد أخذت هذه الدولة فى السنوات الأخيرة تبدو فى قوة غير عادية بفضل ملكين توليا عرشها ، وكانا يوجهان اهتمامهما إلى تأليف جيش قوى . وهذان الملكان هما والد الملك الشاب الذى أشرنا إليه وجده . أما هذا الملك الشاب فكان وهو أمير لا يرجى منه خير كبير ؛ فقد انصرف إلى الموسيقى والشعر بكليته ، وكان إعجابه بشعر فولتير لا حد له . فما إن تولى عرش بروسيا حتى أخذ يرسل الرسائل والرسل إلى ذلك الكاتب الذى كان يتخذه مثالا فى شعره .

هذا الملك هو فريدريك الذى أطلق عليه فيما بعد فريدريك الأكبر لا لعظمته فى الموسيقى والشعر .

ولسنا نريد أيضاً أن نعرض لهذه الصلة العجيبة بين فريدريك الأكبر وبين فولتير ، فهنالك صفحات وصفحات تستطيع أن تقرأها فى لذة وأن تستفيد منها وأن تضحك منها ، فى كتب عدة ؛ فهى من أمتع ما أسهب فى ذكره الكتاب عن فولتير والكتّاب عن فريدريك . وتستطيع أن تقرأ صفحات ممتعة فى كتاب موروا عن فولتير وفى كتاب اللورد مورلى وفى كتاب بلسور وفى كتاب كارليل الانجليزى ذى اللهجة الألمانية ، وأخيراً فى الكتاب الذى أخرجه فى الأيام الأخيرة لودفيج عن هذه العلاقة خاصة . وكل ما نستطيع أن نشير إليه هنا أنهما افترقا ولم يجدا من العيش بعضهما إلى جانب بعض ما كانا ينتظرانه من ائتلاف . وكان الأمير قارض الشعر يكن وراء مظهر اللهو والعبث رجلا شديداً عنيداً يحب القتال ويهجم على المخاطر . وكانت عين الأديب الساخر ، تستشف طباع الناس وتلتقط نقائصهم بأكثر مما يحب الملك العنيد . ومع ذلك فقد ظل الاثنان يتراسلان على بعد و إن كان الأديب لم يحاول تجربة العيش فى بلاط الملك البروسى مرة أخرى على ما بذل له من وعود .

كان فولتير فى كل هذه الفترة يؤلف ويكتب ، وقد وضع قصصه

الشهيرة ومؤلفاته التاريخية الشهيرة لا سيما كتابه عن عصر لويس الرابع عشر ، وهو مؤلف تاريخي أشاد فيه وبمجد ذكر ذلك العصر وقد سبقه بمؤلف سماه رسالة عن العادات . وزار فولتير عدداً من الدول الأوربية ، فذهب إلى روسيا وكتب تاريخ روسيا فى عصر بطرس الأكبر ، ثم اتخذ له بعد هذه السياحات الطويلة مقاماً فى جنيف . إذ أن الملك أظهر غضبه عليه لمقامه الطويل فى البلاط البروسى وأبى أن يدعوه إلى باريس .

وفوق المرتفعات التى تطل على جنيف اشترى داراً واتخذها مقاماً له ، وبعد سنين اشترى قصراً فى فيرنى على مقربة من جنيف أيضاً ، وفى هذا القصر قضى حياة سعيدة يعيش وسط نساء من معارفه وتقوم بالعناية به ابنة أخيه مدام دينى ، وهى امرأة قصيرة بدينة كثيرة اللغط ليست بالجميلة ولكنها غزلة ، وكان الكهل متعلقاً بها وكان يعاملها معاملة الابنة . ومن هناك كان فولتير يوالى أمور ضياعه فى فرنسا ، ويرسل برسائله وأقواله إلى أنحاء أوربا فيضحك لها الناس جميعاً ويحزن لها أولئك الذين تعرضوا لسخطه .

وكان فولتير يهتم بالأمور العامة اهتماماً كبيراً وتدخله فى قضية كالاس وقضية سيرفون ودفاعه عنهما فيما اعتقده حقاً ومهاجاته للسلطة الفرنسية مهاجمة عنيفة وهو يشرف على الثمانين من عمره ، صفحات عجيبة فى تاريخ ذلك الرجل العظيم .

إذا كان فولتير لم يجد تقديراً من أصحاب السلطة بل وجد معارضة متزايدة ، فان زيارته لباريس فى آخر أيام حياته دلت دلالة كبيرة على منزلته فى قلوب الناس . فلقد قرر أخيراً أن يذهب إلى باريس بالرغم من غضب البلاط ، فذهب إليها فى سنة ١٧٧٨ بعد أن انقطع عن رؤيتها ثلاثين عاماً وقوبل فى حماسة منقطعة النظير كانت مما ساعد على انتهاء حياته المديدة فى ٣١ مايو سنة ١٧٧٨ إذ خبا مصباحها الضعيف تحت ضوء شمس هذه الحماسة

وما زال الناس يتتبعون حياة فولتير وآثاره ، وما زالوا عاملين على نشر كل مايعثرون عليه من كتاباته . وقد نشر أخيراً (فى أبريل الماضى) مسيو بول سان — كلير — دافيل رسائل لفولتير لم تنشر من قبل ، فأحببنا أن ننقل بعض هذه الرسائل للقراء ، وهى تدور حول بعض الأمور الخاصة بضيعته ولكى نبين أهمية هذه

الرسائل نذكر كلمة صاحبها فى تقديمه لها ، إذ قال :

« فى حيازتى ثلاث وأربعون رسالة من فولتير أرسلها إلى مسيو فابرى الذى كان عمدة لبلدة جى ومديراً لحسابات برجونى ، والحائز لرتبة فارس من ملك فرنسا . وكان هذا العدد من الرسائل حتى سنة ١٩١٣ ملكاً لمدام أدمون دى لوريس ، واسمها قبل الزواج إما فابرى ، فهى سليلة الرجل الذى أرسل إليه فولتير رسائله . وعندما توفيت مدام دى لوربس ، انتقلت هذه الرسائل لإحدى بناته التى تزوجت من أبى فى زواجه الثانى ، ومنها وصلت هذه الرسائل إلىّ ، وقصد صحتها إذن ثابتة .

« ولقد نشرت المراسلات العامة لفولتير لدى الناشر هاشيت وبينها ثلاث وعشرون رسالة أرسلها فولتير إلى مسيو فابرى فى المجلد الثالث والعشرين وما يتبعه . وأصول سبع وعشرين رسالة من الرسائل التى نشرت هى بين الثلاث والأربعين رسالة التى أمتلكها ، فليس من الفائدة إعادة نشرها . وبين الخمس والثلاثين رسالة الباقية ما هو مجرد بطاقات قصيرة . وأما الرسائل الأخرى فموضوعاتها متنوعة جدا ، وأكثرها يتعلق بمسائل شخصية لفولتير وابنة أخيه مدام دينى ومشاكلهما العديدة مع مندوبى الزراعات العامة ، والبعض الآخر يتعلق بالمصالح العامة لبلاد جى ، والبعض فيه توصية للمسيو فابرى على بعض من يحميهم فولتير أو على بعض التاعسين . ولم تكن تفاهة الموضوع أو جفافه ليحول دون ظهور تلك الروح المرحة اللاذعة التى هى من صفات صاحب الرسائل .

« وإذا كان هذا العدد الصغير من الرسائل غير كاف فهو يلقى بعض الضوء على فولتير صاحب الأرض ، وفولتير دافع الضرائب ، وفولتير الذى أسس صناعات وعمل لإحياء البلد الصغير الذى اختاره . وباضافة هذه الرسائل إلى ما سبق نشره من رسائله العامة يمكننا أن نحدد بعض صفات سيد فيرنى .

« وأقدم هذه الرسائل تحمل تاريخ سنة ١٧٥٩ وأحدثها فى فبراير سنة ١٧٧٦ .

« ويظهر أن عدداً قليلا من هذه الرسائل كتبه فولتير بخط يده والعدد الآخر بخط إما مدام دينى وإما فاجنيير سكرتيره .

« أما دور فابرى وهو وكيل المندوب لحسابات بورجونى فى بلاد جى فهو يعادل ممثل السلطة المركزية ، أى إنه يكاد يكون مديراً ، ويظهر

أن مسيو فولتير صاحب ضيعة فيرنى كان على أحسن علاقة معه كما يبدو من الرسائل .

« ولكى نفهم هذه الرسائل يجب أن نتذكر أن الضيعة التى كان يمتلكها فولتير بين سنتى ١٧٥٥ و ١٧٦٥ ، واسمها دليس كانت على أبواب جنيف فى أرض تابعة لمدينة جنيف وتفصلها الحدود عن فرنسا ، وكانت إدارة المزارع العامة المليئة بالكتبة وهى التى يشكو منها فولتير دائماً فى جهة ساكونى على مقربة من فيرنى التى تملكها فى سنة ١٧٥٨ . وكان هؤلاء الكتبة يراقبون دائماً خروج المنتجات التى كان صاحب ضيعة دليس يخرجها من فرنسا آتياً بها من فيرنى .

«وعلى بعد ١٠٠ مترا تقريباً فى الشمال الغربى من فيرنى توجد قرية موتر ، وكان قسيسها اسمه الأب أنسيان ويحمل له فولتير حقداً شديداً . »

ع ٥٠ م

سيدى

على أثر الترخيص الذى يحمل توقيع وكيل إدارة الحسابات فى ١٤ ديسمبر ، وهو الذى عرضه اليوم فى ساكونيه خادمى الذى يحمل هذه الرسالة ، أرسلت إلى خدامى وأتباعى لكى يحملوا إلى أربعة وعشرين شوالا من القمح من فيرنى . ولكن رئيس الحراس وقف القمح والركائب زاعماً أنى لم أمنحه الكفاية من القمح فى هذه السنة لمخبزه . فأتشرف بأن أعلنك بهذا النبأ باسمى وباسم مدام دينى .

إن حامل هذه الرسالة يحمل الترخيص ، وهذه المبالغة فى قلة الحياء تستحق العقاب . فألتمس منك ياسيدى فى هذه المسألة الصغيرة أن تشملنى بالعطف الذى أنتظره منك ، وأن تكتب إلى الادارة بساكونيه بالطريقة المناسبة . وإنى دائماً مدين لأفضالكم .

وأملى أن تصلك أنباء سارة قبل عيد الفصح عن المذكرة التى عهدت فيها إلى .

هل تخبرنى عن الجانب الذى تؤيده فيما يتعلق بحرية البلاد ؟ إن أصحابنا على استعداد دائماً ولن يسوء أحد أن يرسل الأشرار إلى الجبال .

وهذه يا سيدى العزيز صورة الاعلان الذى كتبته مدام دينى مساء أمس ٢٠ وأرسلته فى صباح ٢٩ إلى

ساكونيه ، وقد أرسلت أسس إلى الادارة العامة للحسابات فى ديجون وإلى رئيسها فى باريس وإلى المراقب العام هذه المذكرات التى أرسلها إليك.

ويقال علناً إنهم فعلوا بنا هذه المضايقة لأننى أتدخل فى العمل على تخليص المديرية . ولا أعلم من الذى أذاع أن من الواجب أن نتصل فى أمر الملح بإدارة الزراعات العامة . ويقال إن السيد سيديو هو الذى شجع الموظفين على هذا الاعتداء نحوى ونحو مدام دينى — ولقد كتبنا التماسا سنرفعه للملك عند الحاجة . وبالرغم من مرضى فلن أترك هذه المسألة . ومن المؤكد ، كما ورد فى تصريح مدام دينى الذى هو الحقيقة بعينها ، أن الموظفين على غير الصواب . فقد أرسلت مدام دينى سكرتيرها فى الساعة التاسعة صباحاً لكى يسجلوا الترخيص فى ساكونيه . ولقد تم ذلك بوساطته ، ومع ذلك فان الموظفين لم يذكروا هذا الأمر الأساسى فى المحضر الذى حرروه . ولا شك أن هذه المسألة غير اللائقة يراد منها مضايقتنا وإغضابنا ، وهى تنطوى على عداوة سرية من السهل ملاحظتها . ويقال إن مدير بلدة ماران قد تشدق بأن الملح سيظل حيث هو بالرغم منك وأنك ستندم على إجراءاتك . ولست أستطيع القول بصحة ذلك النبأ . ولست متأكداً إلا من صداقتك وحكمتك ، كما أنى متأكد من ودك وصداقتك الحقيقية لخادمك المخلص المطيع .

٢٦ يناير سنة ١٧٦٠

فولتير

أرسل إلى مسيو دويو يا سيدى يقول إنه بعث إليك بأصل الوثيقة المستخلصة من دار المحفوظات بجنيف ، ومنها ترى أن المكان الذى ارتكبت فيه الجنحة المتهم بها المسمى لنشون كانت تابعة لقضاء جنيف ثم ضمت إلى جلالة الملك ، وقد أرسلت صورة من هذا القرار لمسيو ديكورتى الذى ذهب للاستشفاء بمياه فيشى ، وأرسلت صورة أخرى للرئيس الأول لبرلمان ديجون الذى تفضل فكتب فى الحال إلى مندوب الملك فى جى موصياً بالعناية بما كتبته .

فألتمس منك يا سيدى أن تستعلم فى الحال من مسيو دويو دى لنشون كيف لم تصلك الأوراق التى قال لى إنه

أرسلها إليك . وعلى كل حال سترى يا سيدى أنه ليس من العدالة أن أكون ضحية تعنت بلدية جى ، ولو أنه كان من سوء حظى أن دفعت هذه النفقات التى لا أدان بها مطلقاً لماقدرت أبداً على استردادها ، فهم يريدون أن يكلفونى نفقات كبيرة من كل جهة لمجرد أن كان من سوء حظى أن أمتلك أراضى فى فرنسا . وإنى لأعتمد على صداقتك . أما صداقتى فستجدها فوق كل مظنة وإن لى الشرف فى أن أكون حقا يا سيدى العزيز .خادمك الخاضع المطيع .

دليس ٢٨ يونية سنة ١٧٦٠

فولتير

لى الشرف يا سيدى بأن أقدم لك واحداً من خير الصناع الفنانين فى أوربا ، وهو مقيم فى فيرنى ويمكنه إصلاح الساعة الكبيرة فى جى وليس هناك من يعادله غير رجل واحد فى جنيف . وأعتقد أنك ترىمعى أنه يجب تفضيل استخدام السيد فوشيه من سكان فيرنى الذى اتخذ الجنسية الفرنسية على أحد أهل جنيف ، وسأكون ضامناً له . وأعتقد أنه لاينبغى مناقشة الصانع الفنان فيما يطلبه من ثمن .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك الخاضع المطيع .

فيرنى ٢٠ يوليه سنة ١٧٧٠

فولتير

سيدى

لى الشرف أن أرسل إليك الأوراق المرافقة لهذا الخطاب دون أن أطلب منك أية رعاية ؛ إذ أنى لا أعرف إلى أى حد تمتد المزايا التى يتمتع بها السويسريون . ولا أريد مطلقاً غير القضاء العدل .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع .

فولتير

سيدى

يوجد فى فيرنى جزاران أحدهما يدعى فرانسوا إيفيت وهو يذبح أبقارا جيدة جدا وقلما يذبح جاموساً . والرأى العام يتهم رجلا اسمه ابراهام مينبيه كان فيما سبق فى جهة برينييه ويعده رجلا غشاشاً ، ومما لا شك فيه أنه سينشر الأمراض فى جهته الصغيرة لو ترك وشأنه أكثر من ذلك . وهو يفضل أن يعدى المقاطعة بأكلها على أن يتركها .

وأعتقد أن فى هذا خطراً عاجلا حتى إنه ليكون من حسن التدبير طرده من الجهة . وأكل هذا الموضوع لحكمتك ونشاطك .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع.

فيرنى ٦ فبراير سنة ١٧٧٣

فولتير

سيدى

يقال إن هنالك حاجة إلى رجل يدير بعض أعمال الطرق الكبيرة . وأقدم لك السيد بر برا فهو ذكى نشيط ، وأعتقد أنه يلائمك . ولست أطلب منك أن تفضله إلا فى حالة وجود هذا العمل .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع .

فيرنى ٢٣ مارس سنة ١٧٧٣

فولتير

سيدى

لقد عدت إلى دارى فى اللحظة التى غادرتها أنت . ولقد علمت بما أبديته من عطف . وإنى أرسل لك عقد الهبة التى أعطيناها لويزيه — وهى حركة خدمنا بها رجلا ناكراً للجميل .

وكلمة المجاورة التى استعملهامسجل العقود المخادع لا يمكن أن تنطبق على منزل لويزيه الذى يبعد عن الطريق

فهو قد يكون قريباً من الطريق ولكنه فى الواقع على بعد أربعة وعشرين أو خمسة وعشرين قدماً ، فلا يمكن أن يكون متاخما له فالمنزل لا يقع على حافته .

والساحة التى يقع عليها منزلا كارى ولويزيه اللذان بناهما السادة دى بوديه كانت ملكاً لهؤلاء السادة. فاذن كل مابقى من هذه الساحة عاد إلى مدام دينى التى ورثتهم .

فكلمة المجاورة التى استعملها المسجل استعمالا خاطئاً لايمكن فى نظرى أن تضعف من حقوق مدام دينى . ومعناها كما هو واضح أن المنزل مجاور للساحة الصغيرة المتاخمة للطريق الكبير ، ولم تتنزل مدام دينى قط عن هذه الساحة . ولقد وضع دينى فيها حظيرة للخنازير صنعت من أخشاب قذرة تضايق لها الجيران ، فأخبرت لويزيه بأن ليس من حقه إقامة هذه التخشيبة فرفعها ، مما يدل على أنه كان فى ذلك الوقت يعرف تماماً أن الساحة ليست ملكاً له . هذه ياسيدى الأسباب التى أدلى بها لكى تضىء عليها حكمتك وطيبتك وألتمس أن تعيد إلىّ هذا العقد الرافق .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع.

فولتير

سيدى

إذا أردت أن تشرفنا بالعشاء يوم الاثنين أو الثلاثاء مع المريض الكهل فسيكون ذلك أول مرة يجلس فيها إلى مائدة العشاء منذ ثلاثة شهور .

لقد وصلتنى إجابات دقيقة من حضرة المراقب العام على التماسات كنت رفعتها إليه ، وسيكون من الخير أن أعرف آراءك وآراء مسيو ديفيرنى عن جميع المسائل التى سنتكلم فيها .

فى بلدة فيرسى رجل أمين اسمه بوزيه يطلب عملا بادارة الملح . فاذا كان هذا العمل لم يعط لغيره ، وإذا كان لا يزال فى الوقت فسحة ، فانى أتقدم بالتوصية على هذا الرجل الذى تكلموا عنه بالخير وهو قدير على خدمتك .

ولى الشرف مع ما أكنه من صلة الاحترام بأن أكون خادمك المطيع .

فرنى ٩ فبراير سنة ١٧٧٦

فولتير

سيدى

لى الشرف بأن أرسل لك رسالة قس مانس . فهذا الرجل عنيد ، وهو لا يعنى بوساطتك فى قلة حياء . وأرجوك يا سيدى أن تتدخل لتحمله على أن ينتظر خمسة عشر يوماً . فالمفهوم أنه الآن ممنوع بأن يأتى بسلع من ليون ولا يمكن تصريف هذه السلع فى جنيف إلا بخسارة كبيرة . وفضلاعن ذلك فهذا القس الجشع المشاحن الذى يضطهد الفقراء هو أحق بعقوبة تردع أمثاله من أن ينال نقوداً . وإنى أرجو فى كلمة ألا يحمل فلاحى فيرنى نفقات جديدة فى حين نتخذ نحن إجراءات مناسبة .

إن الحادث الذى حدث لامرأة فقيرة أسكنها فى ضيعة فيرنى على سبيل الاحسان وهو أن الكتبة استولوا على قمحها الذى أشعلنا فرن القصر من أجله، لهو برهان جديد على الخدمة الكبيرة التى تسديها للبلاد ؛ إذ ترسل هذا القطيع من الموظفين الذى يرهب مديريتنا الصغيرة إلى الجبال ؛ فخير لهم أن يكونوا زملاء للذئاب والدببة . وإذا أمكن أن يعين السيد أنسيان قسا لهم أيضاً فان ذلك يكون مناسباً جدا .

ولى الشرف من أعماق قلبى يا سيدى بأن أكون خادمك المطيع .

فولتير

من هنا وهناك

آثار الدولة المعينية فى جوف اليمن

قام علماء الآثار والتاريخ بدراسات شتى لمختلف الحضارات القديمة ، فذكروا بعض الشئ أو أكثره مما بحثوا فيه عن الحضارات الصينية والهندية والفرعونية والأشورية واليونانية والرومانية وغير ذلك ، وبقيت حضارة اليمن، أو حضارة سهول القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية فيما قبل التاريخ ، مجهولة إلى يومنا هذا ، ولم يعرف عنها إلا القشور التى لا تؤدى إلى معرفة تلك الحضارة معرفة صحيحة .

فبعد أن تمكن الصيدلى الفرنسى أرنو **T.J. Arnaud** أن يكون أول باحث وصل إلى منطقة سبأ فى عام ١٨٤٣ وحصل على نقوش مارب ، كلفت الأكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة المستشرق الفرنسى جوزيف هالفى **Joseph Halévy** البحث عن النقوش الحميرية ، فقام فى شتاء عام ١٨٦٩—١٨٧٠ برحلته المشهورة إلى اليمن ، وزار مناطق سبأ والجوف ونجران ، وعاد بنتائج عظيمة وجديدة فى ذلك الوقت من نقوش ومعلومات عامة ، كانت ولا تزال هى المرجع الوحيد إلى يومنا هذا عن الجوف بصفة خاصة . أما المناطق الأخرى مثل سبأ وظفار وحضرموت وغيرها فقد حظيت بزيارات عدة من المستشرقين والرحالة المختلفين ، وظلت منطقة الجوف فى زوايا النسيان ، أو كأنها منطقة حرام على العلم والعلماء مدى ثلاث أرباع قرن ، حتى أتاحت الظروف للكاتب أن يجول فى الجوف ويدرسه مرتين فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ، وبذلك سيكون لنا من هذه الدراسات الحديثة مرجع جديد عن مهد الدولة المعينية .

ويمكن القول بأن هالفى قام بدراسته تحت ظروف سيئة جدا فى هذه الرحلة المذكورة . ومع أنه تزيا بزى يهودى يمنى ، فقد كان يكتب ملاحظاته وينسخ النقوش على قصاصات من الورق على هيئة شريط يلفه على أصبعه ، وأحياناً كان يكتب على كم قميصه ، وكان يخفى أوراق مذكراته فى الأرض حتى يعود لمكانه خشية التفتيش الذى تعرض له مراراً،

وكان أهالى الجوف يرتابون فيه لبحثه عن الآثار والنقوش ، فتعرض للقتل غير مرة ، ولهذا كان يخشاهم ويتملكه الخوف والاضطراب النفسانى . وقد اتضح لنا الآن أن نتائج هالفى تحت هذه الظروف السيئة قد أصبحت ناقصة مبتورة ومشوهة .

ويجدر بالذكر أن المستشرق النمساوى إ . جلازر Eduard Glaser زار اليمن أربع مرات فيما بين سنى ١٨٨٢ ، ١٨٩٢ بتكليف من الأكاديمية الفرنسية أيضاً وأكاديمية براغ ، ومرتين على نفقته الخاصة ، ولكنه لم يتمكن من زيارة الجوف خوفاً على حياته من القبائل الذين كانوا يقتلون معظم الرحالة ، فعلم البدو طريقة طبع النقوش على ورق الاستمباج Estampage وأحضروا له بعض نقوش الجوف ، وأمكنه أن يصحح بعض أخطاء هالفى ، ولم يتمكن من أن ينشر إلا القليل من النقوش لعدم دراية البدو الدراية الفنية التامة بطبع تلك النقوش، ولتصرفهم فى تنويع أماكن مصادرها وعددها أيضاً .

وقد جمع هالفى فى كل رحلته ٦٨٥ نقشاً من سبأ والجوف ونجران ، وما على طريقه بين هذه المناطق ، منها ٤٨٦ نقش خاصة بالجوف فقط . وظهر لنا أن كثيراً من عدد هذه النقوش مجزأ من نقوش قليلة ، وأن سطور نقوش كثيرة اختلفت أوضاعها بالتقديم أو التأخير ، وأن سطوراً بل نقوشاً بأكملها لم ينسخها قطعاً ، وإلى غير ذلك مما اتضح لنا حديثاً من الصور الفوتوغرافية التى حصل عليها الكاتب وما نسخه فى رحلتيه أثناء عامى ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ . ومن مجموعة هذه النتائج الأخيرة سنقدم بلا شك للباحثين فى النقوش والآثار العربية قبل الاسلام عوناً كبيراً فى دراساتهم التاريخية ، ونتيح لهم دراسة الخط المسند الذى قد يساعد على حل مشكلة إثبات تاريخ الدولة المعينية وهل هى كانت قبل سيدنا سليمان والملكة بلقيس فى القرن العاشر قبل الميلاد أو بعد هذا التاريخ .

والآثار المعينية الباقية كثيرة ، وقامت كغيرها من الآثار العربية القديمة الأخرى فى شرق الهضبة باليمن على حين نجد غرب الهضبة أو التهامة خالية من الآثار تمام الخلو . وإلقاء نظرة على طول الخط الشرقى لهضبة اليمن ترينا أن دولة معين قامت فى شمال هذا الخط ، ودولة سبأ تأسست فى وسطه ، ودولة ظفار فى جنوبه . وتعليل وضع هذه الدول قديماً

فى شرق الهضبة كان لا بد راجعاً إلى الأسباب الآتية :

أولا — ارتفاع سطح السهل الشرقى إلى ما مقدار متوسطه ١٢٠٠ متر عن سطح البحر وهو ارتفاع عظيم ، فى حين أن أقصى ارتفاع فى التهامة لايزيد عن ٣٥٠ متر عن سطح البحر ، يساعد على انتشار السكان فى وسط صحى أحسن .

ثانياً — جفاف هذه المنطقة الشرقية ، وتباين النهايتين العظمى والصغرى فى الحرارة اليومية ، من دواعى التفضيل للمعيشة على التهامة حيث تكون الرطوبة فيها عظيمة جدا لتقارب نهايتى الحرارة بسبب جوارها للبحر الأحمر .

ثالثاً — اتساع رقعة الأرض فى الشرق والجنوب الشرقى إلى مدى مئات الكيلومترات بما فيها الربع الخالى وحضرموت ، حيث تغمرها سيول الأمطار الوفيرة القادمة من الهضبة بكميات غرينية عظيمة فتساعد على زيادة الزراعة وكثرة المراعى ووفرة الخيرات ، ويتبع ذلك العمران . وهذا ما لا يتيسر فى الغرب حيث عرض التهامة يكون بالغاً نحو ٦٠ كيلومتر ، وتربتها متأثرة فى كثير من مساحاتها بالملوحة الناشئة عن رشح ماء البحر الأحمر .

فلهذه الأسباب مجتمعة مر طريق القوافل قديماً بشرق اليمن ، وارتقت الحضارات فى الشرق بسبب جودة الطقس ووفرة الزراعة وكثرة المراعى وانتشار السكان وتبادل المعاملات التجارية وتعهدات النقل البرى بالجمال ، فكانت بذلك الأمة اليمنية قديماً (أو قوم عاد) حلقة الاتصال بين أمم أواسط وغرب آسيا وبين شمال الجزيرة العربية وساحل البحر الأبيض المتوسط ومصر .

وقد ترتب قديماً على تركيز هذه الحركة التجارية فى اليمن مع ما فيها من إنتاج زراعى أيضاً ، أن انتقلت هذه الأمة من حياة البدو الخالصة أو الرعاة إلى الحياة الرفيعة ، فأسسوا المدن العظيمة على الطريق ، وأنشأوا المعابد الضخمة . ولما فكر بعض الطامعين فى غزو البلاد لاستغلال ثرواتها أقيمت الأسوار الضخمة بالأحجار الهائلة بقصد الدفاع ، وفيها فتحات لتصويب السهام مما هو باق إلى وقتنا هذا .

ويتبين لنا من هندسة بنائهم ، أنهم كانوا على شئ كبير من الفن والذوق مع البساطة وعدم التعقيد

وأنهم قد نقلوا طريقة البناء بالحجر والحفر عليه عن قدماء المصريين إذ كان الاتصال التجارى بينهم ذا شأن عظيم . ويظهر لنا من تسجيل قصصهم وتقديم قرابينهم وبعض تواريخهم كتابة على الأبنية بعد إقامتها ، إما بالحفر أو بالتبريز ، مع تناسق القياس فى الأبعاد والأحجام وغير ذلك ، أنهم كانوا أهل علم وخبرة ودقة . ويتضح لنا من بعد الجبال التى أتوا بأحجار البناء منها ، وطريقة قطعها وصقلها مع ضخامة حجمها ، أنهم كانوا أصحاب قوة وبأس وعزم ، وتدل آثار معابدهم على أنها كانت فى داخل المدينة وخارجها ، وكانت التى بالخارج مقامة دائماً على مسافة يسيرة من الركن الشمالى الشرقى للمدينة . ولعل ذلك كان عن عقيدة تشبه ما كان يتخيله قدماء المصريين من أن سماء الجهة الشمالية الشرقية تحوى حقول الخيرات الكثيرة فى الحياة الأخرى ، وأن كل فرد سينال منها نصيبه بمقدار مايقدمه للمعبود فى الحياة الدنيا وهو الموضوع بهذا الركن المذكور . وأمكننا أن نجد قبور بعض الخرائب فى الركن الجنوبى الغربى . ولعل ذلك يساير اعتقاد المصريين بأن الموتى يقطنون عالماً غربياً . كذلك كانت لهم فى العقائد الدينية رموز للروح كالثعبان والبومة والكلب والتيتل والبقرة وعنقود العنب وغير ذلك مثلما كان لقدماء المصريين . كما كانت لهم نقوش زخرفية ولكنها بدائية ، وكذلك صناعة نحت التماثيل المرمرية . وكلتاهما لم يصل إلى حد الكمال الذى بلغه المصريون . ونقطع بأنهم لم يستعملوا الألوان كما استعملها المصريون وغيرهم وكذلك لم يستعملوا سوى الأحجار الجيرية والرملية وبالاختصار : قد يكشف الدرس فى المستقبل عن علاقة أو تشابه إلى حد ما بين آثار اليمن وآثار الفراعنة .

ويبدو لنا من مساحة مدنهم القديمة أنها كانت لسكنى الأشراف وذوى المكانة من رجال الدولة وأسرهم ، وكذلك لتحصيل المكوس ، ولخزن غلات الأرض لسنى الجدب ، ولإقامة الطقوس الدينية . أما جمهور الشعب فلا بد أنه كان يعيش فى حالة البداوة كما كان قبل عصر العمارة ، وكما هى أكثر حاله الآن .

وتدل بعض الآثار المعينية الشامخة الباقية للآن على أنها قد تأثرت كثيراً فيما مضى بالعوامل الطبيعية ، فتهدم الكثير منها . وأهم هذه العوامل الاغراق من سيول الأمطار الشديدة

الجارفة ، والزلازل التى زعزعت الكثير من الأبنية أو أحدثت بها تشققات عميقة وكبيرة ظاهرة . ففى خربة آل همدان بالجوف بقايا معبد قديم يسميه البدو الآن « بناة عاد » (أى بنيان عاد) وكانت بعض أعمدته لا تزال قائمة حتى سنة ١٩٤٤ ، ثم أتى عليها سيل عظيم جدا لا يقل عن سيل العرم وشاهده الكاتب فى سنة ١٩٤٥ ، وطغى طغياناً شديداً على تلك المبانى فتخربت وفقدت شكلها الأصلى .

وكلا العاملين (السيول والزلازل) كانا سبباً فى هجرة السكان قديماً على موجات متتالية من أثر الخوف والهلع من جهة ، ومن إصاباتهم فى أنفسهم وفى أموالهم من جهة أخرى ، إلى الشرق والشمال وغيرهما من جهات الجزيرة . ولما جاء عصر انحسار الأمطار ، ولمدة سنوات متتابعة ، ولمرات متكررة على غير ما ألفوه فى بدء عهدهم فتسبب لهم القحط ، وتغير الرخاء والنعيم إلى شقاء وجحيم ، وتبدلت جنتهم بخمط وأثل وأراك كثير وشىء من سدر قليل ، نزحوا فى موجات أخرى إما إلى الجهات الشمالية وغيرها ، وإما إلى الداخل نحو الهضبة ، فقلت آثارهم فيها وتفرقت ، ثم امتد الباقون بالعمران من الناحية المجدبة فى الشرق شيئاً فشيئاً إلى حيث وفرة الأمطار على قرب الهضبة (أى التهامة). ثم ظهر الاسلام وانعدمت بذلك أو تنوعت واختلفت آثارهم . هذا عدا بعض اعتبارات أخرى لها قيمتها فى أسباب الهجرة رغم اختلاف العوامل السابقة الذكر ، مثل ازدياد عدد السكان وازدحامهم وإغارة البعض على مواقع البعض الآخر ، وكثرة الحروب بينهم ، وانتشار الفتنة فيهم ، وعدم استتباب الأمن ودخول عناصر غريبة عليهم ، وفوضى الاحتلالات الأجنبية من الرومان والأحباش والفرس .

من هذا التشتت والانحلال فى قوم عاد ، ولعدم الأمن على التجارة بطريق القوافل ، ولما كان من غلوهم فى تحصيل المكوس وأجور النقل لاحتكارهم وسائله ، وبالجملة أسباب أخرى طبيعية واجتماعية ، ثم لوصول الرومان إلى معرفة مواقيت النقل البحرى المناسبة من فصول السنة بالبحر الأحمر ، لهذا كله مات طريق القوافل وتحول عن شرق اليمن . ولم يكن تحول الطريق هو العامل الأول الذى أمات دول الشرق .

ومما يجدر بالذكر أن الأبعاد كانت موحدة غالباً فى تأسيس المدن قديماً ، فالمسافات فيما بينها كانت فى منتهى

الدقة مما يدل على أن ذلك يتصل اتصالا وثيقاً برحلات القوافل وتسهيل حمايتها أو إقامتها أو تموينها على طول الطريق . وكذلك كان توحيد هذه المسافات لعوامل محلية هامة أخرى فى ذلك الزمن ، مثل إعطاء الأنباء أو تبليغها ونقلها بينهم بالاشارات أو الأصوات . ولما حاق بها الدمار والهلاك فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، وبعدت تلك المسافات بعداً شاسعاً ، صار الارتحال فيها خطرا ومهلكاً . وكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . »

وثبت لنا من دراسة الشكل الخارجى لبقايا تلك الآثار المعينية أنها تمثل ثلاثة عهود :

العهد الأول — وأحجار بنائه هى الأصلية الثابتة إلى وقتنا هذا كما بناها قوم عاد .

والعهد الثانى — وأحجار بنائه متراصة فى غير تنسيق بعدهدم حصل، ونقوشها تبعثرت وأوضاعها قلبت ، مما يدل على أن ذلك كان عصر فوضى وعبث وحروب وقعت حوالى فجر الاسلام .

والعهد الثالث — وأحجار بنائه صغيرة ، وأدخلت مادة الطين فى إقامتها وتركيبها ، وهذا حصل بعد ظهور الاسلام حتى القرن السادس الهجرى .

وقد أصبحت هذه الآثار معروفة « بالخربات » لأنها مهجورة ولا يرغبون فى سكناها (إلا فى بعض حالات نادرة مثل زوال الآثار وبقاء الكومةالترابية وقيام البناء الحديث عليها) ، وذلك إما للنزاع على تملكها وكسب ما بها من كنوز قوم عاد ، وإما تأثرا بالدين لأنها أماكن حلت بها لعنة الله .

ونلاحظ أن هذه الخربات مقامة على أكوام صناعية من الطين تعلو نحو ١٥ مترا عن مستوى أرض الجوف وذلك كان بلا شك لحماية أنفسهم من سيل المطر ، مثلما كان يفعل المصريون لحماية بعض قراهم من فيضان النيل .

ويطلق البدو على آثار هذه الخرائب أسماء مختلفة ، منها آثار الكفار ، وآثار الأولين ، وآثار عاد ، وآثار حمير ، وآثار الجاهلية ، وآثار هلالية .

وقد تيسر للكاتب أن يزور أو

يقف على معالم خمس وعشرين خربة فيدرسها دراسة مستفيضة من مختلف النواحي والأغراض العلمية إلى حد ما ، ومنها إحدى عشرة خربة بها عشرون ومائتا نقش ، والباقى ليس بها نقوش ، ومنها تسع خربات فقط زارها هالفى ونوه عنها فى تقريره .

وحالة هذه الآثار المعينية ، بصفة عامة ، لا بأس بها إلى الآن ، ولو أن كثيراً منها قد تهدم بفعل السيول ، وأصاب بعض الحفائر تعرية بفعل السيول أيضاً فصارت مطمعاً للأهالى، وطمس بعضها فى الرمال ، أو حصل لها تلف بفعل الأهالى الذين ينزعون الأحجار للاستعانة بها فى بناء منازلهم وغيرها . كما أن الأهالى يعتقدون اعتقاداً راسخاً بتوارثهم ملكية هذه الآثار عن أجدادهم بنى حمير وينقبون كثيراً فى هذه الخرائب للبحث عن الكنوز ، ويسافرون إلى عدن بما يجدونه من تماثيل مرمرية وعملة من مختلف المعادن، وأختام ذهبية وحجرية، وحبات قلادات من عقيق وأقراط وفصوص خواتم وغير ذلك من التحف الصغيرة ، أو بما يقدرون على حمله فى أمتعتهم من الأحجار المنقوشة لبيعها أو يبيعونها لتجار بصنعاء كوسطاء للبيع فى الخارج . وكثيراً ما يتفننون فى تنويع مصادرها ليهولوا فى مشقة السفر إليها ، وليرغموا فيها ، ويغروا المشترى برفع أثمانها . وقد جمع رجل فارسى Parsée فى عدن على مر الأيام مجموعة عظيمة من الآثار الحميرية بين سبئية ومعينية وغيرها ، وهى مجموعة لا توجد فى أكبر المتاحف . ويا حبذا لو اقتنتها إحدى الأمم العربية . وكذلك كادت تزول معالم بعض النقوش الثابتة لعدم وقايتها من المؤثرات الطبيعية .

وهكذا تتناثر آثار اليمن بين مختلف الأيدى والمتاحف (كما كان الحال بمصر فى القرون الماضية) دون القطع بمصدرها ؛ لأن البدو هم الذين أجروا الحفر وليست هيئات علمية منظمة . وهكذا أيضاً تندثر آثار اليمن شيئاً فشيئاً فى الرمال بفعل العواصف ، أو تزول باستغلال الأحجار فى الأبنية الحديثة . وعلة ذلك أن حكومة اليمن تبيح للأهالى التنقيب ، ولا تحظر الاستغلال ولا تمنع البيع . وبهذا تفوت على العرب صيانة بقية التراث العتيد لقصة طويلة عن قوم عاد ، وقوتهم ثم هلاكهم ، والتى لا زلنا نجهلها ونجهل العبرة بها .

محمد توفيق

شهريات

شهرية العلم

العلوم عند العرب

اختلف الناس كثيراً فى تقدير ما للمدنية العربية من أثر فى العلوم والفلسفة ، فمنهم من يرى أن العرب لم يكونوا فى الواقع إلا ناقلين عن اليونانيين وأنهم لم بضيفوا إلى علم هؤلاء إلا شيئاً قليلا لا يؤبه له ، وأنهم لو لم يقوموا بنقل المؤلفات اليونانية إلى العربية لوصل العلم اليونانى إلى أوربا بطريقة أخرى كما حدث فى أول النهضة الأوربية . و يرى آخرون أن للعرب فضلا كبيراً فى إحياء هذا التراث العلمى ، وأنهم لم ينقلوه فحسب بل كان لهم فضل شرح الفاسفة اليونانية ، وأنه لا يكفى لفهم أفلاطون أن تعرف اليونانية بل يجب أن تعرف قدراً كبيراً من الفلسفة ، وأن فهم الأوربيين لهذه الفلسفة اليونانية لم يكن ليتم لولا التعليقات الدقيقة والشروح الوافية التى قام بها العرب .

ومما زاد هذه المسألة تعقيداً ما أحاط بها من عوامل الكرامة القومية والاعتبارات الدبنية. فمن الغربيين من لا يعترف للعرب بفضل ما على المدنية كأنهم عالة على الفكر البشرى . ولعل ذلك بقية من آثار القرون الوسطى حين كان العرب خطراً على أوربا وكان الاسلام خطراً على المسيحية ، وحين كان بعض المسيحيين يعتقدون أن الطعن فى الاسلام ضرب من ضروب التقوى. وكذلك أسرف بعض الشرقيين فى تقدير فضل العرب على العلوم لما فى ذلك من إرضاء للعزة القومية . وليس من شأننا أن نتأثر بمثل هذه العوامل ؛ فدراستنا موضوعية بحتة ، والوطنية العربية اليوم أهدأ أعصاباً وأثبت أسساً من أن تتأثر بمثل هذه البحوث أو هكذا يجب أن تكون . والغربيون أبعد ما يكونون اليوم عن أن يخشوا الاعتراف بما للاسلام من فضل فلن يضير ذلك ما بقى من المسيحية فى قليل أو كثير .

ومن السخف أن تتخذ مثل هذه

المسائل مجالا للمفاضلة بين الأمم أو بين المفكرين فى الأمة الواحدة . فالنتاج الفكرى نتيجة لعوامل كثيرة جداً ، أهمها درجة نمو العقل الانسانى فى العهد الذى يعيش فيه العلماء ، وإنما يتفاضل الرجال بما فيهم من صفات عقلية وشخصية خاصة بهم بصرف النظر عن قيمة ما ينتجون . ولعله لم يبق من طب أبقراط أو الرازى شئ فى الطب الحديث ، وهما مع ذلك يعدان فى الطبقة الأولى من الأطباء .

ليس الغرض من هذا البحث المفاضلة بين أمة وأخرى ، وإنما غايتنا منه أن نضع المدنية العربية فى موضعها من التاريخ العام؛فهى لم تكن ظاهرة شاذة قائمة وحدها بل هى جزء من تطور الفكر البشرى ، وأثر العرب فى هذا التطور هو مفخرتهم الكبرى.ولا يقاس هذا الأثر بما تركوا من مبتكرات علمية ، بل يجب أن يقاس بمعيار آخر سنبينه فيما بعد .

ولتقدير هذا الأثر حق قدره طريقان: طريق البحث فى التفاصيل وفروع المسائل ،وطريق آخر هو دراسة التاريخ العام للتفكير العلمى وتحديد موقع المدنية العربية منه .

أما الطريق الأول وهو ما اتبعه الباحثون حتى الآن فهو عندى طريق غير مجد ، وذلك أن تدرس المؤلفات اليونانية والعربية وأن نتبين ما زاد العرب فى العلوم اليونانية . ومما لاشك فيه أن مثل هذا البحث يدلنا على أن العرب علموا من مسائل الضوء والحساب والأمراض والعقاقير والكيمياء ما لم يكن اليونان يعلمون عنه شيئاً ، ولكن مجموع هذه المسائل على أهميتها لايعد شيئاً كبيراً ولا يمكن استقصاؤها . ولو استطعنا أن نقوم بهذا الاستقراء فانه على صعوبته لن تكون له قيمة فى التدليل على أثر العرب فى العلوم . فمن السهل مثلا أن نثبت للرازى فضل التمييز بين الحصباء والجدرى ، ولذلك أهميته فى تاريخ الطب ، ولكنه لا يساعد على تقدير قيمة العلم العربى فى جملته .

والذى يجعل هذا البحث التفصيلى عقيما اعتبارات تتعلق بطبيعة العلم فى القرون الوسطى نورد بعضها فيما يلى :

١ — لم يكن الابتكار غاية من غايات علماء ذلك العصر ، فقد كان للعلم حدود واضحة ، وكان للتفكير قواعد ثابتة لا يحيد عنها ، وكانوا يعتقدون أن كل حقيقة جديدة يجب أن تقع داخل هذه الحدود ، وكانت غاية العلم أن ينجح العالم فى تفسير كل جديد تفسيراً يدخله فى حدود

النظريات القديمة . فاذا اختلفت المشاهدات والمنطق وجب أن تؤول المشاهدات ؛ لأن المبادئ الفلسفية لايمكن بداهة أن تكون خاطئة. فليس من الدهش ألا يكون العرب مبتكرين ، بل إن الابتكار كان يعد حينذاك بدعة ونقصاً وخروجاً على العلم .

٢ — كان من أخص صفات علماء القرون الوسطى من عرب أو لاتينيين الايمان بالمنقول وتقديس كل ما ورد عن الفلاسفة القدماء ، وكان للقدم وحده قيمة كبيرة ، وكان طبيعيا أن يجتهد كل عالم فى أن ينسب آراءه هو إلى القدماء ، وهذا مادعا المؤلفين الغربيين أن ينسبوا إلى جابر بن حيان كثيراً من آرائهم فى الكيمياء وإن لم تكن من أعماله. والكيمياء كانت فى أشد الحاجة إلى أن تدعم نظرياتها بمثل هذه الوسيلة ؛ لأنه لم يكن لها سند من الواقع ، ونسبة الرأى إلى القدماء تضفى عليه ثوباً من الحكمة . ولم يكن ذلك منهم ادعاء أو كذباً أو تمويهاً مقصوداً، ولكنها عقلية خاصة. والمؤلفون فى القرون الوسطى كانوا يعتقدون أن الرأى الذى يرونه حقا لا بد أن يكون قد عرفه القدماء وإن لم يصل إليهم نص يدل على ذلك ، وكانوا يرون أن الحكمة شائعة بين الحكماء ، فكانوا لا يرون غضاضة أن ينسبوا إلى أفلاطون من الحكمة ما لم يخطر له على بال . ولعلهم كانوا يرون أن الرأى الصائب إن لم يكن قاله أفلاطون فقد كان يصح أن يقول به ، وكان يستوى عندهم أن يقولوا قال أفلاطون أو قال باليناس أو قال أحد الحكماء ، كل ذلك عندهم بمعنى إذ المهم أن ينسب الرأى إلى فيلسوف قديم . والمحدثون تزعجهم هذه العقلية الغريبة التى لا تعنى بالدقة فى التفكير ولا فى النقل ولكنها صفة عامة فى علماء القرون الوسطى ، يستوى فى ذلك العرب وغير العرب ، وذلك يجعل من المستحيل تحقيق ما ينسب إلى المؤلفين وتحديد ما هو عربى وما هو يونانى أو لاتينى .

٣ — من المستحيل أن ينقل علم من أمة إلى أخرى إلا أن تكون هذه الأمة قد بلغت من التقدم الفكرى ما يؤهلها لاستيعاب العلم المنقول . ومن الصعب أن يتصور الانسان أن أمة من الأمم تعنى بالعلم والفلسفة كما عنى العرب وتشغف بهما كما شغفوا دون أن تصبح هذه العلوم جزءاً من حياتها . إنما ساءت سمعة العرب العلمية عند من يظنون أن الشرح والتعليق أعمال ثانوية لاقيمة لها . وهو سوء فهم لطبيعة العلوم فى القرون الوسطى ؛ إذ

الواقع أن الشرح والتعليق كانا كل مظاهر العلم فى ذلك العصر، ولم يكن للعلم أن يتعدى الشرح والتعليق ، وكان الذى يجرؤ على أن يجاهر برأى جديد لا يعد عالماً مبتكراً وإنما يعد غير عالم بما قال الأولون ، وهو عندهم الجهل كل الجهل. والروايات مستفيضة عن تمكن هذا التفكير العجيب من أهل القرون الوسطى . فقد ذكروا أن أحد أطباء جامعة بادوا عرض على أستاذه أنه يريد أن يبحث مسألة بعينها، فقال له أستاذه : «لا تتعب نفسك فقد قرأت كل ما كتب أرسطو وجالينوس فلم أعثر على شئ يتعلق بهذه المسألة ، ومن العبث أن تبحث على شئ لم يعرفه أرسطو ولا جالينوس . » فهذا العيب العقلى ليس مقصوراً على العرب ولا صفة خاصة بهم ، ولكنه عيب عام ناشئ عن طبيعة العلم فى ذلك العصر، وهى عقلية ليست عربية ولا غربية ، بل هى عامة فى تاريخ كل أمة ، وهى مظهر من مظاهر الايمان القوى ، ولابد من وجودها فى كل مدنية .

ثم إن العرب لو كان نقلهم للعلم اليونانى نقلا آليا لكان علمهم به واحداً على مر القرون . ولكن العلم الذى ينمو ويتقدم لا بد أن يكون علما حيا . والذى يقارن بين الكتب الطبية المتقدمة كالذخيرة والمتأخرة كالقانون يجد فرقاً كبيراً وتقدماً رائعاً بين العهدين . ولو كان علمهم علماً ميتاً ما تم هذا التقدم . بل الواقع أن كتاب القانون على ما بينه وبين الطب اليونانى من الشبه الكبير يفوق من حيث تنظيمه ووضوحه ودقته كل ما كتب اليونانيون فى الطب .

الواقع أن كل مدنية لا بد أن تمر بعهد كلاسيكى هو عهد الابتكار والتنظيم الفكرى ، وهو العهد الذى يتبين فيه العقل طريقه إلى التفكير المستقيم ، والذى يتم فيه تنظيم الفوضى التى تنشأ عن الجهالة البدائية. والعهد الكلاسيكى فى كل مدنية هو عهد إيجاد القواعد ، وتحديد معانى الألفاظ والمصطلحات ، وتلمس المبادئ التى ينشأ عنها التفاهم بين أهل البيئة الواحدة . ومن هنا كان العنصر الغالب على كل تفكير كلاسيكى هو العناية بالتنظيم وتحديد كل شئ . وقد قام اليونان بخلق هذا العهد الكلاسيكى فى المدنية التى قامت فى حوض البحر الأبيض وأوربا .

ويتلو هذا العهد فى تاريخ كل مدنية عهد سكون يحسبه الناس خمولا أوانحطاطاً ، وهو ليس كذلك بحال من الأحوال ، إنما هو عصر الايمان بالعلم

الـكلاسيكى ؛ إذ لا بد أن يصل الناس بهذا النوع من التفكير إلى أقصى غاياته قبل أن تتبين لهم حدوده أو خطؤه . ولا تبدأ ثورة الناس عليه إلا بعد أن يستنفدوا كل ما فيه من فائدة . ولا يمكن أن ينتقل العلم طفرة من الدور الـكلاسيكى إلى العلم الموضوعى التحليلى الحديث، بل لا بد من استيعاب الفكر للعقلية الأولى حتى يصل الناس منها إلى أقصى ما يمكن أن يبلغوه. وقد حمل العرب عبء هذا العهد الذى لا بد منه لنمو الفكر البشرى وتطوره. ومن سوء حظهم أن هذا الدور ليس باهراً وليس فيه من الانتاج الايجابى المبتكر ما يساعد على تقديره حق قدره عند العلماء المعاصرين .

ولتطور المدنيات مظاهر أعمق بكثير من شرحنا هذا ، وأثر الواحدة فى الأخرى معقد جدا ، ولكنا أردنا التبسيط . وأبسط النظريات فى شرح التطور الفكرى العام أن ننظر إلى الفكر البشرى على أنه كائن حى واحد،وأن أجزاء معينة منه تقوم بدور معين فى وقت خاص من أوقات النمو ، ويكون لكل جزء نصيب واضح جدا فى هذا التطور . فاذا كان اليونان قد قاموا بالدور الـكلاسيكى فقد قام العرب بدورهم فى العهد الثانى الذى لم يكن بد من وجوده تهيئة للأذهان للدور الثالث الذى قام به الغربيون .ولم يكن لأحد هؤلاء أن يسبق الآخرين أو أن يقوم بدوره قبل أن يمهد له السلف طريق التقدم . ولا يمكن أن يعاب على العرب أنهم لم ينشأ بينهم تفكير لم يكن العقل البشرى مستعدا له حينذاك .

ولكن العرب أقبلوا على الفلسفة اليونانية بحماسة عجيبة وقوة فهم ، وبلغوا بها فوق ما بلغ اليونانيون أنفسهم . ولايمكن أن يكون ذلك شأن من كل همه النقل . وليس عيباً أنهم لم يزيدوا فى علم اليونان كثيراً ولم يغيروا من طريقة تفكير هؤلاء ؛ فهو بطبيعته علم محدود . وكل علم كلاسيكى من طبيعته أنه لا يقبل الامتداد إلا إلى درجة محدودة .

ولو لم يوجد العرب لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من حيث بدأ العرب فى القرن الثامن الميلادى ، ولاضطر جاليليو أن يبدأ حيث بدأ جابر بن حيان ؛ إذ لابد لهذه الفلسفة القديمة أن تبلغ أقصى مداها قبل أن يزهد الناس فيها ليبدءوا عصراً جديداً . ومن الخطأ أن نظن أن جاليليو لو عاش فى القرن الثامن لقام بنفس العمل الذى قام به فى النهضة الأوربية ، بل الذى لا شك فيه أن عمل العلماء يتوقف

كله أو أكثره على العصر الذى يعيشون فيه .

ولعل هذا الشرح يدلنا على أن المدنية العربية ظاهرة طبيعية لم يكن بد من قيامها حين قامت ، وأن العرب قاموا بدورهم فى تاريخ الفكر البشرى بأقصى ما يكون من الحماسة والفهم والعلم ، وأنه لم يكن لهم أن يزيدوا فى العلم اليونانى إلا قليلا لأن ذلك لم يكن من أغراضهم ، وأنهم أبعد مايكونون عن أن يكونوا مجرد ناقلين . والذين يفهمون تطور العقل البشرى حق الفهم لابد أنهم يدركون أن قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية أمر هام جدا لم يكن منه بد قبل أن تتهيأ العقول للتفكير العلمى الحديث ، ولولاهم لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عديدة .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

شهرية الاجتماع

الأزمة الاقتصادية فى بريطانيا

[يسائل الكثيرون عن الأزمة الاقتصادية فى بريطانيا العظمى ، وإلى أى مدى بلغت ، وما هى المشكلات التى تعترضها ، ومتى ينتظر لها التخلص من هذه الأزمة ، وهل هى أزمة شاملة طاحنة . وكنا نقرأ فى ذلك بحوثا ، ولكن أكثرها يقتصر على بعض وجوه هذه الأزمة ، والبعض ملىء بالاصطلاحات الفنية التى تسبب للقارىء عناء . ولكنا قرأنا أخيرا بحثا قيما لكاتب فرنسى واقتصادى معروف هو مسيو روبير شفارتز ، كتبه تحت عنوان « انجلترا تكفر عن ذنوبها » . وهو مكتوب باسهاب ووضوح ، وكتبه من لندن إذ زارها لدراسة موضوعه ، فرأينا نقله لقراء المجلة .]

إن الأزمة فى بريطانيا العظمى التى دخلت فى شهر فبراير الماضى فى أشد أدوارها ، ناشئة من سببين : أحدهما التقهقر المستمر فى الصناعات الأساسية الثلاث — وهى الفحم والحديد والقطن — وكانت هذه الصناعات منبع قوة البلاد وثروتها . والسبب الثانى تكون دين عظيم خارجى على بريطانيا بين سنتى ١٩٣٩ و١٩٤٥ مما أخل بميزانها الحسابى . ولقد اجتمع عليها قدم أداة الانتاج ، مع كونها أصبحت مدينة للخارج ، فصار مركزها خطيراً ، ولابد أن يزداد سوءاً على مر الشهور إلا إذا حدثت معجزة .

لم يكن التقهقر فى الصناعات الأساسية ابن الأمس . وإذا فتحنا الكتاب الذى نشره أندريه سيجفريد فى سنة ١٩٣١ تحت عنوان « أزمة انجلترا » فانه يتبين لنا إلى أى حد كان نقده لنظام الصناعة الانجليزية وأداتها وطرقها صحيحاً ، ينطبق على ما هو حادث بعد ستة عشر عاماً . ومعنى هذا أن بريطانيا لم تنجح هذه الفترة فى قطع تلك المسافة التى سبقها بها منافسوها فى الخارج ، وكانت كبيرة حتى فى سنة ١٩٣١ . والواقع أن مركزها النسبى ازداد سوءاً منذ ذلك العهد . فلقد وقفت الحرب وقفاً يكاد يكون كاملا كل تجديد فى أداتها الصناعية ، وكان من الضرورى أن

يتم هذا العمل قبل سنة ١٩٣٣ . وأدت الحرب أيضاً إلى إهمال الأداة القائمة . فاذا قارنا بين ماتنتجه صناعتها وما تنتجه الصناعات الدولية فاننا نجد الصناعة البريطانية قاصرة بشكل واضح من جميع الجهات . ولكن قد يقال إن ذلك ليس الحقيقة بأكملها — وقد نزعم أن الاحصاءات ليست دقيقة — ومع ذلك فان ذلك لا يسد الفرق الشاسع الذى يفصل بين الأرقام البريطانية وأرقام منافسيها الأساسيين فى الصناعة، وأهمهم الولايات المتحدة . وقد جاء تقرير بلات عن صناعة القطن فى سنة ١٩٤٣ ، وتقرير رايد عن صناعة الفحم فى سنة ١٩٤٤ ، فأظهرا بجلاء انحطاط الوسائل الفنية فى هاتين الصناعتين مما أدى إلى عدم كفاية إنتاجهما الاقتصادى . وفيما يتعلق بصناعات الحديد ، اتفق الخبراء على أن فى هذه الصناعة عددا كبيرا من المصانع القديمة بمعداتها . وتعتمد بريطانيا اليوم كل الاعتماد على الولايات المتحدة فى تجديد أداتها . وهذا يذكرنا أيضاً بما كتبه مسيو سيجفريد فى سنة ١٩٣١ : « فى القرن التاسع عشر كان مهندسو العالم بأسره يذهبون إلى انجلترا ليتعلموا أحدث طرق الصناعة، ولكنهم اليوم يذهبون إلى أمريكا وإلى ألمانيا ، ولن يذهبوا أبداً إلى درهام وإلى نورثمبرلاند أو بلاد ويلز . » ومن الحق أن نقول إن الدخل المالى للمصانع الأساسية فى صناعة الحديد مرضى ، ولكن ذلك ناشئ عن أن هذه الصناعة هى فى الواقع احتكار . وهى تحدد على ذلك كمية إنتاجها بطريقة صناعية ،وتتمتع بحماية جمركية قوية . ويقدر العارفون أنه لكى تستطيع هذه الصناعة أن تجيب طلبات مستهلكى الحديد ، ينبغى لها أن تزيد مقدرتها فى الانتاج من ٣٠ إلى ٤٠ فى المائة . ولما هددت هذه الصناعة بالتأميم ، وضعت فى مارس سنة ١٩٤٦ مشروعاً لتجديد المصانع ، وتنظيم الصناعة ، وينتظر منها فى شكلها الحالى ، أن تزيد مقدرتها على الانتاج ، بما لا يتجاوز اثنى عشر ونصف فى المائة . وهذا يدل على أن عقول المسيطرين على هذه الصناعة تهتم بالاعتبارات المالية ، مثل بقاء الأسعار مرتفعة بطرق صناعية، أكثر مما تهتم ، كما كانت فى الماضى ، بضرورة انتاج نتاج اقتصادى جيد . فنرى من ذلك أن روح المغامرة قد اختفت ، فهم يبعدون الفكرة التى تؤدى إلى استمرار فائدتهم بنقص الأسعار ، وما يجره ذلك من زيادة الاستهلاك .

فالمسيطرون على هذه الصناعة ، التى صارت بمثابة الاحتكار لفئة قليلة ، يعارضون فى القضاء على المنتجين الذين يحصلون على أرباح باهظة ، وكان من الواجب أن تكون مصانعهم وآلاتهم منذ زمن بعيد ، فى يد تجار الحديد الخردة .

ومع ذلك لم يكن للتقهقر الصناعى نتائج خطيرة مثل ما كان فى صناعة الفحم . فقد كان تاريخ هذه الصناعة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى يبعث على الأسف . ففيه من كل أنواع الشرور : إضراب ، وعطلة طويلة واسعة النطاق ، وقلة الأيدى العاملة الناشئة من وقف تجنيد عاملى المناجم ، والقلة المستمرة لانتاجها (وقد نزلت من ١١٧٢٠٠٠ فى سنة ١٩٢٤ إلى ٦٩٢٠٠٠ فى سنة ١٩٤٦) ونقص فى عدد ما يخرج من الأطنان بالنسبة للرجل وللأداة ، فنزل مجموع ما أخرج من الفحم من ٢٦٧ مليون من الأطنان فى سنة ١٩٢٤ إلى ١٨٩ مليون فى سنة ١٩٤٦ (ونزل أكثر من ذلك فى سنة ١٩٤٥ إلى ١٧٤ مليون) . وكان إنتاج العامل بأداته فيما تحت الأرض لا يزيد على طن واحد فى سنة ١٩٤٦ ، يقابله طن وربع طن فى سنة ١٩٣٨ ، ولأول مرة صار الاستخراج لا يكفى لحاجة الاستهلاك الداخلى . أما إصدار الفحم — وهذا ما تشعر به فرنسا جيداً — فقد وقف فعلا ، مع أنه فى سنة ١٩٣٨ كان يمثل ٧٣ فى المائة من صادرات الفحم فى العالم . على أنه من الحق أن نقول إن الاستهلاك الداخلى قد زاد لأن الاقتصاد الانجليزى يمر فى فترة يسير فيها العمل بلا انقطاع .

ولقد انقلب هذا الموقف الخطير فى إنتاج الفحم إلى كارثة أثناء شتاء ١٩٤٦ — ١٩٤٧ . وهو من أشد فصول الشتاء التى عرفتها انجلترا منذ خمسين سنة برداً . وكان المخزون من الفحم يبلغ ١٥٫٣٩٠٫٠٠٠ طن فى أول سنة ١٩٤٦ فنزل إلى ٨٫٣٤٣٫٠٠٠ طن فى نهاية يناير سنة ١٩٤٧ ، وهذا الرقم لا يكاد يمثل استهلاك أسبوعين فى فصل الشتاء . فصار الانتاج الصناعى فى البلاد منذ تلك اللحظة تحت رحمة أقل الحوادث شأناً ؛ ووقعت هذه الحوادث ، فلقد تساقطت الثلوج غزيرة على هيئة غير معهودة مما سبب الاضطراب فى وسائل النقل . ومنذ ٩ فبراير من هذه السنة أدى انقطاع التيار الكهربائى إلى وقف الإنتاج الصناعى مدة تقرب من ثلاثة أسابيع على ثلثى الأرض البريطانية .

فى أحرج أوقات أزمة الوقود نشرت الحكومة كتاباً أبيض بعنوان « بيان اقتصادى لسنة ١٩٤٧ » وهذا الكتاب الأبيض يذكر أن ٢٠٠ مليون طن من الفحم هو أقل كمية ضرورية لسير الاقتصاد البريطانى . ولكى يمكن الوصول إلى هذا الرقم يجب حشد ٤٠٠٠٠ عامل من عمال المناجم لكى يكون مايخرجونه حول ٧٣٠٠٠٠ وحتى فى هذه الحالة يجب على مستهلكى الفحم فى غير الصناعة ومستهلكى القوة الكهربائية أو الغاز أن يخضعوا لقيود شديدة .

ولقد تم تأميم المناجم منذأ ول يناير من هذه السنة . وأدى ذلك فعلا إلى تحسن الجو الأدبى للصناعة بعض الشئ ؛ فصار الحشد للعمل أكثر سهولة ، وأخذت نسبة الأطنان التى تستخرج فى الارتفاع . ولكن التنظيم الفنى لمصانع الفحم هو عمل يتطلب مدة طويلة ، وهو يشمل تركيز الاستغلال الموزع على وحدات عديدة صغيرة فى المناجم التى هى أكثر إنتاجاً ثم استبدال الأدوات بما هو حديث ، لا سيا وسائل النقل فيا تحت الأرض . وتنفيذ هذا البرنامج يستغرق مايزيد على عشر سنوات . فالتأميم إذن هو حل يتطلب زمناً طويلا ، ولكنه لايحل المشكلة السريعة وهو الوصول باستخراج الفحم إلى ٢٠٠ مليون طن ، وهى الكمية الضرورية . ويمكن إيجاد حل لذلك ، ولكن هذا الحل يؤدى إلى الاختناق الاقتصادى ؛ فان كل شئ يتوقف على الفحم : إنشاء الصناعات الأساسية ومنها صناعة الفحم نفسه ، وإعادة تجديد الصناعات الأخرى ، وتجديد المخزون للمستهلك ، وبدون ذلك يستمر نظام التوزيع إلى الأبد ، وانشاء عدد كاف من المساكن لحل الأزمة الحادة فى السكن الناشئة عن تدمير مايقرب من أربعة ملايين بيت تدميراً كليا أو جزئيا فى أثناء الحرب . ثم لضرورة أشد إلحاحاً من ذلك ، هى زيادة الصادرات ، وبدونها يستحيل على بريطانيا العظمى أن تعادل ميزانها الحسابى وتضمن للجزيرة ، الغاصة بالسكان بأكثر مما تحتمله ، الواردات الضرورية من مأكولات ومواد أولية.

اضطرت بريطانيا العظمى لكى تكسب الحرب أن تستدين من الخارج فبلغ دينها ما يقرب من ٥٠٠٠ مليون من الجنيهات . وهذا الدين يزيد الآن بكثير على قيمة ما لها من الأموال التى تستثمرها فى الخارج . وقد قدرت فى سنة ١٩٣٨ بما قدره

٣٦٩٢ مليون من الجنيهات . ولقد اضطرت فى مبدأ الحرب إلى تصفية جزء كبير من هذه الأموال المستثمرة — ما يقرب من ١١٢٠ مليون من الجنيهات — فى ظروف كانت فى بعض الأحوال تعتبر من الكوارث .

وما يهم بنوع خاص ، فضلا عن ضياع رأس المال الذى يستثمر لآجال قصيرة على الأقل ، فقد جزء هام من الايرادات التى تأتى كل فترة من استثمار رأس المال فى الماضى وكانت تؤدى إلى موازنة الميزان الحسابى . وكانت هذه الأموال تأتى فى شكل فوائد وأرباح على رأس المال . ولقد تبين حتى قبل الحرب أن فى هذا الميزان عجزاً (عجز ٧٠ مليوناً فى سنة ١٩٣٨ وعجز ٤٣ مليوناً فى المتوسط للسنوات الثلاث من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨) ومعنى ذلك أن بريطانيا العظمى كانت قد ابتدأت تمس رأس مالها ، وإن كان ذلك بنسب بسيطة . ولكن فى سنة ١٩٤٦ قدر العجز بنحو ٤٥٠ مليون من الجنيهات أى أكثر من عشر مرات لمتوسط السنوات السابقة للحرب . ومع ذلك فهذا الرقم لا يترجم إلا قليلا عن سوء الحال العميقة التى حاقت بميزان المعاملات الجارية . فأولا ليست الايرادات الواردة من رءوس الأموال فى الخارج هى التى أصيبت وحدها بانقطاع شديد ، بل كذلك انخفضت الايرادات من النقل البحرى التجارى انخفاضاً كبيراً بسبب ما فقد فى حمولة السفن أثناء الحرب . ومما لا ريب فيه أن نشأة بحرية تجارية أمريكية بلغت مبلغاً ضخما فى أثناء الحرب العالمية الثانية يجعل من المشكوك فيه أن تسترد بريطانيا ما خسرته فى هذا المجال .

ومما يزيد العجز أن نفقات الحكومة البريطانية فى الخارج بلغت ٣٠٠ مليون من الجنيهات فى سنة ١٩٤٦ أمام ١٦ مليوناً فيما قبل الحرب (منها ٢٢٥ مليوناً على النفقات الحربية و ٣٨ مليوناً نفقات الاحتلال فى ألمانيا للادارة المدنية) وبالرغم من كل الوسائل التى اتخذت لضغط المصروفات فان هذه النفقات تبلغ نحو ١٧٥ مليون من الجنيهات فى سنة ١٩٤٧ . ولكى ننتهى من هذا العجز البالغ ٤٥٠ مليون ، يجب أن نذكر أنه مجرد عملية حسابية بين حسابات دائنة ومدينة . والحقيقة أن مثل هذه الحسابات ليست دقيقة ، إذ أن الحساب الدائن مقدر كما هو الحال بعملة هابطة ولا يمكن تحويلها ، فى حين أن الديون تمثل حسابات تدفع بالذهب أو بالدولار . فاذا نظرنا إلى هذا الاعتبار فان العجز فى سنة ١٩٤٦

يزيد كثيراً على ٤٥٠ مليون من الجنيهات . وإذا فرض أن مجموع هذا العجز سيقل حتى يبلغ ٣٥٠ مليون في سنة ١٩٤٧ ، كما يقدر الكتاب الأبيض الحكومى ، فان العجز بالعملة الصاعدة يكون أزيد بكثير من هذا الرقم . ويظهر من إحصاء نسر أخيراً أن بريطانيا تشترى فى الواقع ٤٨ فى المائة من وارداتها بالقيمة فى بلاد ذات عملة قوية ، ولكنها لا تبيع لهذه البلاد إلا ١٨،١ فى المائة من صادراتها . (وفى منطقة الدولار وحدها تبلغ هذه النسب ٤٢ و ١٤ لكل من الصادرات والواردات .)

لقد ظلت بريطانيا العظمى منذ نحو قرن ذات ميزان تجارى فيه عجز ، ولكن هذا العجز كان يغطى بالصادرات غير المنظورة وبايرادات أموالها المستثمرة فى الخارج . وقد ارتفع مجموع هذه الواردات من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨ فى المتوسط السنوى إلى ٣٥٢ مليون من الجنيهات ، وكانت تغطى تسعة أعشار العجز فى الميزان التجارى . وفى سنة ١٩٤٦ بلغت هذه الايرادات ١٢٠ مليون من الجنيهات ، وهو مبلغ تستهلكه وتربى عليه النفقات الحكومية فى الخارج . وفى سنة ١٩٤٧ قدر لهذا الباب زيادة ٧٥ مليوناً ، ولكن هذا الحساب يقدر إصدار مواد تجارية بمبلغ ١٢٠٠ مليون من الجنيهات ، وهو رقم يمثل ١٤٠ فى المائة من حجم الصادرات فى سنة ١٩٣٨ . وهذا الحساب قائم على ارتفاع الأثمان الذى حصل منذ ذلك العهد . ولكن مما يلاحظ أن فى ثلاثة الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٦ لم يكن حجم الصادرات إلا ١١٢ فى المائة فى سنة ١٩٣٨ ، ولكى تبلغ بربطانيا ١٤٠ فى المائة يجب فى سنة ١٩٤٧ أن تحقق زيادة قدرها ٢٦ فى المائة بالنسبة لسنة ١٩٤٦ . ولما كان لا الفحم ولا الحديد يستطيعان أن يقدما زيادة يعتد بها للتجارة الخارجية للبلاد ، فان الجهد الأكبر سيقع على عاتق الصناعات الميكانيكية والكيميائية والكهربائية والراديو — كهربائية . ومثل هذه الزيادة فى الصادرات صارت أمراً مشكوكا فيه أكثر مما كان بعد وقف الانتاج الصناعى فى فبراير . ولابد من أن يكون لهذا الحادث تأثير سيزداد الشعور به فى الشهور المقبلة .

فاذن لتحقيق ما رسمه الكتاب الأبيض لسنة ١٩٤٧ يجب أن تحدث معجزة . ومع ذلك فان رقم ١٤٠ فى المائة فى الحجم ليس إلا تكأة متوسطة ، فالتقدير العام أنه لكى توازن

حسابات انجلترا يجب أن يبلغ حجم الصادرات ١٧٥ فى المائة من حجمها فى سنة ١٩٣٨ ؛ وبعد أن أصبحت صناعتا الفحم والحديد لا يعتمد عليهما فى هذا المجال ، يجب على الصناعات الأخرى أن تضاعف صادراتها بالنسبة لما قبل الحرب . على أن انجلترا ليست البلد الوحيد الذى يعمل للدفع بصادراته . وقد صار من المؤكد أن مجموع حجم التجارة العالمية أقل بالنسبة لسنة ١٩٣٨ ، ولذلك يجب ألا يبنى أمل على تعادل الميزان إلا إذا زاد حجم التجارة العالمية نفسها . وقد يقال إن ذلك مستطاع من الوجهة النظرية ، لا سيما إذا نجحت الولايات المتحدة فى مجهوداتها بجعل التجارة العالمية ذات بناء متشعب . ولكن نجاح برنامج الولايات المتحدة الاقتصادى يقوم على أن تقلب الولايات المتحدة سياستها التجارية والجمركية ، وأن ينشأ فى ميزانها التجارى زيادة دائمة فى الواردات . ومع ذلك فان حزبها الجمهورى الذى يؤيد الحماية الجمركية تأييداً شديداً ، وحزبها الديمقراطى الذى هو أكثر تساهلا ، كلاهما لا يفكر فى تغيير أساسى مثل هذا . ولو فعل لمضت سنوات قبل أن يظهر تأثير البرنامج الأمريكى .

والواقع أن عامل الزمن يقوم بدور حاسم فى الأزمة البريطانية . ومما لا شك فيه أن بريطانيا تعيش الآن بالدين . فالعجز فى ميزانها التجارى قد غطته بقروض استدانتها فى سنة ١٩٤٦ من كندا (١٢٥٠ مليون دولار) ومن الولايات المتحدة (٣٧٥٠ مليون دولار) ولو استمرت المطالب على أموالها سائرة على المنوال الحالى ، فان هذه القروض تنفق فى مدى سنة أو ثمانية عشر شهراً من الآن . وإذا لم يتم تعادل الميزان الحسابى فى هذه الفترة — ومن غير الراجح أن يتم هذا التعادل مطلقاً — فيجب إما أن تقترض قروضاً أخرى ، وإما أن تخفض الورادات بنسب كبيرة . وليس الاحتمال الأول أو الثانى مما يبعث على الرضا .

ومما يزيد الحالة اشتداداً أن بريطانيا لكى تدفع ثمناً للحصول على القرض الأمريكى قد تعهدت بأن تسمح بحرية التعامل بالعملة الأجنبية فيما يأتى :

أولا : المبالغ التى تعود الى الولايات المتحدة فى معاملاتها الجارية مع بريطانيا وينفذ هذا الشرط فى الحال .

ثانياً : المبالغ من هذا النوع التى تتصل ببلاد أخرى ، على أن ينفذ

هـذا الشرط من ١٥ يوليه سنة ١٩٤٧ . وفى الوقت الحاضر يكون معنى هذا، التعهد بتقديم دولارات ، وينشأ عن ذلك غرامة إضافية قد تحمل الميزان الخارجى على تقدير التيمس من ١٠٠ إلى ١٥٠ مليون من الجنيهات . يضاف إليه أن بريطانيا قد تعهدت فى المادة ٩ من الاتفاق الأمريكى الانجليزى بأن تمتنع عن تحويل مشترياتها فى الخارج نحو البلاد التى لا تمانع فى تسوية حساباتها بالجنيه . فهذه المادة تقضى عليها بأن تحافظ على الحالة القائمة فى التوزيع النسبى لأنواع الواردات ، وإن اضطرت إلى خفض الكمية العمومية لهذه الواردات . وهكذا لكى تدفع بريطانيا ثمناً لقرض هو فى الواقع غير كاف فى مبلغه ، اضطرت لقبول تعهدات مضرة بها ، حتى تعتبر فى عالم الاقتصاد أنها وضعت فى أغلال من حديد . فهى إذن فى موقف لا يقل اليوم حرجاً عما كان فى ابتداء سنة ١٩٤١ قبل قانون الاعارة والتأجيرة .

فالمشكلة التى يجب على بريطانيا حلها ، هى فى الجملة تحويل اقتصادها فى مدة لا تزيد على خمسة عشر شهراً تقريباً ، إلى الخدمات الجديدة عليها التى يقوم بها البلد المدين . وفى اتجاه معاكس نرى الولايات المتحدة فى مدى ثمان وعشرين سنة بين ١٩١٩ ، ١٩٤٧ ، لم تنجح فى أن تقوم بدور البلد الدائن ، مع أنه من المؤكد أن الانسان يكون أقل ألماً حين يكون عبداً للرخاء منه حين يكون للفقر . ولذلك كان من غير الراجح أن تستطيع بريطانيا توطين نفسها على هذا الدور ، وأن تجرى على خلاف الساعة .

إذا نظرنا إلى الأسباب النفسية ، فاننا نرى أن العبء الواقع على بريطانيا العظمى هو أثقل من مجرد فحص العوامل الاقتصادية وحدها . فبالرغم من الضربة الاقتصادية التى حدثت فى فبراير فان الشعب البريطانى ظل فى مجموعه لا يشعر بالخطر المحدق به . فالتفكير فى المستقبل وهمومه هو دائماً وفى كل مكان ، يشغل النخبة المتعلمة . وإذا كانت هذه النخبة كبيرة نسبياً كما هو الحال فى انجلترا — إذ بيع من كتاب البيان الاقتصادى نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسخة — فان السواد الأعظم من السكان لا يستمد معلوماته عن الموقف الاقتصادى بقراءة الوثائق الرسمية ؛ فهو لا يستعمل الاحصاءات مقياساً اقتصاديا ، وإنما ينظر إلى حركة

الأعمال . وهذه الحركة لم تكن بأزهى منها منذ سنة ١٩٢١ ، ومنها نرى مظهراً خادعاً من الرخاء . فقد اختفت العطلة كل الاختفاء أثناء الحرب ، وهبط عدد المتعطلين إلى ٦٣ ألفا فى يونيه سنة ١٩٤٤ على حين كان فى سنة ١٩٣٧ مليونا وخمسمائة وخمسين ألفاً مع أن تلك السنة كانت سنة رخاء . وبالرغم من الهزات التى نشأت عن تسريح الجنود فان هذا الرقم ظل أقل من أربعمائة ألف فى فبراير من هذه السنة ، وجاءت الأزمة فى الفحم فاذا بهذا الرقم يقفز إلى ٢,٣٣٤,٠٠٠ فى مدى أسبوعين ، ومنذ تلك الفترة عادت الأعمال ، وانخفضت العطلة انخفاضاً مستمراً وسريعاً . ويمكن أن يقال فى مدى طويل إن الطلب فى سوق العمل يزيد على العرض .

ومن هذا الأمر ظلت الثقة فى العمل الكامل لدى العمال باقية لم تمس لحد ما ، وظل العاملون فى المناجم يتمتعون بحقهم الأسبوعى فى العمل ، الذى انقص إلى أربعين ساعة وهذا من أول مايو . وقد طلب عمال السكك الحديدية من جهتهم فضلا عن زيادة الرواتب ، أسبوع الأربعين ساعة للميكانيكيين والسائقين ، و٣٠ ساعة لموظفى الادارة . وإذا كان ارتفاع كلف المعيشة مما يسوغ زيادة الرواتب ، فان القلة الظاهرة فى الأيدى العاملة بالنسبة للعدد والانتاج ، وهو ما أشار إليه الكتاب الأبيض ، يجعل النقص لساعات العمل غير مناسب . فالمطالبة بزيادة أوقات الفراغ فى انجلترا اليوم يماثل الأحوال التى كانت سائدة فى فرنسا فى سنة ١٩٣٦ ، وإذا كان الآن لا يوجد تهديد بالغزو فأنه يوجد تهديد لا يقل خطورة ، هو الجوع والانهيار الاقتصادى . فعندما يكون فى حالة اقتصادية عسر عام فى الموارد، بالنسبة للحاجات الضرورية ، فليس من المستطاع أى علاج دون زيادة عامة فى الانتاج . والحقيقة أن مستوى المعيشة فى انجلترا يجب أن يهبط ويجب أن تطول ساعات العمل ، وذلك لمدة تزيد على عشر سنوات تقريباً ، قبل أن تستطيع البلاد العودة إلى حياة أوسع وأمتع .

وإلى أن يسد الفرق بين الموارد والمطالب يجب أن يوضع سلم تفضيلى وينفذ بشدة . ومن يقول بالتفضيل يقول بالتضحية . فيجب إذن الاتفاق على توزيع التضحيات . وفى هذا الميدان يجب أن تتخذ الحكومة دور الحاكم المستبد . ومع ذلك لم تظهر

الحكومة البريطانية حتى الوقت الحاضر على الأقل إلا حياء شديداً ؛ فهى لا تريد أن تحدث ألماً مهما كان خفيفاً لناخبيها ولا لمعارضيها . فهى قد رفضت حتى الآن وضع قيود على استيراد أشرطة السينما الأمريكية . و إذا كانت قد زادت من رسوم الدخان فى ميزانية سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ فانها لم ترد أن تتخذ الاجراءات الوحيدة التى تكون فعالة فى خفض ما ينفق من دولارات تشترى بها الدخان الأمريكانى إلى أقل حد ، وهى تقييد وارداته وتوزيعه بالبطاقة . فمن يوليه إلى ديسمبر سنة ١٩٤٦ لم تشتر بريطانيا آلات صناعية من القرض الأمريكى إلا بما يعادل واحداً من عشرين ، فى حين أن الدخان استهلك ٣٢ فى المائة . وهذا الرقم مبالغ فيه حتى مع تذكرنا أن المحصول الأمريكى يباع عادة فى النصف الثانى من السنة . وترفض الحكومة أيضاً تجنيد الأيدى العاملة كما كان متبعاً أثناء الحرب . وهى تصر على الفرق بين الجماعات الديمقراطية والجماعات التى تتولى فيها الدولة جميع الأمور . ومع ذلك فان الحالة الآن ليست أقل خطورة منها أثناء الحرب . ولا تزال الحكومة تسمح لأولئك الذين لهم مقدرة على السياحة بمبالغ من العملة كبيرة فى سخائها ، مع أنه فى هذا الوقت لا مسوغ لغير سياحات الأعمال . والخلاصة أن الحكومة تتجنب كل التضحيات التى هى مؤلمة حقاً ، فى حين أنه من الواضح للذين يفكرون أن لا بد لها من الاقدام على ذلك ، إما قريبا أو بعيدا .

والحقيقة أن الهبوط فى مستوى المعيشة فى انجلترا أمر لا يمكن تجنبه . والأزمة التى كانت فى فبراير هى بدء لمحنة كبيره . فانه عند ما تضطر أمة بأكملها إلى أن تنقص من معيشتها ، فلا يمكن تجنب هزات اقتصادية واجتماعية وسياسية . والطريقة الوحيدة لتقليل هذه الهزات إلى الحد الأدنى هى اتخاذ إجراءات داخلية أساسية من الآن.

أما أمام الخارج فيجب على انجلترا أن تراجع مركزها ، وأن تتعود موقف المدين . ونبتدئ بأن تترك مركز التبعية الاقتصادية نحو الولايات المتحدة (وهذا هو الشرط الأساسى كى تستأنف سياسة مستقلة خارجية وهو ما يحتاج إليه العالم جداً) . ولقد ظلت الولايات المتحدة مدة طويلة تسلك مسلك الدائن العنيد ، الذى يحرم مدينه كل الوسائل التى يستطيع بها الدفع ، ثم يشكو من أنه لا يدفع ؛ فقد حان الوقت لأن تسمع

أمريكا صوت الحكمة ، وتذكر الدرس الذى ألقاه الدكتور شاخت حين قال إن المدين الذى يقترض مبالغ كبيرة جداً يقبض على زمام دائنه . وذلك رأى واقعى وليس مجرد حكمة . فاذا كان مما لا يتفق مع الأخلاق أن المدين يستعمل هذا الدرس للنصب على دائنيه ، كما فعلت ألمانيا ، فانه من المشروع أن يستفيد المدين منه ليعود إلى رخاء أكبر فيجد الوسائل للوفاء بديونه .

وفى الشهور القادمة سيكون على دائنى انجلترا ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة ، أن يختاروا بين سياستين : إما أن يضيقوا الخناق على مدينهم فتقف الدفعات الخارجية ، وإما أن يمنحو مهلة لكى يستطيع أن يسترد رخاءه . وفى العالم الذى نعيش فيه ليس من المؤكد — ويا للأسف — أن تتغلب الحكمة على الشره .

من وراء البحار

ألمانيا وموقفها السياسى فى الوقت الحاضر

يعقد الحلفاء المنتصرون المؤتمرات للنظر فى مستقبل ألمانيا . ولقد كان آخر هذه المؤتمرات مؤتمر موسكو الذى انتهى إلى الإخفاق ، ومن الطبيعى — على قول مجلة « العالم اليوم » ، عدد يونيه — ألا يكون صوت ألمانيا نفسها مسموعاً فى هذا الأمر ؛ فان الأحقاد التى تولدها الحرب من شأنها ألا تؤدى إلى المهادنة . وليس من العجب إذن أن يتخذ المنتصرون دور الحاكمين بأمرهم فى هذه المفاوضات . ولكن وضع شروط الصلح مع ألمانيا و إمضاء هذه الشروط هو الخطوة الأولى فى ضمان السلامة لأوربا . ولكى تنفذ هذه الشروط يجب أن يكون تعاون الألمان خالصاً . والسياسى الألمانى الذى يتكلم اليوم إنما ينطق بلسان ألمانيا فى الغد . فما هو موقفه ونظرته نحو المسائل التى تهم بلاده الآن وفى المستقبل ؟

لكى نجد الجواب على هذا السؤال يجب أن نصف تيارات الفكر السياسى فى ألمانيا . ولعلنا نجد فى هذه التيارات شيئاً من الفوضى . لقد قضى اتفاق بوتسدام بأن « يسمح لجميع الأحزاب السياسية الديمقراطية بحقوق الاجتماع والمناقشة العامة وأن تشجع هذه الأحزاب » . ولكن هذا النص يفسره كل من الحلفاء الغربيين والروس تفسيراً مختلفاً . ففى الغرب اعترف الحلفاء بأحزاب كثيرة ، حتى لقد تمثل كل اتجاه فى الرأى العام فى هذه الأحزاب التى اتخذت اسما سياسيا خاصا ، فى حين أنه لم يسمح فى المنطقة الروسية لغير أربعة أحزاب بالعمل فى مبدأ الأمر ، ثم خفض هذا العدد إلى ثلاثة . فالصورة السياسية لألمانيا اليوم يظهر فيها خط صناعى يسير من الشمال إلى الجنوب ، فى جانب منه يسمح للرأى العام بالتنوع وبإسماع صوته ، وفى الجانب الآخر يسير الرأى العام على وتيرة واحدة . فهذا التقسيم بين الشرق والغرب فى ألمانيا ، وهو تقسيم ظاهر فى المناقشات الدولية بأسرها ، قد صار جزءاً ثابتاً فى الحياة السياسية الألمانية.

يوجد فى ألمانيا اليوم أربعة أحزاب هامة : الشيوعيون ، والاشتراكيون

الديمقراطيون، والمسيحيون الديمقراطيون، والأحرار الديمقراطيون . وشجع الروس فى منطقتهم الحزب الشيوعى بكافة الوسائل ، ولقد قضى زعيما هذا الحزب وهما فالتر ولبرخت وفيلهلم بيك سنوات طويلة فى المنفى بروسيا السوفييتية ، وعادا فى سنة ١٩٤٥ وهما مشبعان بالمركسية الأصيلة . وشخصية الأول منهما يكتنفها شئ من الغموض ؛ فهو يتحدث قليلا جدا فى المجتمعات العامة؛ ولكن يقال إنه الرأس المدبر الذى يعتمد عليه الروس فى السير بسياسة الحزب . أما بيك فهو كهل يزيد عليه سنا بعشرين سنة . وهو زميل قديم للبنخت وروزا لكسمبرج الزعيمين الشيوعيين المشهورين بألمانيا . وكان عضواً شيوعيا معهما فى الرايشستاغ قبل حكم النازى . وهو خطيب الحزب الشيوعى الآن والذى يتكلم باسمه .

و برنامج هذا الحزب يقوم على ثلاث مسائل هامة : اتحاد ألمانيا بدستور مركزى ، ووضع نظام اقتصادى لها أساسه تأميم الصناعات والمرافق العامة، ثم الصداقة مع روسيا .

وليس للحزب الشيوعى كثرة حتى فى المنطقة الروسية . ولذلك ابتدأت فى سنة ١٩٤٥ دعاية واسعة لضم الاشتراكيين الديمقراطيين إليه، والجناح اليسارى من هذا الحزب الأخير لا يمانع فى ذلك . واستعملت فى ذلك كل وسائل الدعاية التى كان يستعملها النازى فى الماضى . وأخيراً ، فى أبريل سنة ١٩٤٦، أعلن رسمياً انضمام الحزب الاشتراكى الديمقراطى إليه ، وتكوين وحدة من الحزبين سميت حزب الاتحاد الاشتراكى ، بزعامة كل من بيك الزعيم الشيوعى وأوتو جروتفول زعيم الاشتراكيين الديمقراطيين . وبذلك لم يعد للحزب الأخير وجود مستقل فى المنطقة الروسية . وحاول الشيوعيون مثل هذه المحاولة فى غرب ألمانيا ولكن مجهوداتهم لم تكلل بالنجاح . وآخر ما قاموا به من جهود هو ضم الشيوعيين الغربيين إلى حزب الاتحاد الاشتراكى بالمنطقة الروسية ، وليس فى هذا الأمر غير تغيير فى الاسم ، ولكنه يدل على المداورات التى يقوم بها الشيوعيون للتسلل إلى المنطقة الغربية .

أما الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى غرب ألمانيا فهو يقوم بدور هام تحت زعامة كورت شوماخر ، ومركز رياسته فى المنطقة البريطانية . وزعيمه كان عضواً فى الرايشستاغ ، وقد عمل فى أيام حكومة فيمار لإيقاظ حركة العمال ، ووضع فى معسكر اعتقال أيام النازى مدة عشر سنوات ، وخرج ظافرا

ومحترماً ؛ ولكن المحنة التى مرت به جعلت حياته مريرة . ولعل ذلك هو السبب فيما يتهم به من تعصب . وبرنامج حزبه يقوم على ثلاث مسائل أساسية : اتحاد ألمانيا فى ظل حكومة مركزية مع إعطاء سلطة إدارية للولايات ، وتأميم الصناعات الأساسية، وضمان الحرية الفردية والسياسية ، وأهم مسألة يعنى بها الحزب هى المسألة الثالثة ، وهى التى تفرق بينه وبين الشيوعيين .

وقد اتهم الخصوم السياسيون شوماخر بأنه أداة للحكومة البريطانية؛ ولكن هذا غير حقيقى . وإذا كان حزب العمال البريطانى يعطف على الاشتراكيين الديمقراطيين فانه لا يعمل للتأثير فيهم .

أما الاتحاد المسيحى الديمقراطى فهو حزب جديد تألف فى سنة ١٩٤٥ ، وليس له جذور سابقة فى التاريخ الألمانى ، وبرنامجه ليس ثابتاً فهو يختلف باختلاف المناطق . ويمكن أن يقال بوجه عام إنه يدعو إلى النظر نظرة مسيحية نحو السياسة ، وتشجيع المجهود الفردى ، وإنشاء دستور قائم على مبادئ ائتلافية . ويتزعم جناحه اليسارى يعقوب كايزر ببرلين ويعده الشيوعيون خصما شريفاً ، وكان فيما سبق من أعضاء نقابات العمال . وحاول فى سنة ١٩٣٣ أن يدافع عن استقلال نقابات العمال أمام النازى ولكنهم هزموه . على أنه لم يهاجر بل ظل يعمل للاتصال بالعناصر المقاومة للنازية . واشترك فى سنة ١٩٤٤ فى المؤامرة على هتلر . ولم يصبه ما أصاب المؤتمرين إذ اختفى تسعة أشهر فى أحد الأقباء . على أن آراء كايزر الاشتراكية تختلف اختلافاً كلياً عن الآراء الرجعية التى يعتنقها أدناور زعيم الجناح الأيمن للحزب فى المنطقة الغربية . وهو رجل قد جاوز السبعين من عمره ، وورث كل تقاليد البرجوازية الألمانية العتيقة ؛ فهو يعبد فكرة الجهود الفردية ويكره الفكرة الاشتراكية ، ويكره أكثر منها روسيا السوفييتية . والقسم البافارى من هذا الحزب منقسم أيضاً إلى شطرين .

وهذا الاختلاف فى آراء أعضاء هذا الحزب يدل على أساس قوته وضعفه . فهو قوى من جهة العدد لأنه يجمع كل الساخطين ، ويقال إن بينهم جماعة من النازى السابقين ، أى إنه يجمع كل الذين يريدون أن يكون لهم صوت مسموع فى السياسة من غير التقيد ببرنامج . وضعيف لأنه لا يستطيع أن يعتمد على استمرار أعضاء الحزب فيه .

وأما حزب الأحرار الديمقراطي فليس قويا وتتوقف أهميته على شخصية زعيمه فيلهلم كولز ، وهو رجل جاوز السبعين وشغل عدة مناصب فى ألمانيا قبل النازية ، فكان وزيراً للداخلية بحكومة فيمار ، وكان فى سنة ١٩٢٧ رئيساً لجمعية الأمم . ولعل تجاربه السياسية والدبلوماسية هى التى تجعله نافذ البصيرة فى الأخطار التى تهدد بلاده . فبينما نرى السياسيين الألمان فى غرب ألمانيا يحملون على قلة الحرية فى المنطقة الروسية ، (وهم لا يجرءون على مهاجمة روسيا نفسها) وبينما الشيوعيون يحملون على دسائس الرأسماليين الغربيين ، فان كولز يقف هادئاً يقدر هذا النضال بين الشرق والغرب وتأثيره فى بلاده ؛ ويتخذ موقفه على أنه جسر بين فكرتين ، فهو يريد أن يتخذ طريقاً وسطاً ؛ فاذا كانت ألمانيا لا تستطيع التخلص من النفوذ الأجنبي فهى ستنقسم حتما إلى قسمين . وهو يؤيد بشدة الصداقة مع روسيا ، ولكنه يريد ألا يفقد صداقة بقية العالم . وحزبه يرث تقاليد الحزب الديمقراطي القديم ويؤيد المجهود الفردى مع الاحتفاظ بألمانيا دولة متحدة ولكن غير مركزية .

وعند ما افتتح مؤتمر وزراء الخارجية فى موسكو فى ١٠ مارس ، كانت ألمانيا تنتظر قرارات تمس وجودها ؛ فهل تعمل كأمة واحدة أو كدولتين ؟ ولقد تقدم المسيحيون الديمقراطيون فى برلين ودعوا الأحزاب الأربعة الأخرى إلى اجتماع يرسلون فيه ممثلين الأحزاب للبحث فى أغراضهم السياسية والاقتصادية ، ووضع برنامج مشترك يقدم لوزراء الخارجية ، فقبل حزب الاتحاد الاشتراكى وحزب الاشتراكيين الديمقراطيين . ولكن شوماخر اهتبل هذه الفرصة للحملة على الحزب الأول ؛ وانتهت محاولة جمع ألمانيا فى صوت وطنى واحد بالاخفاق . ومع ذلك فقد تتبع الألمان أنباء مؤتمر موسكو بلهفة كأنهم سجين ينتظر حكم القضاة عليه .

والمسألة الكبرى التى يعلق عليها الألمان أهمية هى : ما الذى يتألف منه الصلح العادل ؟ وما هو الدين الذى يشعر الألمان بوجوب وفائه للعالم ؟ وهل هم شاعرون بخطئهم فى إثارة الحرب أم سيسلكون المسلك الذى سلكوه بعد فرساى ؟

أما مسألة الاعتراف بخطئهم فى إثارة الحرب ومسئوليتهم عنها ، فتختلف فى غرب ألمانيا عنها فى شرقها . فالشيوعيون الألمان يتخذون وجهة النظر الروسية أساساً لهم ، ويقدرونها

بالضرر الذى سببته ألمانيا للاتحــاد السوفييتى . فهم لا ينكرون مسئولية ألمانيا عن الحرب ، ولـكنهم يرون أن الضرر فى تلك الحرب أصاب روسيا ، وأن نصيب الحلفاء الغربيين فى تلك الحرب كان ضئيلا .

أما فى المنطقة الغربية حيث تشجع حرية الرأى فان الكثير من السياسيين يحاولون أن يشركوا فى التبعة البلاد الأخرى . فهم يقولون إن العالم رأى أخطار النازية بادية للعيان ولـكنه لم يعمل على وقفها ؛ بل كانت الدول الـكبرى تتملقها . ومعنى ذلك أنهم يتهربون من تبعة الحرب . وإذا كانوا يشعرون بأنه من الواجب أن يدفعوا ثمناً لسياسة ألمانيا النازية،فانهم يحاولون أن يكون الثمن بسيطاً . ولعل هــذا الاختلاف فى الرأى بين الألمان فى المنطقتين هو نموذج للاتجاه المختلف فى كل مسألة تمس مستقبل ألمانيا . وقد نسوق مثالا آخر من مقال كتبه أخيراً تيودور شتمزر من المســيحيين الديمقراطيين ؛ وكان حتى الانتخابات الأخيرة رئيساً لوزارة مقاطعة شلزفيك هولشتين . فقد أبدى أسفاً على أن ألمانيا لم يعد لها كيان أمام القانون الدولى ، وأنها معرضة لـكل أنواع الاستغلال التى تعد غير مشروعة فى الأحوال العادية . وهو يتكهن بأن الشعب الألمانى سيخضع إزاء هــذه الحالة لسياسة هتلر القائلة إن القــوة هى الحق . ولذلك يلح على وزراء الخارجية المجتمعين فى موسكو بأن يقيموا تسويتهم على أساس ميثاق الأطلنطى ، وألا يميزوا بين الغـالب والمغلوب .

أما الشيوعيـون فهم يتـأثرون موسكو ويرددون أقوالها . ولقــد وجدت الحملة التى أثارها الروس على الدول الغربية فى مبدأ المؤتمر صدى أميناً فى الصحافة الشيوعية الألمانية . ولا تزال الحملة مستمرة على المعارضين لفكرة اتحاد ألمانيا .

ولعل مسألتى التعويضات والحدود هما أهم مسألتين تمسان الرأى العام الألمانى مباشرة . ولقد وجدت النازية أذناً صاغية بسبب معالجة هاتين المسألتين فى معاهدة فرساى ، ومبدأ دفع التعويضات مقبول بوجه عام فى ألمانيا ؛ ولكن الألمان ليسوا على استعداد لإمضاء تعهد دون أن يتبينوا حقيقته . ولقــد ترددت أصوات الاحتجاج فى المنطقة الغربية على سياسة نزع الآلات من غير أن يعرف الألمان متى تقف هذه السياسة . وهذه المسألة تخلق الآن جوا من اليأس بين السكان الذين

عرفوا آلام الحياة . أما فى المنطقة الشرقية فقلما ترتفع أصوات الاحتجاج على هذه السياسة ولا على سياسة نقل الصناعات إلى ملكية الروس . و يرى الشيوعيون أنه يجب ألا تخشى ألمانيا التعويضات كما يقدرها الروس إذا تقدم الاقتصاد الالمانى تقدماً صحيحاً . والخطر الحقيقى على هذا الاقتصاد ناشئ عن تدخل الدول الغربية واستغلالها على أيدى الرأسماليين والمحتكرين .

على أن الأحزاب جميعاً تتفق على ضرورة بقاء أراضى الرور والراين والسار ألمانية ، وإعادة النظر فى الحدود الشرقية المؤقتة الآن . وقد كانت الحدود البولونية نقطة من نقط الخلاف القليلة بين الشيوعيين الألمان والاتحاد السوفييتى . غير أن الأحزاب فى المنطقة الغربية ومنهم الشيوعيون يطالبون بتعديل الحدود الشرقية بشدة ، على حين يستعمل الشيوعيون فى المنطقة الروسية منتهى الرقة فى هذه المطالبة .

وفى إقليم السار يوجد لهذه المسألة وجه آخر ؛ فان فيه حركة قوية تؤيد الانفصال الاقتصادى عن ألمانيا . وهذه الحركة التى يناهضها الشيوعيون داخل السار ، وتناهضها جميع الأحزاب خارجه ، قائمة فى الحقيقة على أغراض نفعية صرفة . فان الاتحاد الاقتصادى مع فرنسا معناه الطعام والعمل والرخاء نسبياً ، ولكن ليس هنالك مايدل على الرغبة فى الانفصال السياسى . ومن الراجح أنه إذا تحسنت الأحوال الاقتصادية فى ألمانيا فسيندم أهل السار على هذه الحركة الانتهازية .

فالمستقبل مظلم ، ولايحتمل أن تجد معاهدة الصلح موافقة من الألمان ، وما يتبع هذه الموافقة من تعاون ، إلا إذا كانت المعاهدة غير شديدة الوطأة على غير المنتظر . ولو تحقق هذا ، والراجح أنه لايتحقق ، فمن الصعب التكهن بأن أمة منقسمة داخلياً كألمانيا فى الوقت الحاضر ، وخاضعة لنفوذ الأجانب ، تستطيع أن تعمل شيئاً ، غير أن تكون عنصر اضطراب فى سبيل التقدم السلمى لأوربا .

ظهر حديثا

عقلى وعقلك للأستاذ سلامه موسى (دار الكاتب المصرى)

لسنا فى حاجة لأن نقدم الاستاذ سلامه موسى لقراء هذه المجلة . بل لسنا فى حاجة لأن نقدمه لقراء اللغة العربية ؛ فهو رجل قد خدم هذه اللغة بفكره ما يقرب من أربعين سنة ، كتب أثناءها وألف وترجم وحرر ؛ فهو لم يعمل منذ صباه الأول إلا فى عالم الكتابة صحفيا أو مؤلفاً . ولقد كانت كتبه تقابل دائماً بلهفة من جمهور متعطش ، أكثره من الشباب ؛ فأخرج العشرات من الكتب التى تدور حول موضوعات عرف دائماً أن سلامه موسى يفكر فيها ، ويديم الاطلاع على تطوراتها . فسلامه موسى إذن كاتب له طابعه الخاص وتفكيره الخاص ومجاله الخاص .

أما هذا التفكير فيمكن الوقوف على سره من مقالاته العديدة التى نشرها عن حياته ، وظهرت فى مجلة «الكاتب المصرى» . فقد عنى فى هذه الأيام بأن يدون مذكراته عن ماضيه ودراساته واتجاهاته . ومنها نعرف ذلك الخليط من المعرفة الذى انغمس فيه سلامه موسى فى بدء حياته ، وكيف أنه أقبل على هذه المعرفة فى نهم . وليس لهذه المعرفة من ضابط؛فهى خليط كما قلنا ، غير أنها تتميز بصفة واحدة هى أنها كانت جديدة — كلها أو أكثرها بحوث جديدة فى وقته ، أو هى على الأقل جديدة على وطنه ، بحيث إنه عندما كان فى هذا الوطن قبل رحيله إلى أوربا لم يكن يعرف عنها شيئاً . ولا شك فى أن الاتصال الفكرى فى ذلك الزمن لم يكن بالسرعة القائمة الآن . فنحن الآن لا نتأخر فى العلم بالتيارات المختلفة والاتجاهات التى تقوم فى أوربا وأمريكا إلا ببضعة شهور ، هى الزمن الذى يستغرقه خروج الكتب من المطابع فى أوربا ، ونقلها إلى الأسواق ، ثم إرسالها إلى السوق الشرق ، ثم عرضها فى هذه السوق . أما فى الزمن الذى تفتحت فيه عينا الصبى سلامه موسى فلم يكن هذا الاتصال وثيقاً كما هو الآن . فاذا وصل

الشاب سلامه موسى إلى أرض أوربا اتجه بكليته إلى ما هو جديد أو على الأقل جديد لديه .

ولا شك فى أن عقلية الأستاذ سلامه موسى كانت على استعداد لذلك؛ فهو إلى الآن وقد سلخ الستين لايزال يجنح إلى الموضوعات الجديدة . وقد أقول فى صراحة إن الأستاذ سلامه موسى لا يهمه أن يكون التفكير ناضجاً ، أو أن يكون العلم الذى يعنى به ثابتاً موطداً ، بقدر ما يهمه أن يكون جديداً . فهو رجل يجرى وراء الجديد و يخلبه هذا الجديد ما له من نظر بعيد. وهذه ميزة له أو خاصة من خواصه ، وهذا سر إقبال الشباب عليه . فالأستاذ سلامه موسى إذن رجل لم يعرف الكهولة ، ولا يمكن أن يعرفها ، فهو فى شباب متجدد بأفكاره ، و إن كان حكم السن أحياناً يؤثر فى هذا الشباب المزيف ، فيحمل فى طياته مسحة عصبية ، قد تبدو لغير المدقق نوعاً من نشاط الشباب فى كتاباته .

ولقد كان طبيعيا ، إذ شرحنا ما فى طبيعة الأستاذ سلامه موسى من حب وولع بالجديد ، أن يتجه فى كتاباته كثيراً إلى العلم ويتكىء عليه . فالعلم قد نهض فى القرن العشرين نهضة كبيرة وتطور تطوراً عظيما ، وهو فى كل يوم فى تغير وتجدد . ولذلك نرى الأستاذ سلامه موسى يحتضن النظريات العلمية الجديدة التى تجذبه إليها طبيعته ، ويتكلم عنها فى كتبه فى عبارته السلسة ، وبيانه الواضح الذى لا تعقيد فيه ؛ فيقرب نظريات العلم إلى جمهور ناشئ متعطش للمعرفة . وهو يتكلم عن هذه النظريات فى حب ودهشة ، أقرب شئ إلى دهشة الطفل البرئ ، مما له أثر خلاب فى عقول هؤلاء الشباب الناشئين . وهذا هو ما أسداه وما ظل يسديه الأستاذ سلامه موسى إلى قارئ اللغة العربية .

وكتاب «عقلى وعقلك» الذى نشرته دار الكاتب المصرى اليوم هو كتاب غير موفق فى عنوانه ؛ فهذا العنوان لا يدل بحال على الكتاب وما فيه من مباحث بل يضعه فى مكان دون مرتبته.

فالكتاب فى حقيقته مجموعة خلاصات للبحوث الجديدة التى تمت بصلة لعلم النفس ، ومباحثه المختلفة ، منها ماثبتت صحته علميا ، ومنها ما لا يزال فى طور البحث يتجادل فيه العلماء ؛ والأستاذ سلامه موسى يقدم لنا خلاصة لكل ذلك . وأعتقد أنه أخطأ إذ قال فى مقدمته بأن الكتاب توسعة للبحوث التى تعرض لها فى كتابه « العقل الباطن » ؛ لأن كتاب

العقل الباطن هو فى رأيى مقال واحد طال بعض الشئ فصار كتاباً .

أما الكتاب الذى وضعه اليوم فهو متعدد الفصول والنواحي ، وفيه خلاصة ، لا أقول إنها وافية ولا أقول إنها مشبعة ، ولكنها تحرك شهية القارئ إلى البحث والاطلاع إذا أراد، وتضع تحت يده خلاصة لنظرة عاجلة كى يفسر جملة أو عبارة تعنّ له فى قراءاته إن أراد .

ولكى نقيم الدليل على هذا القول ننقل عناوين بعض فصول الكتاب : العقل والمخ — الغرائز والعواطف — الغريزة الأصلية — الجسم يؤثر فى العقل — العقل يؤثر فى الجسم — طبيعة التفكير — الذكاء والعبقرية — المزاج النفسى — اللغة والتفكير — الأحلام ومغزاها — الكابوس وأسبابه — الايحاء والتنويم النفسى — مركب النقص — الضمير — المجتمع البشرى — العاطفة والوجدان — الانعكاسات المعدولة — الحياة الجنسية — النفس السليمة — التحليل النفسى — الزيغ الجنسى — النظر السيكولوجى للإجرام — الشخصية السيكوباثية — النيوريوز — السيكوز، وعشرات غيرها من موضوعات .

ولقد كنا نود أن نثنى على دار الكاتب المصرى للصورة التى أخرج فيها الكتاب كما أثنينا فى مواقف عدة ، ولا ريب فى أن الطبع بلغ الاتقان الذى عرف عن هذه الدار ، ولكننا نعتقد أن القطع الذى اختارته الدار لهذا الكتاب — وهو القطع الكبير — غير موفق .

كولومبا لبروسپير ميريميه تعريب الدكتور محمد غلاب (دار الكاتب المصرى)

نهضت مدرسة الأدب التى عرفت بالمدرسة الرومانطيقية فى القرن التاسع عشر ، وكانت هذه الحركة الجديدة تعارض ما عرف بالنزعة الكلاسيكية . فلقد ظل الأدباء والشعراء الفرنسيون ردحاً من الزمن يتبعون فى تآليفهم أسلوب كتب القدماء من أدباء اليونان والرومان ، ويأخذون أنفسهم بما وضعه قدماء الناقدين من قواعد قالوا بوجوب اتباعها لكى يكون العمل الأدبى ذا قيمة . فهذه القواعد التى تجد خلاصة لها فى كتب أرسطو لا سيما كتابه البويطيقا ، والتى أجملها هوراس الشاعر اللاتينى فى كتابه عن فن الشعر ، والتى اقتبسها بوالو الفرنسى فى نصائحه عن قرض

الشعر ، هى التى ظلت سائدة بين الكتاب والشعراء الفرنسيين وحاكمة عليهم إلى أوائل القرن التاسع عشر، وهى التى أدبت بأديب كبير مثل فولتير أن يصف شاكسبير الشاعر الانجليزى العظيم بأنه متوحش ؛ لأن مسرحياته لا تتبع القواعد التى وضعها اليونان للشعر المسرحى أو التى ظن أن اليونان وضعوها .

وفى أوائل ذلك القرن بدا اتجاه معاكس ؛ فقد مل الناس تلك القيود التى تحرمهم الاستمتاع ، ومل الكتاب تلك القيود التى تغل من أيديهم ، فقامت حركة ثورية جديدة هى الحركة التى عرفت بالرومانطيقية . ولسنا نريد تفصيل هذه الحركة ، و إنما نقول إجمالا إن هذه الحركة تؤيد ذكر كل شئ فى الكتابة ، و ألا يتقيد الكاتب بقيود لا معنى لها كوحدة الزمن والموضوع وغير ذلك مما وضعته قواعد الأدب القديم . وأقبل الناس وزاد اهتمامهم بهذا اللون الجديد من الأدب ، ووجد الكتاب والشعراء آفاقاً واسعة جديدة فارتادوها فى نهم .

ولا ريب فى أن الأدب الفرنسى الرومانطيقى تأثر تأثراً كبيراً بمؤلفات الأمم الأخرى ، وكان لشاكسبير بنوع خاص تأثير فى تلك الحركة ، ولم يعد الفرنسيون ينظرون إليه نظرة فولتير .

ويعتبر بروسبير مير يميه بين جماعة هذا المذهب .

ولكن مما يلاحظ على مير يميه فى قصتيه « كولومبا »و« كارمن » أنه لم يحاول أن يغرق فى غرابة الموضوع كما فعل بعض الأدباء من أنصار مذهبه ، بل إنه فى القصتين مصور واقعى بارع ولكنه اختار حياة قوية دفاقة فى موضوع روايتيه .

ولسنا نتعرض لرواية «كارمن» الآن فان موضوعها معروف ومشهور، ولكن حرارة هذا الموضوع هو اختياره لواقعة أقامها فى أسبانيا تلك البلاد البهيجة بين بلاد أوربا التى تشرق عليها شمس تكاد تكون كشمس الشرق حامية وفيها حرارة ؛ ولذلك كان أهلها مندفعين فى عواطفهم شديدين فى ميولهم .

وفى « كولومبا » أيضاً اختار تلك الجزيرة الواقعة إلى جنوب فرنسا حيث يعيش أهلها عيشة فيها كثير من البدائية ؛ فهم قوم يحبون الحياة ويحبون الشمس الدافقة ويحبون الانتقام . وكولومبا هى الفتاة التى تقمصت فيها روح أهلها والتى تعرف معنى الثأر الذى يتوارثه الأبناء عن الآباء وضرورة خضوع الأبناء للحياة ومقتضياتها . فكما أنهم غنموا بأن خرجوا

إلى نور هذه الحياة من آبائهم ، فعليهم غرم بل واجب القيام بثارات أولئك الآباء .

فهى قصة شيقة سريعة فى القراءة تتدفق منها الحياة تدفقاً ، وقد وجدت ناقلا أميناً فى الأستاذ محمد غلاب ، كما وجدت ناشراً يخرج هذه القصة الشيقة فى صورة جميلة .

حرية الرأى للدكتور رياض شمس (مطبعة دار الكتب المصرية)

الدكتور رياض شمس معروف فى الأوساط الأدبية على أنه صحفى ممتاز ، وهو أستاذ الصحافة فى الجامعة الأمريكية ، وهو معروف أيضاً بشدة تمسكه بالمذهب السياسى الذى يعتقده حتى لقيد عرف السجون فى سبيل رأيه ، ولكن الخاصة تعرفه على أنه باحث قانونى ؛ فهو فى كتابه عن الحريه الشخصية أظهر مقدرة فائقة فى معالجة هذا الموضوع من الوجهة القانونية . وكان هذا الموضوع الذى هو رسالته التى نال بها الدكتوراه من أحسن ما أخرجه البحث القانونى فى النهضة القانونية الحديثة .

وهو اليومُ يتابع بحثه بكتابه الجديد «حرية الرأى » وهو بحث دقيق وطويل يقع فى جزأين ويشغل نحو ٧٢٠ صفحة . وقد عالج المؤلف حرية الرأى من جميع وجوهها ولكنه التزم البحث القانونى والطريقة القانونية فى عرض الأمور ، فلم يعدل إلى الانشاء أو البحث الاجتماعى كما ينتظر ممن مارس مهنة الصحافه طويلا . وهو فى طريقته يدل على أن الصلة لم تنقطع بينه وبين البحث القانونى . والواقع أن هذه الصلة لم تنقطع ؛ فان اشتغال الدكتور رياض شمس بالصحافة كان اشتغالا متقطعاً وكان كثيراً ما يحال بينه وبين العمل بسبب تعصبه لمذهبه كما أسلفنا . وأما صلته بالقانون فلم تنقطع قط ؛ فقد كان دائماً يعمل محاميا نابها ، ومع ذلك فكثيراً ما تحول كثرة مشاغل المحامى عن البحث . أما الدكتور رياض شمس فانه نهم فى الاطلاع والبحث . وإن مجرد إلقاء نظرة عابرة على هذا البحث الجليل الغزير لتدل على ما بذله من جهد وعناء فى إخراج هذا الكتاب الذى هو الأول فى بابه فيما نعتقد من حيث اقتصاره على موضوعه وبحث هذا الموضوع فى دقائقه وتفاصيله ، مقارناً بين التشريع المصرى وشرائع الأمم

الأخرى، وفاحصاً في كل نقطة اتجاه القضاء واتجاه الشراح . ولذلك نعتقد أن هذا الكتاب سيظل لمدة طويلة المرجع الأساسي في موضوعه .

ولقد كتب المؤلف بعد المقدمة الطريفة التي كتبها معالي الدكتور محمد كامل مرسي باشا مقدمة تمهيدية في حرية إعلان الرأي ، فبحث في الأساس الدستوري لهذه الحرية والضمانات الدستورية لها ، ثم انتقل إلى القيود الدستورية لحرية إعلان الرأي .

ثم عالج القيود القانونية لحرية إعلان الرأي، فتكلم عن المبادئ العامة وجريمة الرأي وعقوبات الجرائم التي تقع بوساطة الصحف ، ثم عرج على القيود القانونية لحرية إعلان الرأي فتكلم عنها في ظل القوانين الوضعية والجرائم الناشئة عنها سواء وقعت من الأفراد أو من الصحف .

وفي الجزء الثاني من مؤلفه تكلم عن التنظيم الاجرائي لحرية إعلان الرأي بوساطة المطبوعات قبل نفاذ الدستور وبعد نفاذه، ثم تكلم على قانون المطبوعات المعمول به وعلى تنظيم شؤون الصحفيين .

وختم هذا الكتاب بفهرس لأهم الألفاظ وفهرس آخر بالمراجع . ذلك عدا ما أشار إليه في ثنايا مؤلفه من مختلف الكتب والبحوث والأحكام بحيث يعد الكتاب موسوعة شاملة لدقائق هذا الموضوع الجليل في المؤلفات القانونية العربية .

ولا بد لنا أن نثني على المؤلف ثناء جميلا ؛ لأنه مع عمله طويلا في الصحافة ، والكثير من تفصيلات هذا البحث مما يهم الصحافة بوجه عام ، فإن قلمه لم يندفع مرة اندفاع الصحفي ، بل ظل محافظاً على سمة العلماء في البحث ، وكان إذا أبدى رأياً في موضوع من الموضوعات لم يجد له سنداً من حكم أو فقه أبداه في اعتدال كان في الواقع لا ينتظر منه ، أو قل إنه ينتظر منه بعد مؤلفه الجليل في الحرية الشخصية .

وإن كان لنا أن نبدي بعض الملاحظات فإن هذه تنصب على الطبع . فلسنا نعلم ما السبب في أن طبع هذا الكتاب أقل من المعهود عادة في مطبعة دار الكتب المشهورة بدقتها وجودة طبعها بين المطابع المصرية . وقد لاحظنا قليلا من الأخطاء المطبعية كما لاحظنا خطأ قد يكون مطبعيا أيضاً في كثير من العبارات الافرنجية وهو ما يجب أن يعالج في الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذي ننتظر كما قلنا من قبل أنه سيظل لسنوات مرجعاً أساسيا في موضوعه ، وننتظر له لا طبعتين بل طبعات .

حسن محمود

فى مجلات الشرق

من الحجاز

المنهل عدد ٧ مجلد ٧

فى العدد السابع من المجلد السابع لمجلة «المنهل» التى تصدر فى مكة بحث طريف للأستاذ محمد محمد أبو شهبة حول تفسير القرآن الكريم . وقد بحث فى مدارس التفسير وتكلم باسهاب عن المدرسة المكية وعن أئمتها مبتدئاً بذكر عبد الله بن العباس رضى الله عنهما ، ثم ذكر تراجم قصيرة عن أعلام هذه المدرسة : مجاهد بن جبير وعطاء بن أبى رباح وعكرمة مولى بن عباس وغيرهم من الأئمة فى التفسير .

وقد ابتدأ الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الدهلوى بحثاً طريفاً يراد به التعريف بالكتب المؤلفة عن الحرمين والطائف وجدة . وابتدأ هذا البحث بذكر طائفة من الكتب المصنفة عن مكة المشرفة مرتبة على حروف الهجاء .

وكتب الأستاذ مصطفى اندرقيرى مقالا عن أندونيسيا وتاريخها وحالتها الاجتماعية والأدبية ، وهو مقال له تتمة فى أعداد قادمة .

وأوردت المجلة القسم الأول من محاضرة ألقاها الأستاذ السيد أحمد العربى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وفيه تتمة لدراسة أدبية عن الأصمعى كتبها الأستاذ عبد الرحمن عثمان . وفيه غير ذلك طائفة من البحوث والأنباء الأدبية الطريفة .

الامل عدد ١٧

فى العدد ١٧ من السنة الأولى من هذه المجلة بحث للأستاذ رفيق فاخورى عن كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى ، وهو بحث طريف وافٍ .

وفيه نشيد وضعه الأستاذ عطاالله

مغامس للجامعة العربية ، وقصيدة للأستاذ بدر الدين حامد ؛ وبحث للأستاذ عبد الله عبد الدايم « ابن عربي صوفي أم حكيم إشراق » وهو يميل إلى القول بأن ابن عربي حكيم إشراق أكثر منه متصوفاً فهو يرى أن « الشرط الأول من شروط حكمة الإشراق وهو اعتقاد الوصول إلى المعرفة النظرية الفلسفية عن طريق الالهام متوافر لدى ابن عربي » . ثم يؤيد رأيه « بوحدة المصادر التي سقى منها هو والتي سقت منها حكمة الاشراق . »

وفي العدد مقال عن النقد والمشروعات النقدية الدولية ، للأستاذ ضياء الدين مندو ، وفيه عدة بحوث أخرى طريفة .

من العراق

الغرى عدد ١٩

في مجلة « الغرى » التي تصدر بالنجف العدد ١٩ مقال افتتاحي عن العناية بالجيل وأنه من أهم الواجبات الوطنية . وتقول المجلة : « إن من أول واجبات الأمم التي تعني بمستقبلها ، والشعوب التي تهتم ببناء كيانها وتسعى جهدها لاشادة بدها ، وتبذل كل ما في استطاعتها لإعلاء شأنها ، هو أن تهتم بمستقبلها سالكة مختلف الطرق والوسائل ، وباذلة أقصى الجهود ، متخذة مختلف التدابير لوضع الخطط اللازمة للعناية بجيلها الناهض ، والاهتمام بنشئها المتصاعد ، وبتربيته وتوجيهه التوجيه المطلوب . فعلى سواعد الجيل ، تشاد دعائم الوطن وعلى جهوده يبنى كيان الأمم . » ولذلك هو يدعو إلى بذل كل ما يمكن من جهود لإنشاء جيل صالح للبلاد ولما تحتاج إليه من شتى المشروعات التي تتوقف عليها حياة البلاد .

وفي هذا العدد مقال بقلم الشيخ محمد علي اليعقوبي عن الحاج سالم الطريحي النجفي ، وهو يتكلم عن أسرته التي استوطنت النجف منذ أكثر من أربعة قرون واشتهر منهم غير واحد من الأعلام . وقد أتى في هذا المقال بشيء من شعر الطريحي ونوه بأدبه .

ونادت الآنسة سمية فرج رزوق في

مقال بضرورة إنشاء جامعة عراقية . وتابع السيد عبد الرزاق الحسني بحثه عن العراق في ظل المعاهدات ، وهو الفصل الثامن الذي نشره في هذه المجلة . وتكلم الأستاذ عبد الهادي المختار عن القتل السياسي في التاريخ الاسلامي ، وفي هذا المقال الذي هو الثالث والثلاثون تكلم عن عمر بن أبي الصلت الذي طوح بحياة ابنه وحياته وعرض فلذة كبده للمخاطر والأهوال حبا في الجاه وسعياً وراء السلطان ، فتدور الدائرة على ولده وعليه .

وفي العدد قصيدة للسيد مصطفى جمال الدين اسمها « الربيع الشاعر » . وفيه متابعة للبحث عن ذوي الأثر في التاريخ والأدب من الغلاة ممن نشأ في العصر الاموي وأول العصر العباسي ، وهو بحث عميق متتابع للاستاذ عبد الحميد الدجيلي . وفيه عدا ذلك بحوث طريفة واستقراءات تاريخية عديدة .

العدل الاسلامي عدد ١ و ٢

افتتحت مجلة « العدل الاسلامي » التي تصدر بالنجف عددها ١ و٢ وهو فاتحة السنة الثانية بمقال لرئيس تحريرها الأستاذ هادي العصامي تكلم فيه عن المبادئ التي تعمل لها المجلة . وهو يقول : « نحن نحاول قدر إمكاننا أن نخرج « العدل الاسلامي » إخراجاً صحيحاً جامعاً بين تطور الفكر الاسلامي ونظامه العالمي الذي خدم الانسانية من عامة نواحي الحياة ، وعرف الانسان مقامه الحقيقي من المجتمع وصرفه عما لا يجديه نفعاً ويحول دون ارتقائه في الحياة والذي يجري مع الزمن ويماشي كل عصر . »

ويلي هذا المقال الافتتاحي بمقال بقلم الدكتور السيد مصطفى جواد عن المشكلة الكبرى للأدب العصري ، فهو يقول : « يذهب الفريق الأكبر من كبار أدباء العصر إلى أن أدب الطبقات ، وخصوصاً الطبقة المترفة الارستقراطية ، قد دالت دولته وذهب زمانه لأنه أدب الحكمة الموروثة والسياسة المؤتمة . ومن الحق أن الأدب في اصطلاح القدماء تباعدت حدوده واتسعت أقطاره حتى دخل فيه الحساب والموسيقى والمساحة ، فكان مشتملا على أكثر المعارف الاسلامية ومعارف الولاية ، والتصرف والكتابة بمعناها الدولي ، وكان لفظ الأديب محتملا لكل ما يستوعبه الأدب المذكور » ولكن

الأدب العصرى أخذ حده من الأدب الغربى . ومن أهم أنواع الأدب الغربى أدب القصة ، فبأى لغة يجب على الأديب أن يكتب القصة ؟ هذا مايتعرض له الكاتب فى بحثه ويبحثه بحثاً طويلا ، ثم يخلص إلى القول بوجوب استئصال الأمية لازالتها « والتخلص من آدابها ، وهى جهل لغة العرب وقلة حضور مجالس الأدب ، وعدم الاحتواء على ثروة لغوية تعين طالب الأدب وقارئه على فهم تعابير وألفاظ لابد من استعمالها لإجراء القصص مجراه الطبيعى . فيجب علينا أن نعالج هذا الداء لكى نضمن سلامة الأدب ونماءه ولاسيما أدب القصة » .

وفى العدد كلام عن نتوى للامام كاشف الغطاء فى تحريم الأفيون. وكتب السيد محمد جعفر الحسينى مقالا عن نظرة خاطئة لفيلسوف ، وهذا الفيلسوف هو روسو — أوزان زاك روسو كما جاء فى المقال — وأما الخطأ الذى يأخذه عليه كاتب المقال فهو قوله إن العلوم والصنائع بانتشارها أثرت فى فساد الأخلاق ويقول : « إن هذا الفيلسوف يعترف بأن للروح غذاء مناسباً لتجرد وجوده ، فهل فى إمكانه إنكار كون العلم غذاءه الوحيد ؟ إن غريزة الاستطلاع محسوسة لا تقبل الجحود ، والعلم غنى عن التعريف والعقل يحكم بحسنه وقبح الجهل » .

وفى العدد قصيدة طويلة للاستاذ محمد جواد الدجيلى . وفيه بحث للأستاذ حسن الجواهرى موضوعه « من هو المثقف » وفيه كثير من البحوث المفيدة ، منها بحث طريف فى دولة البرامكة .

الجزيرة عدد ١٥

فى العدد ١٥ من مجلة «الجزيرة» التى تصدر فى الموصل مقال افتتاحى عن دولة الفكر بقلم الأستاذ ذى النون الشهاب ، وهو تكملة لمقال نشر سابقاً وفيه يحذر الأديب ثم يقول : « وكنا بنجوة عن هذا الحذر لو أخلص كل أديب لفنه وآثر جودته على كل شئ واستطاع أن يثبت للدنيا والناس مقدار تلك الشعلة الالهية المذكاة فى روحه لا يعوقه عائق الأرعن ولا ينكسه عن خطته مثبط مأفون ، بل يتخذ شرعة طريقته فى فنه غاية الغايات دون تعد على حقوق غيره فى مملكته الفكرية ؛ لأن لكل حداً مرسوماً ومنهاجاً معلوماً

تكون من ارتباطها وشد بعضها أزر البعض للأمة صراطاً إلى الوحدة مستقيما . »

وفى هذا العدد بحث عن الشاعر المعروف الأستاذ أحمد الصافى النجفى بقلم الأستاذ فيصل مجيد ديدوب، وفيه موالاة لعدة بحوث ابتدئت فى أعداد سابقة ، منها بحث للأستاذ صديق الدملوجى عن الشيخ عدى بن مسافر الأموى ، وبحث للأستاذ اسماعيل فرج عن الحافظ الحاج عثمان المولوي الموصلى ، وآخر للأستاذ صالح جواد الطعمة عن الطب فى العصر الأموى والعباسى، وفيه طائفة من الشعر للأستاذ يوسف أمين قصير والأستاذ حازم السعيد والأستاذ خليل ابراهيم العبد الله والأستاذ عبد الغنى الملاح ، وذلك عدا طائفة من البحوث المفيدة والمقالات الأدبية .

من لبنان

الأديب عدد ٧

العدد السابع من السنة السادسة من هذه المجلة حافل كأكثر أعدادها بالموضوعات الطريفة التى قام بكتابتها نخبة من البارزين فى الأدب الذين صار لهم أسم معروف فى العالم العربى . ففى أول العدد مقال للآنسة سمية حموى بعنوان «أيهما الأمثل» . وهى تقول : « تياران يدفعان هذا المخلوق الناطق الانسان ، واحد يقذفه فى مجتمعه ليذوب فيه ذوبان الساقية فى البحر وواحد يقذف مجتمعه فى نفسه ليذيبه كما تذيب الشجرة فى غصونها الضوء والماء والهواء . »

وهى ترى أن المجتمع يحاول أن يبتلع الفرد ليكون منه كائناً معنويا متماسكاً ، فينتج إنتاجاً تعاونياً مشتركاً . وهى تدعو إلى أن يهتم مشيدو المجتمع لا لتجبيل قوى الناس جبلة واحدة هى الوطن ، بل يجب أن نفتح ذهن الفرد بحرية ونفك عنه القيود ونطلق أجنحته ليشعر أن الوطن كله حبة فى قلبه ، وأن عليه الاعتناء بحبة قلبه والسهر على راحتها ونموها .

وتكلم الدكتور عبد الرحمن بدوى عن القصة الوجودية عند سارتر .

وفى العدد بحث للدكتور نقولا فياض عنوانه «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » وهو يتكلم فيه عن

وجوب العناية بالحالة الصحية عند الزواج ، والعمل على إصلاح النسل ؛ فان صحة الفرد ملك للمجتمع .

وكتب الأستاذ فؤاد أيوب بحثاً علميا بعنوان « من الأرض إلى الشارقات » تكلم فيه عن النجوم والأجرام ، وما ماثلها . و بحث الأستاذ سن مهدى عن الطالب الحق وما يجب عليه أن يفعله وهو يقول :

« الطالب الحق هو الذى شعر بذاته وقلق على وجوده فجاهد للتحرر من قيوده فى طريقه للمعرفة » ثم يأخذ فى الكلام عن الشعور بالذات ، ثم القلق على الوجود والحرية والمعرفة وطريقها . وبذلك أتم بحثه .

وفى العدد قصيدة شائقة للأستاذ بولس سلامة عن حمدان البدوى .

وهنالك عدة بحوث أخرى طريفة.

من فلسطين

المنبر عدد ٧ (المجلد الاول)

فى الغدد السابع من المجلد الأول من هذه المجلة التى يصدرها اتحـــاد النوادى الأرثوذكسية العربية مقال للأرشمنديت سلاتيوس صوينى بعنوان « إلى أين تسير القافلة ؟ » يقول فيه « إن تيارين مختلفين بل متناقضين يتنازعان توجيه الأخلاق فى المجتمع البشرى : تيار التجديد وتيار المحافظة». وهو يستفيض فى البيان الفارق بين التيارين ، ويصل إلى النتيجة فيقول : « وعلى هذا فتكون خير طريق يجب سلوكها فى هذه الناحية هى طريق الوسط ، طريق الاعتدال ، طريق الأخذ بكل مفيد ونبذ كل ضار من الجانبين ، طريق احترام الماضى وعدم التنكر للحاضر الراهن ، طريق المحافظة على الأخلاق الشرقية والآداب الموروثة — من دين وإباء وعرض وشرف وكرامة وعزة نفس ، واقتباس العلوم والمعارف الحديثة ، طريق التحرر من بعض القيود والتقاليد والعادات التى لا تمت إلى الأخلاق بسبب ، والسير مع المدنية العصرية بحذر وتحفظ خوف الوقوع فى مهاويها والانزلاق فى مفاسدها المتهورة وخلاعتها المكشوفة . »

وكتب الأستاذ أحمد سامح الخالدى مقالا عن أهل الحكم والعلم فى ريف فلسطين ، وهو يذكر هذا

الريف بالخير ، ويشير إلى بعض العظماء الذين أخرجهم هذا الريف فى الماضى ، ويتكلم عما كان له من مفاخر فى عالم الثقافة .

وبحث الأستاذ حنا عطا الله فى درجات المحاكم الدينية الأرثوذكسية بفلسطين وتشكيلاتها ، فذكر طرفاً من تاريخها فى عهد البراطرة ثم سلاطين آل عثمان ، والقانون الذى قضى بتأليفها وهو قانون العائلة البيزنطى الخاص بالطائفة الأرثوذكسية المعمول به فى البطريركية المسكونية وتحدث الأستاذ عيسى السفرى عن العرب المتنصرة فى الجاهلية والاسلام . وبحث الخورى نقولا الخورى فى الأرثوذكس والارثوذكسية فى بلادالبلقان ، ونقل الأستاذ ابراهيم مطر قصة الزائر المنتظر لتولستوى إلى العربية . ومما يؤسف له أنه نقلها بتصرف وهو يعلن ذلك كأنه من حقه . وفى المجلة عدا ذلك بحوث قيمة عديدة ، منها بحث فى الكتاب المقدس للخورى أثناس خورى الساحورى ، وآخر فى أدب الفلك للسيد قسطنطين خمار ، وآخر فى الأمة هيئة اجتماعية واحدة للسيد درويش نصرى صفير وأنباء أدبية عديدة .

في مجلات الغرب

من الولايات المتحدة

الأمور الخارجية *Foreign Affairs* (عدد أبريل ١٩٤٧)

مجلة « الأمور الخارجية» الأمريكية التي تصدر كل ثلاثة أشهر من المجلات التي تكون دائماً حافلة ببحوث من كبار المفكرين في العالم . وفي العدد الأخير الذي وصل إلينا ، وهو عدد أبريل سنة ١٩٤٧ ، بحث قيم كتبه الأستاذ جون ديكي رئيس كلية دارثاوت عن النظام الذي تتبعه الولايات المتحدة في وضع المعاهدات ومقارنته أو تعرضه للسياسة الخارجية للولايات المتحدة . وهو يرى أن الوسائل السائدة الآن في الولايات المتحدة لإقرار المعاهدات وتنفيذها لا تتفق مع ما يراد من تسوية الأمور مع الدول الخارجية . ولذلك يجب العمل لتغيير هذه الوسائل ، بحيث تكون وسائل الاقرار والتنفيذ خاضعة للسياسة الخارجية . ومن المقالات الجديرة بالذكر مقال للكاتب بيرتون دكستر المحرر بالمجلة وهو عن الهيئة الثقافية التي أنشأتها هيئة الأمم المتحدة U.N.E.S.C.O. وهو يسميها « أونسكو تواجه عالمين » . وهو يقول : إن الدور الأول للمنشأة الجديدة هو أن تكون بمثابة دار موحدة ، تسوى فيها الحسابات الثقافية لا سيما ما يتعلق بالتربية . والدور الثاني هو دور جديد وغامض وغير محدد وخطير وهو تنفيذ الفكرة المسيطرة على عقول الأمريكيين بأن يكون العالم وحدة . وقد تكلم عن تاريخ هذه المنشأة الحديثة ووجهة نظر الدول الكبرى إليها . ويرى في ختام مقاله أن هذه منشأة تسير وسط المخاطر ، ولكن في طريق سيؤدي حتما إلى العالم السياسي المنتظر في المستقبل . وقد تكون الخطوة الأولى وجود عالمين لا عالم واحد . ولكن المستقبل القريب أو البعيد قد يوجد من هذين العالمين . ومقال آخر قيم عن « أوربا المنقسمة أو المتحدة »، بقلم الكاتب الروسي الكسندر جالين . وقد ذكرنا خلاصة وافية له في الكاتب المصري (عدد ٢١) .

وتكلم ألن دلز عن الاحتمالات أمام ألمانيا . وهو يرى أن المشكلة الألمانية يجب ألا ينظر إليها على أنها مجرد عامل فى العلاقات بين الدول الغربية وروسيا السوفييتية ، بل يجب النظر إلى ألمانيا نفسها وقيمتها بالنسبة لأوربا ، وإذا طلب من الشعب الأمريكى أن يساعد بموارده فى تعمير أوربا وألمانيا ، لكى يحقق أغراض الحرب ويقيم السلم ، فعليه أن يتحقق من ثلاثة أمور : ألا تنزع موارد ألمانيا الاقتصادية ، وأن ما يقدم من القروض لا يتوقف على دفع التعويضات ، وأن تنفق هذه القروض فى تنفيذ برنامج واسع يؤدى إلى الغرض المنشود وهو النهوض بألمانيا وأوربا . وتكلم مسيو أندريه جيرو (برتناكس) عن الدستور الفرنسى الأخير . وعالج الاقتصادى الفرنسى شارل ريست المشكلة المالية الفرنسية ، كما تكلم مستر هنرى أيرمن عن اتجاه العمال الفرنسيين إلى اليسار . وبحث سنيور رموالدى عن العمال والديمقراطية فى أمريكا اللاتينية ، وتكلم مستر ليلنتستوعن الثورة الزراعية بالمجر . كما بحث مستر ياور فى الحركة الوطنية بمالايا . وكلها بحوث تسترعى النظر . ولولا ضيق المقام لكان كل بحث جديراً بأن تنقل له خلاصة وافية.

برتيزان *Partisan* عدد ٢ (مارس — أبريل) عدد ٣ (مايو — يونيه)

ولقد أهدى إلينا أديب عددين من مجلة « برتيزان » الأمريكية الشهرية ، وفى العدد الثانى (مارس — أبريل) بحث لجرانفيل هكس عن مستقبل الاشتراكية ، وهو البحث الثانى الذى نشرته هذه المجلة فى هذا الموضوع . وهو يستعرض آراء انجلز وماركس . ويختم بحثه الدقيق بالقول إن إيضاح الاتجاهات يظهر له أنه أهم فى هذه اللحظة من البحث فى النظم . وهو يود أن يرى حزباً جديداً يكون ديمقراطياً حقاً ، لا يقتصد فى نقد شرور الرأسماليين ، على ألا يعتنق المذاهب الاشتراكية ، ويكون مخلصاً وواسع الأفق فى مشروعاته للتنظيم الاجتماعى . ولكن الدور الأساسى الآن هو دراسة الاتجاهات والآراء . فاذا أمكن تطهير الفوضى الأخلاقية والسياسية ، فان الحزب الجديد الذى قد ينشأ للسير على هذه القواعد ، قد يكون له بعض النفع .

ويتكلم الكاتب الأمريكى الشهير

ارثر كيستلر فى رسالة من لندن عن حكومة العمال البريطانية ، وهو يصف كثرة ما لديها من أعمال وكثرة ما يوجه إليها من نقد .

وفى هذا العدد حولر خيالى بين هايدجر وفرويد بقلم الكاتب ولـيم باريت عن القلق . وفى هذا الحوار يقول فرويد : إن أنواع القلق ستستمر، فاذا كان هذا الأمر يشغلك فالانسان لا يستطيع أن يحيا مع الجماعة دون أن يبطن أموراً . فالقلق من أجـل اللذة التى يجب أن يقلع عنها يـكون علامة على ما يبطن ، وهذه الأمور التى يبطنها لها مظاهر قلق . فاذا كان هذا القلق يختفى فقد نفقد بعض صفات العبقرية التى نشأت فى الماضى عن المرض العصبى . ولـكن قد يكون فى ذلك تعويضات أخرى .فيقول هايدجر: لنفرض أن جميع أنواع القلق قـد شفيت فماذا يكون ؟ و إلام يصـير الانسان ؟ ألا يكون حيواناً كسائر الحيوانات و إن كان أكثر مشاغل وأشد حباً للاستطلاع وأكثر مكراً من غيره من الحيوانات ؟

وفى هذا العدد بحث لسجفريد كراكاور وهو فصل من كتاب للمؤلف صدر حديثاً اسمه « من كاليجارى إلى هتلر » وليس هو بالبحث السياسى بل هو بحث فى طبيعة الأشرطة الألمانية . وفى هذا الفصل يصف كيف جاءت فكرة قصة كاليجارى الشهيرة التى أخرجها السنمائيون الألمان .

وفى العدد حديث لهنرى مور النحات الانجليزى المشهور، يتكلم فيه عن طريقته وآرائه فى الفن وتاريخ حياته والآثار الفنية التى تأثر بها .

أما العدد الثالث لهذه السـنة (عدد مايو — يونيه) فيبتدئ برأى الأستاذسلزنجر فى مستقبل الاشتراكية . ويتكلم ريتشارد تشيز عن الـكاتب الأمريكى هرمان ملفيل . وهو يرى فى الخلاصة أن كتب ملفيل فيهـا من النشاط والوضوح والذكاء ما يجعله جديراً بأن يعد فناناً ، ومن الخطأ أن نتكلم عنه بوصف أنه رجل تقدمى ، أو بطل من أبطال الديمقراطية ، أو من أساتذة التثقيف، أو أنه ذو قلب نبيل، أو أنه نبى من أنبياء الفكر ، بل يجب أن نقدر الفنان وحده .

وتحدثت الأديبـة الأمريكيـة مارى مكارثى فى هـذا العـدد عن أوسكار وايلد بمناسبة مشاهدتها تمثيل إحدى مسرحياته . وفى رأيها أن خطيئة وايلد الحقيقيـة ليست هى إفسـاده أخلاق الشبان ، بل هى تهافته على

الناس ، وتصرفه فى بيوت النـاس ، كما يتصرف فى بيته . وهذا ما نستخلصه من مسرحيـاته كما نستخلصه من أقوال معاصريه .

والعـدد حافل ببحوث أخرى جديرة بالعناية والاطلاع .

المجلة الجغرافية الوطنية National Geographic Magazine (عدد يونيه ١٩٤٧)

فى عدد يونيه من هذه المجلة الأمريكية ، التى تتميز بحسن طبعها وصورها البديعة ذات الألوان ، والتى تنقلنا إلى أنحاء العالم البعيدة ، مقال مزين بالصور الجميلة عن واشنطون عاصمة جمهورية الولايات المتحـدة ومقر عظمائها ، وفيه بيان لآثارها ومعالمها من دور رسمية وغير رسمية . ثم يأتى بعد ذلك كلام عن جمعية الآثار الوطنية بواشنطون . وكـان الغرض الأول من تأليفها إنشاء أثر وطنى يخلد ذكرى الزعيم الأمريـكى واشنطون . وهى لا تزال توالى عملها فى إحياء ذكرى زعماء الحياة الأمريكية.

ووصف مستر ولتر ادواردر تجربته فى الصعود فوق سلسلة الجبال الصخرية بأمريكا ، وصفاً بارعاً ، وقد قام بسياحة إلى تلك الجبـال تصحبه زوجته . والمقال مزين بصور بديعة تزيدها الألوان جمالا .

وهناك مقال عنوانه « فى أعماق ويسكونسن » . يتـكلم الـكاتب عن جماعة من السويسريين يعيشون فى مقاطعة ويسكونسن الأمريكيـة ، ويحتفظون بالحياة التى عرفوها وألفوها فى جبال سويسرا ، لم يغيروا منها شيئاً ، وهم الذين يصنعون الجبن السويسرى فى أمريكا حيث ينقل من مقرهم إلى أقصى البلاد .

وفى العدد مقال عن حياة الجيش الأمريكى فى كوريا وعلاقته بأهل تلك البلاد .

فنون المسرح Theatre Arts (عدد يونيه ١٩٤٧)

لا يقل العدد الأخير ، عـدد يونيه من هذه المجلة الشهرية الأمريكية عن المستوى العالى الذى تحتفظ به فى كل شهر ، سنة بعد سنة . ويبتدئ هذا العدد بالتحدث كالعادة عن المسرح والعالم . وفيه أنباء هامة عن حـالة

المسرح فى العالم ، كما أن فيه أنباء الحركة التمثيلية فى الولايات المتحدة .

ثم يأتى عرض للموسم التمثيلى فى نيويورك ، وأسماء المؤلفين الناجحين فى هذا الموسم ، وعلى رأس هؤلاء أوجين أونيل ولبليان هلمان وماكسويل أندرسون وأرثر ميلله ؛ فقد تميزت المسرحيات التى مثلت لهم عن كل ما مثل فى هذا الموسم . ولا ريب فى أن أونيل هو أعظم المؤلفين المسرحيين وأبرزهم ، وكان تفوقه ظاهراً للعيان .

وفى العدد بحوث أخرى عن الفن المسرحى بجميع أنواعه .

من فرنسا

ريفى دى بارى *Revue de Paris* (عدد يونيه ١٩٤٧)

تبتدئ مجلة « ريفى دى بارى » الشهرية (عدد يونيه) ببحث للمسيو أندريه سيجفريد عن فورد وفكرته فى الانتاج . وقد ابتدأ مقاله بقوله إن أحد الناس فى الولايات المتحدة قال له إنك لم تر مصانع فورد فأنت إذن لا تعرف الولايات المتحدة . وقد تحقق لديه صدق هذا القول عندما زار هذه المصانع . ثم ذكر تاريخ حياة فورد ، ثم أتى بملخص للفكرة التى سار عليها حين قال إن الربح هو علامة الحياة وإنه خميرة النشاط ، وإنه نتيجة للتنظيم . وليس الربح من حق رأس المال إلا لحد محدود ، بل هو ربح للعمل والمجهود نفسه الذى يؤدى إلى الزيادة فى المال . وعلى ذلك يسائل أندريه سيجفريد من أى الفلاسفة السابقين اقتبس هذا الأمريكى فكرته عن مشاكل الانتاج . وهو يرى فيها خيالا رائعاً وتخريجاً عجيبا . وفى هذا العدد مقال للكاتب الألمانى السويسرى كارل بوركارد يصف فيه صباح يوم فى مكتبه . وهو يتكلم عن سنة ١٩٢٤ حين كان يعيش فى باريس ، ومقابلته للشاعر رينر ماريا ريلكى ، وحديثه إليه . ويحتوى العدد على القسم الثانى من مسرحية جول رومان « السنة ألف » . وتكلم جان روستان عن العالم يوهان مندل . ونشر فى هذا العدد ترجمة لقصة للكاتب الأمريكى لويس برومفيلد اسمها « الموت فى مونت كارلو » . وتكلم روبير عن النشأة الثقافية لهيئة

الأمم المتحدة ، كما تكلم أتيين روما عن الأيام الأخيرة للبحرية اليابانية . ولا نذكر بحوثا أخرى قيمة وكثيرة فى هذه المجلة الظريفة .

فونتين Fontaine عدد ٥٩

افتتح عدد ٥٩ من مجلة « فونتين » الفرنسية بمقال كتبه جورج بلان عن جان بول سارتر وبودلير . وهو يتكلم عن مقدمة كتبها سارتر لمجموعة صدرت أخيراً من كتابات بودلير الخاصة . ففى هذه المقدمة يأخذ سارتر فى تحليل حياة بودلير بما يناسب الطريقة الوجودية . ويقول الكاتب إن هذه ليست أول مرة تعرض فيها سارتر لحياة بودلير ، فهو فى إحدى قصصه *Le sursis* يضع الشاب فيليب فى موقف عاطفى من حياته مماثل لموقف ذلك الشاعر الفرنسى . ولقد رأى سارتر أن يدرس الشاعر فى اختياره الأول لعمله ، ثم فى بعض الشؤون التى تدل على مسلكه فى معترك الحياة .

فهو يرى أن الاختيار الأول لمسلكه فى الحياة نشأ فى اللحظة التى تزوجت فيها أمه للمرة الثانية . فهو بعد أن كان معززاً قد اضطر للوحدة فى الحياة . وبذلك ارتد إلى نفسه يبحث فى أعماقها عن صورة حياته وكنهها فلا يجد . وهذا هو السر فى فترات كسل بودلير ؛ فهى ليست ناشئة عن مرض فى الارادة وإنما هى ناشئة عن أزمة فى التقدير . وهذا هو السبب فى تلك الحياة المتقطعة التى يسير فيها على دفعات : ينهض فيعمل ثم يخفق فيهمد فترة ثم يعود إلى العمل مبتدئاً من جديد فى نشاط . وهكذا يتابع كاتب المقال آراء سارتر فى بودلير ويقدرها ، ولكنه لا ينهى البحث بل سيتابعه فى العدد القادم .

وفى هذا العدد قصة لريمون كينو ومجموعة أشعار لجان كوكتو وجورج هنيه .

وفيه بحث لفردينان الكييه فى فلسفة ميرلو-بونتى **Merleau-Ponty** الوجودية . وهو يجده أكثر الوجوديين اتباعاً لقواعد الفلسفة ومحاولة لتنظيم آراء على النهج الفلسفى المعروف .

وفى العدد بحث عن الأديب الفرنسى سوبرفييل **Supervielle** وفيه مقال عن الكاتب ارثر كوستلر **Koestler** كما استعرض بوريس دى شلزر المدرسة

الموسيقية الحديثة التى نشأت فى فيينا ، ومن زعمائها شونبرج وفبرن . وهو ينقد آراء الكاتب لايبوفتز الذى أشاد بهذه المدرسة وأكبر من شأنها فى خدمة الفن الموسيقى . وفيه بحث عن فان جوج Van Gogh المصور ، وملاحظات لجوليان بندا ، ونقد للأديب الفرنسى فاليرى .

لانيف La Nef

ومجلة « لانيف » الفرنسية الشهرية تفتتح عددها ببحث لهنرييت بسيكارى عن موقف رنان Renan من الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا ، وهى تنشر رسالتين كتبهما المؤرخ الفرنسى إلى الملكة فيكتوريا فى ذاك العهد . ونشر جول سوبرفييل ثلاث قصص قصيرة طريفة . وتكلم جرجوار الكسنكى الكاتب الروسى عن ذكريات له مع العظماء ، فذكر كيف رأى القيصر نقولا الثانى آخر قياصرة روسيا ، ووصف لعبة الشطرنج مع لينين ، ومقابلته لمكسيم جوركى الكاتب الروسى العظيم ، ومحاولة هذا الكاتب الانتحار ، واتصاله بموسلينى حين كان الزعيم الايطالى شيوعيا .

وفى العدد عدة مقالات منقولة عن إذاعات أو كتابات للأدباء الألمان المعاصرين . وقد جمعت تحت عنوان « نظرة الألمان إلى أنفسهم » ، وهى تدل على مجرى الآراء فى ألمانيا الحاضرة وسط محنتها .

وفيها غير ذلك بحوث طريفة عرفت بها دائماً هذه المجلة .

العالم الفرنسى Le Monde Français (عدد يونيه ١٩٤٧)

فى عدد يونيه من هذه المجلة الشهرية يتكلم جان جالوتى عن إعادة التعمير فى فرنسا مع مراعاة الذوق والجمال . وهو يقول إن الناس فى هذا الأمر منقسمون ، فالبعض يفضل الانشاء من جديد على إعادة التعمير مع المحافظة على القديم ؛ والبعض يشعر بالأسف على الجمال المفقود أكثر مما يثق فيما يقال من جمال جديد ، فهو يهتم بالمحافظة على ما بقى من أثر أكثر من اهتمامه بأثر حديث . ولقد عمل جالوتى الأديب من قبل مديراً للفنون

فى مراكش ؛ فهو يستوحى ذكرى ليوتى ويضربه مثلا لما اتخذه من إجراءات لبناء المدن وتوسيعها بما يلائم العصر الحديث . فهو يقول إن ليوتى كان من الذين يحبون الروح الشرقية ، وتطربه الحياة الشرقية ، ولكنه دعا من فرنسا مسيو بروست الحائز على جائزة روما الأولى فى البناء ، ثم تبعه لابراد وماراست ، وعمل الثلاثة محافظين على الروح القديمة مع تعديلها بما يلائم العصر . وقد أصدر السلطان أمراً فى أول أبريل سنة ١٩٤٤ بأن لا يبنى أى بناء على بعض الشوارع إلا بعد الحصول على موافقة إدارة التعليم والفنون الجميلة والآثار ؛ وكذلك الدور العامة . وبذلك تحقق شرط تحقيق الوسائل الحديثة فى البناء مع المحافظة على الجمال .

فعلى فرنسا إذن أن تتبع هذا المثل . وهو يرى أن تاريخ فرنسا ومركزها الجغرافى وطبيعة أرضها ، وصفات الفرنسيين الخاصة ، قد تكون خير دليل . ففرنسا ليست مثل روسيا ولا مثل أمريكا . فلها حدود متوسطة وجوها معتدل ، مما يحول فى الغد كما منع فى الماضى ، دون الضخامة فى المنشئات والوحشية فى طرق البناء . فهى دائماً تؤثر النوع على الكمية وهذا ما يلائم مزاجها .

ويستعرض دوناثيان فريمون غرب كندا على أنه أرض فرنسية ، فهو يقول إن أكثر الناس يظنون أن استعمار الفرنسيين لشمال أمريكا كان دائراً حول منطقة كويبك . ولكن الغرب الكندى يحتوى ، بالرغم من مظهره السطحى ، على آثار تنم عن مجهود الفرنسيين ، وروح المغامرين الذين عملوا لاستثمار هذه الأراضى التى كانت مجهولة . وهو يذكر تاريخ هذه المجهودات فى شرح مسهب لذيذ ويعلن أن الحياة الفرنسية لم تنقطع فى تلك الجهات ، وإن كان قانون العدد فى غير صالح الفرنسيين . وإن الزائرين يدهشون لما يجدونه من حيوية وتضامن فى تلك الجماعات الفرنسية الكندية التى تعيش فى مانيتوبا وساركا تشوان وألبرتا وهى جماعات تغمرها لذة الحياة والصحة والتفاؤل والرخاء .

أما مارسيل جوبارد فيشرح فى مقاله ما قام من خلاف بين الزعيمين الشيوعيين ستالين وتروتسكى ، ذلك الخلاف الذى انتهى بانتصار الأول وقتل الأخير .

ويعالج روبير شوارتز حالة انجلترا المالية ويرى أن التضحيات التى يقدم

عليها الشعب الانجليزى فى سبيل محاولة التوازن لم تبلغ غايتها ، وأنه يجب على انجلترا فى الخارج أن تترك خضوعها الاقتصادى للولايات المتحدة وتتخذ سياسة صريحة نحو دائنيها ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة . وعلى هؤلاء الدائنين إما أن يطلبوا من المدين وقف الدفعات الخارجية ، وإما أن يؤجلوه آجالا طويلة إلى أن ينتعش .

ورسم الأديب موريس بوتيكير صورة وصفية للكاتب الفرنسى الشهير مارسيل شووب Marcel Schwob ويتكلم بورجو عن بلاد الجزائر والدفاع . وهو يرى أن الجزائر إذا انفصلت عن فرنسا تصير جثة هامدة كما كانت قبل سنة ١٨٣٠ ، وأن فرنسا إذا انفصلت عنها الجزائر صارت فى حالة من الفاقة مروعة مدى قرن أو أكثر ، وتختفى من عداد الدول الكبرى . ولكن لكى تحتفظ فرنسا بتلك البلاد التى صار لها من الخطورة لديها ما للالزاس واللورين ، يجب عليها أن تجد رجالا صالحين للادارة نافذى البصيرة . ومما يؤسف له أن عدد هذا النوع من الرجال قليل . ويقول الكاتب إن سياسة المستعمرات الفرنسية هى اليوم من أعقد وأخطر ما يواجه الفرنسيين . ويجب أن تعمل فرنسا بحكمة وتقدم على التضحية ، وأن تتجه نحو الشعوب الواقعة فيما وراء البحار بروح الاخوة التى هى إحدى شعائر الجمهورية .

وفى هذا العدد بحوث أخرى قيمة عن الآداب والفنون وأنباء عن بلاد مراكش ومذكرات عن الكتب .

بارو *Paru* (عدد يونيه ١٩٤٧)

فى هذا العدد الأخير من هذه المجلة الفرنسية التى تعنى أكبر عناية بالكتب وهو عدد يونيه يتحدث مسيو باترى عن تلك النزعة فى الأدب الحديث التى تقول إنه يجب على الأديب أن يقول كل شئ . وهو يعد هذا القول من أسخف الأقوال . فالأدب يقوم على الاختيار . وهذا الاختيار يبدو حتى فى الكلام العادى . ثم إن نقل الصور بالآلة الفوتوغرافية نفسها يقضى باختيار زاوية خاصة للتصوير .

وفى هذا العدد وصف لزيارة قام بها أندريه بوران للكاتب الفرنسى ألكسندر أرنو **Arnoux** وقد تحدث

إليه أرنو ذاكراً كيف أنه ولد على مقربة من نيم فى جهة البروفانس وقضى طفولته فى تلك الجهات ، ثم انتقل إلى ليون لدراسة الحقوق ، وفيها عرف شارل دولان **Dullin** وكان كاتب محضر ، وكان ينشد له الشعر ليلا ، ولم يلبث دولان أن رحل إلى باريس حيث عاش عيشة صعبة يمثل أدوار الخونة فى المسرحيات الشعبية . وقد تبعه أرنو إليها، ففرنسا بلد لا يجد المتطلع ما ينشده إلا فى العاصمة . ثم تكلم الأديب عن عمله فى الصحافة ومؤلفاته.

والقسم الخاص بنقد القصص الجديده حافل ببحوث عن المؤلفين ، بعضهم معروف ومشهور ، وبعضهم مبتدئ . وفى هذا القسم نقد لثلاث قصص طويلة لهنرى بوسكو ، وقصة لفرنسيس كاركو . والجزء المخصص من هذا القسم لنقد القصص الايطالية فيه نقد لقصة أجوستينو ، لألبرتو مورافيا ، ولقصة الصبا لبيرو جاهير . أما قسم القصص الانجليزية والأمريكية ففيه نقد لفردريك بروكوش ولويس برومفيلد ، وتوم هيلين . وفى الأدب الشمالى استعرضت قصص لتمرمانز ويونج . وهذا يدل دلالة واضحة على إقبال الجمهور الفرنسى على الترجمة والنقل فى هذه الأيام .

وفى هذا العدد حديث مع كاتب من الناشئين أصدر أخيراً كتاباً اسمه « سان كلكان » ***Saint Quelqu'un*** وقد نقل إلى لغات عدة ونوه به كبار الناقدين كما خصصت له جريدة « التيمس » الأدبية الأسبوعية إحدى افتتاحياتها ، واسم هذا الكاتب لويس باوفل **Louis Pauwels** . وهو شاب فى مقتبل العمر ، يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره حين وضع هذه القصة . ولقد شرح باوفل المسائل الروحية التى تدور عليها قصته .

والأقسام الأخرى جديرة بالقراءة أيضاً . وفيها مادة غزيرة ، كما أن قسم الأنباء الأدبية حافل بكل ما تلذ قراءته .

من بريطانيا العظمى

العالم اليوم *World Today* (عدد يونيه ١٩٤٧)

لايتناول المرء عدداً من مجلة العالم اليوم ، التى هى لسان المعهد الملكى للأمور الدولية ببريطانيا ، حتى يجد بحوثاً جليلة . والناس يتشوقون فى هذه السنوات إلى تكوين فكرة جلية واضحة ، وسط المشاكل المتتالية فى هذا العالم المضطرب . وفى العدد الأخير من هذه المجلة (عدد يونيه) مذكرات الشهر التى تكتبها هيئة تحرير المجلة . وفيها تناول للأزمة الحكومية بايطاليا ، ثم كلام عن مؤتمر العلاقات الآسيوية الذى دعا إليه البنديت نهرو فى دلهى الجديدة . وقد أشار الكاتب إلى أن البنديت نهرو ذكر فى خطبته الافتتاحية أن هذا المؤتمر هو نقطة تاريخية فى تاريخ هذه القارة . وقد يكون هذا القول وصفاً مغالى فيه ، لمؤتمر ذكر أنه يقتصر على المسائل الثقافية ، ولكن الكاتب يرى ألا نعتبر هذه العبارة مجرد قول خطابى . فالمؤتمر بلا شك حادث مهم فى تاريخ آسيا ؛ وليس ذلك بسبب الموضوعات التى بحثها ، ولا النتائج التى وصل إليها ، بل لمجرد إمكان عقده ، وتمثيل جميع الدول الآسيوية فيه . ثم تكلم عن اللجنة المشتركة بين الولايات المتحدة وروسيا التى تنظر فى إنشاء حكومة وقتية لكوريا .

وفى هذا العدد ملاحظات ونظرات كتبها مراسل كان موجوداً أثناء انعقاد مؤتمر موسكو .

وفيه بحث عن الاتحاد الاقتصادى بين البلجيك وهولانده ولكسمبرج . وعالج كاتب آخر الحالة فى جنيف المدينة السويسرية التى كانت موئل جمعية الأمم ، وما كان من اتخاذ قصر هذه الجمعية مكاناً للمكتب الأوربى لهيئة الأمم المتحدة ، مما يعيد إلى هذه المدينة شيئاً من نشاطها الدولى السابق .

وفى العدد أيضاً بحث عن الحركة الوطنية فى الهند الصينية ، وهو بحث قيم كنا نود أن نأتى له بخلاصة وافية ، ولكن آثرنا عليه بحثاً آخر عن الحالة فى ألمانيا وتأثير مؤتمر موسكو فيها .

سكروتنى Scrutiny

أما مجلة « سكروتنى » الانجليزية ، التى تصدر كل ثلاثة أشهر ، فهى مجلة جدية ، تنصرف إلى الأدب الخالص ولا تعالج موضوعات أخرى ، إلا من الوجهة الأدبية الثقافية . وفى عدد الربيع وهو آخر عدد صدر من هذه المجلة بحث للناقد الانجليزى ه . ا منسون عن أندريه مالرو وناقديه ، وهو بحث طريف ككل بحوث هذا الكاتب فى الأدب الفرنسى . وقد نشر مستر بانتوك بحثاً عن النتائج الثقافية لوضع نظم للتفكير ، وهو عبارة عن نقد لبحث نشره الأستاذ كارل مانهيم عن معنى تعميم الثقافة فى هيئة اجتماعية تقوم على الشعب . وفى هذا العدد بحث للناقد مستر ليفس عن القصة كقصيدة مسرحية، وفيه بحثان عن هنرى جيمس الأديب القصصى الأمريكى .



مدرسة الزوجات

يليها روبير و چنفييڤ

تأليف أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى .

فتاة فى نشوة الحب

ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

٣١٢ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

الباب الضيق

تأليف أندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم

ورد طه حسين الى أندريه جيد

« ترجمة كتبي الى لغتكم ؟ . . . الى أى قارىء يمكن أن تساق ؟ وأى الرغبات يمكن أن تلبي ؟ ذلك أن واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم فيما بدا لى ، أنه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة. أمخطىء أنا؟»

أندريه جيد

« لم تخطىء أنت ، وإنما دفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيراً من المسلمين ولكنك لم تخالط الاسلام . . . فلو قد تعمقوا الدين تعمقاً دقيقاً لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب . »

طه حسين

[من مقدمة كتاب « الباب الضيق »]

١٤٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



كليمنصو
وحياته العاصفة

تأليف ليون دوديه

تعريب حسن محمود

كليمنصو . . . مسقط الوزارات . . . النمر
الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا
الرجل الذى طلب أن يدفن واقفاً فى القبر
زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الأدب

طبعة مزينة بالصور

٢٨٨ صفحة

الثمن ٣٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



نابليون

تأليف إميل لودفيج

ترجمه عن الالمانية
محمود إبراهيم الدسوقى

البطل الذى اكتشف لودفيج وراء قناع بطولته محيا الانسان ، فتجلت بطولته فى إنسانيته ، وفاقت كل ما عرف إلى الآن .

طبعة مزينة بالصور فى جزأين

الجزء ٣٥٠ صفحة

ثمن الجزء ٤٥ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)

جنة على نهر العاصي

تأليف موريس بارس

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

تعريب محمد عبد الحميد عنبر
وعبد المجيد عابدين

غرام أقرب إلى العبادة ومغامرات أقرب إلى الأحلام على ضفاف نهر العاصى حيث تملأ السواقى بأنينها أجواز الفضاء .

١٦٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



ثمن الجزء ٣٠ قرشاً (بريد الجزأين ٤٠م)

المقامر

تاليف فيدور دستويفسكى

تعريب شكرى محمد عياد

قصة شاب ممتحن بداء القمار لقى من هذا الداء فى حياته شراً عظيما . وهى قصة عنيفة تستأثر بحاجة القارئ إلى الاستطلاع .

١٦٩ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

الحب الأول

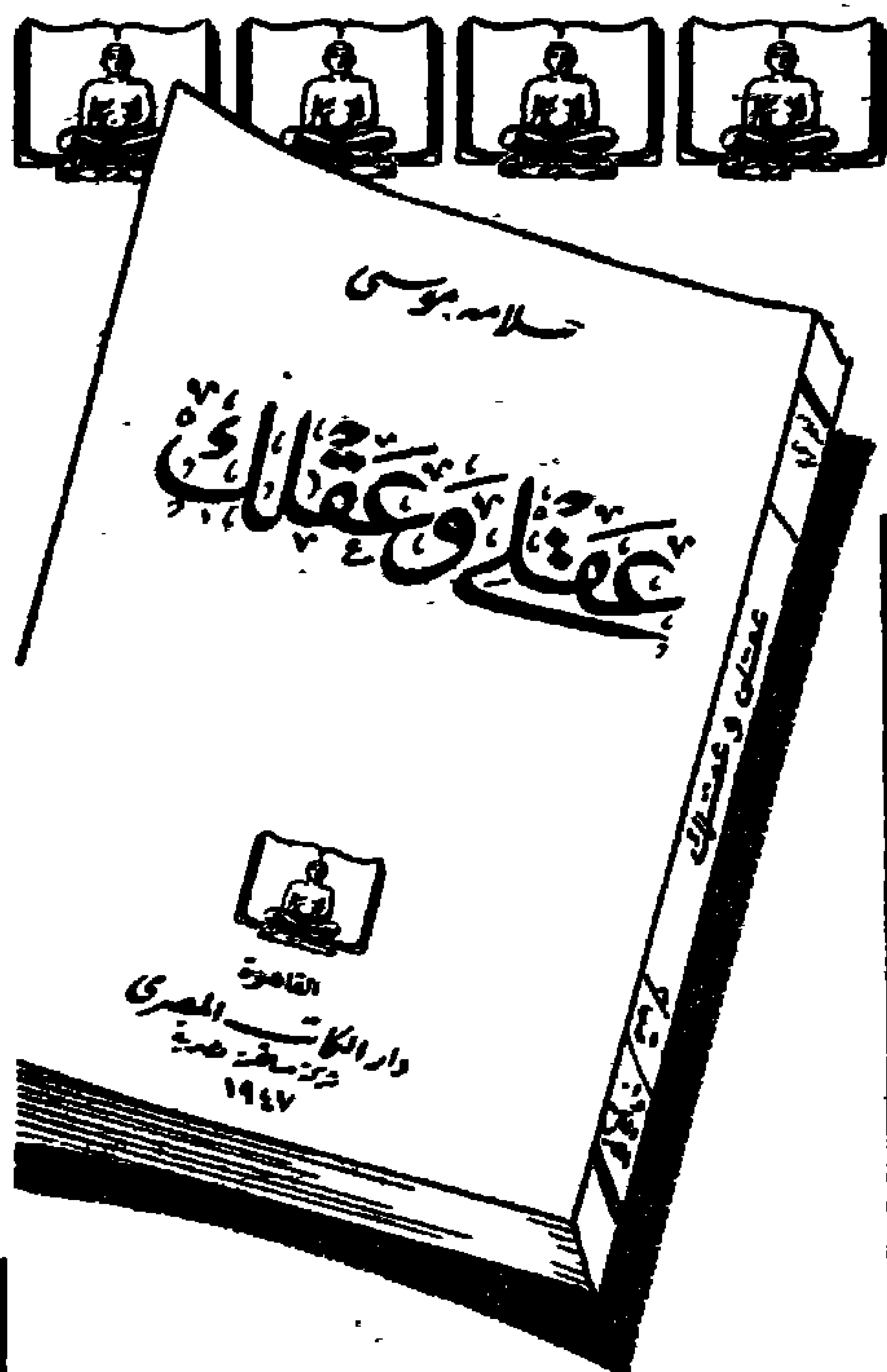
تاليف إيڤان ترجنيف

تعريب محمود عبد المنعم مراد

قصة ساذجة تصور قلب شاب ناشئ يندفع إلى الحب فى غير احتياط ولا تحفظ وما يصيبه من يأس حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه .

١٠٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



عقلى وعقلك

تأليف سلامه موسى

أوفى كتاب فى علم النفس الحديث يبسط آخر المعارف عن هذا العلم بلغة واضحة ليس فيه جملة معقدة أو فكرة مبهمة تقرأه فتقف منه على أسرار النفس البشرية وحركة التفكير .

٢٠٠ صفحة

الثمن ٤٠ قرشاً (البريد ٢٨ مليما)

العقيدة والشريعة في الإسلام

للمستشرق العظيم

إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه

محمد يوسف موسى

عبد العزيز عبد الحق

على حسن عبد القادر

٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليما)

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

تأليف

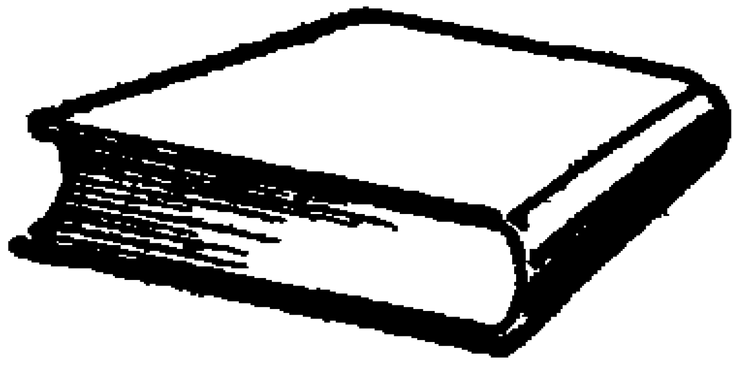
الأستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

بجامعة فاروق الأول

٢٦٦ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد ٣٦ مليما)



مدونة جوستنيان

في الفقه الروماني

ألفه فقيه القياصرة في قسطنطينية

الامبراطور جوستنيان

ونقله الى العربية امام القضاة في مصر

معالي عبد العزيز فهمي باشا

أخرجته

دار الكاتب المصري

في طبعة ممتازة

وتجليد أنيق

ستنشر مجلة « الكاتب المصرى » النص الكامل لقصة تدمير مدينة
بفعل قنبلة ذرية واحدة وما حدث لسكان هذه المدينة

هيروشيما

بقلم الكاتب الأمريكى چون هرسى

مشاهدات ستة أشخاص كانوا فى المدينة حين قذفت القنبلة
وبأعجوبة نجوا بحياتهم من هذه الكارثة



اقرأ فى عدد سبتمبر من مجلة « الكاتب المصرى »
هذه القصة الجذابة التى قرأها ملايين فى أمريكا وأوربا

طبعة مزينة بصور مهداة من مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات بالسفارة الأمريكية بمصر

الثمن ١٠ قروش كالعادة — احجز نسختك من الآن

تحت الطبع

سافونارولا

قصة الراهب الثائر والمصلح الديني والسياسي والاجتماعي

للدكتور حسن عثمان

الضحك

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم

غانية أطلنطا

قصة رائعة للكاتب الفرنسي بيير بنوا عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب رشدي كامل

عقدة الأفاعي

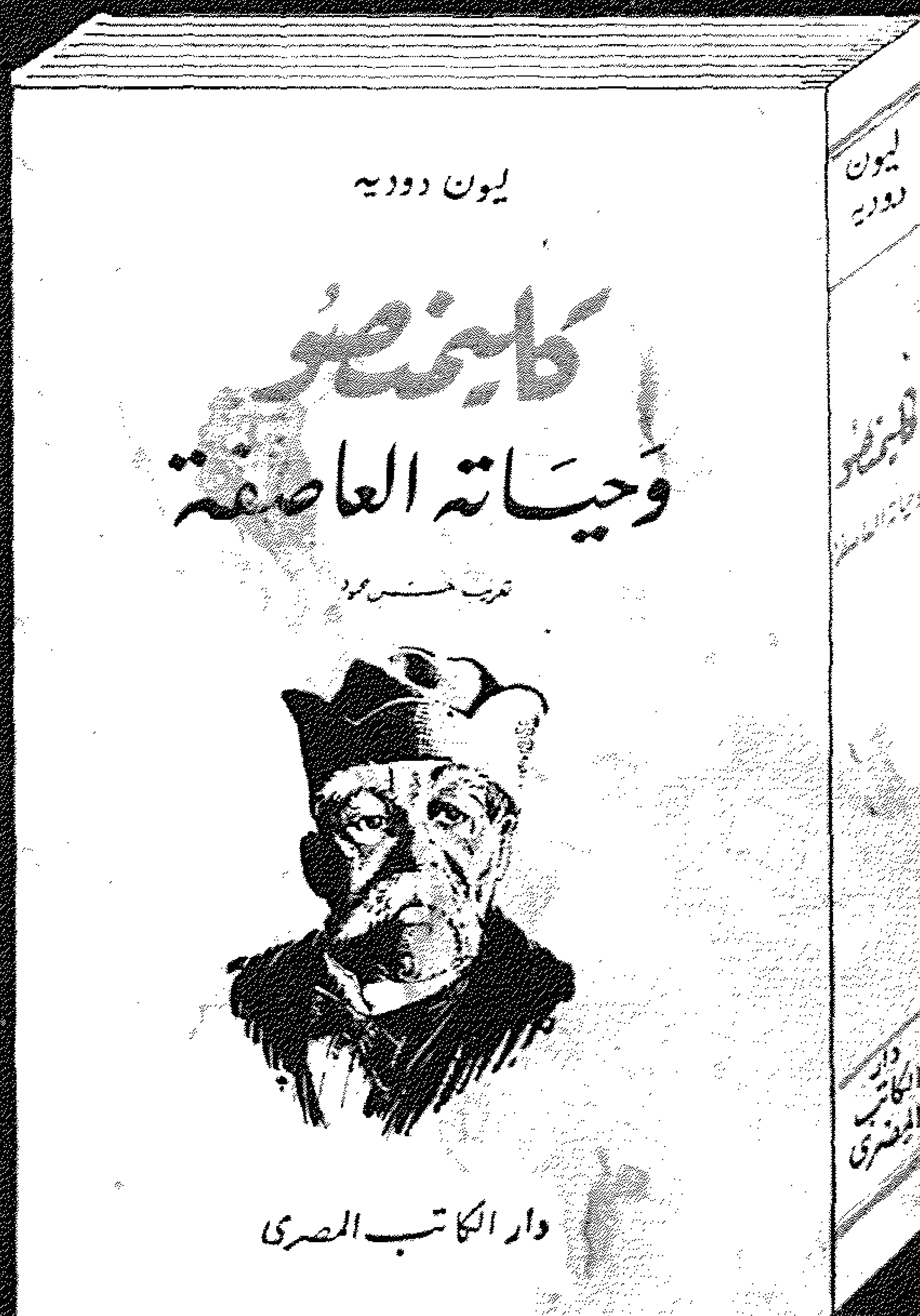
قصة تحليلية لفرنسوا موریاك عضو المجمع اللغوي الفرنسي

تعريب نزيه الحكيم

قصة رجل مجهول

للكاتب الروسي أنطون تشكوف

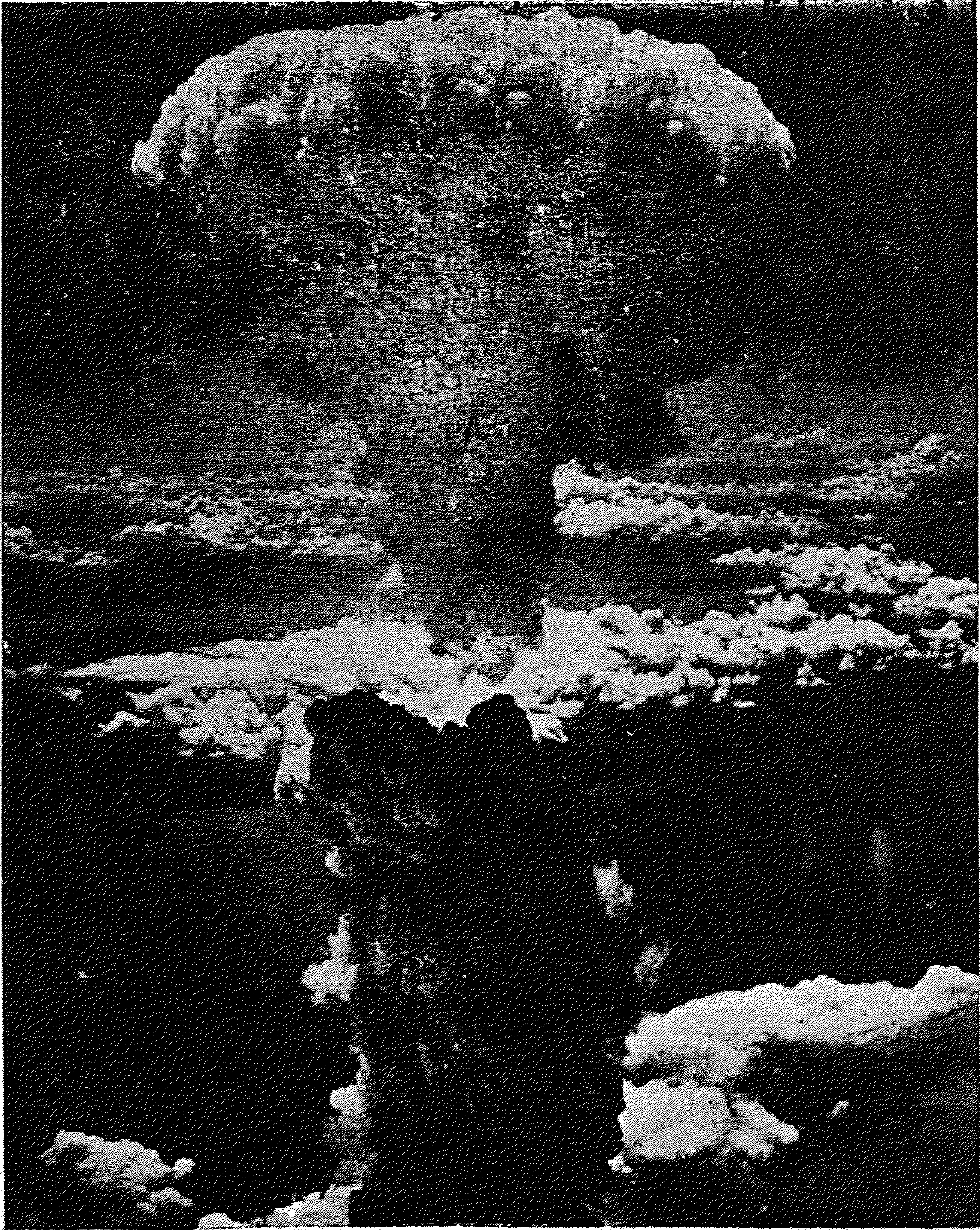
تعريب محمود الشنيطي


ليون دوديه
كليمنصو
وحياته العاصفة
تعريب حسن محمود
دار الكاتب المصرى
ليون دوديه
كليمنصو
دار الكاتب المصرى



مجلد ٦ — عدد ٢٤
سبتمبر ١٩٤٧

هيروشيما



الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين

تحت الطبع

كتاب البخـــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى بروڤنسال

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات و بحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بحث علمى فى دولتى المماليك

تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

النفس فى الصحة والمرض

تأليف الدكتور محمد زكى الشافعى بك

ہیروشیما

نفیس

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الصور التى يحتويها هذا العدد مهداة من مكتب الولايات المتحدة للاستعلامات بالسفارة الأمريكية بمصر

چون هِرسي

هيروشيما

تعريب حسن محمود



دار الكاتب المصري

العنوان الأصلى للقصة
بالانجليزية

HIROSHIMA

By

JOHN HERSEY

الكاتب المصرى



شوال ١٣٦٦ — سبتمبر ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٦ — عدد ٢٤

تقــــــدمة

١

من أقدم العصور كان العنصر الأساسى الذى تتكون منه المادة موضوعاً لتفكير العلماء وبحوثهم ، بقدر وسائلهم فى تلك العصور القديمة . وكان العلماء فى تلك العصور يسعون وراء شئ خلب بريقه عقولهم ، فأرادوا الاستزادة منه؛ هذا الشئ هو المادة البراقة التى تعرف بالذهب . فكان العلماء من القدماء يجرون وراء خيال ، ولكنه خيال ظريف ، هو تحويل المعادن إلى ذلك المعدن الشريف فى نظرهم الذى يمنح الانسان أكبر متعة إذا زادت كميته لديه .

كانت طبيعة هذا البحث تفترض أن كل المعادن التى كانت معروفة عندئذ هى من مادة واحدة ؛ وإنما تشوبها عكارة وشوائب تبعد بينها وبين أصلها الشريف ؛ وأنه إذا وجد أصل يمكن به إعادة هذه المعادن إلى نقائها وصفائها الأصلى فهى تتحول إلى ذهب .

هكذا جرى خيال هؤلاء العلماء فى الأزمان القديمة ، وما عرف بالأزمان الوسطى ، وراء هذا الحلم الذهبى . وكانت الغرفة المظلمة التى يعمل فيها العالم سرا فى سبيل تحقيق علمه : يوقد فيها النار وينفخ فيها بمنفاخه ، إلى أن تسود لحيته البيضاء المتدلية بما يتصاعد منها من دخان ، وتلك البوتقة

التى تغلى فيها مواد غريبة ، هى كل أمله فى الحياة . وكان الاخفاق مرة بعد مرة لا يزيده إلا إيماناً وعناداً . وهو يتطلع دائماً إلى استكشاف ذلك الأصل الذى يمكنه من تحويل المعادن إلى معدن الذهب النىريف ، وكان يلوح له دائماً أنه على قاب قوسين من النجاح ، حتى يأتى اليوم الذى يمسكه فيه القدر فيقذف به إلى عالم آخر ، قد لا يكون أقل خيالا من حلمه ، أو يهجم عليه الناس بفضولهم ، وكثيراً مايهجمون ، فيساق إلى المحاكمة والموت على أنه ساحر، بسبب تلك الغرفة المظلمة .

كان هؤلاء العلماء فى بحثهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن هنالك مادة إن اهتدوا إليها يسُرت لهم غرضهم على أهون سبيل ؛ إذ أن مقداراً قليلا منها يوضع فوق معدن من المعادن الخسيسة يكفى لإزالة ما به من شوائب ولتحويله إلى ذهب صاف ؛ وهذه المادة التى كانوا يحلمون بها ليلا ونهاراً ويعتقدون فيها اعتقاداً جازماً لا يتحول ، هى التى أسموها بحجر الفيلسوف .

ثم مضت الأيام والقرون ، والعلماء فى هذا البحث المضنى الذى يلوح لهم كالسراب يكون بعيداً كلما ظنوا أنهم على قيد خطوات منه . ولعلهم فى هذا البحث المضنى قد غابت عنهم أشياء واتجاهات ، كان يمكن أن يصلوا إليها فكان فى ذلك تأخر العلم ، بالرغم من التقدم فى مجالات أخرى من مجالات الحياة .

ثم برزت العصور الحديثة بمعالمها المعروفة فى السياسة ، والنهضة الأدبية ، والنظرة الفاحصة الناقدة التى أدت إلى إعادة تنظيم قيم الحياة . وجاء على أثر هذه النهضة نهضة أخرى اتجهت إلى الصناعة ، والبحث العملى المفيد . وأخذت الكشوف العملية تظهر تترى . وشغل العلماء عن الاهتمام بالذهب، فقد وجدوا أن نيل الذهب باختراع أو كشف عملى مفيد أسهل من أن ينال بالبوتقة والمنفاخ .

ثم كانت النهضة الحديثة فى علمى الطبيعة والكيمياء ، وعاد البحث عن العناصر التى تتألف منها المادة . وكان هذا البحث يسير حثيثاً فى ضوء الكشوف العلمية الجديدة ، والآلات التى ابتدعتها أذهان المخترعين . وصارت التجربة و إعادة التجربة وتحقيقها مرات هى الأساس الذى يبنى عليه الاستنتاج العلمى الصحيح . وكل خطوة جديدة تؤدى إلى خطوة أخرى فى سبيل الوقوف على أسرار الطبيعة التى نعيش فيها والتى تقوم من حولنا .

٢

اتجه العلماء المحدثون فى شأن تكوين المادة اتجاهاً جديداً قائماً على البحث والاستنتاج، وهو أن هنالك عناصر أصلية من المادة تتألف منها أنواع أخرى نتيجة للتركيب الكيميائى أو للامتزاج. وهذه العناصر الأساسية لا علاقة لبعضها ببعض؛ فالنحاس عنصر، والذهب عنصر، والكربون عنصر، والراديوم عنصر، كل له مميزاته وخواصه. وتبلغ هذه العناصر نحو التسعين عنصراً؛ هذا هو الرأى الذى كان سائداً فى القرن التاسع عشر.

وأدت بعض الاستنتاجات إلى القول بأن هذه العناصر متجمدة كانت أو سائله أو غازية، تتألف من دقيقات أطلق عليها اسم الذرة. فالذرة هى أساس العناصر. ولم يكن من المستطاع معرفة كنه هذه الذرة، بل هى مجرد استنتاج نشأ عن التجارب الواسعة التى أجريت فى العناصر وعن الوقوف على الكثير من أسرار الكيمياء الحديثة.

ودخلت هذه المسألة فى طور آخر عندما حاول العلماء بالتجربة معرفة حقيقة هذه الذرة الفرضية. وأدت تجارب فى غاية من الدقة إلى رؤية الذرة على الأقل فى حركتها. وكان ذلك إثباتا عظيما لما ظل حتى أواخر القرن الماضى مجرد فرض من الفروض.

لا نريد بهذا القول التبسط فى شرح البحوث العلمية الدقيقة التى أدت الى ذلك، ففى الكتب العلمية الأوربية الكثيرة وفى بعض الكتب العربية والبحوث التى نشرت، غنى لمن يريد الاطلاع على ذلك، وكان لديه الصبر على بحث هذه المسائل العلمية. ولكن كل ما نريد أن نشير إليه ثبوت تكوّن هذه الذرة من وحدات كهربائية. ومعنى ذلك أنه لو أمكن انفلاق هذه الذرة لأخرجت لنا قوة، أو كما اصطلح العلماء طاقة، يمكن الاستفادة بها فى ماذا؟ ذلك ما لم يفكر فيه العلماء الباحثون فى مبدأ الأمر.

فعندما تمكن روترفورد العالم الانجليزى فى سنة ١٩١٩ من تحطيم الذرة بعد أن ابتدع جهازاً كان غاية فى الدقة، لم يكن يبغى إلا زيادة الوقوف على تركيب المادة. ولا ريب فى أن تجربته أثبتت تماماً ما كان يحلم به

القدماء من تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب . فقد أثبت أن كل العناصر فى أساسها هى نوع واحد ، وأنه بانفلاق ذراتها قد تتحول من عنصر إلى عنصر . ولكن بريق الذهب فى العصر الحاضر لم يكن ليخاب العقول . فالعلماء اليوم يرمون إلى أغراض أخرى غير ما كان يرمى إليه القدماء . ولذلك تجدهم لا يحاولون إخفاء ما وفقوا له بل هم يعمدون فى الحال إلى إذاعته لكى يعمل العلماء الآخرون على التقدم خطوة أخرى .

وهكذا أكب العلماء فى سائر الامم على متابعة بحوث روترفورد واستجلاء كنه الذرة .

وكانت مدام كورى وزوجها جوليو ومساعدوها ممن اتجهوا إلى هذه البحوث ملتفتين بنوع خاص إلى العناصر ذات الإشعاع . فقد كان لها ولأمها من قبل بحوث كبيرة فى الراديوم الذى وجد فى إشعاعه نفع للإنسانية فى معالجة مرض من أخبث الأمراض الفتاكة بالانسان ، وهو مرض السرطان . وكانت تؤمل أن البحوث الجديدة ربما أدت إلى علاج أشد نفعاً وتأثيراً . وكان من نتيجة بحوثها أنه يمكن تحويل بعض العناصر غير المشعة إلى عناصر ذات إشعاع .

وكان بوهر العالم الدانمركى يسعى فى تحقيق هذه البحوث ويساعده فريتش .

وفى ألمانيا كان العالم أوتو ياهن يعمل فى بحوث الذرة ، ووفق لنتائج عظيمة ، يساعده شترازمان والآنسة مايتنر .

وفى أمريكا طائفة أخرى تعمل .

كل هؤلاء يعملون لفتح آفاق جديدة فى العلم ؛ فهم أولاً غزاة أرض جديدة ، ويحدوهم الأمل ثانياً فى أن تؤدى بحوثهم إلى خير الانسانية .

ولكن الزمن كانت تدور دورته ، والعالم — ويا للأسف — لا يطمع فى البحوث العلمية بل هو يطمع فيما يمسه من قريب من أمور اقتصادية وسياسية .

٣

كانت ألمانيا المترنحة من هزيمة الحرب العالمية الأولى تحاول أن تشق طريقاً جديداً فى الحياة ، وأن تصل إلى مركز معترف به بعض الشئ ، ولكنها وجدت من يعدها ، لا بمجرد أن تشغل مركزاً معترفاً به بعض الشئ ، بل بأن تصير ذات مكان رفيع بين الأمم . ووثقت ألمانيا فى ضيقها بهذا الوعد ، فاذا هى فى ثقتها تصبح بين الأمس واليوم ذات مركز عال فى الحياة الأوربية ؛ فزادت ثقتها فى نفسها وفى زعيمها . وأخذت ألمانيا الطموح التى شبت الحرب العالمية الأولى تسير فى ركاب الرجل الذى أخذ يرفعها من كبوتها ، وتحولت ألمانيا فى اقتصادياتها تحولا كبيراً ، فاختفت العطلة ووجد أبناؤها العمل ، وتيسرت لهم الحياة ، فأخذوا يفكرون فى أنهم جديرون بأن يسيطروا على أوربا ثم على العالم .

كان كاهن الوحى يعد الوعود فتصدق ، فتزداد ثقة الشعب به و بجماعته ولكنه كان يتجه اتجاهاً خطيراً فيما يتعلق بما ألفه الناس من حرية الحياة ، وما ألفه بوجه خاص الأدباء والعلماء من هذه الحرية ، وأراد أن يسخر كل شئ لخدمة الدولة وللوصول إلى غرضه الذى كان حلمه العظيم .

وجد هتلر معاونة من جميع عناصر الأمة الألمانية تقريباً ما عدا شرذمة قليلة من العلماء والأدباء . وكلما زادت قبضته شدة فى توجيه شعبه إلى الغرض الذى يرمى إليه ، زاد عناد هؤلاء العلماء والأدباء . وكان يعلم تمام العلم قيمة ما قد يسدونه إذا خدموا أغراضه .

وانتهى الأمر إلى أن فر من العلماء فريق . وبقى له فريق وكان من بين الذين فروا الآنسة مايتنر التى اشتهرت ببحوثها فى الذرة .

وتمكن هتلر من البلوغ بقوة ألمانيا إلى درجة عظيمة ، حتى لم تعد ألمانيا ، بعد خمس وعشرين سنة من هزيمتها ، الدولة التى تحاول أن تتخلص من آثار الهزيمة ، بل صارت بلا شك أقوى دولة فى العالم ، تستطيع أن تتحدى أية دولة أخرى ، وتستطيع أن تتغلب على أية دولة أخرى ، وربما ظن أنها تستطيع أن تتغلب على الدول متألبة عليها جميعاً .

واشتعلت شرارة الحرب ، وكان الزعيم الألمانى يعلم تمام العلم ما هو قادم عليه . وقد أعلن أكثر من مرة أن النصر حليف لمن يوفق لكشوف علمية هى بلا شك كشوف تدمير وخراب .

وما اشتعلت هذه الحرب حتى تبين للناس أنها ليست كالحروب الأخرى. فلقد وقفت الدول بعضها تجاه بعض نحو سبعة أشهر ، ألمانيا فى جانب وفرنسا وانجلترا فى جانب آخر لا يفعلون شيئاً . ثم ما أهل ربيع سنة ١٩٤٠ حتى هجم الألمان هجوماً عاصفاً ، فاذا هم يحتلون كل سواحل أوربا من شمال النرويج إلى جنوب فرنسا ، وإذا فرنسا جاثية تطلب التسليم ؛ كل ذلك كان بفعل التقدم العظيم الذى بدا فى الطيارات الألمانية والقنابل الألمانية .

وجاء دور تلك الجزر الصغيرة التى تبدو كنقط حقيرة تشوب خريطة المحيط ، حتى لكأن المحيط قادر على أن يمحوها فى لحظة من اللحظات .

لقد هاجم هتلر الجزر البريطانية بكل ما أوتى من قوة ؛ ولكنه لظروف تبدو خارقة لطبيعة الأمور ، لم يستطع إخضاع هذه الجزر . والواقع أنه هاجم الجزيرة بنفس الوسائل التى هاجم بها فرنسا . وكان الانجليز قد اتخذوا العدة لذلك ، وهى عدة لا تقوَّم بقيمتها المادية وإنما بقيمتها الأدبية . فلقد عرفوا طريقته ، ولقد نجحوا فى أن ينيروا عطف الأمريكيين ، وأن يثيروا فى الوقت نفسه مخاوفهم ؛ ففعلت أمريكا كل ما تقدر عليه من مساعدة إلا خوض غمار الحرب .

ولو أن هتلر كان وقتئذ قد وفق لتلك الطائرات العجيبة التى عرفت فيما بعد باسم القنابل الطائرة وفاجأ البريطانيين بها ، أما كانت تتغير الأمور؟

سارت الحرب فى طريقها . والحرب إذا ما ابتدأت كانت كالأقدار لا يمكن التغلب عليها ، بل هى تسير كما ترغب ، وتسيطر على المتحاربين .

٤

اتسعت الرقعة أمام هتلر ، وفتح لنفسه أو فتحت له الأقدار ميداناً جديداً وتألب عليه الخصوم . فهو إذا سيطر على أوربا ودانت له بلادها جميعاً ، فهو مازال نقاتل بريطانيا فى الغرب ، ويقاتل روسيا فى الشرق ومن ورائهما الولايات المتحدة تعمل ، وتعمل جاهدة ، على إمدادهما بالسلاح والعتاد بأقصى ما تستطيع .

كان هتلر يكرر دائماً أن كسب الحرب سيكون لمن يذهب إلى أقصى حد فى استعمال نتاج العقول . وكان الألمان يبتدعون سلاحاً بعد سلاح . ومن أخطر ما ابتدعوه تلك الألغام المغنطيسية التى كانت تنجذب إلى السفن فتهبط بها إلى قاع المحيط .

كان خطر هذا السلاح كبيراً جدا ؛ لأن بريطانيا تعتمد فى طعامها وعتادها على ما يأتيها من طريق البحر . وكان هذا السلاح ، مضافاً إلى الغواصات التى انتشرت فى المحيطات كالأسماك ، من أخطر ما واجهته بريطانيا فى حربها . وكانت المسألة سباقاً بين إغراق هتلر للسفن ، وصنع الولايات المتحدة لسفن تعوض ما غرق منها ؛ وهذه هى الحرب البحرية الفظيعة التى كنا نقرأ عنها ولا نتصور خطرها على حقيقته ، والتى أخذ الستار يرتفع عن أسرارها .

وظلت الحرب سائرة فى غير هوادة ، وللألمان فى كل يوم مخترع جديد ، وللحلفاء مخترعات كانت كبيرة التأثير أيضاً فى سير الحرب ، وطال النضال بين الأمم المتقاتلة فوق ما كان ينتظر ، وكأن الحرب تحولت إلى حرب عقول ، حرب قائمة بين مخترعات الفريقين .

وفى الشهر الأخير من سنة ١٩٤١ انضم إلى ألمانيا حليف ذو خطر عظيم هو دولة اليابان التى استطاعت أن تشل الأسطول الأمريكى ، وفى بضعة أشهر سيطرت على محيطات آسيا ، وطردت الأمريكيين والبريطانيين من أقدم المعاقل لهم فى شرق آسيا ، وكسبت المواقع موقعة بعد موقعة فى بحار المحيط الهادى العظيم وظهر لوقت ما كأن جانب الألمان قد كتب له النصر بفضل الحليف الجديد .

ولكن لأمر ما كان هذا الجانب لا يسير إلى النصر . وإذا نظرنا إلى المخترعات التى أظهرتها ألمانيا فى هذه الحرب فان الانسان ليدهش لكثرتها وعظمتها ، ولكن لأمر ما — ولعله يد القدر — ، كانت هذه المخترعات تأتى متأخرة بعض الشئ . ولأمر ما — ولعله يد القدر — لم تسر ألمانيا شوطاً طويلا فى احتمالات تحطيم الذرة .

قيل إن هنالك بحوثا كانت تجرى فى جزيرة من جزر البلطيق . وقيل إن هذه البحوث كان الغرض منها اختراع يعتمد على تحطيم الذرة . وقيل إن السر عرف فذهبت الطائرات الأمريكية والانجليزية فحطمت المصانع حتى لم يبق لها من أثر . ولكن الواقع أننا لم نسمع عن هذا الموضوع فى أثناء الحرب كثيراً . ولعل الفريق الأمريكى والبريطانى كان يعمل لتوجيه الأنظار بعيداً عن هذا الضرب من البحوث .

وانتهت الحرب فى أوربا بانهيار إيطاليا ، وتراجع ألمانيا إلى أن تركت جميع البلاد التى احتلتها . وأطبق عليها العدو — الروس من الشرق والانجليز والأمريكان من الغرب — إلى أن احتلوا بلادها وأراضيها . وزالت دولتها عندما تم الاستيلاء على عاصمتها برلين فى آخر أبريل سنة ١٩٤٥ .

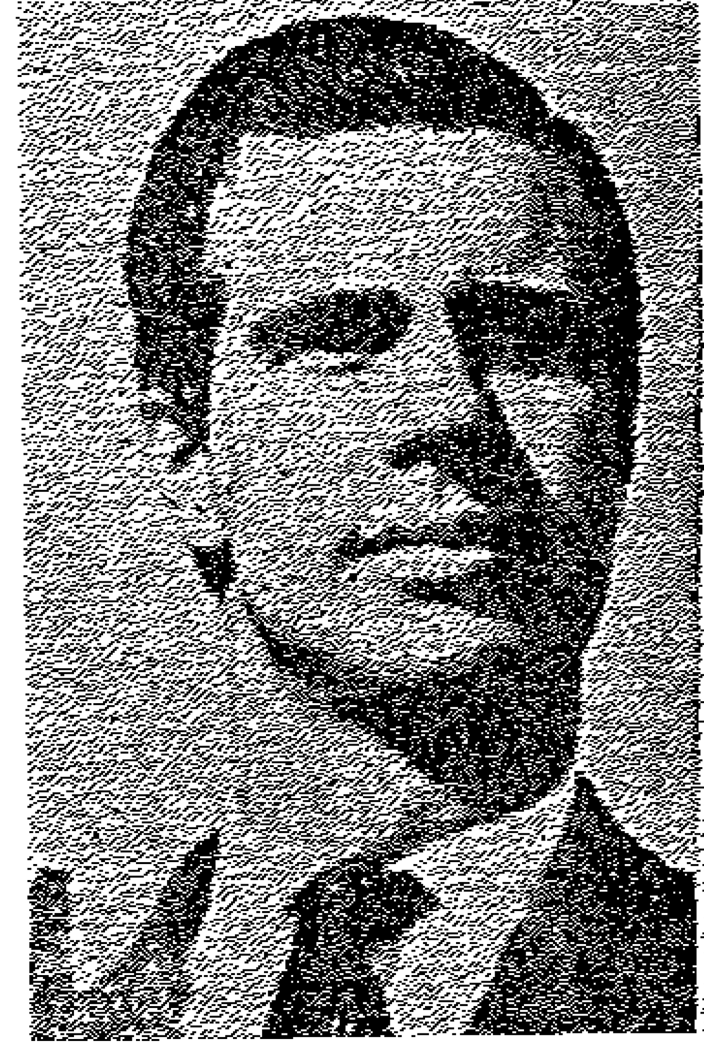
وظلت أمام المنتصرين حرب أخرى قدر لها أن ستنتهى فى مدى سنتين ؛ إذ لم يكن من المستطاع أن تنهض اليابان بعبء الحرب وحدها ، ولابد أن تنتهى معركتها بالهزيمة أمام القوى المجتمعة . ولكن مع ذلك كان ينتظر ألا تسلم سريعاً ، وكان ينتظر أن تسبب للمنتصرين متاعب أخرى . وفى هاتين السنتين من يعلم ؟ فقد يمل المنتصرون الحرب حتى ليطلبوا إلى اليابان صلحاً يكون غير شديد الوطأة ، أو قد يقع شقاق بين المنتصرين !

تلك كانت الظروف عندما اجتمع المنتصرون فى مؤتمر بوتسدام الذى عقدوه فى يوليه سنة ١٩٤٥ وأرسلوا لليابان إنذاراً نهائيا يدعونها فيه إلى التسليم . وكان من الطبيعى أن ترفض اليابان هذا الانذار .

وبعد يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ روع العالم بنبأ خطير ، هو أن قنبلة ألقيت على مدينة هيروشيما من نوع جديد لم يسبق استعماله فى حرب من الحروب ، ولم يسبق استعمال قوته قط فى العالم قبل هذه القنبلة . وكان ذلك بدء عصر الطاقة الذرية .

لسنا نريد أن نعرض لما حدث ، فتفصيله فيما سوف نقرأ من مشاهدات جون هرسي وتحقيقاته . وكل ما نقوله الآن إن قنبلة ثانية ألقيت بعد أربعة أيام على نجازاكى ، فأعلنت اليابان فى ١١ أغسطس التسليم من غير قيد ولا شرط حفظاً لبلادها من الكوارث .

٥



عم العالم شعور الارتياح بانتهاء حرب طالت واستمرت ست سنوات ، فشملت العالم بأكمله وشعر بتأثيرها حتى سكان الغابات . ولكن انتهاءها على هذه الصورة ، وانتهاءها على أثر كشف قوة تدميرية هائلة ، قد ترك فى نفوس الناس شعوراً بالقلق . وتساءل الناس : أيكون مصير الانسانية أن تهلك نفسها بنفسها ؟ وتساءلوا فيما يحتمل أن يسفر عنه إطلاق هذه القوة على العالم .وتساءلوا : أليس الأفضل عدم الاهتداء إلى هذه القوة وإن طالت الحرب؟ والالتجاء إلى هذه القوة فى سبيل إنهاء الحرب أهو من أعمال الخير أم هو شر مستطير ؟ كل هذه الأمور دارت فى رءوس الناس وفى رءوس الذين استفادوا من هذه القوة قبل غيرهم . وكما أن ضمير الفرد يؤنب الفرد أحياناً ، كذلك صار ضمير الأمة التى استعملت آلة الهلاك يؤنبها على استعمالها ، ولا سيما أن الأنباء تضاربت وتضخمت فى شأن ما فعلته هذه القنبلة بالأهالى فى اليابان . فرأت احدى كبريات الصحف الأمريكية ، وهى جريدة « نيويوركر » ، أن ترسل صحفياً أديباً معروفاً اسمه جون هرسى ، إلى بلاد الشرق الأقصى ليقف على ما حدث حقيقة فى هيروشيما : ليقابل الأحياء من الذين نجوا من هذه الكارثة ، وليحاول وصف ما رأوه وما شعروا به وما فكروا فيه ، وما كان له من وقع فى نفوسهم ، إذ رأوا تدمير مدينتهم ودورهم وحياتهم وأصدقائهم وآمالهم ، وكل ما يتعلق بما سببته القنبلة من آلام للبشرية . وظل

هرسي يجوب أنحاء المدينة ، يجمع المعلومات دون أن يلتجىء لمساعدة السلطات الأمريكية المحتلة . وكان شهوده أناساً عاشوا قبل القنبلة وبعدها ، وهم أشخاص معروفون لا أشخاص خلقهم الخيال . وقد روى قصتهم . فى عبارات مقاربة لعباراتهم بقدر الامكان . ونشر جون هرسي قصته فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٦ ، وأخرجتها جريدة « النيويوركر » فى عدد من أعدادها ، واستغنت فى سبيل نشرها عن كل ما عداها من أنباء وحوادث وفكاهات وغيرها من أبواب الجريدة ؛ فكان للقصة تأثير عظيم فى عالم الصحافة الأمريكية وبيعت جميع نسخ الجريدة فى ساعات . واستأذنت جرائد كبرى فى نيويورك وغير نيويورك فى إعادة نشر القصة مرة أخرى ، وقد نشرتها على أجزاء ، وقد بلغ عدد هذه الجرائد الأمريكية خمسين جريدة . ودفعت فى سبيل ذلك مبالغ طائلة أرسل جون هرسي قسطه منها إلى الصليب الأحمر الأمريكى ، وما لبثت هذه القصة الواقعية أن نشرت فى كتاب .

وجون هرسي كاتب هذا التحقيق هو رجل فى العقد الرابع من عمره ولد فى تينتش من مدن الصين فى ١٧ يونيه سنة ١٩١٤ وكان والده يعمل فى جمعية الشبان المسيحية فى توزيع الاعانات التى أرسلت لمن حل بهم القحط وأصابتهم المجاعة . وقد عاد إلى الولايات المتحدة فى العاشرة من عمره حيث تلقى علومه والتحق بجامعة ييل ، وتخرج فيها سنة ١٩٣٦ ثم أرسل لقضاء سنة فى بعثة علمية بكامبردج . وعمل بعض الوقت سكرتيراً للكاتب الأمريكى العظيم سنكلر لويس . ثم التحق بجريدة «تايم» الأمريكية . ونشر كتابين عدا من أحسن كتب الحرب ، وفيهما وصف تجاربه فى المحيط الهادى وإيطاليا وروسيا . وفى سنة ١٩٤٤ نشر قصته « ناقوس لأدنو » فنالت جائزة من جوائز القصة المعروفة ، واشتهر اسمه بها . وهو رجل لا يزال فى شرخ الشباب ، نشيط ، جاد فى عمله ، ينتظر له مستقبل باهر ؛ إذ أثبت بهذا الكتاب أنه إلى جانب نشاطه الصحفى أديب كبير .

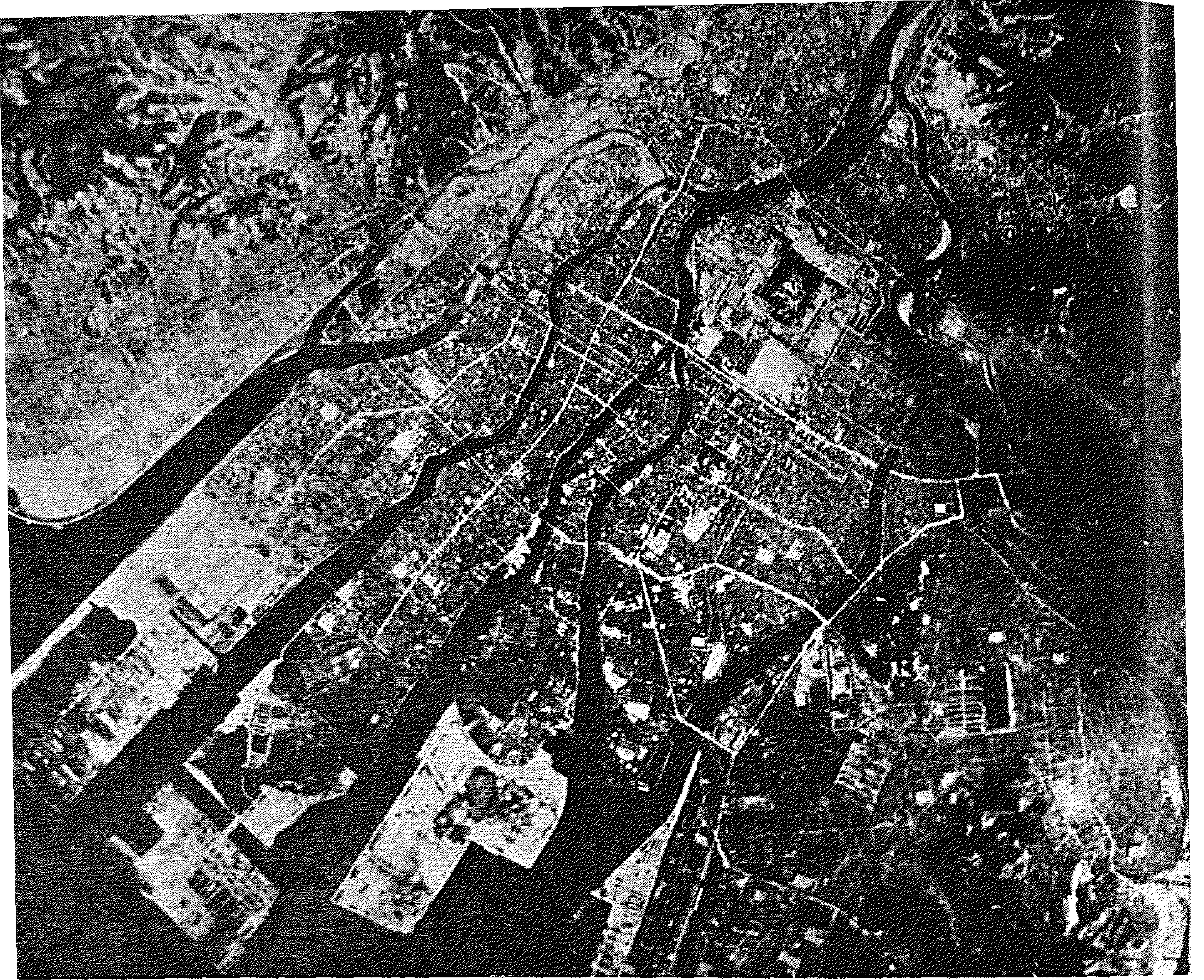
هذا هو واضع الكتاب الذى ننشره اليوم .

حسن محمود

هيروشيما

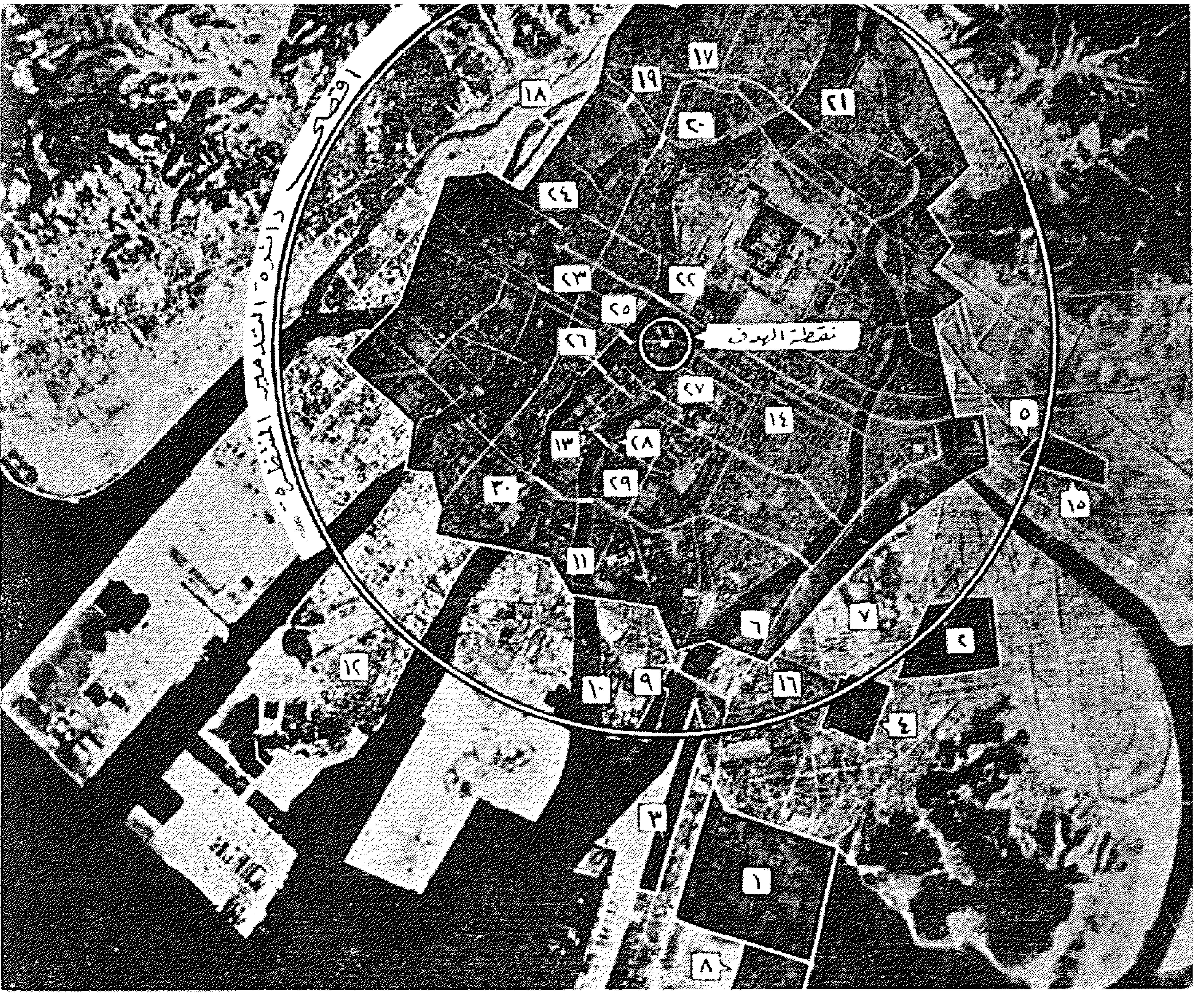
قدمت جريدة «نيو يوركر» مقـال جون هرسى عن هيروشيما
فى عدد ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٦ بما يأتى :

تشغل جريدة « نيو يوركر » فى هذا الأسبوع عددها بأكله بمقال عن محو كامل لمدينة من المدن بقنبلة ذرية واحدة ، وما جرى لأهل تلك المدينة . وهى تعتقد أن القليل من الناس قدروا ما لهذا السلاح من قوة تدميرية لا يكاد يتصورها العقل . وتريد أن يتاح الوقت لكل فرد كى يفكر فيما ينطوى عليه استعمال هذا السلاح من فظاعة .



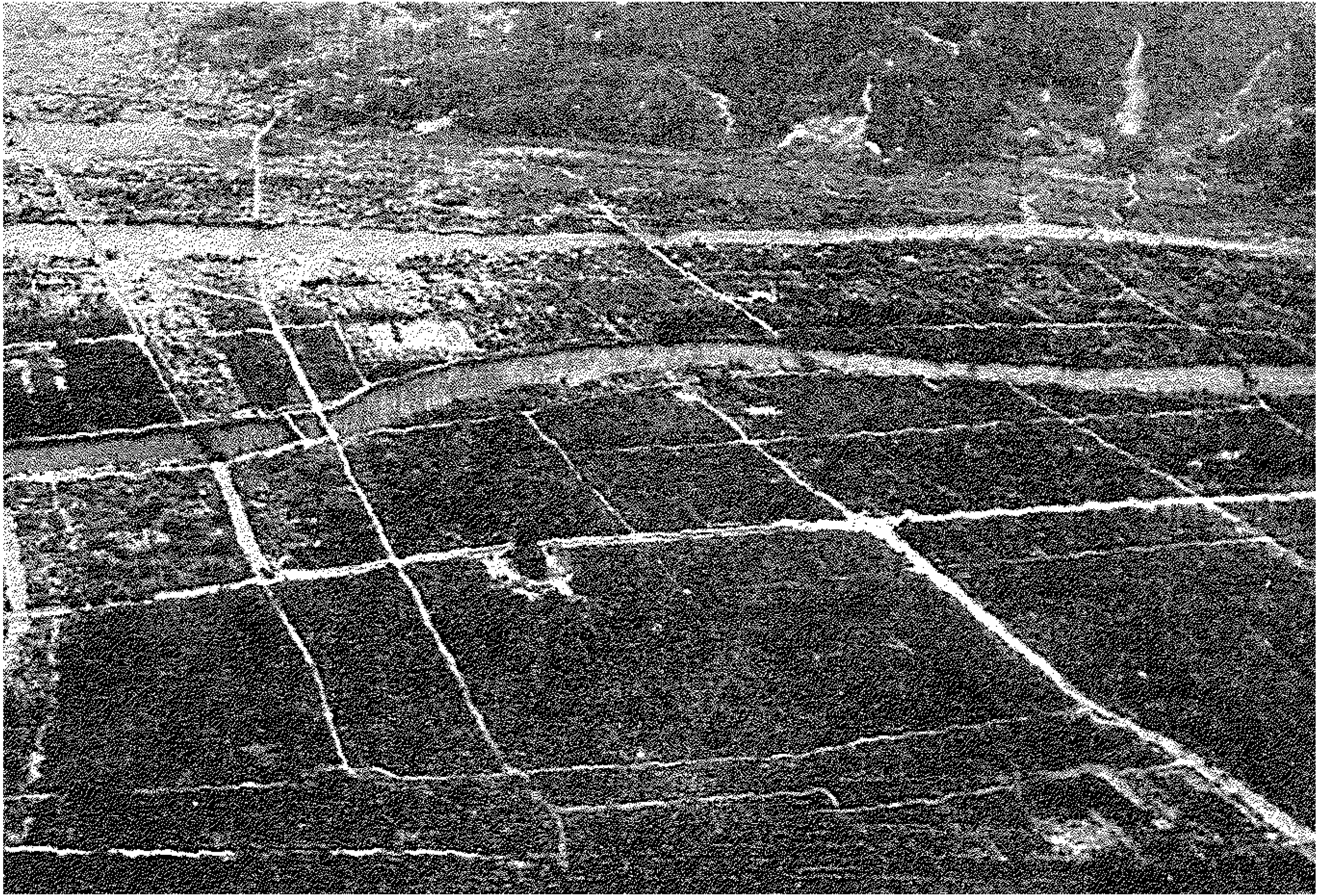
مدينة هيروشيما اليابانية ، هدف القنبلة الذرية الأولى

صورت من الجو أثناء بعثة استطلاعية . تقع مدينة هيروشيما وبها مصانع الجيش ومخازنه وميناء لإنزا العتاد ، فى الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة هونشو اليابانية . كانت هذه المدينة الآهلة بالسكان أول هدف حر يابانى شعر بوطأة القنبلة الذرية الجديدة وقوتها ، بعد أن رفض الزعماء اليابانيون الانذار النهائى الذى أبا الحلفاء لهم على أثر اجتماع بوتسدام . وقد حاول الحلفاء أن يجنبوا الشعب اليابانى هذا الدمار ، فأبلغوا الحكو اليابانية إنذارهم النهائى قبل أن يطلقوا قوة القنبلة الذرية المدمرة على هذا المركز الحربى . وهذه القنبلة الجد هى ثمرة الابحاث العلمية لدى الحلفاء ، وهى أقوى من ٢٠٠٠٠ طن من ت ن . ت (أشد أنو المفرقعات) وقوة ضغطها أقوى ٢٠٠٠ مرة من أكبر قنبلة صنعت فى العالم وهى القنبلة البريطانية التى بلغ زنة ٢٢٠٠٠ باوند . وقد قال مستر هارى ترومان رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى بيانه الرسمى عند ما أع استعمال هذه القنبلة فى هيروشيما : « إن هذه القنبلة تصنع الآن فى شكلها الحاضر وقد أخذ فى صنع أنو أشد فتكا . »



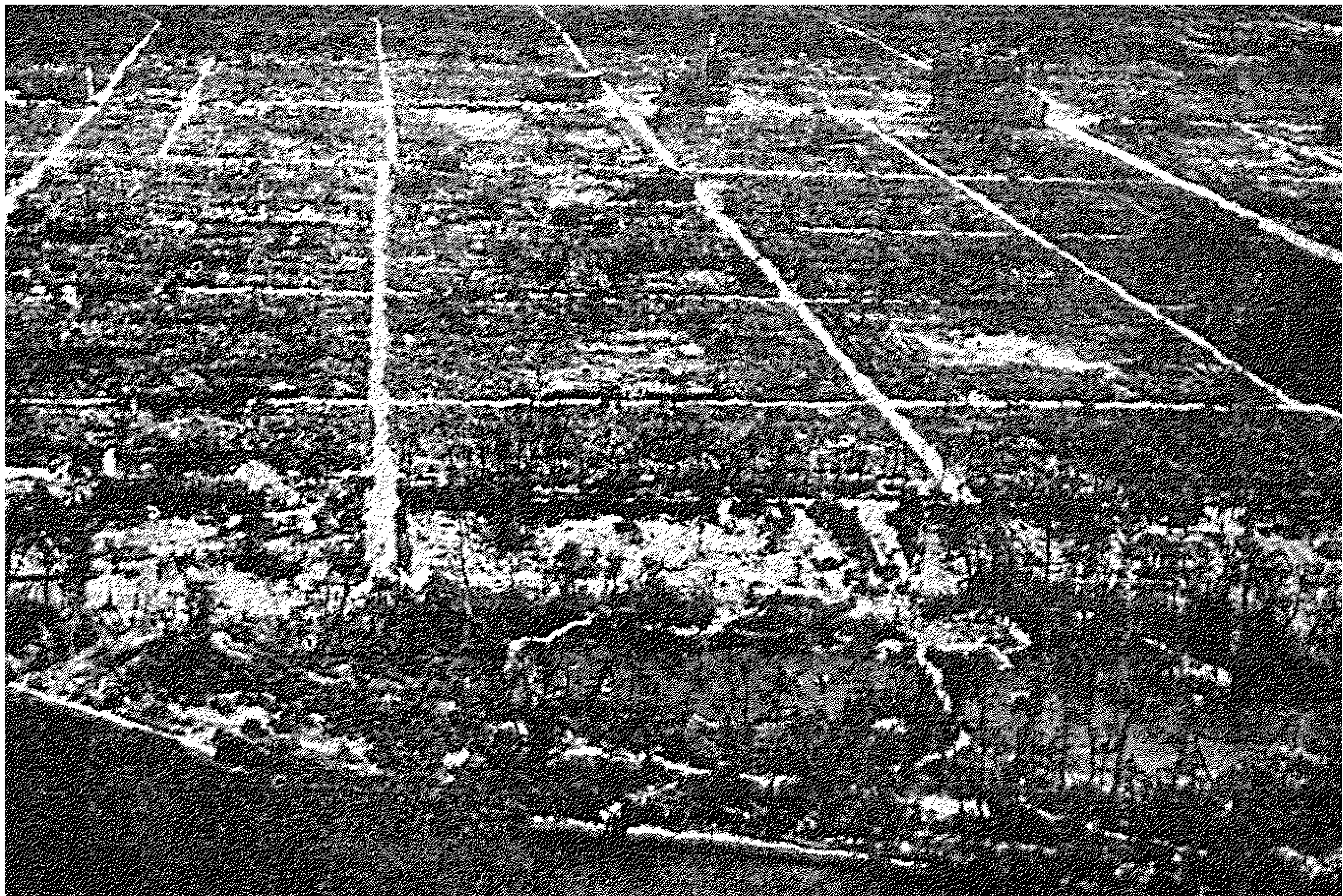
هذه الصورة التخطيطية التى عملت على أساس رسم بيانى للقوات الجوية للولايات المتحدة فى ٩ أغسطس ١٩٤٥ تظهر مساحات هيروشيما التى أصيبت بالقنبلة الذرية الأولى حين ألقيت فى ٥ أغسطس ١٩٤٥ من إحدى القلاع الطائرة الأمريكية من طراز ب-٢٩ . ويبلغ قطر الدائرة الكبرى فى هذا الرسم ١٩٠٠٠ قدم (٥٧٠٠ متر) والمساحات المظللة تدل على الأقسام المدمرة حسب المعلومات المستقاة من تقارير الاستطلاع الجوية وتدل الأرقام فى الصورة على ما يأتى :

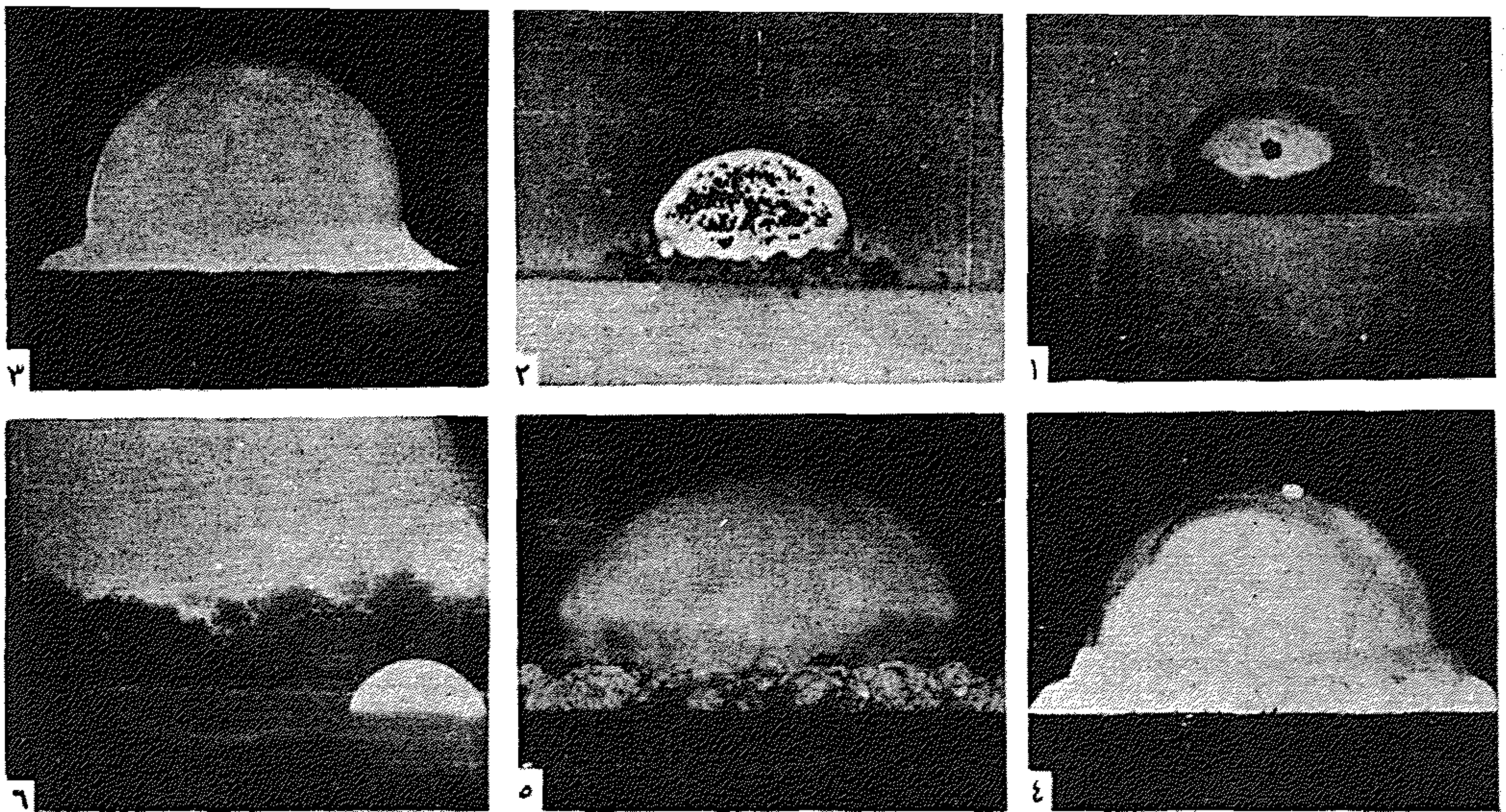
١ — قاعدة نقل للجيش ٢٥ ٪
٢ — مخزن مصانع الجيش
٣ — مخزن أطعمة للجيش ٣٥ /
٤ — مخزن ملابس للجيش ٨٥ ٪
٥ — المحطة الشرقية للسكك الحديدية ٣٠ ٪
٦ — مصنع لم يعرف عمله ٩٠ ٪
٧ — مصنع سوميتومو للريون ٢٥ /
٨ — طاحونة كمكوا للريون ١٠ /
٩ — طاحونة تيكوكو للنسيج ١٠٠ ٪
١٠ — محطة التوليد القوى
١١ — مخزن للبترول اشتعلت فيه النيران
١٢ — محطة التوليد الكهرباء للسكك الحديدية ١٠٠ ٪
١٣ — مولد كهربائى ١٠٠ ٪
١٤ — شركة التليفون ١٠٠ /
١٥ — مصانع القار ١٠٠ ٪
١٦ — محطة سكك حديد هيروشيما ١٠٠ ٪
١٧ — محطة سكك حديد لم تعرف ١٠٠ ٪
١٨ — جسر قائم ملىء بالأنقاص
١٩ — جسر (كوبرى) دفعت رصيفه
٢٠ — جسر كبير قائم وقد تحطم
٢١ — جسر به ثقب كبير فى الجانب الغربى
٢٢ — جسر قائم وقد تقوس على جوانبه
٢٣ — جسر قائم وقد غطته الأنقاض
٢٤ — جسران قائمان
٢٥ — جسر دمر
٢٦ — جسر أصيب إصابات شديدة
٢٧ — جسر دمر
٢٨ — جسر محطم ولا يمكن استعماله
٢٩ — جسر قائم وفيه إصابات قليلة
٣٠ — جسر قائم وفيه إصابات شديدة



هيروشيما بعد إصابتها بالقنبلة الذرية الأولى

منظران جويان لمدينة هيروشيما . يظهر الخراب الشامل الذى سببته القنبلة وهى أول قنبلة ذرية استعملت فى حرب من الحروب . وقد خربت هذه القنبلة الواحدة ٦٠ ٪ من المدينة اليابانية . وألقيت قنبلة ثانية بعد أربعة أيام على ميناء ناجازاكى اليابانى فخربت ٣٠ ٪ من المساحات الصناعية الواسعة فى المدينة .





انفجار القنبلة الذريه مسجل بآلة تصوير تابعه لجيش الولايات المتحده

أحدث هده السلسلة من الصور من بعد ٨ أميال (٨ر١٢ كيلومترا) وهى تظهر انفجار القنبلة الذرية. وصورت بآلة تصوير سينمائية من آلات تصوير جيش الولايات المتحدة عندما جرب السلاح الجديد لدول الحلفاء فى ولاية نيومكسيكو من ولايات الجنوب الغربى للولايات المتحدة فى ١٦ يوليه ١٩٤٥. وكان الشعور بالانفجار فى نصف قطر دائرة مقدارها ٢٥٠ ميلا (٤٠٠ كيلومتر). (والدائرة الموجودة فى الجزء الأسفل إلى اليمين من الصورة رقم ٦ لا علاقة لها بالانفجار ولكن يعتقد أنها انعكاس له داخل عدسة الآلة المصورة.)

القنبلة الذرية الواحدة =

TNT TNT TNT TNT TNT TNT TNT
TNT TNT TNT TNT TNT TNT TNT
TNT TNT TNT TNT TNT TNT

يمثل كل رمز ١٠٠٠ طن

القنبلة الذرية الواحدة =

يمثل كل رمز حمولة ١٠٠ طيارة من طيارات ب ٢٩

ضغط الهواء للقنبلة الذريه الجديدة

١

بريق بلا صوت

في صباح اليوم السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وفى الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة تماماً بالوقت اليابانى ، وفى اللحظة التى لاح فيها بريق القنبلة الذرية فوق هيروشيما ، كانت الآنسة توشيكو سازاكى ، وهى كاتبة بادارة مستخدمى مصانع الصفيح لآسيا الشرقية ، قد جلست على مقعدها فى إدارة المصنع والتفتت برأسها ، تتحدث إلى الفتاة التى تجاورها . وفى هذه اللحظة كان الدكتور ماساكازو فوجيى قد تربع فى رواق مستشفاه الخاص ، ليقرأ جريدة أساهى التى تظهر فى بلدة أوزاكا ، وكان هذا المستشفى يطل على أحد الأنهار السبعة التى تتفرع من نهر كبير على مقربة من مصبه وتقسم مدينة هيروشيما . ووقفت السيدة هاتسويو نكامورا وهى أرملة ترزى أمام نافذة مطبخها ترقب جاراً يهدم داره لأنها تعترض طريق حارة افتتحت للوقاية من حريق الغارات الجوية . وكان الأب فيلهلم كلاينسورج ، وهو قس يسوعى ألمانى ، قد اتكأ وهو بملابسه الداخلية على سرير صغير فى الدور الأعلى من منزل البعثة الكاثوليكية الذى يتألف من ثلاث طبقات وهو يقرأ مجلة يسوعية اسمها « أنباء الزمن » . وكان الدكتور تيروفومى سازاكى أحد الجراحين الشبان فى مستشفى الصليب الأحمر بالمدينة ، وهو بناء حديث واسع الأرجاء ، يسير فى طرقات المستشفى ، وفى يده نموذج من دماء مريض ليختبره بمختبر فاسرمان . وكان القس كيوشى تانيموتو ، وهو راعى الكنيسة المثيودية بهيروشيما ، واقفاً على باب رجل ثرى بحى كوى ، وهو الحى الغربى من المدينة ، وقد تهيأ لينزل

متاعاً من عربة يد بعد أن نقله من المدينة خوفاً من وقوع غارة بطائرات ب ٢٩ الضخمة ، وكان جميع أهل هيروشيما يتوقعون مثل هذه الغارة . ولقد قتل بالقنبلة الذرية مائة ألف من السكان ، وكان هؤلاء الستة بين الذين نجوا منها وهم لا يزالون فى دهشة لبقائهم أحياء ، بعد أن مات هذا العدد العظيم . وكل واحد منهم يبدى أسباباً صغيرة أتاها مصادفة أو عن قصد — خطوة فى الوقت الملائم أو فراراً بالدخول إلى البيت أو ركوب مركبة بدل الأخرى — وهى التى أدت إلى نجاته . وكل واحد منهم يعلم أنه بنجاته قد عاش حياته أكثر من عشر مرات ، وأنه رأى من الموت أكثر مما كان ينتظر أن يراه ، ولكنهم فى وقت هذا الحادث لم يكونوا يعرفون شيئاً .

قام مستر تانيموتو القس من نومه فى الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم . وكان وحده فى دار الكنيسة ؛ لأن زوجته انتقلت للاقامة بضع ليال عند صديقة لها مع طفلهما الذى يبلغ سنة من عمره إلى بلدة أوشيدا وهى ضاحية فى الشمال . ولم يسلم من المدن الهامة باليابان غير مدينتين : كيوتو وهيروشيما من غارات الطائرات الضخمة التى يحبّ أن يسميها اليابانيون ب — سان أو مستر ب فى مزيج من الاحترام والألفة الأسيفة ، وهى الطائرات المعروفة باسم ب — ٢٩ . وكان مستر تانيموتو كجميع جيرانه وأصدقائه يكاد يعتريه المرض بسبب قلقه . فلقد بلغته أنباء مفصلة لا تبعث على الطمأنينة عن الغارات الضخمة على بلاد كورى وابوا كونى وتوكوياما وغيرها من المدن القريبة . وكان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن دور هيروشيما لا يلبث أن يجئ ، ولم يطعم من النوم إلا قليلا فى الليلة السابقة بسبب التحذيرات العديدة من الغارات الجوية . ولقد كانت هيروشيما تتلقى هذه التحذيرات فى كل ليلة تقريباً منذ أسابيع ؛ لأن طائرات ب — ٢٩ اتخذت بحيرة بيوا الواقعة إلى الشمال الشرقى من هيروشيما ملتقى للطائرات . ومهما تكن المدن التى يرغب الأمريكيون فى ضربها بقلاعهم الضخمة فان هذه القلاع كانت تطير فوق الساحل على مقربة من هيروشيما . ولقد صار أهل هذه المدينة بسبب الانذارات الكثيرة ، مع الاستمرار فى الامتناع عن ضربها بطائرات ب — ٢٩ ، مهدمى الأعصاب، وانتشرت الشائعات بينهم بأن الأمريكيين يعدون شيئا خاصاً لهذه المدينة .

ومستر تانيموتو هذا رجل ضئيل الجسم سريع الحديث والضحك والبكاء ، وشعره الأسود طويل شيئاً ما ، وقد مشطه على الجانبين ، وبروز عظام جبهته فوق حاجبيه وصغر شاربيه وفمه وذقنه مما يجعل له منظراً عجيباً هو مزيج من الكهولة والشباب ، وكأنه صبي وإن كان حكيما ، ضعيف ولكنه شديد . وهو يتحرك فى عصبية وسرعة ، ولكنه يقاوم هذا التسرع بما يدل على حيطة وتفكير . وقد أظهر حقا هذه الصفات فى الأيام القلقة التى سبقت سقوط القنبلة . فهو فضلا عن حمله امرأته على المبيت فى أوشيدا قد نقل جميع المتاع الذى يمكن نقله من كنيسته التى تقع فى حى آهل بالسكان ، معروف باسم ناجاراجاوا ، إلى منزل صاحب مصنع لحرير الريون فى كوى التى تبعد نحو ميلين من وسط المدينة ، وكان مستر ماتسوى صاحب هذا المصنع قد فتح داره الواسعة لعدد كبير من الأصدقاء والمعارف كى ينقلوا إليها ما يريدون أن يكون بمنأى عن المساحة التى يحتمل أن تضربها الطائرات . ولم يجد مستر تانيموتو مشقة فى نقل الكراسي وكتب التراتيل ونسخ التوراة وتحف المذبح وسجلات الكنيسة على عربة يد بنفسه ، ولكن نقل مفاتيح الأرغن والبيانو الصغير كانت تتطلب شيئاً من المساعدة ، ولقد ساعده فى اليوم السابق صديق له اسمه ماتسو فى نقل البيانو إلى كوى ، ووعد فى هذا اليوم أن يساعد بدوره مستر ماتسو فى نقل متاع ابنته ، وهذا هو السبب فى أنه استيقظ مبكراً .

أعد مستر تانيمونو طعام الفطور لنفسه وكان يشعر بالتعب الشديد ، فقد أثر فيه مجهود نقل البيانو فى اليوم السابق ، وليلة قضاها بغير نوم ، وقلق أسابيع ، وعدم التوازن فى طعامه ، وهموم أهل كنيسته ؛ فكانت هذه المتاعب مجتمعة مما جعله غير صالح لما كان يقدر عمله فى ذلك اليوم . وكان هناك شئ آخر ؛ فقد درس مستر تانيموتو اللاهوت فى كلية إمورى ببلدة أتلانتا بولاية جورجيا ، وتخرج فى الكلية سنة ١٩٤٠ ، وكان يحسن التكلم بالانجليزية كل الاحسان ، ويرتدى ملابس أمريكية ، ويتصل بالمراسلة بأصدقاء أمريكيين إلى الوقت الذى ابتدأت فيه الحرب . وبين أناس تملكهم الخوف من التجسس — وربما كان هذا الخوف أيضاً قد ملك عليه حواسه — صار مركزه يزداد صعوبة . لقد استجوبه رجال الشرطة مرات عدة ، وسمع قبل ذلك بعدة أيام أن رجلا ذا نفوذ يعرفه اسمه مستر تاناكا وهو ربان سفينة من سفن شركة

تويو كيسن كايشا أحيل على المعاش ، وهو رجل يكره المسيحيين ، واشتهر فى هيروشيما بأنه يحب أن يظهر مظهر المحسن وأنه رجل مستبد ، قال عنه إن مستر تانيموتو يجب ألا يؤتمن . ولقد أراد مستر تانيموتو أن يظهر للناس أنه على العكس يابانى مخلص ، فتولى رياسة جمعية الجيران المحلية المعروفة باسم تونار يجومى . ولهذه الجمعيات نشاط فى نواح عدة ، وذلك مما زاد فى أعماله التى كان من بينها تنظيم الوقاية من الغارات لنحو عشرين أسرة .

قبل الساعة السادسة من الصباح خرج مستر تانيموتو قاصداً دار مستر ماتسو ، فرأى أن الحمل الذى سينقلونه هو « تانسو » أى صندوق يابانى كبير ملئ بالملابس وأمتعة البيت . وسار الرجلان فى طريقهما ، وكانت السماء فى ذلك الصباح صافية والجو حاراً حتى لينذر بيوم عصيب فى حره . وبعد بضع دقائق من سيرهما رنت صفارة الانذار بغارة رنيناً طويلا مما يدل على اقتراب طائرات ، ولكنه يدل أهل هيروشيما على أن الخطر ليس كبيراً ؛ لأن الصفارة كانت ترن فى كل صباح فى نحو ذلك الوقت عندما تمر طائرة أمريكية لمراقبة الجو على هذه المدينة . وظل الرجلان يجران العربة ويدفعانها فى شوارع المدينة . ومدينة هيروشيما تنبسط كالمروحة ، ويقع أكثرها على الجزر الست التى تتألف من الأفرع السبعة المتفرعة من نهر أوتا . وتشمل الأحياء التجارية والغاصة بالسكان منها نحو أربعة أميال مربعة فى وسط المدينة ، وفيها يقيم ثلاثة أرباع السكان . ولقد نقص عدد السكان على أثر عدة نظم وضعت لاخلاء المدينة . فبعد أن بلغ عدد سكانها فى أثناء الحرب ٣٨٠ ألف نزل إلى نحو ٢٤٥ ألف . وكان يحيط بالمدينة ويشغل أطرافها مصانع وضواح مليئة بالسكان . وإلى الجنوب منها تقع الجمارك وميناء جوى وبحر داخلى ملئ بالجزر ، ويقوم على جوانبها الثلاثة الأخرى عدد من الجبال . اخترق تانيموتو ومستر ماتسو الأحياء المليئة بالحوانيت وقد أخذت تغص بالناس ، ثم عبرا نهرين وأخذا يسيران فى شوارع كوى المنحدرة ليصعدا فيها إلى الأطراف والتلال . وعندما كانا يصعدان فى هذا الوادى بعد أن بعدا عن الدور المتجمعة ، أطلقت الصفارة تعلن زوال الخطر . (فلقد رأى حراس الرادار اليابانيين ثلاث طائرات فقط فظنوا أنها جاءت للاستطلاع .) وكان دفع عربة اليد إلى دار صاحب المصانع متعباً . فلما تمكن الرجلان من الدخول إلى ساحة الدار وبلغا إلى الدرج الأمامية وقفا قليلا

الجنود ، كانت تحفر فى التل المواجه ، حفرة من إحدى آلاف الحفر التى يظهر أن اليابانيين كانوا عازمين على مقاومة الغزو بها ، يدافعون من تل إلى تل ويبذلون حياتهم ذماءً بعد ذماء . وكان الجنود خارجين من الحفرة التى كان يجب أن تقيهم شر الطائرات ، ولكن الدماء كانت تسيل من رءوسهم وصدورهم وظهورهم ، وكانوا ساكتين وقد استولى عليهم ذهول .

ولقد أظلت المدينة ما يشبه غمامة محلية من التراب ، فاذا النهار ظلام من فوقه ظلام .

ولقد أعلن مذيع محطة الراديو فى المدينة فى الليلة السابقة لإلقاء القنبلة ، وفى نحو منتصف الليل ، أن نحو مائتين من القلاع الطائرة ب — ٢٩ تقترب من جنوب هونشو ؛ ونصح سكان هيروشيما بأن ينزحوا إلى الأماكن التى اتخذت لوقايتهم . وكانت السيدة هاتسويو نكامورا أرملة الترزى وهى تسكن فى الحى المسمى نبورى — تشو ، والتى اعتادت منذ زمن بعيد أن تؤمر فتطاع ، قد نقلت أولادها الثلاثة — توشيو وهو صبى فى العاشرة من عمره ، وبيكو وهى بنت فى الثامنة من عمرها ، وميكو وهى طفلة فى الخامسة من عمرها — من فراشهم ، وألبستهم ملابسهم وسارت بهم إلى المنطقة الحربية بميدان الاستعراض الشرقى على الطرف الشمالى الشرقى للمدينة ، وهنالك فرشت بعض الحصر وانطرح الأطفال عليها وناموا حتى الساعة الثانية صباحاً ، عندما استيقظوا بن ضجيج الطيارات وهى تمر فوق هيروشيما . فما إن مرت الطيارات حتى عادت السيدة نكامورا بأطفالها إلى دارها فوصلوها بعد منتصف الساعة الثالثة بقليل ، ثم أدارت الراديو لتسمع الاذاعة ، فاذا به لسوء حظها كان يذيع إنذاراً آخر . فلما نظرت إلى أطفالها ووجدت شدة الاعياء الذى ارتسم عليهم ، وفكرت فى عدد المرات التى انتقلت فيها إلى ميدان الاستعراض الشرقى فى الأسابيع الماضية بغير جدوى ، قررت بالرغم من تعليمات الراديو أنها لا تستطيع الانتقال مرة أخرى . فوضعت أولادها تحت أغطيتهم على الأرض ، ورقدت هى نفسها فى الساعة الثالثة صباحاً ، وأطبق عليها النوم للحال حتى أنها لم تسمع أصوات الطيارات عند مرورها فيما بعد .

واستيقظت على صوت الصفارة فى الساعة السابعة ، فنهضت وارتدت ملابسها

سريعاً ، وأسرعت إلى منزل مستر تـكاموتو رئيس جمعية الجيران المحلية . وسألته ماذا تفعل ؟ فقال إن عليها أن تلزم دارها إلا إذا سمعت صفارة تحذير ملحة ، وهى عبارة عن نذير صفارة متقطع . فعادت إلى دارها ، وأوقدت النار فى المطبخ ، وأخذت تطهى شيئاً من الأرز ، وجلست لتقرأ جريدة « شوجوكو » وهى صحيفة هيروشيما الصباحية . وقدتنفستمرتاحةعند ما أعلنت الصفارة ابتعاد الطيارات فى الساعة الثامنة . وسمعت أطفالها يتحركون فذهبت وأعطت كلا منهم حفنة من الفول السودانى ، وطلبت منهم أن يظلوا على وسائدهم إذ أنهم متعبون من السير فى الليل . وكانت تأمل أن يخلدوا للنوم ، ولـكن الرجل الساكن تحتها بدأ يدق دقا عنيفاً ويقطع ويصلح من الأخشاب ؛ فلقد كان المجلس البلدى مقتنعاً كـكل إنسان فى هيروشيما أن المدينة لا بد أن تهاجم قريباً ، وألح على الأهالى بالتهديد والتحذير أن يتموا إنشاء حارات واسعة لاتقاءالحريق . وكان يرجو من ذلك أن يستطاع بهذا الاجراء و بمساعدة الأنهار حصر النيران التى قد تنشأ عن قنابل محرقة . وكان الجار يضحى متردداً بمنزله فى سبيل سلامة المدينة . ولقد أصدر المجلس البلدى فى اليوم السابق أمراً للصالحات جسمانيا من بنات المدارس الثانوية بأن يعاونّ فى تنظيف هذه الحارات ، فابتدأن فى عملهن بمجرد سماعهن صفارة زوال الخطر .

عادت السيدة نـكامورا إلى المطبخ ، وألقت نظرة على الأرز ، ثم أخذت تراقب جارها . ولقد تضايقت فى مبدأ الأمر من الضجة التى سببها ، ولـكنها عادت فتأثرت لحاله حتى كادت تبكى شفقة عليه . كان هذا الشعور متجهاً بصفة خاصة نحو جارها وهو يهدم داره لوحاً فلوحاً فى زمن كان لا محيص فيه من الدمار . ولـكن مما لا ريب فيه أنها كانت تشعر بصفة عامة بشفقة على حال سكان المدينة جميعاً فضلا عن حالتها الشخصية ، فلم تـكن حياتها وقتئذ بالسهلة . فلقد التحق زوجها إيساوا بالجيش بعد مولد طفلتها مييكو بقليل ، وظلت مدة طويلة لا تسمع منه أو عنه شيئاً ، إلى أن وصلتها برقية فى ٥ مارس سنة ١٩٤٢ جاء فيها : «لقد مات إيساوا ميتة شريفة فى سنغافورة .» وعلمت فيما بعد أنه مات فى يوم ١٥ فبراير الذى سقطت فيه سنغافورة ، وأنه رقى إلى جاويش ، ولم يكن إيساوا ترزيا ناجحاً ، وكان كل رأس ماله آلة للحياكة من مصانع سانكوكو . وعلى أثر موته ووقف الراتب الذى كان يرسله ، أخرجت السيدة نـكامورا

تلك الآلة وبدأت تحيك الثياب بالقطعة . ومنذ ذلك الوقت أخذت تستعين على حياتها وحياة أولادها بالحياكة وإن كان كسبها ضئيلا .

وبينما السيدة نكامورا واقفة ترقب جارها ، إذا بكل ماتراه عينها يضيء ببريق أبيض لا يشبهه شيء مما رأته . ولم تلاحظ ماحدث لجارها ، بل دفعها شعور الأم نحو أولادها فخطت خطوة واحدة (وكانت الدار على بعد ١٣٥٠ ياردة أو ثلاثة أرباع الميل من مركز الانفجار) وإذا بشيء يحملها وكأنها تطير إلى الغرفة الثانية فوق إطار النوم المرتفع تتبعها أجزاء من دارها .

تناثرت الأخشاب حولها عندما ارتمت على الأرض ، وتساقط عليها سيل من الآجر ، وصار كل ماحولها ظلاماً إذ دفنت تحته . ولم يكن الحطام متراكماً عليها ، فنهضت وتخلصت منه . فسمعت طفلا يصيح : « أنقذيني يا أماه! » ورأت أصغر أطفالها — مييكو التى هى فى الخامسة من عمرها — قد دفنت حتى الصدر وهى غير قادرة على الحراك . فأخذت مسز نكامورا تعمل بأظافرها فى يأس لتنقذ طفلتها ، ولم تكن ترى أو تسمع شيئاً عن طفليها الآخرين .

وكان الدكتور ماساكازو فوجيى فى الأيام السابقة للانفجار يتمتع بلذة النوم إلى الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف . فهو رجل ثرى محب لنفسه وليس لديه عمل كثير . ولكن من محاسن المصادفات أن كان عليه أن يستيقظ مبكراً فى ذلك الصباح الذى ألقيت فيه القنبلة ، ليودع إلى المحطة ضيفاً كان نازلا فى داره . فاستيقظ فى الساعة السادسة . وبعد نصف ساعة خرج مع صديقه إلى المحطة التى لم تكن بعيدة . ومرا على نهرين وعاد إلى داره فى الساعة السابعة عند ماكان صوت الصفارة ينذر إنذاراً غير متقطع . وتناول طعام الفطور . وإذ كانت الحرارة شديدة مع أن الوقت كان صباحاً خلع ملابسه الخارجية ، واتجه إلى شرفة الرواق ليقرأ الجريدة . وكان بناء الرواق — بل كل البناء — عجيباً . فلقد كان الدكتور فوجيى صاحب منشأة مألوفة لدى اليابانيين ، وهى مستشفى خاص لطبيب واحد . وكان هذا البناء قائماً إلى جانب نهر كيو ومن فوقه إلى جانب الجسر المسمى بهذا الاسم ، وهو يحتوى على ثلاثين حجرة لثلاثين من المرضى وأقربائهم ؛ لأن من عادة اليابانيين إذا مرض شخص وذهب إلى المستشفى ، أن يذهب معه واحد أو أكثر من أعضاء

الأسرة ، ليعيشوا معه ويطهوا طعـامه ، ويغسلوا جسمه ، ويدلـكوه ، ويقرءوا له ، ويظهروا له عطفهم العائلى الذى بدونه يـكون المريض اليابانى تعساً حقا . ولم يكن لدى مستر فوجيى أسرّة للمرضى ، بل كان كل مالديه حصير . ومع ذلك كانت عنده جميع الأدوات الحديثة ؛ فلديه آلة لأشعة إكس ، وأداة للدياترمى ، ومعمل للبحوث العلمية مبنى بالآجر وهو على استعداد تام . وكان بناء المستشفى قائماً ثلثاه على الأرض وثلثه على قنطرة فوق نهر كيو المتغير بالمد والجزر ، وهذا الجزء المعلق فوق النهر من البناء هو الذى يعيش فيه دكتور فوجيى ؛ وهو ذو منظر عجيب ؛ ولـكنه كان فى الصيف رطباً . وكان من الرواق لا يشرف على مركز المدينة ، ولـكنه يرى النهر وقوارب النزهة وهى ذاهبة جائية وهو منظر مبهج . ولقد كانت تمر أحياناً بالدكتور فوجيى لحظات قلقة حين يرتفع نهر أوتا وفروعه فيفيض . ولـكن يظهر أن القنطرة كانت من القوة بحيث بقى البناء سليما .

كان دكتور فوجيى فارغاً من العمل نسبياً منذ شهر ؛ لأنه أخذ يصرف مرضاه عندما رأى فى يولية ، أن عدد المدن التى سلمت فى اليابان أخذ يقـل شيئاً فشيئاً ، وأن هيروشيما لابد أن تصبح هدفاً فى القريب . فقد رأى أنه فى حالة حدوث نيران لا يستطيع إنقاذ المرضى . ولذلك لم يبق لديه يومئذ غير مريضين : امرأة من يانو جريحة فى كتفهـا وشاب فى الخامسة والعشرين فى دور النقاهة من حروق أصيب بها ، على أثر ضرب مصنع الصلب الذى كان يعمل به وهو على مقربة من هيروشيما . وكان لدى دكتور فوجيى ست ممرضات للعناية بمرضاه . أما زوجه وأولاده فـكانوا فى مكان أمين ؛ فالزوجة وأحـد أبنائه يعيشان خارج أوزاكا ، وولد آخر وبنتان يعيشان فى الريف عند كيوشو . وكانت تعيش معه ابنة أخ وخادمة وخادم ؛ فـكان عمله قليلا ؛ ولـكنه كان لا يهتم لذلك إذ كان ادخر شيئاً من المال . فـكان فى الخمسين من عمره صحيح الجسم ، بادى السرور ، مرتاح البال ، ويحب أن يمضى مساءه فى احتسـاء شراب الويسكى مع أصدقائه ، على أنه كان يفعل ذلك باعتـدال ورغبـة فى الحديث . وكان قبل الحرب يقبل على الأنواع الواردة من اسكتدلاندة وأمريكا ، ولـكنه كان وقتئذ يـكتفى بنوع سنتورى ، وهو خير أنواع الويسكى المصنوعة فى اليابان .

جلس دكتور فوجيي متربعاً فى ملابس داخلية على الحصير النظيف المبسوط فى الرواق ، ووضع نظارتيه على عينيه ، وأخذ يقرأ جريدة « أساهى » التى تصدر فى أوزاكا ؛ وكان يحب قراءة أخبار هذه المدينة لأن زوجته هناك . رأى البريق الذى ظهر أمام عينيه — حيث كان يتجه إلى غير مركز المدينة ويقرأ فى جريدة — كأنه ذو لون أصفر براق . واستولى عليه الجزع ، فهمّ أن يقوم من جلسته . وفى تلك اللحظة (وكان على بعد ١٠٠٠ ياردة من المركز) أخذ المستشفى ينحنى من ورائه ، وفى صوت فظيع يسقط فى النهر . وقُذف الطبيب بالحطام وهو على وشك القيام من بين يديه ومن خلفه ومن فوقه ، وكان يضربه من كل جانب ويطبق عليه ، وفقد الاحساس بكل شئ إذ كانت الأمور تنعقد بسرعة ثم أحس بالماء .

لم يكد الدكتور فوجيي يشعر بأنه على وشك الموت حتى استيقن أنه لايزال حيا ، وقد أطبقت على صدره خشبتان طويلتان تعارضتا على شكل مثلث ؛ وكان كأنه قطعة من اللحم معلقة بين مقطعين كبيرين للحوم . وقد أمسكت به الخشبتان حتى ليكاد يكون قائماً ، ولكنه لا يستطيع الحراك . وقد بقى رأسه بمعجزة فوق الماء إذ كان سائر جسمه فى الماء . وكانت بقايا المستشفى عائمة من حوله ، وهى خليط عجيب من قطع الأخشاب والمواد التى تعالج بها الآلام ، وكان يحس ألماً شديداً فى كتفه اليسرى وقد فقد نظارتيه .

كان الأب فيلهلم كلاينسورج من اليسوعيين ، فى صباح يوم الانفجار فى صحة غير جيدة ؛ فان الطعام القدر لليابانيين فى أثناء الحرب لم يكن يكفيهم . وكان أجنبياً تأخذ يزله بازدياد كراهية اليابانيين للأجانب حتى الألمان منهم ؛ إذ صاروا مكروهين بعد هزيمتهم فى وطنهم . وكان الأب كلاينسورج فى الثامنة والثلاثين من عمره ولكن كان له منظر الفتى الذى ينمو سريعاً : فوجهه نحيل ، وحنجرته بارزة ، وصدره مطبق ، وذراعاه طويلتان مرتخيتان إلى جنبه ، وقدماه كبيرتان ، وكان غير منتظم فى مشيته إذ يسير منحنياً قليلا إلى الأمام ويشعر دائماً بالتعب . ومما زاد حالته سوءاً أنه أصيب منذ يومين باسهال مؤلم ملح مع زميل له هو الأب شيزليك ، وقد عزواه إلى طعام الفول والخبز الأسود الذى كانا يضطران إلى أكله . على أن قسين آخرين كانا يشاطرانهما

مسكن البعثة الواقع فى حى نوبورى — تشو — وهما رئيس البعثة الأب لاسال والأب شيفر — لم يصابا بهذا المرض لحسن حظهما .

استيقظ الأب كلاينسورج فى الساعة السادسة من صبيحة اليوم الذى ألقيت فيه القنبلة ، وبعد نحو نصف ساعة — وكان متأخراً قليلا بسبب مرضه — أخذ يتلو الصلاة فى كنيسة البعثة . وهى بناء خشبى صغير على الطراز اليابانى ليست به مقاعد ؛ لأن المتعبدين يجثون على الأرض المغطاة بالحصر على الطريقة اليابانية ، أمام مذبح مزين بالحرائر الفخمة والنحاس والفضة وغيرها من زخارف . وكان المتعبدون فى هـذا الصباح وهو يوم اثنين ، هم مستر تكيموتو ، وهو طالب لاهوت يعيش فى دار البعثة ، ومستر فوكاى سكرتير البعثة ، والسيدة سورانا مدبرة الدار وهى مسيحية شديدة التمسك بدينها ، وزملاؤه من القساوسة . ولما تمت الصلاة وأخذ الأب كلاينسورج يقرأ صلاة الشكر، إذا بصوت الصفارة ينذر ؛ فوقفت الصلاة ، وسار أعضاء البعثة مجتازين الفناء إلى بناء دارهم الكبيرة . وهنالك ذهب الأب كلاينسورج إلى غرفته فى الطبقة الأرضية إلى اليمين من الباب الأمامى ، وارتدى لباساً حربياً كان قد اتخذه عندما كان يعلم فى مدرسة روكو المتوسطة بكوبى ، وكان يرتديه عند الانذار بالغارات .

وكان من عادة الأب كلاينسورج بعد الانذار بالغارة ، أن يخرج ويفحص السماء .وعندما فعل ذلك هذه المرة سر إذ لم ير غير طائرة الاستطلاع التى تطير كل يوم فوق هيروشيما فى مثل ذلك الوقت ، فاقتنع بأنه لن يحدث شىء وعاد نتناول طعام الفطور مع الآباء الآخرين ، وهو مؤلف من قهوة صناعية وخبز أسود ، وكان هذا الطعام فى هذه الأحوال بغيضاً إليه بصفة خاصة . ثم جلس الآباء وتحدثوا مليا إلى الساعة الثامنة ، ثم سمعوا زوال الخطر وذهب كل منهم إلى جانب من البناء : فالأب شيفر ذهب إلى غرفته للكتابة ، والأب شيزلك جلس فى غرفته على مقعد مستقيم ووضع وسادة على معدته لتخفيف الألم وأخذ فى القراءة . ووقف رئيس البعثة الأب لاسال فى نافذة غرفته يفكر . وذهب الأب كلاينسورج إلى غرفة فى الطابق الثالث وخلع ملابسه ماعدا الملابس الداخلية وتمدد على جانبه الأيمن فوق سرير وأخذ يقرأ فى مجلة « أنباء الزمن » .

بعد البريق المخيف — الذى ذكر الأب كلاينسورج فيما بعد أنه ذكره

بشئ قرأه وهو غلام عن شهاب كبير اصطدم بالأرض — وجد الأب وقتاً (إذ كان على بعد ١٤٠٠ ياردة من المركز) ليفكر فى أمر واحد هو : أن قنبلة قد سقطت مباشرة عليهم ، ثم استولت عليه مدة ثوان أو دقائق دهشة حتى زايله الوعى .

لم يعرف الأب كلاينسورج قط كيف خرج من الدار ، والأمور التالية التى شعر بها هى أنه يسير على غير هدى حول حديقة الخضراوات فى أرض البعثة وهو فى ملابسه الداخلية ، وتنزف منه دماء قليلة من جروح صغيرة فى فخذه اليسرى ، وأن جميع ماحوله من الأبنية قد انهار ماعدا دار بعثة اليسوعيين التى قام قس اسمه جروبر بتقويتها أكثر من مرة ، إذ كان يخشى الزلازل ، وأن النهار قد أظلم ، وأن السيدة موراتا المدبرة للدار كانت على مقربة منه تردد بلغتها : « فلتشفق علينا يا سيدى المسيح » .

كان الدكتور تيروفومى سازاكى جراح مستشفى الصليب الأحمر ، وهو عائد بالقطار من الريف حيث يعيش مع أمه إلى مدينة هيروشيما ، يفكر فى حلم مزعج رآه فى الليلة السابقة . وكانت دار والدته فى موكايهارا وهى على ثلاثين ميلا من المدينة ؛ فهو يقطع ساعتين بالقطار والترام حتى يصل إلى المستشفى . وكان نومه مضطرباً فى تلك الليلة ، واستيقظ قبل الوقت المعتاد بساعة وهو يشعر بخمود وشئ من الحمى . وبدا له ألا يذهب إلى المستشفى غير أن شعوره بالواجب حمله أخيراً على الذهاب . وعلى ذلك ركب قطاراً قبل القطار الذى كان يركبه عادة فى الأيام الأخرى . وقد أزعجه الحلم بصفة خاصة لأنه كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ولو أنه سطحى بواقعة فعلية مزعجة . فانه عندما أتم دراسته الطبية فى الجامعة الطبية الشرقية بمدينة بسنجتاو بالصين ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو شاب مثالى ، شعر بحزن شديد لقلة الوسائل الطبية فى البلدة الريفية التى تعيش فيها أمه . فأخذ بدون أن يحصل على ترخيص يزور بعض المرضى فى المساء ، وذلك بعد أن يشتغل ثمانى ساعات فى المستشفى وأربع ساعات فى التطبيب . ولقد علم حديثاً أن العقوبة على العمل بدون ترخيص شديدة ، واستشار فى ذلك أحد الأطباء من زملائه فأنبه وعنفه . ومع ذلك استمر فى علاج الناس . ورأى فيما يراه النائم أنه كان

إلى جانب مريض فى الريف ، فاذا برجال الشرطة والطبيب الذى استشاره يقتحمون الغرفة ويقبضون عليه و يجرونه إلى الخارج ويضربونه ضرباً قاسياً. وفى القطار اعتزم أن يترك العمل فى موكايهارا إذ أحس أنه من المستحيل أن يحصل على ترخيص ؛ لأن السلطات ترى أن الترخيص يتعارض مع واجباته فى مستشفى الصليب الأحمر .

وعندما بلغ نهاية رحلته ركب سيارة من سيارات النقل فى التو .(ولقد قدر فيما بعد أنه لو أخذ قطاره العادى فى ذاك الصباح ، وانتظر سيارة النقل بضعة دقائق كما كان يحدث عادة ، لكان فى مركز المدينة عند الانفجار ولهلك بلا ريب.) فوصل إلى المستشفى فى الساعة السابعة وأربعين دقيقة . ومر على رئيس الجراحين لينبئه بوصوله . وبعد دقائق ذهب إلى حجرة فى الطابق الأول وأخذ بعض الدم من ذراع رجل ليجرى فيه تجربة فاسرمان. وكان المعمل الذى يحتوى على المساخن لاجراء التجربة فى الطابق الثالث . وأمسك بنموذج الدم فى يده اليسرى ، وأخذ يسير وهو مشتت الفكر منذ الصباح ، بسبب حلمه المزعج ونومه القلق ، مجتازاً المشى الرئيسى إلى السلم . وكان قد جاوز نافذة مفتوحة بخطوة واحدة عندما رأى انعكاس ضوء القنبلة فى المشى كأنه بريق فوتوغرافى ، فجثا على إحدى رجليه وقال لنفسه فى هدوء لايستطيعه غير اليابانى : « تشجع يا سازاكى ! » وفى تلك اللحظة (وكان البناء على بعد ١٦٥٠ ياردة من المركز) مرت ريح عاصف على المستشفى ، فطارت نظارتاه من وجهه ، وتحطمت قارورة الدم على أحد الحوائط ، وطارت نعله اليابانية من قدميه ، ولكنه لم يصبه شئ غير ذلك ، بفضل المكان الذى كان فيه .

صاح الدكتور سازاكى منادياً رئيس الجراحين ، ثم جرى مسرعاً إلى مكتب هذا الرئيس ، فألفى به جروحاً كبيرة من الزجاج . ولقد صار المستشفى فى فوضى شديدة ؛ إذ سقطت أسقف وحواجز على المرضى ، وانقلبت السرر ، وانخلعت النوافذ إلى الداخل ، فجرح الناس ولطخت الدماء الحيطان والأرض ، وانتثرت الأدوات فى كل مكان . وكان بعض المرضى يجرون صارخين والكثير منهم موتى . (وممن مات زميل للدكتور سازاكى يعمل فى المعمل الذى كان يقصده هذا الطبيب ؛ ومات المريض الذى تركه الطبيب منذ لحظة والذى كان يخشى

وقد قامت الآنسة سازاكى ومن معها من الفتيات بما يناسب من ترتيب لهذا الاجتماع ، واستغرق هذا العمل نحو عشرين دقيقة .

عادت الآنسة سازاكى إلى حجرتها ، وجلست إلى مكتبها ، وكانت بعيدة عن النوافذ التى تقع إلى يسارها . وكان خلفها قمطران طويلان للكتب فيهما جميع الكتب التى توجد فى مكتبة المصنع ، وقد رتبتها إدارة المستخدمين . جلست الآنسة إلى مكتبها ووضعت بعض أشياء فى أحد الأدراج ونقلت بعض الأوراق ، وفكرت قبل الابتداء فى كتابة قوائم المستخدمين الجدد ، وفصل المستخدمين . وانتقال بعضهم إلى الجيش ، أن تتحدث قليلا إلى الفتاة الجالسة إلى يمينها . وبمجرد أن أدارت رأسها إلى الجهة المعارضة للنوافذ امتلأت الحجرة بضوء يعشى الأبصار : فاضطرب جسمها من الخوف ، وظلت ملازمة مقعدها لحظة طويلة . (وكان المصنع على بعد ١٦٠٠ ياردة من المركز .)

سقط كل شئ ، وأغمى على الآنسة سازاكى ، وانهار السقف فجأة وتناثرت الأخشاب من فوقها . وسقط الناس الذين كانوا فى الطابق الذى فوقها وقد خر عليهم السقف من فوقهم . ولكن أهم شئ حدث لها أن انحنى قمطرا الكتب اللذان كانا من ورائها إلى الأمام ، وقذف بها مايحتويانه إلى الأرض ، وانثنت رجلها اليسرى اثناء فظيعاً حتى انكسرت تحتها . وفى مصنع الصفيح هذا وفى أول لحظة من عصر القنبلة الذرية كانت الكتب تحطم مخلوقاً بشريًّا .

٢

النـــــار

عندما جرى القس كيوشى تانيموتو خارجاً من ضيعة ماتسوى على أثر الانفجار ، ونظر فى دهشة إلى الجنود تتفجر منهم الدماء على فم المكمن الذى كانوا يحفرونه ، شهد سيدة عجوزاً تسير فى ذهول ، تمسك رأسها بيدها اليسرى ومسندة طفلا صغيراً عمره ثلاثة أشهر أو أربعة على ظهرها بيدها اليمنى وهى تصيح : « لقد أصبت ! لقد أصبت ! لقد أصبت ! » فأشفق عليها وحمل الطفل على ظهره ، وأمسك بيد المرأة يسير بها نازلا الشارع الذى أظلم بما يشبه عموداً من تراب ، وسار بالمرأة إلى مدرسة ابتدائية قريبة أُعدت لتكون مستشفى عند الضرورة . وبهذا المسلك العاطفى تخلص مستر تانيموتو فى الحال مما اعتراه من خوف . ولقد دهش كثيراً عندما رأى زجاج المدرسة منتثرا على الأرض ، وخمسين أو ستين من المصابين تمكنوا فى هذه الفترة العصيبة من الوصول إليها طلباً للعلاج . جال بخاطره أنه ، بالرغم من الانذار بزوال الخطر وبالرغم من عدم سماعه صوت طيارات ، لابد أن تكون ألقيت عدة قنابل ، وتذكر تلا صغيراً فى حديقة صاحب مصنع الحرير يمكن منه مشاهدة حى كوى بأكله ، بل هيروشيما بأكملها ؛ ولذلك جرى عائداً إلى تلك الضيعة .

ورأى مستر تانيموتو من هذا التل منظراً عجيباً : فلم يكن جزء من حى كوى كما كان ينتظر ، بل أكثر ما يستطيع أن يراه من هيروشيما فى ذلك الجو الذى اكتنفه الضباب كان يخرج منه غبار كثيف فظيع . وقد أخذت أعمدة من

الدخان فى القريب وفى البعيد تفتح لها طرقا بين سحائب التراب المنتشرة فى كل مكان . وعجب كيف حدث هذا الضرر الكبير من سماء هادئة ؛ ولو كانت هنالك بضع طيارات ولو بعيدة لسمع صوتها . وكانت الدور القريبة تحترق . وعندما أخذت قطرات كبيرة من الماء تتساقط ظن أنها لابد ناشئة من رجال الحريق وهم يقاومون النار . (والواقع أنها قطرات رطوبة تجمعت بسبب ذلك البرج من التراب والحرارة وقطع الحطام التى ارتفعت أميالا فى الجو فوق هيروشيما .)

استدار مستر تانيموتو من هذا المنظر عندما سمع مستر ماتسو يناديه سائلا هل سلم من السوء ؛ فان مستر ماتسو أنقذته الوسائد التى كانت مختزنة فى البيت عند انهياره واستطاع التخلص منها . ولم يكد مستر تانيموتو يستطيع الاجابة ؛ فانه تذكر زوجته وطفله وكنيسته وداره وأتباع مذهبه ، وهم فى تلك الحمأة الفظيعة ، وأخذ يجرى مرة ثانية وقد استولى عليه الخوف نحو المدينة .

وتخلصت السيدة هاتسويو نكامورا أرملة الترزى من حطام دارها بعد الانفجار . ولقد رأت مييكو أصغر أطفالها الثلاثة مغموراً فى الحطام إلى صدره فلم يكن قادراً على الحراك . فزحفت نحو الحطام ورفعت الأخشاب وألقت بالآجرّ بأذلة جهداً سريعاً لتخليص الطفل . ثم سمعت صوتين صغيرين كأنهما يصيحان من كهف عميق ويناديان : « تاسوكيتى ! تاسوكيتى ! المساعدة ! المساعدة ! »

فنادت باسم ولدها الذى يبلغ العاشرة من عمره ، وباسم ابنتها التى تبلغ الثامنة : « توشيو! ييكو ! »

فرد الصوتان من أسفل .

فتركت السيدة نكامورا طفلتها مييكو التى تستطيع على الأقل أن تتنفس ، وأخذت فى سورة الخوف تزيح الأنقاض من فوق الأصوات الصائحة . ولقد كان الطفلان راقدين وبينهما نحو عشرة أمتار ، ولكن كان صوتاهما يصدران من مكان واحد . ويظهر أن الغلام توشيو كان يستطيع بعض الحركة ؛ إذ شعرت بأنه يزيح أكوام الخشب والآجر ، حين كانت هى تعمل من فوق . وأخيراً رأت رأسه فجذبته من رأسه بسرعة . وكانت ناموسية قد التفت

على قدميه كأنما قد أحكم ربطها حول هذين القدمين . وقال الغلام إنه قد قذف به إلى الجانب الآخر من الحجرة ، وإنه كان فوق أخته ييكو وهما تحت الأنقاض . وصاحت البنت من تحت الأنقاض بأنها لاتستطيع أن تتحرك ؛ لأن ثمة شيئاً فوق رجليها . واستطاعت السيدة نكامورا بعد أن حفرت قليلا أن تفتح ثغرة فوق البنت ، وأخذت تجذبها من ذراعها ، فصاحت ييكو قائلة « إتاى ! هذا مؤلم ! » فصاحت السيدة نكامورا « ليس هذا وقت التفكير فى الألم أو عدمه » وجذبت ابنتها الباكية ، ثم عادت إلى تخليص ميبكو . وكان الأطفال معفرين ومصابين برضوض ، ولكنهم خالون من الجروح والخدوش .

وخرجت السيدة نكامورا بأطفالها إلى الشارع ، ولم يكن على الأطفال غير سراويلهم . ومع أن اليوم كان حارًّا جدا ، فقد اعترى أمهم قلق واضطراب خشية أن يصيبهم البرد ، فرجعت إلى الأنقاض وأخذت تنبش تحتها ، فوجدت ربطة من الملابس كانت قد وضعتها للضرورة ، فألبستهم ملابسهم وأحذيتهم ، ووضعت على رءوسهم خوذات من القطن للوقاية من الغارات، وأغرقت فى ذلك فألبستهم معاطف . وكان الأطفال صامتين ما عدا الصغيرة ميبكو فإنها ظلت تلقى أسئلة : « ماذا ؟ هل جاء الليل ؟ لماذا انهارت الدور ؟ ماذا حدث ؟ » ونظرت السيدة نكامورا حولها وكانت لا تعرف ماذا حدث (ألم تنبئ الصفارة بزوال الخطر ؟) ورأت فى الظلام أن جميع الدور فيما حولها قد انهارت ، فالمنزل المجاور لها الذى كان صاحبه يهدمه لكى يفتح درباً لاتقاء النيران كان الآن قد تهدم تماماً ، وإن كان فى غير انتظام . وصاحب البيت الذى كان يضحى بمنزله فى سبيل الجماعة كان ملقى جثة هامدة . واجتازت الشارع السيدة نكاموتو زوجة رئيس جمعية الجيران المحلية لاتقاء الغارات ، وكانت الدماء تسيل من رأسها ، وقالت إن طفلتها أصيبت بجروح كثيرة ، وسألت السيدة نكامورا هل لديها شئ من الأربطة ؟ ولم يكن لدى هذه السيدة منها شئ ، غير أنها رجعت مرة أخرى إلى بقايا دارها ، وجرّت قطعة من القماش الأبيض الذى كانت تستعمله فى الحياكة ، وقطعته أشرطة وأعطته السيدة نكاموتو . وبينما كانت تبحث عن هذا القماش بصرت بآلة الحياكة فحاولت إخراجها . وكان من البين أنها لا تستطيع أن تحمل هذه الآلة معها؛ ولذلك ألقت دون وعى رمز معيشتها فى الحوض الذى ظل رمز السلامة

لديها — وهو حوض للماء من الأسمنت أمام دارها من النوع الذى أمر كل بيت بانشائه لمقاومة النار بعد الغارات .

ولقد طلبت إليها جارة أخرى تملكها الخوف اسمها مسز هاتايا بأن تفر معها إلى الغابات فى حديقة أسانو ، وهى أراض على مقربة من نهر كيو تمتلكها أسرة أسانو الغنية ، وهى الأسرة التى كانت تمتلك خط بواخر تويوكيسن كايشا ، ولقد جعلت هذه الحديقة ملاذاً لمن يجاورونها من السكان . ورأت السيدة نكامورا النار تشتعل فى دار خربة قريبة (ولقد تسببت أكثر النيران الواسعة فى هيروشيما فيما عدا مركز المدينة حيث أشعلت القنبلة بعض النيران ، من سقوط الحطام القابلة للاشعال على مواقد الطهى والأسلاك المليئة بالكهربا) فاقترحت الذهاب لاطفائها . فقالت لها السيدة هاتايا : « تعقلى ! ماذا يكون الأمر لو جاءت ا لطائرات وألقت قنابل أخرى ؟ » فعاودت السيدة نكامورا السير نحو حديقة أسانو وبصحبتها أطفالها والسيدة هاتايا . وكانت تحمل كيساً به ثياب الضرورة ، وتحمل غطاء وشمسية وحقيبة بها أشياء وضعتها فى مخبأ الوقاية من الغارات . وكانوا يسمعون وهم يسيرون مسرعين بين الخرائب أصواتاً مكتومة تلتمس الغوث . ولم يروا من الدور ما هو قائم فى طريقهم إلى حديقة أسانو غير دار بعثة اليسوعيين إلى جانب مدرسة الأطفال اليسوعية التى كانت قد أرسلت السيدة نكامورا ابنتها مييكو إليها بعض الوقت ، وعندما مروا على هذه الدار رأوا الأب كلاينسورج فى ثيابه الداخلية وهى ملطخة بالدماء يجرى من الدار وفى يده حقيبة صغيرة .

أما الأب فيلهلم كلا ينسورج فانه بينما كان يدور حول حديقة الخضراوات بملابسه الداخلية على أثر الانفجار ، إذا به يرى الأب الرئيس لاسال يظهر من جانب البناء الذى اكتنفه الظلام . وكان جسمه لاسيما ظهره ملطخاً بالدماء ، ولقد قذف به البريق إلى الداخل من النافذة ورشقته سهام من الزجاج المتناثر ، وتمكن الأب كلاينسورج ، مع ما استولى عليه من ذهول ، من أن يلقى سؤالا : « وأين بقية الزملاء ؟ » وفى تلك اللحظة ظهر قسان آخران يعيشان فى دار البعثة ، هما الأب شيزلك الذى لم يصب بضرر ، يساعد الأب شيفر الذى كان مدرجاً بدماء متفجرة من جرح فوق أذنه

اليسرى وقد امتقع لونه امتقاعاً شديداً . وكان الأب شيزلك راضيا عن نفسه ؛ لأنه على أثر البريق اختبأ فى مدخل باب كان قد قدر من قبل أنه خير مكان لمن يطلب السلامة فى داخل البناء ؛ لذلك لم يصب عندما ضغط الهواء بسوء . وطلب الأب لاسال من الأب شيزلك أن يذهب بالأب شيفر إلى طبيب قبل أن تنزف دماؤه حتى الموت ، واقترح أن يقصد إما دكتور كندا الذى يسكن الجانب الآخر من الشارع ، أو دكتور فوجي الذى يسكن بناء يبتعد بستة أبنية . وخرج الرجلان من دار البعثة وسارا فى الشارع .

وجرت ابنة مستر هوشيما خادم البعثة إلى الأب كلاينسورج وقالت له إن أمها وأختها مدفونتان تحت أنقاض البيت الواقع وراء أبنية البعثة الكاثوليكية . ولاحظ القساوسة فى الوقت نفسه أن دار معلمة الأطفال الكاثوليكية وهى واقعة خلف أبنية البعثة تهدمت عليها . فذهب الأب لاسال والسيدة مورانا مديرة دار البعثة لانقاذ المعلمة . وفى هذه الأثناء ذهب الأب كلاينسورج إلى دار الخادم المنهارة وأخذ يرفع الأنقاض من أعلى الكومة . ولم يسمع صوتاً تحت الأنقاض ، فاستيقن أن المرأتين من أسرة هوشيما قد قتلتا ، وأخيراً تحت أنقاض كانت تؤلف ركناً فى المطبخ رأى رأس السيدة هوشيما ، ولما كان يعتقد أنها جثة فقد أخذ يجذبها من شعرها فصرخت فجأة صائحة « إتاى ! إتاى ! إنها تؤلم ! إنها تؤلم ! » ، فأخذ يزيل ما عليها من أنقاض وأخرجها . وتمكن أيضاً من أن يجد ابنتها تحت الأنقاض وينقذها ؛ ولم تصب كلتاهما باصابة كبيرة .

وكان ثمة حمام عام يقع إلى جانب دار البعثة أخذ يشتعل . وإذ كانت الريح جنوبية فقد رأى القساوسة أن دارهم ستسلم من الحريق ؛ ولكن الأب كلاينسورج ذهب إلى الداخل على سبيل الاحتياط وجمع بعض الأشياء التى يريد إنقاذها ، فوجد حجرته فى حالة من الفوضى غريبة وغير معقولة ، فحقيبة فيها أدوات الاسعاف كانت معلقة فى مسمار على الحائط كما وضعها ، ولكن ملابسه التى كانت معلقة على مسامير أخرى لا يظهر لها أثر ؛ ولقد تحطم مكتبه إلى ألواح صغيرة متناثرة فى جميع أرجاء الحجرة ، ولكن حقيبة ملابس من الورق القوى كان يخبئها تحت هذا المكتب ظلت قائمة ومقبضها من أعلى وليس فيها خدش واحد فى مدخل الباب بحيث لا يمكن أن يفتقدها ،

واعتقد الأب كلابنسورج فيما بعد أن للعناية الربانية دخلا فى هذا الأمر ؛ إذ كان فى هذه الحقيبة كتاب صلاته ، وسجلات حساب جميع منطقته الدينية ، ومبلغ كبير من عملة الورق التى تمتلكها البعثة وهو مسئول عنها . فجرى خارجا من البيت حاملا الحقيبة إلى مخبأ البعثة حيث أودعها من الغارات .

وفى هذا الوقت عاد الأب شيزلك والأب شيفر الذى كان الدم لا يزال ينزف منه ، وقالا إنهما وجدا دار دكتور كندا قد تهدمت ، وإن النار حالت دون أن يخرجا مما ظناه دائرة الدمار المحلية إلى مستشفى الدكتور فوجيى الخاصة على شاطئ نهر كيو .

ولم يكن مستشفى دكتور مسا كازو فوجيى قائماً على شاطئ النهر كما كان ، بل كان فى النهر . وعلى أثر انقلابه استولت على الدكتور فوجيى الدهشة ، وشد إلى الخشبتين اللتين تطبقان على صدره حتى إنه لم يكن يستطيع أن يتحرك فى بادئ الأمر ، وظل نحو عشرين دقيقة معلقاً فى ذلك الصباح المظلم . ثم خطرت له فكرة — أن المد سوف يطغى على الأنهر وسيغمر الماء رأسه — فأدت هذه الفكرة إلى الخوف الذى بعث فيه النشاط ، فأخذ يتلوى ويستدير ويبذل ما فى وسعه من جهد (ولو أن ذراعه اليسرى بسبب ما فى كتفه من ألم كانت قليلة الجدوى) . وبعد قليل تمكن أن يتخلص من هذه القبضة السيئة . وبعد أن استراح بضع لحظات تسلق كومة الأخشاب ، ورأى لوحاً طويلا يمتد إلى شاطئ النهر ، فأخذ يسير فوقه فى مشقة .

كان الدكتور فوجيى فى ملابسه الداخلية مبللا بالماء وقذراً ، وقد تمزق قميصه ، وجرت دماء من جراح فى ذقنه وظهره ، وسار وهو فى هذه الحال السيئة إلى جسر كيو الذى كان المستشفى متاخماً له ، ولم يكن هذا الجسر قد انهار ، وقد كان هو لا يكاد يميز الأشياء إلا بصعوبة من غير نظارتيه ، ولكنه رأى ما يكفى لأن يبعث فيه الدهشة لكثرة الدور المتخربة فيما حوله ، وقابل فوق الجسر صديقاً طبيباً اسمه ماتشى ، فسأله فى حيرة : «أى شئ تظن أحدث هذا ؟»

فقال دكتور ماتشى : « إنها لا بد أن تكون سلة أزهار مولوتوف ! » وهو التعبير الرقيق الذى يسمى اليابانيون به مجموعة القنابل التى تتناثر من تلقاء نفسها .

رأى دكتور فوجي فى مبدأ الأمر حريقين : أحدهما على الجانب الآخر من النهر أمام مكان مستشفاه ، والثانى بعيداً فى الجنوب . ولكن فى الوقت نفسه لاحظ هو وصديقه أمراً استغربا له ، وأخذا بوصفهما طبيبين يتناقشان فيه . فمع أنه لم تشب حتى ذلك الوقت إلا حرائق قليلة جداً فان الجرحى من الناس كانوا يسيرون مسرعين فوق الجسر فى موكب من التعاسة لا ينقطع وعلى وجوه بعضهم وأذرعهم حروق فظيعة . فسأل دكتور فوجي : « ماذا تظنها ؟ » وقد كان مجرد الاهتداء إلى نظرية يبعث على الارتياح فى ذلك اليوم ؛ وثبت دكتور ماتشى على فكرته قائلا : « ربما كانت سلة أزهار مولوتوف . »

لم تكن هناك أية نسمة فى صباح ذلك اليوم حينما سار دكتور فوجي إلى محطة السكك الحديدية ليودع صديقه ؛ أما الآن فان الرياح القوية كانت تعصف فى كل مكان ، وكانت الرياح فوق الجسر شرقية ؛ وأخذت النيران تندلع من جهات عدة وتنتشر فى سرعة ، ثم أخذت تهب رياح عنيفة ساخنة ، وأخذ الرماد يتناثر مما جعل الوقوف على الجسر مستحيلا ، فجرى الدكتور ماتشى إلى الجانب البعيد من النهر مخترقاً شارعاً لم تشتعل فيه النار بعد . وذهب الدكتور فوجي إلى جانب الماء الذى يجرى تحت الجسر حيث التجأ عدد عديد من الناس بينهم خدمه الذين أنقذوا أنفسهم من الأنقاض . ورأى الدكتور فوجي من ذلك المكان ممرضة معلقة من رجليها فى أخشاب المستشفى ، وأخرى مسمرة بقطعة من الأخشاب اخترقت صدرها ، فطلب المساعدة من بعض الواقفين تحت الجسر وأنقذ المرضتين . وخيل إليه أنه سمع صوت ابنة أخيه لحظة ولكنه لم يجدها ، ولم يرها فيما بعد . ومات أيضاً أربع من ممرضاته واثنان من مرضاه . ثم عاد دكتور فوجي إلى جانب الماء منتظراً هدوء النار .

كان ما حدث للأطباء فوجي وكندا وماتشى على أثر الانفجار — وهؤلاء الثلاثة مثال لما حدث للسواد الأعظم من الأطباء والجراحين فى هيروشيما — إذ تخربت عياداتهم ومستشفياتهم ، وتناثرت أدواتهم ، وأصيبوا بما أعجز أجسادهم بدرجات متفاوتة ، مما يفسر السبب فى أن العدد الكبير من الأهالى الذين

أصيبوا باصابات لم يجدوا من يعتنى بهم ، وأن الكثيرين ممن قدر لهم الموت كان من الممكن أن يعيشوا . وكان فى المدينة مائة وخمسون طبيباً ، فمات منهم خمسة وستون ، وأكثر من نجا من الموت قد جرح . ومن بين ١٧٨٠ ممرضة ، ١٦٥٤ قد متن أو جرحن بحيث لم يعدن يستطعن العمل . وفى أكبر مستشفى ، وهو مستشفى الصليب الأحمر ، لم يعد يستطيع العمل غير ستة أطباء من بين ثلاثين طبيباً ، وعشر ممرضات من بين أكثر من مائتين . وكان الطبيب الوحيد الذى لم يصب بسوء من بين أطباء مستشفى الصليب الأحمر هو الدكتور سازاكى . ولقد جرى بعد الانفجار إلى مخزن ليتزود بأربطة ، فكانت هذه الحجرة ، كسائر ما رآه فى المستشفى ، على حالة غريبة من الفوضى ؛ فقارورات الأدوية ملقاة من الرفوف ومكسوره ، والأدوية متناثرة على الحوائط ، والأدوات مبعثرة فى كل مكان ، فجمع فى سرعة بعض الأربطة وقارورة لم تكسر من كروم الزئبق ، وأسرع إلى كبير الجراحين فربط جروحه . ثم ذهب إلى المبنى وأخذ يربط جروح المرضى والأطباء والممرضات . وكان يجد مشقة فى العمل بدون نظارتيه حتى لقد أخذ نظارتين من وجه ممرضة جريحة ولبسهما ، مع أنهما لا يلائمان نظره كل الملاءمة ، ولكن شيئاً خير من لا شئ . (ولقد ظل يعتمد عليهما أكثر من شهر .)

كان الدكتور سازاكى يعمل بلا نظام ، فيعالج من هم أقرب إليه أولا ، ولكنه لاحظ بعد قليل أن الجرحى يزيدون احتشاداً فى المشى . وكان يجد بين خليط الناس المصابين بالجروح والكدمات ، وهو ما أصيب به جميع الذين فى المستشفى ، آخرين أصيبوا بحروق فظيعة . فأيقن أن المصابين أخذوا يتدفقون من الخارج ، وأنهم من الكثرة بحيث أخذ يهمل الذين أصيبوا بجراح بسيطة ، وتقرر لديه أن كل ما يستطيع أن يعمله هو أن يمنع من المصابين نزيف الدم الذى يفضى إلى الموت ، ولم يمض وقت طويل حتى كان المرضى يغطون أرض عنابر المستشفى ومعامله ، وجميع الحجر الأخرى والطرقات والسلالم والردهة الخارجية ، وفيما وراء الباب الخارجى وعلى الدرج الأمامى ، وفى فناء المستشفى وعلى الطرقات المؤدية إليه ، وهم بين ممدد وجالس القرفصاء . وكان الجرحى يساعدون الذين قطعت أعضاؤهم ، وتتساند الأسر التى شوهت وجوهها ، وكان الكثير من الناس قد اعتراهم القئ . ودخل إلى المستشفى عدد عظيم

من فتيات المدارس ؛ وبعضهن أخذن من دروسهن ليعملن فى الخارج بفتح دروب لمقاومة النيران . وفى مدينة يبلغ عددها مائتين وخمسة وأربعين ألفاً ، قتل أو قدر له الموت منهم فى ضربة واحدة نحو مائة ألف شخص ، وأصيب نحو مائة ألف أخرى ، قد قصد عشرة آلاف من الجرحى منهم على الأقل إلى أحسن مستشفى فى المدينة ، وكان هذا المكان لا يمكن أن يسع هذا الزحف ؛ إذ كان به ستمائة سرير فقط وكلها مشغولة . وكان الناس فى ذلك الجمع الخانق داخل المستشفى يبكون وينادون دكتور سازاكى لكى يلتفت إليهم ، صائحين : « اسعفنى يا دكتور ! » وكان الذين أصيبوا بجروح غير خطيرة يجذبونه من كمه ، ويدعونه إلى مساعدة من هم أشد جروحاً . وكان الطبيب يجذب من هنا وهناك وهو لم يكن يلبس فى قدميه غير جواربه . وقد تحير لكثرة العدد ، وهاله ما رأى من لحم مشرح ؛ ففقد دكتور ساراكى كل المشاعر التى تقتضى بها مهنته ، ولم يعد يعمل جراحا ماهراً ورجلا عطوفا ، بل صار كالآلة يمسح فى حركة آلية ، ثم ينثر المطهر ثم يربط اللفافة ، ثم يعود فيمسح وينثر و يربط .

على أن بعض الجرحى فى هيروشيما لم يقدر لهم أن يتمتعوا بتلك المتعة المشكوك فيها ، وهى المعالجة فى المستشفى . ففى تلك الخرائب التى كانت فيما سبق إدارة المستخدمين بمصانع الصفيح بشرق آسيا ، كانت الآنسة سازاكى مرتمية وهى فاقدة الوعى تحت الكومة الهائلة من الكتب والجبس والخشب وألواح الحديد . وظلت فاقدة الوعى (فيما قدرته من بعد) نحو ثلاث ساعات . وكان أول ما شعرت به ألم شديد فى رجلها اليسرى . وقد تأثرت رجلها واستحالت سوداء تحت الكتب والأنقاض ، حتى صار الحد الذى يفصل بين الحس الشعور وفقدان الحس دقيقاً ، وظلت تعبر هذا الحد عدة مرات ؛ إذ كان الألم ، على ما يظهر ، يجئ ويذهب . وفى اللحظة التى كان يبلغ فيها هذا الألم غاية شدته كانت تشعر أن رجلها قطعت فى مكان ما تحت الركبة . وسمعت فيما بعد شخصاً يسير على الحطام الذى كان فوقها ، وسمعت أصواتاً يائسة تتكلم على ما يظهر من بين فوضى الحطام فيما حولها وهى تقول : « أرجو المعاونة اخرجونا ! »

وقف الأب كلاينسورج نزيف الدماء من جرح الأب شيفر بقدر ما يستطيع ، بربطة كان قد أعطاها الدكتور فوجي للقساوسة قبل ذلك بأيام ، فلما انتهى من هذا العمل جرى إلى داخل دار البعثة مرة ثانية ، فوجد سترة لباسه الحربى وبنطلونا رماديا قديما ، فلبس هذه الملابس وخرج . وأسرعت إليه امرأة من الجيران صائحة أن زوجها مدفون تحت بيتها ، وأن النار اشتعلت فى البيت ،وتستغيث الأب كلاينسورج أن يسرع لإنقاذه .

وكان الأب كلاينسورج قد استولت عليه الدهشة وقلة المبالاة أمام مثل هذه الكارثة الشاملة ، فقال لها : « ليس لدينا وقت لذلك . » وكانت الدور فيما حوله تحترق ، والرياح تهب عنيفة ، ثم سأل : « هل تعلمين تماماً تحت أى مكان من الدار هو موجود ؟ »

فأجابته : « نعم ! نعم ! فاسرع ! »

فذهب إلى الدار ، وكانت بقاياها مشتعلة اشتعالا عنيفاً ، ولكنهما لما وصلا إليها ظهر أن المرأة لا تعرف أين يكون زوجها . وصاح الأب كلاينسورج عدة مرات « هل هنالك أحد ؟ » فلم يأته الجواب. فقال الأب كلاينسورج للمرأة: «يجب أن نبتعد حالاً و إلا هلكنا جميعاً . » وعاد إلى بناء البعثة الكاثوليكية ، وأنبأ الأب الرئيس أن النار تقترب مع الريح التى تغير مهبها فصارت تهب الآن من الشمال ، وأن الوقت قد حان لمغادرة المكان .

وفى هذه اللحظة لفتت معلمة الأطفال نظر القساوسة إلى مستر فوكاى سكرتير البعثة ، وكان واقفاً فى النافذة بالطابق الثانى من دار البعثة ، وهو ينظر إلى اتجاه الانفجار ويبكى ، فظن الأب شيزلك أن السلالم صارت غير صالحة ، فجرى خلف دار البعثة ليبحث عن سلم . وهنالك سمع أناساً يصيحون طالبين الغوث تحت سقف قريب انهار عليهم ، فدعا المارة الذين كانوا يجرون فى الشارع إلى مساعدته فى رفع السقف ، ولكن لم يلتفت إليه أحد ؛ فاضطر إلى ترك أولئك الذين تحت السقف فى مخالب الموت . وجرى الأب كلاينسورج إلى داخل دار البعثة وصعد فوق الدرج التى أصابها الخلل وامتلأت بالجبس والأنقاض المتساقطة ، ودعا مستر فوكاى من باب حجرته .

فالتفت إليه مستر فوكاى فى بطء ، وكان رجلا قصيراً جداً فى نحو الخمسين من عمره ، وقال له وهو يحدجه بنظرة غريبة : « دعنى هنا . » ودخل الأب

كلاينسورج الحجرة وأمسك بمستر فوكاى من رقبة سترته ، وقال : « تعال معى و إلا أصابك الموت . »

فقال مستر فوكاى : « دعنى هنا لأموت . »

وأخذ الأب كلاينسورج يجر مستر فوكاى من الحجرة جرًّا ، ثم جاء طالب اللاهوت وحمل مستر فوكاى من قدميه ، كما حمله الأب كلاينسورج من كتفيه ، وسارا به على الدرج إلى الخارج . وكان مستر فوكاى يصيح : « إنى لا أستطيع السير دعانى هنا ! » وحمل الأب كلاينسورج حقيبة الأوراق بما فيها من نقود فى يده ، ثم حمل مستر فوكاى على كتفه ، وسار الجماعة قاصدين ساحة الاستعراض الشرقية ، وهى المكان المخصص للالتجاء إليه فى جهتهم ، وبينما كانوا يخرجون من بوابة الأبنية كان مستر فوكاى قد تغلبت عليه عقلية الأطفال ، فصار يضرب كتفى الأب كلاينسورج وهو يصيح : « لن أغادر الدار ! لن أغادر الدار ! » فالتفت الأب كلاينسورج إلى الأب لاسال وقال له فى عبارة غامضة : « لقد أضعنا كل شئ نملكه إلا روح الفكاهة فينا ! »

كانت الشوارع تعترضها أجزاء الدور التى وقعت عليها وعمد التليفون المتساقطة وأسلاكه . ويسمع من بين أنقاض كل بيت أو فى الغالب أصوات أناس غمرتهم الأنقاض وتركهم أهلوهم وهم يصيحون فى عبارة لا تزال مؤدبة : « تاسوكيتى كورى ! المساعدة من فضلكم ! » ولقد عرف القساوسة فى بعض هذه الخرائب التى تتصاعد منها الصيحات دور أصدقاء لهم ، ولكن المساعدة كانت تكون متأخرة جدا بسبب النار . وكان مستر فوكاى يردد طول الوقت شاكياً : « دعونى وشأنى ! » واتجهت الجماعة إلى اليمين ، فاذا بهم أمام أكوام من الدور المهدمة تناولتها النار من كل جانب ، وعند جسر ساكاى الذى يوصلهم إلى ساحة الاستعراض الشرقية رأوا جميع الحى الواقع إلى الجانب الآخر من النهر شعلة واحدة من النيران ، فلم يجسروا على العبور ، وقرروا الالتجاء إلى حديقة أسانو إلى اليسار منهم ، وكان الأب كلاينسورج ، وقد استولى عليه الضعف منذ يومين بسبب ما أصيب به من إسهال شديد ، قد أخذ يترنح تحت ثقل ذلك الحمل الصاخب . وحاول أن يتسلق حطام بعض الدور التى كانت تحول بينه وبين الوصول إلى الحديقة ، فعثر ، وسقط منه مستر فوكاى ، وتدحرج رأساً على عقب إلى حافة النهر . ولما نهض من عثرته رأى مستر فوكاى

يولى هارباً ، فنادى الأب كلاينسورج نحو عشرة من الجنود كانوا واقفين على النهر طالباً إليهم أن يقفوه . وبينما كان الأب كلاينسورج يهم بالعودة لكى يأتى بمستر فوكاى ، إذا بالأب لاسال يناديه : « أسرع ! لا تضع الوقت سدى ! » فلم يسع الأب كلاينسورج إلا أن يرجو الجنود أن يهتموا بالمستر فوكاى ، فوعدوا بذلك . ولكن الرجل الضئيل الكسير أفلت منهم ، وآخر ما شهده القساوسة منه أنه كان يجرى عائداً نحو النيران .

خاف مستر تانيموتو على أسرته وكنيسته فجرى أولا نحوهما مجتازاً أقرب طريق فى الشارع الكبير بجى كوى . وكان هو الشخص الوحيد الذى يسير متجهاً نحو المدينة ، وقابل مئات ومئات يفرون منها ، وكان كل منهم قد أصيب بنوع من الاصابات ، فقد احترقت حواجب بعضهم ، وتدلى الجلد من وجوههم وأيديهم ، وكان بعضهم رافعاً ذراعيه من الألم كأنه يحمل شيئاً بينهما ، وكان بعضهم يتقيأ وهو سائر ، وكان العدد الكثير منهم عارياً أو فى أسمال ممزقة ، وقد رسمت الحروق على بعض الأجسام العارية ضروبا من الرسوم ؛ فترى علاقات القمصان وقد ظهرت على أجسادهم فى شكل حروق وترى بعض النساء (إذ كان اللون الأبيض يحول دون نفوذ حرارة القنبلة ، والملابس السوداء تمتصها وتنقلها إلى الجلد) ، قد طبعت رسوم الأزهار على أجسادهن من الكيمونو . وكان بعضهم بالرغم مما أصابهم يساعدون أقاربهم الذين هم فى حالة أسوأ منهم . وكان الجميع تقريباً منكسى الرءوس ، ينظرون إلى أمام فى سكوت ، ولا يظهر على وجوههم أى نوع من التعبير .

بعد أن عبر مستر تانيموتو جسر كوى ثم جسر كانون وهو يجرى ، رأى وهو يقترب من مركز المدينة أن جميع الدور قد تهدمت ، والكثير منها تشتعل فيه النار ، ولقد صارت الأشجار عارية وجذورها سوداء ، وحاول من أماكن عدة أن يخترق الخرائب ولكن النيران كانت تصده . وكان الناس يصيحون من تحت دور كثيرة طالبين الغوث ولا مغيث ، وكان الأحياء فى ذلك اليوم لا يسعفون بوجه عام إلا ذوى قرباهم أو جيرانهم الأدنين ؛ لأنهم لم يكونوا يدركون أو يتوقعون أن دائرة التعاسة أوسع من محيطهم ، وكان الجرحى يسيرون متحاملين على أنفسهم غير مكترثين بما يسمعون من صياح ، وكان

مستر تانيموتو يجرى غير مكترث أيضاً بتلك الصيحات ، وكان بوصفه مسيحيا قد امتلأت نفسه عطفاً على أولئك الذين وقعوا فى فخ الأبنية المتهدمة ، وبوصفه يابانيا قد عراه الخجل لأنه لم يصب بسوء ، وكان يدعو الله وهو يجرى : « اللهم ساعدهم ونجهم من النار ! »

وظن أنه يستطيع أن يتجنب النار من اليسار ، فعاد إلى جسر كانون وسار على حافة أحد الأنهار ، وحاول عدة مرات أن يقطع بعض الشوارع ، ولكنها جميعاً كانت مقفلة ، فسار فى طريقه إلى اليسار وجرى إلى يوكوجاوا ، وهى محطة سكك حديدية تدور حول المدينة فى نصف دائرة واسعة ، وظل يسير فوق الخطوط الحديدية إلى أن وقف أمام قطار يحترق . ولقد أثر فيه ما رآه من اتساع الدمار ، فجرى إلى الشمال ميلين إلى جيون وهى ضاحية تقع فى أسفل التلال . وكان أثناء سيره الطويل يرى أناساً محترقين ومشوهين تشويهاً فظيعاً ، وكان لشعوره بجرمه يلتفت يمنة ويسرة وهو مسرع ويقول : « معذرة إذ أنى لا أحمل مثل ما تحملون ! » وعلى مقربة من جيون رأى أناساً من الريف يتجهون نحو المدينة للمساعدة ، وعند ما رأوه صاح عدد منهم : « أنظروا هذا شخص ليست به جروح ! » وعند جيون اتجه إلى الشاطئ الأيمن من نهر أوتا الأساسى ، وصار يجرى حتى اعترضته النيران مرة ثانية . ولم تكن ثمة نيران فى الجانب الآخر من النهر ، فخلع قميصه وحذاءه وألقى بنفسه فى النهر ، وفى منتصف النهر كان التيار قوياً واستولى عليه التعب والخوف ؛ فلقد جرى نحو سبعة أميال ، فخارت قواه وتقاذفته المياه فأخذ يردد : « اللهم ساعدنى على عبور النهر ؛ فانه يكون من سوء الحظ أن أغرق بعد أن كنت الوحيد الذى لم يصب بسوء . » واستطاع أن يسبح قليلا فوجد لوحاً من الخشب محمولا فى المياه .

تسلق مستر تانيموتو الشاطئ وجرى بجانب النهر حتى إذا كان على مقربة من معبد لديانة الشنتو إذا بالنار تواجهه ، فاستدار إلى اليسار ليدور حول النار ، وإذا بالحظ العجيب يساعده ، فيقابل امرأته وهى تحمل ابنهما الطفل . ولقد كان مستر تانيموتو قد تعب إلى تلك اللحظة تعباً عاطفيا حتى لم يعد شئ يدهشه ؛ فلم يعانق زوجته بل قال لها فى بساطة : « حمداً لله على سلامتك ! » فأخبرته أنها وصلت إلى الدار بعد أن قضت ليلتها فى أوشيدا فى الوقت الذى حدث فيه الانفجار ، وأن أنقاض الدار تراكمت عليها وطفلها بين ذراعيها ،

ووصفت كيف ضغطت عليها الأنقاض وكيف كان الطفل يصيح ، ثم رأت بصيصاً من نور ، فمدت يدها وأخذت توسع هذا الثقب شيئاً فشيئاً ، وبعد نصف ساعة سمعت حسيس النار تشتعل فى الأخشاب . وأخيراً اتسعت الفجوة بحيث استطاعت أن تدفع بابنها إلى الخارج ثم تزحف هى إلى الخارج أيضاً . وقالت إنها عائدة الآن إلى أوشيدا ثانية . وقال مستر تانيموتو إنه يريد أن يرى كنيسته ليعنى بالتابعين منهم لجمعية جيرانه ، وافترقا فى بساطة — بسبب ما استولى عليهما من ذهول — كما تقابلا .

أدى السير بمستر تانيموتو وهو يتجنب النار إلى ساحة الاستعراض الشرقية وهى منطقة ملاذ ، وقد صارت الآن ذات منظر فظيع ؛ فقد امتلأت بصفوف وصفوف من الحرقى والجرحى . وكان الذين أصابهم الحريق يئنون قائلين « ميزو! ميزو! الماء! الماء ! » ووجد مستر تانيموتو إناء فى شارع قريب ، ورأى صنبور مياه كان لا يزال صالحاً فى دار مهدمة ، فأخذ يحمل المياه إلى هؤلاء المعذبين . وبعد أن أمد نحو ثلاثين منهم بالماء بدا له أنه أنفق فى ذلك وقتاً طويلا ، فقال بصوت عال لأولئك الذين كانوا يمدون أيديهم من حوله يرجون إطفاء غليلهم : « معذرة فان على أن أهتم بأناس عديدين ! » ، ثم جرى مسرعاً إلى النهر والاناء فى يده وقفز إلى كثيب من الرمل ، وهنالك رأى مئات من الناس أصيبوا بجروح خطيرة حتى لم يكونوا يستطيعون أن يخرجوا من المدينة المحترقة . وعندما رأوا رجلا منتصب القامة لم يصب بسوء أخذوا ينادون « الماء ! الماء ! الماء ! » ، ولم يستطع مستر تانيموتو أن يقاوم نداءهم بل حمل إليهم الماء من النهر . وكان هذا خطأ منه لأن الماء كان من ماء المد وهو متغير الطعم . وكان هنالك قاربان أو ثلاثة تنقل المصابين عابرة النهر من حديقة أسانو . وعندما وصل أحد هذه القوارب إلى الشاطئ الذى وقف عليه ، أعاد مستر تانيموتو اعتذاره السابق بصوت عال وقفز إلى القارب فعبر به إلى الحديقة. وهناك تحت الأدغال وجد بعض من هو مسئول عنهم من جمعية جيرانه وقد لجأوا إلى الحديقة طوعاً لتعليماته السابقة ، ورأى عدة من المعارف بينهم الأب كلاينسورج وغيره من الكاثوليك ، ولكنه لم ير فوكاى الذى كان صديقاً حميا له ، فسأل : « أين السيد فوكاى ؟ »

فأجاب الأب كلاينسورج : «إنه لم يرد المجئ معنا وعاد أدراجه . »

عندما سمعت الآنسة سازاكى صوت الناس الذين سجنوا معها تحت أنقاض مصنع الصفيح أخذت تتحدث إليهم . وكانت أقرب جارة إليها فتاة طالبة فى إحدى المدارس العالية وقد ندبت للعمل فى المصنع ، وأنبأتها هذه الفتاة أن ظهرها كسر ؛ فأجابتها الآنسة سازاكى : « إننى راقدة هنا لا أستطيع الحراك وقد قطعت رجلى اليسرى ! »

وبعد قليل سمعت حس شخص يسير فوقها . ويقصد إلى أحد الجوانب ثم بدأ يحفر فى الأنقاض ، وأنقذ هذا الحافر عدة أناس ، وعندما كشف عن طالبة المدرسة العالية ، ألفت الطالبة ظهرها لم يكسر على كل حال ، وأخذت تزحف إلى الخارج . وتحدثت الآنسة إلى المنقذ فأخذ يعمل لإنقاذها ، فرفع عدداً كبيراً من الكتب إلى أن أوجد نفقاً إليها ، فرأت وجهه المبلل بالعرق وهو يقول لها : « اخرجى أيتها الآنسة ! » فحاولت ثم قالت :« إنى لا أستطيع أن أتحرك . » فعاد الرجل إلى الحفر ثم طلب إليها أن تحاول بكل قوتها الخروج ، ولكن الكتب كانت ثقيلة على عجيزتها ، ورأى الرجل أخيراً أن أحد القمطرين كان مائلا فوق الكتب وأن قطعة خشبية ثقيلة تضغط هذا القمطر ، فقال الرجل : « انتظرى فسأجد رافعاً للأخشاب . »

وغاب الرجل طويلا ، وحينما عاد كان ضيق الخلق وكأنما كان هذا الموقف من خطئها ، وصاح داخل النفق : « ليس لدينا رجال للمساعدة ، فيجب أن تخرجى بنفسك . »

فقالت : « هذا مستحيل فان رجلى اليسرى . . . » فذهب الرجل .

وجاء عدة رجال بعد وقت طويل وسحبوا الآنسة سازاكى إلى الخارج ولم تكن رجلها قد فصلت من جسمها بل كانت قد كسرت وقطعت وهى معلقة فيما تحت الركبة ، فنقلوها إلى فناء المصنع ، وكانت السماء تمطر ، وجلست على الأرض فى المطر ، وحينما ازداد سقوطه ، أشار أحد الأشخاص على الجرحى بأن يحتموا فى المخابئ التى أعدت بالمصنع للوقاية من الغارات ، وقالت لها امرأة ممزقة الثياب : « تعالى معنا فانك تستطيعين السير قفزاً » ، ولكن الآنسة سازاكى لم تستطع الحراك ، وظلت تحت المطر . ثم أقام رجل قطعة من الحديد المموج لكى تكون وقاية لها ، وحملها بين ذراعيه إليها . وشعرت الفتاة بهذ الجميل ، إلى أن جاء بشخصين مشوهين من الجروح تشويهاً فظيعاً — أحدهم

امرأة وقد تمزق صدرها بأجمعه ، والآخر رجل صار وجهه قطعة لحم من الحريق — وشاركها الاثنان فى هذا الوقاء البسيط ولم يأت إليهم أحد بعد ذلك . ثم انقطع المطر ، وصار ما بعد ظهر ذلك اليوم بسمائه الملبدة بالغيوم يوماً حارا ، ولم يقبل الليل حتى كان الثلاثة المشوهون الجالسون تحت المنحنى من الحديد المموج تنبعث منهم رائحة كريهة .

كان الرئيس السابق لجمعية الجيران فى حى نوبورى تشو وهى التى ينتمى إليها القساوسة الكاثوليك رجلا نشيطاً اسمه يوشيدا ، وكان يزعم مفاخراً عند ما كان رئيساً لمنطقة الوقاية من الغارات ، أن النار قد تأكل سائر هيروشيما ، ولكنها لن تصل إلى نوبورى تشو . على أن القنبلة حطمت داره واخترقت قطعة مدببة من الأخشاب رجليه ، فعلق منهما أمام داره على مرأى من دار البعثة الكاثوليكية ، ومن الناس الذين كانوا يسرعون فى الطريق . فلم تكد تراه السيدة نكامورا حين مرت عليه مسرعة بأطفالها ، ولم يره الأب كلاينسورج وهو يحمل مستر فوكاى على ظهره ، فإنه صار جزءاً من فوضى التعاسة التى كانوا فيها ، ولم تجد صيحاته وهو يستغيث جواباً من مغيث . فلقد كان عدد المستغيثين كثيراً بحيث لم يكن صوته يسمع خلال هذه الأصوات . وكان هؤلاء المارة وغيرهم يسرعون فى سيرهم حتى أصبحت نوبورى تشو خالية والنيران تشتعل فيها . ورأى مستر يوشيدا منزل البعثة الخشبى — وهو البناء الوحيد القائم فى تلك المساحة — قد شبت به النيران ؛ وكانت حرارتها شديدة على وجهه ، ثم انتقلت النيران إلى الجانب الآخر حيث كان واتصلت بمنزله ، فخلق فيه اليأس قوة ، فاستطاع أن يخلص نفسه ، وانطلق يجرى فى حى نوبورى تشو والنار التى قال إنها لن تصيب هذا الحى تأخذه من كل جانب ، ومنذ تلك اللحظة صار يسلك مسلك الشيوخ ، واستحال لون شعره بياضا بعد شهرين .

غاص الدكتور فوجى فى النهر إلى رقبته اتقاء لحرارة النار وكانت الريح تزداد شدة . ومع أن النهر غير متسع فقد ارتفعت الأمواج فيه حتى لم يستطع الواقفون تحت الجسر أن يحتفظوا بأماكنهم . وذهب دكتور فوجى إلى جانب

الشاطئ وانحنى واحتضن حجراً كبيراً بيده السليمة . واستطاع الدكتور فوجي وممرضتاه اللتان بقيتا على قيد الحياة أن يخوضوا فيما بعد فى الماء إلى أن قطعوا نحو مائتى ياردة على طول النهر، فبلغوا كثيباً من الرمل على مقربة من حديقة أسانو . وكان كثيرون من الجرحى راقدين على الرمل، وهناك كان الدكتور ماتشى واسرته وقد أصيبت ابنته بحروق شديدة فى يديها ورجليها إذ كانت خارج البيت عند انفجار القنبلة ، ولكنها لحسن حظها لم تصب فى الوجه ، ومع أن كتف الدكتور فوجي كانت تؤلمه ألماً شديداً فانه فحص حروق الفتاة بامعان ثم رقد . ومع ما كان يحيط به من تعاسة كان يحس بالخجل لمنظره ، وأبدى للدكتور ماتشى أن مظهره كظهر السائل ؛ إذ أنه لا يرتدى غير ملابس داخلية ممزقة وملطخة بالدماء . ثم قرر بعد الظهر عندما أخذت النار تهدأ أن يذهب إلى منزل أبويه فى ضاحية نجاتسوكا ، ورغب إلى دكتور ماتشى أن يرافقه . ولكن الطبيب أنبأه بأنه سيقضى الليل مع أسرته فوق كثيب الرمل لإصابة ابنته . وسار دكتور فوجي ومعه ممرضتاه نحو أوشيدا أولا حيث وجد فى دار لم يصبها إلا قليل من التخريب ، وهى لبعض أقاربه ، أدوات للإسعاف كان قد وضعها هنالك . فربطت الممرضان جراحاته وربط هو لها جراحاتهما ثم استأنفوا السير ولم يكن حينئذ إلا القليل من الناس يسيرون فى الشوارع . ولكن كان عدد كبير على الرصيف بين جالس وراقد يقيئون وهم فى سبيل الموت ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . وكان عدد الجثث فى طريقهم إلى نجاتسوكا مما يزيد فى حيرته ، فساءل الطبيب نفسه : أتفعل سلة أزهار مولوتوف كل هذا الفعل ؟

وبلغ دكتور فوجي إلى دار أسرته فى المساء ، وهى على خمسة أميال من مركز المدينة ، ولكن سقف الدار كان قد خر والنوافذ تحطمت جميعاً .

ظلت أفواج الناس تهرع متدافعة إلى حديقة أسانو . وكانت هذه المزرعة الخاصة بعيدة عن الانفجار حتى لقد ظلت أشجار الغاب والبلوط والغار والزان حية . وكانت فى ذلك المكان خضرة قد اجتذبت اللاجئين ؛ إذ كانوا يعتقدون أن الأمريكيين إن عادوا إلى الاغارة فانهم لا يلقون قنابلهم إلا على الأبنية . ثم إن من شأن الخضرة أن يكون فيها رَوْحٌ أو حياة ، وإن الحدائق الصخرية المنظمة تنظيما دقيقاً فى تلك المزرعة بمجاريها الهادئة وجسورها

القوسة مما يلائم ذوق اليابانيين وهى تمثل لهم الحياة العادية ذات الطمأنينة ، ثم إنهم أحسوا برغبة ملحة (على قول بعض الذين لجأوا إلى الحديقة) تدفعهم للاختباء تحت أوراق الأشجار . وكانت السيدة نكامورا وأولادها من أوائل الذين وصلوا إلى الحديقة وجلسوا تحت مجموعة من شجر الغاب على مقربة من النهر . وقد شعروا جميعاً بظمأ شديد ، فشربوا من ماء النهر فأصابهم فى الحال ألم وأخذوا يتقيأون ويتألمون طول النهار ، ولقد عرى الغثيان آخرين أيضاً واعتقدوا جميعاً (والراجح أن ذلك بسبب رائحة التفاعل القوية وهى رائحة كهربائية نشأت عن احتراق القنبلة) أن سبب مرضهم الغاز الذى ألقاه الأمريكيون . وحينما وصل الأب كلاينسورج والقساوسة الآخرون إلى الحديقة ، وكانوا يحنون رءوسهم لأصدقائهم فى مرورهم ، رأوا أسرة السيدة نكامورا وهم مرضى جميعاً . وقامت امرأة اسمها ايساواكى كانت تسكن بجوار البعثة ، وكانت جالسة على مقربة من أسرة نكامورا ، وسألت القساوسة أتظل حيث هى أم تذهب معهم ، فقال الأب كلاينسورج : « إنى لا أكاد أعرف أى الأماكن أسلم » ، فلزمت مكانها . وحدث بعد ذلك أنها توفيت ، فى ذلك اليوم مع أنها كانت خالية من الجراح أو الحروق الظاهرة . وسار القساوسة ومجرى النهر حتى انتهوا إلى مكان جلسوا فيه بين الأدغال ، واضطجع الأب لاسال وأخذه النوم . وكانت فى رجل طالب اللاهوت نعل وهو يحمل معه حزمة من الثياب فيها حذاءان من الجلد فلما جلس مع الآخرين ، ألفى الحزمة قد تمزقت وسقط منها أحد الحذاءين وبقى الحذاء الآخر . فعاد فى الطريق الذى سلكه فوجد هذا الحذاء ثم انضم إلى القساوسة وقال لهم : « من العجيب أنى أصبحت اليوم لا أكترث لشئ ؛ فقد كان أهم شئ عندى بالأمس أحذيتى ولكنها اليوم صارت لا أهمية لها ويكفينى حذاء واحد . »

وقال الأب شيزليك : « وهذا شأنى ، فلقد هممت بأن أحمل كتبى ثم بدا لى أن هذا ليس وقت الكتب . »

حينما وصل مستر تانيموتو ، وإناؤه لا يزال فى يده ، إلى الحديقة كانت غاصة بالناس ، ولم يكن من السهل تمييز الموتى من الأحياء ؛ فان أكثر الناس كانوا راقدين فى سكون وأعينهم شاخصة . وكان هذا السكون فى هذه الأدغال إلى جانب النهر مع أن مئات من الجرحى بجراح مخيفة يتعذبون عذاباً

أليما ، كان هذا عند رجل غربى الأب كلاينسورج من أروع وأفظع المظاهر التى شهدها فى حياته ، فلقد كان هؤلاء المصابون يطبق عليهم السكون دون أن يبكى أحد أو يئن من ألم أو ترتفع شكوى أو يحدث ضجيج من الذين يموتون . حتى الأطفال كانوا لا يبكون . ولم يكن إلا القليل من المصابين يتحادثون . ولما أخذ الأب كلاينسورج يوزع الماء على بعض الذين أصيبت وجوههم بحريق الانفجار حتى فقدت معالمها كانوا يأخذون نصيبهم من الماء ثم يرفعون أنفسهم قليلا (من رقادهم) ، وينحنون له علامة على الشكر .

وقد حيا مستر نانيموتو القساوسة وأخذ يبحث عن أصدقاء آخرين ، ورأى السيدة ماتسوموتو زوجة مدير المدرسة الميتودية وسألها أتشعر بالحاجة إلى الماء ؟ فأجابته نعم ؛ فذهب إلى أحد مجارى المياه فى حدائق أسانو الصخرية وحمل إليها الماء فى إنائه . ثم اعتزم أن يحاول الذهاب إلى كنيسته ، فذهب إلى نوبورى تشو فى الطريق الذى سلكه القساوسة عند فرارهم ، ولكنه لم يبعد كثيراً إذ كانت النار عنيفة فى الشوارع حتى اضطرته إلى العودة فذهب إلى شاطئ النهر وأخذ يبحث عن قارب يحمل فيه أولئك الذين كانت جراحهم شديدة فيعبر بهم النهر من حديقة أسانو ليكونوا بنجوة من النار التى أخذت تنتشر . فوجد قارب نزهة فوق الشاطئ ، على أنه كان حوله منظر فظيع ، هو خمسة من الموتى يكادون يكونون عراة الأجسام ، وقد أصابتهم حروق شديدة ، ولا بد أنهم ماتوا فى لحظات متقاربة . ووضع جثثهم يدل على أنهم كانوا يحاولون إنزال القارب فى الماء . فحمل مستر تانيموتو الجثث بعيداً عن القارب . وكان يشعر وهو يقوم بهذا العمل أنه انتهك بفظاعة حرمة الموتى — وأنه منعهم ، وهذا ماشعر به لحظة ، من إنزال قاربهم إلى الماء والسير به فى رحلتهم الغريبة — حتى لقد قال بصوت مسموع : « أرجو أن تغفروا لى أخذ هذا القارب ؛ فانى سأستعمله من أجل آخرين أحياء . » وكان القارب ثقيلا ، ولكنه استطاع أن ينزله إلى الماء . ولم يجد فيه مجاديف ، وكل ما استطاع أن يزن به القارب عود طويل من الغاب . وسار بالقارب صاعداً فى النهر إلى أكثر الجهات ازدحاماً فى الحديقة ، وأخذ ينقل الجرحى واستطاع أن يحمل عشرة أو اثنى عشر منهم فى كل مرة ، ولكن النهر كان عميقاً فى وسطه بحيث لم يكن يستطيع أن يستعمل عود الغاب فى السير بالقارب إلا فى عسر . وقد اضطر أن يجدف بهذا العود من

الجانبين . وعلى ذلك كانت كل رحلة تستغرق وقتاً طويلا جدا ، وظل يعمل عدة ساعات بهذه الوسيلة .

واتصلت النار بأشجار حديقة أسانو فى الساعات الأولى من بعد ظهر ذلك اليوم ، وعرف مستر تانيموتو ذلك لأول مرة عند ما كان عائداً بقاربه فرأى عدداً عظيما من الناس قد انتقلوا إلى جانب النهر . ولما وصل إلى الشاطئ صعد ليعرف السبب . وحين رأى النار صاح : « ليأت معى جميع الشبان الذين ليست بهم جراح خطيرة . » ونقل الأب كلاينسورج كلا من الأب شيفر والأب لاسال إلى حافة النهر وطلب إلى الحاضرين أن ينقلوهما إلى الضفة الأخرى إذا اقتربت النيران ، ثم انضم إلى الذين تطوعوا مع مستر تانيموتو . فأرسل مستر تانيموتو بعض هؤلاء المتطوعين للبحث عن أوان وجرادل ، وأمر آخرين بأن يضربوا بثيابهم الأدغال التى تحترق . وعندماجاء بعضهم بالأوانى أنشأ سلسلة من أصحاب الجرادل لنقل الماء من أحد المجارى بالحديقة ، واشتغلت الفرقة بمكافحة النيران ساعتين فتغلبوا عليها شيئاً فشيئاً . وبينما كان رجال مستر تانيموتو يعملون كان الحشد من الناس الذين سيطر عليهم الذعر فى الحديقة ينتقلون إلى مقربة من النهر ، واضطر هذا الجمهور أخيراً بعض الواقفين على حافة النهر إلى أن ألقوا بأنفسهم فى الماء ، وكان من بين الذين سقطوا فى الماء وغرقوا السيدة ماتسومو المعلمة بالمدرسة الميثودية وابنتها .

لما عاد الأب كلاينسورج بعد مكافحة النار ، وجد الأب شيفر لا تزال الدماء تنزف منه وهو ممتقع الوجه امتقاعاً شديداً ، وكان بعض اليابانيين وقوفاً حوله يحدقون فيه . وهمس الأب شيفر وارتسمت على فمه ابتسامة ضعيفة : « إنى لأشعر كأنى قد أخذت أذوق طعم الموت . » فقال الأب كلاينسورج : « لا تظن ذلك بعد . » وقد أتى معه بحقيبة إسعاف الدكتور فوجيى . وكان قد لحظ بين الجمع الدكتور كندا ، فبحث عنه وسأله أن يضمد جراح الأب شيفر . لكن دكتور كندا كان قد رأى زوجته وابنته ميتتين بين أنقاض مستشفاه ، وكان حين سأله الأب كلاينسورج جالساً وواضعاً يديه على رأسه فقال : « لا أستطيع أن أفعل شيئاً . » فربط الأب كلاينسورج أربطة أخرى حول رأس الأب شيفر ونقله إلى مكان بعيد وأرقده بحيث يكون الرأس مرتفعاً ، فلم يلبث النزيف أن قل .

وفى هذا الوقت سمع أزيز طيارات تقترب ، فصاح أحد الناس من الجمهور القريب من السيدة نكامورا : « هذه طيارات آتية لتطحننا » ، ووقف خباز اسمه نكاشيما وصاح : « ليخلع ملابسه من كان مرتدياً ثياباً بيضاء . » فخلعت السيدة نكامورا سترة أطفالها وفتحت مظلتها وأجلستهم تحتها . وزحف عدد كبير من الجمهور حتى الذين كانت حروقهم شديدة إلى الأدغال وظلوا قابعين إلى أن بعد أزيز الطائرات التى كان من الواضح أنها تقوم بالاستطلاع أومعرفة الجو .

وأخذ المطر ينهمر ، وبقى أطفال السيدة نكامورا تحت المظلة ، ونزلت قطرات كبيرة ، وصاح أحد الناس : « إن الأمريكيين يلقون بترولا فهم يريدون أن يحرقونا . » (وكان هذا الانذار ناشئاً عن إحدى النظريات التى تناقلها الناس فى الحديقة عن السبب فى هذا الحريق الواسع بهيروشيما ، وهو أن طيارة واحدة صبت البترول على المدينة ثم بطريقة ما أشعلت النار .) ولكن تبين للجميع أن القطرات كانت ماء . وأخذت الريح تشتد وتشتد ، ثم فجأة — ولعل ذلك بسبب التقوس الجوى الذى نشأ عن المدينة المشتعلة — مرت عاصفة على الحديقة ، وسقطت أشجار كبيرة ، واقتلعت أشجار صغيرة وطارت فى الهواء ، وارتفعت أشياء مختلفة مع الريح ، من قطع حديدية وأوراق وأبواب وأجزاء من الحصر ، وتكوّن من ذلك إعصار . فوضع الأب كلاينسورج قطعة من القماش فوق عينى الأب شيفر حتى لا يتوهم الرجل الضعيف أنه قد أصيب بالخبل . وحملت العاصفة السيدة موراتا مديرة دار البعثة ، وكانت جالسة قريباً من النهر ، وقذفت بها إلى حافة النهر فى مكان صخرى غير عميق إذ خرجت قدماها داميتان . ثم اتجه الاعصار نحو النهر حيث امتص المياه فارتفعت كأنها نافورة ، وأخيراً تفانى .

واستأنف مستر تانيموتو نقل الناس فى القارب بعد العاصفة . وطلب الأب كلاينسورج من طالب اللاهوت أن يعبر النهر ويذهب إلى المدرسة الكاثوليكية فى نجاتسوكا ، وهى على ثلاثة أميال من مركز المدينة ، ليرجو القساوسة هنالك أن يأتوا بالمساعدة للأب شيفر والأب لاسال . فركب الطالب قارب مستر تانيموتو وذهب معه . وسأل الأب كلاينسورج السيدة نكامورا أراغبة هى فى الذهاب إلى نجاتسوكا مع القساوسة حين يجيئون ؟ فقالت إن لديها أحمالا وأطفالها مرضى — وكانوا لا يزالون يتقيأون من وقت لآخر وهى

كذلك — ولذلك فانها تخشى ألا تستطيع الانتقال . فقال إنه يظن أن الآباء فى المدرسة سيأتون فى اليوم التالى بعربة يد لنقلها .

ثم بعد الظهر عندما صعد مستر تانيموتو إلى الشاطئ ، وهو الرجل الذى كان يعتمد الكثيرون على نشاطه وابتكاره ، رأى أناساً كثيرين يلحون فى طلب الطعام ، فاستشار الأب كلاينسورج ثم اعتزما أن يعودا إلى المدينة ليأتيا بشئ من الأرز من مخبأ جمعية مستر تانيموتو للجيران ومن مخبأ البعثة . وذهب معهما الأب شيزلك واثنان أو ثلاثة آخرون . ولم يعرفوا فى مبدأ الأمر عند مارأوا صفوف الدور المنهارة أين هم ؛ فالتغير كان مفاجئاً من مدينة نشيطة فيها مائتان وخمسة وأربعون ألفاً فى ذلك الصباح إلى مجرد مظهر أنقاض فيما بعد الظهر . وقد سال الأسفلت فى الشوارع وكان حارا حتى كان السير عليه متعباً . ولم يقابلوا غير شخص واحد هو امرأة قالت لهم وهم يمرون عليها : « إن زوجى فى هذا الرماد . » وعند دار البعثة حيث انفصل مستر تانيموتو عن الجماعة هال الأب كلاينسورج ما رأى من انمحاء البناء . وفى الحديقة فى طريقه إلى المخبأ لاحظ قرعة قد طبخت فوق الأشجار وذاقها هو والأب شيزلك فكان طعمها لذيذاً ، وقد تعجبوا لشعورهم بالجوع وأكلوا بعض الفاكهة ، ثم أخرجوا عدة أكياس من الأرز وجمعوا بعض هذا القرع المطبوخ ثم حفروا وأخرجوا بعض البطاطس وكان مطبوخاً تحت الأرض ، وأخذوا يعودون ، وانضم إليهم مستر تانيموتو وهم فى الطريق . وكان أحد الرجال الذين تبعوهم قد أتى بأدوات للطهى وقدم الأب كلاينسورج بعض القرع لأسرة نكامورا ، فذاقوه ولكنه لم يستقر فى معدهم . وكان الأرز بأجمعه يكفى طعاماً لنحو مائة من الناس .

وقبل نزول الظلام عثر مستر تانيموتو على فتاة فى الحادية والعشرين من عمرها ، هى السيدة كاى ، وهى جارتهم فى السكن ، وكانت جالسة القرفصاء على الأرض وتحمل بين ذراعيها جثة طفلتها . والظاهر أن الطفلة ماتت منذ الصباح . فنهضت السيدة كاى قائمة حين رأت مستر تانيموتو وقالت : « هل تتفضل بالبحث عن مكان زوجى ؟ »

وكان مستر تانيموتو يعرف أن زوجها قد التحق بالجيش فى اليوم السابق . وقد دعا مستر تانيموتو وزوجته السيدة كاى بعد ظهر ذلك اليوم السابق إلى دارهما كى يرفها عليها ، وقد ذهب كاى إلى مركز الجيش المحلى

بجى شوجوكو — على مقربة من القصر القديم فى وسط المدينة — وفى هـذا المركز كان يقيم أربعة آلاف من الجنود . واستنتج مستر تانيموتو من العدد الكبير من الجنود المشوهين الذين قابلهم أثناء ذلك اليوم أن المعسكرات أصيبت بأضرار كبيرة من الشئ الذى ضربت به هيروشيا مهما يكن هذا الشئ ، وكان يعرف أنه لا أمل له فى العثور على زوج السيدة كماى لو قام بالبحث عنه ، ولكنه أراد أن يرضيها فقال : « سأحاول . »

قالت السيدة : « يجب أن تفعل ؛ فلقد كان يحب طفلتنا حبا شديداً ، وأريد أن يراها مرة أخرى . »

٣

التحقيق فى التفصيلات

عند ما بدأ التحقيق فى اليوم الذى انفجرت فيه القنبلة ، أخذ زورق حربى يابانى يسير فى بطء صاعداً ونازلا فى أنهار هيروشيما السبعة . وكان يقف هنا وهنالك ليلقى بياناً على الجزر الرملية التى رقد عليها المئات من الجرحى وعلى الجسور التى احتشد عليها مئات آخرون ، ثم أخيراً بعد انتهاء الشفق أمام حديقة أسانو . وكان ضابط صغير يقف فى الزورق ويصيح داخل مكبر الصوت : « صبراً ! فستأتى سفينة مستشفى بحرية للعناية بكم . » وكان منظر هذا الزورق الذى يشبه السفينة بين مظاهر الفوضى إلى جانب النهر ، وهدوء هذا الشاب فى ملابسه البحرية النظيفة ، يضاف إلى ذلك الوعد بالمساعدة الطبية — وهى أول كلمة تقال عن احتمال المساعدة بعد نحو اثنتى عشرة ساعة فظيعة — مما ثلج صدور المقيمين فى الحديقة . وأعدت السيدة نكامورا عدتها لنوم أولادها وهى واثقة من أن طبيباً سيأتى ويقف مرضهم . واستأنف مستر تانيموتو نقل الجرحى على النهر فى قاربه . وتلا الأب كلاينسورج الصلاة للرب والتحية للعذراء ثم استغرق فى النوم ؛ ولكنه لم يكد يفعل حتى هزته السيدة موراتا مدبرة دار البعثة وقالت : « هل تذكرت أيها الأب كلاينسورج تلاوة صلاة المساء ؟ » فأجاب فى شئ من الحدة : « بالطبع . » وحاول أن يعود للنوم فلم يوفق . ويظهر أن ذلك ماكانت ترغب فيه السيدة موراتا ، فأخذت تتحدث إلى القس المتعب . وكان من الأسئلة التى ألقتها عليه : متى يظن القساوسة فى دار الرهبان المبتدئين الذين أرسل إليهم رسولا بعد الظهر يصلون لنقل الأب الرئيس لاسال والأب شيفر ؟

وكان الرسول الذى أرسله الأب كلاينسورج — وهو طالب اللاهوت الذى كان يعيش فى دار البعثة — قد وصل فى منتصف الساعة الخامسة إلى دار الرهبان المبتدئين القائمة فى التلال على مسيرة نحو ثلاثة أميال ، وكان بها ستة عشرة قسيساً ، أخذوا يقومون بأعمال الإنقاذ فى أطراف المدينة . ولقد استولى عليهم القلق على زملائهم فى المدينة ولم يكونوا يعرفون أين أو كيف يبحثون عنهم . فلما علموا ، شرعوا يعدون فى سرعة تعاليق باستعمال ألواح وأعمدة من أخشاب . وعاد الطالب بستة منهم إلى المساحة التى حاقت بها النكبة سالكين طريقاً على محاذاة نهر أوتا فيما فوق المدينة ؛ وقد ردتهم حرارة النيران مرتين إلى النهر . وعند جسر ميساسا قابلوا كتائب من الجنود يؤلفون موكباً عجيباً يسير من معسكر شوجوكو المحلى للجيش فى وسط المدينة، وكانوا جميعاً مشوهين بالحروق ، يسيرون متوكئين على عصىّ أو متساندين بعضهم إلى بعض . وكانت على الجسر خيول مريضة أو محترقة وقد حنت رءوسها . فلما وصلت جماعة الانقاذ إلى الحديقة كان الليل قد أرخى سدوله ، وصار تقدم الجماعة صعباً جدا بسبب تشابك الأشجار المختلفة الأحجام ، وقد سقطت بعد الظهر على أثر العاصفة . وأخيراً — ولم يمض على سؤال السيدة موراتا وقت طويل — تمكنوا من الوصول إلى أصدقائهم وأمدوهم بالنبيذ والشاى القوى .

وبحث القساوسة كيف يسيرون بالأب شيفر والأب لاسال إلى دار الرهبان المبتدئين ، وكانوا يخشون التعثر فى السير بالحديقة مما يزيد فى جراحهم وهم محمولون على المحفات الخشبية ، فتكون خسارتهم من الدماء كبيرة . فتذكر الأب كلاينسورج مستر تانيموتو وقاربه وناداه وهو فى النهر . فلما وصل مستر تانيموتو إلى الشاطئ قال إنه يسره أن يحمل القسين الجريحين ومن معهما إلى حيث يجدون طريقاً ممهداً . فوضع المنقذون الأب شيفر على إحدى المحفات وأنزلوه إلى القارب ، وركب معه اثنان منهما ، وأخذ مستر تانيموتو يدفع القارب بعصاه الطويلة صاعداً فى النهر ، إذ كان لا يزال بغير مجاديف .

بعد نحو نصف ساعة عاد مستر تانيموتو ورجا القساوسة الباقين فى إلحاح أن يعاونوه فى إنقاذ طفلين رآهما واقفين فى النهر والماء يغمرهما إلى كتفيهما .

فذهبت جماعة وأخرجوا الطفلين ، وهما بنتان صغيرتان فقدتا أسرتهما وكانت بهما حروق كبيرة . وأرقدهما القساوسة على الأرض إلى جانب الأب كلاينسورج ثم حملوا الأب لاسال ووضعوه فى القارب . أما الأب شيزلك فظن أنه يستطيع أن يذهب إلى دار الرهبان المبتدئين سائراً على قدميه . ولذلك ركب القارب مع الآخرين . على أن الأب كلاينسورج كان يشعر بضعف شديد ، فآثر أن يبقى فى الحديقة إلى اليوم التالى ، وسأل الرجال أن يعودوا بعربة يد كى يحملوا السيدة نكامورا وأطفالها المرضى إلى دار الرهبان المبتدئين .

أخذ مستر تانيموتو يدفع قاربه . وبينما كان القارب يتحرك فى بطء صاعداً النهر بحمولته من القساوسة ، إذا بهم يسمعون صيحات ضعيفة تطالب النجدة ، وسمع بنوع خاص صوت امرأة تقول : « هنا أناس يكادون يغرقون فساعدونا لأن المياه ترتفع . » وكان الصوت آتياً من أحد كثبان الرمل . واستطاع ركاب القارب أن يروا بانعكاس الأضواء التى كانت لا تزال تصدر عن النيران المشتعلة ، عدداً من الجرحى راقدين على جانب النهر وقد غمرت مياه النهر فى مده بعض أجسادهم . وأراد مستر تانيموتو أن يساعدهم ولكن القساوسة خشوا أن يموت الأب شيفر إذا لم يسرعوا ، وألحوا على ربان القارب أن يسير فأنزلهم فى المكان الذى أنزل فيه الأب شيفر ثم عاد قاصداً كثيب الرمل .

كان الليل حارًّا ، وازدادت الحرارة لتصاعد النيران إلى السماء ، ولكن صغرى البنتين اللتين أنقذهما مستر تانيموتو والقساوسة ، شكت البرد فغطاها الأب كلاينسورج بسترته . فلقد أمضت هى وأختها الكبرى فى المياه المالحة للنهر نحو ساعتين قبل أن تنقذا . وكان فى جسم الصغرى جروح كبيرة مؤلمة من الحريق ، ولابد أن تكون المياه الملحة مما جعل آلامها فظيعة . وأخذت الفتاة ترتعد فى شدة ، وكررت القول بأنها تشعر بالبرد ، فاقترض الأب كلاينسورج غطاء من بعض الذين يجاورونهم ودثرها به ، ولكنها كانت تزداد ارتعادا . وقالت مرة أخرى : « إنى أشعر ببرد شديد » ثم فجأة وقف هذا الارتعاد إذ كانت قضت نحبها .

وجد مستر تانيموتو نحو العشرين من رجال ونساء على كثيب الرمل ، فحاذاه بقاربه وألح عليهم أن يركبوا ولكنهم لم يتحركوا ، فتحقق لديه أنهم

من الضعف بحيث لا يستطيعون النهوض ، فمد ذراعه وجذب امرأة من يديها فاذا بجلدها يتناثر وينسلخ بين يديه قطعاً كبيرة شبيهة بقطع القفاز ، ولقد تأثر بهذا المنظر وغامت نفسه حتى اضطر الى الجلوس لحظة ، ثم نزل إلى الماء . ومع أنه ضئيل الحجم استطاع أن يرفع بعض الرجال والنساء ، وكانوا عارى الأجسام ، إلى قاربه ، وكانت ظهورهم وصدورهم لزجة ، وتذكر فى قلق ماراه أثناء اليوم من حروق فظيعة ، تكون صفراء فى أول الأمر ثم حمراء متورمة وقد تقلص الجلد عنها ، ثم فى المساء متقرحة ذات رائحة كريهة . وبارتفاع المد صار عود الغاب قصيره ، وأخذ يجدف به من الناحيتين أكثر طريقه ، وفى الجانب الآخر رأى مرتفعاً ، فحمل تلك الأجسام الحية اللزجة إلى المرتفع بعيداً عن المد ، وظل طول الوقت يكرر لضميره : « إن هؤلاء مخلوفات بشرية.» وظل يذهب و يجئ ثلاث مرات حتى نقلهم جميعاً على النهر .فلما انتهى قرر أن من الواجب أن يستريح وعاد إلى الحديقة .

عند ما وطئت قدما مستر تانيموتو الشاطئ المظلم عثر بأحد الناس، وقال له شخص آخر فى غضب : « انتبه فتلك يدى . » فخجل مستر تانيموتو لأنه سبب ألماً لجرحى ، ولأنه قادر على السير منتصب القامة . وتذكر فجأة سفينة المستشفى البحرية التى لم تأت بعد (وما جاءت قط) فشعر لحظة بغضب جامح أعمى على رجال هـذه السفينة وعلى جميع الأطباء . لماذا لم يأت أولئك لمساعدة هؤلاء الناس؟

تمدد دكتور فوجى وهو فى ألم شديد طوال الليل على أرض دار أسرته التى طار سقفها فى الأرجاء ، وعلى ضوء فانوس فحص نفسه فوجد كسراً فى الترقوة اليسرى وكدمات عدة وخدوش فى الجسم والوجه وجراح عميقة فى الذقن والظهر والرجلين وكدمات فى الصدر والجزء الأعلى من الجسد ؛ وقد يكون هنالك كسر فى ضلع أو ضلعين . ولو أنه لم يصب هذه الاصابات الكثيرة لكان فى حديقة أسانو يساعد الجرحى .

لم يكد يرخى الليل سدوله حتى كان عشرة آلاف من ضحايا الانفجار قد غزوا مستشفى الصليب الأحمر . وكان دكتور سازاكى وقد نهكه إعياء يسير على غير هدى فى خمود يقطع طرقات المستشفى القذرة وفى يديه أربطة وقارورات

من كروم الزئبق وهو لايزال يلبس النظارة التى أخذها من المرضة الجريحة وكان يضمد أسوأ الجروح كلما رآها ، وكان أطباء آخرون يضعون ضمادات مشربة بمحلول الأملاح على أسوأ الحروق ، وهذا كل ما استطاعوا أن يفعلوه . ولما جن الظلام صاروا يعملون على ضوء حرائق المدينة وعلى ضوء شموع حملها لهم المرضات العشر اللاتى بقين ، ولم تقع عين الدكتور سازاكى طول النهار على خارج المستشفى ؛ فقد كان المنظر فى داخله رهيباً وشاغلا حتى إنه لم يخطر بباله أن يسأل عما حدث فيما وراء النوافذ والأبواب . فلقد انهارت سُقُف وحواجز، وتساقط فى كل مكان جبس وتراب ودماء وقئ ، وكان المرضى يموتون بالمئات دون أن يجدوا من يرفع جثثهم. وكان بعض رجال المستشفى يوزعون «البسكوت» وكرات من الأرز ، ولكن رائحة الجثث كانت قوية حتى لم يحس الجوع إلا القليل . وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى بعد أن ظل دكتور سازاكى يعمل تسع عشرة ساعة بلا انقطاع فى هذا العمل المخيف صار غير قادر على تضميد جرح واحد آخر ، فأخذ هو وبعض الأحياء الآخرين من رجال المستشفى بعض الحصر وذهبوا إلى الخارج ، فاذا هنالك آلاف من المرضى ومئات من الموتى فى الفناء وفى الطريق المؤدى إليه ، فأسرعوا إلى ماخلف المستشفى ، وهناك رقدوا مستخفين عن الأنظار لكى يغفوا قليلا . ولكن الجرحى عثروا عليهم ولما تمض ساعة ، وتألفت حولهم حلقة من أفواه شاكية : « أيها الأطباء ساعدونا كيف تستطيعون النوم ؟ » ، فنهض الدكتور سازاكى عائداً إلى العمل . وفى الصباح الباكر من ذلك اليوم فكر لأول مرة فى والدته بمنزلهم الريفى فى موكايهارا على ثلاثين ميلا من المدينة ، وكان من عادته أن يعود إلى البيت فى كل ليلة ، وقد خشى أن تظن أنه مات .

على مقربة من المكان من النهر الذى نقل إليه مستر تانيمونو القساوسة كان صندوق كبير ملئ بكعك الأرز يظهر أن إحدى جماعات الانقاذ جاءت به للجرحى الراقدين فى تلك الجهات ولكنها لم توزعه . وقبل نقل القساوسة الجرحى أخذ بعض الحاضرين شيئاً من هذا الكعك وطفقوا يأكلون منه . وبعد بضع لحظات أتت جماعة من الجنود ، وعندما سمع ضابط منهم القساوسة وهم يتكلمون لغة أجنبية سل سيفه وسألهم وهو فى حالة عصبية من يكونون ، فهدأ

القساوسة روعه وأخبروه أنهم ألمان — أى حلفاء — فاعتذر إليهم الضابط وقال إن هناك شائعات بأن طيارين أمريكيين أنزلوا بالمظلات .

قرر القساوسة أن يذهبوا بالأب شيفر أولا . ولما كانوا على وشك الذهاب قال الأب الرئيس لاسال إنه يشعر ببرد شديد ، فخلع أحد الآباء اليسوعيين سترته ، وخلع آخر قميصه ، وقد سرا لتخفيف ثيابهما فى ذلك الليل الحار ، وابتدأ حاملو المحفة فى السير ، وكان طالب اللاهوت رائدهم ، وهو يحاول أن ينذر الآخرين بما يعترض من مصاعب . ولكن أحد القساوسة علقت قدمه بسلك من أسلاك التليفون فعثر وسقطت المحفة من جانبه ، فارتمى منها الأب شيفر وأغمى عليه ، ثم عاد إلى نفسه وعراه قئ ، فحمله الرجال وساروا به إلى طرف المدينة حيث رتبوا أن يكون هنالك عدد آخر من القساوسة يتولون العناية به ، وتركوه مع هؤلاء وعادوا أدراجهم ليحملوا الأب الرئيس .

كانت المحفة الخشبية مؤلمة جدا للأب لاسال الذى ارتشق فى ظهره عشرات من قطع الزجاج الرفيعة التى تطايرت من النوافذ . وعلى مقربة من طرف المدينة كان على الجماعة أن تسير حول سيارة مشتعلة فى الطريق الضيق ، ولم يستطع حاملو المحفة أن يروا من أحد جوانبها طريقهم فى الظلام فسقطوا فى حفرة عميقة ، فقذف بالأب لاسال إلى الأرض وانكسرت المحفة قطعتين . فتقدمهم أحد القساوسة ليأتى بعربة يد من الدار ، ولكنه لم يلبث أن وجد عربة يد أمام دار خاوية فعاد بها . فرفع القساوسة الأب لاسال فوق العربة وأخذوا يسيرون به على الطريق غير المستوى ما بقى من المسافة . وكان رئيس دار الرهبان المبتدئين قبل أن يلتحق بالرهبان طبيباً ، فطهر جراح القسين ووضعهما فى سريرين ذوى أغطية نظيفة ، وقد شكرا الله على ما وجدا من عناية .

على أن آلافاً من الناس كانوا لا يجدون من يعنى بهم ، وكانت الآنسة سازاكى إحدى هؤلاء ؛ فقد ظلت طوال ذلك الليل تتألم ألماً شديداً من رجلها المكسورة وهى مهجورة لا تجد معينا تحت ذلك الوقاء الخشن فى فناء مصنع الصفيح ، إلى جانب المرأة التى فقدت ثدييها والرجل الذى احترق وجهه حتى لم يكد يبقى له وجه . فلم تذق عيناها النوم ، ولم تتحدث إلى زميليها اللذين لم يذوقا النوم أيضاً .

وفى الحديقة حملت السيدة موراتا الأب كلاينسورج على أن يظل مستيقظاً طول الليل بأن جعلت تتحدث إليه . ولم ينم أيضاً أحد من أسرة نكامورا ؛ فان الأطفال مع ما بهم من مرض شديد كانوا مهتمين بكل ما يحدث ؛ وقد فرحوا حينما رأوا أحد خزانات البترول فى المدينة تشتعل فيه النار اشتعالا هائلا . وصاح الغلام توشيو ليلفت الآخرين إلى انعكاس الحريق فى النهر . وكان مستر تانيموتو بعد عدوه الطويل والساعات الكثيرة التى قضاها فى أعمال الانقاذ قد أخذه نوم قلق . وحينما استيقظ عند الضوء الأول للفجر نظر إلى النهر ، فوجد أنه لم يضع الأجسام اللزجة العفنة فى الليلة السابقة على مرتفع كاف فوق كثب رمل ؛ فان المد قد ارتفع إلى حيث وضعهم ولم تكن لديهم القوة على الحركة ولا بد أن يكونوا غرقوا ، ويصر بعدد من الأجسام طافية على النهر .

فى الصباح الباكر من يوم ١٧ أغسطس أعلنت الإذاعة اليابانية لأول مرة نبأ قصيراً لم يسمع به إلا القليل ، إن كان قد سمع به أحد من أولئك الذين هم أول من يهتمون بما احتواه وهم الأحياء فى هيروشيما . وهذا النبأ هو « أصيبت هيروشيما بخسائر كبيرة على أثر هجوم من عدد قليل من طائرات ب٢٩ والمعتقد أنه استعمل نوع جديد من القنابل . ويجرى التحقيق فى التفصيلات . » وليس من الراجح أن أحداً من الأحياء من أهل المدينة كان يستمع على الموجة القصيرة إلى إذاعة غير عادية يلقيها رئيس جمهورية الولايات المتحدة ويصف فيها القنبلة الجديدة بأنها ذرية ، ويقول : « فى هذه القنبلة من القوة أكثر مما يحتويه عشرون ألف طن من الديناميت ، وفيها من قوة الضغط الجوى أكثر من ألفى مرة من القنبلة البريطانية المعروفة باسم السلام الكبير ، وهى أكبر قنبلة استعملت فى تاريخ الحروب . » فقد كان الضحايا القادرون على أن يشغلوا أنفسهم بما حدث يفكرون فى هذا الأمر ويتناقشون فيه بعبارات بدائية أقرب ما تكون إلى الطفولة ، فربما كانت بترولا صب من السماء، أو غازاً قابلا للاشتعال ، أو كمية كبيرة من القنابل الحارقة أو عملا من أعمال رجال المظلات . ولو أنهم علموا الحقيقة لكان لهم مما هم فيه من الاعياء والاصابات والتفكير فى مصيرهم ما يشغلهم عن الاهتمام بأنهم كانوا موضوع أول تجربة كبيرة فى استعمال القوة الذرية وهى (على ما صاح به صوت المذياع على الموجة القصيرة)

لا يمكن أية دولة ، ما عدا الولايات المتحدة بمقدرتها الصناعية ورغبتها فى إلقاء مليونين من الدولارات الذهب فى مغامرة حربية هامة ، أن تستطيع إحداث تقدم فيها .

كان مستر تانيموتو لا يزال حانقاً على الأطباء ، وقد عزم على أن يقوم بنفسه باحضار أحدهم إلى حديقة أسانو — آخذاً بتلابيبه إذا اضطر إلى ذلك ، فعبر النهر ثم سار مارا على معبد الشنتو حيث قابل زوجته لحظة قصيرة فى اليوم السابق ، وبلغ ساحة الاستعراض الشرقية . ولما كانت هذه الساحة قد جعلت من زمن بعيد منطقة للالتجاء فقد خطر له أنه سيجد فيها موقعاً لإسعاف المصابين من الغارات . وقد وجد مركزاً لذلك تابعاً للخدمة الطبية فى الجيش ؛ ولكنه رأى أيضاً أن أطباءه مثقلون بالعمل حتى لا يرجى منهم نفع ، وأن أمامهم آلافاً من المرضى الذين يزحفون بين الجثث الملقاة فى الساحة ؛ ومع ذلك ذهب إلى أحد أطباء الجيش وقال له فى لهجة عتب قدر ما استطاع : « لماذا لم تأت إلى حديقة أسانو؟ فانهم هناك فى حاجة شديدة إليك . »

لم يرفع الطبيب رأسه من عمله حين قال فى صوت مجهود :

— هذا مقامى .

— ولكن هنالك كثيرين يموتون على ضفة النهر فى ذاك المكان !

قال الطبيب :

— إن الواجب الأول هو العناية بالذين جراحهم بسيطة .

— لماذا على حين يوجد كثيرون ممن جرحوا جراحاً خطيرة على جانب النهر؟

فانتقل الطبيب إلى مريض آخر ثم قال وكأنه يكرر درساً من كتاب :

— فى مثل هذه الضائقة يكون أول واجب هو مساعدة أكثر ما يمكن من الناس ، وإنقاذ حياة أكثر ما يمكن من الناس ، ولاأمل فى الذين جراحهم خطيرة فهؤلاء سيموتون فلا نستطيع أن نشغل أنفسنا بهم .

فأخذ مستر تانيموتو يقول :

— قد يكون هذا صحيحاً من الوجهة الطبية .

ولكنه نظر إلى الساحة فرأى الكثير من الموتى راقدين بين الأحياء ، فابتعد قبل أن يتم عبارته وهو حانق على نفسه ، وكان لا يدرى ماذا يفعل

فقد وعد بعض الذين على وشك الموت فى الحديقة بأنه يأتى لهم بمساعدة طبية وقد يموتون وهم معتقدون أنهم خدعوا . ورأى موضعاً لتوزيع الطعام فى جانب من الميدان فذهب إليه طلب شيئا من الأرز والبسكوت وحمله معه بدل الأطباء إلى من بالحديقة .

كان هذا الصباح حارا أيضاً ، وذهب الأب كلاينسورج ليأتى بالماء للجرحى فى قاروره وفى وعاء للشاى استعاره من بعضهم . وقد بلغه أنه من المستطاع أن يجد ماء سائغاً من صنبور خارج حديقة أسانو . وكان وهو يخترق الحدائق الصخرية مضطرا أن يتسلق أشجار البلوط الساقطة أو يزحف تحت جذورها ، وتبين له أنه يشعر بضعف . وكان هنالك كثيرون من الموتى فى الحدائق . وعلى جسر جميل فى شكل هلال مر على امرأة عارية الجسد لاتزال حية ، ويظهر أنها احترقت من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وكان جسمها كله أحمر . وعلى مقربة من مدخل الحديقة كان أحد أطباء الجيش يعمل ، ولم يكن لديه من الدواء غير اليود الذى كان يطلى به الجراح والخدوش والقروح اللزجة من الحريق وكل شئ . ورأى أن كل ما طلاه به قد تقيح . ورأى الأب كلاينسورج خارج باب الحديقة صنبوراً لا يزال صالحاً للعمل وهو بقية بيت اختفى ، فملأ إناءيه وقفل راجعاً . وبعد أن أمد بعض الجرحى بالماء رجع مره ثانية ، وفى هذه المره كانت المرأة الملقاة على الجسر قد ماتت . وفى عودته بعد أن تزود من الماء ضل طريقه وهو يتجنب شجرة ساقطة . وبينما هو يبحث عن طريقه بين الأدغال سمع صوتاً من تحت الأحراش يقول : « هل لديك ما نشربه ؟ » ولمح ثياباً عسكرية ، فظن أنه أمام جندى واحد واقترب بالماء ، فلما اخترق الأحراش وجد نحو عشرين رجلا وكلهم فى حالة واحدة مزعجة : فقد احترقت وجوههم بأكلها ، وصارت مواضع العيون مجوفة ، وجرى سائل العيون الذائبة على خدودهم . (ويظهر أن وجوههم كانت متجهة إلى السماء حينما ألقيت القنبلة ، ولعلهم كانوا يعملون فى مقاومة الطيارات .) وصارت أفواههم مجرد جراح متورمة علاها الصديد ولا يستطيعون أن يمدوا شفاههم لكى يتناولوا الماء من فم وعاء الشاى ، ولذلك بحث الأب كلاينسورج عن قطعة طويلة من قصب الغاب وأفرغ جوفها ليجعل منها أنبوبة . وجعل يسقيهم جميعاً بهذه الوسيلة ، وقال له أحدهم : « إنى

لا أرى شيئاً . » فأجابه الأب كلاينسورج متكلفاً المرح بقدر ما يستطيع : « هنالك طبيب عند مدخل الحديقة وهو مشغول الآن ولكنه سيحضر قريباً ، وأرجو أن يستطيع رد عينيك . »

ومنذ ذلك اليوم صار الأب كلاينسورج يعجب مما كان يعتريه من الجبن حينما كان يرى الدم من قبل ، فكان يأخذه الدوار عندما يرى أصبعاً مقطوعة ؛ ولكنه فى تلك الحديقة تعود الآلام حتى لقد وقف على أثر تركه لهذا المنظر الفظيع على جانب أحد مجارى المياه وتحدث إلى رجل به جراح خفيفة : أمن الحكمة أكل سمكة سمينة يبلغ طولها قدمين ماتت وهى طافية على وجه الماء ؟ نقرر بعد تفكير أنه ليس من الحكمة أكلها .

وملأ الأب كلاينسورج إناءيه مرة ثالثة وذهب بهما إلى شاطئ النهر . وهناك بين الموتى والذين على وشك الموت رأى فتاة فى يدها خيط وإبرة وهى تصلح الكيمونو الذى كان قد تمزق قليلا ، فمازحها الأب كلاينسورج قائلا : « يا لله ! إنك لمحبة للتأنق ! » فضحكت .

وشعر بالتعب فجلس وأخذ يتكلم مع طفلين ظريفين كان قد عرفهما بعد ظهر اليوم السابق ، وعرف أن اسمهما كاتوكا ، وهما بنت فى الثالثة عشرة من عمرها وصبى فى الخامسة من عمره ، وكانت البنت على وشك الخروج قاصدة حانوت حلاق عند ما سقطت القنبلة . ولما كانت الأسرة تسير قاصدة حديقة أسانو اعتزمت أمهما العودة لإحضار طعام وثياب ، فافترقا عنها وسط زحام الجماهير الهاربة ، ولم يرياها منذ ذلك الوقت ، وكانا أحياناً يقفان فجأة فى لعبهما ومرحهما فى الحديقة ليبكيا على أمهما .

وكان من الصعب على جميع الأطفال فى الحديقة أن يظلوا شاعرين بالمأساة ؛ فلقد أظهر توشيو نكامورا فرحاً شديداً عند ما رأى صديقه سايشى ساتو فى قارب على النهر مع أسرته ، وجرى إلى الشاطئ ملوحاً بيده وصارخاً : « ساتو ! ساتو ! »

فأدار الغلام رأسه وصاح :

— من هذا ؟

— نكامورا .

— مرحى ياتوشيو !

— هل أنتم سالمون جميعاً ؟

— نعم ! وماذا حل بكم ؟

— نعم نحن جميعاً سالمون وأختاى ثقيئان ولكنى معاف .

بدأ الأب كلاينسورج يشعر بالعطش فى هذا الحر الشديد ، ولكنه لم يكن يجد من القوة ما يستطيع به أن يذهب مرة أخرى إلى الماء . وفيما قبل الظهر رأى امرأة يابانية توزع شيئاً ، ولم تلبث أن جاءت إليه وقالت فى صوت رقيق : « هذه بعض أوراق الشاى فامضغها أيها الشاب وعندئذ لا تشعر بالعطش . » وقد أثرت فى الأب كلاينسورج رقة المرأة حتى أحس فجأة بالرغبة فى البكاء . فلقد ظل منذ أسابيع يتألم لكراهية اليابانيين للأجانب التى يظهر أنها كانت تتزايد فيهم ، وصار لا يشعر بالارتياح حتى مع أصدقائه من اليابانيين ؛ فكان هذا العطف من المرأة الغريبة مما أثر فى أعصابه .

وفى نحو الظهر وصل القساوسة من دار الرهبان المبتدئين ومعهم عربة يد ، فذهبوا إلى موقع دار البعثة فى المدينة وأنقذوا بعض حقائب الثياب التى كانت مودعة مخبأ الوقاية من الغارات ، كما التقطوا بقايا الأوانى المقدسة بين رماد الكنيسة . وفى هذه المرة التقطوا حقيبة الأب كلاينسورج المصنوعة من الورق المضغوط وبعض الأشياء التى تخص السيدة موراتا وأسرة نكامورا ووضعوها فى العربة كما وضعوا أطفال أسرة نكامورا واستعدوا للذهاب . ولكن أحد اليسوعيين وكان يتجه عقله اتجاهاً عمليا تذكر أنهم أنبئوا من قبل بأنهم إذا أصيبوا بخسائر فى أملاكهم من فعل العدو استطاعوا أن يقدموا طلباً بالتعويض إلى شرطة المجلس البلدى . فأخذ رجال الدين يبحثون هذه المسألة فى الحديقة على حين كان الجرحى صامتين كالموتى من حولهم ، وقرروا أنه يجب على الأب كلاينسورج بوصفه أحد المقيمين بدار البعثة التى دمرت أن يقدم هذا الطلب . وعلى ذلك ذهب من أتوا بعربة اليد ، وودع الأب كلاينسورج الطفلين من أسرة كاتوكا.وذهب قاصداً مركز الشرطة ، وكان يعمل به رجال حديثون ذوو ثياب نظيفة جئ بهم من مدينة أخرى ، واحتشد حولهم جمع أشعث أغبر من الأهالى أكثرهم يسأل عن أقاربه المفقودين . وكتب

الأب كلاينسورج طلباً وأخذ يسير مخترقاً وسط المدينة فى طريقه إلى نجاتسوكا ، وكانت هذه أول مرة استطاع فيها أن يعرف مدى ما حدث من أضرار ؛ فقد مر على كثير من الأبنية الخربة ، حتى لقد تقطعت أنفاسه من الدهشة بالرغم من كل ما رآه فى الحديقة . وعند ما وصل إلى دار الرهبان المبتدئين ألفى نفسه مريضاً من شدة الاعياء ، وكان آخر شئ فعله قبل أن يرتمى فى الفراش أن طلب ذهاب أحد ليأتى بالطفلين من أسرة كانوكا اللذين فقدا أمهما .

ظلت الآنسة سازاكى يومين وليلتين متروكة برجلها المكسورة وزميلتها الكريهين ، تحت السقف المسند . وكان لا يشغلها غير منظر الرجال حينما يجيئون للمخابئ التى أنشأها المصنع للوقاية من الغارات الجوية ، إذ كانت تراها وهى تحت غطائها ، وكان هؤلاء الرجال يرفعون الجثث من هذه المخابئ بالحبال . وقد تغير لون رجلها وتورمت وتعفنت ، وظلت كل هذا الوقت بلاطعام ولا ماء . وفى اليوم الثالث أى فى ٨ أغسطس جاء بعض الأصدقاء الذين ظنوا أنها ماتت للبحث عن جثتها ، فوجدوها وأخبروها أن أمها وأباها وأخاها الطفل الذين كانوا وقت الانفجار فى مستشفى تامورة للأطفال ، إذ كان الطفل مريضاً ، عُدُّوا من الموتى ؛ لأن المستشفى دمر تماماً . وتركها هؤلاء الأصدقاء لتفكر فى هذا النبأ الذى حملوه إليها . وفيما بعد جاء بعض الرجال وحملوها من ذراعيها ورجليها وساروا بها مسافة طويلة إلى عربة نقل . فظلت هذه العربة تسير نحو ساعة فى طريق غير معبد . وكانت الآنسة سازاكى قد استولى عليها الاعتقاد بأنها غدت لا تحس بالألم ، ولكن تبين لها أن هذا غير صحيح . ورفعها رجال محطة الاسعاف بحى أنوكوتشى إلى حيث فحصها طبيبان من أطباء الجيش . فأغمى عليها فى اللحظة التى مس فيها أحدهما جرحها ، ثم عاد إليها صوابها ، فاذا بها تسمعهما يتناقشان فى رجلها وهل الواجب قطعها . وقال أحدهما إن فى أطراف الجرح تعفناً غازياً ، وتكهن بموتها إن لم تقطع الرجل . وقال الآخر إن هذا لأمر سئ ، إذ ليس لديهم الأدوات الصالحة لهذا العمل ، فأغمى عليها مرة ثانية . ولما استفاقت رأت نفسها تحمل على محفة إلى مكان آخر ، ووضعت فى قارب نقلها إلى جزيرة نينوشيما القريبة حيث حملت إلى المستشفى الحربى

هنالك . وفحصها طبيب آخر وقال إنه ليس بها تعفن غازى ، ولكن الكسر من النوع المركب السيئ ، وقال فى برود : إنه يأسف إذ أن هذا المستشفى للعمليات الجراحية فقط ، وبما أنها خالية من التعفن فيجب إعادتها إلى هيروشيما فى تلك البلة . ثم قاس الطبيب حرارتها ، وما رآه فى مقياس الحرارة حمله على أن يقرر بقاءها .

فى ذلك اليوم وهو ٨ أغسطس ذهب الأب شيزلك إلى المدينة ليبحث عن مستر فوكاى كاتم السر اليابانى للدار، وهو الذى حمل بالاكراه من المدينة المشتعلة على ظهر الأب كلاينسورج ، ولكنه عاد إليها فى نوبة من العته . وابتدأ الأب شيزلك يبحث حول جسر ساكاى حيث رأى اليسوعيين مستر فوكاى لآخر مرة . ثم ذهب إلى أرض الاستعراض الشرقية ، وهى المساحة التى خصصت للاجئين لعل كاتم السر أن يكون ذهب إليها ، وبحث عنه بين الجرحى والموتى . ثم ذهب إلى مركز الشرطة سائلا عنه فلم يجد للرجل من أثر ، وعند ما عاد فى المساء إلى دار الرهبان المبتدئين ، روى طالب اللاهوت الذى كان يساكن مستر فوكاى فى دار بعثة القساوسة ، أن كاتم السر تحدث إليه ذات يوم قبل ضرب المدينة بقليل فى أثناء إنذار بغارة جوية فقال : « إن اليابان فى طريق الموت . فاذا حدثت غارة جوية حقيقية فى هيروشيما فانى أرغب أن أموت مع بلادى . » فاستنتج القساوسة أن مستر فوكاى قد عاد أدراجه ليضحى بنفسه فى النيران ، ولم يروه بعد ذلك .

ظل دكتور سازاكى يعمل فى مستشفى الصليب الأحمر ثلاثة أيام متوالية من غير أن ينام إلا ساعة واحدة . وقد أخذ فى اليوم الثانى يخيط الجراح الكبيرة ، وظل طول تلك الليلة وطول اليوم التالى يقوم بهذا العمل . وكان الكثير من الجراح قد عراه التعفن ، ولكن من حسن الحظ أن وجد أحد الناس كمية من الناروكول ظلت سليمة ، وهو مخدر يابانى ، فصار يعطيه الذين يشعرون بالألم . ولقد ذاعت شائعة بين رجال المستشفى أن بهذه القنبلة الكبيرة شيئاً خاصا ؛ لأن وكيل المستشفى ذهب فى اليوم التالى إلى الطبقة السفلى منه وإلى القبو الذى خزنت فيه لوحات أشعة إكس فوجد جميع اللوحات معرضة فى مكانها . وفى ذلك اليوم جاء طبيب جديد وعشر ممرضات من مدينة ياماجوشى

ومعهم أربطة ومطهرات ، وفى اليوم الثالث جاء طبيب آخر واثنتا عشرة ممرضة من ماكسو ، ومع ذلك لم يكن هنالك غير ثمانية أطباء لعشرة آلاف مريض . وبعد ظهر اليوم الثالث وقد خارت قوى دكتور سازاكى من كثرة ما كان يقوم به من خياطة الجروح الكريهة ، بدأت تسيطر عليه فكرة ، وهى أن أمه تظن أنه مات . فاستأذن فى أن يذهب إلى موكايهارا ، ومشى إلى الضواحى الأولى التى كان القطار الكهربائى لا يزال يعمل بعدها ، ووصل إلى داره فى الليل . وقالت أمه إنها كانت تعلم طول الوقت أنه سليم إذ أنبأتها بذلك ممرضة جريحة ، فذهب إلى السرير ونام سبع عشرة ساعة .

فى يوم ٨ أغسطس قبل انبثاق الفجر دخل داخل إلى الغرفة التى رقد فيها الأب كلاينسورج فى دار الرهبان المبتدئين ، ومد يده إلى مصباح النور المعلق فأضاءه ، فأدى هذا الضوء الفجائى الذى انصب على الأب كلاينسورج وهو بين النوم واليقظة ، إلى أن يقفز من سريره ، وهو على استعداد لانفجار جديد . ولما عرف ماحدث ضحك فى خجل وعاد إلى فراشه وظل فيه طول يومه .

فى يوم ٩ أغسطس كان الأب كلاينسورج لايزال متعباً . ولقد فحص رئيس الدار جروحه وقال إنها ليست جديرة بأن تربط ، وأنه إذا حرص الأب كلاينسورج على نظافتها فانها تلتئم فى ثلاثة أيام أو أربعة . وكان الأب كلاينسورج يشعر بقلق وهو لايكاد يعى ما مر به وكأنه مذنب ارتكب جريرة ، ورأى أن من الواجب عليه أن يعود إلى مكان تلك المأساة التى مرت به ، فقام من فراشه وذهب إلى المدينة ، وظل يجوس بعض الوقت خلال خرائب دار البعثة ولكنه لم يجد شيئاً ، وذهب إلى مواقع بعض المدارس وسأل عن أناس يعرفهم وبحث عن بعض اليابانيين من الكاثوليك فلم يجد غير دور مهدمة ؛ فعاد أدراجه إلى دار الرهبان المبتدئين وهو دهش دون أن يزداد فهماً لهذه الحال .

وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية من صباح يوم ٩ أغسطس ألقيت القنبلة الذرية الثانية على نجازاكى . ولقد مرت عدة أيام قبل أن يعرف

الأحياء من أهل هيروشيما أن لهم زملاء فى المصيبة ؛ لأن الاذاعة اليابانية والصحف اليابانيـة كانت كثيرة الحذر فى أمر السلاح الجديد .

وفى يوم ٩ أغسطس كان مستر تانيموتو لا يزال يعمل فى الحديقة ، وقد ذهب إلى ضاحية أوشيدا حيث تقيم زوجته مع أصدقاء ، وجاء بخيمة كان قد احتفظ بها هناك قبل ضرب المدينة فجاء بها إلى الحديقة وأقامها لتكون وقاية لبعض الجرحى الذين لايستطيعون أن يتحركوا أو لايستطاع نقلهم . وكان يشعر فى كل مايعمله بأن عين السيدة كاماى جارته السابقة وهى الفتاة التى تبلغ العشرين من العمر تراقبه ، وهى السيدة التى رآها فى يوم انفجار القنبلة وطفلها الميت بين ذراعيها وقد احتفظت بالجثة الصغيرة بين ذراعيها مدة أربعة أيام مع أن الجثة كانت قد تعفنت فى اليوم الثانى. ولقد جلس مستر تانيموتو مرة معها لحظة فصبره وأخبرته بأن القنبلة دفنتها تحت أنقاض دارها وطفلها مشدود إلى ظهرها ، ولما استطاعت أن ترفع عنها الأنقاض وجدت الطفل يختنق وقد امتلأ فمه بالأقذار ، فنظفت فم الطفل بأصبعها الصغيرة ، وتنفس الطفل بعض الوقت تنفساً عاديا كأنه سليم ولكنه مات فجأة وتحدثت السيدة كاماى عن زوجها وطيبته ، وعادت ترجو مستر تانيموتو أن يبحث عنه . ولما كان مستر تانيموتو قد اخترق شوارع المدينة فى اليوم الأول ورأى الجنود مصابين بحروق فظيعة فى كل مكان من معسكر شوجوكو المحلى للجيش وهو الذى كان فيه كماى كان على يقين بأنه من المستحيل العثور على كماى ولو كان حيا ، ولكنه بالطبع لم يفض إليها بذلك . وكانت فى كل مرة ترى مستر تانيمو توتسأله هل وجد زوجها ، وحاول ذات مرة أن يقترح أنه ربما كان الوقت قد حان لدفن الطفل ، ولكن السيدة كماى ضمته بأقوى مما كانت تفعل وأخذ يتجنبها ، ولكنه كان كلما نظر إليها ألفاها محدقة فيه وعيناها تسألان السؤال نفسه فحاول أن يبتعد عن نظرتها بأن كان يوليها ظهره كلما استطاع ذلك .

آوى اليسوعيون نحو خمسين من اللاجئين فى كنيستهم الجميلة بدار الرهبـان المبتدئين ، وقد عنى الرئيس بهم العنـاية الطبيـة التى يستطيعها ، وأكثرها لايعدو تطهير الجراح من الصديد ، وقد أمد كل واحد من أفراد أسرة

نكاموراً بغطاء وناموسية . وكانت السيدة نكامورا وابنتها الصغرى لا تجدان شهية للطعام فلم يأكلا شيئاً . أما الابن والابنة الأخرى فكانا يأكلان فى كل وجبة مايقدم إليهما ولكنهما كانا يلقيان بهذا الأكل بعد قليل .وفى يوم ١٠ أغسطس زارت الأسرة صديقة هى السيدة أوزاكى وأنبأتهم أن ابنها هيديو أحرق حيا فى المصنع الذى يعمل فيه ، وكان توشيو ينظر إلى هيديو هذا نظرته إلى بطل ، وكثيراً ما ذهب إلى المصنع ليراقبه حين كان بسير الآلة التى يعمل فيها . وفى تلك الليلة هب توشيو من نومه وهو يصرخ ؛ إذ رأى فى حلمه السيدة أوزاكى خارجة من ثغرة فى الأرض مع أسرتها ، ثم رأى هيديو يشتغل أمام آلة المصنع وهى آلة كبيرة فيها سير متحرك وكان هو واقفاً إلى جانب هيديو . ولأمر ما كانت هذه الرؤيا مخيفة .

فى يوم ١٠ أغسطس سمع الأب كلاينسورج من أحد الناس بأن الدكتور فوجى أصيب وأنه ذهب إلى مصيف صديق له اسمه أوكوما فى قرية فوكاوا فطلب من الأب شيزلك أن يذهب ليراه فذهب الأب شيزلك إلى محطة ساسا خارج هيروشيما وركب قطارا كهربائيا مدة عشرين دقيقة ثم مشى ساعة ونصف ساعة فى شمس محرقة إلى منزل مستر أوكوما ، وكان المنزل إلى جانب نهر أوتا فى سفح أحد الجبال ، فألفى الدكتور فوجى جالساً على مقعد وهو يرتدى الكيمونو ويضع ضمادات على عظمة رقبته المكسورة . وروى الطبيب للأب شيزلك كيف فقد نظارته وقال إن عينيه تضايقانه ، وأرى القس علامات كبيرة زرقاء وخضراء حيث وقعت ألواح الخشب فسببت رضوضاً ، وقدم للأب سيجارة أولا ثم استأذنه فى كأس من الويسكى مع أن الساعة كانت الحادية عشرة من الصباح . وظن الأب شيزلك أنه مما يرضى الدكتور فوجى أن يشرب قليلا فلم يمانع ، فجاء خادم بشئ من الويسكى السنتورى . وتجاذب الأب اليسوعى والطبيب والمضيف حديثاً لذيذاً جدا ؛ فقد كان مستر أوكوما يعيش فى جزر هواى وذكر أشياء عدة عن الأمريكيين ، وتحدث دكتور فوجى قليلا عن الكارثة ، وقال إن مستر أوكوما وإحدى الممرضات ذهبا إلى خرائب مستشفاه وعادا بخزانة صغيرة كان قد نقلها إلى مخبئه للوقاية من الغارات ، وهذه الخزانة تحتوى على بعض الآلات الجراحية . وأعطى الدكتور فوجى للأب

شيزلك عدداً من القصات والملاقط ليوصلها لرئيس دار الرهبان المبتدئين . وكان الأب شيزلك يكن رغبة خفية فى نفسه ولكنه انتظر إلى أن تطور الحديث بطبيعته إلى سر القنبلة . وحينئذ قال : إنه يعرف نوعها و إنه عرف هذا السر من رجل عليم ، وهو صحفى يابانى مر بدار الرهبان ، فالذى ألقى لم يكن قنبلة مطلقا بل هو نوع من مسحوق المغنيسيوم الدقيق نثر على المدينة بأكلها من طيارة واحدة ، وانفجر عندما مس الأسلاك المكهربة للقوة الكهربائية فى المدينة . فقال الدكتور فوجيى وقد ركن إلى هذا التفسير كل الركون إذ جاء من صحفى : « هذا معناه أنه لا يلقى إلا على المدن الكبيرة وفى النهار فحسب عند ما تكون خطوط الترام وما ماثلها تعمل . »

بعد خمسة أيام من العناية بالجرحى فى الحديقة عاد مستر تانيموتو فى يوم ١١ أغسطس إلى دار بعنته وأخذ يحفر حول الأنقاض ، فاسترد بعض المذكرات وسجلات الكنيسة التى كانت تحفظ كأنها كتب ولم تمسس النار إلا أطرافها ، كما استرد بعض أدوات الطبخ وبعض الآنيـة . وبينما هو يعمل جاءته الآنسة تاناكا وقالت إن أباها يسأل عنه . وكان لدى مستر تانيموتو أسباب لكراهية أبيها وهو موظف شركة الملاحة الذى اعتزل العمل والذى كان يبدى تظاهراً بالاحسان ، وكان مع ذلك معروفاً بأنانيته وقساوته ، وهو الذى قال صراحة لعدد من الناس قبل بضعة أيام من ضرب المدينة إن مستر تانيموتو جاسوس للأمريكيين . ولقد هاجم المسيحية عدة مرات وقال إنها لا تلائم اليابانيين . وكان مستر تاناكا فى لحظة إلقـاء القنبلة يسير أمام محطـة الإذاعة فى المدينة وأصيب بحروق خطيرة ، ولكنه استطاع أن يعود إلى داره على رجليه والتجأ إلى ملجأ جمعية الجيران ، ومن هنالك حاول أن يجد مساعدة طبية ، وكان ينتظر أن يهرع إليه جميع أطباء هيروشيما لأنه كان ثريا جـدا ومشهوراً بالاحسان . فلما لم يأت إليه منهم أحد خرج يسعى إليهم وهو غاضب وكان يسعى مستنداً على ذراع ابنته إلى المستشفيات الخاصة من مستشفى إلى آخر فاذا جميع المستشفيات قد صارت خرائب ، وعاد إلى المخبأ ورقد فيـه ، وهو الآن ضعيف جداً ، ويعلم أنه سيموت ، وهو يرغب فى أن يجد مساعدة دينية فى لحظاته الأخيرة من أى دين كان .

وذهب مستر تانيموتو لمساعدته ونزل إلى الملجأ الشبيه بالقبر فلما اعتادت عيناه الظلام رأى مستر تاناكا وقد تورم وجهه وذراعاه وعلاها الصديد والدماء ، وكان مغمض العينين المتورمتين ، وتفوح من الشيخ رائحة كريهة وهو دائم الأنين ، ويُظَن أنه عرف صوت مستر تانيموتو . ووقف مستر تانيموتو على سلم المخبأ لكى ينفذ إليه النور وقرأ فى صوت عال من توراة باللغة اليابانية: « . . . لأن ألف سنة فى عينيك مثل يوم أمس بعدما عبر ، وكهزيع من الليل. جرفتهم كسنة يكونون . بالغداة كعشب يزول . بالغداة يزهر فيزول . عند المساء يجز فييبس .

لأننا قد فنينا بسخطك ،وبغضبك ارتعبنا . قد حفلت آثامنا أمامك ، خفياتنا فى ضوء وجهك . لأن كل أيامنا قد انقضت بزجرك أفنينا سنينا كقصة . . . »

ومات مستر تاناكا فى حين كان مستر تانيموتو يتلو هذا المزمور .

وفى ١١ أغسطس أبلغ مستشفى نينوسيما الحربى أن عدداً كبيراً من المصابين فى معسكر شوجوكو المحلى سيصلون إلى الجزيرة فى ذلك اليوم ، فرئى أنه من الضرورى نزوح جميع المرضى من المدنيين عنه . ووضعت الآنسة سازاكى ، وكانت الحمى لا تزال لديها شديدة جداً ، فى سفينة كبيرة ورقدت على ظهر السفينة وقد وضعت وسادة تحت رجلها ، وكان ظهر السفينة مغطى بالقماش ، ولكن سير السفينة عرّضها لضوء الشمس فأحست كأنما سلطت عليها عدسة مكبرة تحت الشمس وسال الصديد من جرحها فغطى الوسادة بأجمعها ، وأنزلت إلى البر فى هاتشوكايشى ، وهى مدينة تبعد عدة أميال إلى الجنوب الشرقى من هيروشيما ، ونقلت إلى مدرسة إلهة الرحمة الابتدائية التى اتخذت مستشفى ، ورقدت هنالك عدة أيام قبل أن يأتى طبيب اختصاصى فى العظام من كوبا ، وكانت رجلها قد صارت حمراء وامتد الورم إلى الفخذ ، فقرر الطبيب أنه لا يستطيع إصلاح مواضع الكسر وفتح ثغرة وضع فيها أنبوبة من المطاط لاستنزاف الصديد .

وفى دار الرهبان المبتدئين كان طفلا كاتوكا اللذان فقدا أمهما لايجدان

عزاء ، وبذل الأب شيزليك جهداً كبيراً لكى يلهيهما ، وكان يسألها حل بعض الألغاز ، وسألها : « ما هو أذكى حيوان فى العالم ؟ » فأخذت الابنة البالغة ثلاث عشرة سنة من عمرها تخمن : تذكر القرد ثم الفيل ثم الفرس فقال لها : « كلا لابد أنه فرس البحر . » لأن اسم هذا الحيوان باللغة اليابانية هو « كابا » وهى عكس كلمة « باكا » التى تعنى الغبى . ثم أخذ يقص عليهما قصصاً من التوراة بادئاً بطبيعة الحال من الخليقة ، وأراهم كتاباً جمعت فيه صور سربعة أخذت لمناظر من أوربا ، ومع ذلك كان الطفلان يبكيان أكثر الوقت على أمهما .

وبعد عدة أيام ابتدأ الأب شيزليك يبحث عن أسرة الطفلين ، فعلم أولاً من مركز الشرطة أن عماً للطفلين قصد السلطات فى مدينة كورى القريبة ليسأل عنهما ، ثم سمع بعد ذلك أن أخاً أكبر لها حاول أن يعثر على مكانهما من مكتب البريد فى أوجينا وهى ضاحية من ضواحى هيروشيما ، ثم سمع بعد ذلك أن الأم لا تزال حية وهى فى جزيرة جوتو على مقربة من ناجازاكى ، وأخيراً بوساطة مراقبة مكتب البريد بأوجينا استطاع أن يتصل بالأخ ويعيد الطفلين إلى أمهما .

بعد نحو أسبوع من إلقاء القنبلة وصلت هيروشيما شائعة غامضة غير مفهومة — هى أن المدينة دمرت بالقوة الناشئة عن تحطيم الذرة قسمين بطريقة ما . وقد سمى هذا السلاح فى هذه الشائعة المتناقلة بالأفواه « جنشى باكودان » . ويمكن ترجمة الأصول التى اشتق منها هذان اللفظان بعبارة « قنبلة طفل أصيلة » . ولم يفهم أحد هذه الفكرة ، وكذلك لم يطمئن أحد إلى هذه الشائعة أكثر مما اطمأن إلى شائعة مسحوق المغنيسيوم وما ماثلها من تكهنات . وقد بدأت الصحف تأتى من مدن أخرى ، ولكنها ظلت مقتصرة على بيانات عامة كتصريح دوماى فى يوم ١٢ أغسطس : « ليس لدينا غير الاعتراف بالقوة الهائلة لهذه القنبلة الوحشية . » ولكن علماء من الباحثين فى الطبيعة كانوا قد وفدوا على المدينة ومعهم آلاتهم من أمثال إلكتروسكوب لورتسن وإلكترومتر نيهر ، ولا ريب فى أنهم كانوا على علم بالفكرة .

وفى يوم ١٢ أغسطس ذهبت أسرة نكامورا ، وهم لايزالون مرضى بعض الشئ ، إلى مدينة كابى القريبة وأووا إلى أخت زوجها نكامورا . وفى اليوم التالى عادت السيدة نكامورا إلى هيروشيما وحدها مع أنها كانت مريضة لا تستطيع السير طويلا ، وقد ركبت القطار الكهربائى إلى أطراف المدينة ثم سارت على الأقدام . وكانت طوال الأسبوع الذى أمضته فى دار الرهبان المبتدئين مشغولة الخاطر بأمها وأخيها وأختها الكبرى ، وهم يسكنون جانب المدينة المسمى فوكوزو ، يضاف إلى ذلك انها قد شعرت بما يجذبها إلى المدينة كما جذب الأب كلاينسورج . وقد تبين لها أن أفراد أسرتها ماتوا جميعاً . فعادت إلى كابى وقد اشتملها الحزن والدهشة لما رأته وعلمته فى المدينة حتى إنها لم تنطق بكلمة طوال تلك الليلة .

أخذ مستشفى الصليب الأحمر يعود إلى نوع من النظام ، وعاد مستر سازاكى من راحته فبدأ يقسم المرضى إلى أقسام (وكانوا لا يزالون مبعثرين فى كل مكان حتى على السلم) . وتمكن رجال المستشفى ونساؤه من تنظيفه شيئاً فشيئاً من الأنقاض ، بل هم فعلوا ماهو خير من ذلك ، إذ أخذ الممرضات والخدم يرفعون الجثث . ويرى اليابانيون فى تشييع الموتى بإحراق جثثهم ووضعها فى القوارير ثم فى الهيكل تبعة أدبية أكبر من العناية المناسبة بالأحياء . ولقد تعرف أقارب الموتى على أكثر الذين ماتوا فى اليوم الأول داخل المستشفى وحوله . ومنذ اليوم الثانى كان إذا ظهر على أحد المرضى علائم الهلاك تكتب ورقة باسمه وتعلق بثيابه . ولقد نقل جامعو الجثث هذه الأجسام إلى أرض فضاء فى الخارج ووضعوها فوق قطع من أخشاب جمعت من أنقاض الدور المتهدمة ثم أحرقوها ، ووضعوا بعض رمادها فى ظروف كانت معدة لألواح أشعة إكس ، ثم وضعواعلى كل ظرف اسم المتوفى ، ثم جمعوا هذه الظروف فى نظام وعناية فى رفوف فى المكتب الرئيسى وبعد بضعة أيام كانت هذه االظروف قد ملأت جانباً بأكمله من هذا الهيكل الوقتى الذى دبر تدبيراً .

وفى مدينة كابى فى يوم ١٢ أغسطس سمع توشيو نكامورا الغلام البالغ من العمر عشر سنوات صوت طيارة فوق رأسه ، فجرى خارج الدار ،

وعرف بعين خبيرة أنها طيارة من طراز ب ٢٩ فصاح : « هـذا مستر ب يطير ! »

فناداه أحد أقاربه قائلا : « ألم يكفك ما عرفت من مستر ب ؟ »

وكان فى هذا السؤال نوع من الرمزية . ففى تلك اللحظة بالذات تقريبا كان صوت خفيض يائس هو صوت هيروهيتو الإمبراطور تنو يتكلم لأول مرة فى التاريخ ليذيع : « بعد تفكير عميق فى الاتجاهات العامة فى العالم والأحوال الحاضرة فى إمبراطوريتنا اليوم قررنا أن نصل إلى تسوية الموقف الحاضر باتخاذ إجراء غير اعتيادى . . . »

عادت السيدة نكامورا مرة أخرى إلى المدينة لتخرج بعض الأرز الذى خبأته فى مخبأ الوقاية من الغارات لجمعية الجيران ، ووجدت هذه الكمية ، وأخذت طريقها إلى كابى ، وفى القطار لقيت بمحض المصادفة أختها الصغرى التى لم تكن فى هيروشيما يوم إلقاء القنبلة على المدينة،فقالت لها أختها : « هل سمعت الأنباء ؟ »

— أى نبأ ؟

— لقد انتهت الحرب .

— لا تقولى يا أختاه مثل هذا القول السخيف .

— ولكنى سمعت ذلك بالاذاعة اللاسلكية . ثم فى همس : وكان صوت الامبراطور .

قالت السيدة نكامورا : « أوه ! » (ولم تكن بحاجة لأكثر من ذلك حتى تتخلى عن الفكرة بأن اليابان لاتزال أمامها الفرصة لكسب الحرب بالرغم من القنبلة الذرية) « فى هذه الحالة . . . »

مضى حين من الدهر على هذا الحادث . ووصف مستر تانيموتو إلى أمريكى فى رسالة حوادث ذلك الصباح : « فى الوقت الذى انتهت فيه الحرب حدث شئ عجيب فى تاريخنا ؛ فقد أذاع إمبراطورنا مباشرة بصوته متكلما إلينا نحن الرجال العاديين فى اليابان ، فقد أنبئنا أنه ستلقى علينا فى ١٥ أغسطس أنباء عظيمة الخطر ، ويجب أن نسعى إلى سماعها . فذهبت إلى محطة السكة الحديدية

بهيروشيما حيث أقيم مكبر للصوت فى أنقاض المحطة ، واحتشد هنالك عدد كبير من المدنيين كلهم برباطات وبعضهم مستند إلى أكتاف بناتهم والبعض يستعين على أقدامه المصابة بالعصى ، وأخذوا يستمعون إلى الاذاعة . ولما تحقق لديهم أنه الامبراطور أخذوا يصيحون والدموع تنهمر من أعينهم : « أية بركة عجيبة أن ينادينا تنو بنفسه وأن نسمع صوته شخصيا ! إننا لراضون كل الرضا فى مثل هذه التضحية العظيمة . » ولما علموا أن الحرب انتهت — أى إن اليابان هزمت — تألموا بالطبع تألماً كبيراً ، ولكنهم أذعنوا لأمر إمبراطورهم فى روح هادئة مقدمين على التضحية بطيبة خاطر من أجل السلم الدائم فى العالم . وابتدأت اليابان فى طريقها الجديد . »

٤

الثمام وشجرة مريم

فى يوم ١٨ أغسطس وبعد اثنى عشر يوماً على انفجار القنبلة ، سار الأب كلاينسورج على قدميه من دار الرهبان المبتدئين وفى يده حقيبته المصنوعة من الورق المضغوط قاصداً هيروشيما . وقد أخذ يفكر أن لهذه الحقيبة التى يحتفظ فيها بالأشياء ذات القيمة لديه ، قوة سحرية بسبب الحالة التى وجدها فيها بعد الانفجار ؛ إذ كانت قائمة ومقبضها من أعلى على باب غرفته على حين كان المكتب الذى يخبأ هذه الحقيبة تحته قد انتثر قطعاً على الأرض . وهو الآن يستعملها ليحمل عملة الين التى تمتلكها جمعية اليسوعيين ، إلى فرع هيروشيما لبنك العملة فى بوكوهاما ، وقد أعيد فتحه فى داره التى تخربت قليلا ، وكان يشعر فى ذلك الصباح بوجه عام أنه متمالك لقواه . أجل ! إن الجروح الصغيرة التى أصيب بها لم تلتئم فى ثلاثة أيام أو أربعة كما قال رئيس الدار الذى فحصها ونوقع ذلك ، ولكن الأب كلاينسورج تمكن من الراحة أسبوعاً ، وظن أنه صار يستطيع أن يستأنف العمل الشاق . وكان قد اعتاد المنظر الفظيع الذى يمر عليه فى طريقه إلى المدينة ، وقد صارت حقول الأرز الشاسعة على مقربة من دار الرهبان المبتدئين مخططة بالسواد ، والدور فى أطراف المدينة قائمة ولكنها مصابة بنوافذها المكسورة وحواجز سقوفها المتساقطة . ثم يبتدئ فجأة أوائل الأميال الأربعة المريعة من الجرح الأدكن الدامى حيث انهار كل شئ تقريباً واحترق ، وسقطت عمارات المدينة صفا بعد صف . وهنا وهنالك ترى علامات نصبت فوق الرماد والآجر (كتب عليها : « أين أنت

يا أختاه؟ » ، أو « لقد نجونا جميعاً ونحن نعيش فى تويوساكا ») وهنالك الأشجار العارية ، وعمد التليفون المنقضة ، والمبانى القليلة المتخربة التى ظلت قائمة ولكنها تزيد فى بيان كل ما انبسط من الأشياء الأخرى وضوحاً (ومنها متحف العلوم والصناعة ، وقدتطايرت قبته إلى إطارها من الصلب كأنه جثة فتحت للتشريح ، والبناء الحديث للغرفة التجارية ببرجه القائم جامداً بارداً لا ينال قبل الاصابة كما هو بعدها . ومنها كذلك دار بلدية المدينة ، وهى دار ضخمة قليلة الارتفاع كانت أخفيت معالمها . ومنها صف من المصارف العتيقة صارت سخرية بعد أن تدهور النظام الاقتصادى .) وترى بالشوارع آثار حركة نقل مؤلمة ، فى مئات من الدراجات المحترفة وأجسام السيارات وعربات النقل وقد وقفت فى نصف حركتها . وكان الأب كلاينسورج طوال الطريق يؤلمه أن يفكر فى أن هذا الضرر الذى رآه كله حدث فى لحظة واحدة بقنبلة واحدة . وعندما وصل إلى قلب المدينة كان الحر قد اشتد ، فمشى إلى بنك بوكوهاما الذى كان يؤدى العمل فى حانوت خشبي مؤقت أقيم فى الدور الأرضى من بنائه وأودع القس المال . ثم ذهب إلى دار البعثة لكى يلقى نظرة على حطامها مرة أخرى . ثم سار فى طريقه عائداً إلى دار الرهبان المبتدئين . وفى نحو منتصف الطريق بدأ يخالجه إحساس خاص ؛ فهذه الحقيبة السحرية إلى حد ما ، مع أنها خالية الآن ، أخذت تبدو ثقيلة جدا ؛ وتخاذلت ركبتاه ، وشعر بتعب شديد ، واستطاع أن يصل إلى دار الرهبان المبتدئين بعد جهد كبير . ولم ير أن هذا الضعف يستأهل أن يذكره لزملائه اليسوعيين . ولكن بعد يومين وهو يحاول أن يقوم بالصلاة أصابه دوار ، وحاول ثلاث مرات أن يتابع الصلاة ولكنه لم يستطع الاستمرار . وفى اليوم التالى عند ما فحص رئيس الدار جروح الأب كلابنسورج التى كانت فى الظاهر غير هامة ولكنها لم تلتئم ، سأل فى استغراب : « ماذا فعلت بجروحك ؟ » فلقد زادت الجروح اتساعاً فجأة وتورمت والتهبت .

كانت السيدة نكامورا ترتدى ثيابها فى صبيحة يوم ٢٠ أغسطس فى دار أخت زوجها فى كابى التى لا تبعد كثيراً عن نجاتسوكا . ولم تكن السيدة أصيبت بأية جراح أو حروق وإن ظلت تشعر بغثيان هى وأطفالها فى أثناء

الأسبوع الذى قضوه ضيوفاً على الأب كلاينسورج وغيره من الكاثوليك فى دار الرهبان المبتدئين . وأخذت تمشط شعرها ، فاذا بها تلحظ فى أول مرة أن المشط قد حمل معه ما يملأ اليد من الشعر . وفى المرة الثانية حدث مثل هذا، فوقفت التمشيط فى الحال . ولكن فى الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية ظل شعرها يتساقط من تلقاء نفسه حتى صارت صلعاء تماماً ، فلازمت البيت حتى لتكاد تختبئ فيه . وفى يوم ٢٦ أغسطس استيقظت هى وابنتها الصغيرة مييكو وهما يشعران بضعف وتعب شديد ، واستمرا ملازمين لفراشهما . أما ابنها والبنت الأخرى ، وهما اللذان شاطراهما كل ما مر بهما من كوارث أثناء إلقاء القنبلة وبعدها ، فقد كانا فى صحة تامة.

فى نحو ذلك الوقت — ولم يعد يذكر الأيام ، لأنه كان يعمل جاهداً لاقامة مكان مؤقت للعبادة فى دار خاصة ، أجرها فى أطراف المدينة — مرض مستر تانيموتو فجأة بتعب عام ودوار وحمى ، وقد لزم هو فراشه أيضاً على أرض دار صديقه التى تحطمت قليلا فى ضاحية أوشيدا .

هؤلاء الأربعة لم يكونوا يعلمون سبب مرضهم ، ولكنهم كانوا مرضى بالمرض العجيب المتقلب الذى عرف فيما بعد بمرض الاشعاع .

ظلت الآنسة سازاكى راقدة فى ألم مستمر ، بمدرسة إلهة الرحمة الابتدائية بجهة هاتسوكايننى ، وهى المحطة الرابعة لخط القطار الكهربائى إلى الجنوب الغربى من هيروشيما . وكان التعفن الداخلى لا يزال يحول دون رد الكسر المركب فى العظام السفلى برجلها اليسرى . وكان هنالك شاب فى المستشفى نفسه يظهر أنه أخذ يتعلق بها بالرغم من انشغالها الذى لا ينقطع بآلامها ، أو لعله أخذته الشفقة بسبب هذه الآلام ، فأعارها ترجمة يابانية لقصص موباسان . وقد حاولت أن تقرأ هذه القصص ولكنها لم تستطع أن تركز عقلها فى القراءة أكثر من أربع دقائق أو خمس دقائق فى المرة .

كانت المستشفيات ومحطات الاسعاف فيما حول هيروشيما مكتظة بالناس فى الأسابيع الأولى بعد الانفجار . وكان رجالها يبدلون بسبب حالتهم الصحية ، ووصول المساعدة غير المنتظرة من الخارج ، فكان لابد من نقل المرضى من مكان إلى مكان . لذلك نقلت الآنسة سازاكى فى أواخر أغسطس إلى مدرسة

هندسية فى هاتسوكايشى مع أنها نقلت من قبل ثلاث مرات ، منها مرتان بالسفينة وكانت حالة رجلها لا تتحسن بل تزيد ورماً ، فقرر أطباء المدرسة أن يشدوا مؤقتاً قطعاً من الخشب حولها ، ويحملوها بالسيارة فى ٩ سبتمبر إلى مستشفى الصليب الأحمر فى هيروشيما . وكانت هذه هى الفرصة الأولى التى رأت فيها خرائب المدينة ؛ لأن المرة الأخيرة التى حملت فيها فى شوارع المدينة ، كانت على حافة الاغماء . وقد وصف لها الخراب من قبل ولكنها كانت لا تزال تشعر بالألم ، غير أن المنظر روعها ودهشت له دهشاً كبيراً ، ولاحظت فيه ما جعل جسدها يقشعر ؛ ففوق كل شئ — بين حطام المدينة ، وفى السقوف المتناثرة ، وعلى شواطئ النهر ، وبين الآجر ، وصفائح السقوف ، وعلى جذور الأشجار المحترقة — كان هنالك بساط أخضر حى جديد يحفز إلى التفاؤل . وقامت هذه الخضرة حتى من أسس الدور المتخربة . وقد بدأ الرماد يختفى تحت الأعشاب ، وازدهرت الأزهار البرية بين عظام المدينة ؛ فان القنبلة لم تترك أصول النباتات سليمة تحت الأرض وحسب بل لقد بعثت فيها أيضاً نشاطاً . ففى كلّ مكان ترى السوسن الأزرق والأزهار الاسبانية وبقلة اللبن ، وعباد شمس الصباح وزئبق النهار والفول ذا الثمر المجلل بالشعر والرجلة والشبيط والسمسم وشجر مريم . وفى دائرة فى وسط المدينة بنوع خاص نما نبات السناء فى ازدهار عجيب ، لا على بقايا النبات نفسه الذى احترق ، بل فى أماكن جديدة بين الأحجار وفى تشققات الأسفلت ، كأنما قد ألقيت مع القنبلة أحمال من بذوره .

وضعت الآنسة سازاكى فى مستشفى الصليب الأحمر تحت عناية الدكتور سازاكى . ولقد عاد شئ من النظام إلى المستشفى بعد مرور شهر على الانفجار ، ومعنى ذلك أن المرضى الذين كانوا راقدين فى مماشى المستشفى كانوا يجدون حصراً ليناموا عليها ، وأن الأدوية التى نفدت فى الأيام القلائل الأولى ، قد جاء بدلها ، وإن لم يكن بكمية كافية ، تبرعات من المدن الأخرى . وكان دكتور سازاكى ، الذى نام ذات مرة سبع عشرة ساعة فى داره فى الليلة الثالثة ، لا يستريح بعد ذلك إلا ست ساعات فى الليل نائماً على حصير فى المستشفى . وقد انخفض وزنه الضئيل جدا عشرين رطلا أخرى ، وكان لا يزال يضع النظارة التى لا تلائمه على عينيه ، وهى التى أخذها من ممرضة مصابة .

إذ كانت الآنسة سازاكى امرأة ، وكان مرضها شديداً (ولعل ذلك — كما اعترف فيما بعد — لمجرد أن اسمها سازاكى) فقد وضعها الطبيب على حصير فى غرفة تكاد تكون خاصة ، إذ لم يكن بها فى ذلك الوقت غير ثمانية من المرضى . ولقد سألها ، وكتب على بطاقة السجل فى لغة ألمانية صحيحة ، وهى التى كان يكتب بها جميع تسجيلاته : « مريضة متوسطة الحجم فى صحة جيدة على العموم ، بها كسر مركب فى القناة اليسرى فى الجزء الأسفل من رجلها مع تورم ، وفى جلدها والجزء الظاهر من عضوها المخاطى نقط صغيرة حمراء ، هى أنزفة فى حجم حبوب الأرز وأحياناً فى حجم الفول ؛ يضاف إلى ذلك أن رأسها وعينيها ورئتيها وقلبها فى حال عادية فى الظاهر ؛ إلا أن بها حمى . » ، وقد أراد أن يجبر الكسر ثم يضع رجلها فى قالب ، ولكنه كان يعوزه الجبس منذ وقت طويل . لذلك أرقدها على الحصير ووصف لها الأسبيرين للحمى ، وأن تحقن بحقن جلوكوز وأن تتعاطى بفيها بياستاس علاجاً لقلة الغذاء لديها (وهو لم يذكر هذه الحالة المرضية فى سجلها لأن المرضى جميعاً كانوا مصابين بها) . وكانت فيها علامة واحدة فقط من العلائم العجيبة التى أخذت وقتئذ تبدو على مرضاه — وهذه العلامة هى نقط الدم .

كان الدكتور فوجى لا يزال يلاحقه سوء الحظ مع الأنهار . فقد كان الآن ساكناً فى المنزل الصيفى لمستر أوكوما فى مدينة فوكاوا . وكان هذا المنزل قائماً على حافة الشواطئ العميقة لنهر أوتا ، وهنالك أخذت إصاباته تتحسن وبدا يعالج اللاجئين الذين جاءوا إليه من الجهات الغربية مستعملا المواد الطبية التى كان أودعها مخبأ بالضواحى . ولاحظ فى بعض المرضى مجموعة من الأعراض العجيبة ظهرت فجأة فى الأسبوع الثالث والرابع ، ولكنه لم يكن ليستطيع أكثر من غسل الجراح والحروق . وفى أوائل سبتمبر بدأ المطر ينهمر واستمر غزيراً ، فارتفع النهر . وفى يوم ١٧ سبتمبر أرعدت السحب ثم هب إعصار ، وأخذت المياه تعلو وتعلو إلى جانب الشاطئ ، فذعر مستر أوكوما ودكتور فوجى والتجآ إلى دار فلاح فوق الجبل (وقد أتى الفيضان فى هيروشيما على ما تركته القنبلة — جرف الجسور التى سلمت من ضغط القنبلة ، واكتسح الشوارع ، وزعزع أسس الأبنية التى ظلت قائمة . . . وعلى عشرة أميال من الغرب ، حيث كان مستشفى أونو العسكرى وفيه جماعة من الخبراء من

جامعة طوكيو الامبراطورية يدرسون الاصابات التى حلت أخيراً بالمرضى ، تدحرج المستشفى لجأة فوق جانب من الجبل جميل ومجلل بأشجار الصنوبر ، وسقط إلى البحر الداخلى ؛ وغرق أكثر الباحثين ومرضاهم ذوى الأمراض الغريبة .) وبعد العاصفة نزل دكتور فوجي ومستر أوكوما إلى جانب النهر ، فألفيا منزل أوكوما قد جرفه التيار .

لما كان عدد كبير من الناس قد شعر بالمرض فجأة بعد نحو شهر من إلقاء القنبلة الذرية أخذت تنتشر شائعة كريهة وصلت فى آخر الأمر إلى الدار التى تقيم فيها السيدة نكامورا مريضة صلعاء الرأس ، وهى أن القنبلة الذرية تركت فى هيروشيما نوعاً من السم تنبعث منه ذرات مميتة لمدى سبع سنوات ، ولا يمكن أحداً أن يذهب إلى تلك المدينة طول الوقت ، وقد تضايقت السيدة نكامورا لهذا النبأ بنوع خاص ؛ فهى تذكر أنها فى ساعة الحيرة التى استولت عليها فى صباح الانفجار أغرقت وسيلتها الوحيدة للعيش ، وهى آلة الحياكة من صنع سانكوكو فى حوض الماء الصغير المصنوع من الأسمنت أمام ما بقى من دارها . والآن لا يستطيع أحد أن يذهب ليحاول إخراجها . وكانت السيدة نكامورا وأقاربها إلى تلك اللحظة مستسلمين ، ومقتنعين بما يسوغ إلقاء القنبلة الذرية ، من الوجهة الأخلاقية . ولكن هذه الشائعة أذكت فيهم فجأة من الكراهية والبغضاء نحو أمريكا ، أكثر مما شعروا به فى أثناء الحرب .

وكان علماء الطبيعة من اليابانيين (وهم على علم كثير بتحطيم الذرة ويملك أحدهم سيكلوترون) فلقين من الإشعاع الباقى فى هيروشيما . وفى أواسط أغسطس بعد بضعة أيام من إذاعة الرئيس ترومان لنوع القنبلة التى ألقيت ، دخل هؤلاء العلماء إلى المدينة للبحث . وكان أول ما عملوه أن أرادوا تحديد مركز القنبلة ، بأن أخذوا يلاحظون جوانب عمد التليفون حول قلب المدينة التى تأثرت بالحريق ، وقرروا أن المركز هو البوابة الكبرى لمعبد جوكوكو ، وهى تلاصق ساحة الاستعراض لمعسكر شوجوكو للجيش المحلى . ومن هنالك أخذوا يبحثون شمالا وجنوباً بوساطة إلكتروسكوبات لورتسن الحساسة جدا لأشعة بيتا وأشعة جاما ، ودلت هذه الآلات على أن أشد النشاط الاشعاعى ، على مقربة من أبراج البوابة ، هو ٤,٢ مرة لمتوسط «الخارج»

الطبيعى للموجات الزائدة فى القصر لأرض تلك المساحة . ولاحظ العلماء أن ضوء القنبلة قد صبغ الأسمنت المسلح بلون أحمر فاتح ، وأنه أطار شظايا من سطح الجرانيت ، وأنه أثر كما يؤثر الحريق فى بعض أنواع أخرى من مواد البناء . ولذلك تركت القنبلة فى بعض الأماكن آثاراً للظلال التى ارتمى عليها ضوءها . فوجد الخبراء مثلا ظلا ثابتاً على سقف بناء الغرفة التجارية (٢٢٠ ياردة من المركز المحدد) للبرج المكعب . وهنالك ظلال عدة على مركز المراقبة فوق بنك الرهن (٢٠٥٠ ياردة) وهنالك ظل آخر فى برج بناء محطة توليد الكهرباء بشوجوكو (٨٠٠ ياردة) وظل آخر لطلمبة الغاز (٢٦٣٠ ياردة) وظلال كثيرة على القبور من الجرانيت فى معبد جوكوكو (٣٨٥ ياردة) وبقياس مثلث هذه الظلال وظلال أخرى مع الأشياء التى كونتها ، استطاع العلماء أن يحددوا المركز الصحيح للقنبلة ، وهو مكان على بعد مائة وخمسين ياردة إلى الجنوب من الأبراج ، وعلى بعد ياردات قليلة إلى الجنوب الشرقى من كومة الخرائب التى كانت من قبل مستشفى شيما (وقد وجدت ظلال صور بشرية ، فنشأ عن ذلك قصص من نسيج الخيال وفيها تفصيلات دقيقة . فمن هذه القصص أن أحد النقاشين كان فوق سلم فثبتت له صورة كأنها مدموغة على المدخل الحجرى لبناء مصرف كان يعمل فيه فى اللحظة التى وضع فيها فرشاه فى إناء الطلاء . ومنها أن رجلا وعربته كانا فوق الجسر المقارب لمتحف العلوم والصناعة وهو يكاد يكون فى مركز الانفجار ، قد ثبت له ظل يدل دلالة واضحة على أنه كان شارعاً فى ضرب جواده بالسوط .) وفى أوائل سبتمبر أجرى العلماء مقاييس جديدة مبتدئين إلى الشرق والغرب من المركز الصحيح ، فوجدوا أن أقوى إشعاع بلغ ٣,٩ مرة « الخارج » الطبيعى وإذ الاشعاع الذى يبلغ على الأقل ١٠٠٠ مرة « للخارج » الطبيعى هو الذى يؤثر تأثيراً سيئاً فى الجسم البشرى ، فقد أعلن العلماء أن الأهالى يستطيعون دخول هيروشيما دون أن يتعرضوا لأى خطر .

وبمجرد أن بلغ هذا النبأ اليقين المنزل الذى كانت تختبئ فيه السيدة نكامورا — أو على الأقل بعد وقت قصير من ابتداء نمو شعرها من جديد — خفت بغضاء الأسرة بأكملها لأمريكا . وأرسلت السيدة نكامورا زوج أختها للبحث عن آلة الحياكة ، وكانت لا تزال مغمورة فى ماء الحوض . وعندما

جاء بها إلى المنزل تألمت ألماً شديداً إذ ألفتها قد علاها الصدأ من كل جانب ، ولم تعد تصلح لشئ .

فى نهاية الأسبوع الأول من سبتمبر كان الأب كلاينسورج راقداً فى دار الرهبان المبتدئين وقد ارتفعت حرارته حتى بلغت ١٠٢,٢ بميزان فهرنهيت . وبما أن حالته كانت تزداد سوءاً على ما يظهر فقد قرر زملاؤه أن يبعثوا به إلى المستشفى الدولى الكاثوليكى فى طوكيو . ورافقه الأب شيزلك ومدير الدار إلى كوبى ، ثم رافقـه أب يسوعى من تلك المدينة إلى أن قطع سائر الطريق ، وكان يحمل رسالة من طبيب بمدينة كوبى إلى الأم الرئيسة للمستشفى الدولى ، وفيها : « فكروا مرتين قبل أن تنقلوا إلى هذا الرجل شيئاً من الدماء ؛ لأنه ليس من المحقق إذا وخز مرضى القنبلة الذرية بابر ألا تنزف دماؤهم . »

عندما وصل الأب كلاينسورج إلى المستشفى كان ممتقع اللون وضعيفاً جدا ، وكان يشكو أن القنبلة قد أضرت بهضمه وجعلته يشعر بآلام جسدية . وكان عدد الكرات البيضاء فى دمه ثلاثة آلاف (وفى العادة يكون خمسة آلاف إلى سبعة) . وكانت تبدو عليه أعراض فقر الدم الشديد وحرارته ١٠٤ فهرنهيت وقد رآه طبيب لا يعرف كثيراً عن هذه الظواهر الغريبة — فان الأب كلاينسورج كان من القلائل من مرضى القنبلة الذرية الذين وصلوا إلى طوكيو — وكان الطبيب أمام المريض مشجعاً جداً إذ قال : « ستخرج من هنا بعد أسبوعين . » ولكن عندما خرج الطبيب إلى المشى قال للأم الرئيسة : « إنه سيموت ؛ فان جميع هؤلاء الذين أصيبوا بمرض القنبلة يموتون — وسترين . فانهم يظلون بضعة أسابيع أحياء ثم يموتون . » ووصف للأب كلاينسورج غذاء مقوياً ، فكانوا كل ثلاث ساعات يلزمونه بتناول بعض البيض أو خلاصة اللحم البقرى ، وأن يتناول من السكر قدر ما يستطيع . وأعطوه فيتامينات وحبوباً حديدية وشيئاً من الزرنيخ (فى محلول فولا) لعلاج فقر الدم . ولقد كذبت تكهنات الطبيب فى الناحيتين ، فلا هو مات ولا هو خرج بعد أسبوعين . ومع أن الرسالة التى جاءت من طبيب مدينة كوبى حرمته أن يمد بالدم وهو خير علاج لحالته ، فان الحمى والمتاعب الهضمية زالت بسرعة مناسبة . ولقد ارتفع عدد الكرات البيضاء بعض الشئ ، ولكن فى أوائل أكتوبر نزل عددها إلى

٣٦٠٠ وبعد عشرة أيام ارتفع أكثر من الحالة الاعتيادية إلى ٨٨٠٠ ثم انتهى بها الأمر إلى أن بقيت ٥٨٠٠ وكانت خدوشه الغريبة مما أثار عجب كل إنسان ، فهى تلتئم بضعة أيام ،حتى إذا أخذيتحرك ويمشى قليلا عادت فانفتحت وعندما أخذ يشعر بتحسن صحته بدأ يستمتع بمركزه . فهو فى هيروشيما كان واحداً من آلاف من المرضى ، وهو فى طوكيو قد صار أعجوبة ؛ فكان الأطباء الشبان فى الجيش الأمريكى يأتون بالعشرات ليفحصوه ، ويأتى الخبراء من اليابانيين ليسألوه ، وجاء مندوب جريدة ليأخذ منه حديثاً ، وجاء مرة طبيبه الحائر وهز رأسه وقال : « إن حالات مرضى القنبلة الذرية لحالات محيرة . »

كانت السيدة نكامورا راقدة داخل البيت مع ميبكو ، فكلاهما ظل مريضاً . ومع أن السيدة نكامورا شعرت شعوراً غامضاً بأن مرضهما ناشئ عن القنبلة ، فانها كانت لا تستطيع من الفقر أن تزور الطبيب ؛ ولذلك لم تعرف تماماً ماذا حل بها . ومن غير أى نوع من العلاج بل بمجرد الراحة أخذا مع الأيام يتحسنان ، وقد سقط بعض شعر ميبكو وكان فى ذراعها حرق صغير ظل أشهراً دون أن يلتئم . أما الغلام توشيو وأخته الكبرى ييكو فقد كانا فى صحة جيدة مع أنهما فقدا بعض شعرهما ، وكانا أحياناً يشعران بصداع شديد . وكان توشيو لا يزال يحلم أحلاماً مزعجة تدور دائما حول الميكانيكى البالغ من العمر تسع عشرة سنة هيديو أوساكى بطله الذى قتلته القنبلة .

ظل مستر تانيموتو راقداً بالحمى التى بلغ ارتفاعها ١٠٤ درجة فهرنهايت وكان قلقاً بسبب صلوات الجنازة التى كان عليه أن يقيمها للموتى من أبناء كنيسته . وكان يظن أن ما به هو التعب الشديد من العمل المرهق الذى قام به منذ ضربت المدينة . ولكن بعد أن ظلت الحمى ملازمة له بضعة أيام أرسل يطلب الطبيب . وكان الطبيب مثقلا بالعمل ، فلم يكن يستطيع أن يزور أوشيدا ، ولكنه أرسل ممرضة عرفت أعراض المرض ووصفته بمرض إشعاع متوسط فى شدته . وكانت تأتى إليه من وقت لآخر لتحقنه بحقن من فيتامين ب . وزار مستر تانيموتو كاهن بوذى كان يعرفه ، واقترح أن يعالج بعشب الموكسا

لعله يفيده ، ووصف الكاهن للقس كيف يستعمل هذا العلاج اليابانى القديم ، وهو أن يوقد حزمة من عشب الموكسا المقوى بعد أن توضع فوق نبض الساعد . ووجد مستر تانيموتو أن كل مرة يجرى فيها علاج الموكسا كانت الحمى تهبط مؤقتاً درجة واحدة . وكانت المرضة قد أنبأنه بأن يأكل أكثر ما يستطيع ، فكانت حماته تأتيه كل بضعة أيام بخضراوات وأسماك من تسوزو حيث تقيم وهى تبعد عشرين ميلا ، وظل ملازماً الفراش شهراً ، ثم قطع عشر ساعات بالقطار ليقيم فى منزل أبيه بشكوكو ، وهنالك استراح شهراً آخر .

رأى الدكتور سازاكى وزملاؤه بمستشفى الصليب الأحمر هذا المرض الذى لم يعرف من قبل يبدو أمامهم ، وأخيراً استنبطوا نظرية عن طبيعته ، وقرروا أن له أدواراً ثلاثة : الدور الأول انتهى قبل أن يعرف الأطباء أن أمامهم مرضاً جديداً ، وهو نتيجة مباشرة لتأثير إصابة الجسم فى لحظة إلقاء القنبلة بذرات النيترون وأجزاء من أشعة بيتا وأشعة جاما . فالناس الذين لم يصابوا فى الظاهر باصابات ولكنهم ماتوا موتاً غريباً فى الساعات أو الأيام القلائل الأولى ، كانوا ضحية هذا الدور الأول ، وقتل به تسعة وخمسون فى المائة من الأهالى ممن كانوا على بعد نصف ميل من المركز ، وبضعة آلاف من الذين كانوا أبعد من ذلك . وتحقق لدى الأطباء استنتاجاً أن أكثر الموتى مع إصابتهم بحروق وبتأثير الضغط قد تشربوا من الاشعاع ما قتلهم ، فهذه الأشعة دمرت خلايا الجسم ، وسببت انحطاطاً فى نواة الخلايا وحطمت حوائطها . وكثير ممن لم يموتوا فى الحال أصابهم الغثيان والصداع والاسهال والارهاق والحمى التى استمرت عدة أيام . ولم يتحقق الأطباء من هذه الأعراض أهى نتيجة الإشعاع أو الصدمة العصبية .

أما الدور الثانى فانه جاء بعد عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً من انفجار القنبلة . وظاهرته الأساسية سقوط الشعر ثم إسهال وحمى قد ترتفع إلى ١٠٦ درجه فهرنهايت ، وظهرت بعد خمسة وعشرين إلى ثلاثين يوماً من الانفجار اضطرابات فى الدم : فقد دميت اللثة ، ونقصت الكرات البيضاء نقصاً كبيراً ، وظهرت بقع على الجلد وفى الأعضاء المخاطية . وكان نقص عدد الكرات البيضاء فى الدم مما يضعف مقاومة المريض للعدوى ، ولذلك

كانت الجراح التى شارفت الشفاء لا تلتئم ، وأصيب كثير من المرضى بأمراض فى الحنجرة والفم ، وكانت الظاهرتان الهامتان اللتان يبنى عليهما الأطباء تقديرهم هما الحمى ونقص عدد الكرات البيضاء .

وإذا ظلت الحمى مستمرة ومرتفعة كانت فرصة المريض فى الحياة ضعيفة ، وكان عدد الكرات البيضاء ينقص دائماً إلى أقل من أربعة آلاف ، فاذا نزل عددها عن الألف كان الأمل فى حياة المريض ضعيفاً . وفى آخر الدور الثانى إذا بقى المريض حياً فانه يصاب أيضاً بفقر الدم أو نقص الكرات الحمراء فى الدم .

ثم يأتى الدور الثالث حينما يحاول جسم المريض أن يستعيض عما سببه له المرض . فمثلا لا يعود عدد الكرات البيضاء إلى طبيعته وحسب بل يزيد كثيراً على المستوى العادى . وفى هذا الدور يموت المرضى بسبب مضاعفات كاصابات فى منحنى الصدر . وكانت أكثر الحروق تلتئم بطبقات سميكة من أنسجة حمراء مطاطة تعرف باسم أورام كلويد . وكانت مدة المرض تختلف باختلاف قوة احتمال المريض ومقدار الإشعاع الذى وصل إليه ، فكان بعض الضحايا يشفى فى أسبوع وظل بعضهم الآخر يلازمهم المرض أشهرا .

لما أخذت هذه الأعراض تبدو تبين أن الكثير منها يشابه تأثيرات الاكثار من التعرض لأشعة إكس ، وبنى الأطباء طرق علاجهم على هذه المشابهة فكانوا يعطون المرضى خلاصة الكبد وحقن الدم وفيتامينات وبخاصة فيتامين ب . وكانت قلة الأدوية والأدوات مما يصعب مهمتهم . وقد وجد أطباء الحلفاء الذين جاءوا بعد استسلام اليابان أن البلازما والبنسلين كانا نافعين جدا . ولما كانت الاضطرابات المرضية فى دورة المرض الطويلة هى العامل الأساسى فيه فقد بدا لبعض الأطباء اليابانيين رأى عن موضع هذا المرض الذى تظهر أعراضه متأخرة ، وهو أنه ربما كانت أشعة جاما فى اختراقها الجسم أثناء الانفجار قد أحدثت النشاط الإشعاعى فى الفوسفور الذى فى عظام الضحايا ، وأنه فى الوقت نفسه انبعثت منهم أجزاء من أشعة بيتا ، وهذه الأشعة لا تستطيع اختراق اللحم إلا إلى حد بسيط ، ولكنها دخلت إلى نخاع العظام حيث يصنع الدم وقضت عليه شيئاً فشيئاً . ومهما يكن مصدر هذا المرض فانه كان ذا صفات محيرة ؛ إذ لم تظهر الأعراض الأساسية على جميع المرضى . فالذين أصيبوا

بحروق من الانفجار كانت لديهم مناعة إلى حد كبير من مرض الإشعاع ، وأولئك الذين التزموا الهدوء لمدة أيام أو حتى ساعات بعد الانفجار ، كانوا أقل تعرضاً لهذا المرض من أولئك الذين كانوا نشيطين . ثم إن الشعر الأبيض كان قلما يسقط ، وكأن الطبيعة أرادت حماية الانسان من اختراعاته لذلك نرى أن وسائل الانتاج تأثرت لوقت ما ، فصار الرجال عقما والنساء يصيبهم الاجهاض وانقطع الحيض .

مكث دكتور فوجي عشرة أيام بعد الفيضان فى دار فلاح على الجبل فوق نهر أوتا ، ثم سمع بخلو عيادة خاصة فى كايتايشى وهى ضاحية إلى الشرق من هيروشيما ، فاشتراها فى الحال وانتقل إليها ، وعلق لافتة مكتوبة بالانجليزية تحية للمنتصرين :

م. فوجي دكتور فى الطب للامراض الباطنية والتناسلية

وكانت جراحه قد التأمت ، وأخذ العمل يكثر لديه . وكان يلذ له فى المساء أن يزوره أعضاء من القوات المحتلة، فيغدق عليهم الويسكى ويتمرن معهم على اللغة الانجليزية .

أعطى الدكتور سازاكى للآنسة سازاكى البروكايين مخدراً محليا ، ثم فتح ثغرة فى رجلها فى يوم ٢٣ أكتوبر ليخرج الصديد الذى كان لا يزال موجوداً بعد أحد عشر أسبوعاً من الاصابة ، وقد أخذ يتكون من الصديد فى الأيام التالية قدر كبير ، حتى اضطره ذلك إلى تنظيف الثغرة صباح مساء . وفى الأسبوع التالى شكت من ألم شديد ، ففتح ثغرة أخرى ثم فتح ثغرة ثالثة فى ٩ نوفمبر ثم وسعها فى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر . وكانت الآنسة

سازاکی قد أخذت نفسيتها تضعف ويزداد جسمها ضعفا . ، وفى ذات يوم جاء الشاب الذى أعارها ترجمة قصص موباسان فى هاتسوكايشى لزيارتها ، وأنبأها بأنه ذاهب إلى كيوشو ،على أنه يود أن يراها عند عودته مرة ثانية ، ولكنها لم تهتم بذلك . وقد تورمت رجلها وازداد ألمها حتى لم يستطع الطبيب أن يقوم بأية محاولة لجبر الكسور ، وبالرغم من أن التصوير بأشعة إكس الذى أخذ فى نوفمبر أظهر أن العظام تلتئم ، فانها كانت ترى وهى تحت الغطاء أن رجلها اليسرى صارت أقصر من رجلها اليمنى بثلاث بوصات ، وأنها مثنية إلى الداخل . وفكرت كثيراً فى الرجل الذى كانت مخطوبة له . وقد أنبأها أحد الأصدقاء أنه عاد من عمله فيما وراء البحار ، فكانت تسائل : ماذا سمع عن إصاباتها حتى أنه ظل بعيداً عنها !

أخرج الأب كلاينسورج من مستشفى طوكيو فى ١٩ ديسمبر ، وركب القطار عائداً إلى مقره . وفى الطريق بعد يومين عند يوكوجادوا وهى المحطة التى قبل هيروشيما ، ركب دكتور فوجى القطار معه ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى اجتمع فيها الرجلان بعد انفجار القنبلة ، فجلسا معاً . وقال الدكتور فوجى إنه ذاهب للاجتماع السنوى لأسرته وهو يوم ذكرى وفاة والده . وعندما بدآ يتكلمان عما حدث لهما كان حديث الطبيب مسلياً جدا ؛ إذ أخذ يصف المنازل التى كان يسكنها كيف كانت تتساقط فى الأنهار . ثم سأل الأب كلاينسورج عن صحته فأخبره الأب اليسوعى بأنه كان فى المستشفى وقال : « نصح لى الأطباء بأن أكون حذراً ، وأمرونى بأن ألجأ إلى النوم ساعتين بعد ظهر كل يوم . »

فقال دكتور فوجى : « من الصعب فى هذه الأيام أن يكون الانسان حذراً فى هيروشيما ، فكل واحد فيها شديد الاقبال على العمل . »

أخذت إدارة بلدية جديدة تحت إشراف الحكومة العسكرية المتحالفة تعمل أخيراً فى دار البلدية ، وأخذ الأهالى الذين شفوا من درجات مختلفة من مرض الإشعاع يعودون بالألاف ، وبلغ عدد الأهالى فى أول نوفمبر ١٧٣ ألفاً أى أكثر من ثلث ما بلغه عددهم فى أثناء الحرب ، واحتشد أكثرهم فى أطراف

المدينة . وشرعت الحكومة تقوم بضروب من المشروعات لكى تحملهم على العمل فى إعادة بناء المدينة ، فأجرت رجالا لتنظيف الشوارع وآخرين ليجمعوا قطع الحديد المتناثرة وينظموها فى أكوام كالجبال أمام دار البلدية ؛ وأخذ بعض العائدين من سكان المدينة يبنون دورهم وأكواخهم ويزرعون مربعات صغيرة بقمح الشتاء إلى جانبها . على أن إدارة المدينة رخصت وبنت أربعمائة «معسكر» كل واحد لسكنى أسرة واحدة . وأعيد إصلاح المنافع العامة ، فعادت الأضواء الكهربائية تسطع مرة ثانية ، وأخذت عربات الترام تسير ، وأصلح رجال أعمال المياه سبعين ألف صنبور ، وألف مؤتمر لتنظيم المدينة له مستشار شاب متحمس من ضباط الحكومة العسكرية وهو اللفتنانت جون مونتجومرى من كلامايسو . وأخذ هذا المؤتمر يدرس على أى نوع من المدن يجب أن تكون — هيروشيما الجديدة ؛ فقد ازدهرت المدينة المخربة — وكانت هدفاً بارزاً — بسبب أنها كانت من أهم مراكز القيادة العسكرية والمواصلات فى اليابان . وكان من المنتظر أن تصير عاصمة الإمبراطورية لو تم غزو الجزر اليابانية واحتلت طوكيو . والآن لن تكون هنالك مراكز حربية ضخمة تساعد على إحياء المدينة . فكان مؤتمر التنظيم فى حيرة بشأن الأهمية التى تكون لهيروشيما . ولذلك التجأ إلى مشروعات ثقافية غامضة بعض الشئ وإصلاحات فى الطرق ، فرسم خرائط بها شوارع كبيرة يبلغ عرض الواحد منها مائة ياردة . وفكر جديا فى الاحتفاظ بمتحف العلوم والصناعة الذى أصابه شئ من التخريب كما هو ، تذكاراً للكارثة ، على أن يسمى معهد الصداقة الدولية . وجمع الاخصائيون ما قدروا عليه من أرقام عن تأثير القنبلة، فقالوا إن ٧٨,١٥٠ شخص قتلوا ، و ١٣,٩٨٣ شخص فقدوا ، و ٣٧,٤٢٥ شخص أصيبوا . ولم يزعم أحد من رجال الحكومة فى المدينة أن هذه الأرقام صحيحة ، مع أن الأمريكيين عدوها رسمية . وبمرور الشهور أخرجت مئات ومئات من الجثث من بين الأنقاض . ولما كان عدد الآنية المليئة برماد الموتى الذين لم يطلبهم أهلوهم بمعبد ثاموجى بجهة كوى ارتفع إلى الآلاف ، فقد بدأ الاحصائيون يقولون إن مائة ألف على الأقل ماتوا بسبب القنبلة . وإذ كان عدد كبير من الناس يعزلى موتهم لمجموعة أسباب ، فقد كان من المستحيل أن يعرف تماماً كم من قتلوا بكل واحد من هذه الأسباب . ولكن رجال الاحصاء يقدرون أن خمسة وعشرين فى المائة ماتوا

بسبب حروق مباشرة من القنبلة ، وأن خمسين فى المائة من إصابات أخرى ، وأن عشرين فى المائة نتيجة لتأثير الإشعاع . على أن تقدير رجال الاحصاء فيما أصاب الأموال قد يمكن الاعتماد عليه ؛ فقد دمر اثنان وستون ألف بناء من تسعين ألفاً ، وأصيب ستة آلاف بضرر لا يمكن إصلاحه ، وفى قلب المدينة لم يبق غير خمسة أبنية حديثة يمكن استعمالها ثانية بغير إجراء إصلاحات كبيرة . ولم تكن قلة هذا العدد ناشئة عن عدم متانة الأبنية اليابانية ؛ فالواقع أنه منذ حدوث الزلزال الكبير فى سنة ١٩٢٣ قضت نظم البناء اليابانية أن يكون سقف كل بناء كبير بحيث يتحمل ثقلا قدره على الأقل سبعون رطلا فى كل قدم مربع ، على حين لا تقضى النظم الأمريكية بأكثر من أربعين رطلا للقدم المربع .

ولقد جاء جيش من العلماء إلى المدينة ، وأخذ بعضهم يقيس القوة التى أدت إلى نقل الشواهد الرخامية من مكانها فى المقابر ، وإلى قلب اثنين وعشرين من سبعة وأربعين عربة من عربات السكك الحديدية فى مخازن هذه السكك بمحطة هيروشيما ، وإلى رفع طريق من الأسمنت وتحريكه على أحد الجسور ، وإلى حدوث أشياء أخرى تسترعى النظر من أعمال القوة . واستنتجوا أن الضغط الذى سببه الانفجار اختلف بين ٥,٣ إلى ٨ أطنان للياردة المربعة . ووجد آخرون أن الميكا التى لا تذوب إلا على درجة حرارة ٩٠٠ سنتيجراد قد ذابت على حجارة قبور من الجرانيت واقعة على ثلاثمائة وثمانين ياردة من المركز ، ووجدوا عمد التليفون ، وهى من أشجار البلوط اليابانى وهى تحترق على حرارة ٢٤٠ سنتيجراد ، قد احترقت على بعد أربعة آلاف وأربعمائة ياردة من المركز ، وأن سطح القوالب من الآجر الرمادى وهى المستعملة فى هيروشيما والتى لا تذوب إلا على درجة ١٣٠٠ سنتيجراد قد ذابت على بعد ستمائة ياردة . وبعد أن فحصوا بعض الرماد ذى الدلالة وبعض بقايا ما ذاب ، استنتجوا أن حرارة القنبلة على الأرض فى المركز بلغت ٦٠٠٠ سنتيجراد . ووصل العلماء إلى معلومات أكبر شأنا عن طبيعة القنبلة من مقاييس أخرى للاشعاع كان مما شملته قشر قطع من المواد من أغطية السطوح ، وأنابيب المجارى فى أماكن بعيدة ، مثل ضاحية تكاسو ، وهى على ثلاثة آلاف وثلاثمائة ياردة من المركز . وكان مركز رياسة الجنرال ماك آرثر يمنع أى ذكر للقنبلة فى المطبوعات العلمية اليابانية ،

ولكن ثمار تقديرات العلماء ما لبثت أن صارت معلومات عامة لدى اليابانيين من علماء الطبيعة والأطباء والكيميائيين والصحفيين والأساتذة ، ولا ريب فى أنه عرفها أولئك السياسيون والعسكريون الذين كانوا لا يزالون مطلقى السراح . وقبل أن يعرف الجمهور الأمريكى بزمن طويل ، كان السواد الأعظم من رجال العلم ، وكثيرون من غير العلماء يعرفون — من التقديرات التى قام بها علماء الطبيعة الباحثون فى الذرة من اليابانيين — أن قنبلة من اليورانيوم انفجرت فى هيروشيا ، وأن قنبلة أقوى منها من البلوننبوم انفجرت فى نجازاكى ، وعرفوا أيضاً أنه يمكن نظريا صنع قنبلة تزيد قوتها على ذلك عشر مرات ، أو عشرين مرة . وزعم العلماءاليابانيون أنهم عرفوا الارتفاع الصحيح الذى انفجرت فيه قنبلة هيروشيا ، والثقل التقريبى لما استعمل من يورانيوم. وقدروا أنه حتى مع قنبلة بدائية كالقنبلة التى استعملت فى هيروشيا ، يجب أن يكون هنالك مخبأ من الأسمنت المسلح يبلغ سمكه خمسين بوصة ، كى يكون الانسان بمأمن من مرض الإشعاع . وعرف هؤلاء العلماء هذه التفصيلات وغيرها ، مما ظل خاضعاً للكتمان فى الولايات المتحدة ، وقد نشروها وصوروها وضمنوها كتباً صغيرة . وعلم الأمريكيون بهذه الكتب ، ولكن نعقبها ومنعها من أن تقع فى أيدى غير صالحة ، اضطر قوات الاحتلال إلى أن تنشئ نظاماً بوليسيا كبيراً فى اليابان لهذا الغرض وحده . وكان العلماء اليابانيون يتندرون على العموم بالمجهودات التى يبذلها المنتصرون لكتمان أنباء التحطيم الذرى .

فى أواخر فبراير سنة ١٩٤٦ وفد على الأب كلاينسورج أحد أصدقاء الآنسة سازاكى وسأله أن يزورها فى المستشفى ، وكانت تزداد انقباضاً ويأساً ، ـ إذ أن ليس للحياة لديها قيمة وذهب الأب كلاينسورج لرؤيتها عدة مرات . وفى أول زيارة لها جعل الحديث يدور حول مسائل عامة رسمية ، وإن كان مشوبا بالعطف ، ولم يرد أن يذكر الدين . وفى المرة الثانية كانت الآنسة سازاكى بادئة فى الحديث عن هذا الموضوع ، وكان من البين أنها قد تحدثت من قبل إلى بعض الكاثوليك ، وقد سألته فى صراحة : « إذا كان إلهك رءوفاً وشفيعاً فكيف يدع الناس يتألمون هكذا ؟ » وأبدت اشارة تشمل رجلها المتضمرة والمرضى الآخرين ومدينة هيروشيا بأكلها .

فقال الأب كلاينسورج : « يا بنيتى ! إن الانسان ليس الآن فى الحالة التى أراد الرب أن يكون عليها ؛ فهو قد أبعد من رحمة الله بسبب الخطيئة » ، وأخذ يبدى أسباباً وتأويلات لجميع الأمور .

علمت السيدة نكامورا أن نجاراً فى كابى يبنى أكواخاً من الخشب فى هيروشيما ويؤجرها بسعر قدره خمسون ين فى الشهر ، وهذا يعادل ٣,٣٣ دولار بالسعر المحدد للعملة وكانت قد فقدت وثائق أسهمها وغيرها مما ادخرته أثناء الحرب ، ولكنها لحسن الحظ كانت قد قيدت أرقامها فى قائمة قبل القنبلة ببضعة أيام ، ونقلت هذه القائمة إلى كابى . فلما نما شعرها واستطاعت أن تظهر ذهبت إلى مصرفها فى هيروشيما . فأنبأها أحد موظفيه بعد أن راجع الأرقام على سجلات البنك أن المصرف على استعداد لرد أموالها . وبمجرد أن استردت هذه الأموال استأجرت كوخاً من أكواخ النجار وكان فى نوبورى تشو على مقربة من مكان بيتها السابق . ومع أنه كان مظلماً من الداخل وأرضه من التراب فهو على أية حال دار فى هيروشيما تغنيها عن إحسان أخت زوجها . وفى أثناء الربيع أزالت بعض الحطام المجاورة وزرعت حديقة خضراوات . وكانت تطهى طعامها وتأكل فى آنية وأطباق أخرجتها من الأنقاض . وأرسلت طفلتها ميكو إلى مدرسة الأطفال التى أعاد اليسوعيون فتحها ، وكان الطفلان الكبيران يذهبان إلى مدرسة نوبورى تشو الابتدائية . وكانت هذه المدرسة لا تجد بناء ، فأخذت تلقى الدروس فى الهواء الطلق . وكان الابن توشيو يريد أن يدرس ليكون ميكانيكياً مثل بطله هيديو أو ساكى . وقد ارتفعت الأسعار ، فلم يأت منتصف الصيف حتى كانت السيدة نكامورا قد أتت على ما ادخرته ، فباعت بعض ملابسها لتدبير الطعام ، وكانت لديها فى وقت ما عدة ثياب ثمينة من نوع الكيمونو ، ولكن أحدها سرق فى أثناء الحرب ، وأعطت ثوبا أختاً لها فقدت ملابسها فى ضرب مدينة توكوياما ، وفقدت اثنين عند إلقاء القنبلة فى هيروشيما ، والآن باعت آخر ثوب بقى لها فلم يأتها من هذا البيع غير مائة ين لم تستمر طويلا . وفى يونيه ذهبت إلى الأب كلاينسورج تسأله أن ينصح لها كيف تدبر أمورها ، وفى أوائل أغسطس كانت لا تزال تفكر فى الطريقتين اللتين أشار بهما : أن تعمل خادماً لدى بعض قوات الحلفاء المحتلة ، أو تقترض

من أقاربها نحو خسمائة ين ، أو ما يزيد على ثلاثين دولارا بقليل ، وهو مبلغ يكفى لاصلاح آلة الحياكة التى علاها الصدأ واستئناف عملها فى الحياكة .

عندما عاد مستر تانيموتو من شكوكو نصب خيمة كان يمتلكها على سقف البيت الذى به إصابات سيئة والذى استأجره فى أوشيدا ، و كان السقف لا يزال مثقوباً ، ولكنه كان يقيم صلواته فى الحجرة الكبيرة المتأثرة بالرطوبة . وأخذ يفكر فى جمع تبرعات لاعادة بناء كنيسته فى المدينة ، وارتبط بأواصر الصداقة مع الأب كلاينسورج ، وصار يختلف إلى اليسوعيين ، وكان يحسدهم على ثراء كنيستهم وكأنهم قادرون على أن يفعلوا كل ما يريدونه ، أما هو فلم يكن يملك إلا نشاطه ولم يعد هذا النشاط مثل ما كان عليه .

وكانت جمعية اليسوعيين هى أول هيئة بدأت تبنى داراً ثابتة بعض الشىء فى خرائب هيروشيما . وقد بدءوا فى ذلك حين كان الأب كلاينسورج فى المستشفى ، و بمجرد أن عاد سكن فى هذه الدار . واتفق هو وقس آخر — الأب لادرمان الذى انضم إلى البعثة — على أن يشتريا ثلاثة من تلك المعسكرات المرسومة التى كانت المدينة تبيعها ، وثمن الواحد منها سبعة آلاف ين وضما اثنين منهما بعضهما إلى بعض وأنشآ منهما كنيسة صغيرة جميلة ، وكانا يأكلان فى الثالثة. وحينما توافرت مواد البناء كلف اليسوعيون مقاولا بأن يبنى داراً للبعثة من ثلاث طبقات تكون مماثلة تماماً للدار التى دمرتها الغارة ، وأخذ النجارون يشتغلون فى أرض البناء قاطعين الأخشاب وناشرين الحواجز ومشكلين الجوانب وصانعين العشرات من الروابط الخشبية ، وقد فتحوا لها ثغرات فى الخشب حتى صارت أجزاء الدار جميعاً كومة نظيفة ، ثم أقاموا البناء كله فى ثلاثة أيام كما تقام لعبة الأطفال المعروفة باللغز الشرقى دون أن تكون هنالك أية مسامير . وكان الأب كلاينسورج يجد من الصعب أن يكون محتاطاً وأن ينام بالنهار ، كما نصحه دكتور فوجيى ، وكان يخرج كل يوم سيراً على الأقدام لزيارة الكاثوليك من اليابانيين وزيارة الذين يأمل فى إقناعهم بالعقيدة الكاثوليكية . و بمرور الشهور أخذ يشعر بتزايد التعب . وفى يونية قرأ مقالا فى جريدة شوجوكو التى تصدر فى هيروشيما تحذر الأحياء من العمل المرهق — ولكن ماذا يعمل ! ولم يقبل شهر يولية حتى كان التعب قد نال منه .

وفى أوائل أغسطس فى نحو ذكرى إلقاء القنبلة عاد إلى المستشفى الكاثوليكى الدولى فى طوكيو ليرتاح شهراً .

قد تكون إجابات الأب كلاينسورج على أسئلة الآنسة سازاكى عن الحياة حقائق نهائية ومطلقة وقد لا تكون ، ولكن يظهر أنها استمدت من هذه الإجابات قوة جسمية جديدة . ولاحظ دكتور سازاكى هذا الأمر فهنأ الأب كلاينسورج ، ولم يأت يوم ١٥ أبريل حتى كانت حرارتها طبيعية ، وعدد الكرات البيضاء طبيعيا ، وأخذ الصديد يقل فى الجرح . وفى يوم ٢٠ من ذاك الشهر لم يكد يبقى منه شئ . ولأول مرة سارت فى الماشى متكئة على عكازين ، وابتدأ الجرح يلتئم بعد خمسة أيام . وفى آخر يوم من ذلك الشهر برحت المستشفى .

وفى أوائل الصيف استعدت لاعتناق الديانة المسيحية الكاثوليكية ، وكانت فى تلك الفترة يتعاورها الأمل واليأس ، وكانت لحظات اليأس عميقة . فهى تعلم أنها ستظل عاجزة أبداً ، ولم ترأت خطيبها قط ، ولم يبق لها ماتعمله إلا القراءة وأن تشرف من دارها بجانب تل كوى على خرائب المدينة التى هلك فيها أبوها وأمها وأخوها . وصارت عصبية ، فاذا حدثت ضجة مفاجئة رفعت يديها فى الحال إلى حلقها . وكانت رجلها لا تزال تؤلمها ، فكانت لاتنفك تدلكها كثيراً وتربت عليها كأنما هى تعزيها .

لم يعد مستشفى الصليب الأحمر إلى حالته العادية قبل مرور ستة أشهر ، ولم يعد الدكتور سازاكى إلى حالته إلا بعد مدة أطول من ذلك . وكان المستشفى يظلع فى سيره على مولّد كهربائى من مولدات الجيش اليابانى ، وضعه فى الفناء الخلفى ، إلى أن أعيدت محطة توليد القوة الكهربائية بالمدينة . وكانت مناضد العمليات وآلات أشعة إكس وكراسى علاج الأسنان وكل ماهو معقد وضرورى من أدوات ، قد جاءت شيئاً فشيئاً هبة من مدن أخرى . ويعتبر الوجه فى اليابان شيئاً هاما حتى فى المعاهد . ولذلك بدأ مديرو المستشفى حتى قبل العودة إلى مستواه فى أجهزته الطبية الأساسية فأقاموا واجهة جديدة من الآجر الأصفر اللامع ، فصار أجمل بناء فى هورشيما ، إذا رئى من الشارع .

وكان الدكتور سازاكى فى الاشهر الأربعة الأولى ، الجراح الوحيد فى المستشفى فلم يغادره قط. ثم أخذ يعود إلى الاهتمام بحياته الخاصة ، فتزوج فى شهر مارس وعاد إليه بعض ما نقص من وزنه ، ولكن شهيته للطعام ظلت ضعيفة . وكان قبل إلقاء القنبلة يأكل أربع كرات من الأرز فى الأكلة. أما بعد ذلك بسنة فكان لا يستطيع أن يأكل أكثر من كرتين من الأرز . وكان يشعر بالتعب طول الوقت على أنه قال : « ولكننى على يقين بأن السكان جميعاً متعبون . »

بعد سنة من إلقاء القنبلة صارت الآنسة سازاكى من ذوى العاهات ،والسيدة نكامورا معدمة ، والأب كلاينسورج فى المستشفى ، ودكتور سازاكى غير قادر على العمل كما كان يفعل من قبل ، ودكتور فوجيى قد فقد المستشفى ذا الثلاثين حجرة الذى عمل سنين فى إنشائه ، وكنيسة مستر تانيموتو قد تخربت ولم يعد هو إلى ما كان فيه من حيوية . فحياة هؤلاء الستة الذين يعدون من أسعد أهل هيروشيما حظا ، لن تكون كما كانت ، ولم يكونوا فيما مر من محن ولا فى استعمال القنبلة الذرية على رأى واحد . ولكن يظهر أنهم كانوا مشتركين فى شعور واحد : هو نوع عجيب من روح الجماعة فيه شئ من الزهو يقارب شعور أهل لندن بعد الهجوم الجوى الخاطف عليها ، هو افتخارهم بالطريقة التى واجهوا بها هم وزملاؤهم من الأحياء تلك المحنة الفظيعة .

ولقد كتب مستر تانيموتو قبل ذكرى هذا الحادث بقليل إلى أحد الأمريكيين رسالة فيها عبارات تدل على هذا الشعور : « ياله من منظر كئيب كان فى الليلة الأولى ! لقد نزلت فى نحو منتصف الليل إلى شاطئ النهر ، وكان عدد الراقدين على الأرض كبيراً حتى إنى لم أستطع أن أشق طريقى إلا بأن أطأ بعضهم ، وكنت أكرر « معذرة » وأنا حامل آنية مليئة بالماء ، وأقدم كوباً منه لكل واحد منهم . فكانوا يرفعون أجسامهم فى بطء ويتقبلون الكوب فى انحناء ويشربون فى هدوء ويريقون ماتبقى ويعيدون إلىّ الكوب وهم يعربون قلبيا عن شكرهم . وقد قال أحدهم : « إنى لم أستطع مساعدة أختى التى كانت دفينة تحت أنقاض الدار لأنه كان على أن أساعد أمى التى جرحت جرحاً عميقاً فوق عينها . ولم تلبث الدار أن اشتعلت بها النيران ولم نكد ننجو . أنظر ! لقد فقدت دارى وأسرتى وأصبت أخيراً إصابات شديدة ، ولكنى لاأزال

محتفظاً بعقلى ، لـكى أهب ما لدى لاتمام الحرب فى سبيل بلادنا ». هكذا كانوا يقولون لى حتى النساء والأطفال كانوا يفعلون مثل هذا . ولما كنت قد تعبت تعباً شديداً فقد ارتميت بينهم على الأرض ، ولـكنى لم أستطع النـوم مطلقاً . وفى الصباح التالى ألفيت الـكثير من الرجال الذين أعطيتهم الماء فى الليلة السابقة قد ماتوا. على أن ما أثار دهشتى الـكبيرة أنى لم أسمع أحداً منهم يصرخ فى جزع واضطراب مع أنهم كانوا يتألمون ألماً مبرحاً ، وماتوا ساكتين غير ساخطين . وقد أطبقوا أسنانهم ليتحملوا هذا الألم ، كل هذا من أجل الوطن!

« لقد دفنت القنبلة الدكتور هيرايوا الأستاذ بجامعة هيروشيما للآداب والعلوم وأحد أعضاء كنيستى ، تحت منزله المؤلف من طابقين ومعه ابنه الطالب فى جامعة طوكيو ، وكان الاثنان لا يستطيعان التحرك قيد أنملة إذ كان عليهما ضغط كبير ، ثم شبت النار فى البيت ، فقال الابن : « ليس أمامنا يا أبت إلا أن نوطن أنفسنا على تقديم حياتنا فى سبيل الوطن ، فلنرفع بنزاى (التحية) للامبراطور . » فتبع الأب ابنه :« تينو هايكا ، بنزاى ، بنزاى ، بنزاى ! » ويقول دكتور هيرايوا من العجيب أنى شعرت أخيراً بالهدوء وبالانتعاش وامتلأ قلبى بروح السلام عند ما رددت بنزاى للامبراطور . وحدث بعد ذلك أن استطاع الابن الخروج وظل يحفر حتى أخرج أباه ، وهكذا أنقذا . ويكرر دكتور هيرايوا حين يفكر فى محنة ذلك الزمن : « ما أسعدنا إذ نحن يابانيون ! فتلك أول مرة تنسمت فيها رَوْحاً جميلا عند ما اعتزمت أن أموت فى سبيل إمبراطورنا . »

« وكانت الآنسة كايوكو نبوتوكى ، وهى طالبة بهيروشيما جازابوين مدرسة البنات العالية وإحدى بنات كنيستى ، تستريح مع صديقاتها إلى جانب السور الثقيل للمعبد البوذى . وعندما ألقيت القنبلة سقط عليهن السور . وكن لا يستطعن أن يتحركن تحت هذا السور الثقيل ، ثم نفذ الدخان من الشقوق واختنقت أنفاسهن . فأخذت إحدى البنات تغنى كيمى جايو النشيد الوطنى . وشاركها الأخريات فى الغناء ومتن معاً . إلا أن واحدة منهن وجدت ثغرة وحاولت جهدها أن تخرج . ولما حملت إلى مستشفى الصليب الأحمر ذكرت كيف ماتت صديقاتها ، وكيف كن ينشدن معاً النشيد الوطنى . وكانت أعمارهن لا تتجاوز الثالثة عشرة .

« أجل إن أهل هيروشيما ماتوا ميتة الرجال عند ضربها بالقنبلة الذرية وهم يعتقدون أنهم يموتون من أجل الإمبراطور . »

• وقد ظل عدد كبير يدعو إلى الدهشة من أهل هيروشيما لا يكترثون للناحية الأخلاقية فى استعمال القنبلة . ومن المحتمل أنهم ذعروا من هذه القنبلة حتى أصبحوا لا يريدون مجرد التفكير فى أمرها ، بل لم يهتم إلا القليل منهم بمعرفة شكلها . ويمكن أن تتخذ فكرة السيدة نكامورا عنها — وخوفها منها — مثالا لذلك . فهى تقول حين تسأل عنها : إن القنبلة الذرية فى حجم علبة عيدان الكبريت ، وكانت حرارتها تبلغ ستة آلاف مرة حرارة الشمس ، وقد انفجرت فى الهواء وفيها شئ من الراديوم ، ولا أعلم تماماً كيف تعمل ، ولكن عندما يختلط الراديوم بنفسه تنفجر القنبلة . وكانت تقول إذا ما سئلت عن استعمالها : إنها الحرب ويجب أن نتوقعها ، ثم تضيف إلى ذلك قولها : « شيكاتا جاناى » وهى عبارة يابانية تجرى بها ألسنتهم فى العادة ، وهى تشبه كلمة « نيشفيو » الروسية أى : مالم يمكن تلافيه ، فليكن ، إنه أمر سئ . وقال الدكتور فوجي مثل هذا تقريباً عن استعمال القنبلة للأب كلاينسورج ذات مساء إذ قال له بالألمانية : « ليس لدينا مما نستطيع أن نعمله . »

على أن عدداً كبيراً من أهل هيروشيما ظل يكره الأمريكيين كراهة لا تمحوها الأيام . وقال الدكتور سازاكى مرة : « أراهم يحاكمون مجرمى الحرب فى طوكيو الآن ، وأظن أنه يجب أن يحاكموا الرجال الذين قرروا استعمال القنبلة ويقتلوهم جميعاً . »

• وكان الأب كلاينسورج وغيره من القسس اليسوعيين الألمان ، وهم أجانب فينتظر أن يكون حكمهم سليما بعض الشئ ، كثيراً مايتناقشون فى الناحية الأخلاقية لاستعمال القنبلة . وكتب أحدهم إلى الكرسى البابوى فى روما وهو الأب سيمس ، وكان متغيباً فى نجاتسوكا عند إلقاء القنبلة : « يرى بعضنا أن القنبلة هى من طبقة الغاز الخانق وهم يعارضون فى استعمالها ضد الأهالى من المدنيين ؛ ويرى بعضنا أنه فى الحرب الاجماعية كما هى الحال فى اليابان لا يجب التمييز بين المدنيين والعسكريين ، وأن القنبلة هى قوة فعالة تؤدى إلى إنهاء إراقة الدماء وتنذر اليابان بالتسليم لتتقى الدمار الكلى . وقد يكون

من المعقول أن الذى يؤيد الحرب الاجماعية فى المبدأ لا ينبغى له أن يشكو حين تصيب الدنيين . والعقدة فى المسألة هى مشروعية الحرب الاجماعية بصورتها الحاضرة ولو كانت فى سبيل الحق . أليست لها مضار مادية وروحية تزيد على ما ينتظر منها من خير ؟ ومتى يمدنا الباحثون فى الأخلاق بالجواب الواضح عن هذه المسألة ؟ »

قد يكون من المستحيل معرفة الفظائع التى نقشت فى عقول الأطفال الذين عاشوا فى يوم إلقاء القنبلة على هيروشيما . لقد كانت ذكرياتهم فى مظهرها بعد أشهر من هذه الكارثة عبارة عن مغامرة عجيبة . فمثلا توشيو نكامورا الذى كان فى العاشرة من عمره عند إلقاء القنبلة كان يستطيع أن يتكلم عن هذه المحنة فى حرية بل فى مرح ، وكتب قبل بضعة أسابيع من يوم الذكرى موضوعا إنشائياً صريحاً ، لمدرسه فى مدرسة نبورى تشو الابتدائية وفيه يقول : « ذهبت فى اليوم السابق للقنبلة للسباحة فى الماء . وفى صباح ذاك اليوم كنت آكل شيئاً من الفول السودانى فرأيت ضوءاً وقد ارتطمت بالمكان الذى كانت تنام فيه أختى الصغيرة . ولما أنقذنا لم أكن أرى إلى أبعد من الترام . وأخذت أنا وأمى نجمع حاجاتنا . وكان الجيران يسيرون حولنا وهم حرقى تنزف منهم الدماء . وطلبت منى هاتايا سان أن أفر معها ، فقلت إنى أريد أن أنتظر أمى . وذهبنا إلى الحديقة . وجاءت عاصفة وفى الليل احترق خزان للبترول . ورأيت انعكاس ضوئه فى النهر . ولازمنا الحديقة ليلة . وفى اليوم التالى ذهبنا إلى جسر تايكو وقابلنا صديقتىّ كيكوكى وموراكامى وهما تبحثان عن أخيهما ولكن كانت أم كيكوكى جريحة . أما أم موراكامى فقد ماتت ويا للأسف » .

فى هيئة الامم المتحدة

الطاقة الذرية والإشراف عليها :

كان استعمال القنبلة الذرية نذيراً بالشر للانسانية . فهنالك جماعة من الدول تملك سر هذا السلاح الهائل ، بل يمكن أن يقال إن هنالك دولة واحدة تملك السر بأكمله . وامتلاك هذا السر مما يهدد الدول الأخرى . بالخطر ؛ فهو مبعث شك لدى الدول الأخرى التى لا تعرف السر . ولوأذيع السر لتضافرت الدول فى الانتفاع بهذا الكشف العلمى العظيم ، ليعم النفع ويعود بالخير على الانسانية ، ولما كانت هنالك ضمانات تكفل ألا يساء استعمال هذه القوة .

لذلك ألفت لجنة تابعة لهيئة الأمم المتحدة لبحث المشاكل الناشئة عن الطاقة الذرية والسيطرة عليها . وهذه اللجنة مازالت تسير على مهل وسط المصاعب . أما تاريخ تأليفها وما بذل من جهود حتى الآن فاننا نؤثر أن ننقل بحثاً للأستاذ شوتويل الأمريكى رئيس اللجنة التى ألفها معهد كارنجى ، وهو معهد يعمل فى سبيل السلم : (١)

ابتدأ تاريخ السيطرة الدولية على الطاقة الذرية بأن فرضت على الأمة التى اخترعت القنبلة اتجاهاً خاصاً لسياستها . ولكن الولايات المتحدة لم تحاول فى مبدأ الأمر التعاون فى ذلك مع الحكومات الأخرى إلى اليوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، حين أعلن الرئيس ترومان برنامج الحكومة فى ذلك . وقد تحدث الرئيس بمناسبة يوم البحرية ، فأكد الحاجة المستمرة إلى التسلح الدولى ، ثم أعرب عن اهتمامه بمعالجة المشاكل الدولية ، « بأكثر سرعة وبأشد عزماً وبأكبر دراية » مما حدث فى الماضى . وقال إن الجواب على المشاكل التى نشأت عن إطلاق الطاقة الذرية يجب أن يدبر ، « بالاشتراك » مع شعوب الأمم المتحدة

(١) أنظر International Conciliation, Carnegie Endowment, September 1946

جميعاً . ولما كان لنظام الأمم المتحدة لم يتم وقتئذ ، فان الولايات المتحدة ستقدم على البحث فى أمر القنبلة الذرية مع بريطانيا العظمى وكندا أولا ، توفيراً للوقت وضماناً للتقدم فى تنظيم السيطرة عليها . وستكون هذه المفاوضات مقدمة لغيرها .

ثم أشار إشارة مقنعة ، إلى التفكير فى المفاوضة مع اتحاد الجمهوريات السوفيتية أيضاً ، قبل اجتماع الأمم المتحدة فى يناير سنة ١٩٤٦ وقد نفذ هذا القول فى مؤتمر موسكو الذى اجتمعت فيه الدول الثلاث الكبرى من ١٦ إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٤٥ .

وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ هذا البرنامج اجتماع وزيرى خارجيتى بريطانيا وكندا ، وهما مستر أتلى ومستر كنج ، بالرئيس ترومان بواشنطون فى الأسبوع الثانى من نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وفى هذا المؤتمر رسم خط واضح بين تبادل المعلومات العلمية تبادلا حرا لأغراض سلمية ، وبين « إذاعة المعلومات بين المختصين لاستعمال الطاقة الذرية استعمالا عملياً قبل تدبير ضمانات لاستعمالها ، بحيث تكون الضمانات فعالة ومتبادلة وتنفذ على جميع الأمم وتقبلها هذه الأمم » . وهذا التمييز بين النوعين وضعت له عدة اقتراحات لتقدم إلى هيئة الأمم المتحدة .

وأول هذه المقترحات يقضى بأن تتبادل المعلومات العلمية الأساسية لأغراض سلمية بين الدول على نطاق واسع . أما الاقتراح الثانى فيقضى بطبيعة الحال « بالاشراف على الطاقة الذرية إلى الحد الضرورى لضمان استعمالها فى أغراض سلمية فقط » . ويعالج الاقتراح الثالث القسم الآخر من المشكلة ؛ فهو ينص على « أن يحرم فى التسليح الدولى استعمال الأسلحة الذرية وغيرها من الأسلحة الكبرى التى تستعمل فى الفتك بجماهير من الناس . » وذكر بعد هذا التحريم طرق « اتخاذ ضمانات فعالة عن طريق التفتيش وغيره من الوسائل لحماية الدول الموافقة على هذه الاتفاقات من أخطار خرق النظم أو الاحتيال عليها » .

ويسير العمل لتحقيق هذه الأغراض بما يوافق طبيعة المشاكل التى ذكرت ؛ إذ يجب أن يسير عمل اللجنة على أطوار منفصلة ؛ ونجاحها فى إتمام أى طور منها سيبعث الثقة الضرورية فى العالم قبل أن تبدأ فى الطور التالى .

فهذا البرنامج الذى وضع فى مؤتمر واشنطون ، ووفق عليه حرفياً فى مؤتمر موسكو الذى عقد بعد ذلك بشهر واحد

قد صارت محتوياته هي النصوص التي ترجع إليها لجنة الأمم المتحدة .

على أنه كان في بلاغ مؤتمر واشنطون عبارة لم تتكرر في بلاغ مؤتمر موسكو ولا في الوثائق التالية . فقد أوضح بلاغ مؤتمر واشنطون الأطوار المختلفة التي تسلكها اللجنة في عملها ، وذكر في عبارات عامة ترتيب هذه الأطوار الذي يجب أن تتبعه اللجنة :

« ويمكن أن يقال تحديداً بأن على اللجنة أن تهتم أولا بتبادل العلماء والمعلومات العلمية على نطاق واسع . وفي الطور الثاني تهتم بجمع معلومات كاملة عن الموارد الوطنية للمواد الخام . »

وهذا الترتيب المقترح في بلاغ مؤتمر واشنطون للسير في طريق التعاون الدولي للاشراف على الطاقة الذرية ، أشير إليه أيضاً في النصوص المتقدمة على هذا النص في هذه الوثيقة . ففيها يعلن رؤساء الحكومات الثلاث أنهم « ليسوا مقتنعين بأن إذاعة معلومات المختصين فيما يتعلق بالاستعمال العملي للطاقة الذرية ، قبل وضع ضمانات فعالة ومتبادلة ونافذة تقبلها جميع الأمم ، مما يساعد على الوصول إلى حل الشائك لمشكلة القنبلة الذرية » . ومع ذلك أعرب المجتمعون في المؤتمر عن استعدادهم لإشراك الدول المتحدة الأخرى على أساس التبادل ، في المعلومات التفصيلية عن الاستعمال العملي للذرة ، بمجرد وضع الضمانات الفعالة النافذة لكيلا تستعمل في أغراض « تدميرية » . ولم يعترض رئيسا وزارتي بريطانيا وكندا على هذا الاجراء لأنهما كانا مقتنعين بأن حكومة الولايات المتحدة لا تسيء استعمال « السر » خلال الفترة التي يجري فيها تبادل المعلومات . ولكن ظهر فيما بعد واضحاً للعيان أن روسيا السوفيتية لا تشاطرهما كل هذه الثقة .

وقد كان الغرض من مؤتمر موسكو الذي عقد بعد مؤتمر واشنطون بشهر واحد ، واجتمع فيه وزراء خارجية جمهوريات الإتحاد السوفيتي و بريطانيا والولايات المتحدة ، البحث في معاهدات الصلح في شرق أوربا وشرق آسيا ، ولم يتناول المؤتمر مسألة الطاقة الذرية إلا في نهاية عمله .

على أنه لم يبد خلاف خطير أو آراء متعارضة عند ما فحص مسيو مولوتوف وأعوانه نتائج مؤتمر واشنطون . وكانت هذه هي على الأقل الفكرة التي خرج بها مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة ؛ إذ ألقى بعد عودته من موسكو تصريحاً عاما

فى ٣٠ ديسمبر وصف فيه تفصيلات هـــذه المفاوضات :

« لقد ذهبنا نحن والبريطانيون إلى موسكو بمقترحات محدودة هى : أن تؤلف هيئة الأمم لجنة للبحث فى الطاقة الذرية والأمور المتعلقة بها ، بناء على التصريح الذى أعلنه رئيس الولايات المتحدة ووزيرا خارجية بريطانيا وكندا فى مؤتمر واشنطون . ولقد وضع هـــذا الاقتراح فى آخر قائمة أعمال المؤتمر الحاضر بناء على طلب حكومة السوفييت . وكانت المناقشات مقصورة على هذا الاقتراح ولم تتعرض للمسائل الفنية والعلمية قط . ولم تسألنا حكومة السوفييت قط عن السلاح الجديد . وكنت سعيداً إذ وجدت أن حكومة السوفييت تشعر كما نشعر بأن هـــذا السلاح الخاص يحدث بطبيعتــه ثورة ، حتى صار من الضرورى البحث فى طرق للاشراف الدولى عليه بلجنة تؤلف من الأمم المتحدة .

« ويجب أن يكون من المفهوم أن واجب اللجنة هو البحث فى المشاكل التى تنشأ عن كشف الطاقة الذرية وما يتصل بها ، وأن تضع المقترحات الخاصة بذلك . وليس لمجلس الأمن ولا للجنة السلطة فى أن تفرض على الحكومات العمل بمقترحاتهـــا .

«ولا يقصد بذكر الأغراض الأربعة التى وضعت فى قرار إنشاء اللجنة أن تدل على ترتيب بحثها . ومن المفهوم البين بوجه خاص أن مسألة الضمانات تنطبق على مقترحات اللجنة فى أى وجه من الوجوه ، وفى أى دور من أدوارها . والواقع أن أساس المسألة بأكملها هو وضع الضمانات الضرورية .

« ولا ينتظر أن نشارك نحن أو أية أمة أخرى فيما لدينا من أسرار التسليح حتى نتأكد من وضع ضمانات فعالة من شأنها أن تؤدى إلى حمايتنا المتبـــادلة .

« ولم تدخل حكومة السوفييت غير تعديلات قليلة على المقترحات التى قدمناها . وترمى هذه التعديلات إلى إيضاح علاقات اللجنة بمجلس الامن ، وقد قبلنا هذه التعديلات بعد مراجعة بعضها .

«و إذا فحصت هذه التعديلات بدقة فانه يتبين أنهـا لا ترمى إلى أكثر من تمكين مجلس الأمن من أن يقـوم بتبعاته الأولى فى المحافظة على السلم والأمن .

« ويمكن مجلس الأمن أن يوجه اللجنة ويمنع نشر التقارير التى قد تضر بالسلم والأمن ، على أن يكون هذا الاجراء بموافقة جميع أعضائه

الدائمين . وإذا عجز مجلس الأمن عن العمل فذلك لا يقف عمل اللجنة :

«وقد دعت الحكومات الثلاث كلا من فرنسا والصين وكندا للاشتراك معنا فى تقديم هذه المقترحات للجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة . »

ومع ذلك فقد أعرب عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى قبل عودة مستر بيرنز إلى واشنطون ، عن اهتمامهم بالبرنامج الذى وضع فى موسكو ، خشية ألا يكون فيه الضمان الكافى لحماية سر السلاح الذرى ؛ إذ لم ترد إشارة مباشرة لهذا الجزء الأساسى من المشكلة فى بلاغ موسكو.

ولكنهم بعد الاتصال بالرئيس ترومان ووكيل الخارجية اتشسون ، سمعوا ما أرضاهم ، وأذاع السناتور فاندنبرج التصريح الآتى :

« لا أستطيع أن أوافق على تناول المشكلة فى أدوار منفصلة غير متصلة ، وإنى بوجه خاص أعتقد بما أظن أنه الرأى السائد فى دوائر البرلمان الأمريكى ، وهو أن أية إذاعة لسر القنبلة الذرية يجب أن يكون جزءاً من مشروع كامل يقضى بالتفتيش والاشراف فى جميع أنحاء العالم .

لذلك حاولت أن أحصل على أنباء إضافية رسمية اليوم فيما يتعلق بالبرنامج الذى أعلن فى بلاغ موسكو .

« فعلمت من وزارة الخارجية أنه إذا كان البلاغ قد وضع أربعة أغراض ذاكراً أن الغرض الأخير هو التفتيش والاشراف ، فانه لم يكن يرمى إلى تناول هذه الأغراض بالترتيب الذى ذكر ، بل يجب أن تقرأ هذه الأغراض معاً ، وأن يتم كل منها مع الضمانات الضرورية ، وكل ذلك يكون خاضعاً لموافقة البرلمان الأمريكى . »

وعاد مستر بيرنز إلى الموضوع نفسه فى ٧ يناير وهو على أهبة الرحيل لاجتماع تعقده الأمم المتحدة فى لندن ، فأبدى تأكيدات تبعث على زيادة الاطمئنان . وهذا نص تصريحه :

« إن مقترحاتنا بشأن الاشراف على الطاقة الذرية ستحال بلا ريب كما هى العادة على لجنة فرعية وسيكون لدى ممثلنا الوقت الكافى للتأكد من عدم وجود أى لبس بالنسبة لأغراض اللجنة ودائرتها وسلطتها .

« ووجوه المشكلة التى يجب أن تفحصها اللجنة هى الوجوه التى

نشأت عن كشف الطاقة الذرية المشار إليها فى العبارة الأولى من المقترحات. فالمشكلة المشار إليها ليست هى كيف تعمل الطاقة الذرية وإنما هى كيف يكون الاشراف عليها فى سبيل خدمة السلم. ولست أدرى كيف يمكن تفسير العبارة التى استعملت بحيث يكون للجنة السلطة فى الوقوف على المعلومات غير المعروفة عامة، أو المعلومات التى تمد بها عن طيبة خاطر.

« وليس فى ميثاق الأمم المتحدة ما يمنح الجمعية العمومية أو اللجنة التى تنشئها السلطة بأن تفرض على أية دولة عملا ما. ولغة المقترحات تبين فى وضوح أن ليس للجنة إلا أن تبدى مقترحات فقط حتى فى موضوع تبادل المعلومات العلمية الأساسية لأغراض سلمية.

«وإذا كان للوفد الذى يمثلنا فى الجمعية العمومية بهيئة الأمم أن يؤيد تأليف لجنة لدراسة المشاكل الدولية التى نشأت عن كشف الطاقة الذرية، فليس هذا مما يخول هذه اللجنة السلطة فى تقرير نوع المعلومات التى تضعها الولايات المتحدة أو أية دولة أخرى تحت تصرف اللجنة.

« فاذا اقترحت اللجنة الممثلة فيها الولايات المتحدة تبادل معلومات معينا فان هذا الاقتراح يعرض على مجلس الأمن. ولا ينفذ مجلس الأمن شيئاً إلا بموافقة الأعضاء الخمسة الدائمين ومنهم الولايات المتحدة. فلا يمكن إذن أن ينفذ اقتراح إلا بموافقة الولايات المتحدة.

« وإذا أقرت الولايات المتحدة الاقتراح ووافق عليه مجلس الأمن، فانه يجب على حكومة الولايات المتحدة وعلى البرلمان الأمريكى أن يحددا إلى أى مدى ينفذ هذا الاقتراح. فاذا كان هذا العمل لا ينفذ إلا بمعاهدة فان ذلك يتطلب ثلثى أصوات أعضاء مجلس الشيوخ للموافقة على هذه المعاهدة. فيرى من مجموع هذه الأحوال أن مصالح الولايات المتحدة مصونة كل الصون. »

ويتبين من فحص هذا التصريح أن ترتيب سير العمل فى لجنة الطاقة الذرية اعتبر فى الظاهر أمراً ثانوياً فى مؤتمر واشنطون. وكان أهم ما عنى به الحصول على موافقة الحكومة السوفيتية على إنشاء لجنة الطاقة الذرية التابعة لمجلس أمن الأمم المتحدة. وكانت المناقشة قائمة على علاقة لجنة الطاقة الذرية بمجلس الأمن.

ولم يشر مستر بيرنز فى هذا

التصريح إلى المشكلة الخاصة بما يجب أن تعالجه اللجنة من مسائل أولا . ومن الطبيعى أن يعتقد أنه من المسلم به أن وضع « ضمانات فعالة » يجب أن يسبق المشاركة « فى أسرار تسليحنا » . ولكن هذا التفسير لمفاوضات موسكو لم يكن هو التفسير الذى استنتجته الحكومة السوفيتية . ولقد ظلت هنالك مسألة لا جواب عليها ، وهى : هل تكون الضمانات الفعالة كلها أو على الأقل الجزء الأكبر منها دولية ؟ أم هل يبقى الجزء الأكبر منها تحت إشراف كل من الأمم الموقعة ؟

إنشاء لجنة الطاقة الذرية للأمم المتحدة

لم يكن فى ميثاق الأمم المتحدة ما يدل على الطريقة المثلى لمعالجة الاشراف على الطاقة الذرية ، إذ لم تكن هذه المشكلة قائمة عند وضع هذا الميثاق . ولم يكن العلماء المطلعون يومئذ على شئ من سر القنبلة الذرية ، يعلمون أهم ينجحون أم لاينجحون ، إلى أن حدثت تجربة الانفجار فى لوس ألاموس فى ١٦ يوليه سنة ١٩٤٥ . وظل العالم فى جهل إلى ما بعد انفجار قنبلة هيروشيما فى ٥ (٦ أغسطس) . لذلك كان على الأمم المتحدة أن تنشئ هيئات فرعية جديدة للاشراف على الطاقة الذرية ، وأن تكون تابعة للهيئة القائمة بحيث تستطيع العمل تحت إشراف الجمعية العمومية ومجلس الأمن ، ولها مع ذلك من الحرية فى العمل ما يمكنها من المراقبة الفعالة

وقد نفذ مؤتمر موسكو إلى قلب المسألة بأن اعترف بالطبيعة الثنائية للاشراف الذى تقوم به الأمم المتحدة على الطاقة الذرية من حيث إنها سلاح حربى، ومن حيث إنها أداة للسلم ذات نفع لخير البشرية . وتعمل اللجنة بالضرورة على أنها هيئة من هيئات مجلس الأمن عندما تعالج الاشراف على الاستعمالات الخطيرة للطاقة الذرية أو القضاء عليها ، ولكنها بالطبيعة تخدم أغراض الجمعية العمومية للأمم المتحدة والمجلس الاقتصادى ، والاجتماعى حين تعمل لتقدم الاستعمالات السلمية للطاقة الذرية . وكان من المسلم به أن الحاجة الأولى الملحة هى القضاء على خطر السلاح الذرى وأن نشاطها الأول يكون على ذلك متعلقا بمجلس الأمن .

ولكى يحقق هذا الغرض وضع مؤتمر موسكو ما يبدو من أول نظرة أنه إجراء معقد بعض الشيء؛ فقد أقرت الدول الثلاث فى المؤتمر — وهى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة — أن تتخذ الخطوة الأولى فى دعوة الدول الأخرى التى تتمتع بالعضوية الدائمة فى مجلس الأمن، وهى فرنسا والصين ومعهما كندا (لما كان لها من حظ فى التطورات الأولى لإخراج القوة الذرية) كى تؤيد اقتراحاً فى الاجتماع الأول لهيئة الأمم بانشاء لجنة القوة الذرية للأمم المتحدة. وبذلك يرجع الفضل فى إنشاء هذه اللجنة إلى الأمم المتحدة جميعها، لا إلى الدول الكبرى وحدها. ولكن يجب على اللجنة فى مجال العمل أن تقدم تقاريرها ومقترحاتها أولا لمجلس الأمن، وهو الذى يقرر ما يتخذ بشأنها وهل تبقى هذه التقارير والمقترحات سرية أوتنشر على الناس، وفى « الأحوال المناسبة يبلغ مجلس الأمن هذه التقارير للجمعية العمومية ولأعضاء الأمم المتحدة فضلا عن المجلس الاقتصادى والاجتماعى وغيرها من الهيئات الداخلة فى نظام هيئة الأمم المتحدة. » وهذه الاجراءات فى الحقيقة بسيطة نسبياً وإن كان من المحتمل أن يكون تنفيذها صعبا. فالاقتراحات ذات الصفة الحربية الخالصة تبقى من اختصاص مجلس الأمن وحده، أما غيرها من المقترحات فيمكن مناقشتة فى الهيئات المناسبة.

ولخص مستر بيرنز وزير الخارجية الطريقة التى عرضت بها قرارات مؤتمر موسكو على الاجتماع الأول للجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى تقريره إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة عن أعمال الوفد الأمريكى فى الجمعية العمومية:

« على أثر الاتفاق الذى تم فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ بمؤتمر موسكو، حيث اجتمع وزراء خارجية المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، والمفاوضات التى تلته، قدمت الحكومة البريطانية بالنيابة عن الأعضاء الخمسة الدائمين فى مجلس الأمن وكندا، فى ٤ يناير، اقتراحاً بأن يوضع القرار الخاص بانشاء لجنة للاشراف على الطاقة الذرية واستعمالها، وهو الذى ووفق عليه فى موسكو، ضمن برنامج الجمعية العمومية. »

وأشار مستر أتلى إلى أهمية إنشاء هذه اللجنة المقترحة فى خطبته التى رحب فيها بالجمعية العمومية فى ١٠ يناير.

وقال مستر بيرنز رئيس وفد الولايات المتحدة فى افتتاح المناقشة العامة بشأن تقرير اللجنة التحضيرية فى الجلسة العامة التى عقدت فى ١٤ يناير ما يأتى:

« إن أمامنا واجبا آخر عظيم الشأن وهو إنشاء لجنة تبحث المشاكل التى نشأت عن كشف الطاقة الذرية وهى ذات اتصال وثيق بمشكلة الأمن. وهذه المسألة هى من أهم المسائل لدى الدول جميعاً . ويجب ألا نخفق فى إيجاد الضمانات الضرورية ، لنتأكد من أن هذا الكشف العظيم سيكون لخير الانسانية ، لا أداة عنيفة الفتك والتدمير فى حرب طاحنة . »

وقد قررت الجمعية العمومية إحالة هذا الاقتراح إلى لجنتها للسياسة والمحافظة على الأمن . وفحصت اللجنة هذا الاقتراح فى جلستيها الثانية والثالثة فى ٢١ ، ٢٢ يناير ، وفتح المناقشة السناتور كونالى ممثل الولايات المتحدة فى اللجنة ، وفى آخر الاجتماع فى يوم ٢١ يناير تمت الموافقة عليه ، من غير تغيير ، بأصوات ستة وأربعين عضواً من المؤيدين ، ولم يعارض أحد ، وامتنع صوت واحد عن الاقتراع . وبعد مناقشة قصيرة فى اليوم التالى وافقت اللجنة الأولى فى ٢٣ يناير بالاجماع على تقرير المقرر بشأن إنشاء اللجنة .

وفى ٤ يناير وافقت الجمعية العمومية على التقرير والقرار الخاص بانشاء لجنة الطاقة الذرية ، ولم يعترض أحد عند أخذ الأصوات

تقرير ليلينثال

مضت عدة أشهر على إنشاء لجنة الأمم المتحدة للطاقة الذرية قبل أن تعين الدول الممثلة فى هذه اللجنة مندوبين لها . ولم يصدر الرئيس ترومان قراراً بتعيين مستر برنارد م. باروخ ممثلا للولايات المتحدة باللجنة إلا فى ١٨ مارس سنة ١٩٤٦ . وفى هذه الأثناء كانت حكومة الولايات المتحدة قد سارت خطوات بمشروعاتها التى ترمى إلى وضع برنامج للاشراف الدولى على الطاقة الذرية . ويقابل ذلك عمل لجنة مكماهون التى ألفها مجلس الشيوخ للاشراف الداخلى . وفى ٧ يناير ألف مستر بيرنز قبيل سفره إلى لندن لجنة حكومية للطاقة الذرية برياسة دين اتشسون وكيل الخارجية .

وأعضاء هذه اللجنة هم : دكتور فانيفر بوش ، ودكتور جيمس كونانت من إدارة البحوث العلمية وتقدمها ، وماجور لزلى جروفز رئيس مشروع منهاتان وهى الادارة التى صنعت القنبلة ، ومستر جون ماكلوى وزير الدفاع سابقاً .

وفى ٢٣ يناير عينت اللجنة هيئة استشارية أعضاؤها :

مستر دافيد ليلينثال رئيس سلطة وادى تنسى ، وقد عين رئيس الهيئة الاستشارية .

مستر شستر برنارد رئيس شركة تليفونات بل بنيوجرسى .

مستر روبرت أوبنهايمر من المعهد الفنى بكاليفورنيا وجامعتها .

مستر شارلز ألن توماس وكيل رياسة شركة مونساتو الكيميائية ومديرها الفنى .

مستر هارى ون وكيل رياسة شركة الكهرباء العامة ومدير سياستها الهندسية .

وقد نشرت الحكومة تقرير هذه الهيئة الاستشارية فى ١٦ مارس بمقدمة من وزير الخارجية أثنى فيها على « العمل الضخم الذى تدل عليه هذه الوثيقة والميزات العالية التى يتمتع بها الرجال المشتركون فيها » . ثم قال إنها تعتبر « نقطة ابتداء صالحة للمناقشة العلنية بين ذوى الاختصاص ، وهى من العوامل الضرورية للوصول إلى سياسة رشيدة . ولقد أعلنت هذه الوثيقة لا لتكون تصريحاً لسياسة بل لمجرد أن تكون أساساً للمناقشة » . ومع هذا القول اعتبر « تقرير ليلينثال » بوجه عام أنه يحمل سلطة الحكومة ، وهو أمر أدى إلى الانتقاص من حرية مستر باروخ فى اختيار المقترحات التى يعرضها على لجنة الأمم المتحدة .

وأهم ما جاء فى وثيقة ليلينثال هو الاقتراح بانشاء سلطة للتقدم الذرى ، تمتلك جميع معدن اليورنيوم والثوريوم فى العالم ، وتشرف على أنواع النشاط فيما يتعلق بصفاتها الاشعاعية . واختتم التقرير بقسم خاص بالانتقال من الحالة الحاضرة إلى الحالة التى يكون فيها لهذه السلطة الاشراف التام ؛ فرسم سلسلة من الخطوات التى بها يحتفظ « بالتفوق الأمريكى الحاضر » فى حين تعمل الأمم الأخرى لحل المشاكل العلمية والصناعية المتعلقة بهذا الموضوع .

ويعترف التقرير بأن هذه المسائل تعد من « أعلى موضوعات السياسة العليا والعلاقات الدولية » ، ولكنه يقترح أن تبدأ هذه السلطة عملها

بمسح جيولوجى للمواد الخام وغيره من المسائل العلمية والفنية وأن « السر » (على أن التقرير لم يستعمل هذه الكلمة) لا يكشف عنه إلا بعد قيام إشراف دولى فعال .

ويهمنا فى هذه المناسبة أن نلفت الأنظار إلى هذين المقترحين الهامين اللذين جاءا فى تقرير ليلينثال، ولكن المفاوضات الخاصة بالاشراف على الطاقة الذرية فى لجنة الأمم المتحدة تأثرت إلى حد كبير بهذه الوثيقة الهامة .

لجنة الأمم المتحدة فى العمل

عقدت لجنة الأمم المتحدة للطاقة الذرية بعد أن تم تأليفها اجتماعها الأول فى ١٤ يناير سنة ١٩٤٦ بمركز مجلس الأمن بكلية هنتر بمدينة نيويورك . ومن الأمور ذات المغزى أن مندوبى الدول الاثنتى عشرة الممثلة فى اللجنة كانوا ، ما عدا قلائل ، من السياسيين أو رجال الأعمال لا من العلماء . وكانت المشكلة التى بحثوا فيها هى الأمن الدولى والحرب والسلم ، وكيف يكون الاشراف على القوة الذرية ، لا كيف يكون انتاجها .

وقد اتبعت التقاليد الديبلوماسية ، فتولى ممثل الولايات المتحدة رياسة اللجنة ، ثم صارت الرياسة تعقد بالدور لمدة شهر لممثلى الدول المختلفة حسب الترتيب الأبجدى لاسم الدول بقدر الامكان .

وقد شمل الخطاب الافتتاحى لمستر باروخ جميع ميدان الطاقة الذرية فى شرح واف وواضح . وهو خطاب سيكون له مكان بارز بين أدب المناقشات الدولية ، وقد حمل هذا الخطاب بالاذاعة اللاسلكية إلى سائر أنحاء العالم ، فكان نداء لضمير الانسانية يحوى إنذاراً لابد منه ، وهو أن تختار بين « السلم العالمى أو الدمار العالمى » :

« إننا نستطيع أن نقيم ضمانات وافية فى وجه رذائل الحرب، وهذا هو الهدف الذى نرمى إليه . ففى ميدان هذه النصوص التى نرسمها هنا ، سيجد من يريد البحث ، العناصر الأساسية لبلوغ غايتنا ، وسيرى غير هؤلاء فراغاً . أن كلامنا يحمل مرآته التى ينعكس عليها الأمل أو اليأس الأكيد — الشجاعة أو الجبن .

«إن العالم اليوم يعانى القحط،وهو يجيع بطون الناس ؛ ولكن هنالك قحطاً أشد ، هو جوع العقول . وهذا الجوع يمكن علاجه بالتغلب على الخوف وأن يستبدل به الأمل الذى تنبثق منه العقيدة — عقيدة كل منا فى الآخر ، العقيدة بأن نعمل معاً فى سبيل النجاة والعزم على معاقبة الذين يهددون السلم والأمن . »

وقد وضع مستر باروخ مشروعاً من أربع عشرة نقطة عملية لضمان السيطرة الدولية على التقدم الذرى ، وهو مشروع فيه تفصيلات كثيرة فلا يمكن مناقشته هنا .

على أنه بوجه عام يشبه برنامج تقرير ليلينثال ، ولكن فيه مواد اقتبسها من مشروعات قدمتها هيئات غير رسمية ، ومن المناقشات العامة فى الولايات المتحدة أثناء الأشهر السابقة . فالسلطة الدولية للتقدم الذرى أشمل فى مقترحاته منها فى تقرير ليلينثال الذى أصر على القول با لتملك الدولى. على أن النقطة الأولى فى مشروع باروخ توسع هذا الفكرة حتى تجعلها تشمل جميع أنواع الاشراف : « وعلى السلطة أن تضع مشروعاً وافياً للاشراف على ميدان الطاقة الذرية الجديد بالوسائل العديدة ، من امتلاك وتسلط وترخيصات وإدارة وتفتيش وبحث وإدارة بوساطة موظفين كفاة . »

فأول عمل لهذه السلطة هو معرفة جميع موارد العالم من اليورانيوم والثوريوم ، وأن تحتكر احتكارا تاما جميع المواد المتفجرة ، وأن تشرف على البحث فى ميدان المتفجرات الذرية . وهى التى ترخص للسلطات الأخرى بالاستغلال السلمى غير الخطر . ويقضى المشروع بالتفتيش الدولى ، وبحرية الدخول لممثلى السلطة إلى أى جهة من جهات الدول فى الوقت الذى تراه السلطة ضروريا . ويجب تنفيذ النظام على أدوار . ولا تقوم الولايات المتحدة باذاعة ما لديها من معلومات ، ما عدا الضرورى لفهم المقترحات التى تؤيدها ، إلا بعد أن يسير مشروع الاشراف سيراً مرضياً .

ومما يعادل هذا البرنامج المؤلف من أربع عشرة نقطة فى الخطورة التصريح القاطع بأن قوة وقف القرارات التى منحتها الدول الكبرى فى مجلس الأمن ، لا تستعمل فى حالة اتهام أمة بأنها خرقت هذه المعاهدة ، بأن امتلكت أو استعملت قنبلة ذرية بطريقة غير مشروعة أو استعدت لصنع قنبلة ذرية. فيجب ألا يكون لأية أمة القدرة

على تقييد السلطة الدولية ؛ إذ « يجب ألا يكون هنالك حق وقف القرارات (فيتو) لحماية أولئك الذين يخرقون عهدهم المقدس ، ألا يعملوا على تقدم القوة الذرية أو استعمالها لأغراض تدميرية . »

وكان صدى مقترحات مستر باروخ لدى الرأى العام أن قوبلت بالتأييد العظيم لا لموضوع المقترحات فحسب ، بل للرغبة كذلك فى تأييد ما أصبح بياناً للسياسة الوطنية وسط مفاوضات صعبة . ولم يكد الجدل يقوم حول النقط الأربع عشرة نفسها ، ولكن الاقتراح بالتخلص من حق وقف القرارات الذى تتمتع به الدول الكبرى فى مجلس الأمن ، قوبل بالتأييد القوى من أنصار فكرة الحكومة العالمية ، وبالمعارضة الشديدة من أولئك الذين رأوا عدم إثارة هذا الأمر بتلك الطريقة القاطعة فى الوقت الحاضر .

على أن ما كان أكبر شأناً من تأثير المقترحات فى الرأى العام بالولايات المتحدة هو تأثيرها فى الحكومات المتفاوضة . فلقد قبلت جميع الدول، ما عدا روسيا وبولندة ، مبادئ مشروع باروخ أساساً للمناقشة . على أن معارضة روسيا لم تكن فى النهاية عقبة لا يمكن التغلب عليها فى سبيل قبول المشروع من الجميع . ولقد بدت الفكرة المعارضة واضحة كصفاء البلور فى المشروع الذى قدمه مستر أندرى ا. جروميكو ممثل السوفييت فى الجلسة الثانية للجنة وهى التى عقدت فى ١٩ يونيه .

ويختلف المشروع السوفييتى اختلافاً أساسيا عن مشروع الولايات المتحدة . فقد ابتدأ بتحريم استعمال السلاح الذرى فى الحال ، وتدمير كل ما هو مختزن من السلاح الذرى فى مدى ثلاثة أشهر . فهو فى هذا الصدد يقترح عكس الطريقة المقترحة فى مشروع باروخ تماماً ؛ فالمشروع الأخير لا يقضى بذلك إلا بعد وضع ضمانات فعالة . ولم ينطو المشروع السوفييتى على إنشاء هيئة دولية جديدة لها السلطة بفحص ما قد يجرى فى الدول المختلفة ، وتتولى السيطرة على جميع أنواع النشاط « الخطر » فى مجال الذرة . فبدلا من هذه الهيئة الدولية التى رغبت جميع الدول فى فحص اختصاصاتها ، ترك المشروع السوفييتى تنفيذ تحريم السلاح الذرى على عاتق المستوى الأخلاق ، كما فعل ميثاق بريان وكيلوج (ميثاق باريس) حين حرم الحرب نفسها . فقد ذكر المشروع مرة أخرى أن خرق هذه المعاهدة يكون « جريمة خطرة

على الانسانية » ، وأن تتعهد كل أمة بمعاقبة أى واحد من مواطنيها يعمل لخرقها .

ولم يرد فى المواد الثانى للمشروع السوفييتى أى ذكر مجدد لمبدأ التفتيش الدولى . ويظهر أن مستر جروميكو كان فى القسم الثانى من مشروعه يذهب إلى أن المشروع النهائى سيحتوى على « طرق لمنع إنتاج أسلحة تعتمد على استعمال الطاقة الذرية » . وهو نص لا معنى له إلا إذا كانت الطرق تؤدى إلى التعاون الدولى ؛ ومع ذلك فقد عارض مسيو جروميكو فى بيان تال الفكرة المقترحة باستعمال التفتيش الدولى ، واعتبره خرقاً لسيادة الدولة . وهذا البيان إذا فسر حرفيا يدل على إنكار الضمانات التى نصت عليها وثيقة الأمم المتحدة نفسها . فلو أن كل أمة ظلت هى الحكم على نفسها بنفسها ، دون أن تخضع لسلطات الأمم المتحدة ، فليس ثمة فائدة للبناء الذى أقيم فى سان فرانسيسكو . ومن الواضح أن بيان مسيو جروميكو يجب ألا يفسر بهذه المعارضة البعيدة لأعمال الأمم المتحدة ؛ لأنه فى الوقت نفسه تقريباً ، الذى كان يسجل فيه اعتراضه على تدخل موظفى السلطة الذرية ، كان المارشال ستالين يكرر فى موسكو التأكيدات باخلاصه المستمر لميثاق الأمم المتحدة .

ومن المستحيل فى حدود هذه الخلاصة القصيرة أن نتكلم عن جميع المقترحات والملاحظات التى أبداها ممثلو الأمم الأخرى فى هذه اللجنة ، والعضو الوحيد من أعضاء اللجنة ، غير مسيو جروميكو ، الذى قدم مشروعاً تفصيليا - هو دكتور هربرت إيفات ممثل أستراليا . وهذا الرجل الذى أيد بشدة حقوق الدول الصغرى فى مؤتمر سان فرانسيسكو كان بوجه عام على اتفاق مع مستر باروخ . وقد أشار إلى مصلحة الدول الصغرى فى إيجاد نظام عام لا يمنح الدول الكبرى امتيازات خاصة عند إعطاء الأصوات .

ولقد بدا من الواضح أنه لا يمكن التقدم تقدماً كبيراً فى طريق الاتفاق إلا إذا درست المشكلة فى تفصيلاتها دراسة أوفى ، وكان من نتيجة ذلك أن لجنة الطاقة الذرية فى الأمم المتحدة اجتمعت أولا اجتماعاً خاصا بوصفها لجنة للعمل . ثم أنشأت لجاناً لتعالج المظاهر المختلفة للمسائل الفنية المتصلة بها . ولما كانت هذه اللجان تحتفظ بسرية أعمالها ولم تصدر تقريرات عامة عن عملها ، فمن المستحيل إعطاء بيان واف عن أعمالها .

وقد كان الدكتور هربرت إيفات

رئيساً للجنة الطاقة الذرية فى الشهر الأول من انعقادها بصفته ممثلا لاستراليا واسمه فى أول قائمة الدول الممثلة فى اللجنة . وكان بصفته هذه رئيساً للجنة العمل التى مثلت فيها جميع الدول التى لها ممثلون فى اللجنة العامة . وعقدت هذه اللجنة اجتماعها الأول فى ٢٨ يونيه ، فقررت إنشاء لجنة فرعية رقم ١ تألفت من ممثلى فرنسا والمكسيك والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة و بريطانيا و يرأسها ممثل أستراليا . وكان عمل هذه اللجنة الفرعية تحضير قائمة بالمقترحات التى تنظر فيها لجنة العمل . وقد عقدت هذه اللجنة الفرعية خمس جلسات وقدمت نتيجة أعمالها إلى لجنة العمل ، التى ألفت بعد ذلك ثلاث لجان فرعية لموالاة دراسة التفصيلات . و بما أنه قد ظهر أثناء اجتماع اللجنة الفرعية رقم ١ أن الدول غير الممثلة فيها ترغب فى حضور جلساتها ، وأنها تحب بعد ذلك إبداء آرائها ، فقد اتفق على أن تؤلف اللجان التى تدرس المسائل الهامة والعامة فى المستقبل من سائر أعضاء اللجنة الأصلية، وليس اثنا عشر عضواً بالعدد الضخم الذى يصعب تنظيمه .

وقد سميت أولى اللجان الفرعية الثلاث التى ألفت بعد ذلك بلجنة رقم ٢ إذ لم يجدوا اسما قصيراً يصح إطلاقه عليها . والغرض من هذه اللجنة الفرعية دراسة المشاكل العامة فيما يتعلق بالسيطرة على الطاقة الذرية . وأنشئت أيضاً لجنة استشارية تشريعية لتفحص المسائل القانونية التى تنشأ عن المناقشات ، ولتشير بآرائها ، وفى الوقت المناسب تقدم المشورة التشريعية عند وضع اتفاق دولى . وقد لاحظ مستر جروميكو بهذه المناسبة أن عملها فى ذاك الوقت سابق لأوانه ؛ لأن الأمور السياسية لم تبلغ مرحلة الاتفاق التى يطلب فيها رأيها القانونى . ولذلك قررت هذه اللجنة فى الأيام الأولى من أغسطس أن تقف نشاطها مؤقتاً .

وقد ألفت اللجنة الفرعية الثالثة ، وهى اللجنة العلمية والفنية لتشير بما تراه فى الأمور الفنية على اللجنة الأصلية، وتفحص مسألة تبادل المعلومات العلمية . وكانت المسألة الأولى التى أخذ فيها رأيها هى : هل يمكن فرض رقابة فعالة من الوجهة الفنية الصرفة؟ وقد وقفت اللجنة الفرعية رقم ٢ أعمالها انتظاراً للتقرير الكامل لهذه اللجنة الأخيرة ؛ إذ قد يتضح مما تسفر عنه بحوث هذه اللجنة تحول جديد فى المناقشات السياسية . على أن التقرير نفسه لم يأت بمقترحات جديدة فيما

يتعلق بطبيعة الرقابة أو التفتيش الذى يفرض ، ولكنها قصرت عملها على فحص واقعى لكل دور من أدوار الانتاج الذرى ، مبتدئة بالمواد الخام واحتمال تحويلها إلى أغراض حربيــة . وكانت للجنة فى تحضير تقريرها خبرة العمــل مع علماء دوليين من علماء الدول الاثنتى عشرة الممثلة فى لجنة الطـاقة الذرية . ولذلك أصبح من الراجح أن يكون هذا التقرير بملحقاته هو البرنامج الذى تتخــذه اللجنة الفرعية رقم ٢ قاعدة لبحوثها . وإن تحليل عناصر المشكلة لهى خطوة أولى نحو إيجاد حل ملائم .

ولما كانت رياسة اللجنة دورية فقد خلف الدكتور ايفات فى الرياسة ، بعد انتهاء الشهر الذى قضاه رئيساً نشيطاً للجنة الطاقة الذرية ، الكابتن الفارو ألبرتو داموتا سيلفا ممثل البرازيل ؛ وتبعه الجنرال ا. ح. ل. مكنوتن ممثل كندا ، ثم الدكتور ك. ل. هسيا ممثل الصين .

مناقشات غير رسمية ومقترحات

كانت مقــترحات مستر باروخ للسيطرة الدولية على الطاقة الذرية ، عظيمــة الشأن فى مبادئهـا حتى إن النـاس لم يلتفتوا إلا قليـلا ، أو لم يلتفتوا قط ، إلى الطريقة التى استعملها فى تقديم مقترحاته .

فقد لجأ فى أدق المفاوضات وأصعبها إلى أصعب الوسائل ، وهى طريق الديبلوماسية العامة ، ولو أن هنالك ميداناً تبدو فيه استحالة تطبيق قول وودرو ولسن — « اتفاقات علنية ، يتم الوصول إليها علناً » — فذاك هو ميدان سر السلاح الذرى . ومع ذلك لم يكتف مستر باروخ باعــلان مقترحاته للجنــة الطاقة الذرية للأمم المتحدة فى جلسة علنية ، بل دعا إلى مناقشات هذه المقترحات فى الصحف والراديو ومنابر الخطابة .

أجل ! هنالك سوابق فى الالتجاء إلى الديبلوماسية العامة فى المؤتمرات السابقة لنزع السلاح ، ومن أشهرها المؤتمر البحرى بواشنطون الذى عقد برياسة مستر هيوز ، ومؤتمرات جنيف لنزع السلاح ، إلا أن السيطرة على التسليح الذرى هى مشكلة من نوع جديد . وإذا كانت المؤتمرات السابقة تعنى بالمقارنة بين مقاسات معروفة من أنواع الأسلحة ، فان الغرض من الديبلوماسية

اليوم السيطرة على سر . وكان مستر باروخ على علم بمخاطر فتح ميدان للجمهور لا يزال قسم منه مغلقاً أمامهم . على أنه أعلن منذ اللحظة الأولى أن مشكلة السيطرة تختلف عن المعرفة بعلم الهندسة ذى العلاقة بالقنبلة الذرية . فالمسألة السياسية ليست من العلم أو الهندسة فى شئ بل هى مسألة نفسانية ، والسلامة الوطنية هى مسألة أدبية لا مادية ، وهى التعبير السياسى لثقة أمة فى استمرار السلم لديها . وهذه الثقة لا يمكن كسبها وبقاؤها إلا بالذهاب رأساً إلى مصدرها ، وهو الرأى العام فى كل أمة من الأمم .

وقد عجزت الجهود السابقة التى بذلت فى سبيل نزع السلاح عن إيجاد هذه الثقة ؛ لأن المقترحات لم تذهب إلى المدى الذى تشمل فيه جميع أنواع السلاح من جهة ، ولأن قوى المحور تآمرت وعملت للاخفاق ، باستعداداتها للحرب فى أوربا وآسيا من جهة أخرى .

ولم يعد خطر دول المحور يستطيع أن يسد الطريق فى وجه مجهود قوى واسع المدى للوصول إلى قدر كاف من نزع السلاح الذرى . ولذلك أصر مستر باروخ على أن يجد تأييداً من الرأى العام لبلوغ هذه الغاية ، واتخذ مستر باروخ مثلا من لنكولن الذى اقتبس عنه عبارات مؤثرة فى نهاية خطبته ، ومن ولسن الذى اتبع طريقته حتى فى عدد المسائل الأربع عشرة . فوجه نداءه إلى شعوب العالم أكثر مما وجهه إلى حكوماته ، وكان فى عباراته الافتتاحية صدى حديث لنداء جفرسون الذى وجهه للانسانية فى إعلان استقلال الولايات المتحدة . وقد قال فى بيان واضح إنه لا يوجه كلماته « لزملائه الأعضاء » فى لجنة الطاقة الذرية فحسب ، بل كذلك « لزملائه سكان هذا العالم » . وقال إن الحكومات وحدها لا تضمن الأمل فى حياة جديدة خالية من المخاوف التى ينقبض لها القلب والتى تحيط الآن بالعالم . . . إن الجوع الروحى للناس يمكن علاجه بالتغلب على الخوف ... وبثقة الناس بعضهم ببعض ، والثقة فى أن نعمل معاً فى سبيل النجاة . ومثل هذه العبارات المتناثرة فى مبدأ خطبته ونهايتها وجدت أقصى إجمال لها فى قوله « إن نوع هذه النجاة يجب أن يعمل فيه الجميع من أجل الجميع » .

على أن مجهود مستر باروخ للحصول على تأييد المفكرين من جميع البلاد لمشروع السيطرة على أكبر مصدر للقوة فى العالم ، كان له تطبيق خاص فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛

لأن الحكومات الأخرى تعلمت من عبر الماضي ألا تثق بثبات الأمريكيين على أغراضهم فى العلاقات الدولية . فاذا كان الأمريكيون قد نسوا ، فان الدول الأخرى لم تنس الطريقة التى أيدت بها الولايات المتحدة عصبة الأمم والمحكمة الدولية ثم عادت فتخلت عن هذا التأييد . وكانت هذه الدول تريد أن تتأكد من أن أية مشروعات لتنظيم دولى تتفاوض فيه السلطة التنفيذية ، لا يلغيه المجلس النيابى الأمريكى تحت ضغط الرأى العام المتغير أو غير المهتم . ولقد صار من الواضح أن الاستمرار على سياسة خارجية واحدة يتوقف على درجة الفهم والوصول إلى المعلومات الصحيحة التى تعالج بها أمة مشاكلها . وإذا كان الدور الأول من المناقشة العامة للمسائل الكبرى قد يؤدى إلى الفوضى وتبلبل الآراء ، فان الرأى العام لا يمكن أن يشحذ ويصير سلاحاً سياسيا نافعاً إلا على ضوء المناقشة العامة . وكان مستر باروخ على علم بذلك ، فشجع قبل بيانه فى لجنة الأمم المتحدة للطاقة الذرية مجهودات الهيئات غير الرسمية التى تدرس الطاقة الذرية ، وأصر على أن طريق الاتفاق فى المفاوضات الدولية يكون أوسع وأثبت ، إذا كانت هنالك حرية مطلقة فى الاعراب عن الرأى بشأن أى مشروع أو اقتراح للسيطرة على الطاقة الذرية ، بالتحبيذ كان أو بالانتقاد.

وكان مستر باروخ يعلم بلا ريب قبل تعيينه ممثلا أمريكيا فى لجنة الأمم المتحدة بزمن مديد ، أن هنالك عدة لجان تبحث فى مشاكل الطاقة الذرية ، وأول هذه اللجان هيئة من علماء الطبيعة عرفت باسم اتحاد العلماء الأمريكيين . وهذه الهيئة تضم نحو سبعة آلاف من رجال العلم يشتغلون بالبحث فى مشروع منهاتان وما يتبعه . واهتمامهم منصرف على الأكثر إلى مشكلة الاشراف على الطاقة الذرية داخل الولايات المتحدة . ويلقون المساعدة من هيئة مدنية كما هو مذكور فى قانون مكماهون . ولم يتخذ هذا الاتحاد موقفاً حاسما فى الميدان الدولى إلا بعد نشر تقرير لجنة ليلينثال ، إذ قبله دليلا على الاتجاه السياسى . ولكن بعد أن نشرت مقترحات باروخ أيدها الاتحاد تأييداً تاما شاملا . ومما يتصل اتصالا وثيقاً بعمل هذا الاتحاد تلك الحملة الواسعة فى أنحاء الأمة لتربية الناس وإمدادهم بالمعلومات ، وهى التى قامت بها اللجنة الوطنية للمعلومات الذرية ؛ وهذه اللجنة أيضاً شجعت مناقشة الموضوع فى الهيئات المحلية

في أجزاء مختلفة من البلاد .

ولقد صار من الواضح في أثناء هذا العمل أن المشاكل السياسية والقانونية والاقتصادية التي تنشأ عن السيطرة على الطاقة الذرية مما يخرج عن ميدان علماء الطبيعة ، وأنها في حاجة لمناقشتها ودراستها بوساطة علماء سياسيين واجتماعيين . والغريب أنه لم يظهر نسبياً ما يدل على اهتمام بهذا الموضوع بين العلماء السياسيين والاجتماعيين في الجامعات . فمجلس بحوث العلوم الاجتماعية وهو الهيئة التي تضم المشتغلين بالعلوم الاجتماعية ، كان آخر الهيئات التي برزت في هذا الميدان ، لتتولى إدارة البحث فيما تسفر عنه السيطرة على الطاقة الذرية من مشاكل اجتماعية واقتصادية . فلم يعن هذا المجلس بهذه المشاكل إلا في ربيع سنة ١٩٤٦ وأوائل صيفها ، حين أنشأ إدارة برئاسة الأستاذ وينيلد ريفلر من معهد الدراسات العليا للبحث في النتائج الاقتصادية النهائية للسيطرة على القوة الذرية ، ولم تبدأ هذه الادارة أعمالها إلا أخيراً . ولكن هذا التأخير يسوغه أن الميدان الذي تعمل فيه لم يفتتح افتتاحاً كافيا للبحث .

مثل هذا التاريخ القصير لا يمكن أن يحصي الأعمال المفيدة التي تقوم بها جماعات عدة من الهيئات التعليمية ، بعقد اجتماعات الجمعيات العلمية وينشر بحوث ، وتنظيم برامج إذاعة . على أنه لا بد من ذكر بعض وجوه النشاط الذي تبديه هيئات كمجلس العلاقات الأجنبية ، وجمعية السياسة الأجنبية ، ولجنة دراسات تنظيم السلم ، والجمعية الأمريكية للأمم المتحدة . وهنالك هيئات تعقد في مراكز مختلفة ، من أهمها سان فرنسيسكو لجهات شاطئ المحيط الهادي ، وفي جامعة دينفر ، وهي تنظم إذاعات عن السيطرة على الطاقة الذرية . ولقد صارت هذه المشكلة موضوع برامج خاصة لهيئات ، كالجمعية الأمريكية للعلوم الطبيعية ، والجمعية الفلسفية الأمريكية . ومن بين برامج محطات الاذاعة الكبرى ألقيت في إذاعة شركة كولومبيا سلسلة من الاذاعات قام بها علماء مختصون تحت إدارة دكتور ليمان برايسون ، وقد ضمنت لجنة مكماهون تقريرها فهرساً وصفيا شاملا لمصادر البحث التي أخرجتها هذه الهيئات .

على أن هنالك ثلاثة مراكز أساسية وضعت برامج للسياسة المستقبلة وأعدت مشروعات للتنظيم الدولي للسيطرة على الطاقة الذرية . وهذه المراكز الثلاثة هي جامعة ييل وجامعة

شيكاغو ومعهد كارنجى للسلم الدولى . ففى جامعة ييل نشر معهد الدراسات الدولية بادارة الأستاذ فريدريك دن نتائج دراسات ومباحث أعضاء المعهد التى استمرت شهوراً فى كتاب عنـوانه « السلاح المطلق » وقد أعد هذا الكتاب قبل بيان باروخ، ولكنه ظل مع ذلك تحليلا قيما وهاما للمشكلة بأجمعها . والنتائج التى يصل إليها هذا الكتاب لا تبعث على التفاؤل ، وهو يوافق على النقط الأساسية فى تقرير ليلينثال ولكنه يذكر القارئ بصعوبة التغلب على قوى التاريخ والسياسة التى كانت لها السيطرة حتى الآن والتى قد تقضى على خـير المشروعات إذا سير فيها بسرعة ومن غير اهتمام بالتطورات المختلفة فى مختلف البلاد . ويفرق الكتاب بين المشاكل التى تتطلب عملا سريعاً وبين المشاكل التى تطبق فى المستقبل. وقد أعرب عن هذه النتيجة الحذرة فى العبارات الآتية :

«ليس فى أيدينا الآن حل كامل ويارز لتلك المشكلة الخطيرة المعقدة التى هى السيطرة الدولية على الأسلحة الذرية . وليس معنى ذلك أنه حكم علينا بأن نظل مكتوفى الأيدى أمام تلك الكارثة المحققة ؛ فقد رسم تقرير اللجنة الاستشارية طريقة يظهر أنهـا جريئة ويمكن تحقيقها ، ويمكن أن تتخذ خطوة أولى فى ذلك السبيل . وهذا التحليل الحاضر قد اقترح خطوة أخرى يمكن اتخاذها الآن ، وهى المفاوضة فى اتفاق عام على مقاومة إجبارية تتخذ تدابيرها فى الحـال لمقاومة المعتدى بسلاح ذرى . وهاتان الخطوتان ليستا بعيدتين بعضهما عن بعض فكلتاهما تؤيد إطالة السلم إلى مدى بعيد إن لم تكن تضمنه .

ويجب أن يكون أول ما يهتم به هو المشكلة الانتقالية التى تقضى بترك ميدان المستقبل مفتوحاً إلى أن يوطن الناس أنفسهم على النظم الضرورية التى تقضى بها حياة المدنية فى العصر الذرى . ولن نكف عن ترديد القول بأن الحلول « الدائمة » التى تخاطر بحرب ذرية الآن فى سبيل الحصول على سلم دائم لا تعد حلولا مطلقاً ، لأنها لا تجنبنا الحرب التالية . وإذا كانت الحرب العالمية الثالثة هى آخر الحروب العالمية ، فليس معنى ذلك أننا جنبنا أية حرب من الحروب .

وضرورة إيجاد حلول لهذه المشكلة الانتقالية ربما كانت عذراً فى أن المؤلفين الحاليين لم يعالجوا ما ستسفر عنه الأحوال فى آخر الأمر ؛ فقد وجهوا اهتمامهم إلى إيجاد طرق لتهيئ

للذكاء الانسانى الوقت الذى يحتاج إليه ليجد الحلول المناسبة للمشاكل البعيدة الأمد .

ولقد نشأت فى جامعة شيكاجو هيئتان هامتان : إحداهما جماعة عرفت باسم علماء الذرة فى شيكاجو ، وهى تصدر « نشرة علماء الذرة » التى يحررها جولد سميث ورابينوفتش وهى خير مجلة فى هذا الميدان ، وتجد فيها نصوص جميع الوثائق الهامة بمجرد ظهور هذه الوثائق . والهيئة الأخرى هى مكتب الاستعلامات عن الاتجاهات الاجتماعية للطاقة الذرية لجامعة شيكاجو ، برياسة الأستاذ روبرت ردفيلد . وهذه الهيئة قد نادت بمشروع وضعه الأستاذ كوينسى رايت للسيطرة الدولية على الطاقة الذرية وأيدته .

ويقضى مشروع الأستاذ رايت بانشاء وكالة للطاقة الذرية الدولية مؤلفة من ثلاث لجان . تكون اللجنة الأولى منها استمرار اللجنة المنظمة الحاضرة ، ويعهد إليها بواجب وضع مقترحات نهائية لمجلس الأمن أو للجمعية العمومية لهيئة الأمم ، لكى تعدل من مشروعها الأصلى ، ولكى تضمن السير إلى النجاح . وتكون الهيئة المركزية لهذا النظام لجنة إدارية تتألف من تسعة أعضاء ، وهى فى أعمالها تماثل سلطة التقدم الذرى التى ذكرت فى مشروع ليلينثال التى تملك أو تشغل مناجم اليورانيوم والثوريوم والمصانع لتكريرها . ويقام مكتب للدراسات الذرية ، ويكون له سلطة الترخيص باستغلال اليورانيوم والثوريوم لأغراض سلمية ، وتكون هنالك لجنة للتفتيش لها سلطة الوقوف على مصادر المادة الخام والمصانع التى تخرج مواد مفرقعة . فالمشروع من هذه الجهة يختلف اختلافاً واضحاً عن مشروع ليلينثال . ومما يميز هذا المشروع أنه يقترح أن تضع كل دولة قانون جنايات لمعاقبة الأشخاص الذين يخرقون هذا الاتفاق ؛ وينص على تأليف محكمة جنائية للأمم المتحدة على قاعدة النظام المقترح فى اتفاق جنيف سنة ١٩٣٧ . وفى هذا الباب من المشروع اكتسب الأستاذ رايت خبرته من محاكمة مجرمى الحرب الألمانيين بنورمبرج . وهذا الاقتراح يفتح ميداناً مهماً فى تقليد السيادة الدولية .

واقترح الأستاذ رايت ، كنقطة هامة يبدأ بها لتنفيذ هذا المشروع الواسع المدى ، أن تدمر فى الحال جميع الأسلحة الذرية الموجودة بمجرد تنفيذ هذا الاتفاق ؛ وأن ينقل جميع ما هو مخزون

من المــواد المفرقعــة إلى اللجنــة الادارية ؛ وأن يوقف العمل فى مصانعها حتى يتم تشكيل إدارة السيطرة الدولية وتسير فى عملها . فمشروع شيكاجو من هذه الجهة يماثل مقترحات السوفييت . ولكن إدارة السيطرة تقضى بأن تكون السلطة الدوليــة واســعة ، وبتقييد السيادة الوطنية تقييداً ثابتاً .

وأخيراً توجد لجنة الطاقة الذرية لمعهد كارنجى ، وقد أنشئت فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٤٥ . والغرض من إنشائها البحث والتثقيف فى المشــاكل الخاصة بالسيطرة على الطاقة الذرية . وهذه اللجنة تتألف من أربعين عضواً اختيروا من بين علماء الطبيعة والعلماء السياسيين وأصحاب التجربة فى الأعمال العامة . وكانت هذه الهيئة كثيراً ما تجتمع للمناقشة وللنظر فى التقارير التى تقدمها لجان فرعية من الخبراء الذين يدرسون مشاكل خاصة .

وكانت المشكلة الأولى التى بحثت تفصيلا هى التفتيش الدولى على إنتاج المعادن ذات الاشعاع . وكانت اللجنة الفرعية التى تعالج هذا الموضوع مؤلفة من إخصائيين فى ميدان طبقــات الأرض والمعادن ، ويرأسها الأستاذ بول كر من جامعة كولومبيا . وكان تقريرها عن إمكان هذا التفتيش هو أن « السيطرة الفنية على المواد الخام يمكن تنفيذها بقدر كاف يهيئ لمحاولة جدية لاقامة نظام للسيطرة ... ويمكن التفتيش على المناجم المعروفة بعدد صغير نسبياً من الموظفين ، ويمكن أن يكون هذا التفتيش فعالا تماماً » ولكن معرفة المكتشفات الجديدة لا يمكن أن تتحقق دون مساعدة سياسية من الأمة التى لها صلة بهذا الاكتشاف .

وقد عهد إلى لجنة فرعية قانونية برياسة مستر جورج فينش الذى يعمل بقسم القانون الدولى بمعهد كارنجى ، فى وضع مشروع عام للسيطرة الدولية على الطاقة الذرية . وبعد أن قضت هذه اللجنة سبعة أشهر فى درس ومناقشة أصدرت آراءها فى شكل مشروع اتفاق لذلك : « وليست الفكرة هى السبق إلى النصوص النهائية لمعاهدة تعقد بين الحكومات ، بل وجدنا أن هذه طريقة واقعية لتحديد المشاكل السياسية فى هذا الباب واقتراح طرق معالجتها » ، وقد وافقت لجنة معهد كارنجى على هذا المشروع فى ١١ مايو سنة ١٩٤٦ ونشر فى ١٧ يونيه .

والمشروع الذى اقترحته لجنة معهد كارنجى يدخل فى ميثاق الأمم

المتحدة »، ولا يثير المشكلة الشائكة التي هي حق وقف القرارات . فهو يرى إنشاء لجنة دولية لها السلطة فى اتخاذ كل الاجراءات المانعة فى وقت السلم التى تكون ضرورية ضد دولة تدبر حرباً ذرية . فاذا التجأت دولة إلى الحرب فعلا دعى مجلس الأمن إلى القيام بالحراسة الموكولة إليه ، وليس ذلك فحسب ، بل إن المادة ١٥ من الميثاق التى تؤكد « حق الدفاع الطبيعى بالنسبة للفرد أو الجماعة أو لحماية النفس » تؤيد وتقوى ، لكى يكون اتخاذ تدابير إجماعية ضد الدولة المعتدية إجبارياً . وفضلا عن ذلك فأنه فى أثناء التفتيش على دولة عزى إليها تدبير القيام بحرب ذرية تمتنع الدول الأخرى عن تزويد الدولة المتهمة بالأسلحة الذرية والمواد وغيرها من آلات الحرب (المادة ٢٩) . وهذه الاجراءات للتفتيش والتنفيذ بسيطة ومستقيمة ، وهى لا تنتظر المناقشة بل تنفذ فى الحال ومن تلقاء نفسها بمجرد تهديد السلم .

ولم يرد فى المشروع ذكر بأن تمتلك لجنة دولية جميع اليورانيوم والثوريوم فى العالم ، وتتولى إدارة مصانع القوة الذرية . فمثل هذا الامتلاك وهذه الادارة تكون فى يد لجنة وطنية فى كل دولة ، كما اقترحت لجنة مكماهون المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ . وهذه اللجان الوطنية تكون خاضعة للمراقبة الدقيقة للجنة الدولية (أو السلطة الدولية) . ويوجد نص اختيارى يسمح لأية دولة أن تحيل موادها الأساسية ومصانعها إلى اللجنة الدولية إذا رغبت فى ذلك .

ويحرم على الدول أن تملك أسلحة ذرية أو تصنعها لاستعمالها ، ولكن مجلس الأمن قد يرخص للدول المتحدة بأن تنتج من الأسلحة الذرية وتخزن ما تحتاج إليه فى أعمال الحراسة . وفى رأى واضعى المشروع أنه يجب ألا يكون المقدار كبيراً ، وقد يمكن مع الوقت الاستغناء عن صنعها إطلاقا .

هذا تاريخ تأليف لجنة الأمم المتحدة للطاقة الذرية . أما الأعمال التى قامت بها حتى أواخر الشهر الثالث من سنة ١٩٤٧ فيمكن إجمالها من أقوال شوتويل[1] أيضاً الذى قسم تاريخ هذه الفترة إلى سبعة أدوار :

فى الدور الأول كانت الجلسات الافتتاحية ، وأخذ كل مندوب يعلن

---

(١) راجع International Conciliation, Carnegie Endowment, April 1947

السياسة الرسمية لبلاده . ففى ١٤ يونيه أعلن مستر باروخ مقترحات الولايات المتحدة . وفى ١٩ يونيه كان دور كندا التى رحبت بالوجهة الانسانية التى عطف عليها مندوب الولايات المتحدة ، وقبلت مشروعه أساساً للبحث. أما مندوب بريطانيا فكان مثالا للحذر السياسى، ولكنه رحب بهذا الأساس الذي اقترحته الولايات المتحدة ، وأكد ضرورة توقيع عقوبات شديدة على المخالفين للتعهد . ثم نقدم مستر جروميكو بمقترحات الاتحاد السوفييتى . وأيد كل من الصين والبرازيل ومكسيكو مقترحات الولايات المتحدة .

ولما عادت اللجنة للانعقاد بعد أسبوع حاول مندوب فرنسا التوفيق بين مشروعى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وقال إنه ليس من الضرورى الانضمام إلى أحد المشروعين منذ البداية والبت فى المسائل التى أثيرت فى كليهما . وحبذ مندوب بولندة ما جاء فى المشروعين من محاسن وإن مال إلى جانب المشروع السوفييتى . وقال مندوب هولندة إن مرمى المشروعين الانشاء . وأيد مندوب مصر مقترحات الولايات المتحدة فى المبدأ ، وكذلك فعل ممثل استراليا .

وقبلت فى ديسمبر مقترحات مستر باروخ أخيراً ؛ إذ تعلقت الآمال بأنها خير وسيلة لصون الأمن فى وجه الكارثة الذرية ، مع مراعاة الحالة الحاضرة للعلاقات الدولية . ومع ذلك كان الحذر بارزاً فى أقوال المندوبين وفى أقوال الصحف ، مما دل على أن المقترحات قبلت من حيث المبدأ فقط لا فى تفصيلاتها .

وكان من أهم المسائل التى كانت عقبة فى سبيل الانفاق مسألة حق وقف القرارات (الفيتو) . وربما كان أهم اعتراض هو إنشاء سلطة دولية للسيطرة والتفتيش . ولا شك فى أن عدم اطمئنان الاتحاد السوفييتى إلى العالم الخارجى ، له ما يسوغه فى المحاولات التى بذلت فى السنوات الأولى من إنشاء هذا النظام ، للقضاء عليه بقوة السلاح ، ثم بالمقاطعة السياسية الطويلة . فصارت حكومة السوفييت تشك فى الهيئات الدولية التى ينشئها الغرب ، بل إن محالفات الدول الثلاث الكبرى واجتماعاتها أثناء الحرب كانت متأثرة بهذه الريبة .

وعلى ذلك انتقلت المسألة إلى دورها الثانى حين تقرر فى اجتماع ٢٥ يونيه سنة ١٩٤٦ ، وهو الاجتماع الثالث للجنة ، تأليف لجنة للعمل وهى تكاد تكون اللجنة الكبرى نفسها ، وتجتمع فى

جلسات سرية . وأخذت هذه اللجنة تبحث المسائل المختلفة المتشعبة وألفت عدة لجان فرعية ، منها اللجنة الفرعية رقم ١ ولم يكن نجاحها فى عملها كبيراً .

أما اللجنة الفرعية رقم ٢ فهى تمثل الدور الثالث من أدوار المناقشات الكثيرة ، وقد عقدت خمس جلسات ، وقدم رئيسها مستر ايفات تقريراً بظهر أنه كان خطوة فى سبيل حل المسائل التى عرضت على هذه اللجنة التى كانت تنظر هل من الأفضل أن توضع معاهدة خاصة تحرم الأسلحة الذرية أو أن يوضع مشروع يجبر على التخلى عن هذه الأسلحة بأن يتضمن وسائل فعالة لضمان ألا تستعمل الطاقة الذرية إلا فى أغراض سلمية . وفى هذه الحالة يبحث نوع السيطرة الدولية وعلاقتها بهيئة الأمم المتحدة . وكانت المناقشات فى هذه اللجنة طويلة ومتشعبة ؛ إذ كان ممثل السوفييت يرى وضع معاهدة تحريم فى الحال ، ليصل بذلك إلى منع استعمال القنابل الذرية وصنعها . ولا يمكن أن يقال إن هذه اللجنة وصلت إلى نتيجة كبيرة ، وإن كان العمل الذى قامت به مفيداً .

وأخذت اللجنة العلمية والفنية على عاتقها فى أواخر يوليه سنة ١٩٤٦ النظر فى احتمال الرقابة والسيطرة الفعالة ، وكان هذا هو الدور الرابع من أدوار البحث فى السيطرة على الطاقة الذرية . وقد واجهت هذه اللجنة المشكلة بأن طرحت المسائل السياسية جانباً ، وأخذت تبحث فى أطوار صنع الأسلحة الذرية إجمالا ، وأين يكون الخطر فى تحويل الطاقة الذرية إلى أغراض حربية منذ الابتداء باستعمال المواد الخام ، وعالجت كل خطوة فى إنتاج الطاقة الذرية . ومن الطبيعى أنها لم تعرض لسر السلاح الذرى . ولا شك فى أن عمل هذه اللجنة كان مفيداً .

ودخل البحث فى دوره الخامس عندما اقترح جنرال ماكنوتن مندوب كندا على أن تتبع الطريقة التى سارت عليها اللجنة العلمية والفنية فى أعمال اللجنة رقم ٢ . وقررت هذه اللجنة ذلك فى اجتماع ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٦ . وكان الغرض درس الضمانات التى تحول دون توجيه الطاقة الذرية إلى صنع السلاح الذرى فى كل خطوة من خطوات العمل . وهذه الخطوات هى أولا : مناجم اليورانيوم والثوريوم . ثانياً : مصانع جمعها . ثالثاً : مصانع التكرير . رابعاً : المصانع الكيميائية والمعدنية . خامساً : مصانع المواد الأولى المؤثرة وما يتبعها من معامل

لفصل المواد . سادساً : مصانع فصل الايسوثوب .سابعاً : المؤثرات الثانوية.

وظلت هذه اللجنة تعمل مدى شهرين فى جو من الوئام ، وانتهت إلى الاتجاه نحو تأييد مقترحات الولايات المتحدة ونحو الاعتقاد بأن مشروعها فى مبدئه ملائم للسيطرة المرغوبة .

وكان الدور السادس هو تقديم تقرير لمجلس الأمن وقد قدم اقتراح بهذا المعنى فى الاجتماع السادس للجنة الطاقة الذرية الذى عقد فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٤٦ من رئيسها (البكباشى خليفة) مندوب مصر الذى اقترح أن يقدم هذا التقرير فى آخر السنة . وكانت المناقشة فى هذا الأمر حادة ، واتخذ مندوب الاتحاد السوفييتى موقف العناد بعد التعاون الذى كان بادياً من جانبه ، ومع ذلك فقد تقرر الاقتراح وتمت الموافقة عليه .

ولذلك عادت المناقشة فى جلسة ٥ ديسمبر فاتخذت وجهة سياسية ،وعادت معارضة مندوب السوفييت حول حق وقف القرارات (الفيتو)تظهر ، وبدا خلاف فى وجهات النظر حتى بين المندوبين الذين كانوا يؤيدون الولايات المتحدة فى طريقة معالجة المسائل .

على أن نتيجة أخذ الأصوات على « التقرير الأول المرفوع لمجلس الأمن » أدت إلى الموافقة عليه ، وأن عشراً من الدول الاثنتى عشرة تؤيد محتوياته .

وفى نهاية تلك السنة ، وهو الدور السابع من أدوار هذه المشكلة ، خرجت ثلاث دول من اللجنة ، وهى مصر والمكسيك وهولندة ، وحل محلها البلجيك وكولمبيا وسوريا . وأدى ذلك إلى البطء فى الأعمال كى يطلع الأعضاء الجدد على ما تم ، ومن الطبيعى أن العمل لم يسر بالنشاط الذى ظهر فى سنة ١٩٤٦ إذ عقدت اللجنة خمسة وثلاثين اجتماعاً فى السنوات الثلاث الأخيرة .

وفضلا عن ذلك حدثت تغييرات لم تكن متوقعة ؛ فقد استقال فى ٤ يناير مستر باروخ وزملاؤه . وكان تغيير وزير خارجية الولايات المتحدة ، مستر بيرنز ، مما جعل التردد يبدو فى أعمال اللجنة إلى أن عين مستر وارن أوستن عضو مجلس الشيوخ ممثلا للولايات المتحدة فى هيئة الأمم المتحدة ولجنة الطاقة الذرية .

ولم يكن المركز الذى وجده مندوب الولايات المتحدة ملائماً ؛ فقد كانت اللجنة تجد عراقيل من ممثل السوفييت ، وكانت الولايات المتحدة تعمل لسير الأمور ، فاذا بها تضطر

أمام التغييرات التى حدثت إلى أن تطلب تأجيل المناقشة فى مجلس الأمن فى نحو منتصف يناير. وقد بدا أن مستر أوستن يعمل لحل مسائل الخلاف ومحاولة التوفيق بقدر الامكان. ففى مسألة حق وقف القرارات ظهر أنه يميل إلى تأجيلها، ومع ذلك لم يبد مايدل على التقهقر فى أية مسألة متعلقة بالمبادئ.

وعاد موضوع الطاقة الذرية إلى الظهور فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٧ عندما عرض فى مجلس الأمن: هل تكون اللجنة الجديدة التى ألفت للنظر فى التسليح مختصة أيضاً بتقديم مقترحات فى ميدان الطاقة الذرية؟ وقد تقرر أن ذلك ليس من حقها بل لجنة الطاقة الذرية هى المختصة، وقد امتنع مندوب السوفييت عن إعطاء صوته.

وفى اجتماع مجلس الأمن فى ١٣ فبراير سنة ١٩٤٧ عرض التقرير الأول للجنة الطاقة الذرية، فوجه الجنرال ماكنوتن سؤالا للمستر جروميكو مندوب السوفييت والمندوب البولندى أن يبديا اعتراضاتهما، فأبدى مندوب السوفييت هذه الاعتراضات فى اجتماع ١٤ فبراير. وأهم اعتراض له هو عدم عقد معاهدة فى القريب تحرم استعمال الطاقة الذرية حربياً، ووجود نصوص تعارض مبدأ الاجماع فى القرارات، وتعهد بتقديم تعديلات وقدمها فعلا فى ١٨ فبراير.

ولم تكن هذه التعديلات خالية من القيمة كما ذكرت الصحف، بل كان منها ما يستحق العناية. وقد اقترحت بريطانيا وفرنسا فى اجتماع مجلس الأمن فى ٢٠ فبراير إعادة التقرير إلى اللجنة ومعه التعديلات المقترحة لتعمل للتوفيق بينها وبين مقترحات التقرير. وبعد مناقشات عدة ومداورات تقرر فى ١٠ مارس رد هذا التقرير إلى لجنة الطاقة الذرية ومعه صورة المناقشات التى دارت فى مجلس الأمن، وأن يطلب إلى اللجنة وضع مقترحات على ضوئها، وتقدم تقريراً قبل اجتماع الجمعية العمومية فى شهر سبتمبر.

وهكذا عادت المشكلة إلى ما كانت عليه وإن كانت قد خطت خطوة صغيرة جدا.

من هنا وهناك

وثنية إخوان الصفاء ... أيضاً

واليوم أعود مرة أخرى إلى ما نشره الأديب جبور عبد النور عن معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء (١) تعقيباً على ما نشرته فى الرد عليه (٢) ويؤسفنى أن أقول إن الأديب أبى أن يفهم ما كتبته كما أبى أن يفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء . بل قل إن هذا الكاتب من طبيعته — كما ظهر فى مقاليه — أن يعمد إلى تشويه النصوص التى أمامه ، فعل ذلك عندما أراد أن يستشهد ببعض نصوص إخوان الصفاء ، وفعل ذلك فى رده علىّ . وعجبى أن يذهب هذا الكاتب إلى أن الدراسات العلمية لا تنكر اقتطاع النص والاستشهاد بجزء منه وطرح بقيته . فمتى كانت الدراسات العلمية غير أمينة فى نقل النصوص ؟ وأى منهج من مناهج البحث العلمى ، الذى يراد به الحق قبل كل شئ ، يبيح مثل هذا الخطأ العلمى الخطير ؟ فالبحث العلمى ومناهجه أحرص على الأمانة العلمية من أن نجزئ النص حسب أهوائنا ، فنأخذ من النص الواحد ما نشاء ونطرح مالم نشاء ، والأمانة العلمية تقتضى أن نأتى بالنص كاملا غير محرف ولا مشوه ، ذلك إذا أردنا أن نحكم حكما صحيحاً أو قريباً من الصحيح ، دون أن يفسد حكمنا هوى أو نزعة من النزعات حتى لا نكون متعسفين فى أحكامنا . فاذا كان اقتطاع النص مستساغاً فى رأى الكاتب وأنه ليس بمنكر لديه ، فانى أرثى لقرائه وتلاميذه أن يلتمسوا علمهم عند رجل يشوه النصوص ، ويزعم أن البحث العلمى لا ينكره ، ولست أدرى من أين جاء الكاتب « بأنى أتجنى على معالم الوثنية عندما ألح أن نحكم على الاخوان من ظاهر كلامهم » . فلو كان الكاتب دقيقاً فى قراءة ما نشر ، حريصاً على فهم ما ورد فى مقالى الأول

---

(١) مجلة « الكاتب المصرى » عدد ٢١ (يونيه ١٩٤٧) ص ١١٦ .
(٢) مجلة « الكاتب المصرى » عدد ١٩ (أبريل ١٩٤٧) ص ٥٦٥ .

دون أن يعمد إلى تشويهه أو تحريفه ؛ لعلم أن الذى نشر بالحرف الواحد هو « أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرموز التى يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التأويل الباطنى الاسماعيلى ، فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الاسماعيلية و إخوان الصفاء ، ومعرفة أسرار الاسماعيلية تؤدينا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء» . هذا ما نشر لى فى مجلة «الكاتب المصرى» ، وشتان بين ما فهمه الأديب جبور وبين ما نشر . ثم إنى أوردت فى مقالى بعض تأويلات اسماعيلية أشرح بها بعض ما خفى من نصوص إخوان الصفاء ، ولكن الكاتب يأبى دائماً إلا أن ينحرف عن الصواب فى سبيل فكرة اختمرت لديه ، وحاول أن يثبتها بشتى الطرق ولو خالف فى ذلك مناهج البحث العلمى . فالاخوان ذكروا أنهم علويون ، ويأبى الكاتب إلا أن يجعلهم يتخذون ميلهم العلوى تقية و إخفاء للواقع ! ويصرح الاخوان أن هرمس هو النبى إدريس شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من كتاب المسلمين.

ولكن الكاتب أبى إلا أن يكون هرمس الاخوان هو « هرمس فحسب » ويذهب أكثر كتاب المسلمين الذين سبقوا إخوان الصفاء ومن جاء بعدهم إلى تأثير الكواكب العلوية فى عالم الكون والفساد فلم يرمهم أحد بالوثنية ، ولكن الكاتب يلح فى القول بأن الإخوان وثنيون لذهابهم هذا المذهب إلى غير ذلك من هذه الأحكام التى لا يقرها منطق أو بحث علمى يقوم على التدقيق والتمحيص . وما أكثر ما زهى الأديب جبور عند ما نقل عن عبدالقاهر البغدادى ما ذكره عن الباطنية ، ولو كان الكاتب قرأ ما كتبناه عن أصحاب كتب الفرق وعن غيرهم ممن تحدثوا عن الباطنية (١) لعرف أن هؤلاء — ولا سيما البغدادى والباقلانى — كتبوا بوحى تعصبهم المذهبى قبل أن يكتبوا كتابة تاريخية يقبلها البحث الحديث . فقد ذكرت فى مقدمة كتاب «المجالس المستنصرية» بعض العلماء الذين طعنوا فى مذهب الباطنية ، فقلت إنهم بين رجل متعصب لمذهبه ، وبين رجل أراد الحق فخلط

(١) المجالس المستنصرية . ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة . راحة العقل . السيرة المؤيدية . مع ملاحظة أن الاسماعيلية تشعبت إلى عدة فرق وكلامنا الآن ينصب على الاسماعيلية الذين حكموا عدة بقاع إسلامية باسم « الدولة الفاطمية » وهى الشعبة التى وصلتنا كتبهم وعقائدهم ، أما غيرها من الشعب فلا نكاد نعرف من أمرها شيئاً .

بين الباطنية وبين غيرها من الفرق . والقاضي العادل إذا أراد أن يحكم بين خصمين فعليه أن يستمع إلى أقوالهما جميعاً ، أما أن يأخذ برأى جانب واحد فقط فلا قضاء ولا عدل ؛ وهذا ما فعله صاحبنا الأديب جبور عندما استشهد برأى البغدادى الذى تظهر فى كتاباته روح العصبية المقوتة عند المحدثين .

ولا يتوهم الكاتب كما توهم من قبل أنى أدافع عن الباطنية أو أنى أقول بأنهم لم يخرجوا عن التقاليد الحنفية . فالذى استطعت أن أثبته بعد دوام قراءة ما كتبه دعاة الاسماعيلية أنهم فى عبادتهم العملية التى أطلقوا عليها اسم العبادة الظاهرة ، لا يكادون يختلفون عن العبادة العملية عند كافة المسلمين فهم يقومون بجميع فرائض الدين من طهارة وصلاة وزكاة الخ ولكن تأويلهم الباطن هو الذى يخالف ما عليه إجماع المسلمين . وقد شرحنا شيئاً من ذلك فى كتبنا (١) ولو أراد الكاتب أن ندله على الوثنية فى آرائهم وفى رسائل إخوان الصفاء لاستنفد ذلك عدة مقالات ، ولخرجنا عن موضوع المناظرة التى بينه وبينى ، والتى أريد بها أن أبين أن نصوصه التى يستشهد بها على وثنية الاخوان لا تثبت وثنية الاخوان بأى حال من الأحوال ، فليبحث عن نصوص أخرى لعله يهتدى ويوفق .

أما قول الكاتب إننا نجد فى تضاعيف الرسالة ما نشاء من المذاهب الدينية والفكرية . . . الخ ، فهذا ليس بجديد ، وقد سبق أن ذكر أستاذنا الدكتور طه حسين بك ذلك كله فى مقدمته لرسائل إخوان الصفاء ، وذكر ذلك كل المستشرقين الذين بحثوا رسائل الاخوان . وأحب أن أقول الآن إن مذهب الاسماعيلية كله — لا فى رسائل إخوان الصفاء فقط — أخذ عقائده عن المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة ، وعن الأفلاطونية الحديثة ، وعن الفارسية القديمة ، والحرنانية المخمسة ، وبالاختصار عن كل المذاهب التى عرفها العالم قبل الاسلام وبعده ، حتى عصرهم ، وأن الاسماعيلية اتفقوا مع المعتزلة فى مسائل وهاجموا المعتزلة فى مسائل أخرى ، واتفقوا مع الشيعة الاثنى عشرية فى أمور وخالفوهم فى أمور ، وأخذوا عن غلاة الشيعة أشياء

---

(١) راجع تعليق واحد فى الصفحة السابقة .

وهاجموا الغلاة فى أشياء . وهكذا كان الاسماعيلية — ومنهم إخوان الصفاء — سبباً فى أن تدخل بعض المذاهب القديمة فى الاسلام ، وقد ذكرنا ذلك كله فى بحث لنا نشر بمجلة « الراوى الجديد »عدد أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، وفى المقدمة التى كتبناها فى نشر «ديوان المؤيد» داعى الدعاة وأتينا فى البحثين بنصوص صحيحة غير مشوهة ولا محرفة ولا ناقصة تؤيد القضية التى سقناها .

ونعود بعد ذلك إلى ما كتبه عن فصل الدين عن الدنيا ، فقد أرشد الله الأديب جبور إلى الصواب فأقر بما حاول ألا يقر به فى بحثه الأول . فالنتائج التى انتهى إليها فى مقاله بمجلة «الكاتب المصرى » تختلف عما أراده وما نشره فى مجلة « الأديب » البيروتية ، وهو لم يصل إلى هذه النتائج إلا بعد أن أتى بنصوص الاخوان كاملة بدلا من هذه النصوص المسوخة التى أتى بها من قبل ، فأهنئ الأديب الكاتب لرجوعه إلى الحق . ولكن هناك مسألة أحب أن ألفت إليها نظر الكاتب وهى نظرية الاسماعيلية ومنهم الاخوان فى الخليفة . فالاسماعيلية يفرقون بين الامام والخليفة، فالامام هو صاحب الحق الشرعى المنصوص عليه من نسل النبى الكريم، والخليفة هو الذى استولى على الملك دون حق ومنع صاحب الحق حقه . فاذا كان الامام هو صاحب السلطة الدنيوية فهو إمام وخليفة . فمثلا نرى فى كتب الدعاة فى العصر الفاطمى أن صاحب الأمر فى مصر كان يسمى بالامام وبالخليفة معاً ، ولكن بعد أن انقسمت الدعوة بعد المستنصر الفاطمى سنة ٤٧٨هـ ، لم يعترف النزاريون بامامة المستعلى بن المستنصر فسموه بالخليفة . وبعد أن انتقل مركز الدعوة إلى اليمن بعد وفاة الآمر بن المستعلى وعرفت هناك باسم الدعوة الطيبية ، كانوا ينظرون إلى الحافظ والظافر والفائز والعاضد — آخر خلفاء الدولة الفاطمية — نظرتهم إلى الخليفة الذى اغتصب ملك الأئمة الشرعيين . وعلى ذلك يستطيع الأديب جبور أن يغير من رأيه فى تأويل الخليفة عند إخوان الصفاء وعند الاسماعيلية ؛ فان الخلفاء عندهم هم الملوك من أصحاب الدنيا ، واذن لم يخالف إخوان الصفاء ما عليه مؤرخو المسلمين وما جاء فى القرآن الكريم من التفريق بين صاحب الدين وصاحب الدنيا . أما أن الاخوان كانوا يأخذون بنظام الفيثاغوريين لتحقيق مبادئهم ، فواضح من رسائلهم أنهم متأثرون بالفيثاغوريين فى مبادئهم

الفلسفية ، ولا سيما فى فلسفة الأعداد . فلا غرابة أن يتبع الاخـــوان الفيثاغوريين ونظمهم للوصول إلى غايتهم وهى إخضاع العالم الاسلامى لعقائدهم وتسلطان إمامهم العلوى الاسماعيلى .

أما ما ذهب إليه الأديب من « أن القول بأن التنجيم من الأمور التى أنفها الناس فى حضارة العرب كما أنها عرفت فى الحضارات القديمة ولا يزال بعض الناس يؤمنون بها فهو قول فاسد » فهذا يضطرنى إلى أن أسوق للأديب ما قاله العلامة جورج زيدان فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » : « وأول من عنى بالتنجيم والنجوم فى النهضة العباسية أبو جعفر المنصور ، فترجموا له السندهند واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم حتى فى إبان العصر العباسى ، وكان المنجمون فئة من موظفى الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق وكان الخلفاء يستشيرونهم فى كثير من أحوالهم الادارية والسياسية . فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو عدمه ، وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع فى أى عمل حتى الطعام والزيارة ، على أن علماء الشرع الاسلامى كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئونه ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك إلى اليوم [1] . » ولعل الكاتب يتذكر قصة فتح عمورية وقصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق إنبـاءً من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

ولعله قرأ تلك القصص العديدة عن أبى معشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ وكيف كان يتكسب بالتنجيم ، إلى غير ذلك من الأدلة العديدة التى لا حصر لها على أن علم التنجيم كان يسير مع علم الفلك جنباً إلى جنب فى تاريخ الحياة عند المسلمين . وكنت أحب أن يتم الأديب جبور نص ما اقتبسه عن الأستاذ نالينو ولا يقتطع منه حتى تتم الفائدة . فقد ذكر أستاذنا نالينو ما ترجمته : « وقد أجمع المتكلمون والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم

---

(١) ج ٣ ، ص ١٨٦ (الطبعة الثانية) .

ولم يشذ عنهم إلا نفر قليل كالكندى وإخوان الصفاء وفخر الدين الرازى . ولم يكن لهذا الانكار من أثر فى الواقع ؛ ذلك أن التنجيم كان له شأن فى قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة ، وظل كذلك إلى القرن الماضى فكان فى دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم ، بيد أنه لا يزال موجوداً فى البلاد التى لم تصب من الحضارة الغربية إلا قليلا . (١) » فكيف نتعسف فى أحكامنا ونرمى إخوان الصفاء وحدهم بالوثنية لأنهم ذهبوا هذا المذهب ؟ وكيف يكون قولنا فاسداً لأننا قلنا إن التنجيم كان معروفاً سائداً فى البلاد الاسلامية ؟ هذا ما لم أعرف تعليله .

وقد قلت فى مقالى السابق إن التأويل الباطنى للعبادة الفلسفية هو العبادة الباطنية التى دان بها الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء . ولكن الأديب جبور عاد واتخذ ظاهر كلام الاخوان وفسره تفسيراً ظاهريا أيضاً دون أن يفطن إلى أسرارهم ويدرك تأويل كلامهم ، فذهب إلى أن العبادة الفلسفية هى العبادة الوثنية الحرانية ، ولا أجد الآن متسعاً من الوقت للتدليل على ما ذهبت إليه ولا سيما أنى أعمل الآن فى نشر كتاب « راحة العقل » ففى هذا الكتاب بالذات ما يشفى غلة الأديب جبور ويطلعه على بعض أسرار العبادة الفلسفية ، وسيرى أن هذه العبادة ليست بوثنية حرانية ! بل هى صبغ الآراء الفلسفية القديمة والمذاهب الدينية المختلفة بالصبغة الاسلامية . فلننتظر صدور هذا الكتاب الذى سيميط اللثام عن كثير من أسرار الاخوان .

وأختم كلمتى بأن أسال الأديب جبور هل ثبت لديه أن مؤلفى الرسائل هم هؤلاء الذين وردت أسماؤهم فى كتاب المقابسات وفى أخبار الحكماء للقفطى حتى يذهب إلى أن الذين عرفوا بمساهمتهم فى الرسائل رموا بالخروج عن المألوف فالاخوان إذن وثنيون ؟ وما علاقة الحكيم المجريطى برسائل إخوان الصفاء ؟ فاذا استطاع الأديب أن يأتى لنا بشىء جديد عنهم فيكون قد فتح لنا فتحاً جديداً فى هذا اللون من الدرس بعد أن أعيانا البحث فى ذلك .

محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب

(١) راجع الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية مادة التنجيم .

من وراء البحار

أندريه مالرو وناقدوه

فى مجلة « سكروتنى » عدد الربيع بحث هام بقلم مستر ميسون الأديب والناقد الانجليزى عن أندريه مالرو الأديب الفرنسى الذى قامت حوله ضجة فى هذه الأيام ، وعن الناقدين الفرنسيين الذين تعرضوا له بالمدح أو الذم .

ويعد هذا المقال أيضاً بمثابة وصف لحالة النقد الفرنسى فى فرنسا . ويظهر أن مستر ميسون يرى أن النقد الأدبى فى فرنسا متأخر . فهو يقول إنه نظر فى المجلات الفرنسية النشرية التى تعنى بالنقد، فأمكنه أن يتذكر فى الحال أسماء خمس عشرة مجلة كبيرة لكل منها جماعة من الناقدين ، ولكن الفحص لهذه الكمية الكبيرة من الكتابات النقدية يؤدى إلى نتيجة غريبة ؛ فهو يدهش إذ يرى أنه لم يجد منها المساعدة التى كان ينتظرها ، إذا بحث عن كاتب حديث كألبير كامو مثلا . وهو يرى أن هذا الاهمال فى تتبع الأعمال الأدبية ونقدها ، ليس علة من العلل التى ظهرت فيما بعد الحرب ، بل هو يظن أن تفكيره فى المجلة الفرنسية الجديدة N.R.F. التى كانت تصدر قبل الحرب ، يؤدى به إلى أن يقول إنه لم يجد فيها إلا القليل مما يتخذ نموذجاً فى النقد الأدبى .

فمثل هذا البحث البسيط يدل على مشكلة لها شئ من الأهمية ، ويبعث على الريبة فى نوع الاهتمام الكبير الذى يجده الأدب فى هذه الأيام . ولعل من أهم مظاهر الأدب الفرنسى فى هذه الأيام ، الاحترام الكبير للروائيين الأمريكيين . فلقد ابتدأ الفرنسيون منذ سنة ١٩٣٠ ينقلون روايات فولكنر وهمنجواى وكادويل ودوس باسوس وشتاينبك إلى لغتهم . ولعل هذا العمل هو أهم الحوادث فى تاريخ الأدب الفرنسى المعاصر . وهو يقول أنه ليس بين يديه إحصاءات ، ولكن نظرة يلقيها على دليل أحد الناشرين تظهر له تفوق الروايات الأمريكية على المنتجات الأدبية الوطنية . ويكتب كبار الأدباء الفرنسيين المقدمات لهذه

الروايات أو يعلقون عليها تعليقاً طويلا فى المجلات ، ويقول مسيو سارتر إن «ثلثى المؤلفات المخطوطة التى يقدمها الشبان للمجلة التى يديرها هى تقليد لكالدويل أو همنجواى أو دوس باسوس » .

وتأثير السياسة فى الأدب هو الآن قوى كما كان دائماً قويا فى تاريخ فرنسا . فالمناقشة حول الماركسية التى شغلت عالم الأدب الانجليزى قبل الحرب ، وانتهى الأدباء منها ، لاتزال مستعرة فى المجلات الفرنسية . ويجب لكى نقف على المثال الذى يحتذى فى هذا الجدل أن نتجه إلى روسيا بدلا من انجلترا أو أمريكا . على أن هذا النموذج من الجدل معروف ؛ ففى السنوات السابقة للحرب رأينا الاستعراض الذى عرضه جيد . ولكى نجد نوعا مما يجرى بعد الحرب فقد نختار النزاع الأدبى الذى يقوم حول أندريه مالرو ؛ فقد رحب الكثير من الأدباء الشيوعيين بقصصه الأولى على أنها أدوات مفيدة فى خدمة القضية الشيوعية . ويظهر أن مالرو نفسه ظل بعض الوقت يبذل مجهوداً ليكتب ما يلائم الأدب اليسارى ؛ ولكنه فى أثناء الحرب ابتعد عن الشيوعيين . والآن يقال إنه على علاقة وثيقة بالزعيم دي جول ؛ وعلى ذلك قد صار هدفاً لحملات النقاد من الشيوعيين .

ويمكن الوقوف على نوع هذا الجدل بالرجوع إلى مقال نشره أخيراً مسيو كلود مرجان فى مجلة « الآداب الفرنسية » . فقد أراد مسيو مرجان أن يجيب على أسئلة القراء الذين سألوه : لماذا يحمل دائماً على مالرو وهو «مؤلف مهما يقل فيه فهو من كبار الكتاب اليساريين» . وهو يعترف بأن هذا هو رأى جمهور الناس ؛ ولكنه يزعم بأن مالرو قد حصل على هذه الشهرة لأنه فى أثناء بحثه عن المغامرات التى قد تؤدى به إلى أن يلعب دوراً هاما ، حدث أن صار يساريا لوقت ما . ولكن مالرو الحقيقى — على قوله — هو مترجم حياة ت. ا. لورنس الذى يعمل لتقليد ذلك الانجليزى ، وهو الوزير فى وزارة دى جول . ويقول مسيو مرجان أن مالرو ظهر فى ثوبه الحقيقى عندما قال لطلاب السربون فى بحث عن التقاليد : « إن المشكلة الحقيقية ليست هى نقل الحضارات فى أنواعها ، ولكن هى معرفة كيف أن كل صفة من الصفات الانسانية التى تصور كل حضارة ، قد وصلت إلينا ، وكيف صارت قيمتها لنا» . والعبارة التى أثارت سخط الشيوعيين فى هذه المحاضرة

هي : « إنه لا يهم مطلقاً أن يكون من بينكم أنتم أيها الطلاب فريق من الشيوعيين أو الذين يخاصمون الشيوعية أو أحرار أو أي شيء آخر (وأحدثت هذه الكلمات ضجة) لأن المشكلة الحقيقية الوحيدة هي معرفة ما فوق هذه الأبنية ، وبأى نوع نستطيع أن يفيد خلق الانسان من جديد . » وقد اختتم مسيو مرجان مقاله بقوله : « إنه بعد أن ظهرت هذه الأدلة على طبيعته الحقيقية لا أفهم أن يكون فى فرنسا أو فى الخارج رجل مثقف من رجال اليسار يدافع عن مالرو » .

ويقول مستر ميسون إن فحص الصحافة الأدبية الفرنسية ، التي يهب فيها النزاع حول مالرو من جميع الجهات، يدل على أن النقاد الفرنسيين لا يهتمون إلا قليلا بالقيمة الأدبية للمؤلفات ، ولما يجب من التمييز الضرورى بين المؤلف ومؤلفاته ،وبين الرسالة التى يمكن استخلاصها من ملاحظات أحد أشخاص الرواية ، والتأثير العام للرواية التى يظهر فيها هذا الشخص . فالناقد الفرنسى يلقى وراء ظهره ، إذ يأخذ فى كتابة نقده ، جميع القواعد الأولية التى لا يكون النقد باهمالها صحيحاً .

ويفحص مستر ميسون رأيين ظهرا أخيراً فى كتابين عن أندريه مالرو ، ليظهر هذا النقص فى النقاد الفرنسيين . وأحد الكتابين ألفه مسيو جايتان بيكون ، والآخر ألفه مسيو كلود موریاك .

ولقد قال مسيو موریاك فى مقدمة كتابه إنه عند ما يكتب عن مؤلف مات ، أو لا يستطيع أن يتطور بعد ذلك ، يحاول أن يجد « فكرة مركزية تبيح له وتنظم عمل المؤلف فى مجموعه» . ويظهر أن مسيو موریاك التجأ إلى هذه الطريقة فى كتابيه السابقين عن جوهاندو وكوكتو . على أنه ليس من المعقول أن عدداً من الروايات التى تؤلف مجموعة من العمل الأدبى ، يمكن أن تستخلص منها فكرة مركزية واحدة ، من غير أن تبتعد عن موضوعاتها ، ومن غير أن تخل بما فى كل منها من صفات شخصية ، هى التى تجعل لها قيمة ؛ فليس فى نسج الخيال ما يمكن تنظيمه وترتيبه على هذه الطريقة . والمحاولة لإيجاد مثل هذه الفكرة المركزية لا تنجح إلا إذا تجاهلنا ما نسميه المميزات الأساسية . ويعتذر مسيو موریاك عن كثرة الاستشهاد بعبارات مقتبسة من مؤلفات مالرو بأن ذلك يؤدى إلى استخلاص

« أسرار المؤلف واكتشافها » .

ويسائل مستر ميسون أى نوع من النقد ينتظر من مثل هذه المبادئ، وأية أسرار يمكن أن نعثر عليها ! فمثلا نرى مسيو مورياك يلاحظ أن « تشين » فى قصة « الحالة البشرية » يكرر حركة كأنه يريد أن يشوه نفسه ، فى كل مرة يقدم فيها على القتل ، والمؤلف نفسه هو الذى ينبهنا إلى ذلك. ومع ذلك يفرض مسيو مورياك أن المؤلف هو الذى يكرر ذكر هذه المسألة ، دون أن يشعر ، ويستخلص منها ما يستخلص من شذوذ جنسى فى طبيعة المؤلف ، مستشهداً بمقتبسات من رواياته من هنا وهناك . ولاريب فى أن مسيو مالرو لا يبعث على الشعور القوى بالحب الطبيعى ، ولا ينحى باللائمة فى أى مكان من مؤلفاته على الأعمال الشاذة التى توجد فى الأشخاص الذين يرسمهم . ومن الحق أن نقول إنه يصف مناظر فظيعة ، وأعمالا تقشعر لها الأبدان ، دون أن يكون لها شأن فى موضوع رواياته . ولكن الطريقة التى تبعها مسيو موريالك مما يخرج به عن النقد الأدبى .

والعجيب أن مسيو موريالك يقول إنه لا يهتم بروايات مالرو ، وإنما يهتم بكشف أفكار مالرو الداخلية ، وهذا النوع الكريه من النقد هو دائماً من صفات النقد الفرنسى .

أما مسيو بيكون فهو يبتدئ أيضاً ببيان القواعد التى سيستعملها فى نقده؛ وهو يدافع عن النقد الذى يتناول الأحياء من الأدباء ، ويرى أن الواجب الأول على الناقد الحقيقى هو الاهتمام بأدب عصره . وهو يتهم المعاصرين من النقاد بالخوف والعبودية . وهو يلاحظ ، وفى ملاحظته الكثير من الصدق ، أن أكثر الكتب الباحثة فى الأدب المعاصر إن هى إلا غابة من الأسماء لا تظهر فيها محاولة للتمييز بين الغث والسمين ؛ وإذا تكلم ناقد عن أديب معاصر فهو يفعل ذلك من أجل الصداقة لا من أجل الحكم له أو عليه .

ويقول مسيو بيكون إن جيل مالرو يتضاءل إذا قورن بجيل بروست وبجى وكلوديل وابوللينير وجيد وفاليرى .

ويلاحظ مستر ميسون عرضاً ، أنه قد حان الوقت لاعادة تقدير هذه الأسماء الشهيرة بميزان جدى .

ويرى بيكون أن مالرو ليس فناناً ، ومع ذلك فهو أكبر كاتب فى عصره . وهو يقول إنه لا يستطيع الحكم على روايات مالرو حكما منزها ؛ ومع ذلك فهو لايسلم لمالرو تسليما كاملا . فهو يرى فى مالرو ما رآه جيل

سابق فى جيد ، أى « إننا لا نستطيع اختيار طريقنا دون أن نحسب حساباً لطريقه » . والحقيقة أن مسيو بيكون يلجأ فى تقديره إلى العاطفة أكثر مما يلجأ للنقد الصحيح . فهو يبرئ مالرو من تقلبه بين الشيوعية وبين ديجول بقوله : « ليس من الولاء . . . أن نفصل بين مالرو وأولئك الذين يريد أن يتحد معهم » . وهو لا يفهم لماذا كتب فرنسوا مورياك فى يومياته « إن نقطة الضعف فى مالرو أنه يحتقر الانسان » ولا يحاول تفسيراً جديداً للروايات الأولى التى يظهر فيها صحة هذا القول .

ونتيجة هذه النظرة البعيدة عن النقد ، أنه يتبع التأكيدات الغامضة باعترافات خطيرة . فهو بعد أن يكتب الصفحات عن الاخوة والرجولة فى موضوعات قصصه ، يعود فيقول « إن مالرو فى الواقع لا يشعر شعوراً قويا نحو الفرد ولا نحو الجمهور » .

ومن صفات هذا الاتجاه العاطفى أن يحل بريق العبارات محل النقد . وهذه صفة يتصف بها الكثيرون من النقاد الفرنسيين الذين يكتبون فى المجلات والصحف الأدبية .

ويتناول مستر ميسون جوانب من أقوال مسيو بيكون ليظهر فيها كيف أن هذا الكاتب يتذبذب فى رأيه نتيجة لسلوكه الطريقة العاطفية ، بدلا من اتجاهه نحو النقد الصحيح .

فهرس المجلد السادس

يونيو — سبتمبر ١٩٤٧

كتب معربة

عدد ٢٣ [أغسطس ١٩٤٧]

زديج أو القضاء لفولتير

ترجمة طه حسين

عدد ٢٤ [سبتمبر ١٩٤٧]

هيروشيما لجون هرسى

ترجمة حسن محمود

دراسات أدبية

دراسات فلسفية

دراسات اجتماعية واقتصادية

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

دراسات فنية

---

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين .

(١) *The Reconstruction of Holland*, by Henry Baerlein

(٢) Hilde Zaloscer, *L'art nomade*

دراسات علمية

قصص

شعر

من هنا وهناك

---

(١) Stefano Terra, *La licenza*

(٢) Stefano Terra, *La ferita nel ventre*

شهرية السياسة الدولية

شهرية المسرح

شهرية السينما

شهرية العلم

شهرية الاجتماع

من كتب الشرق والغرب

---

(١) Etiemble, *La vie quotidienne du temps des Ramsès*
(٢) Etiemble, *La patrie se fait tous les jours*

من وراء البحار

ظهر حديثا

فى مجلات الشرق

فى مجلات الغرب





مِن حَولنا

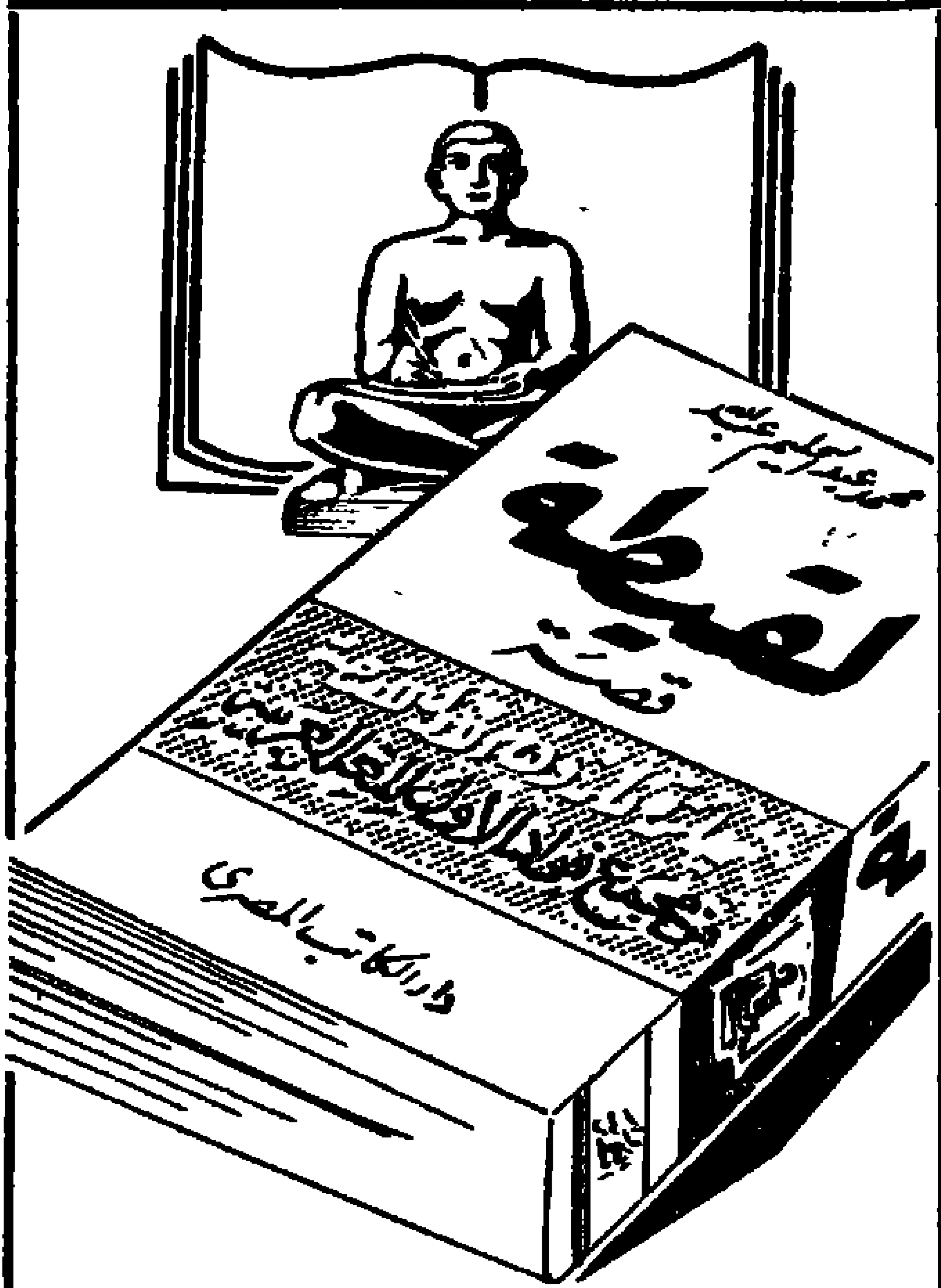
قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

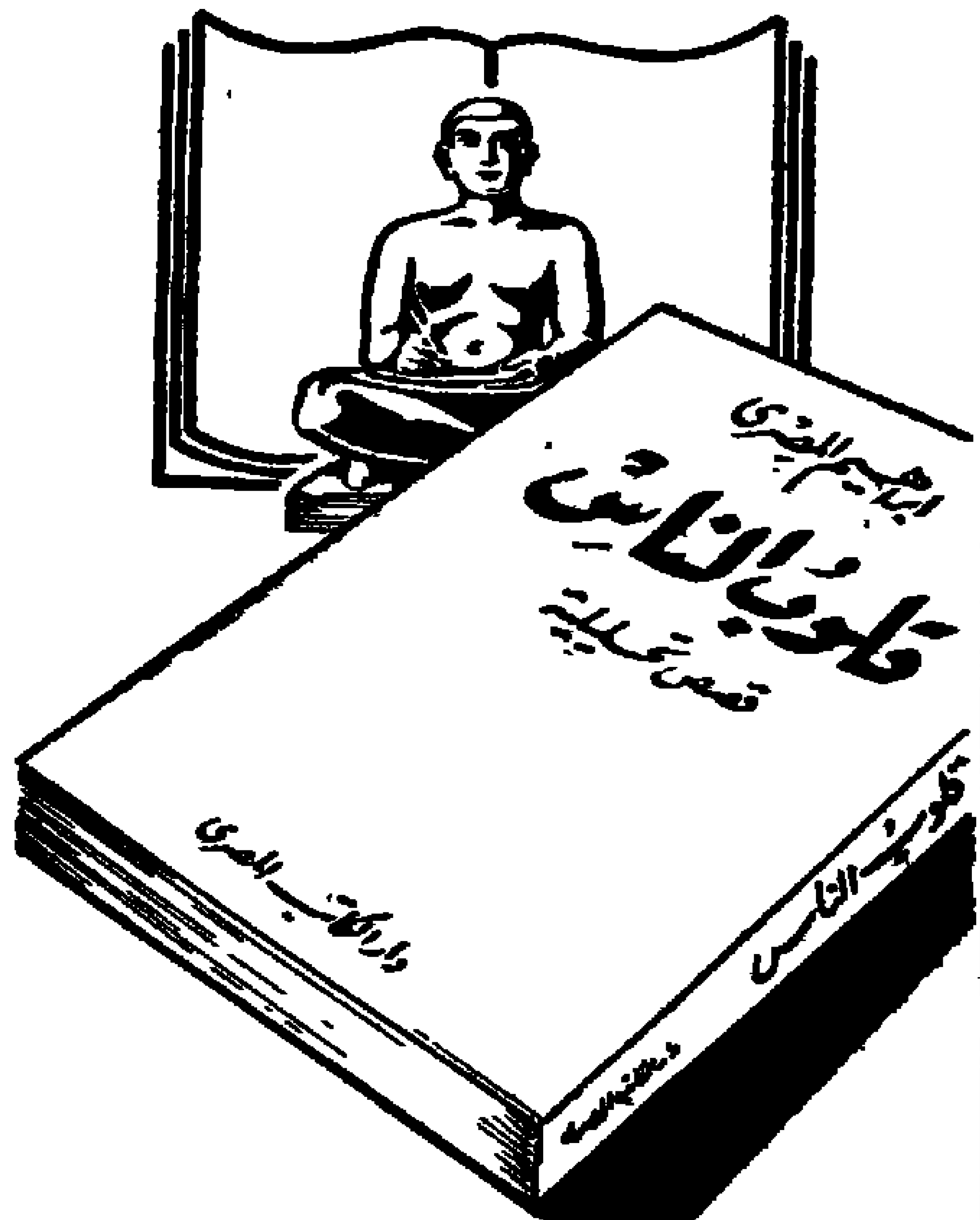
٢٦٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)



٢٥٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



١٤٤ صفحة

الثمن ١٥ قرشاً (البريد ١٨ مليما)

قلوبُ الناسِ

قصص تحليلية

تأليف إبراهيم المصرى

قصص جديدة للكاتب المعروف

إبراهيم المصرى

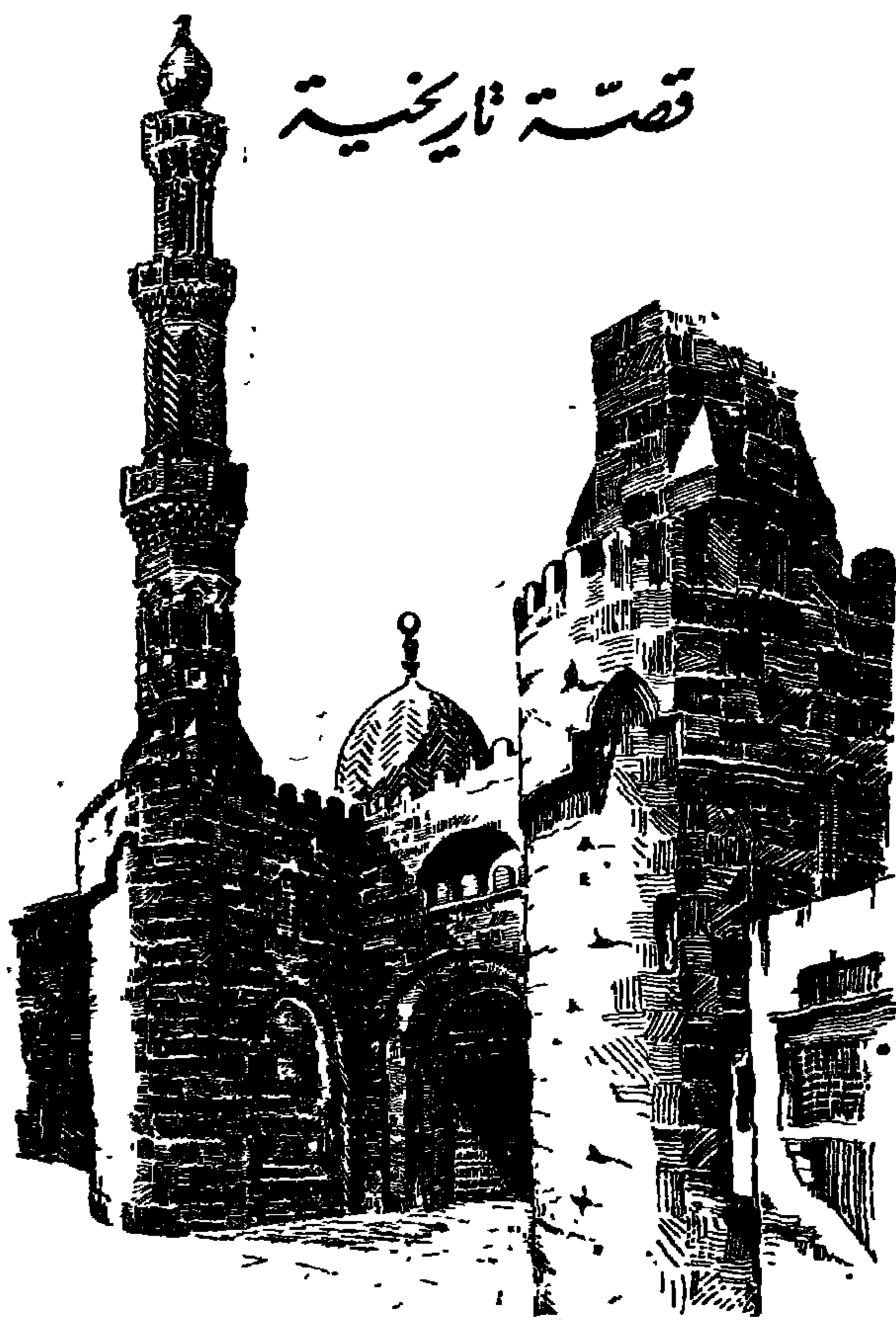
يصور فيها بيئتنا المصرية الحديثة

فى أسلوبه السهل الجذاب

محمد سعيد العريان

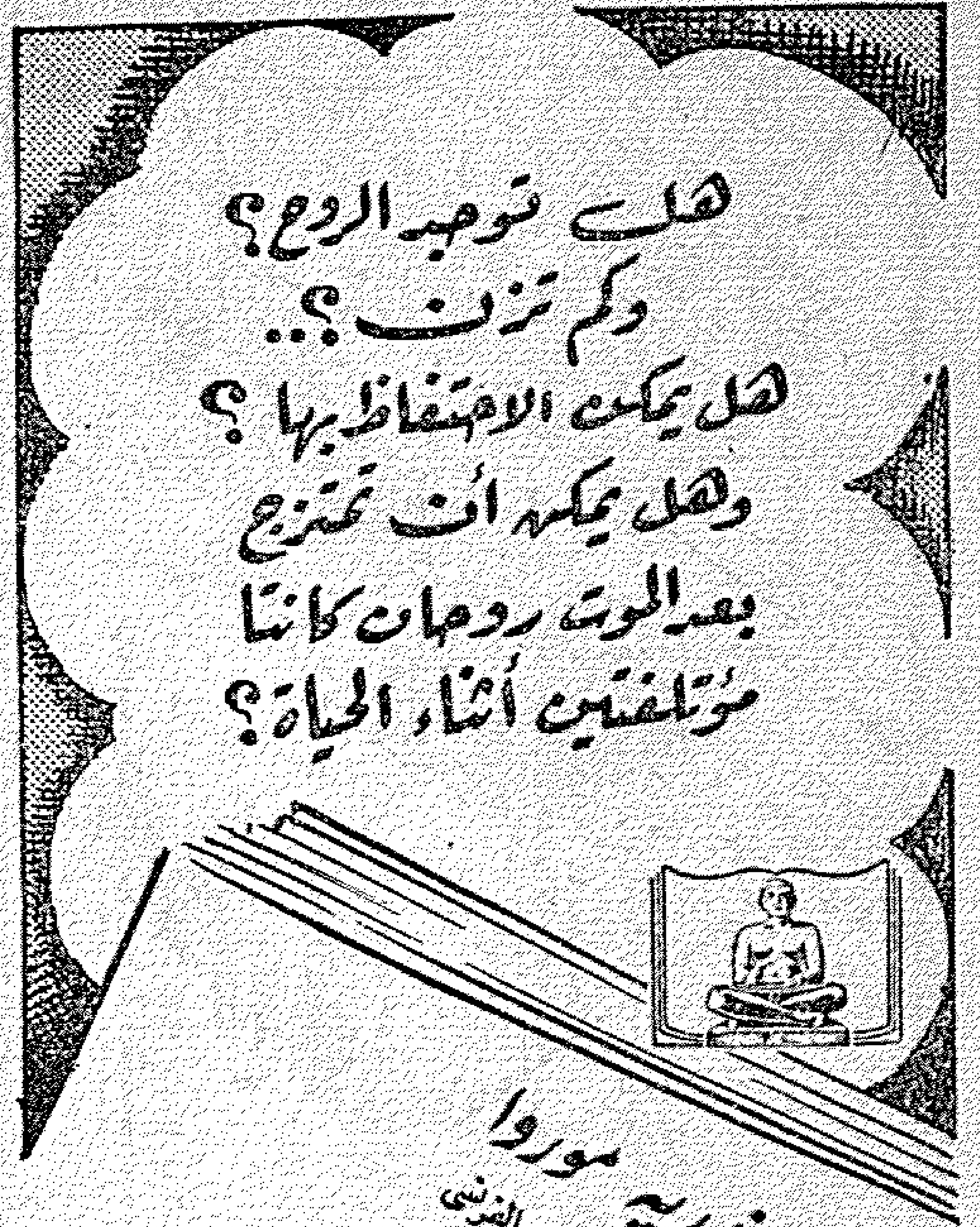
على باب زويلة

قصة تاريخية



كتاب رائع بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأصدقها فى وقت واحد
كتاب من هذه الكتب النادرة التى تظهر بين حين وحين

٣٥٠ صفحة ، طبعة مزينة بالصور　　الثمن ٣٠ قرشاً　　البريد ٢٨ مليما

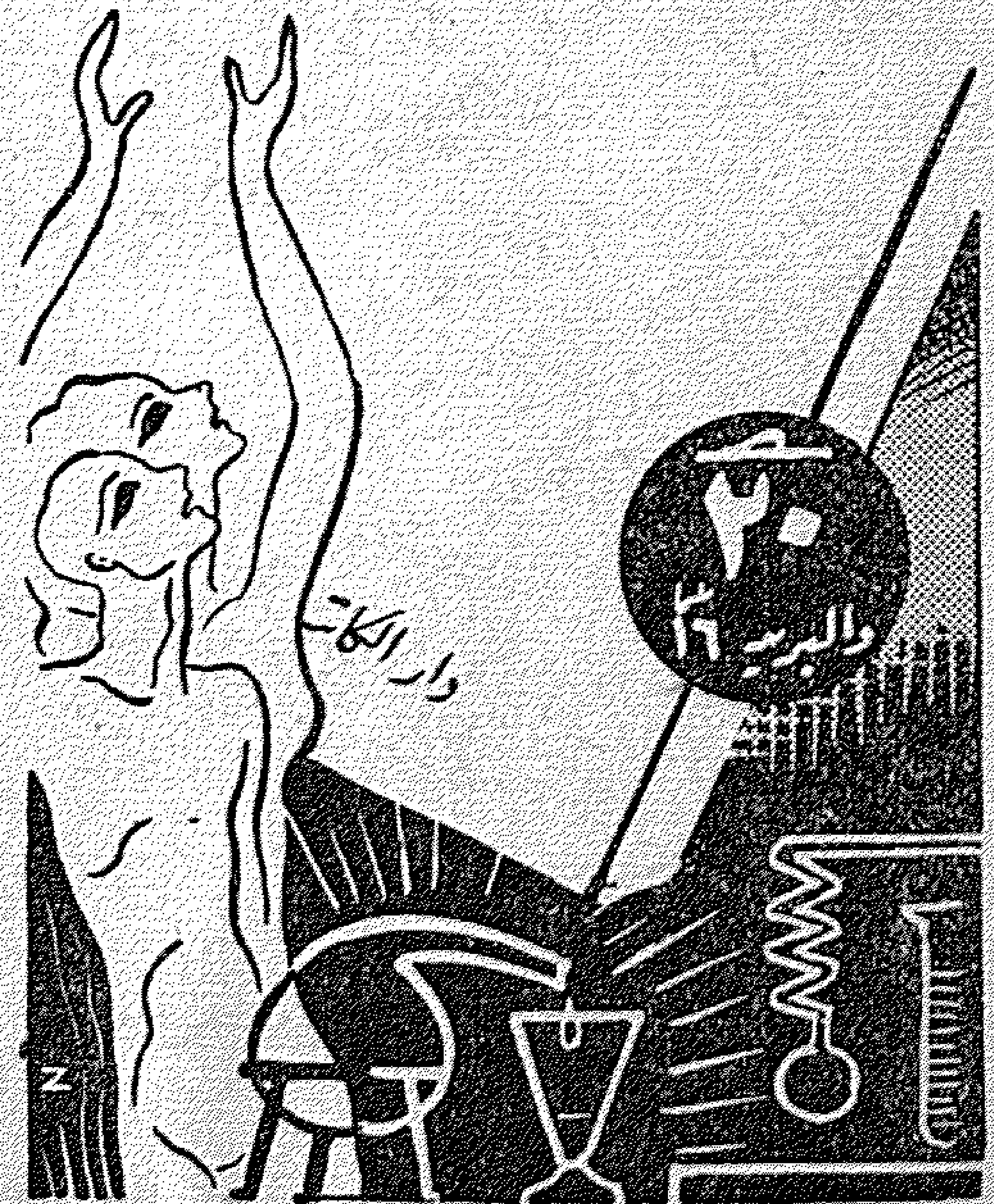


اندريه موروا

عضو المجمع اللغوي الفرنسي

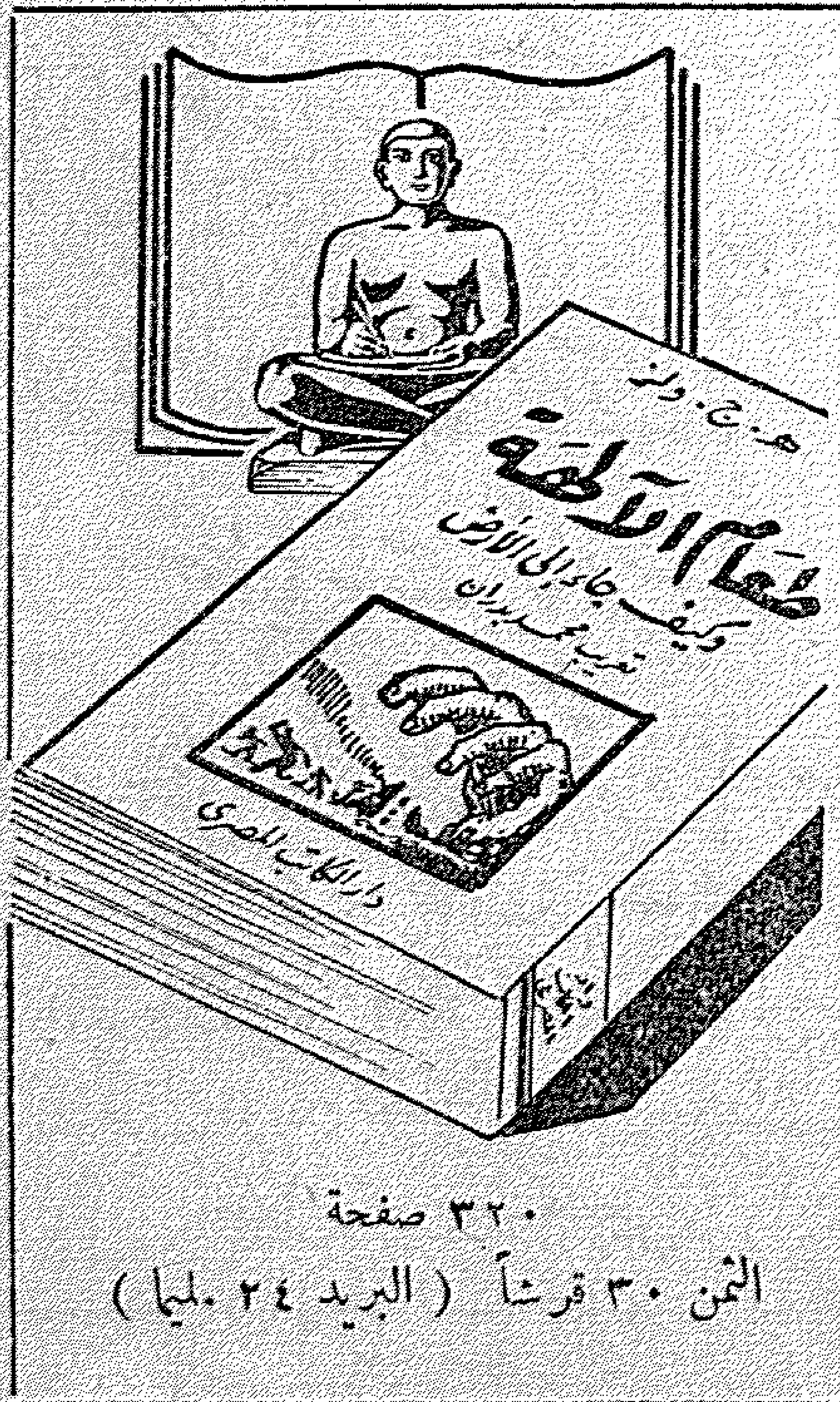
وزن الأرواح

تعريب عبد الحليم محمود



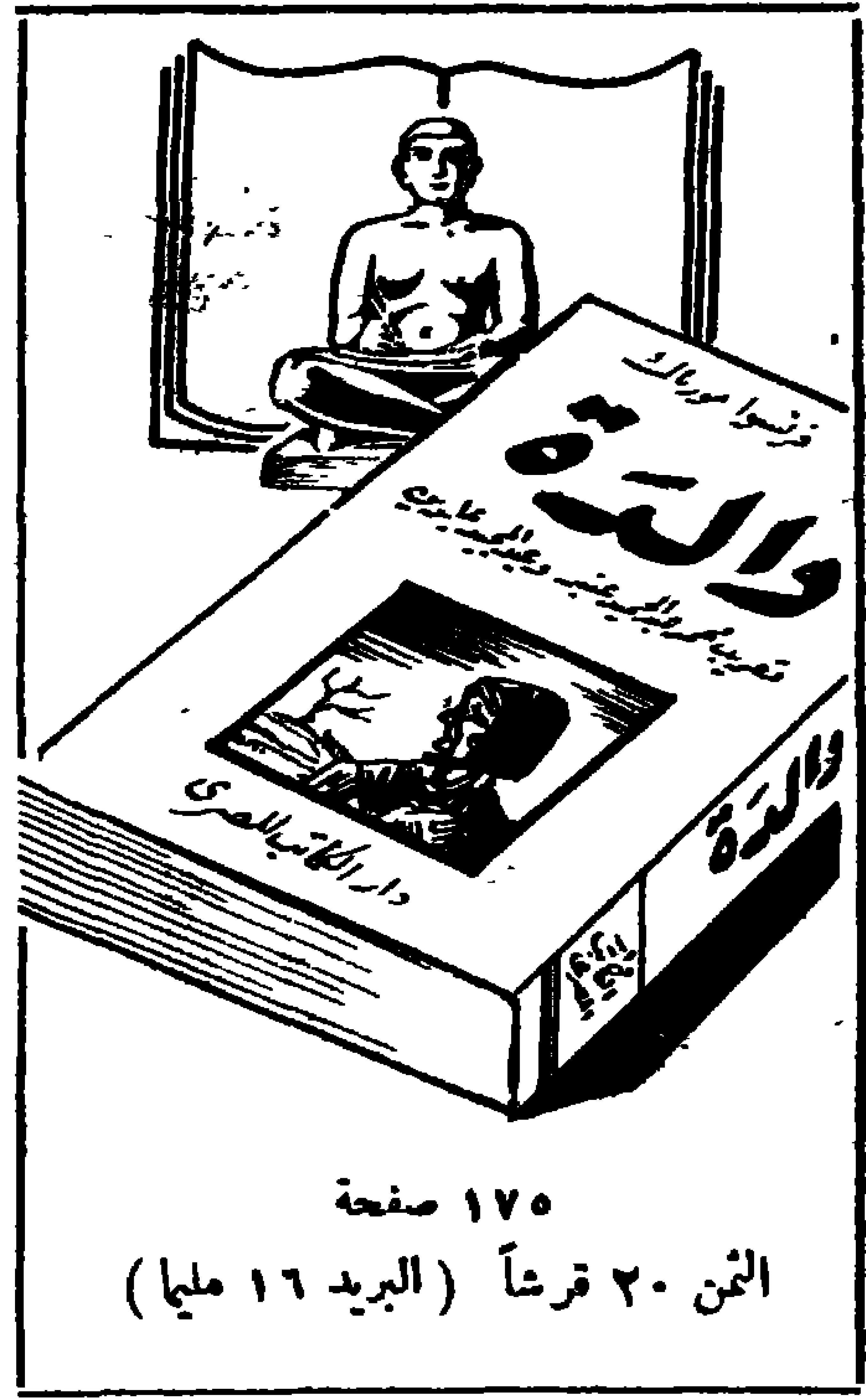


ثمن الجزء ٣٠ قرشاً (بريد الجزأين ٤٠م)



٣٢٠ صفحة

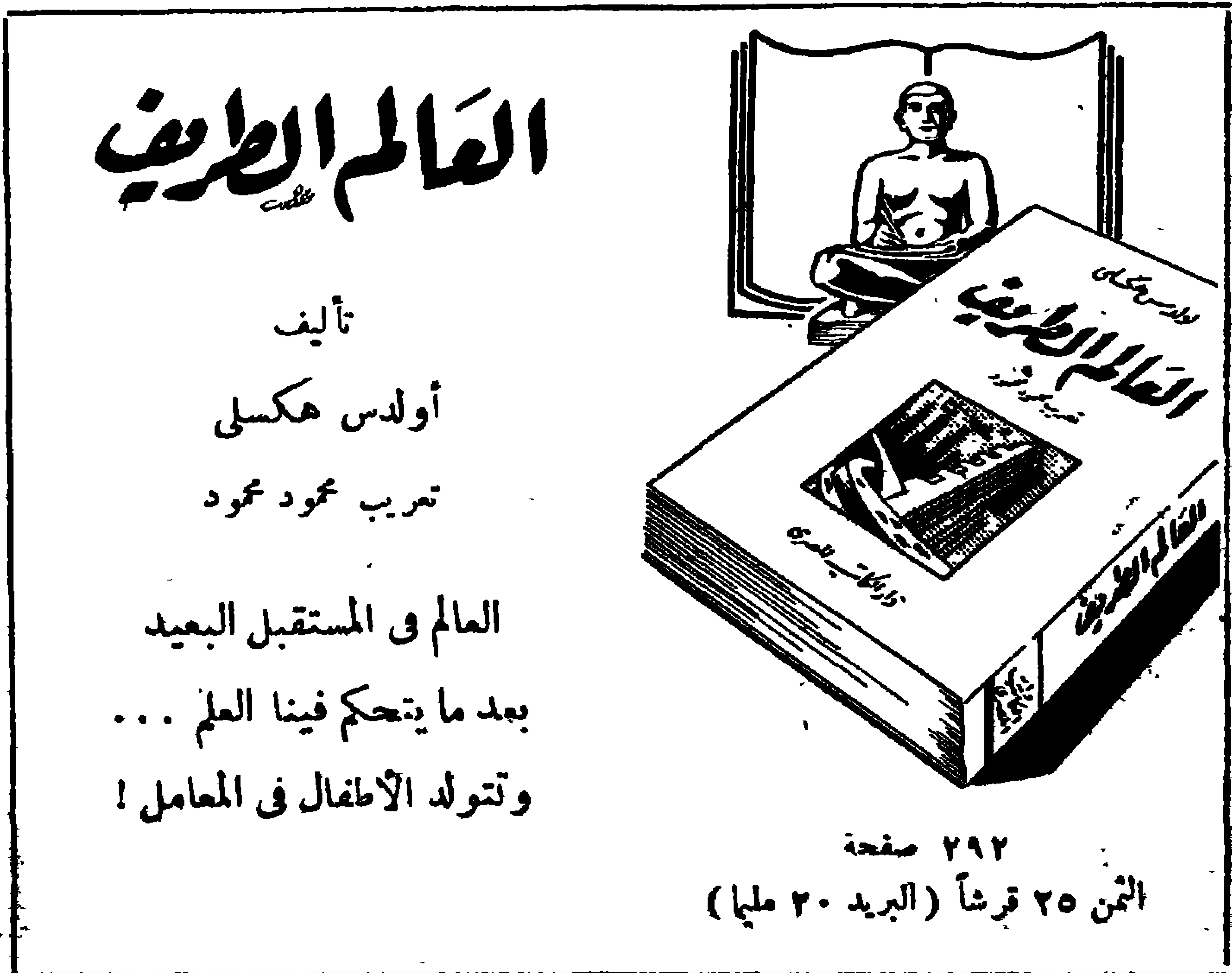
الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



والدة
دار الكاتب المصرى
١٧٥ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



كولومبا
١٢٨ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)



العالم الطريف
دار الكاتب المصرى
٢٩٢ صفحة
الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)
العالم الطريف
تأليف
أولدس هكسلى
تعريب محمود محمود
العالم فى المستقبل البعيد
بعد ما يتحكم فينا العلم . . .
وتتولد الأطفال فى المعامل !

كتاب يعد فتحا جديدًا فى الأدب

أرض البشر

للكاتب الطيار انطوان دى سانت اكسوبرى

رائد من الرعيل الأول
للطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف،
يصلنا بالآفاق الشاسعة
ويضعنا فى صميم الخطر
وفى صميم العمل.

انطوان دى سانت اكسوبرى
أرض البشر
تعريب مصطفى كامل فوده
دار الكاتب المصرى

تعريب مصطفى كامل فوده
طبعة مزينة بالصور



٢٥
والبريد ٢٠ مليمًا

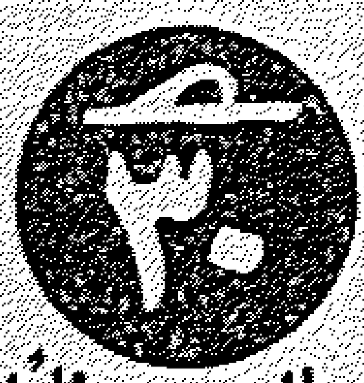
آية فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد



صراع بين الإثم والضمير

صورة تهرم بينما صاحبها
محتفظ بشبابه

نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
في مزاج من الهزل والجد



والبريد ٤ مليما











مظهر آخر لفن اوسكار وايلد

مغامرات شبح يجول في ابهاء قصر عتيق
موازنة بين العقل الإنجليزى
المحافظ والعقل الأمريكي المجدد.
قصة فكاهية مرحة